٥٨ صفحات من تاريـخ مصر

lisanarabs.blogspot.com

تاريخ البعثات المصرية إلى أوروبا في عصر محمد على

د. عبد الحكيم عبد الغنى قاسم

الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

lisanarabs.blogspot.com

تم تحميل هذا الكتاب من
مكتبة لسان العرب

https://lisanarabs.blogspot.com

مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com

تاريخ البعثات المصرية إلى أوروبا

« عصر محمد علي »

الكتاب : (٥٨) صفحات من تاريخ مصر
تاريخ البعثات المصرية إلى أوروبا
عصر محمد علي
تأليف : د. عبد الحكيم عبد الغني محمد قاسم
الطبعة الأولى عام : ٢٠١٠
الناشر : مكتبة مدبولي ٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة
تليفون : ٢٥٧٥٦٤٢١ – فاكس : ٢٥٧٥٢٨٥٤
البريد الإلكتروني : www.madboulybooks.com
Info@madboulybooks.com
رقم الإيداع : ١٦١٧/ ٢٠١٠
الترقيم الدولي : 8 -839 -208 -977

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر .

lisanarabs.blogspot.com

(٥٨) صفحات من تاريخ مصر

تاريخ البعثات المصرية إلى أوروبا

« عصر محمد علي »

دكتـور

عبد الحكيم عبد الغني محمد قاسم

الناشـر

مكتبة مدبولي

2010

lisanarabs.blogspot.com

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

صدق الله العظيم

[التوبة : ١٠٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين "محمد بن عبد الله" وعلى آله وصحبه وبعد،،

يبدو عصر محمد علي ليس عصراً عادياً من العصور السابقة له في التاريخ وإنما هو عصر حركة ونشاط دائمين ففي الخارج حروب وتوسعات وانتصارات وفي الداخل حياة جديدة مملوءة بالتيارات الاقتصادية والعلمية والاجتماعية والحربية، ولذا احتل عصر محمد علي مكانة عظيمة وبارزة في تاريخ العالم العربي والعالم الأوروبي وخير ما يبدو على ذلك التحركات الأوروبية على حدود مصر والعدد الضخم من المراسلات والمكاتبات والرد عليها وفقاً لتقاليد وقواعد الحكم المصري وقتئذ.

لقد كان عصر محمد علي من الأهمية البالغة بالنسبة إلى تاريخ مصر والعالم العربي من ناحية ومن ناحية أخرى له أثر كبير في تاريخ الحضارة المصرية والنهضة القومية العربية في أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر. ومن ناحية ثالثةإن المكتبة العربية للأسف يوجد بها كتب كثيرة لهذا العصر لكنها لا تعطينا صورة واضحة عن مدى الترابط العربي الإسلامي.

وإذا نظر مؤرخو العالم كله إلى ذلك العصر العلوي وتمثل ما فيه من آيات البطولة التي بذلتها الدماء المصرية المخلصة في الدفاع عن المقدسات الإسلامية والنهضة العربية ضد الأخطار الكبرى التي هددته بها الدول الاستعمارية وما زالت المواقع

البحرية التي خاضها الأسطول المصري في اليونان وفي الجزيرة العربية وفي السودان وفي بلاد الشام، في التاريخ الحديث تنطق بالبطولة والشجاعة والفداء والقدرة على التخطيط الحربي وكسب الانتصارات.

ولا ننسى أن عصر محمد علي كان عصر نشاط علمي خصب ظهر صداه وأثره في مصر وبلاد الشام وأقبل الناس عليه إقبالاً منقطع النظير في التعليم والتأليف وليس في مقدورنا نشر مئات الكتب والمخطوطات التي ألفت في ذلك العصر في مختلف ألوان المعرفة والتي تكتظ بها دور الكتب ودور المحفوظات في العالم.

ولذا يعد عصر محمد علي من الأهمية البالغة بالنسبة إلى تاريخ مصر وتاريخ العالم العربي واليقظة العربية التي اجتاحته ودمرت العزلة العثمانية المظلمة المفروضة عليه...

وكتاباتي عن هذا العصر بعد دراسة مستفيضة للوثائق التاريخية في داري المحفوظات بالقلعة وتركيا والكتب والمراجع والرسائل العلمية التي نال أصحابها درجات علمية من الجامعات المصرية والأوروبية، بعد إبعاد ما هو موجود فيها من المبالغة ومن النقد غير الموضوعي. أن أقدم كتابي هذا " تاريخ البعثات المصرية إلى أوروبا في عصر محمد علي" ولم أجعل كتابي مقصوراً على عنوانه وإنما أردت أن يشمل جميع الأحداث التاريخية لمصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وقد وفقني الله أن استكمل بعض جوانب النقص التي سقطت سهواً من مؤرخي العصر الحديث.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يسدد خطانا جميعاً لصالح مصر الحبيبة إلى قلوبنا. ونسأله التوفيق في أعمالنا المخلصة لوطننا العزيز وأن يأجرنا أجراً حسناً في الآخرة والله الموفق.

دكتور

عبد الحكيم عبد الغني محمد قاسم

الباب الأول

مصر في مفترق الطرق

الفصل الأول

الحياة العامة في مصر
خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

يطلعنا المؤرخ المقريزي في كتابه «السلوك» على تعرض عواصم الأقاليم المصرية كالإسكندرية وأسيوط ودمياط ورشيد لعمليات السَّلب والنهب. حتى حجاج بيت الله الحرام لم يسلموا من هذه العمليات وهم في طريقهم إلى الحجاز عبر الصحراء الشرقية.. وظلت الأوضاع كما هي طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر مصدرًا خطرًا من مصادر القلاقل وعدم الاستقرار هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بدت منازل المدن المصرية الكبرى متلاصقة دفاعًا عن حياتها العامة من العابثين، كما ظهرت الشوارع فيها ضيقة لكثرة سكانها ومما يستدعي الانتباه تواجد الباعة الجائلين في الطرقات وكثرة وسائل الانتقال كالدواب والخيول بركابها الذين يركضون بها وسط الدروب والأسواق المكتظة بالسكان ويشقوا طريقهم غير مبالين إذا سقط سيء الحظ من الناس تحت حوافر الخيل والجمال فتكون نهايته أو إصابته بعرج يفقده التحرك مدى الحياة.

وهناك الكثير من السقاة الذين يحملون القرب الجلدية على ظهورهم لإمداد الناس بالمياه خاصة في المنازل وقد ذكر لنا أحد الإحصائيين وهو البلوي المغربي أن عدد الجمال التي تجوب الأسواق والحارات والشوارع يومياً في القاهرة يتراوح بين ٥٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ جملاً وأن عدد السقائين بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠٠ ألف سقاء قد سجلوا

أسماءهم لدى المحتسب في تسديد ما عليهم من ضرائب للحكومة مقابل الحصول على كميات من مياه النيل أما عدد وسائل النقل من الحمير قد بلغت أعداداً وفيرة يركبها سكان القاهرة لقضاء حاجاتهم وسفرياتهم خارج المدينة.

كما أعطانا أحد التجار إحصائية عن عدد شوارع القاهرة بلغت ٤٠٠٠ شارع ودرب، ولكل منها بابان وحارسان ويوجد في كل شارع من هذه الشوارع سوق محلية لإمداد سكانه بما يحتاجوه لحياتهم اليومية.

وأهم ما هو موجود في أهم شوارع القاهرة وجود أعداد كثيرة من الوكالات لاستقبال التجار وبضائعهم، ووجود الحمامات العامة التي تختص بالرجال والنساء وبالنسبة إلى الحمامات فطرازها واحد تقريباً ومتشابهة في مظهرها، الواجهة مزركشة باللون الأحمر والأبيض والداخل يتكون من عدة غرف وأرضها مرصوفة بالرخام، يوجد ممران في حمام النساء وله بهو فسيح أو غرفة للاستحمام وغرفة للراحة حيث تخلع النساء ملابسهن قبل الدخول إلى الغرف الساخنة وهو نفس المكان الذي يلبسن فيه ملابسهن بعد الاستحمام ويخلدن إلى الراحة على مكان مرتفع يطلق عليه "مصطبة" أو مقعد طويل عريض من الرخام يغطى بالحصر والسجاد وتوجد في وسط البهو نافورة من الماء البارد تعلوها قبة.

ويوجد العديد من هذه الحمامات في المدن الكبيرة مثل الإسكندرية ودمياط ورشيد، وفي الصعيد نادراً فأحيانًا لم نجد إلا حمامات للرجال فالنساء الصعيديات لا يقبلن على الاستحمام في حمامات عامة إنما يستحممن في منازلهن.

حمام تركي للحريم

وتلعب المرأة دوراً هاماً في الحياة العامة المصرية فهي تخرج إلى الأسواق العامة تمتطي حماراً لا ترى غير وجهها لتشتري لوازم واحتياجات بيتها وأولادها. وفي الحقيقة ترى النساء يمتطين الحمير بطريقة غريبة.

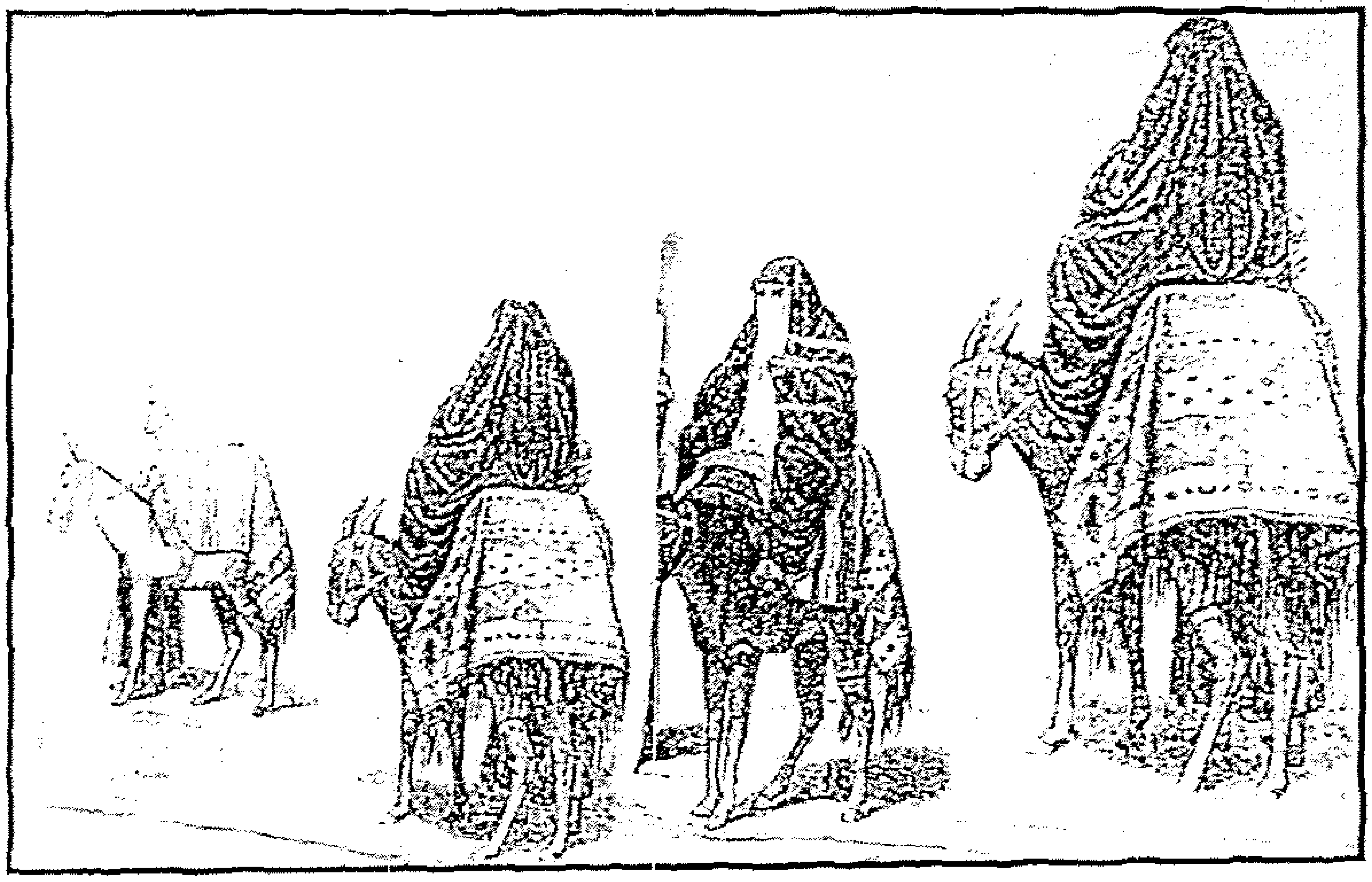

هذه كوكبة من النساء يمتطين الحمير في طريقهم إلى الأسواق

ولم توجد وسيلة للرجال للتسلية إلا الجلوس على المقاهي العامة التي تملأ بعض الشوارع والحارات بأن يلتقوا جماعات في المقهى للتحدث عن متاعبهم اليومية وعن وسائل نجاحهم وكيفية الحصول على قوت يومهم، وعن أولادهم والحديث هذا يبدو فيه مظهر للتفاخر والظهور بمظهر أفضل من واقع حياتهم، لكن ليس من كرامة الرجل أو من اللائق أن يذكر شيئاً عن زوجته في حضرة رجال غرباء.

وعادة كان يبدأ موسم الزواج عند الشباب المصري سواء في المدينة أو القرية في موسم الفيضان، وعند اختيار الزوجة يشترط زوجها على أهلها أن تكون راضية عنه وعن أهلها. فالفتاة التي تتزوج تثق تماماً في اختيار والديها لزوجها بشرط أن يكون حسن المظهر، دمث الأخلاق ويوافق في آرائه الدينية مع آراء أسرتها وأن تكون نظرته إلى الحياة الزوجية نظرة العارف بعادات زوجته. وعلى الزوجة أن تقدم لزوجها

الإخلاص لا يضاهيه أي إخلاص في حياتها فهي تحب زوجها أكثر من أهلها. ويصر الزوج أن يرى من زوجته كل الدلال والحب الصادق العطوف، وليس من المستبعد أن يخطب الرجل زوجته من طبقة أقل من طبقته بشرط أن تكون صغيرة في السن كما ليس من المستبعد أن تتزوج الفتاة من رجل كبير السن أو عجوز بشرط أن يكون لديه الأموال والمتاع الذي يغري الأسرة والفتاة.

وعند قبول الأسرتين تمام الزواج تقام احتفالات سواء دينية أو غنائية حيث يتجمع أهل العروسين في ساحة واسعة في الشارع الذي يوجد فيه منزل أي العروسين، وتكون إضاءة الساحة بمصابيح زينة مثبتة على قضبان حديدية يصل بينهما حبال، وهناك منصة خصصت للرجال حيث تقام بعض الألعاب النارية والاستعراضية تسر المدعوين، ثم يقدم سماط للمدعوين به أنواع من الأطعمة والحلويات لهم، ثم بعد ذلك يتم عقد الزواج وسط موسيقى صاخبة بالطبل والمزمار، وينتظر المدعوون وصول العروس ويصور لنا المقريزي موكب العرس بأن يصحب موكب العرس الذي تسير فيه العروس المنتقبة الملتفة بشال عريض تحت مظلة من الحرير وعلى جانبيها امرأتان وأفراد العروس من النساء ويعبرن عن سعادتهن بأداء رقصات.

هناك الأطفال من الجيران الذين يشاركون أيضاً في الهرج والمرج في مؤخرة الموكب. وفي الحقيقة أن العروس تكاد تختنق دون ريب وهي تسير لمسافة قد تطول أحياناً على قدميها في الجو الحار، وربما تكون في حالة تشبه الإغماء، تسير العروس وأمامها الراقصات وحولها بعض الآلاتيه يدقون الطبول وينفخون المزامير حادة الصوت فتخرج أصواتاً تعتبر موسيقى وفي الوقت نفسه تطلق النساء المرافقات الزغاريد.

أما في قرى مصر فتجلس العروس على هودج محمول على جمل يسوقه رجل من الأمام وخلفه رجال من أهلها.

وينتهي هذا الزفاف عند وصول العروس إلى دار العريس ويأتي العريس وسط كوكبة من الرجال تصحبه أغاني دينية أو أغاني حب مع الطبل والرقص، وعند وصولهم الدار يلتقي العروسان في غرفة النوم المعدة للزواج وبعدها يتفرق الجميع سواء النساء أو الرجال إلى منازلهم.

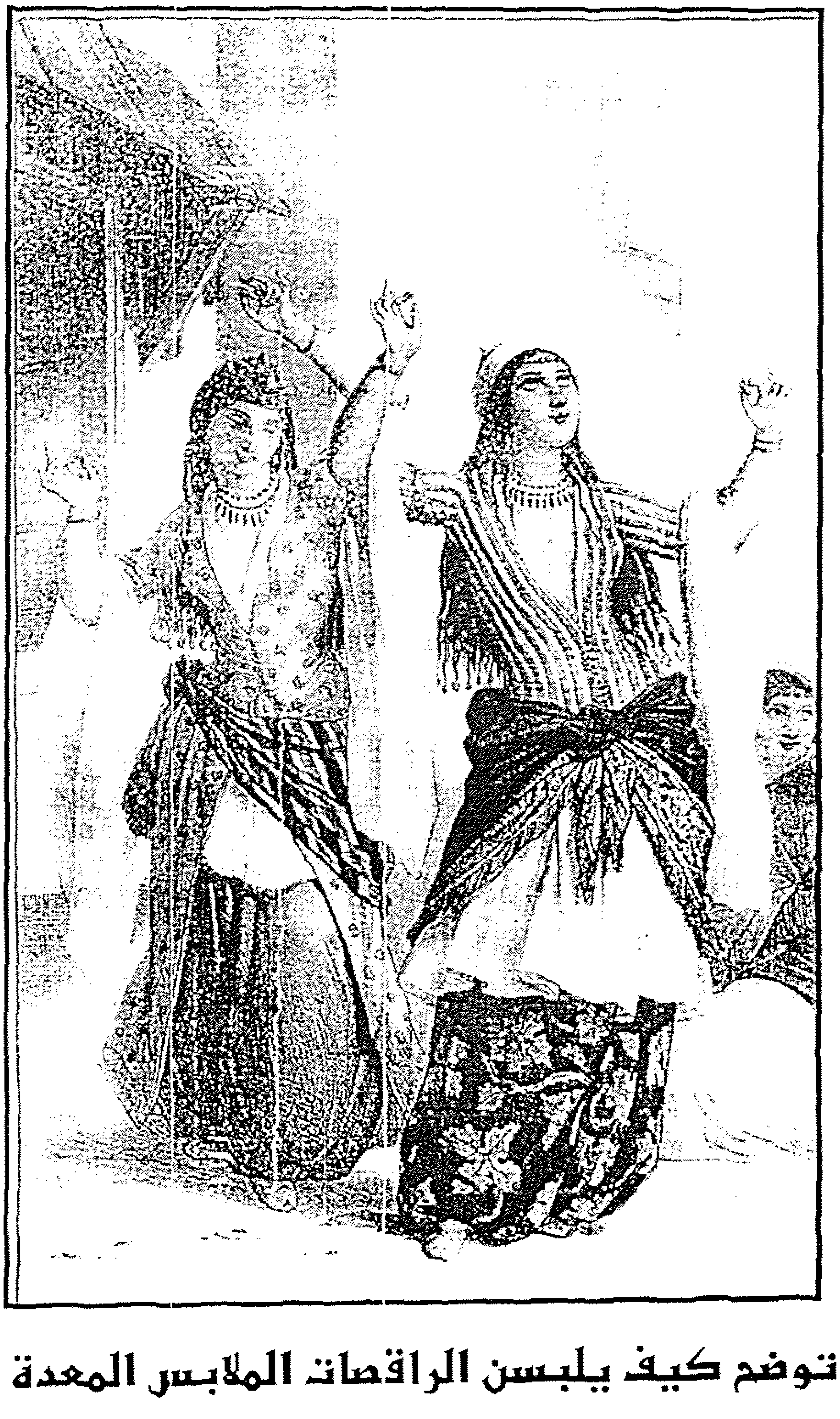

صورة توضح كيف يلبسن الراقصات الملابس المعدة للرقص وطريقة الرقص عندهن

وفي حالات الوفاه ترى الموكب الجنائزي يملأ النفس حزناً شديداً إذ تحمل جثة الرجل المتوفى على الأعناق في نعش مفتوح بدون غطاء عليه شال يظهر من تحته الجسد بوضوح أما جثة المرأة فتحمل في نفس النعش يغطيه أيضاً شال، كما يغطي شال آخر قطعة قائمة من الخشب يعلوها بعض ما تزين به المرأة غطاء رأسها وجثث الأطفال تحمل هذا المنعوش.

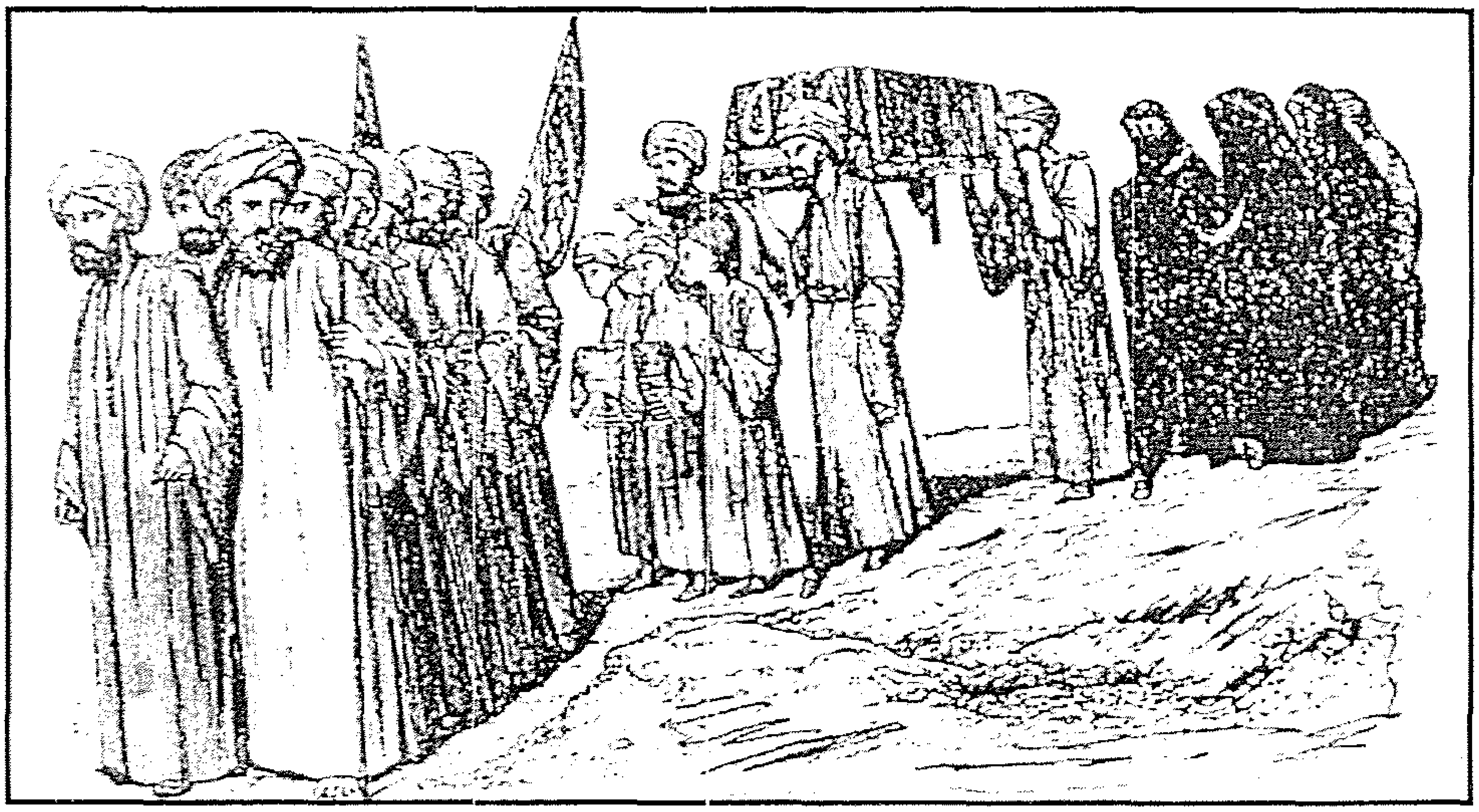

مرض الطاعون في مصر:

أصيبت القاهرة في فترة حكم المماليك بمرض خطير سبب الخوف لجميع سكانها وأكثر حالات الإصابة كانت في مدينة المنصورة، وذهب بعض المسؤولين إلى المنصورة لمعرفة أسباب تفشي هذا المرض-الخطير في تلك المدينة ومعرفة إذا كان هذا المرض معدي أم لا.. فاختاروا بعضاً من الناس بعد أن دفعوا لكل واحد منهم قرشاً على أن يلبسوا ملابس أولئك الذين توفوا. وكان القرش له قيمة كبرى لسد حاجات أسرة كاملة لمدة شهرين، ولذلك تدفق عدد كبير من الفقراء إلى المسؤول يطلبون في شيء من الاستعطاف أن يسمحوا لهم بخوض هذه المغامرة في نظير هذا القرش لحاجتهم

إليه... وجاءت النتيجة أن أحداً لم يمت من هؤلاء الذين لبسوا ملابس المتوفين. ولم يكن مرض كافة من آفات ثلاث منها القرح ونوع من مرض الطاعون الذي قضى على أعداد كبيرة من الماشية أما المرض الثالث وهو آفة الجراد أكثر ضراوة، فالجراد التهم بشراهة المحاصيل الزراعية وقد قاومه الفلاحون بشتى الوسائل وإشعال النيران حتى يتساقط الجراد ويموت. ولم يكن المرض الذي أصاب المصريين وحده ولا أكل المحاصيل الزراعية ولا الموت الذي حصد الماشية لكن هناك آفة أخرى وهي الفقر الذي معظم سكان مصر وقتئذ كانوا يعانون منه ويتطلعون إلى من ينقذهم من ذلك بعد أن عجز متوسطو الدخل وهم قلة من الشعب المصري فلا يملكون أن يمدوا أيديهم لمساعدة إخوانهم الفقراء الذين يمثلون أغلبية فاضطر هؤلاء أن يجوبوا الشوارع بحثاً عن لقمة خبز تسد جوعهم ولم تكن المدن أكثر من القرى ففي القرى كثرت أعداد الفقراء بدرجة مخيفة وفظيعة، وكثر الشحاذون والمكفوفون أمام المساجد والجوامع لعل وعسى تمتد أيدي الإحسان والعطف إليهم...بالغ المماليك في ظلم واضطهاد الناس في المدن والقرى واعتبروا الفلاحين رقيقاً لأرضهم ليس لهم حقوق عندهم، بل كان المماليك يقطنون في منازل تحيط بها البساتين من كل جانب وامتلكوا أثواب النعيم والرفاهية بل امتلك الفقراء دوراً لا سقف لها. لذلك ساءت أحوال مصر الاجتماعية. أما الناحية العلمية والأدبية فقد تأثرت أيضاً كغيرها وصار العلم في نظر الناس مقصوراً على الأزهر، والعلم الأزهري مقصوراً على حفظ القرآن وتفسيره والعلوم الشرعية والمنطق والجدل وعلم الكلام.

وظهرت طائفة من المشـايخ تجيد كتابة النثر وتقول الشـعر الركيك وكله كلام لا أثر فيه للمعاني المبتكرة أو العواطف النفسية والإنسانية وتعالت صيحات الفقراء وهي صيحات الآلام. وما العمل ؟ وهل يعانون الآلام المفاجئة والأوجاع الطارئة؟ ما هذا الصداع الذي يهد كيانه بمطرقته الثقيلة؟! وربما يغمى عليه ويسقط من طوله على الأرض كومة واحدة؟! ما الذي أفقده البصر وما الذي أقعده؟

جانب من بيوت بعض الأعيان ..في القاهرة

كانت حياتهم فراغاً قاتلاً ليس لديهم ما يشغلهم للمحافظة على أنفسهم من هجمات الطبيعة القاسية خصوصاً أنهم كانوا يجهلون مسببات الظواهر الطبيعية، ولذلك فإنهم كانوا يعتبرونها أشياء خارقة للطبيعة، كان بعضهم يعتقد أن اضطراب القوى الحيوية أو ركودها في جسدهم ما هو إلا أرواحاً غريبة أو عفاريت أو سحر فما ذا ينجيه منه ولو ارتفع إلى أطباق السماء على جذوع الشجر وفروعها أو غاص في الماء حتى الأعماق أو اختبأ في أظلم المغارات والكهوف. إن الأرواح الغريبة والعفاريت والسحر كانت تلازم أفكاره فهي في نظره تهدده في الطعام الذي يأكله، وفي الماء الذي يشربه، وفي الهواء الذي يتنفسه ولهذا فإنه كان في غاية الحذر. حقاً إنها لهموم شاقة ولابد من مجن ووقاية تقيه كل هذا!.

وإن حب الحياة والحرص عليها والخوف من المجهول كل ذلك كان يدعوه إلى مكابدة ما يرشده إليه الإلهام لتذليل المصاعب فليلجأ إلى الدجالين الذين يدعون معرفتهم بتلك الأحداث وبفوائد العزائم وأوقات تلاوتها ومناسباتها فيدعون عامة الناس بادعائهم أن الأدوية لا تساعدهم على طرد تلك الأرواح الغريبة والعفاريت

ويطلقون البخور في كل مكان ثم يكتبون للمريض تذكرة العلاج وهي "حجاب" بعد أن يأخذوا إتاوات منهم كطلب الأرواح والعفاريت في مقابل الخروج من الأجساد.

وجد الدجالون أرضاً لكسب معايشهم من وراء ذلك فأسبغوا على الجاذع فأخذوا ينادون على الأرواح الغريبة والعفاريت كما كانت لها شخصيات قائمة أمامهم ويخطب ثم يخفيها بحركات وإيماءات غريبة وقد يعرض المريض لأشد ضروب القسوة والعذاب بإيهام المريض بأن هذا علاجاً لتعذيب تلك الروح أو العفريت الحالي في أجسادهم فلابد أن ييأسوا فيخرجوا من جسد المريض وبهذا يوهموا ضحاياهم بأن الشفاء في الطريق إليهم. وفي مقابل ذلك تقام الأفراح ويأخذ الدجالون أنصبتهم الوفيرة من الخيرات من مرضاهم.

أو قد يلجأ بعض الناس إلى تقديم الهدايا لبعض المشايخ حتى يقرأوا لهم من آيات الذكر الحكيم لإخراج تلك الأرواح سواء كانت في جسد أبنائهم أو في منازلهم.

وفي ذلك العصر كثرت الاحتفالات الدينية مثل مولد أولياء الله الذين توفاهم الله ودفنوا في بعض المساجد.

وأخذت هذه الاحتفالات طابعاً قومياً ودينياً واقتصادياً في مصر. حيث يتجمع الناس حول هذه الاحتفالات خاصة في حي الحسين وحول مسجده أو حول مسجد السيدة زينب.

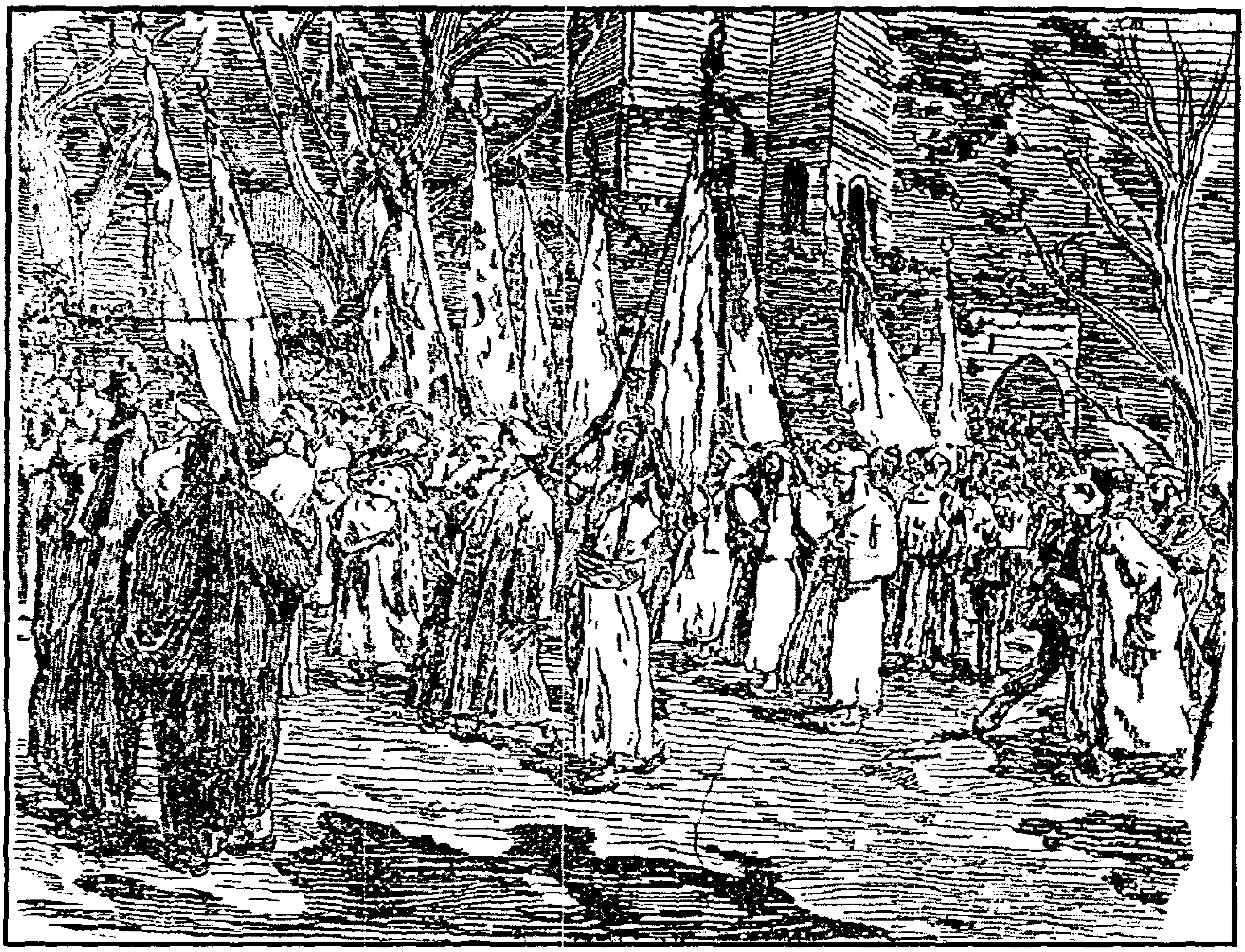

الفصل الثاني

الصراع السياسي في مصر بين الأنظمة القديمة والأنظمة الحديثة في الفترة ١٧٩٨م - ١٨٠٥م

ارتبطت الحملة الفرنسية على مصر بكفاح فرنسا الثورية ضد إنجلترا كما ارتبطت بالاتجاهات الاستعمارية التي عبر عنها كثير من المفكرين والساسة الفرنسيين إما ضيقاً بما فيه من الاستعمار القديم وحقوق احتكارية واسترقاق وإما مناداة بحرية التجارة وحقوق الإنسان في نوع من التوفيق بين مصالح الحاكم والمحكومين يقتضي استغلالاً منظماً لموارد البلاد وباهتمام ساسة حكومة الإدارة باحتلال مصر بالذات يرجع ذلك إلى أنهم قد اعتبروه نقطة البدء في حالة تعويض بلادهم عما فقدته من المستعمرات في أثناء صراعها مع إنجلترا فمن شأن ما عرف عن مصر من ثراء أن يزود الصناعة الفرنسية بالمواد الخام كما أن موقعها الجغرافي كفيل في حالة وصل البحرين الأحمر والمتوسط بانتقال تجارة الشرق التي تحولت عن البحر المتوسط بعد كشف طريق الرجاء الصالح.

والاهتمام بمصر كطريق تجاري قد بدأ في الواقع في أواسط القرن ١٨ حين أدى- تنازع إنجلترا وفرنسا إلى محاولة كل منهما البحث عن طريق أقصر من طريق رأس الرجاء الصالح ومن ثم أصبحت كل من مصر وسوريا والعراق على قدر من الأهمية بالنسبة إلى كل من الدولتين. حقيقة قد جرت مفاوضات بين بعض الإنجليز وبعض المماليك شبه المستقلين حول نقل البضائع من السويس إلى القاهرة ولكن

السلطان التركي وشركة الهند الشرقية لم يرحبا بهذه المفاوضات فالسلطان كان يخشى أن تتأثر موارد الحجاز من جراء تحول التجارة من جدة إلى السويس ومما يجدر ذكره أن السلطات العثمانية كانت لا تسمح لأية سفينة بالدخول إلى ميناء يقع شمال جدة أما الشركة فكانت تخشى على احتكارها لتجارة الهند. ولهذا نجدها في عام ١٧٧٧م تحرم على السفن المحملة بالبضائع الدخول إلى ميناء ينبع شمال جدة بالرغم من أنها في نفس الوقت قد حصلت من الباب العالي على السماح بحرية المرور عبر مصر ولكن كل ذلك لم يتمخض عن شيء جدي فلا الشركة ولا السلطان كان بإمكانهما تنفيذ هذه الالتزامات بسبب سيطرة المماليك على مصر.

كذلك أبدى الفرنسيون اهتمامهم بأمر تحول التجارة الشرقية إلى البحر المتوسط عبر مصر، ففي عام ١٧٨٥م وقعوا معاهدة مع بكوات المماليك وأخرى مع أحد زعماء البلاد بقصد تأمين نقل البضائع الفرنسية ولكن هذه المعاهدة التي لم يصدق عليها الباب العالي ولم تنفذ بسبب اضطرابات أحوال مصر الأمر الذي أدى إلى رحيل كل من القنصل الإنجليزي والفرنسي.

ثم أدت حروب الثورة الفرنسية إلى تفكير الإنجليز جدياً في احتلال مصر خاصة بعد فتح بونابرت لإيطاليا وخروج النمسا من التألب الدولي ضد فرنسا واستيلاء الفرنسيين على الجزر الأيونية الواقعة في مداخل بحر الأدرياتيك على مقربة من الأملاك العثمانية في البلقان.

وأهم من هذا كله ما ثبت للفرنسيين من صعوبة نقل قوات لغزو إنجلترا رأساً بسبب سيطرة الإنجليز البحرية بالقرب من الجزر البريطانية وقد أرسل بونابرت بالفعل بعثة استطلاعية بعد فتح إيطاليا لدراسة إمكان غزو إنجلترا فكتب تقريراً إلى حكومة الإدارة موضحاً الوضع السياسي والجغرافي لإنجلترا وإمكانية إرسال حملة لإنجلترا من عدمه.

أما مصر فكانت لا تزال تغط في نوم عميق (العصور الوسطى) ربما كان يمثل مداركها وقواها استهتار مراد بك بقوة الفرنسيين حينما بلغته أنباء نزولهم وقوله بأنه سيدوسهم بخيله ويلقى بهم إلى البحر.

حقيقة قد سبق المماليك أن هزموا الفرنسيين في القرن ١٣ قرب المنصورة وأسروا ملكهم لويس التاسع ثم تمكنوا من طردهم نهائياً ولكن هناك فرقًا كبيرًا بين فرنسا الثورية ومصر إبراهيم ومراد؟ فالقتال الذي تمت مراحله الأولى بالاستيلاء على القاهرة كان يمثل حرباً غير متكافئة بين عسكرية العصور الوسطى بخيلها وسيفها وشجاعتها الفردية ويبين صعوبة القيام بهذه المهمة يذكر بدلاً منها الاستيلاء على مصر بقصد خنق إنجلترا اقتصادياً وإرغامها على التسليم.

وكان بونابرت من جانبه طموحاً يسعى إلى المجد الشخصي ويحاول أن يتشبه بالقيصر أو الإسكندر الأكبر وكل منهما كانت له صولات في مصر. ومما يجدر ذكره أن نابليون قرأ كثيراً في التاريخ خاصة تاريخ مصر وتأثر به وعلى أية حال فقد أعدت

الحملة بالفعل في صيف ١٧٩٨م ولم يلق الفرنسيون صعوبة جدية في اقتحام مصر بعد إفلاتهم من الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط لقد جاءوا إلى مصر مزودين ليس فقط بجيش تتمثل فيه القوى المادية التي طبقت العلم الحديث بل أيضاً بمجموعة من العلماء والمستشرقين والفنيين والمخترعين والمترجمين والطباعين وأهل الفنون وبذلك كانوا في الواقع خلاصة أوروبا التي قفزت إلى الأمام مدى ثلاثة قرون عرفت فيها الطباعة والبارود والبوصلة كما عرفت الأساليب العلمية الحديثة القائمة على البحث والملاحظة والتجربة في الوقت الذي عرف فيه أساليب التنظيم التي عرفتها أوروبا وطبقتها في مجالات الحكم والحياة الاجتماعية والقوات المسلحة وفي شبراخيت حلت بالمماليك الهزيمة وكذلك في إمبابة تحت سمع المصريين وبصرهم ثم ما لبثوا أن فر منهم فريقاً إلى الشام وآخر إلى الصعيد حاملين معهم ليس فقط كنوزهم وما خف حمله بل أيضاً سمعتهم الحربية وهيبتهم في نظر المصريين.

وبقي الفرنسيون في مصر ٣ سنوات لم تهيأ لهم الظروف في أثنائها الاستقرار الكافي لتحقيق الهدف الذي سعوا إليه.

كان تفوق إنجلترا البحري عاملاً حاسماً في تحديد مصير الحملة منذ البداية فقد تحطم الأسطول الفرنسي في أبي قير وفرض الحصار على الشواطئ المصرية وتشجع السلطان العثماني وحالف الإنجليز والروس وأعلن الجهاد سعياً وراء استرداد ولايته وفشلت حملة بونابرت على الشام وأرهق المماليك بقيادة مراد بك القوات الفرنسية في الصعيد.

أما المصريون فقد استعدوا منذ البداية بالانتقاض على حكم الفرنسيين ودهشوا حقيقة في بداية الأمر لمشاهدة التجارب العلمية التي كان يقوم بها العلماء الفرنسيون في المجتمع المصري خاصة آلة الطباعة التي كانت الأولى من نوعها في البلاد والمستشفيات الحربية والمقاهي والمسارح والصناعات الجديدة التي أدخلها الفرنسيون لعمل البارود

والآلات وصناعة السفن ونسج الصوف وكثيراً مما كان الفرنسيون يحتاجون إليه في طرقهم الجديدة كما ذهلوا لمقارنة تأخرهم بتفوق حكامهم الجدد (الفرنسيين) فتفتحت عيونهم على أفلقة تحفزها الأفكار الجديدة وتحفزها قوى العلم والتنظيم ورغم ذلك كله فإنهم لم يفتحوا قلوبهم للفرنسيين.

حقاً لقد حاول نابليون جهده أن يجتذب أهل البلاد إلى صفه طورًا بإفهامهم أنه قد أتى إليهم برضى السلطان وطورًا بمخاطبتهم بلغة الثورة الفرنسية مثيراً فيهم أمجاد مصر القديمة التي كانت قد تقطعت بها الأسباب وطورًا ثالثاً باحترام تقاليدهم وعقائدهم وتقريب زعمائهم والتلويح لهم بإشراكهم في حكم البلاد ومن ذلك أن الفرنسيين قد أنشأوا ديواناً وطنياً في القاهرة ودواوين وطنية أخرى في الأقاليم يشرف عليها الحكام الفرنسيون العسكريون وحين هرب قاضي القضاه العثماني وكان يعين من الآستانة وكان يدين بالمذهب الحنفي الذي اعتنقه آل عثمان، حينئذ كان من رأي نابليون أن يختار العلماء قاضياً من بينهم ولكن العلماء ترددوا في بادئ الأمر اعتقاداً منهم بوجوب كون قاضيهم معيناً من قبل السلطان ولم يرضخوا لإدارة بونابرت واختاروا الشيخ العريشي حين ذكرهم نابليون بتقاليد الإسلام التي تقتضي أن يتولى القضاء أكثر المسلمين علماً.

ولكن أثار المصريين النظام الإداري الصارم الذي فرضه الفرنسيون وما اضطره إلى فرضه من الضرائب لملاقاة آثار الحصار الإنجليزي وتدخلهم في صميم حياة الناس وإفضاح مخالفة سلوكهم عما جرى به العرف واضطرهم إلى تقرب طوائف من الأقباط والمشارقة واليهود التي كان المسلمون ينظرون إليهم بعين الاحتقار فلا يسمحون لأفرادها بركوب الخيل أو ارتداء شيلان الكشمير أو الشرب أو الأكل علناً في رمضان.

لم يقبل المسلمون استعلاء أفراد هذه الفئات تحت الحكم الفرنسي ومطالبتهم بالمساواة مع المسلمين وتفوقهم عليهم في أحوال خاصة.

يضاف إلى هذا ما كان من صرامة الفرنسيين في تحصيل الضرائب ومصادرتهم أملاك أمراء المماليك والتعدي على نسائهم وقسوتهم في معاملة من شكوا في علاقتهم بالمماليك والأتراك كل هذا قد أثار المصريين الذين لم يتصوروا معنى دعوة الفرنسيين إلى الحرية والمساواة بل نقموا على العلماء الذين حملوا شارة الثورة الفرنسية مثلثة الألوان وهي الشارة التي كان يتلقفها الأحرار في أوروبا واستجاب المصريون لتحريض العثمانيين والمماليك الذين كانوا يتصلون بهم سراً ويدفعونهم إلى رفع راية الجهاد في وجه الفرنسيين الذين يختلفون عنهم دينياً.

والحق أن المصريين لم يهدأ لهم قرار إزاء الفرنسيين فمنذ أن نزلت قواتهم على الشواطئ المصرية قاوهم أهل الإسكندرية وقاتلهم أهل دمنهور وثارت عليهم القاهرة ثورتين كبيرتين ونشبت الاضطرابات المستمرة في الأقاليم ومما يجدر ذكره أن ثورة القاهرة الأولى قد نشبت في أكتوبر سنة ١٧٩٨م أي بعد دخول الفرنسيين مصر بثلاثة أشهر ولم تهدأ إلا بعد ضرب المدينة بالقنابل والاعتداء على الأزهر وشبت الثورة الثانية في ربيع عام ١٨٠٠م وبرز من المصريين فيها قادة من المشايخ وأهل الحرف والحوانيت وأقام القاهريون المتاريس وحفروا الخنادق في وسط المدينة وحاصروا الأحياء التي يقطنها الأوروبيون ووضعوا الحراس في الأماكن الاستراتيجية العامة الهامة وأحرجوا مركز الفرنسيين الذين كانوا يقاتلون الأتراك في عين شمس.

ومرجع هذا كله مسَّاس الحكم الفرنسي الأجنبي في أرزاق الناس وتدخلهم في صميم حياتهم التقليدية المغلقة بوشاح ديني سميك كان ينبوعاً لهم في تفكيرهم وإرادتهم وتصرفاتهم ولكن هذا على أية حال لا ينفي قومياً مثل هذه القومية المصرية وتختلف عن القومية الفرنسية في ذلك الوقت. ولنا الآن أن نتساءل عن طبيعة آثار الحملة الفرنسية في مصر وأن نحاول الإلمام بذلك بإجابة موضوعية حتى نستطيع أن نربط بين هذه الآثار والتطور في مصر الحديثة في المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية.

نبدأ بالديوان الذي أنشأه الفرنسيون في القاهرة بوجه خاص فقد اختير أعضاء هذا الديوان لا من جانب الجماهير الشعبية ولكن من جانب الحكام الفرنسيين ومن هذا تنتفي الفكرة القائلة بأن ديوان القاهرة كان أساس الحياة النيابية في مصر الحديثة وهو ما ذهب إليه دكتور لويس عوض في كتابه المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي.

ومن ناحية أخرى نجد أن المصريين الذين دخلوا إلى الديوان لم تكن لهم سلطة قوية وإنما كانوا أداة للربط بين الحاكم الفرنسي والمصريين ربطاً عملياً يخدمون مصالح المستعمر الفرنسي في المحل الأول.

ومما يؤيد رأينا هذا أن نابليون ذاته كان يضيق بالحياة النيابية في فرنسا سواء قبل قدومه إلى مصر أو بعد عودته إلى فرنسا ومما يذكر في هذا المجال أن قواته هي التي قضت على ما تبقى من حكام الثورة الفرنسية قبل قيام حكومة الإدارة وأنه حتى سقوطه لم تعرف فرنسا شيئًا عن الحكم النيابي الصحيح وإنما كانت ثمة مجالس استشارية رأيه فيها هو الأول والأخير.

ولكن هذا لا ينفي تأثر بعض المصريين الذين احتكوا بالفرنسيين بأفكارهم لا في المجال النيابي الذي كان بعيداً عن أفق المصريين في ذلك الوقت ولكن في مجال آخر هو المجال الثقافي.

فممن خالطوا الفرنسيين الشيخ العروسي، الذي أصبح فيما بعد شيخاً للأزهر أيام محمد علي وأهمية الشيخ العروسي لا ترجح إلى بعده بعض الشيء عن المنهج الكلاسيكي الذي سار عليه التعليم في الأزهر بقدر ما ترجح أنه كان أستاذ العلامة المصري الكبير رفاعة رافع الطهطاوي رائد حركة الاستنارة في مصر الحديثة.

وأهمية الحملة الفرنسية على مصر لا ترجع إلى أنها أصابت المجتمع العربي بتغييرات جذرية إذ أن الفرنسيين لم يقيموا في مصر سوى ثلاث سنوات بل إلى أنها كانت لها دلالات واسعة المدى فهي أول محاولة استعمارية بالمعنى الحديث في قلب

العالم العربي وهي أول احتكاك مباشر بين نمط حضاري متحرر متطور ونمط آخر كان يعيش في عزلة وركود حيث ابتعدت شقة الخلاف بين الطرفين ولفهم طبيعة هذا الاحتكاك لابد من إلمامة بسيطة لمقومات أوروبا بوجه عام وفرنسا بوجه خاص في أواخر القرن ١٨.

ولابد أيضاً بإلمامة مشابهة لمقومات بلاد الإسلام ومنها مصر في هذه الفترة وبدون ذلك لا يمكننا فهم دلالات الحملة الفرنسية على مصر وما تمخضت عنه من آثار، فأوروبا الغربية كانت منذ عصر النهضة قد سارت أشواطاً إلى الأمام ضعف فيها نفوذ الكنيسة فانفسح المجال أمام الفكر البشري لكي يرتاد آفاق فسيحة في شتى المجالات بحيث لم يعد ثمة مكان للحواجز التي تعترض حب الإنسان للمخاطرة العقلية والعملية والنتيجة هي المخترعات الحديثة التي طورت فنون الحرب وقوضت دعائم الإقطاع ومهدت لقيام الدولة الحديثة ودفعت بأبناء الدول البحرية في غربي أوروبا إلى مجاهل المحيطات والعالم الجديد. هذه المخترعات والمنطق العلمي التجريبي هما اللذان أخرجا العلم من أيدي طبقة محدودة ودفعت به إلى الرجل العادي فقد ساعدت الكتب المطبوعة على انتشار المعارف التي غذت حركة الإصلاح الديني وأنزلت البابوية من عليائها وفوق كل هذا نجد أن ظهور الطبقة الوسطى (البرجوازية) من ثنايا التبعيات والولاءات الإقطاعية مما عزز التطور الأوروبي وعمل على توسيع نطاقه سواء في القارة الأوروبية أو خارجها والنتيجة هي الاستعمار الأوروبي فيما وراء البحار وظهور الكيانات القومية واللغات الحديثة والآداب والمعارف الحديثة وكانت الثورة الفرنسية ثمرة هذا كله فقد أجتثت جذور الإقطاع من فرنسا وأطاحت بالملكية وضعضعت نفوذ رجال الدين ومهدت لوجود علاقات اقتصادية دفاعية جديدة.

- أما مصر قبيل الحملة الفرنسية فقد كانت كما رأينا ولاية عثمانية تعاني من العزلة والركود وانقسم فيها المجتمع بين حاكم ومحكوم وبين الاثنين فرق شاسع ساعد على

تعميقه إيثار الناس سلبية تقويها ما ذهب إليه كبار المفكرين الإسلاميين من الدعوة إلى طاعة ولي الأمر ومن ذلك قول الفقيه الكبير " الحسن البصري" لا تسبوا الولاة فإنهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر وإنما هم نقمة ينتقم الله بهم بمن يشاء فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية والغضب واستقبلوها بالاستكانة والتضرع " وأيضاً " ما قاله أبو حامد الغزالي" " أنا لسنا نقدم من قدمه الله تعالى فإن الإمامة عندما تنعقد بالشركة والشركة تقوم بالمبايعة والمبايعة لا تحصل إلا بصرف الله تعالى القلوب قهراً إلى الطاعة والموالاة وهذا لا يقدر عليه البشر".

وكان الانسجام بين الأيدولوجية القائمة في مصر وغيرها من بلدان العالم شؤونه وفوق لزومهم الخاصة وتعاليم الشريعة فطالما قامت الحروب تقوم على المبارزات الكبرى بين جيشين من المرتزقة وبما أن أدوات السلطان كانت تستند إلى بضعة آلاف من الجند المحترفين مسلحين بأسلحة خفيفة فلم يكن سمة ما يستدعي تدخل الحكام في شؤون المجتمع إلى ما هو أبعد من جمع الضرائب العادية الكافية للإنفاق عليهم وعلى أتباعهم.

وحين أتت على مصر الحملة الفرنسية كانت مؤذنة بضعضعة الكيان الاجتماعي القائم في الفئات العليا من السكان وقد قضت على المماليك وضعضعت هيبتهم في نظر المصريين وأنهت إلى الأبد استبدادهم وطغيانهم وتكوينهم الطبقة الحاكمة فافسحت المجال أمام محمد علي الذي قضى عليهم قضاء مبرماً وأقام في مصر نظام حكم قريب من أنظمة الحكم التي ظهرت في غربي أوروبا في القرن ١٨ وأطلق عليهم اسم النظام الملكي المستبد المستنير.

وهكذا نجد أن أثر الحملة الفرنسية في المجالين السياسي والثقافي لم يكن قوياً في حد ذاته بمقدار ما أثر في مصر بمرور الزمن بطريق غير مباشر فلقد رأينا أن الفترة

القصيرة التي أقامها الفرنسيون في مصر لم تمكنهم من أن يؤثروا على الشعب المصري في المجالين الاجتماعي والسياسي ولو أنهم بطريق غير مباشر قد هزوا ثقة المصريين المسلمين بأنفسهم وبتنظيماتهم حين اصطرع الإنجليز والفرنسيون على أرض مصر خيل للمصريين ولمؤرخهم الجبرتي أن الصراع ليس بين بني البشر ولكنه صراع بين عمالقة أتوا من عالم آخر وللتدليل على ذلك سنناقش آثار الحملة الفرنسية والمنشآت العلمية وغير العلمية التي أقيمت في مصر تحت حكم الفرنسيين أما فيما يتعلق بالحياة النيابية التي قيل إن الفرنسيين قد وضعوا أساسها في مصر فقد سبق لنا تناولها بما فهم منه أن أسس الديمقراطية بالمعنى الغربي لم تنم في مصر بفعل الحملة الفرنسية وإنما كان ذلك وليد تطور آخر يرجع إلى عهد محمد علي حين أنشئت المصالح والدواوين والمجالس الاستشارية والإدارات المختلفة ووضعت نواة الثقافة العصرية في مصر ثم أن الحياة النيابية بالمعنى الغربي قد قامت في النصف الثاني من القرن ١٩ حين أنشأ إسماعيل رسمياً مجلس شورى النواب ١٨٦٦م ولو أنه احتاط فلم يخلع على هذا المجلس اسم سلطات خاصة للإشراف على الحكومة أو على الإدارة أو رسم سياسة الدولة كما أن إنشاء هذا المجلس لم يقترن بإعلان الدستور وظل مجلس شورى النواب كماً مهملاً في تاريخ مصر السياسي حتى تمت المعارضة في السبعينيات الأخيرة وأوائل الثمانينيات فأصبح مجلس شورى النواب أحد المنابر الرئيسية التي انصبت فيها الحركة الوطنية في مصر.

أما المجتمع العلمي الذي أقامه الفرنسيون في مصر وكانت له نتائج خطيرة في المستقبل فإن تأثيره أيام الحملة لم يكن بالقدر الذي يثير جديداً في تطور مصر الحديث فعلماؤه جميعاً من الفرنسيين وأبحاثه كتبت باللغة الفرنسية ولم يشترك المصريون بطريقة أو أخرى في أعمال المجتمع وربما كان مجمع مصر هذا هو الذي خلد تاريخ الحملة فقد مسح الفرنسيون مصر في مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية والمناخية

وحصروا نباتاتها وطبيعتها وحيواناتها وحشراتها وميكروباتها وغير ذلك وفي النهاية نشرت كل هذه الأبحاث في المستقبل في الكتاب الشهير "كتاب وصف مصر" الذي احتوى أول خريطة عصرية لمصر وتكلم عن عادات أهلها وتعدادهم وتاريخها وطبيعة البلاد إلى غير ذلك ولا يزال كتاب وصف مصر من الكتب الأساسية ذات الأهمية بالنسبة إلى تاريخ مصر العام ومما قام به العلماء أيضاً وكان له أثره الخطير بالنسبة إلى مستقبل دراستهم لمشروع وصل البحرين الأحمر والمتوسط ولقد أخطأ مهندس لبير خطأ حسابياً دعاه إلى الاعتقاد بأن مستوى البحر المتوسط أعلى من مستوى البحر الأحمر ٦ أمتار وأن المشروع في حد ذاته إذا ما نفذ سيؤدي إلى إغراق الدلتا ولكن مهندسين فرنسيين آخرين وفدوا إلى مصر في حكم محمد علي وفي رأسهم مجموعة تلاميذ المفكر الفرنسي سان سيمون وعلى رأسهم الأب أنفانتان واستطاعوا تصحيح الخطأ الذي وقع فيه علماء الحملة وأن الفرق في المستوى بين البحرين بسيط لا يترتب عليه خطورة ما وأطلع ديليسبس على تقريرات سان سيمون وفي إحدى مغامراته الكبرى استطاع أن يقنع سعيد باشا حاكم مصر سنة ١٨٥٤ م بتوقيع امتياز قناة السويس الأول الذي أكده امتياز آخر أشمل وقع في عام ١٨٥٦م. ومن هنا يبدو أن مشروع القناة ذا النتائج الخطيرة بالنسبة إلى تاريخ مصر الحديث إنما هو مشروع فرنسي في دراسته وفي تخطيطه ثم في تنفيذه ولهذا نجد أن الحكومات الفرنسية قد سندت المشروع حتى أمكن وصل البحرين ولم يكن من قبيل الصدفة أن امبراطورة فرنسا "يوجيني" هي التي كانت أول من عبرت القناة لدى افتتاحها رسمياً في عام ١٨٩٦م.

ولذلك نتيجة أخرى هامة من نتائج الحملة الفرنسية هي اكتشاف علم الدراسات المصرية القديمة وذلك أن أحد الفرنسيين قد عثر في رشيد على حجر لم يلبث أن عرف في المستقبل باسم " حجر رشيد" وهو ما زال مودعاً حتى الآن في المتحف البريطاني

استولت عليه إنجلترا في عملية إخراج الفرنسيين وأودعوه في المتحف البريطاني دون أن يتبين أحد مدى أهميته وفي عام ١٨٢١م استطاع الشاب الفرنسي شمبليون بعملية بسيطة أن يفك طلاسم اللغة الهيروغلوفية ذلك أن الحجر كان مكتوب بلغات ثلاث اليونانية الهيرغلوفية والديموطوقية واللغة الشعبية وبمضاهاة حروف وأسماء الأعلام أمكنه أن يتبين الأبجدية الديموطوقية وأصبح من ذلك الوقت أصبح في حيز الإمكان قراءة الرموز والنقوش التي وجدت منذ مئات السنين على جدران المعابد والمسلات والمقابر المصرية القديمة وبدأ العالم يتبين مدى ضخامة تلك الحضارة التي نمت وترعرعت آلاف السنين على ضفاف النيل وأضافت الكثير إلى التراث الحضاري البشري.

ويبدو أن جوانب كثيرة أخرى من هذه الحضارة لم تكتشف بعد وعلى أية حال فإن قيام علم الدراسات المصرية القديمة كان مسؤولاً إلى حد كبير عن نمو الروح القومية في مصر بشكل خاص طيلة القرن ١٩ وردحاً من القرن ٢٠.

أما الصحافة التي أنشأها الفرنسيون فلم تكن موجهة إلى المصريين بل كانت موجهة إلى ضباط وجنود الحملة وعلمائها. أنشأ الفرنسيون صحيفتين إحداهما لنقل أخبار فرنسا إلى رجال الحملة والأخرى نشرت بعض الأبحاث التي احتواها مستقبلاً كتاب وصف مصر وكانت على صلة بالمجتمع العلمي الفرنسي في باريس أما كون هذه الصحافة الفرنسية في مصر تؤرخ لبداية الصحافة المصرية ففي هذا نوع من الاشتطاط كانت حقيقة بداية الصحافة في مصر ولكنها لم تكن بداية الصحافة المصرية التي شتتشكل بعد إنشاء جريدة الوقائع المصرية في أيام محمد علي وكانت موجهة إلى كبار الموظفين الأتراك والمصريين ولهذا كانت تكتب بلغتين التركية والعربية وبمرور الزمن أصبحت الجريدة الرسمية المصرية وأصبحت تكتب باللغة العربية.

أما الصحافة الشعبية في مصر فقد نمت في النصف الثاني من القرن ١٩ ولعبت دوراً حيوياً في النهضة المصرية الحديثة وفي الحركة الوطنية في مصر وهكذا نجد أن

الحملة الفرنسية لم تفد مصر في أثناء إقامتها وإنما أثرت في مصر لما نشر عن مصر بالنسبة إلى الحملة ولا يجب أن نخلط بين تأثير الحملة والتطورات الأخرى التي شهدتها مصر في المستقبل وأسهمت فيها فرنسا والمصريون بالشيء الكثير. وأخطر من هذا كله أن الحملة الفرنسية قد أرخت لظهور المسألة المصرية فقد كشفت للدول أهمية موقع مصر الجغرافي في الوقت الذي عادت فيه الحياة إلى البحر المتوسط ومن هنا شهد القرن ١٩ صراعاً سياسياً قوياً بين إنجلترا وفرنسا حول مصر انتهت مراحله الأولى بالاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢م وحسم نهائياً سنة ١٩٠٤م بمقتضى الوفاق الودي الذي أطلق يدي إنجلترا في مصر في نظير إطلاق يدي فرنسا في مراكش.

حالة مصر من ١٨٠١م- ١٨٠٥م والصراع بين "إنجلترا وتركيا والمماليك":-

اضطر الفرنسيون إلى الخروج من مصر عام ١٨٠١م حين غزتها القوات العثمانية والإنجليزية وطلب الباب العالي بعد جلاء ا لفرنسيين من إنجلترا أن تبقى في البلاد كقوة إنجليزية كإجراء وقائي ضد احتمال معاودة الفرنسيين احتلال البلاد، حينئذ لم تكن بمصر قوة معترف بها باعتبارها منبعاً للسلطة سوى القوات الإنجليزية والعثمانية على حين استجمع أمراء المماليك قوتهم من جديد استعداداً لاستعادة مركزهم كما كان عليه قبل قدوم الفرنسيين وقد تكيفت السياسة الإنجليزية إزاء مصر في ذلك الوقت بظروف استمرار النضال ضد فرنسا النابليونية.

ورغم اختلاف وجهات نظر لندن عن اتجاه قوات الحملة في مصر والمملين السياسيين في الآستانة فقد غلب اتخاذ المماليك نقطة ارتكاز للسياسة الإنجليزية القائمة على الحيلولة دون رجوع الفرنسيين إلى البلاد بقواتهم العسكرية أو فرض نفوذهم عليها بصورة أو بأخرى.

ولما كانت القوة العثمانية قد أبدت عجزها وسوء تنظيمها في أثناء النضال المشترك ضد الفرنسيين فقد اتجه الإنجليز إلى إعادة تنظيم القوة المملوكية بحيث تستعيد مركزها

القديم وحسبوا أن المماليك قوة أصلية في حكم مصر ولم يفطنوا إلى أن التنظيم المملوكي قد استهلك قواه وأن الباب العالي قد حرم بيع الرقيق وجلبه إلى مصر في عام ١٨٠٢م وقصدهم من ذلك اقتلاع النظام المملوكي من جذوره.

وهكذا نجد الإنجليز يتصدون لمحاولات الأتراك القضاء نهائياً على المماليك وطردوهم من أماكن الحرب، وفي مارس سنة ١٨٠٢م عقد صلح أميان الذي أنهى حالة الحرب العامة في أوروبا وبمقتضاه سويت العلاقات بين إنجلترا وفرنسا فتعهدت الأولى بإخلاء مالطة والثانية بإخلاء الجزر الأيونية كما قضى الصلح فيما يتعلق بمصر على إرجاعها إلى تركيا.

وقد توصل بونابرت الذي أصبح قنصل أول منذ عام ١٧٨٩م إلى عقد صلح منفرد مع تركيا ترتب عليه إيجاد توازن بين النفوذ الروسي والإنجليزي الذي تزايد في الآستانة على أثر احتلال الفرنسيين لمصر والنفوذ الفرنسي.

وقد طلب جلاء إنجلترا عن مصر طبقاً لصلح أميان فجلت القوات معها إلى لندن محمد بك الألفي أحد زعماء المماليك بقصد تنسيق الخطط التي تمليها مصالح الطرفين ولكن بقيت مشكلة الحكم في مصر بدون حل "خرج" الإنجليز والفرنسيون من مصر التي عادت إلى قبضة السلطان وأصبحت مجالاً للتنازع بين القوات العثمانية والمملوكية.

ولكن آثار الحملة الفرنسية في المجال السياسي كانت واضحة فلم يعد الأمر كما كان عليه قبل قدوم الحملة من حيث تنازع المماليك والأتراك على الحكم في البلاد دون أن يكون للقوى الداخلية وزنها في الصراع بل إن مصر لم تلبث حين تجددت الحرب في أوروبا أن أصبحت ذات أهمية كبرى بالنسبة إلى المتصارعين وما لبثت الحرب أن تجددت بين المماليك وأخلاط الجند العثماني الذين دلت تصرفاتهم على اعتبارهم مصر

بلداً مفتوحاً يسول لهم أن يعملوا فيه ما يشاءومن السلب والنهب واستمرت الحرب بين المماليك بعضهم مع بعض وبينهم وبين الأتراك.

وامتدت إلى الدلتا والصعيد والجند يتكتلون طوائف حول من يعطيهم ما يريدون ويرون أنهم برفعه وتمكينه يستطيعون أن ينالوا ما يريدون وتوالى على باشوية مصر في هذه الفترة القصيرة المضطربة عدد من الولاة فكان مصير بعضهم إما القتل وإما السجن وإما الهرب والمصريون يشاهدون هذا التنافس على أرضهم باهتمام وتحفز فأبدوا حماسة - لا شك - لجلاء الفرنسيين وتطلعوا إلى مشايخهم لعلهم يتصدون لإنهاء الاضطراب العام في حين أن واحدًا منهم هو المعلم أو الجنرال يعقوب حنا قد رأى وسيلة أخرى للاستقرار النهائي لأوضاع البلاد الذي صورته له تجاربه في صور جديدة وأن آخر وهو عمر مكرم قد تجمعت له الأفئدة فعقدت له زعامة إيجابية لم يكن للبلاد عهد بها منذ أمد بعيد.

اشتغل يعقوب قبل قدوم الفرنسيين بما كان يشتغل به الأقباط منذ الفتح العربي من أمور الصيرفة ثم انضم إلى الحملة الفرنسية الموجهة تحت رئاسة الجنرال ديزيه لفتح الصعيد وأبلى في الحرب بلاء حسناً كوفئ عليه بتقليده سيفاً وتعلق يعقوب بديزيه تعلقاً عاطفياً جعله من المقربين إليه مما كان له أثره في التشكيل الجديد لعقليته وقد أيد يعقوب السلطات الفرنسية في قمع ثورة القاهرة الثانية وازداد نفوذه لدى الفرنسيين عقب فشل الثورة ثم نظم فرقة من الأقباط للخدمة في صفوف الفرنسيين على نفقته الخاصة وتحت قيادته ولا شك أن مخالطة يعقوب للفرنسيين قد جعلته يتأثر بما دعت الحملة الفرنسية إليه من حرية ومساواة ومن ثم ما رآه من استقلال مصر عن الدولة العثمانية نهائياً سيكفل لها الأمن والاستقرار والتطور.

وربما كان إقبال المصريين المسلمين بعد جلاء الفرنسيين على التنكيل بمن انقاد لعصبيتهم الدينية أو لمصلحة شخصية وانضموا إلى الغزاة واحتضنهم الغزاة واستعانوا

بهم مما دفع يعقوب إلى الرحيل عن البلاد والسعي إلى عرض قضيتها على عواصم الغرب ومناقشتها في التسوية العامة للحرب.

وقد عبر عن أفكار يعقوب مغامر اسمه إسكارس وكان تواقاً إلى تخليد اسمه وتحقيق ما داعب مخيلته من مشروعات ترك مالطة حيث كان منتظماً في سلك فرسان القديس يوحنا فلما انحل نظام الفرسان في الجزيرة على أثر استيلاء الفرنسيين عليها وفي طريقها إلى مصر رافق الحملة الفرنسية وتولى بعض المناصب الإدارية في مصر ورأى أن مصر يجب أن تستقل وأنها خليقة بالاستقلال بحكم موقعها وتاريخها ومواردها وأن الحكومة الفرنسية يجب أن تعمل على تحقيق استقلال مصر إذا ما قررت الجلاء عنها بأن تقوي الفرقة المصرية تحت قيادة يعقوب وأن تعدها بحيث تكون العنصر المرجح في تقاتل العثمانيين والمماليك كما أشار بأن يترك الفرنسيون إذا ما اضطروا إلى الجلاء ذخيرة حربية وقوة فرنسية يظهرونها باعتبارها عاصية ترفض الانسحاب مع بقية الجيش ويدعونها تنسحب نحو النوبة لتفتحها وتهبط منها على مصر عند اللزوم وخاطب إسكارس في أمر هذا المشروع بعض الفرنسيين كما خاطب يعقوب صاحب الفرقة القبطية التي اعتبرها إسكارس قاعدة الاستقلال ثم خرج يعقوب مع الفرنسيين ومعه بعض أهله وبعض الأقباط وجماعة من المترجمين وبعض المسلمين الذين خشوا على أنفسهم إلى جانب كثير من المسيحيين الشوام والأورام ومما دفع يعقوب إلى الخروج، تشتت الفرقة القبطية ورغبة رجالها في العودة إلى أراضيهم وعدم إعداد القيادة الفرنسية شيئاً لمستقبل هذه الفرقة أو لمستقبل النفوذ الفرنسي في مصر إلى جانب السعي لدى الدول الأوروبية من أجل تحقيق استقلال مصر وركب على ظهر إحدى السفن الفرنسية ومعه إسكارس.

ومات يعقوب في الطريق وقرر إسكارس أن الوفد باق رغم موت رئيسه وأعد مذكرة تفصيلية بموضوع استقلال مصر لتوصيلها إلى الحكومة الإنجليزية كما اتصل أيضاً

بالحكومة الفرنسية بهذا الصدد ولم تسفر المحاولة عن شيء رغم أن مجرد حدوثها يلفت النظر فهي أولى المحاولات لاتباع طريقة المفاوضة للحصول على الاستقلال وتعضيد الاعتراف الدولي وتبرير طلب الاستقلال بالتنويه بمجد مصر وبأن عظمة الماضي تبعث على الأقل في عظمة المستقبل وبما أن مصر بها من الموارد من المال والرجال ما يكفل لها قيام دولة مستقلة وأن موقعها الجغرافي يجعلها موضعاً للتنافس وأن التي تسيطر عليها وتصبح من القوة بحيث تتحكم في المصالح الحيوية للدول الأخرى وخير الجميع أن تستقل مصر ، وفرق كبير بين تفكير يعقوب وإسكارس وتفكير عمر مكرم وكان يعقوب وإسكارس يدركان ظهور المسألة المصرية بمعناها الدولي وأن مصير مصر إنما يتقرر في العواصم الكبرى بينما عمر مكرم يعتمد على الهياج الشعبي الذي يمكن الناس من الرجوع إلى مألوف حياتهم وبروز عمر مكرم راجع قبل كل شيء إلى صفته الدينية باعتباره نقيباً للأشراف وتصديه لتمثل آلام الناس ومواجهة مقتضيات التقلبات التي واجهتها مصر منذ أواخر العهد المملوكي العثماني وكان قبل الحملة الفرنسية قد تبنوا نقابة الأشراف وهو مركز في عصره يستدعي لصاحبه حرساً وجنداً ويتمتع بسلطة قضائية إزاء طائفته (أي الأشراف) وأوقافاً توغل به على غمرة الحياة وما يؤثر فيها ونفوذاً عريضاً يستمد قوته من قوة التقاليد الدينية التي كانت تشكل حياة الناس ومفاهيمهم في ذلك الوقت ، وقد اشترك عمر مكرم في الهياج الشعبي ضد إبراهيم ومراد في أواخر القرن ١٨.

كما اشترك في تجميع القاهريين لدى اقتراب الفرنسيين من العاصمة ثم اتجه إلى الشام مع فلول المماليك ومع الباشا العثماني عقب موقعة إمبابة وأخيراً رجع إلى مصر في أعقاب حملة بونابرت على الشام واشترك في ثورة القاهرة الثانية ثم نظم دفاع أهل دمنهور عن مدينتهم في وجه القوات المملوكية في أعقاب جلاء الفرنسيين وسنراه في عام ١٨٠٧م يتزعم المقاومة الشعبية ضد الحملة الإنجليزية المعروفة باسم حملة فريزر

وبين هذا وذاك نجده يبعث بممثليه إلى أطراف البلاد ويراسل أمراء المماليك وجندهم عن العاصمة ويقف في وجههم حين يدخلونها ويرغمهم على الانسحاب ويلعب دوره الحاسم في الهياج الشعبي في عام ١٨٠٤م- ١٨٠٥م وهو الهياج الذي أدى إلى تولية محمد علي ويعاونه في الفترة القلقة من أوائل حكمه، وعمر مكرم في كل هذا إنما كان يقوم بدور الوساطة الذي تصوره علماء المسلمين بين الرعية وأولي الأمر وهم حسب مفهوم عمر مكرم العلماء وحملة الشريعة "والسلطان" حتى يكون عادلاً في نوع من التراضي يخول الرعية حق خلع الحاكم الظالم ومقاتلته إذا اقتضى الأمر هذا التصور الذي رفع محمد علي إلى أقدار مركز ما كان يصله بوسائله وإمكانياته المحدودة هو الذي يؤدي إلى القطيعة بين الرجلين وفي أعقاب سنوات التعاون القليلة التي استغلها محمد علي إلى أقصى الحدود ارتفع نجم محمد علي وأفل نجم عمر مكرم.

الفصل الثالث

مصر تفرض إرادتها على المجتمع الدولي

حكم محمد علي:

يحق لنا أن نتساءل حين وصولنا إلى هذه الفترة الهامة من تاريخ مصر الحديث هل تتبع في معالجتها الطريقة التقليدية الخاصة بخلع اسم الحكام عليها أو نتبع طريقة أخرى تقوم على موضوعات متداخلة مترابطة تحاول أن تعالج بوجه عام تطور المجتمع العصري الحديث.

وأنني أفضل مؤقتاً اتباع الطرق التقليدية لعدة أسباب منها بل وأهمها أن التطور المصري في القرن ١٩ كان مرتبطًا إلى حد كبير بشخص الحاكم وسياسته وأن معالم المجتمع المصري بشكله الحديث لم تكن قد تحددت بعد ، فحين تولى محمد علي حكم مصر كانت الأغلبية العظمى من السكان من الفلاحين إلى جانب أعداد من البدو والحرفيين والصناع والتجار أما الجندية فكانت في ذلك الوقت قاصرة على الأجانب من مماليك وأتراك وألبانيين وأرناؤوط وغير ذلك والذي سيجعل ملامح المجتمع المصري تتحد وفيما بعد هو ما حد في أيام محمد علي من إجراءات هزت ملامح أحوال مصر الاقتصادية ثم ما حدث بعد ذلك من تغلغل النفوذ الأجنبي ورأس المال الأجنبي وهجرة عدد كبير من الأوروبيين إلى مصر ورجوع طلبة البعثات الذين بشروا بالاتجاهات الحديثة كما عرفوها عن أوروبا وبذلك استوعب المجتمع المصري حوالي

نصف قرن قبل أن تتضح معالم آثار التحول الجديد فيه على محك الأزمة المالية في أواخر حكم إسماعيل.

تحكم مصر في القرن ١٩ لا يخرج عن ما عرفته أوروبا في عهد الملوك المستبدين فالخزانة وجيب الوالي لا ينفصلان ليس هناك وزارات بالمعنى المألوف وإنما إدارات تستمد وحيها من شخص الحاكم والمحكوم ذاته حتى سقوط أسرة محمد علي الذي هو كبير الإقطاعيين في البلاد وزعيم طبقة الأتراك والمشتركين وسنرى فيما بعد كيف قام الإقطاع في مصر الحديثة.

أما محمد علي فقد أتى إلى مصر في عام ١٨٠١م مع القوة العثمانية التي اشتركت مع الإنجليز في طرد الفرنسيين ولم يكن حينئذ في موضع من مواضع الصدارة أو ذا سند في الآستانة يستطيع أن يركن عليه ولكنه كان ذا طموح وذكاء دفع به وفقاً إلى التصارع على الحكم دون أن يلتفت كما التفت غيره من المنافسين إلى السياسة، وإنما لعب دوره في الفترة من ١٨٠١م-١٨٠٥م بشيء من المكر فهو يتحالف مع زعماء المماليك حتى إذا ما أشرفوا على الوصول إلى الحكم لم يتردد في مباغتتهم في دورهم حتى اضطرهم إلى الفرار خارج القاهرة في عام ١٨٠٤م وظل ممتنعاً عن البروز في الصفوف الأمامية حتى جاء الوقت الذي تبلور فيه الشعور العام في ثورة صحيحة حينئذ فضل الارتكان إلى المشايخ المصريين الذين ما طمعوا قط إلى الحكم المباشر بل كان قصارى جهدهم أن يلتمسوا مساعد يرتكنون إليه في تصديهم إلى آخر ولاة هذه الفترة المضطربة من تاريخ مصر وحين أصر المشايخ على خلع خورشيد باشا آخر الولاة العثمانيين قال لهم إنه مندوب السلطان وإنه لا يقبل أوامر الفلاحين ولكنهم أصروا على تولية محمد علي وقاموا من جانبهم بإبلاغ الباب العالي بما حدث وتطوع زعماء من المشايخ بزعامة عمر مكرم وعرضوا على محمد علي لعلهم بذلك يستطيعون توجيهه بالوجهة العامة فأمدوه بالمال اللازم لاسترضاء الجند والباب العالي ووقفوا في وجه المحاولات العثمانية لنقله من ولاية مصر سنة ١٨٠٦م.

وشدوا أزره في أثناء حملة فريزر سنة ١٨٠٧م ووقعوا الصلح بينه وبين المماليك حينئذ لم يكن لمحمد علي سند سوى المشايخ فالباب العالي لم يقر بالأمر الواقع بسهولة والمماليك يشتد ساعدهم يوماً عن يوم والخزانة خاوية تماماً.

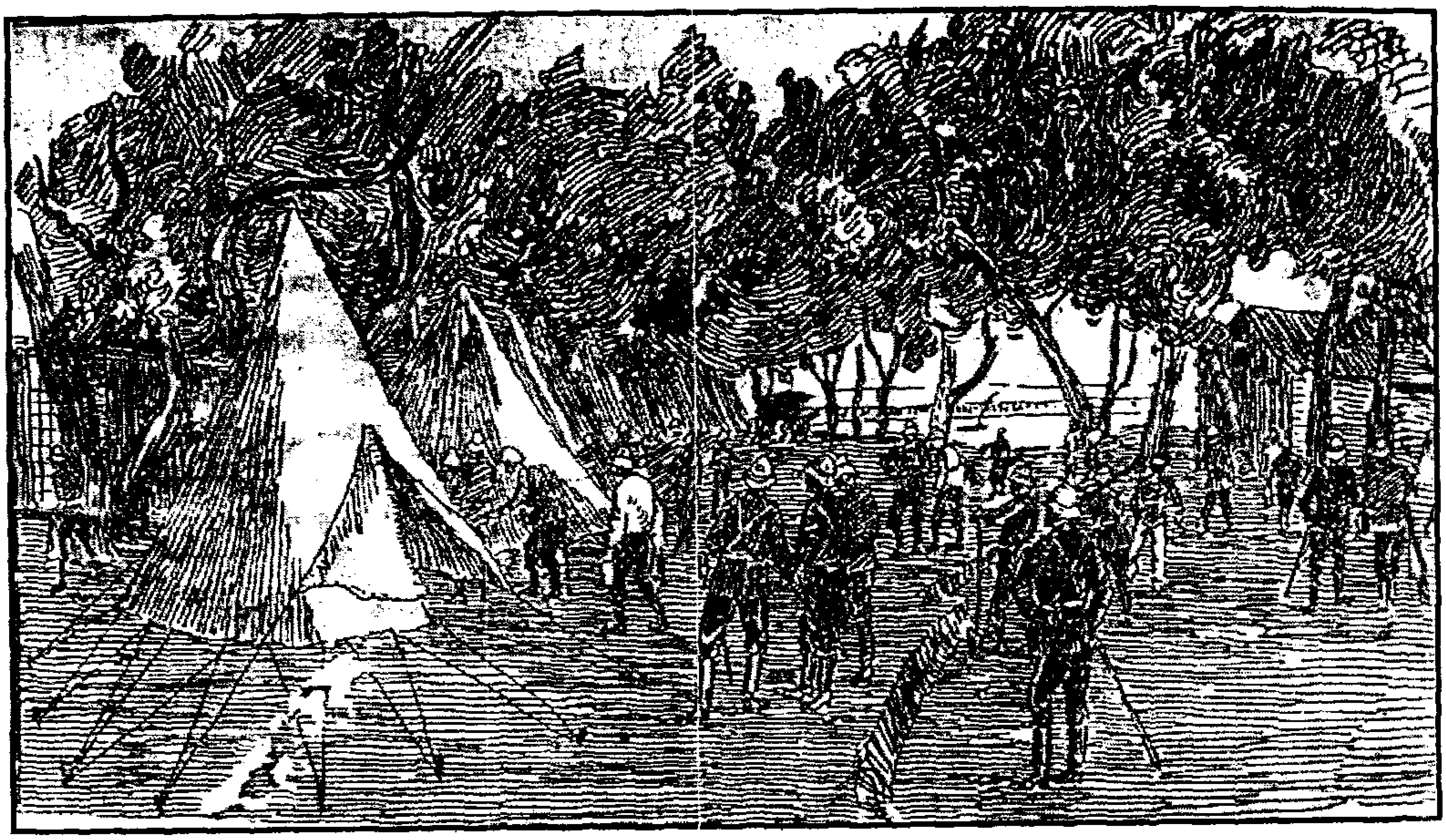

معسكر الإنجليز

ولما تحسن مركز محمد علي بعد جلاء القوة الإنجليزية وموت الألفي وزميله البوديسي ورضى الباب العالي عنه نتيجة لهزيمة الإنجليز وضع الزعماء المماليك في قبضة يده وقرر أن ينفرد بالسلطة والحكم فأشرف إشرافاً مباشراً على الإدارات المحلية وأغلق الأبواب التي كانت تفرض عليه إرادتها غير إرادته فضاق بتدخل المشايخ ونفى عمر مكرم إلى دمياط سنة ١٨٠٩م وأخضع المشايخ جميعاً لإرادته بضربهم بعضهم ببعض وإغرائهم بالأوقاف وبالمناصب وتوج كل ذلك بقضائه المشهور على المماليك في عام ١٨١١م فقد استغرق كل ذلك ست سنوات تميزت بالضيق وعدم الاستقرار وكان هو ذاته يكره الإشارة إليها فيما تبقى من حكمه وقد اختلفت الآراء حول تقييم هذه الفترة العاصفة من تاريخ مصر وذلك لأن أحد قناصل إنجلترا العمومية في مصر واسمه تشارلز ماير قد أشار

إلى مذبحة القلعة وقتل المماليك في الأقاليم ووصف ذلك بأنها جريمة نكراء وإن لم تكن هي الدعامة التي قامت عليها الإصلاحات التي قام بها محمد علي، على أية حال فقد انفسح أمامه المجال لضرب الفوضى والتشتيت وتوزيع الاختصاصات مما كان سائداً في العصر المملوكي العثماني فتهيأت مصر بفترة جديدة قامت فيها الدولة الحديثة بأدواتها الأساسية للجيش وتنظيم الإدارات والقيام بالمشروعات الإنشائية والمالية والتي لا يمكن القيام بشتى أوجه النشاط دون وجودها، والعصر الذي تولى فيه محمد علي كان عصراً خطيراً فامتداد حروب الثورة الفرنسية ونابليون إلى البحر المتوسط وشرقي أوروبا قد اقحم الامبراطورية العثمانية بما فيها مصر إلى حقل السياسة الدولية من أوسع أبوابها والسلاطين منذ أواخر القرن ١٨ يحاولون تجديد شباب الامبراطورية بإدخال النظم الحديثة خاصة في الجيش والإدارة فلم يلبثوا أن فشلوا مؤقتاً أمام سطوة الانكشارية ورجال الدين وفتاوى المتزمتين والرجعيين وتعرضوا لقلاقل واهتزاز السلطة والاتهام بالكفر.

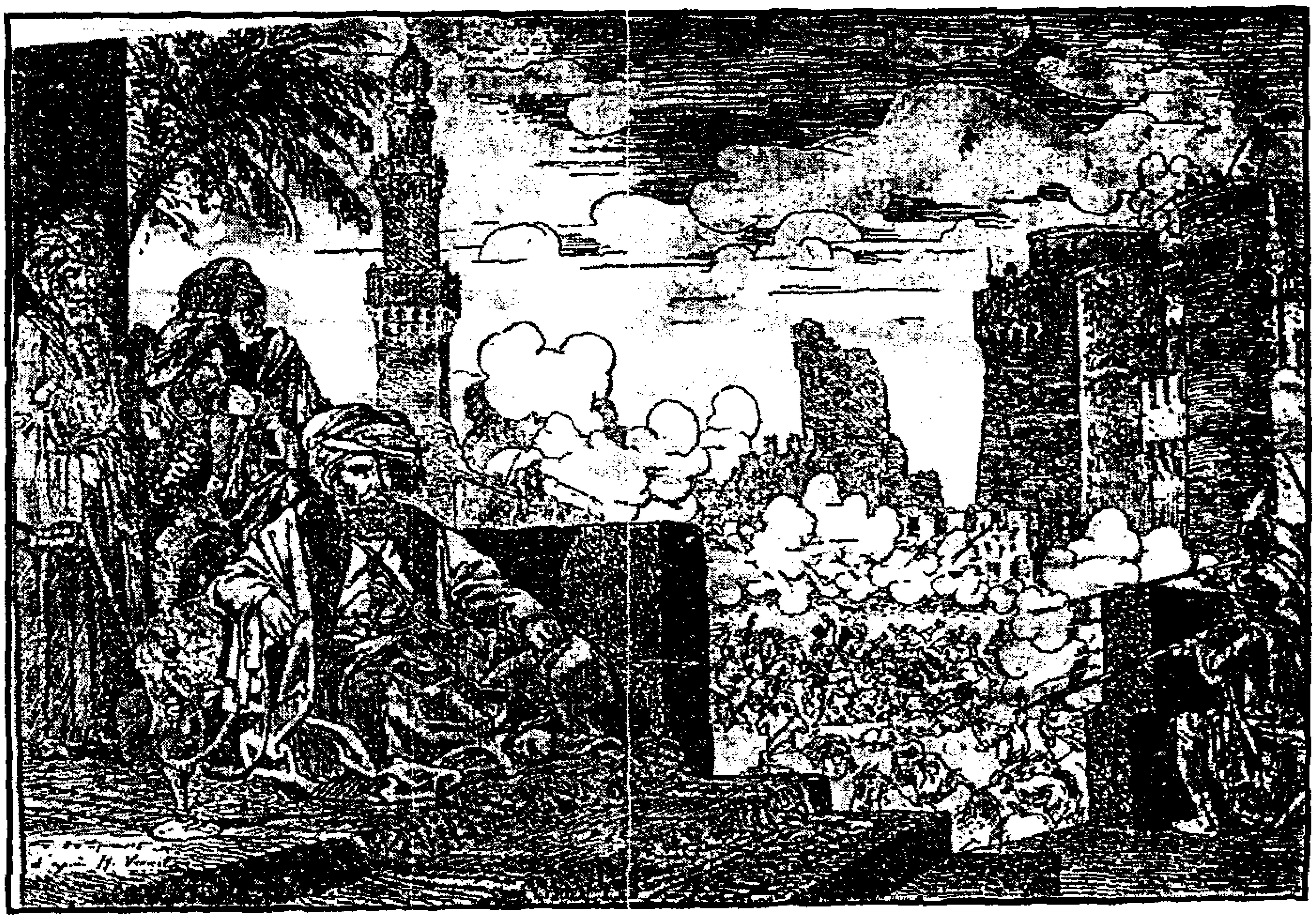

مذبحة القلعة

كما أن الاتجاهات الانتفاضية كانت تفعل فعلها في أطراف مختلفة من الامبراطورية بشكل أجهد السلطة المركزية العثمانية فمنذ أواخر القرن ١٨ تعرضت الامبراطورية العثمانية بحركات الانفصالية في الشام وشبه الجزيرة العربية والعراق ومصر على حين أن سلطتها في المغرب العربي لم تزد عن كونها سلطة اسمية وفي البلقان لم تقتصر النزاعات الانفصالية على المسيحيين الأروذكس في الصرب والجبل الأسود ودلماشا وملدافيا والمورة بل قام بها مسلمون من أمثال "بأشغاق أوغلوا البشتاقي" الذي كان يداعبه حلم إحياء الامبراطورية البلغارية كما كانت عليه في العصور الوسطى على أن تكون الآستانة عاصمة لها وعلي باشا والي ألبانيا الذي وحد المسلمين في ألبانيا وكانت له اتصالات فعلية واستقل استقلالاً فعلياً وتلوح مشكلة الرجل المريض وتتربص أوروبا الدوائر بأملاك آل عثمان وتحرك موجة أفكار سياستها بشيء يشبه مشروعاتها التي فعلت فعلها ولم تؤجل تحقيقها تحقيقاً سوى اختلاف الدول الكبرى حول توزيع الأسلاب وكل ذلك أملى على محمد علي خطة العمل فأصبح هدفه الأكبر هو إنقاذ مصر من المصير الذي تتعرض له الإمبراطورية العثمانية وكان هذا الهدف يستلزم أساليب جديدة في العمل والتنظيم.

حين استقر الأمر لمحمد علي على تنظيم الإدارة وأشرف على الدواوين التي كان كل ديوان منها يختص بناحية معينة من نواحي الدولة المختلفة وأصبح هو على قمة جهاز التحكم وأنشأ المجلس الاستشاري (لم يكن له أية سلطة) ولكنه كان يستعين به في مشروعاته ونظم الحكم الخديوي (الملكية ليست من مستحدثات حكم إسماعيل إذ كان الديوان المحيط بمحمد علي يسمى الديواني الخديوي) ونظم الحكم هذا الذي أنشأه محمد علي نظام أوتوقراطي... أي حكم الفرد المستبد الذي يحد من سلطات مستشاريه أو المجالس النيابية أو الهيئات الشعبية.. ذلك أن طوائف الحرف وشتى الطوائف الأخرى وهي الطوائف التي كانت وسيلة للربط بين الحاكم والمحكوم قد شلت في عهد محمد علي ولم يعد لها السلطان الذي كان يتمتع به في العصور السابقة

وبقى منظمات الحرف حتى أوائل القرن العشرين حين حلت رسمياً وما لبثت أن حلت محلها منظمات عصرية كالمجالس المحلية والنقابات والجمعيات والأحزاب.

وبهذا كان الجيش هو الحافز على الصناعة وعلى التعليم وغير ذلك من ألوان النشاط الذي شاهدها عصر محمد علي .

أما في مجال الاقتصاد فقد عرفت مصر التوجيه الاقتصادي الذي يمكن تلخيصه في اصطلاح رأسمالية الدولة وعرف تاريخياً باسم "نظام الاحتكار" وقد قام محمد علي في المجال الاقتصادي بإلغاء جميع الفئات التي تقف بين المنتج والمستهلك فألغى الالتزام في جمع الضرائب وأشرف على الأوقاف وصادر الأملاك خصوصاً ملكية الأرض ثم أعاد توزيعها على الفلاحين على شكل ملكية انتفاع لا ملكية خاصة بمعنى أن تبقى الأرض في يد الفلاح طالما يحسن استغلالها ويؤدي ما عليها من ضرائب ووزع محمد علي ملكيات واسعة على أقاربه ووضع بذلك أساس الملكيات الكبيرة التي عرفتها مصر الحديثة وهي الملكيات التي لم يقضي عليها إلا بقانون الإصلاح الزراعي الصادر في أواخر ١٩٥٢م.

وكان محمد علي هو الذي يشرف بنفسه على توجيه السياسة الزراعية طبقاً لسياسته الاقتصادية العامة فتوسع في المزروعات ذات القيمة التجارية أو الصناعية كالقطن والنيلة والكتان وقصب السكر والقنب.

وفي مجال الصناعة أهمل الصناعات القديمة وطوائف الحرف وأقام الصناعة الحديثة اللازمة للجيش في المحل الأول يشجعه على ذلك أيضاً رخص الأيدي العاملة وصلاحية مناخ مصر للنشاط الصناعي ونظام الاحتكار.

وكان إنتاج المصانع المختلفة يسد حاجة الاستهلاك المحلي ونشأت في مصر صناعات مختلفة يرتبط توزيعها بنظام الاحتكار فكان الفلاح يقدم محصوله إلى الحكومة فتأخذ قسطاً من ثمنها نظير الحبوب والمواشي التي تقدمها له كما تأخذ قدراً آخر نظير

الضرائب ثم ترغم الفلاح على شراء الأقمشة التي تنتجها المصانع..ومن هنا كان نظام الاحتكار والحماية الجمركية من العوامل الرئيسية التي أدت إلى نشاط الصناعة في مصر في ذلك الوقت وأثبتت جهود المصريين في مجال الصناعة التي كان بعضها يتم بالطريقة التي يألفونها والبعض بالطريقة الحديثة أثبتت زيف القول بأن مصر بلد زراعي فقط ولا يصلح للصناعة.. وظلت الصناعة قائمة في مصر حتى انهيار آمال محمد علي السياسية سنة ١٨٣٨م.

محمد علي باشا على ظهر جواده يتجول في شوارع مصر في ذلك الوقت

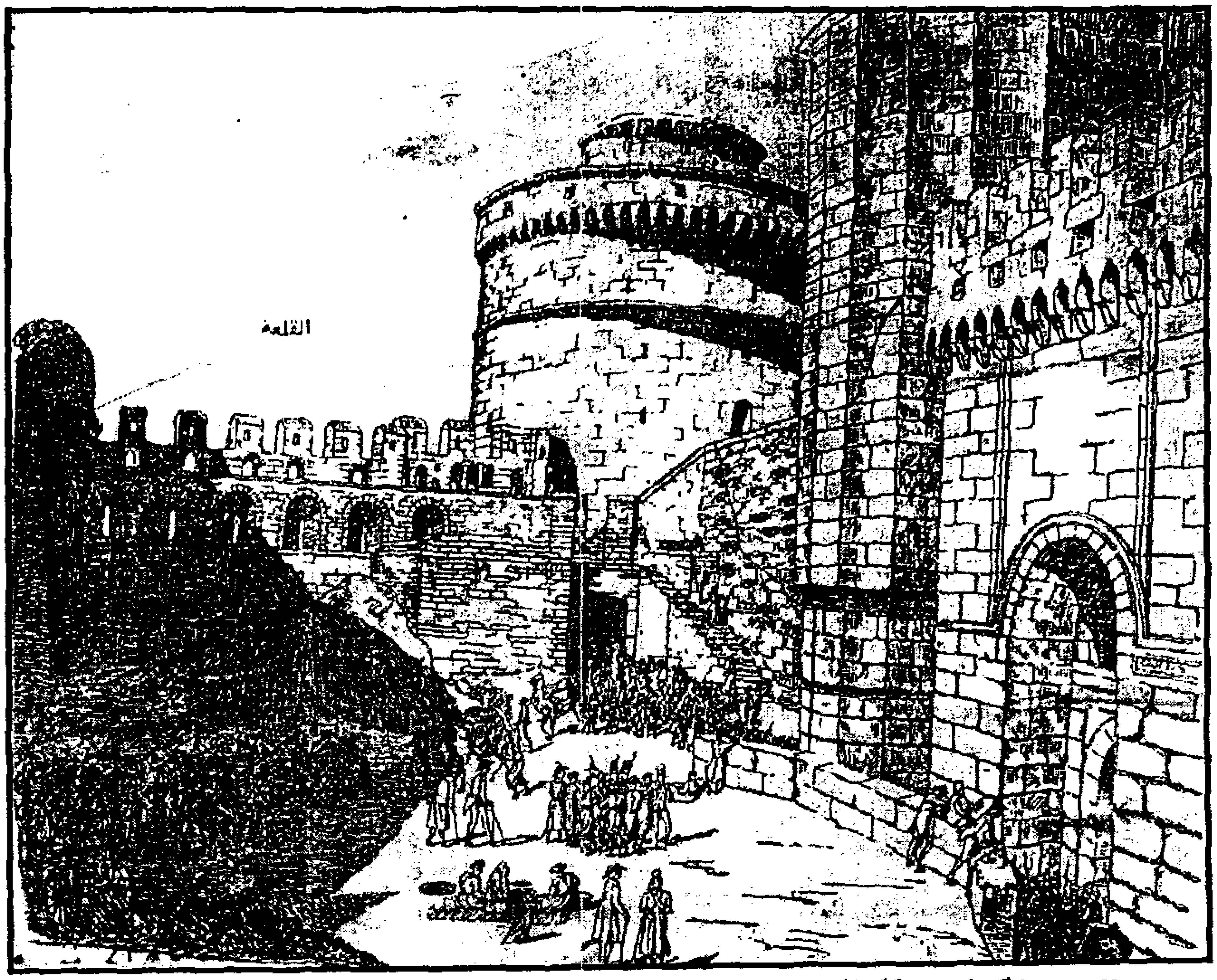

صورة من الخارج للقلعة في عهد محمد علي عقب توليته حكم مصر

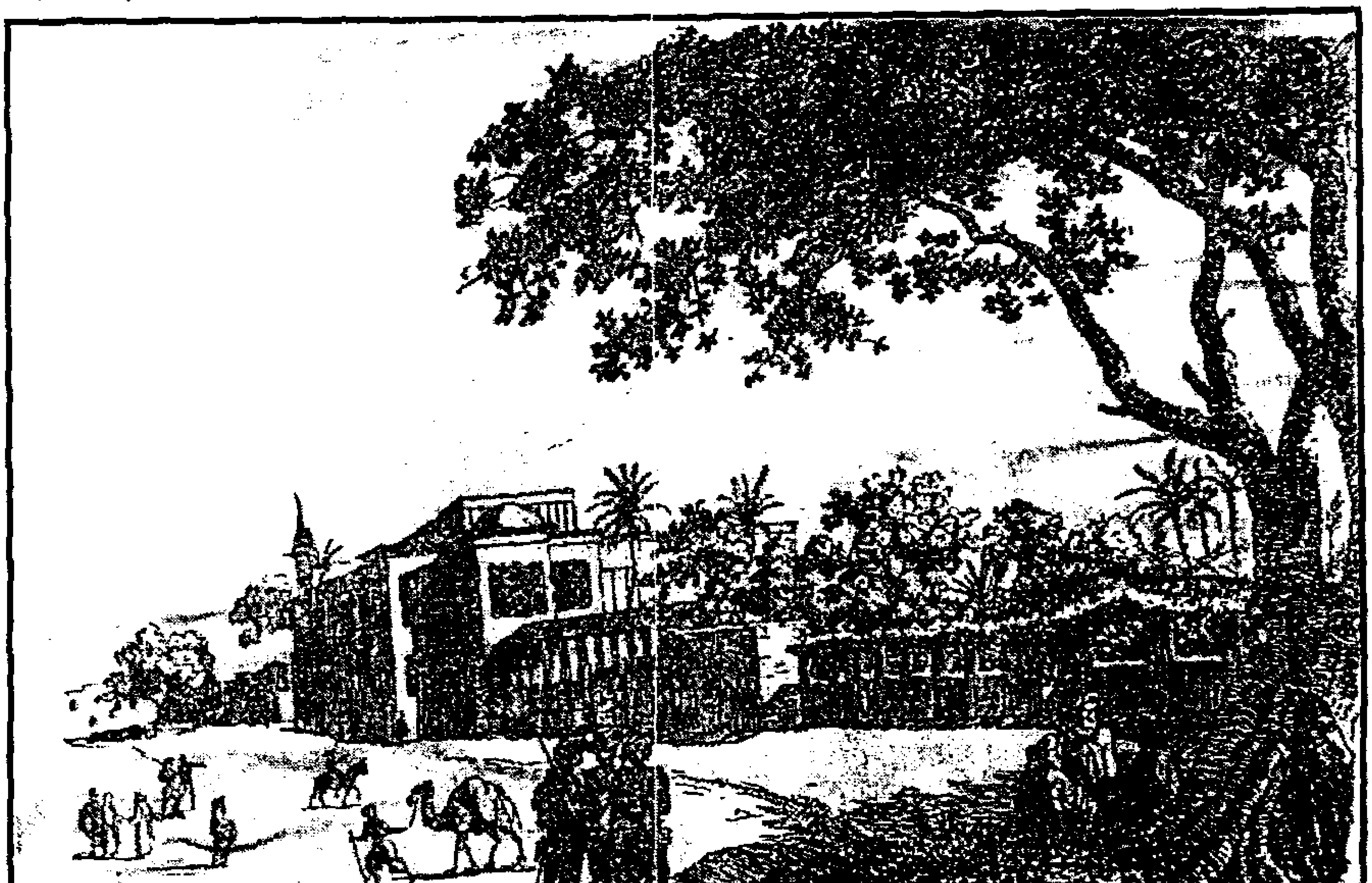

سراي الأزبكية

الباب الثاني

مستشارو محمد علي باشا

الفصل الأول

الحياة العامة في مصر
المستشار العسكري للجيش المصري بدرجة وزير الحربية

سليمان باشا الفرنساوي

كان والد سليمان الفرنساوي يعمل أجيراً في ضواحي مدينة ليون الفرنسية التي تقع بين نهري السون والرون. هذه المدينة كانت صغيرة ثم أخذت تتسع رويداً رويداً حتى ظهرت على أرضها مبانٍ كثيرة.

تحولت هذه المدينة في عهد الإمبراطور أغسطس وحلفائه إلى سوق تجارية ومع مرور السنين زادت التجارة بها فاتسعت لدرجة كبيرة ويرجع ذلك إلى أهميتها وموقعها الجغرافي لكنها تعرضت لإغارة القبائل المتبربرة التي أدت إلى كساد السوق التجارية.

هذا الكساد كان عامل من العوامل التي أدت إلى تحول رجال الاستثمار التجاريين إلى الصناعة.. وبعد فترة عادت الحياة التجارية إلى ما كانت عليه من قبل وانتعشت تجارتها وازدهرت بين المدن الفرنسية برونق جديد فصارت قبلة التجارة العالمية وأصبحت بين المدن مثل العاصمة باريس وبدأت شهرتها تبدو في سماء الصناعة والتجارة العالمية واشتهرت بصناعة الملابس الحريرية وعلى أرضها خلق الله عظماء فرنسا.

والد سليمان يدعى (أنسلم سيفرس) ظل وسط قومه ينعم برعايتهم حتى بلغ الخامسة عشر سنة فلم تعجبه حياته وحياة أسرته فرحل عنهم باحثاً عن عمل يكفله فلم يجد أمامه غير أعمال صغيرة توفر له القوت الضروري فلم ييأس وظل يبحث عن عمل آخر حتى وجد ضالته في مصنع البرانيط فتعلَم في هذا المصنع أسرار المهنة وأتقنها وبعد مدة اشتاق إلى مدينته "ليون" فرحل إليها واستقر بها. ورغم وجود بطالة لدى شباب المدينة إلا أنه اعتمد على نفسه بأن استأجر مكاناً ضيقاً صغيراً حوله إلى مصنع لتلك المهنة التي أتقنها وهي صناعة "البرانيط" واستخدم قدراته العقلية التي وهبها الله له فغير من شكل وألوان البرانيط وبهذا التغير جذب الناس إلى شرائها. ومع مرور الأيام ذاعت شهرته في التجارة وابتسم له الحظ وأكثر من ذلك زادت طلبات الشراء فنشط بقدر ما لديه من قدرة يمكن أن تغطي هذه الطلبات وجنى من وراء ذلك مبالغ

كبيرة ثم اقتحم مجال التصدير إلى دول أوروبا. وصار من مشاهير الصناعة الفرنسية لكن هذه الثروة التي جناها من وراء صناعته لم تقف حائلاً أمام طموحاته فاعتبرها مرحلة من مراحل حياته. ففقد مجالات عمله بأن فكر في صناعة أخرى ترضي غروره وطموحاته. فوصل تفكيره إلى الدخول في مجال صناعة الآلات التي تحتاجها المصانع الكبرى. وقد حقق من وراء هذه الصناعة بناء ثروة طائلة عما كان صانعاً للبرانيط.

وكان في حاجة إلى الاستقرار الأسرى وإلى زوجة تسانده في حياته فتزوج في عام ١٧٨٦م من بنت رجل طحان يعمل في إحدى الطاحونات للغلال في المدينة. وكانت الزوجة التي ملأت حياته لا تملك غير الفقر المدقق. أخبرته بحالها حين الارتباط بها بعقد الزواج في الكنيسة لا مال لها حتى يمكنه أن يوفر له داراً كما أخبرته بأن حالتها المالية لا تمكنها أن تشتري ثوباً للزفاف مثل بقية بنات جلدتها... كانت صراحتها موضع إعجابه بها وتمسك بها لما رأى فيها العفاف ومسحة من الجمال الهادئ فأعطته هذه الفتاة حبها وإخلاصها ومكنته من تنفيذ مشروعاته. وقد رزقهما الله بعد مضي سنوات قلائل خمسة من الأطفال كان سليمان الطفل الثاني كان مولده في ١٧/ ٥/ ١٧٨٨م وعندما شب لهيب الثورة الفرنسية بعد ميلاده بعام التي أرادت أن تتخلص من الإقطاع سواء بالقتل أو بمصادرة ممتلكات الإقطاعيين، سارع أحد هؤلاء الإقطاعيين وهو "الماركيز دي باوال" ليبيع قصره الذي أبقته له الثورة لظروف ماليته المتعثرة وللظروف السياسية التي تعرضت لها حياة الإقطاعيين كافة فتقدم والد سليمان ومعه ثلاثة من الأصدقاء كشركاء معه في صناعته فاشتروا القصر ثم هدموه وأقاموا على أرضه عمارات أعدت للسكن لأسر صغيرة ثم باعوا الأثاث الذي كان فيه من تحف نادرة وأسلحة قديمة بمبالغ طائلة، وقد حقق والد سليمان أرباحاً لم يحلم بها من قبل.

أما ظروف المجتمع الفرنسي تحولت عندما شبت الثورة بلهيبها فغيرت من أخلاقيات بعض الأسر من اللين إلى القسوة والشراسة هذه الأخلاقيات الثورية ورثها

سليمان فصارت طبائعه الشراسة والقسوة والتحدي والتمسك بالرأي ومنذ شبابه كان يرفض الرأي الناصح له خاصة الصادر له من والده أو أقاربه.

وصارت حياته حسب هواه وما يرتضيه لنفسه. وقد حاول الأب إصلاح ما فيه من طباع وإخضاعه لسلطته فباءت محاولاته بالفشل الذريع بل زادته تمسكاً بها، حاول الأب أن يقوم بتدريبه على صناعته فرفض الأسلوب الأبوي مما أجبر الأب أن يستخدم العقاب الشديد معه باستخدام العصا فيظل يضربه بها حتى يتعب ويظل سليمان على موقفه من التحدي متحملاً ألوان الضرب فلا يعترض ولا يتأثر ولا يبكي ولا يصرخ بل يتقبلها، استخدم الأب أسلوب التوبيخ بأقذر الشتائم والألفاظ الجارحة فلم يتحرك لها سليمان وكأنه يقول لنفسه "هذا أسلوب أصحاب السلطة" فقرر الأب أن يلحقه بإحدى المدارس الفرنسية التي يتعلم فيها أبناء الطبقة الراقية لعل وعسى أن تستقيم أخلاق سليمان وتتعدل طباعه وكان ذلك في عام ١٧٩٩م وعمره كان وقتئذ ما بين ١١، ١٢ عاماً ثم ألحق بعد ذلك بإحدى مدارس البحرية الفرنسية، ورغم أن قوانين البحرية صعبة لكنها كانت تطبق على تلاميذها بأي شكل دون تمييز فلم تغير من طباعه بل زادتها من سيء إلى أسوء، وبعد تخرجه والتحاقه بالعمل في البحرية الفرنسية وقفت طباعه وأخلاقه حاجزاً متعباً إزاء ترقيته فسبقه زملاؤه الضباط في الترقيات.

وتقول الوثائق والمراسلات التي نشرت أخيراً إنه كان يعمل كصف ضابط في الالاي الثاني للطوبجية البحرية (المدفعية البحرية) وفي أثناء الحرب التي اشتعلت بين فرنسا وإنجلترا كان نصيبه فيها جرح كبير في ذراعه اليمنى نقل على أثره إلى سفن الطرادة الفرنسية، رغم تلك القسوة والمعاملة السيئة وتطبيق القوانين الصارمة ضده ظل متمسكاً بأخلاقه لم يغيرها ولم يطورها وكان دائماً رافضاً لأوامر رؤسائه.

ويحدثنا تاريخه في الجيش الفرنسي إذ أنه لم يقبل الإهانة الموجهة إليه من أية رتبة عسكرية كبيرة ويرجع ذلك إلى تحديه لسلطة والده وهو طفل، حدث أن واحداً من كبار

الضباط في الجيش طلب منه تنفيذ أوامره فرفض فاستخدم ذلك الضابط (الكولونيل) عصاه ليضربه بها، وفي لمح البصر خطفها منه وظل يضربه بها على ظهره - وكانت رتبته كولونيل - حتى انكسرت وحسب القوانين قدم للمحاكمة العسكرية بتهمة الاعتداء على رئيسه وعدم تنفيذ أوامر قائده، وتم القبض عليه على أثر هذا الحادث ووضعت القيود في يديه ورجليه وسجن وجاءت محاكمته بنص القانون العسكري الذي ينص على من لا يطيع أوامر رؤسائه أو يثور عليهم أو يفكر في الاعتداء عليهم أو يحدث أية تشوهات يحكم عليه بالإعدام وفعلاً صدر الإعدام عليه رمياً بالرصاص، وجاء وقت التنفيذ فصدرت الأوامر من أعلى رتبة عسكرية بوقف التنفيذ ويرجع تدخل تلك الرتبة العسكرية إلى أن سليمان في حالة القتال بإحدى المعارك التي خاضتها الجيوش الفرنسية تعرض صاحب الرتبة العسكرية العليا للقتل مما كان من سليمان أن حماه من القتل وجرى به إلى أقرب وحدة علاج فعولج فيها من جراحه، لم تنس هذه الرتبة جميل سليمان لها وسارع إلى عرض موضوع سليمان إلى الإمبراطور نابليون طالباً العفو له فقبل نابليون طلبه وعفا عن سليمان ويرجع ذلك أن تلك الرتبة لها صلة قرابة ومودة مع نابليون وأوقف التنفيذ وأفرج عن سليمان، فاصطحبته فالحقته ضمن سيف قواته المرابطة في إيطاليا، وبدأ يترقى برتبة نفر وكان ذلك في عام ١٨٠٧م وغير اسمه باسم والده "باتسلم سيق" حتى لا ينفضح أمره بين الجنود وفي ذلك الوقت رحلت هذه القوات من إيطاليا إلى "متينخ" وتنطق بالألمانية "منكن" أو ميونخ وكانت هذه المدينة تحت حكم "بافاريا" الداخلة ضمن الإمبراطورية الألمانية وقتئذ في عام ٩٦٢، وتشتهر هذه المدينة بعمل "البيرا" وبها مباني عمومية في غاية الانتظام وأقيمت فيها مدارس ملحقة بمكتبات تحتوي على ١٤٠٠٠ كتاب من الكتب المطبوعة و ١٠٠٠٠ من الكتب مخطوطة وكان عدد سكانها ٢٧٠٠٠٠ نسمة.

وفي ١٥/ ٤/ ١٨٠٩م تحركت هذه القوة العسكرية يقودها ضابط فرنسي للاستكشاف واصطحب معه "سليمان المعروف باسم سيف فكان نصيبهم الأسر. وقد

قاوم سليمان هذا الأسر بكل طاقاته لكنه عجز بعدما أصيب بطلق ناري وثلاثة جروح في جسمه وقتل حصانه وتمكن من الهروب ولم يشهد نهاية ما تم لزملاء القوة، وتم نقله إلى "هنكار" مدينة مجرية حيث أنقذ من الموت".

ولما شفاه الله وجد عملاً عند أمير من أمراء المجر وتوطدت بينهما العلاقات الودية حتى صار له صديقاً بدلاً من كونه أسيراً ثم عاد إلى وطنه بعد عامين كاملين وعند عودته انضم إلى وحدته العسكرية (آلايه) وكانت في مدينة فيندول الفرنسية حيث تم ترقيته إلى رتبة جاويش مكافأة له على معاناته.

وصباح يوم ١٦/ ٦/ ١٨١١م سافر مع وحدته إلى بلاد "هانوفر" الألمانية واشترك في قتال روسيا أما الجيش الفرنسي يضم بين جوانبه كثيراً من الفرنسيين والإيطاليين والألمانيين، وبلغت إحصائية هذا الجيش ٦٠٠.٠٠٠ جندي وقد أرغم الجيش الخليط روسيا على التقهقر أمامه وظل يقاتل الجيش الفرنسي بالضغط عليه فأضطر الروس أن يهربوا من الميدان وفسح الطريق أمام القوات الفرنسية بالدخول في عاصمة الروس "موسكو" وكان تحت قيادة "الماريشال بي".

من هو الماريشال بي؟

الذي ولد في عام ١٧٦٩م بقرية صغيرة من أملاك روسيا ١٨١٥م وكان والده يعمل في صناعة براميل الخمور وتطوع الماريشال بي في الجيش الفرنسي عام ١٧٨٧م.

تطوع الماريشال بي في الجيش الفرنسي ١٧٨٧م وعمره وقتئذ ثمانية عشر عاماً وانتصر على الألمان في معركة "السنجن" عام ١٨٠٧م وترقى الماريشال بعدها إلى رتبة لواء ثم رقى بعد ذلك إلى رتبة فريق عام وكان عمره وقتئذ ثلاثين عاماً وأطلق عليه نابليون لقب "دوك دي السنجن" وبرنس دي لامورسكودا" وقد حاز على لقب البرنس عقب انتصاره على الروس في معركة "موسكو".

خرج نابليون من فرنسا منفياً وعادت إليها الملكية مرة أخرى بعد أن كانت جمهورية وتولى العرش الملك "لويز الثامن عشر" الذي لقبه الشعب الفرنسي "بير دي فرانس".

هرب نابليون من منفاه إلى جزيرة " آلب" فانضم إليه الماريشال بي وقد قدم للمحاكمة بعد هزيمة نابليون في "وترلووا" في ١٨/ ٦/ ١٨١٥م وحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم في ٨/ ١٢/ ١٨١٥م.

وقد استفاد "سليمان" من هذه الأحداث فرقي إلى رتبة "يوزباشي" ولسوء حظه تدخلت إنجلترا وروسيا وهزمتا نابليون في موقعة "وترلووا" كما ذكرت وخلدت هذه الموقعة القائد الإنجليزي وقرر نابليون تسليم نفسه للقائد الإنجليزي. وقررت الحكومة الإنجليزية نفيه إلى جزيرة "سانت هيلنيه".

من هو الدوك دي ولنجتون؟

ولد في عام ١٧٦٨م في إحدى مدن أيرلندا من عائلة حديثة الشرف، تعلم الفنون الحربية في مدرسة " أنجيز" وهي من أعمال فرنسا ، دخل الجيش الإنجليزي برتبة ملازم ثان في عام ١٧٨٧ م ثم أرسل إلى الهند مع أخيه "اللورد سلني" الذي عين حكمدار في عام ١٧٩٦م وظهرت شهرته في عدة معارك حربية ثم عاد إلى إنجلترا عام ١٨٠٥م وانتخبه الشعب الإنجليزي عضواً في مجلس العموم ثم عين سكرتيراً أول لحكومة أيرلندا. وفي عام ١٨٠٨م عين قائداً للجيش الإنجليزي الذي أرسل إلى البرتغال لحمايتها فتمكن من إجلاء الفرنسيين منها ثم طردهم من أسبانيا حتى أكرههم على الجلاء من عدة معارك أهمها معركة "قنوريا" ١١/ ٧/ ١٨١٢م ورقى على أثرها إلى رتبة مارشال ثم منح لقب دوك ثم اجتاز جبال "برينيه" وحاصر مدينة "تولوز"

بفرنسا ولم يتمكن من دخولها لمناعتها ثم توجه إلى باريس عندما دخلتها الجيوش الأوروبية لأول مرة. ثم عين نائباً عن إنجلترا في مؤتمر فيينا الذي عقد لتسوية حالة أوروبا بعد سقوط نابليون في منفاه.

وفي مارس ١٨١٥م اعتزل الأعمال العسكرية وعاش الحياة المدنية ثم وافته المنية في عام ١٨٥١م.

سيف الفرنساوي الذي لقب بسليمان في مفترق طرق الحياة

بعد تنفيذ حكم الإعدام في "الماريشال بي" صارت حياة سيف سيئة للغاية لدرجة أن الحالة قد وصلت به إلى الجوع فلم يملك قوت يومه وكادت حياته تتعرض للموت. لكن يد العناية الإلهية امتدت إليه بمن يعطيه ما يسد جوعه، وقرر الرجوع إلى الجيش ولكن جهوده باءت بالفشل، فبحث عن عمل يغنيه عن طلب الإحسان فلم يجد.. فاضطر أن يعود إلى التجارة والسمسرة خاصة تجارة الخيول والعربات فوفق بدرجة ضئيلة، ولم يصل إلى يديه إلا قليلاً من المال الذي يكفيه عدم السؤال لسد الجوع عنده واستمر يسعى من عمل إلى آخر ومن وظيفة إلى أخرى لعل وعسى تستقر حالته.. وأخيراً اتجه إلى إيطاليا حيث يوجد عمه فظل معه حتى قيض الله له من يلحقه مع محمد علي بمصر حيث يقوم بعمل هو تنظيم الجيش المصري على أحدث النظم الأوروبية الحربية.

سانده الكونت "دي سنجور" بالالتحاق في قوات محمد علي بعد أن أمده برسالة منه إلى محمد علي يوصيه بسيف كما أرسل إلى بعض الفرنسيين المقيمين وقتئذ في القاهرة لتقديم يد العناية له، هذه المساندة جعلته يشعر بالفرح وانتهاء سوء الحظ الذي لازمه مدة طويلة في حياته . فما كان منه إلا أن سارع إلى الاتجاه إلى ميناء مرسيليا ومنها إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة حيث استقبله أحد الفرنسيين الكرماء فقام بتقديمه

إلى محمد علي، وصادف وصوله إلى القصر وصول خبر سار هز أهل القصر وهو انتصارات الجيش المصري في الحجاز على الحركة الوهابية، استقبل محمد علي وصول انتصار الجيش المصري بالسعادة وخبر وصول سيف بالترحاب ووعده بمساعدته في القريب العاجل.

كان محمد علي منذ أن استقر على عرش مصر ينوي في قرارة نفسه أن يكون له جيش كبير مدرب على أحدث النظم الأوروبية ولديه أحدث الأسلحة مثل الجيوش الأوروبية، وبعد أن تخلص من شراذم المماليك وسيطر على مصر سيطرة تامة خاصة على اقتصادياتها وأعلن تنفيذ مشروع الحلم (الجيش الحديث) بعد أن حققت قواته الانتصارات في أرض الحجاز. وعلى الفور استدعى سيف الفرنساوي وأوكل إليه تنفيذ مشروعه... وكانت ثقته في سيف كبيرة لما وجد عنده من الشجاعة والمثابرة في الأعمال الحربية فاتفق محمد علي مع سيف أن يكون مشروع تكوين جيش منظم سراً بينهما على أن يكون سيف على استعداد في أية لحظة لتنفيذ المشروع - ولكي يحافظ على سرية المشروع أصدر محمد علي قراراً بتكوين لجنة للذهاب إلى أسوان للبحث عن الفحم الحجري لاستخدامه في صناعة الحديد وكانت المفاجأة لسيف عند مقابلته لمحمد علي أن يستلم قرار استخدامه في القوات المصرية وأن يقوم بتدريب أفراد هذه القوات على الأنظمة الحديثة الأوروبية، وكانت المرة الأولى في حياة سيف إذ تقبل قرار محمد علي بشيء من الطاعة رغم ما اشتهر به من معارضته لقرارات رؤساء الجيش الفرنسي منذ أن كان ضابطاً فيه.

ومنذ وصوله إلى مصر قرر أن تستقر الحال بها حتى نهاية حياته وأن يكون في خدمة محمد علي، وبذكائه النادر فهم أن قرار محمد علي باصطحاب لجنة البحث عن الفحم ما هو إلا تغطية لأمر المشروع ولذلك انتظر ما تأتي به الأيام..ولم تطل الأيام بأن أصدر محمد علي قراراً إلى حكومته بأن تتخذ الإجراءات اللازمة لتسهيل احتياجات سيف في ذلك المشروع.

استقل سيف سفينة حكومية أعدت له للسفر بها إلى أسوان تشق طريقها في نهر النيل. فوصل بعد أيام إلى مدينة أسيوط وكان في صحبته أحد مأموري الحكومة المصرية للحفاظ على حياته ويكون في خدمته ومعيناً كحرس خاص له في أثناء رحلته.

وعند وصوله إلى أسوان قام بجولة خلال المدينة ثم أصدر أوامره إلى العمال الذين اختارهم معه للبحث عن الفحم الحجري وكان خبر وصول إبراهيم باشا مع قواته التي حققت انتصاراتها على الحركة الوهابية وفي نفس الوقت وصل خبر عن اكتشاف سيف لبئر غاز طبيعي يمكن استخدامه في الإنارة بدلاً من استخدام الشموع والزيوت.

أسعد الخبران محمد علي واعتبرهما بداية لحظة السعد له في مصر وعلى الفور قرر محمد علي استدعاء سيف للقاهرة لمقابلة إبراهيم باشا وعند وصوله لم يسأله محمد علي عما تم في مأموريته ولا عن نتائجها مكتفياً بالتقارير التي كانت تصله تباعاً عن حالته في أسوان بل قام بتقديم سيف لابنه إبراهيم قائلاً له "إنه ضابط فرنسي يجب أن نثق فيه وفي إخلاصه لنا والاعتماد عليه في تكوين جيشنا الحديث الذي سيقوم بتدريبه على الأنظمة الأوروبية الحديثة وعلى اقتحام الحروب وتحقيق الانتصارات وبه وبإخلاصه سيحقق أهدافنا". بعد هذه المقابلة لسيف مع إبراهيم باشا أصدر محمد علي قرارًا بتعيين سيف الفرنساوي ضابط أغا (أي معلم) للجيش المصري.

كانت وظيفة ضابط أغا التي حصل عليها سيف كانت في نية الضباط الباشوزق الحصول عليها بكل الوسائل والطرق وبصدور قرار محمد علي خابت ظنونهم ولذا بدأوا في مضايقة سيف ووضع العراقيل أمام تواجده بمصر. لعل وعسى أن ييأس فيغادر من نفسه مصر إلى بلده ويؤول المنصب إلى واحد منهم.

ورغم المضايقات منهم له أبدوا عدم استعدادهم في تغير ما جبلوا عليه من قبل وأظهروا عدم اكتراث بالنظام الحديث المعمول به في الجيوش الأوروبية وتآمروا على

سيف بالتخلص منه إذا واتتهم الفرصة بذلك لاعتقادهم بأن عمله هذا كلفهم الضرر الجسيم.

كون سيف فرقته الأولى وبدأ التدريب الأول وكان في ميدان الرميلة بالقلعة بحضور محمد علي والكثير من معارض الفكرة وقد أظهروا لمحمد علي أن المشروع لم يكلل بالنجاح. ولم يكتفوا بذلك بل أعلنوا عن رأيهم علانية أمام الناس مستدلين في ذلك بالنتائج السيئة التي تعود عليهم وعلى البلاد والمحن التي كانت من نصيب القرويين وأهل المدن من وراء هذا المشروع، وأكدوا أن الشباب الذين يجندوا من فترة طويلة لم يروا أهليهم مما أدى إلى أن أحدث بعض الشباب عاهات في أجسامهم حتى يعفوا من الخدمة العسكرية. وبدأت ترويج الشائعات بأن مشروع التجنيد الحديث سيؤدي إلى تدخل الدول الأوروبية مستدلين عما حدث من قبل عند مجيء الحملة الفرنسية ثم أطلق بعض المغرضين من مشايخ الأزهر بأن هذا يعارض الشريعة الإسلامية ويخالف تعاليم القرآن الكريم.

وهاج الناس وأعلنوا تذمرهم لكن محمد علي لم يكترث بهذا كله واعتبر هذه المعارضة ما هي إلا (زوبعة في فنجان) وأنه قادر على إخمادها وقرر الاستمرار في التدريب وبحضوره يومياً مع عائلته وحاشيته وبعض القوات التي تحافظ على النظام والأمن حتى تمت عمليات التدريبات بسلام.

خشى إبراهيم وأبيه أن تستمر هذه المعارضة وتأخذ طابعاً آخر وهو المقاومة بالقوة فقرروا أن ينقل التدريب إلى أسوان لبعدها عن عاصمة البلاد ومن ناحية أخرى ألزم محمد علي ابنه إبراهيم أن يكون قدوة حسنة أمام المجندين فالتحق بالتدريب وخضع للأوامر العسكرية وأعلن أن يطبع كل ما يصدر إليه في أثناء التدريب

العسكري من أوامر. وكانت التجربة الأولى للطاعة والامتثال للأوامر لإبراهيم عندما رآه سيف واقفاً أمام الصف وهو طويل القامة وبخه توبيخاً شديداً وقال له بصوت عال " إن كنت تريد التعليم حقاً فاتبع أحكامه وتنظيماته وأن يكون وقوفك في آخر الصف مع زملائك الجنود" ، فأطاع الأمر العسكري وهذا له مغزاه بين الجنود أولاً كونه جندي مثلهم يتلقى الأوامر ولا فرق بين ابن حاكم وابن فلاح هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يطيع الأوامر التي تصدر إليه دون مناقشة أو معارضة.

أخذت الأمور تتجه اتجاهاً معاكساً إذ قرر علماء الأزهر أن يناهضوا قرارات محمد علي ويوقفوا عقبة في سبيل تنفيذ مشروع إقامة جيش حديث لمصر. لكن محمد علي لم يقف مكتوف الأيدي بل بدأ يواجه المواقف بطريقة ودية وعلى الفور اجتمع بمجلس الشورى الذي انتخبه من بين المصريين لعرض الأمر عليه ومناقشة المشروع بينه وبين أعضاء المجلس ودارت المناقشات في جو ساخن وسرعان ما هدأت نفوس الأعضاء بعد أن اتضح الهدف الذي يرمى إليه محمد علي من وراء هذا المشروع. ووافق المجلس بالإجماع على إتمام المشروع دون أن تحدث إثارة للفتنة في مصر قد تؤدي - في مثل هذه الظروف إذا استخدمت الحكومة المصرية وقتئذ القوة على الشعب - إلى فرض المشروع عليه. وكانت أهم قرارات المجلس التي استند عليها محمد علي أن يكون التدريب بعيداً عن القاهرة واستند على أن يكون التدريب في أسوان.

كان عدد المجندين الذين جاءوا بمحض إرادتهم ٤٠٠ شاب من أبناء المماليك والحراسة لخبرتهم في القتال ولم تكن لهم دراية بالتنظيمات العسكرية والحربية في شيء. وكان دخلوهم الحروب اعتمادًا على الكر والفر ويدخلون الحرب دون نظام ويقاتلون على الجبال التي تكون مخبأ لهم، وهذه الجبال تكسوها الثلوج أحياناً أو ربما طوال السنة، ويقع الاختيار على الذين يتمتعون بالصحة والقوة ويمتازوا في تحركاتهم بالسرعة وأهم ميزة أنهم يخلصون ويطيعون أوامر سيدهم بدون معارضة. ووقع على

هؤلاء الشباب الاختبار بما لديهم من قدرات عقلية وحسن تصرف وذكاء نادر وأهم شيء عندهم الاستعداد لتقبل التغيير وإذا أتموا تعليمهم يتم تعيينهم في وظيفة معلمين لغيرهم من الشباب المصري.

تحرك سيف بفرقته إلى أسوان لإتمام تدريباتهم العسكرية على النمط الأوروبي من ركوب الخيل واستخدام الأسلحة، وبدأت الدروس المعنوية لغرس حب الجندية والوطن في نفوسهم، وبدأت محاضرات سيف عن التاريخ النابليوني في أوروبا وكيف حقق نابليون انتصاراته على أكبر دول أوروبية؟ ولولا تدخل إنجلترا وروسيا والنمسا لكان لفرنسا شأن آخر ثم ختم محاضراته بقوله : "أنتم ستكونوا قدوة حسنة لجنودكم في المستقبل".

هذه التدريبات العسكرية والنظم الأوروبية التي عرفوها والتاريخ الفرنسي لم تخلق لديهم الطاعة للقائد، واجتمعوا وقرروا التخلص من سيف بقتله في أثناء التدريب على إطلاق النيران من بنادقهم.

وصلت هذه المؤامرة إلى سيف فأراد أن يستغلها لمصلحته ولمصلحة نجاح التدريبات، وعند بداية التدريبات أخذ سيف يوضح جريمة الخيانة والعقاب عليها محاولاً أن يرهب من يقوم بها ثم ختم سيف كلامه قائلاً "إن كنت قد أسأت إلى أحد منكم من غير قصد فليأت ويبارزني إما قتلته أو قتلني وبدأ التدريب على استخدام الذخيرة في إصابة الهدف ، رأى سيف أن جميع البنادق قد وجهت إليه كأنه الهدف. وانطلقت الرصاصات من البنادق نحو صدره من كل جانب. لكن كان يعرف تماماً ما يحدث له فعمل ساتراً له حتى لا تصله رصاصة طائشة تنهي حياته وفي الحقيقة لم يتدربوا على كيفية إصابة الهدف.

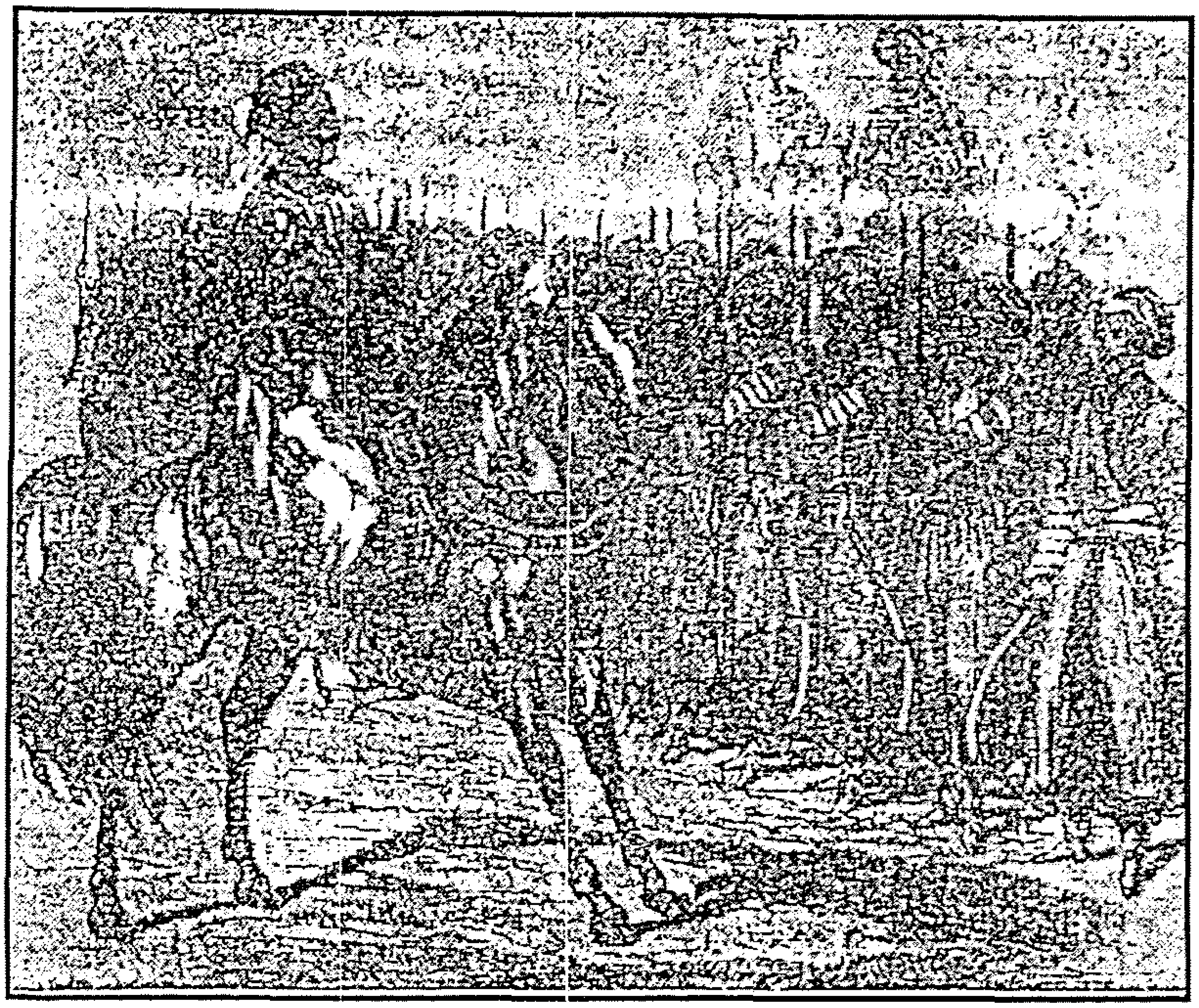

سليمان باشا يؤنب المماليك لأنهم أخفقوا في إصابة صدره ويلح عليهم في إطلاق النار عليه مرة أخرى

وحث جواده أن يجري بسرعة نحوهم وفي يده كرباج وأخذ يضربهم حتى تفرقوا ووبخهم بعدم اتقان النشان ثم أمرهم بالانتظام ثم أمرهم بإطلاق الرصاص عليه بشرط أن يصيبوه وهو راكب على جواده كهدف ثم كرر الأمر لهم بإطلاق الرصاص فذهلوا ثم رموا بنادقهم على الأرض وبسرعة انحنوا على أرجلهم وأخذوا يقبلوا رجليه ويطلبوا العفو منه وتوسلوا إليه بحرارة وفي موجة عارمة من البكاء أعلنوا بأنهم لم يعودوا إلى مثل هذا العمل مرة أخرى أبداً.

وبموقف سيف هذا ضمن ولاء فرقته له فعفى عنهم، وبدأت عمليات التدريب على كيفية إصابة الهدف ومنذ تلك اللحظة عرف سيف كيف يربي جنوده على طاعة الأوامر.

هذا الحادث الذي عالجه كان سبباً في ذيوع صيته في مصر وفي النوادي الأوروبية وصار مثار حديث الناس في كل المجتمعات.

ونصل أخيراً إلى معرفة سبب كراهية جنوده له بأنه على دين غير دينهم. وحباً في تعليم تلاميذه الجندية قرر اعتناق الإسلام فاعتنقه وغير اسمه ولقبه بأن سمي نفسه "سليمان الفرنساوي" ولبس الملابس التركية فصار في نظر جنوده واحدًا منهم فأحبوه وأحبهم وأخلصوا له وأطاعوا أوامره وبهم قد حقق الانتصارات في المعارك التي خاضها. وقد منحه محمد علي لقب "أغا" يعني معلم وعرف بلقب "سليمان أغا" أي سليمان المعلم وظل سليمان أغا في مصر حتى وافته المنية. فرحل إلى العالم الآخر بعد أن أدى عمله لمصر.

صور لقصر وضريح سليمان باشا الفرنسي دي وزوجته في مصر القديمة:

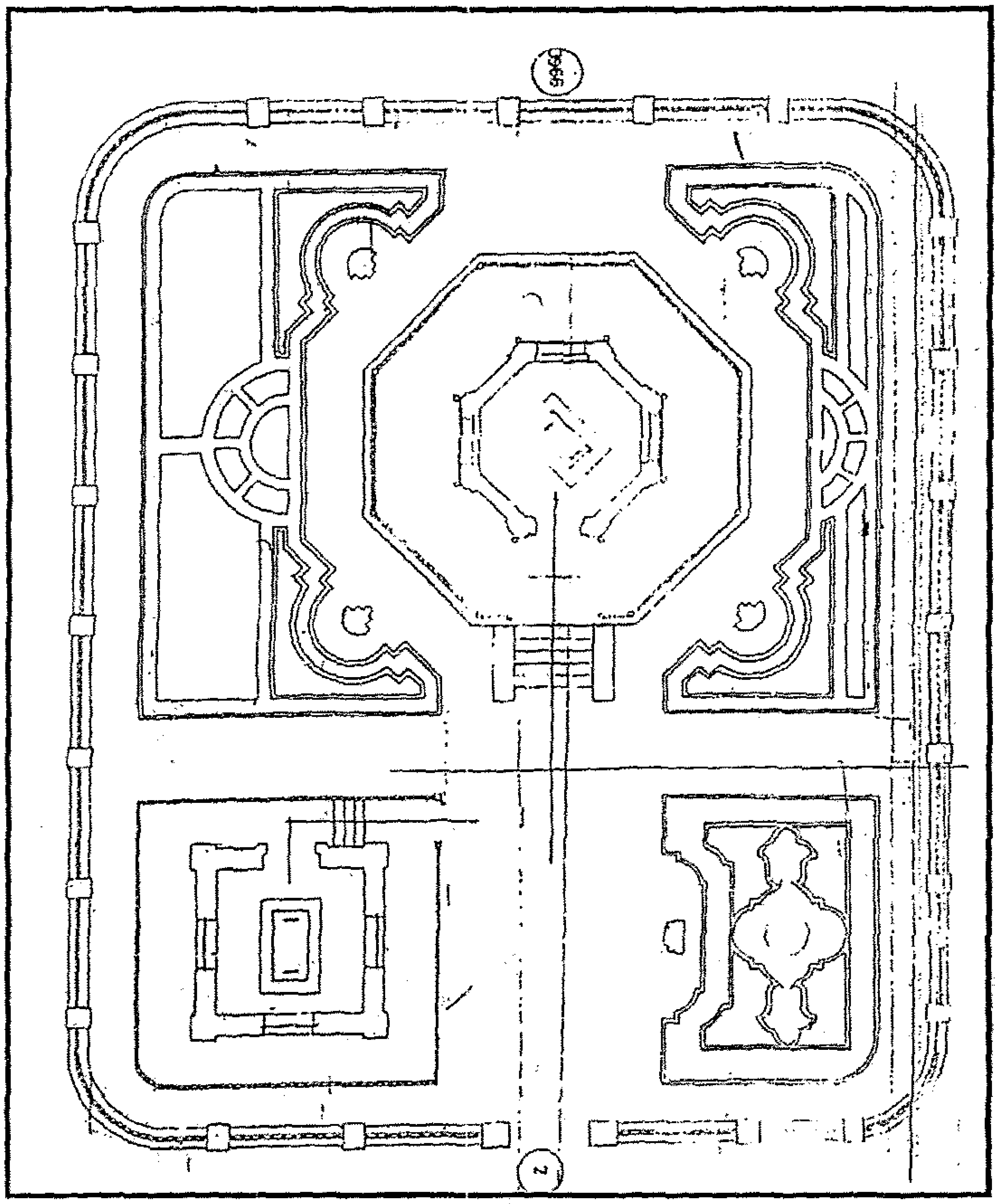

تخطيط أفقي لضريح سليمان باشا وزوجته بمصر القديمة
(عن المجلس الأعلى للآثار)

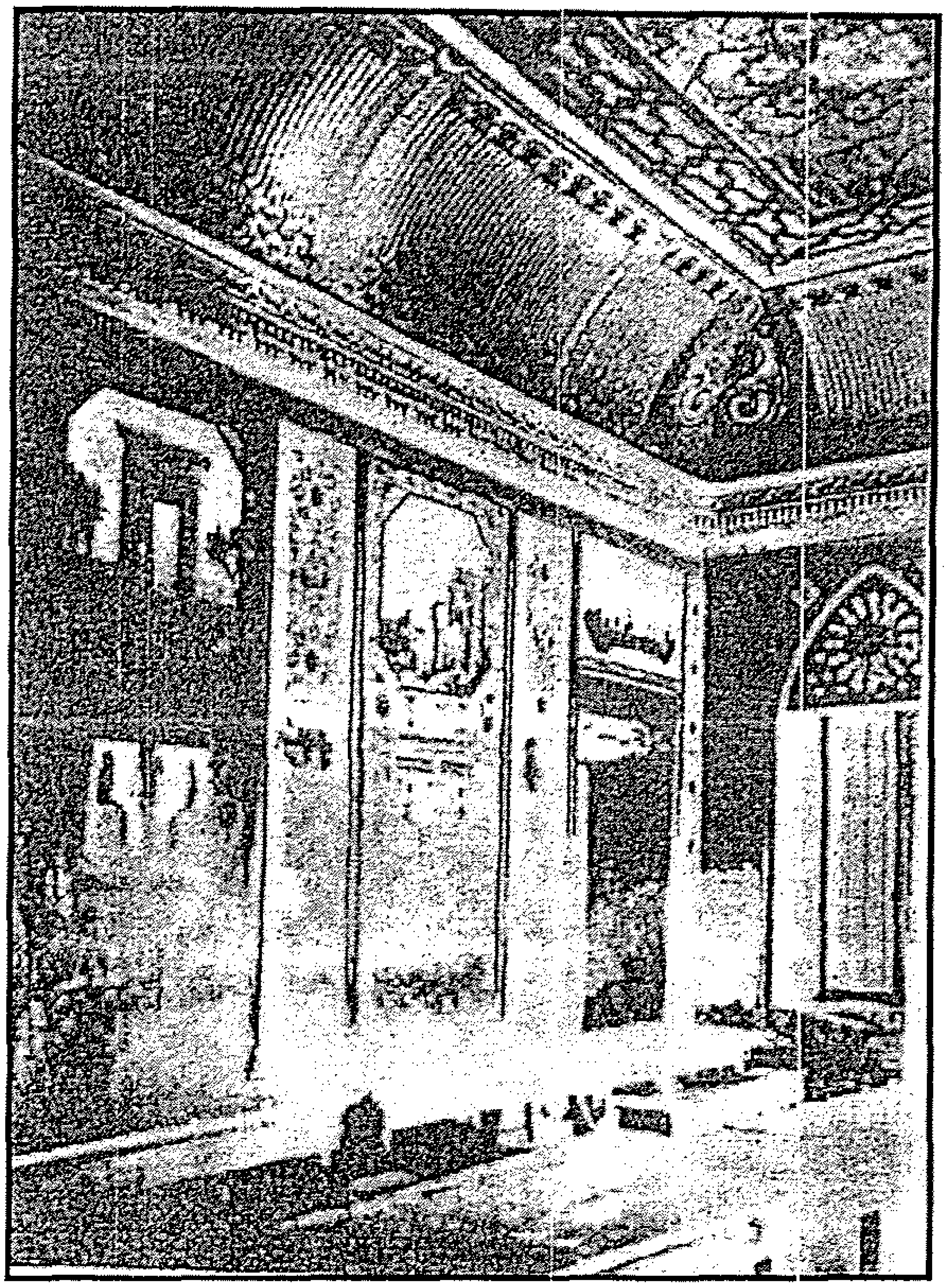

منظر داخلي لإحدى قاعات السلاملك في قصر سليمان باشا (عن Carre, Part II)

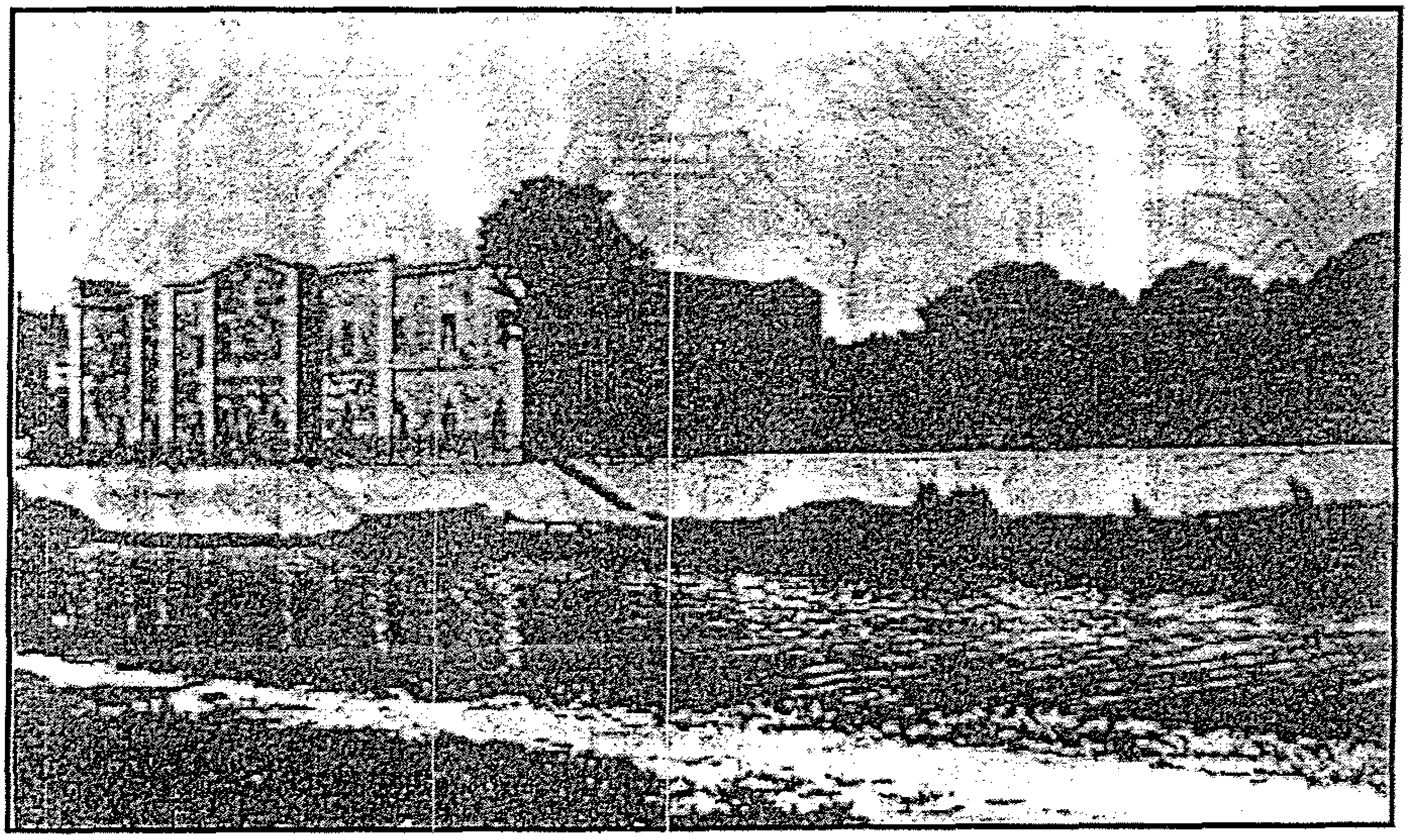

الواجهة الخارجية للسلاملك من قصر سليمان باشا المطل على النيل بمصر القديمة (اندثر حالياً) (عن Carre, Part II)

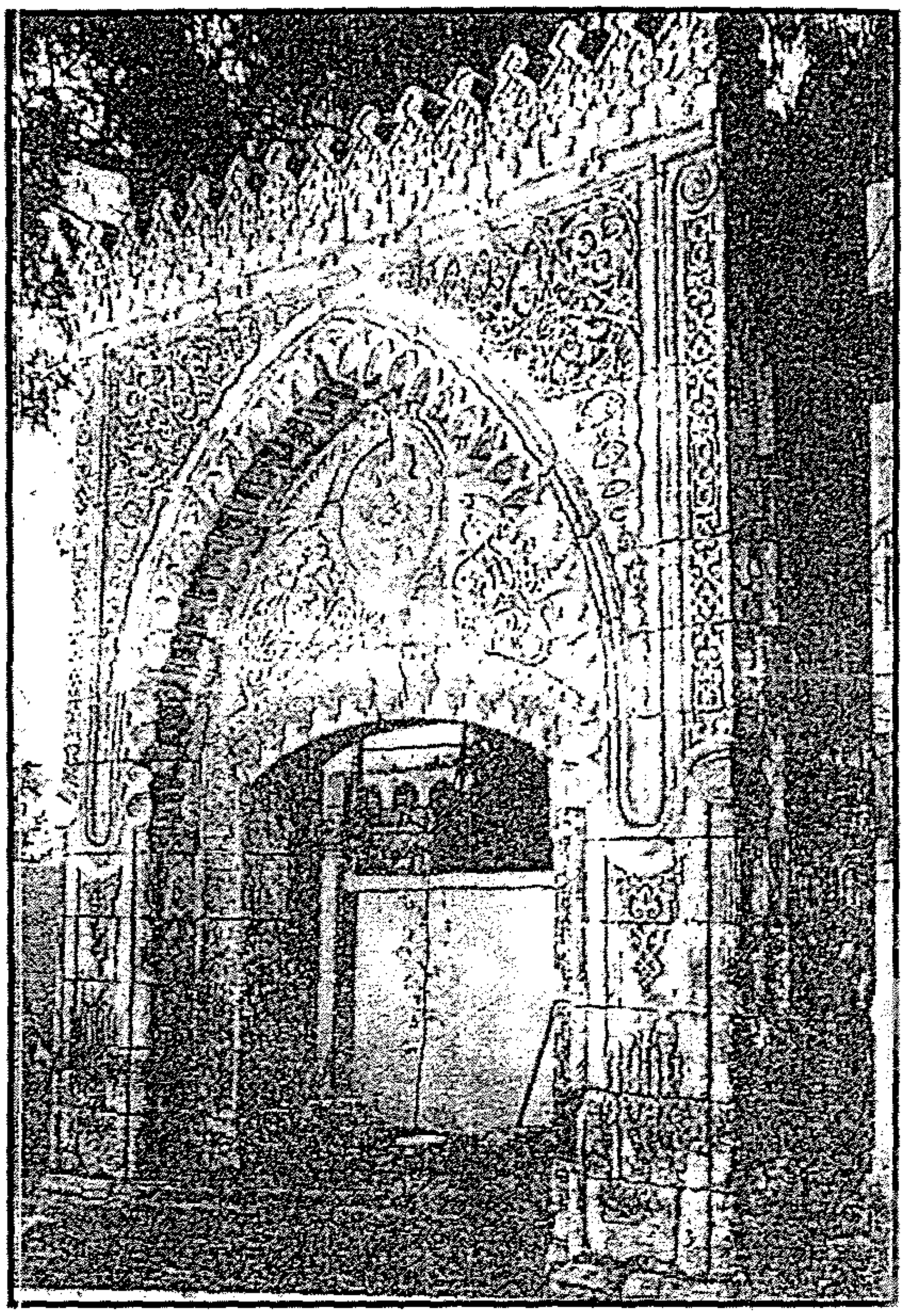

كتلة المدخل الحجرية لقصر سليمان باشا محفوظة حالياً في الفناء الداخلي لمدرسة ليسيه الحرية بالمعادي

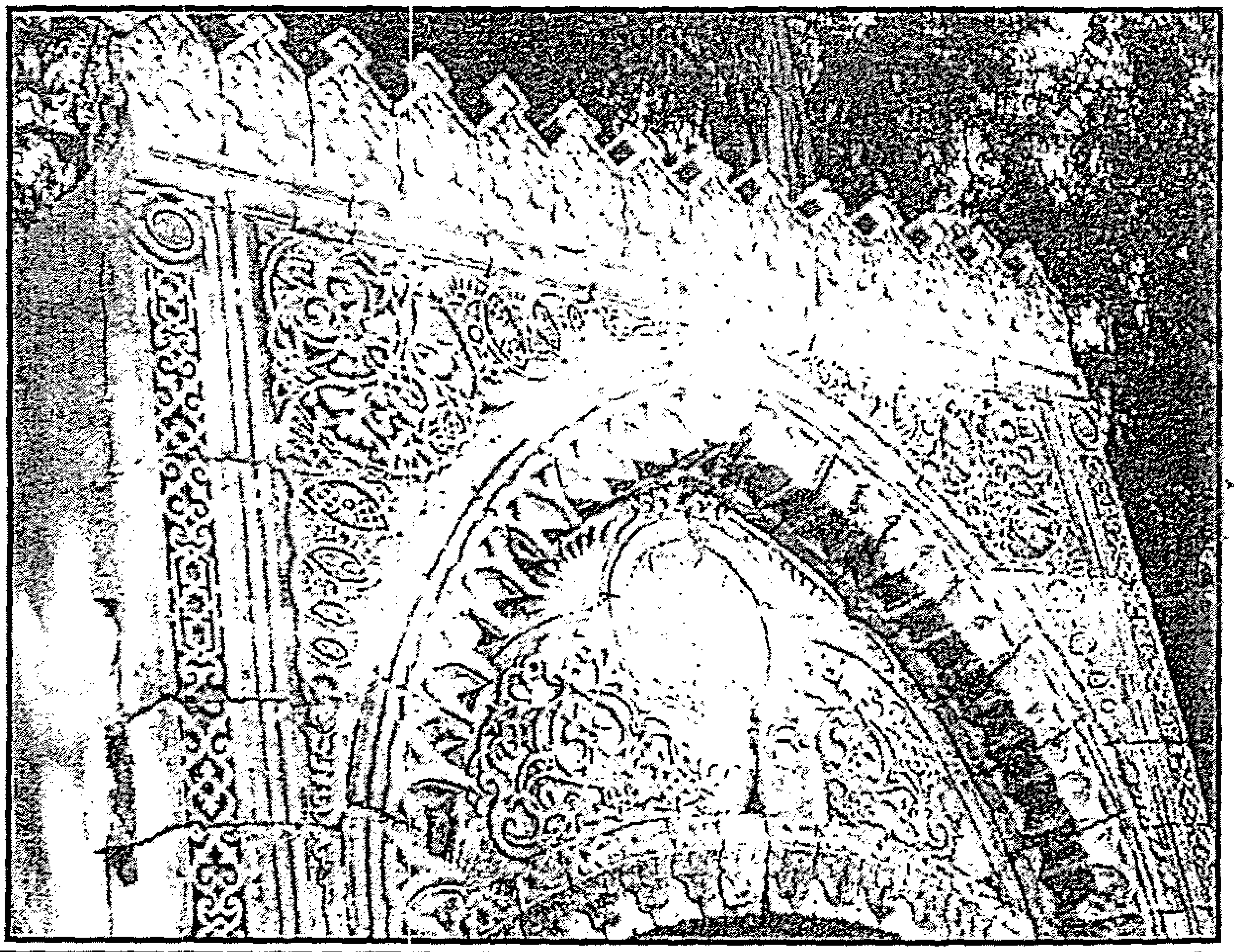

جزء توضيحي من المدخل السابق

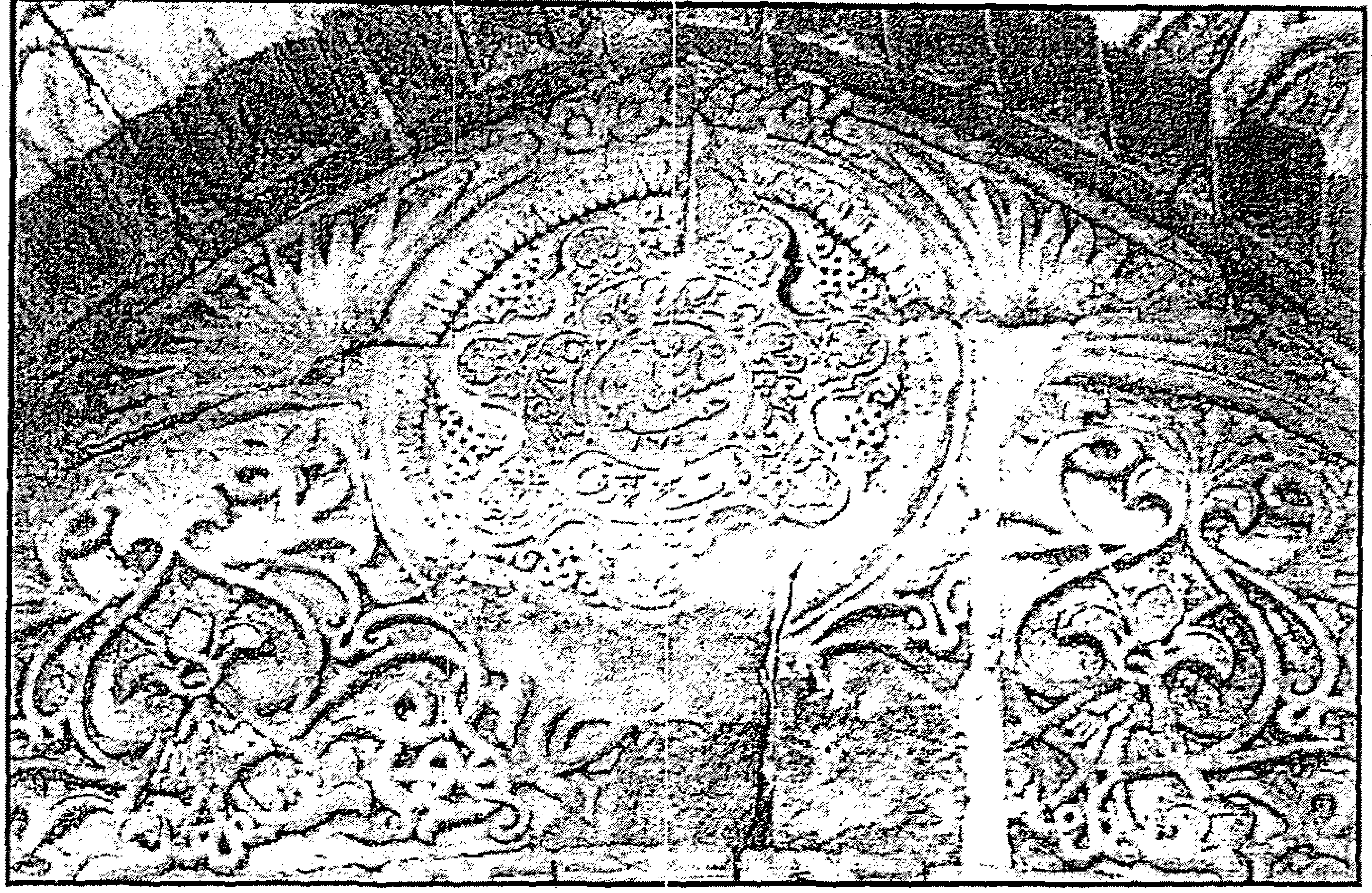

جزء توضيحي من المدخل السابق

الفناء والسور الحديدي الذي يحيط بضريحي سليمان باشا وزوجته بحي مصر القديمة

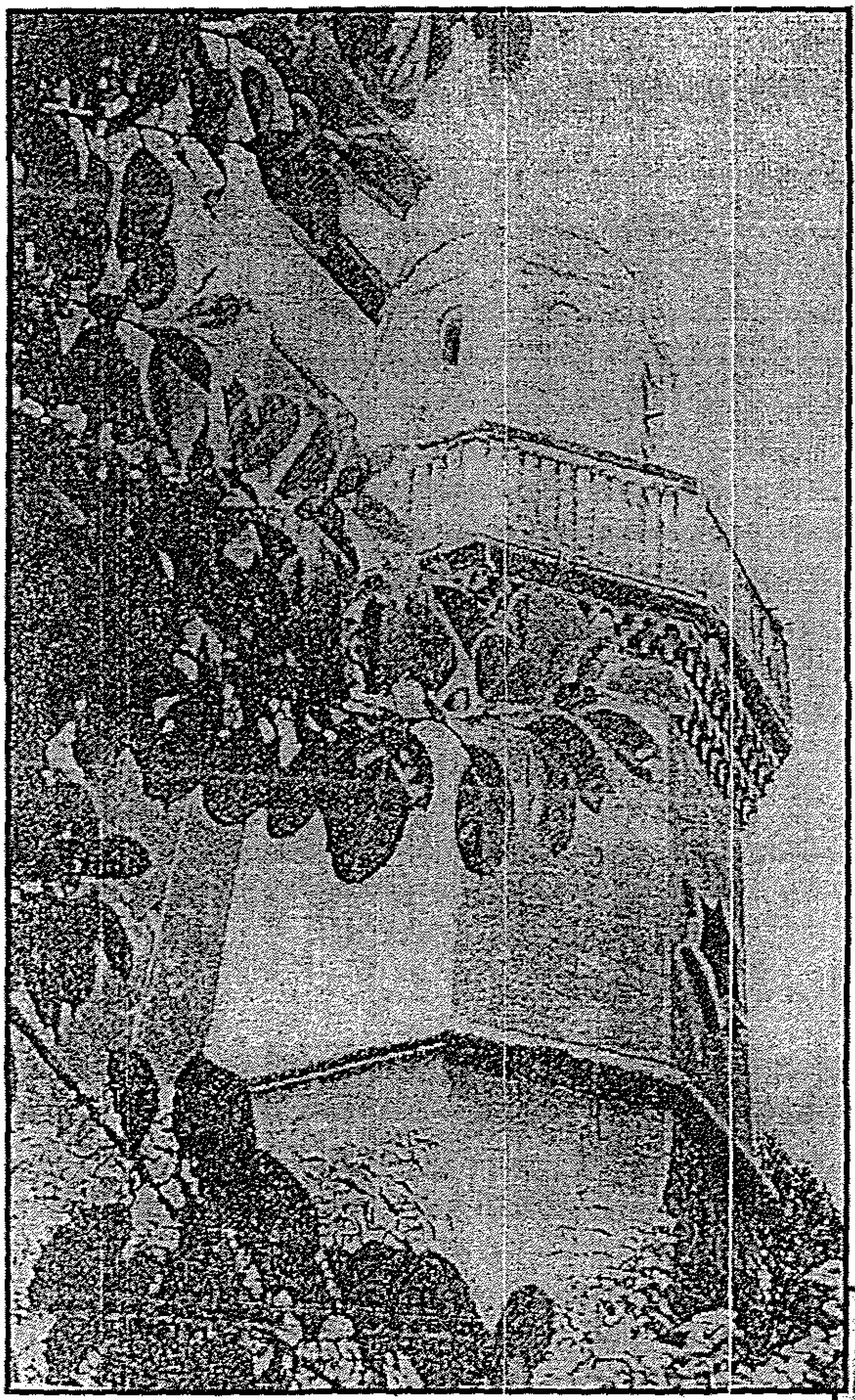

المئذنة الفاطمية المنسوبة إلى سليمان باشا بمصر القديمة

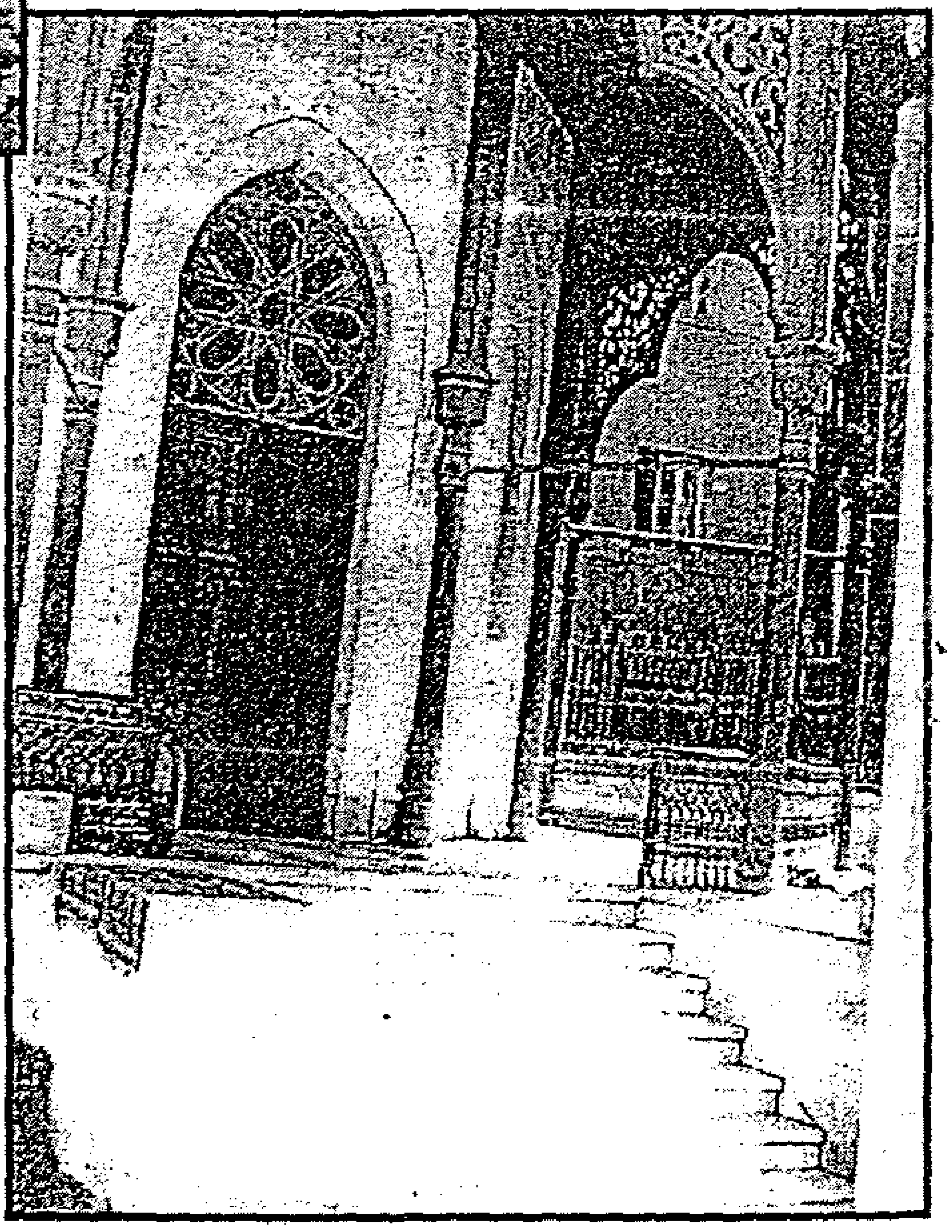

المدرج الرخامي المؤدي إلى الرواق المكشوف المحيط بضريح سليمان باشا الفرنساوي والمدخل الوحيد المفتوح حالياً

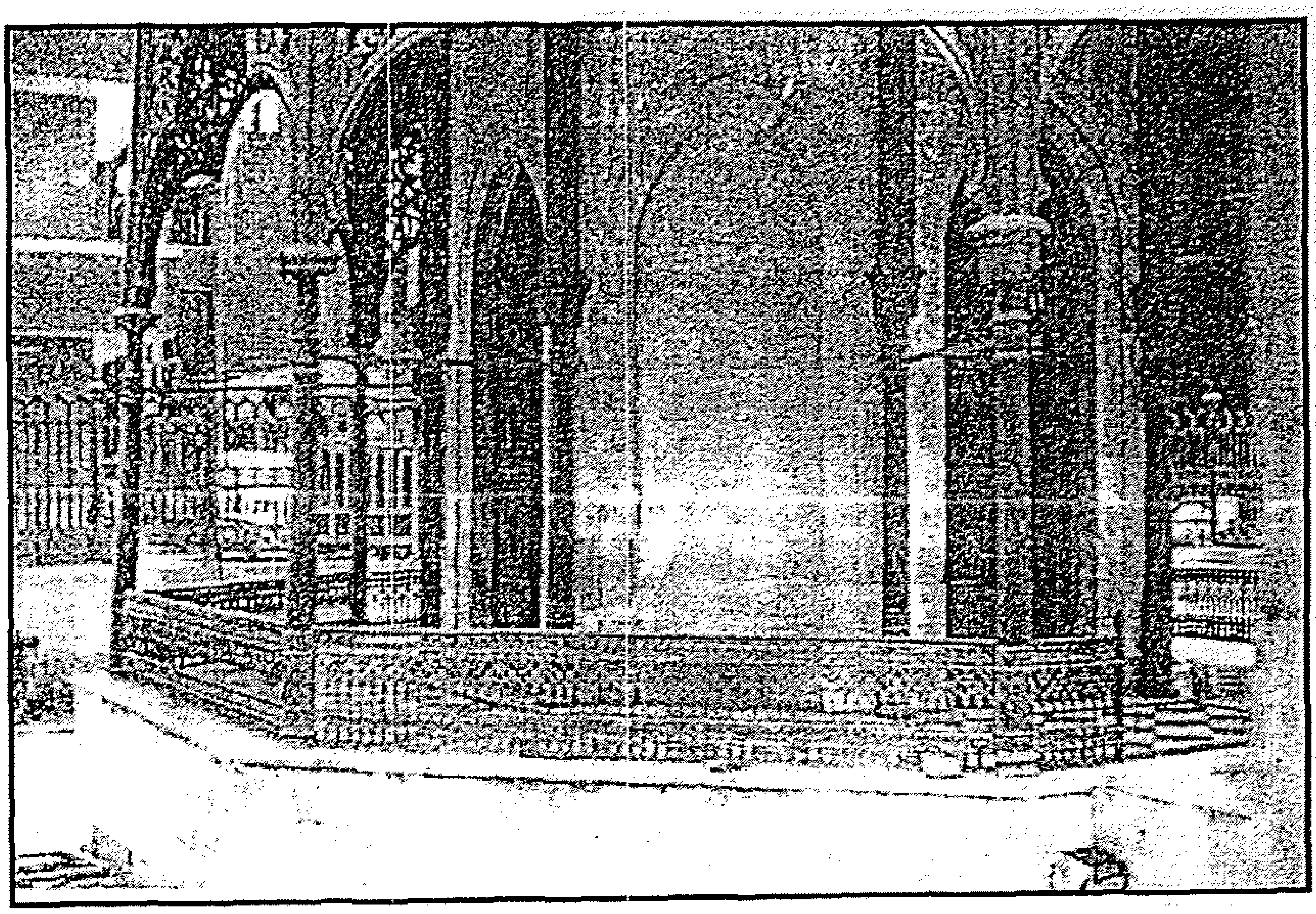

الرواق المكشوف المحيط بضريح سليمان باشا
والدرابزين والأعمدة والأبواب الحديدية

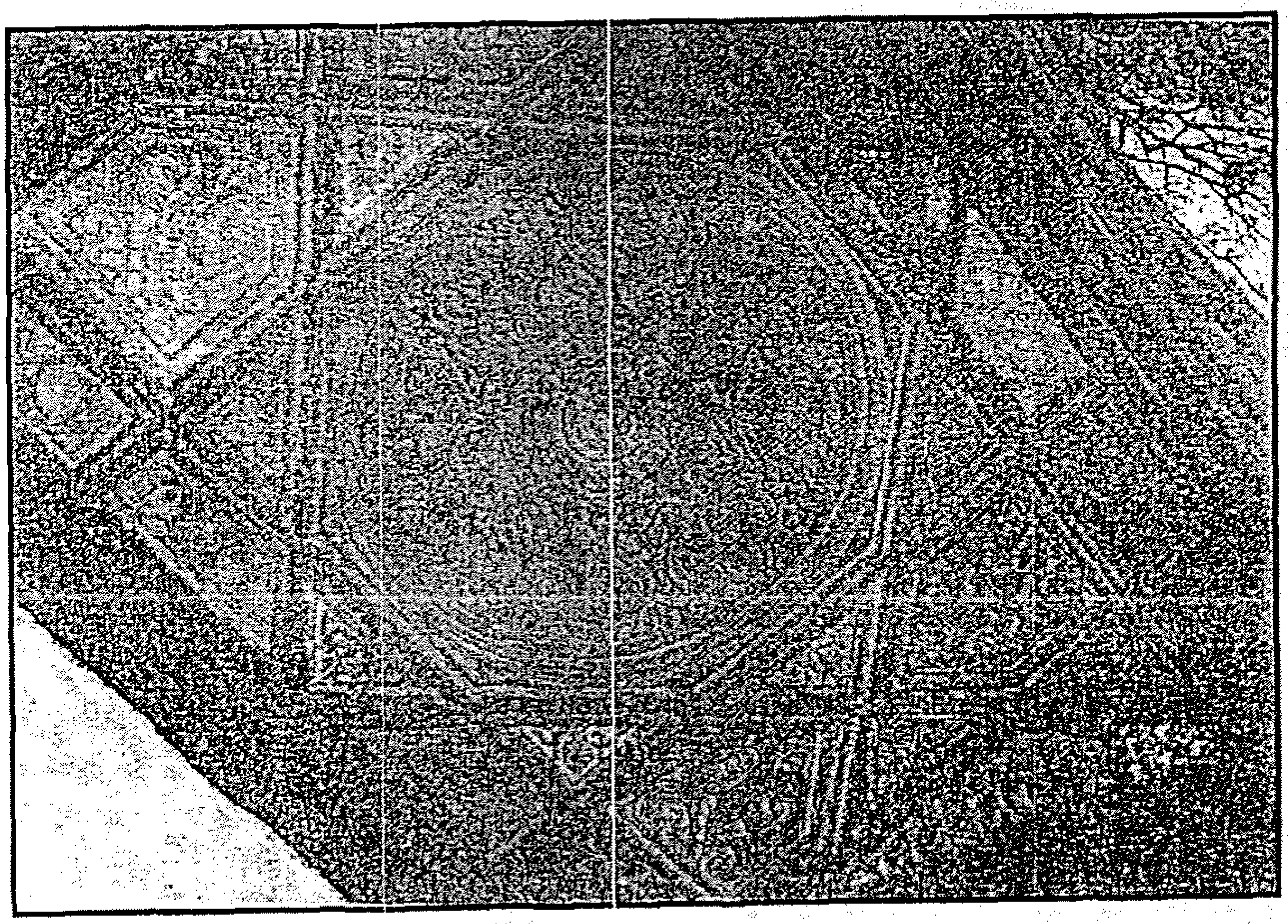

سقف الرواق الخشبي ذو الزخارف الخشبية المحفورة حفراً بارزاً
والملونة في ضريح سليمان باشا

الأعمدة الحديدية الحاملة لسقف الرواق المكشوف في ضريح سليمان باشا

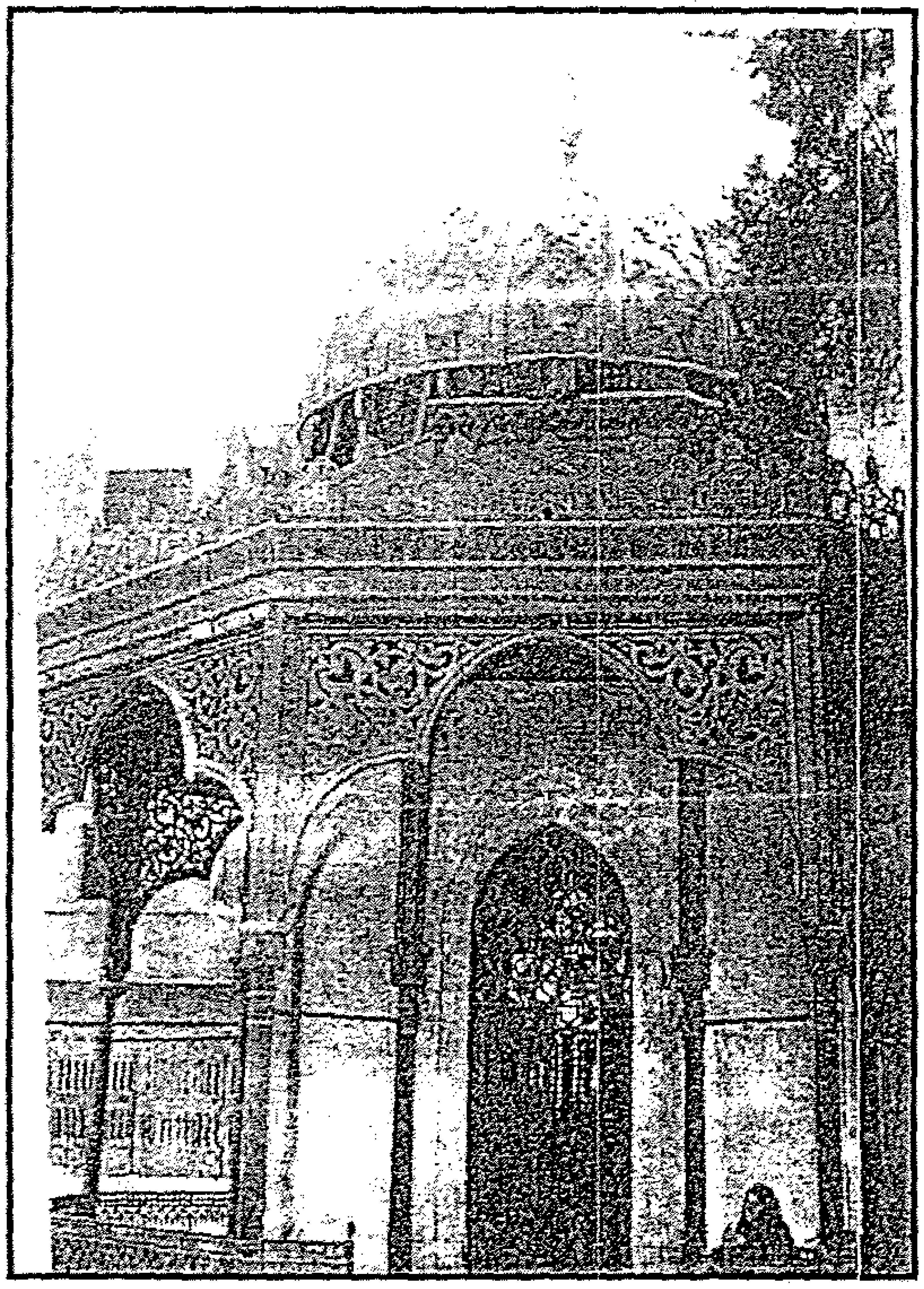

الشرفات والزخارف المعدنية المفرغة في كوشتي العقد الثلاثي الفصوص للرواق المكشوف في ضريح سليمان باشا والقبة الخشبية الخارجية

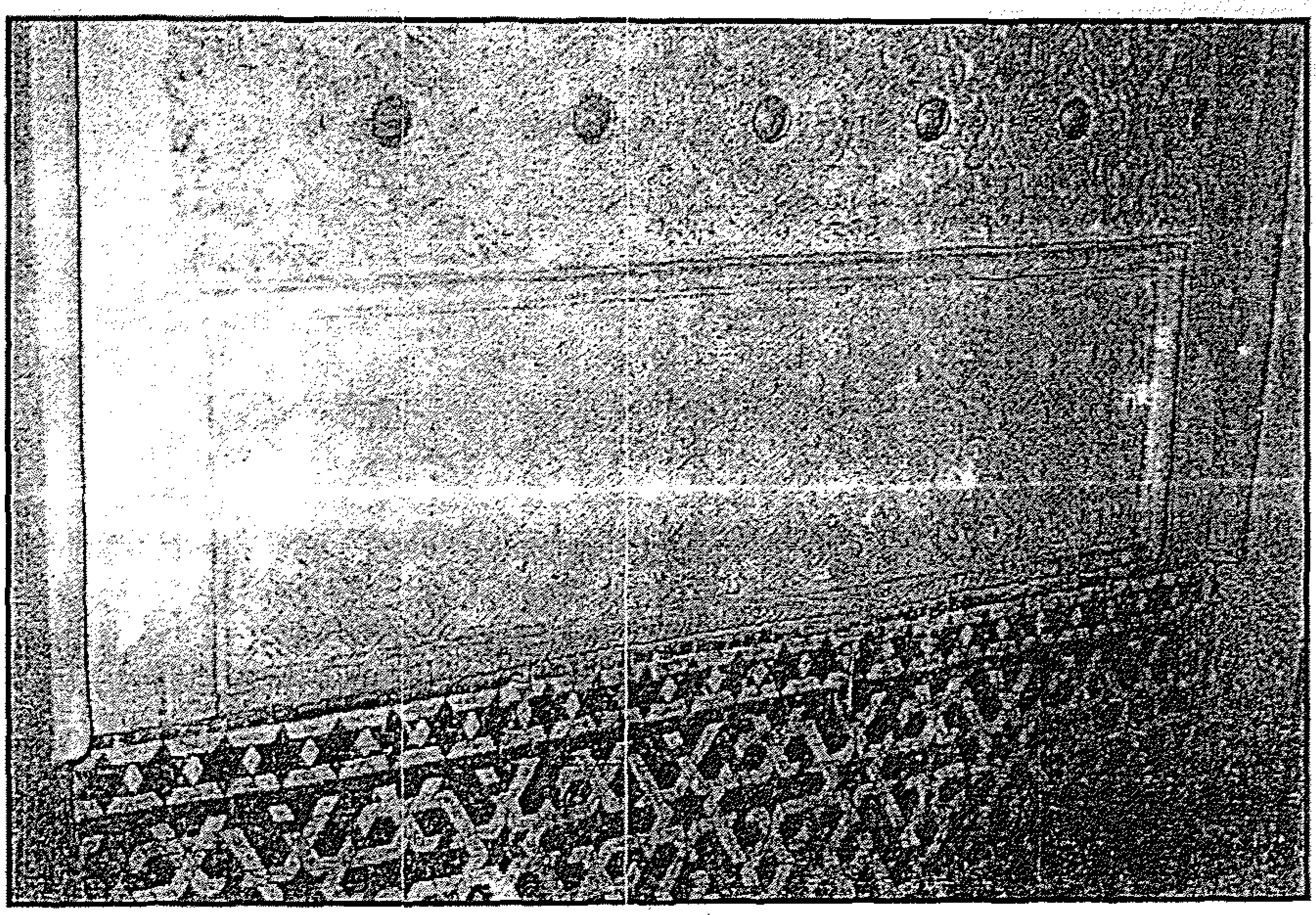

زخرفة جدران ضريح سليمان باشا من الداخل (من أسفل)

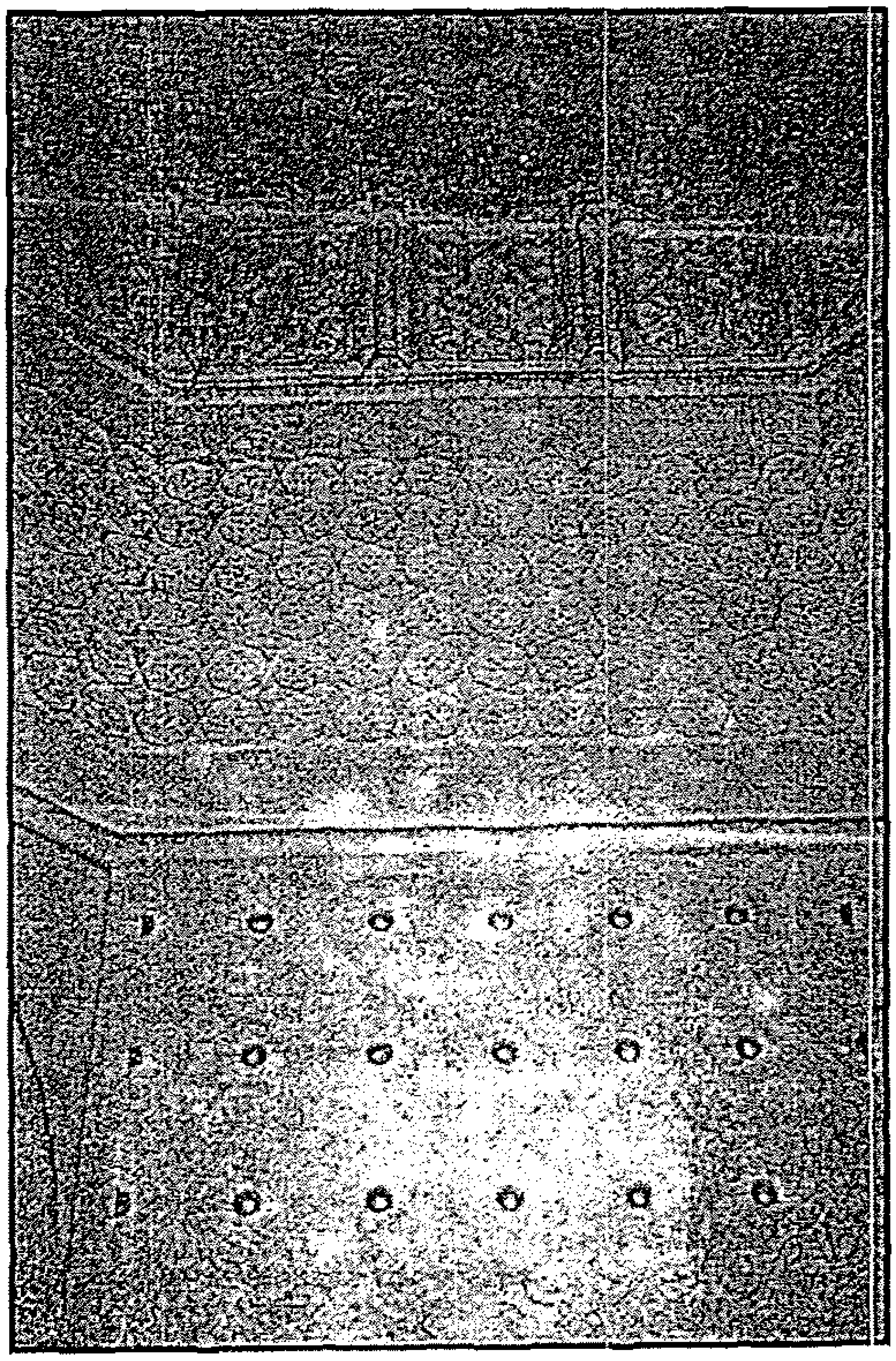

الزخارف الجصية التي تزين النصف العلوي من الجدران الداخلية لضريح سليمان باشا

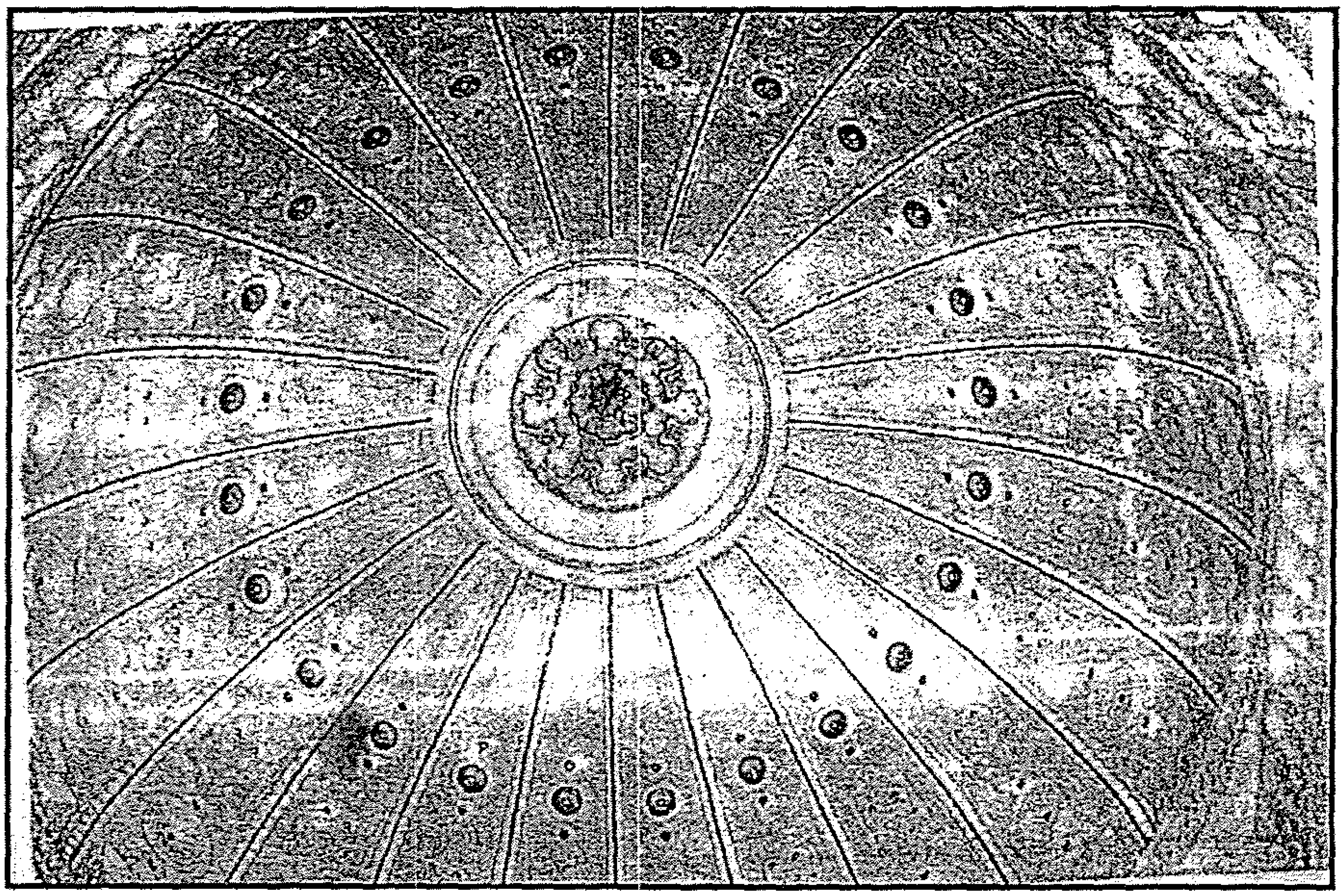

زخارف باطن قبة ضريح سليمان باشا

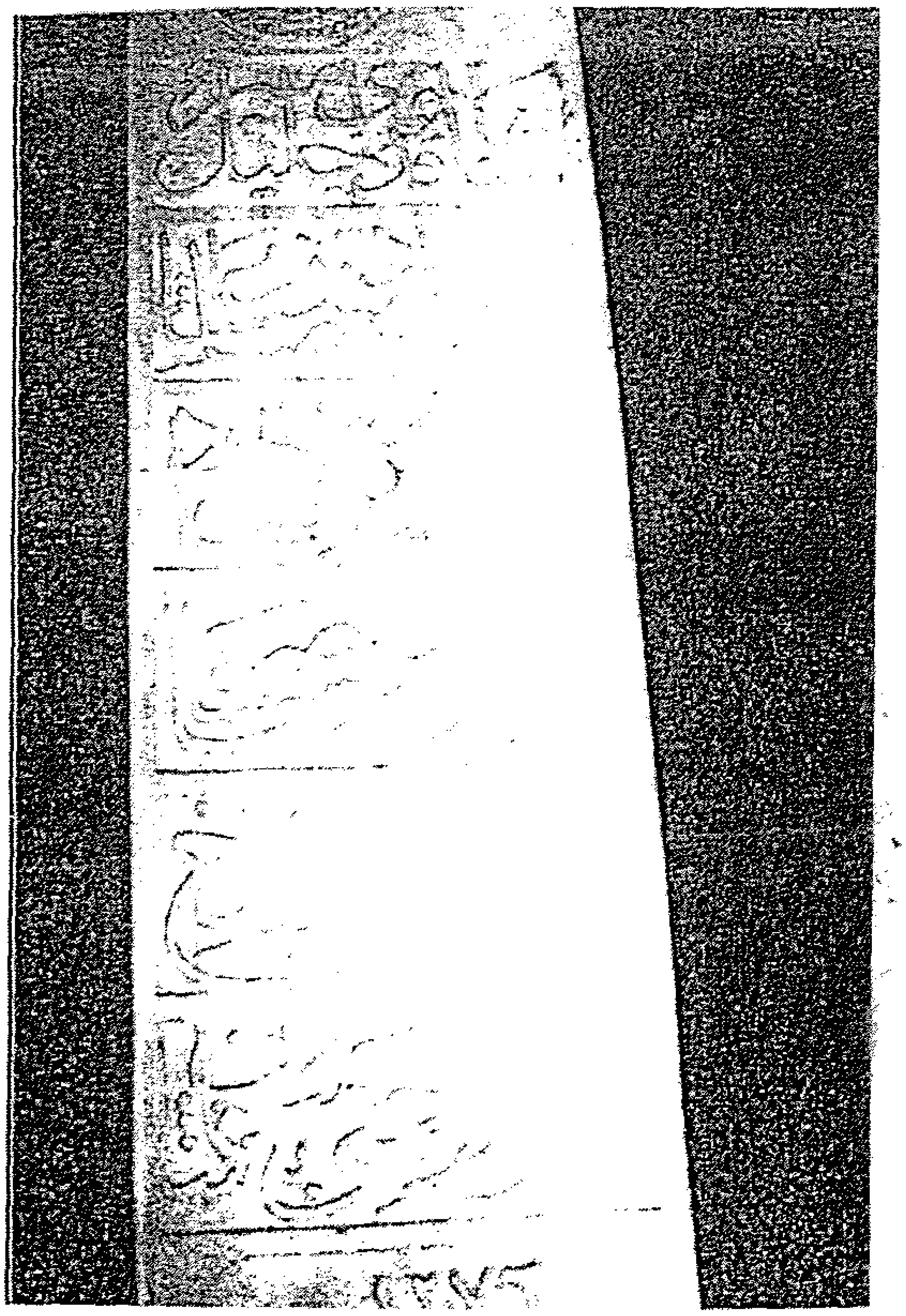

شاهد القبر الرخامي الذي يعلو التركيبة الرخامية في داخل ضريح سليمان باشا

الحنايا الركنية في ضريح زوجة سليمان باشا

التركيبة الرخامية
على قبر زوجة سليمان باشا

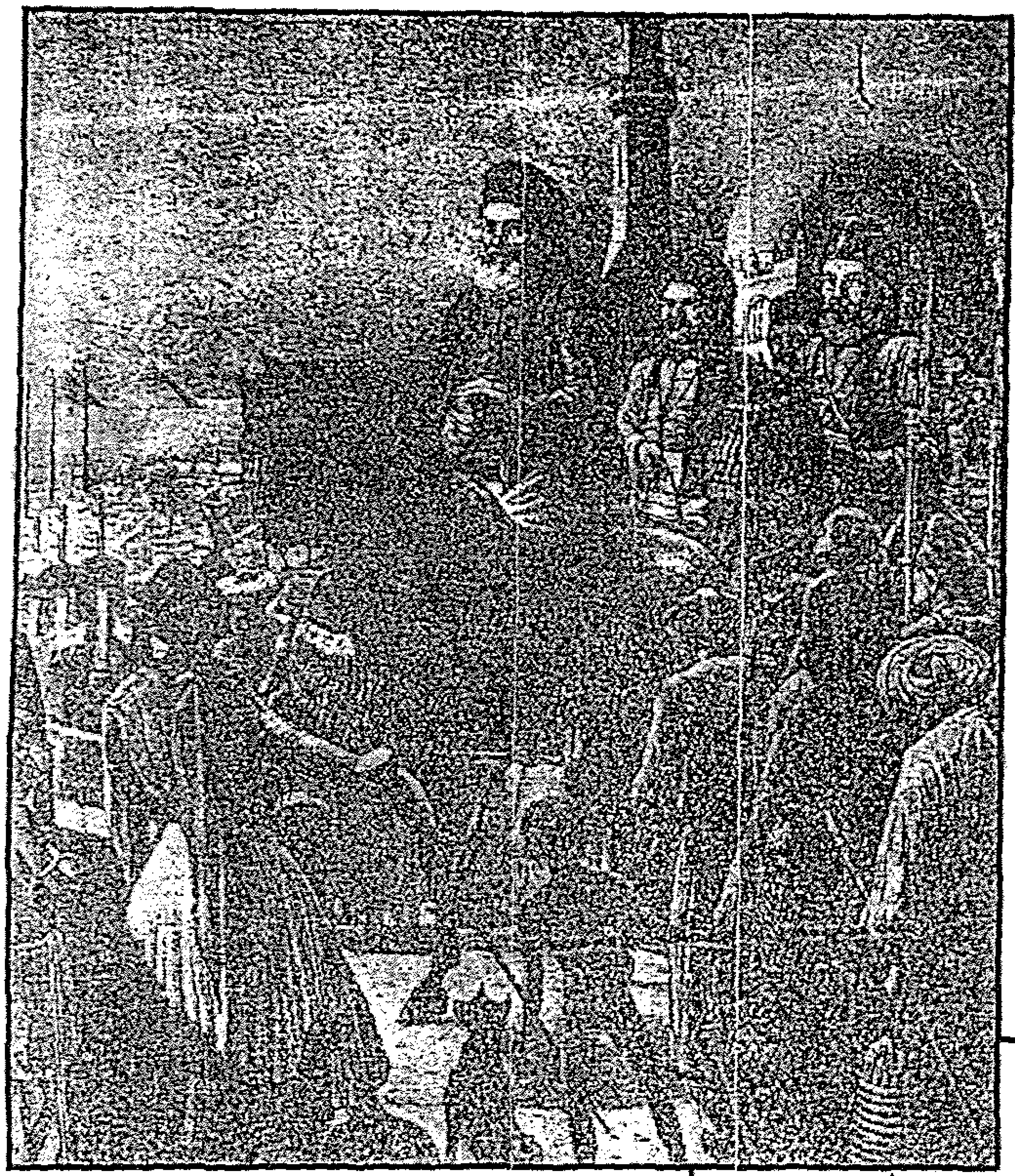

محمد علي باشا في موكبه خلفه سليمان باشا الفرنساوي ثم إبراهيم باشا

تمثال معدني لسليمان باشا محفوظ في المتحف الحربي بالقلعة من عمل الفنان جاكمار

الوجه الخلفي من التمثال السابق

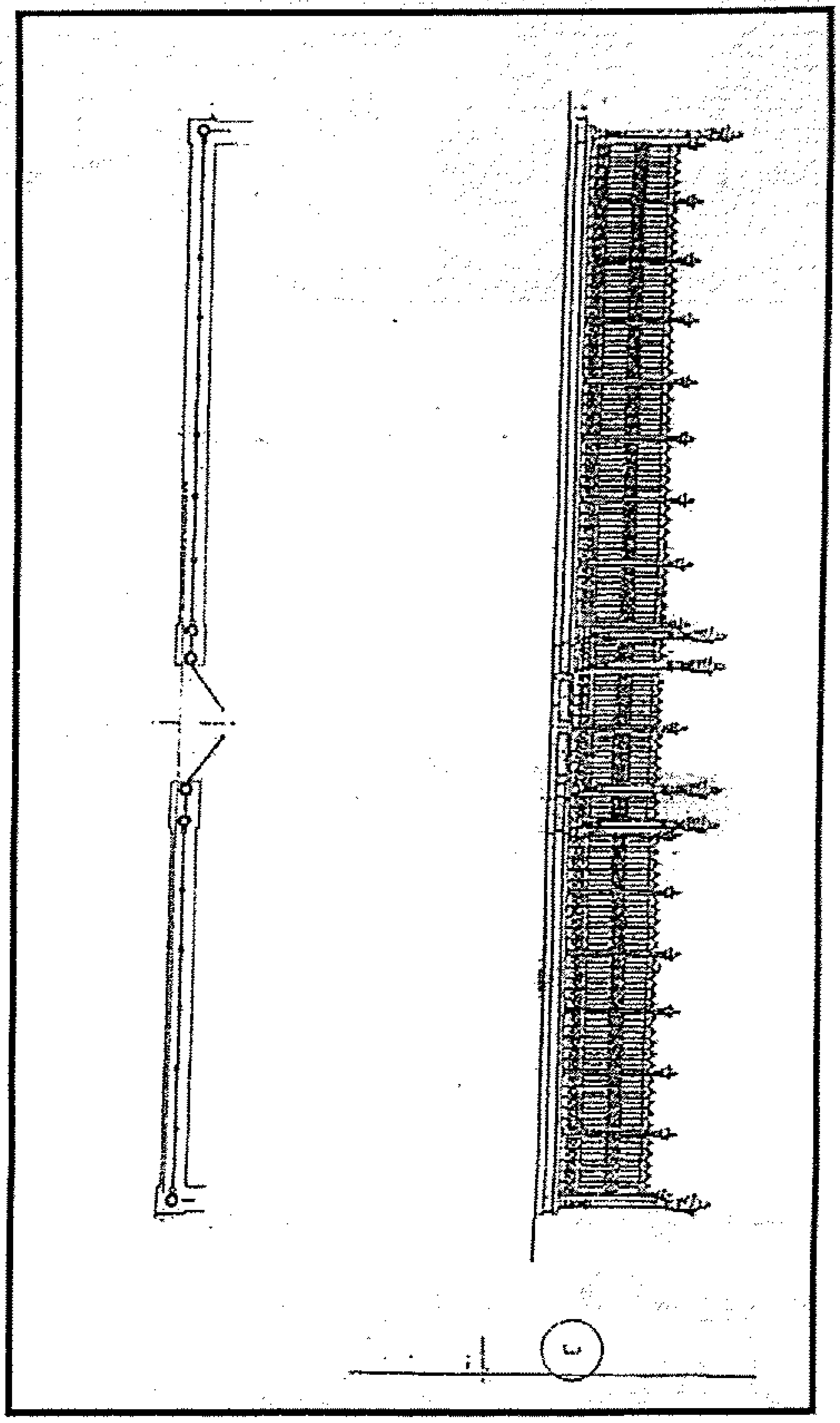

السور المعدني المحيط بضريح سليمان باشا في مصر القديمة وكان يحيط أيضاً بالقصر (عن المجلس الأعلى للآثار)

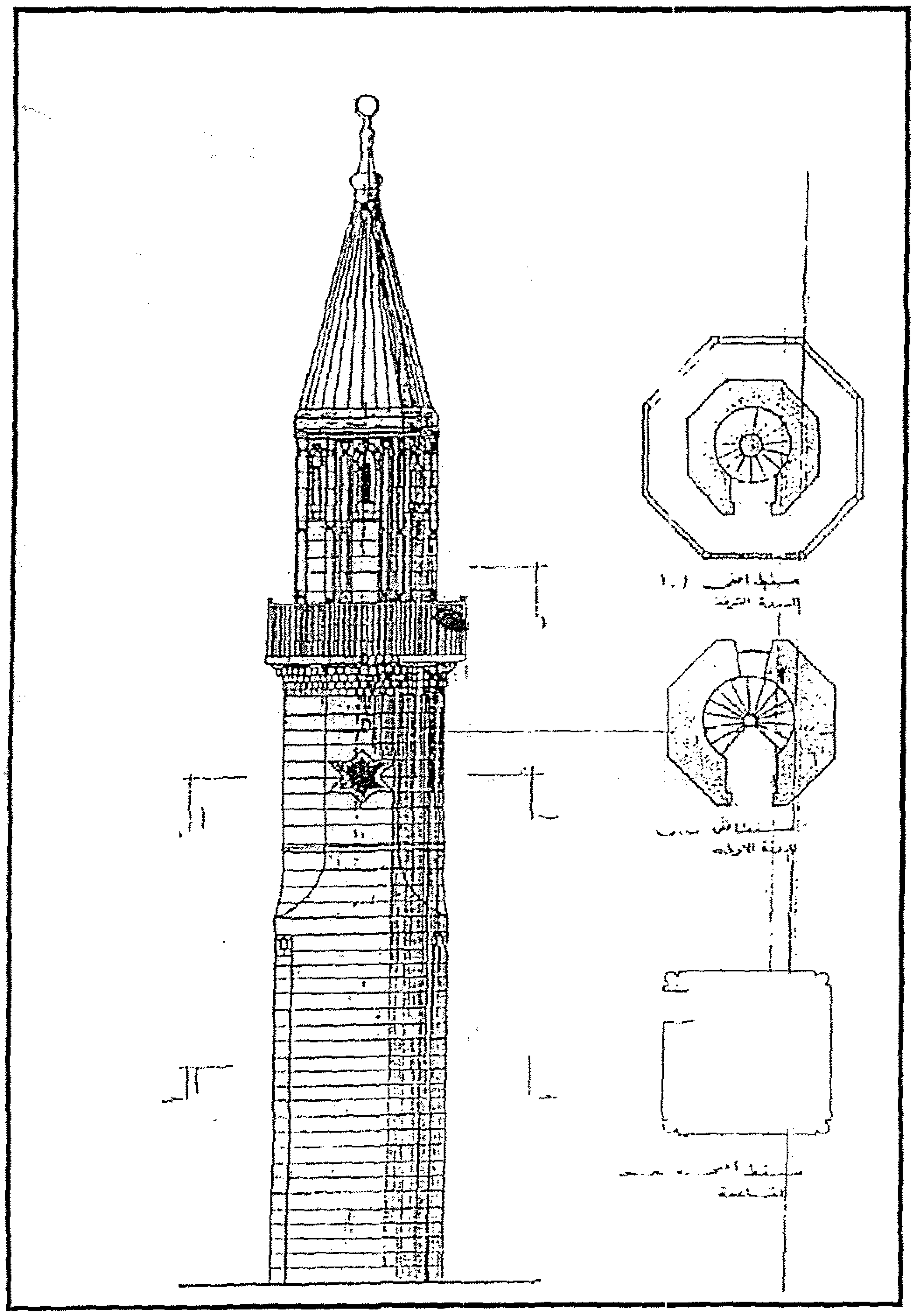

المئذنة الكائنة بمصر القديمة تنسب إلى سليمان باشا الفرنساوي (عن المجلس الأعلى للآثار)

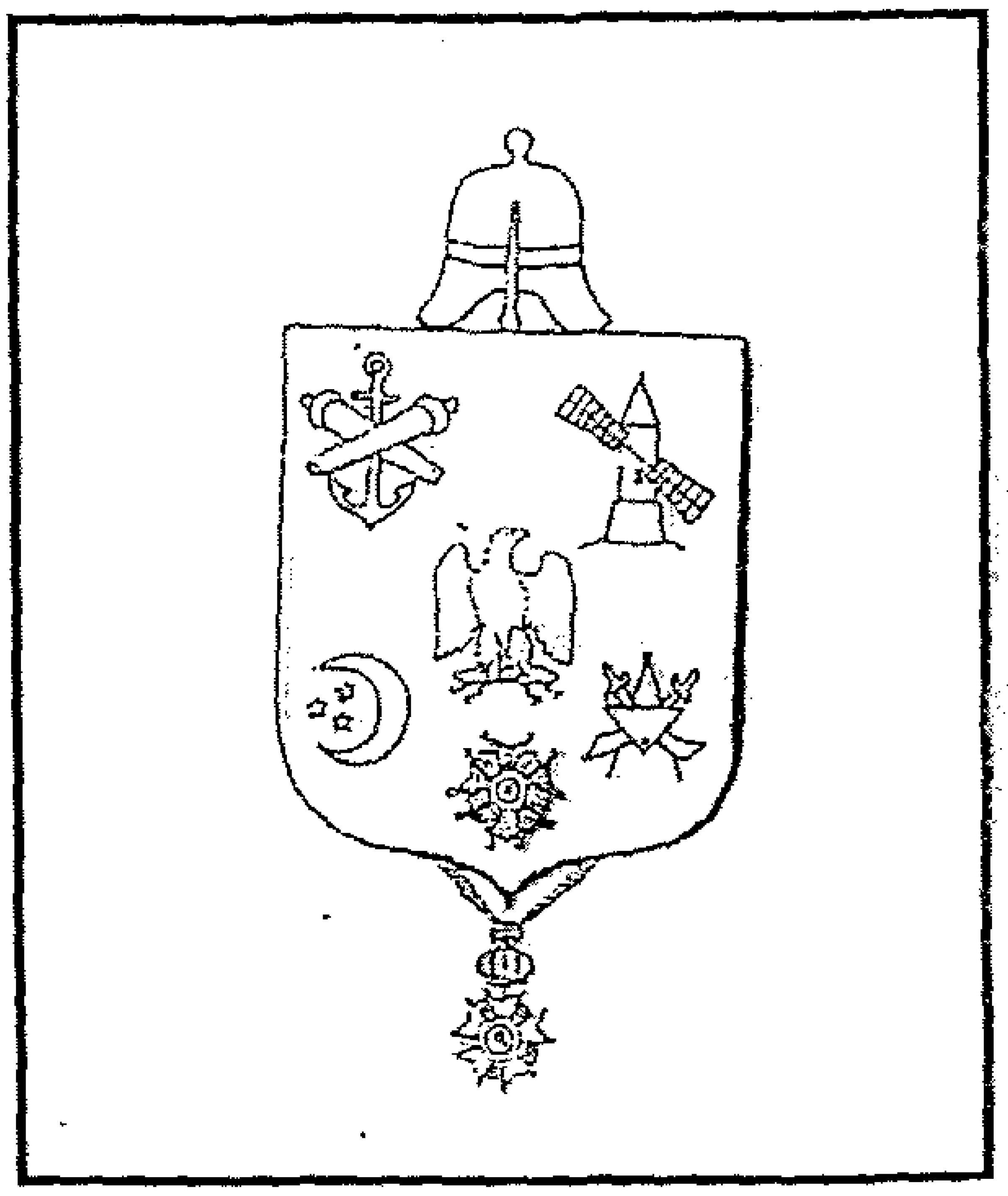

الأسلحة ذات الدلالة لسليمان باشا الفرنساوي (عن Guemard, p.75)

صورة ضوئية لسليمان باشا وابنته نازلي وخادمه تنشر لأول مرة (عن الورثة)

الفصل الثاني

مستشار اللغات العربية والأجنبية

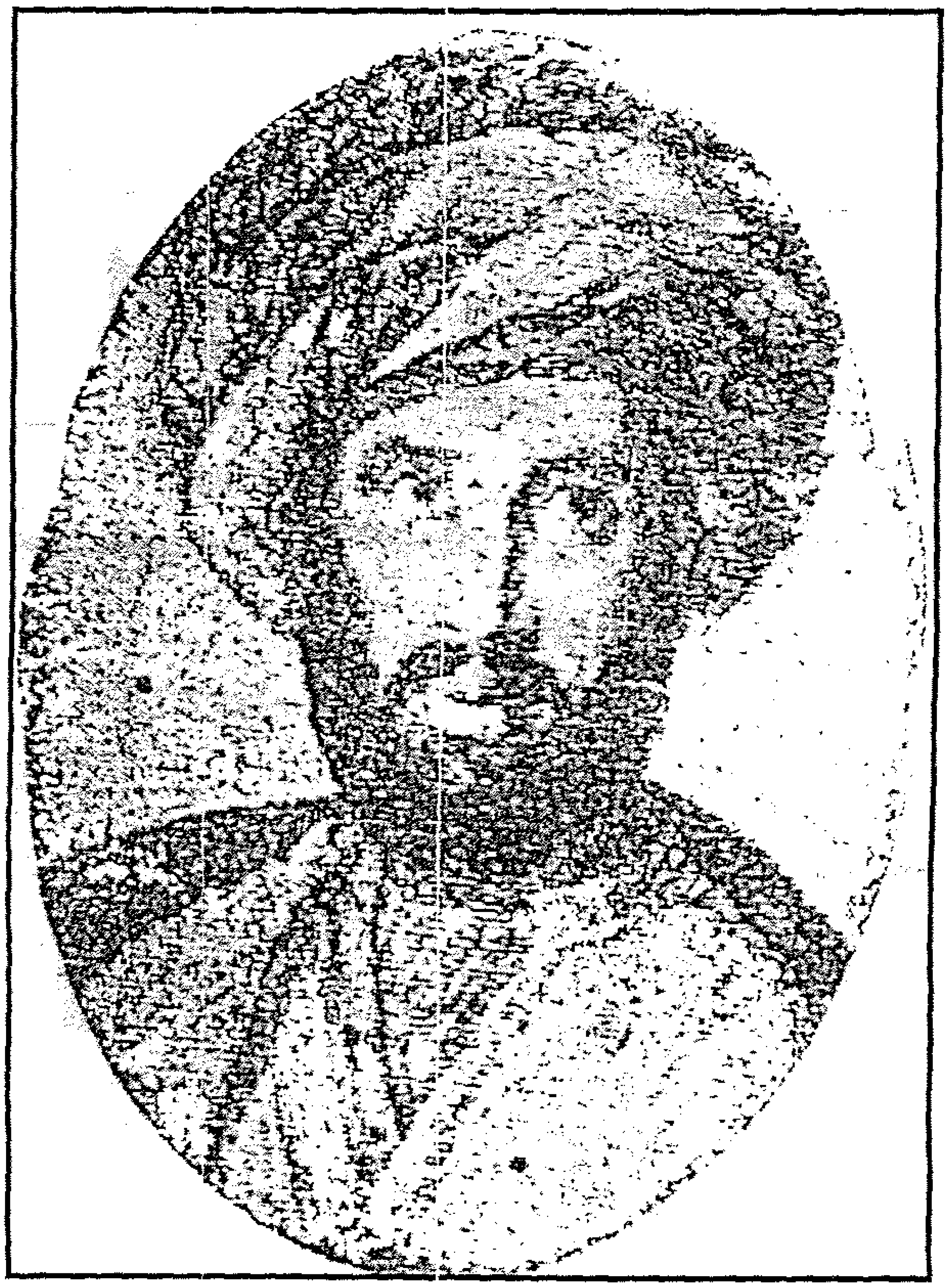

رفاعة رافع بك

هو السيد رفاعة بن بدوي بن محمد بن علي بن رافع يتصل نسبه بمحمد الباقر ابن علي بن زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من نسل الحسين وأمه من الأنصار.

شهدت مدينة طهطا التابعة لمحافظة سوهاج حالياً مولد رفاعة وكان ذلك في عام ١٨٠١م (بمعنى آخر أن ميلاده مع وصول محمد علي باشا إلى مصر وخروج الحملة الفرنسية منها).

كانت حالة والده في غاية القسوة والفقر مما جعله يحاول الخروج من حالته إلى مدينة "منة النبرة" التابعة لمركز جرجا حالياً فأقام هو وأسرته عند أحد أقاربه ولبث في ضيافته أشهر قلائل ثم ارتحل إلى محافظة قنا حيث وجد عملاً في مدينة فرشوط.

أخذ رفاعة في حفظ القرآن الكريم، ثم انتقل والده إلى طهطا فأتم فيها حفظ بقية السور ثم تفقه في الدين بعد أن اطلع على المتون المتداولة في ذلك العصر على يد أخواله من علماء طهطا وهم:-

الشيخ عبد الصمد الأنصاري والشيخ أبو الحسن الأنصاري والشيخ محمد الأنصاري وبعد مضي سنوات انتقل والده إلى الرفيق الأعلى، وعقب وفاة والده انتقل إلى القاهرة لإتمام دراسته في الأزهر في ١٨١٧م وتولى دراسته الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر الذي أحبه لذكائه وانكبابه على تحصيل العلم وتفوقه على زملائه فقربه إليه وسمح له بزيارته في داره فيأخذ منه الدروس في الأدب والجغرافيا والتاريخ والشيخ العطار من علماء مصر العظام في ذلك الوقت، فهو وعاء مملوء بالمعرفة خاصة في اللغة العربية ومعانيها قديماً، وتفوق على علماء عصره بمعرفته العلوم الأخرى وقتئذ. ولقد كان للشيخ العطار دوراً في حياة الشيخ رفاعة العلمية حيث حببه في جميع فروع الأدب والتاريخ والحضارات والجغرافيا وهذه ميزة لم يسبقه أحد في عصره منه.

هذا التحصيل العلمي الذي حصله على يد أستاذه الشيخ العطار مضافاً إليه قراءاته الأخرى في مختلف العلوم فتحت ذهنه، ووضعته على سلم البحث العلمي فاتصف بين زملائه الأزهريين بسداد الرأي وسلامة المنطق واستغل كل وقته في قراءة كتب التاريخ والأدب. وفي أثناء رحلته كتب أول كتاب له "تخليص الإبريز" وهو أول

كتاب له في باريس إذا اطلعت عليه لشهدت له بأن ما فيه من معلومات جديدة علمية كتبها بأسلوبه الأدبي الرفيع ويخبرنا الشيخ رفاعة بأن الشيخ العطار أشار عليه بتدوين مشاهداته في باريس. وكان للشيخ العطار فضل عليه إذ هو رشحه للبعثة إلى فرنسا من دون زملائه.

وبعد سنوات مضت عليه بالأزهر حتى صار من طبقة العلماء الذين يشار إليهم بالبنان والقدرة في التدريس، ولم يكتف بما يقوم به في الأزهر بل كان يسافر إلى موطنه الأصلي بين الحين والآخر فيلقي دروساً في الدين والثقافة العامة، وكان لأسلوبه الجذاب أن الناس أقبلت على محاضراته للاستفادة منها، بل أحبوه وأحبوا أحاديثه التي كان يلقيها أحياناً في مسجد من مساجد مدينة طهطا.

وفي كتاب "حلية الزمن بمناقب خادم الوطن" لصالح مجدي بك وهو أحد تلاميذ رفاعة قال عنه "وكان رحمه الله حسن الإلقاء بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه" وقد اشتغل بتدريس كتب شتى في الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض في الجامع الأزهر.

كان عمر رفاعة وهو يقوم بالتدريس في الأزهر إحدى وعشرين سنة وكانت أحواله تنم على أنه فقير للغاية وأنفقت عليه والدته بعد أن باعت جميع ما لديها من مجوهرات ذهبية مضافاً إليه العائد من الدرس الذي يعطيه لحسين بك نجل المرحوم طبوز أوغلي.

وفي عام ١٨٢٢م صدر قرار بتعيينه واعظاً وإماماً في إحدى الآليات بالجيش النظامي الذي أسسه محمد علي وهو آلاي "حسن بك المناسترلي"، ثم نقل إلى آلاي "أحمد بك المنكلي".

قرر محمد علي سفر البعثات إلى أوروبا وقع اختيار محمد علي عليه في عام ١٨٢٦م. ويقول علي باشا مبارك "إن محمد علي طلب من الشيخ العطار شيخ جامع

الأزهر أن ينتخب من علماء الأزهر إماماً للبعثة الأولى يرى فيه الأهلية واللياقة فاختار الشيخ رفاعة للبعثة.

لم تكن مهمة الإمام أن يتعلم العلوم الفرنسية مثل بقية أعضاء البعثة بل عليه أن يقوم بمهام وظيفته كإمام يؤم المبعوثين في الصلاة ويوعظهم ويرشدهم وينهاهم عن فعل المنكرات وكان معه ثلاثة أئمة آخرين لم يفكر أي إمام منهم أن يتجاوز حدود الإمامة ليغترف من المنابع العلمية الفرنسية.

أول شيء قام به تعلم اللغة الفرنسية وأجادها قراءة وكتابة وتعرف على أسلوبها الأدبي والعلمي وعلى الأوضاع الاجتماعية الفرنسية وقتئذ وتاريخها ودستورها وصحافتها. وتعرف على علمائها وتعرف على مسيوجومار عميد المعهد الفرنسي الحربي وتعرف على العالم المستشرق "البارون دي ساس".

ويقول الشيخ رفاعة عن رحلته إلى فرنسا أنه تعلم اللغة الفرنسية خلال ثلاث سنوات واتجهت ميوله إلى دراسة التاريخ والجغرافيا والفلسفة والأدب الفرنسي وبهذه المعارف التي حصلها اتسعت مداركه وإضافة إلى ذلك درس بعض كتب منتسكيو ودرس علم المعادن وفن العسكرية والرياضيات وترجم أول كتاب له "قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر" ودرس الدستوَر الفرنسي ١٨١٤م دراسة إمعان الذي استمر معمولاً به في الحياة الفرنسية حتى عام ١٨٣٠م وقد نقل هذا النظام الفرنسي في كتابه تخليص الإبريز ما تضمنه منَ نظام المجلسين واختيار أعضائهما وحقوق الأمة الفرنسية أفراداً وجماعات ولا يكفي أنه نقله إلى العربية بل قام بالتعليق على مواد الدستور مما يدل في أنه فهم أحكامه ومباده.

وامتدح الصحافة الفرنسية وسماها "الورقات اليومية" وقال عنها إن الإنسان يعرف الأخبار المتجددة سواء كانت داخلية أو خارجية تتضمن أخبار تتشوق نفس الإنسان إلى العلم بها على أنها تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبهات مفيدة

نافعة ورفاعة بك يمجد في الجنرال "لافابيت" دفاعه عن الحرب وثباته وعدم تقلبه مع الأهواء وهذه صفات اتصف بها لافابيت في كل أدوار حياته فوصل إلى تلك العزلة.

ظل رفاعة بعد عودته متأثراً بالتعاليم الدستورية التي عرفها في باريس وعاد إلى مصر في عام ١٨٣١م بعد أن قضى ست سنوات يدرس ويطالع ويكتب ويجالس العلماء. وقد تعرف على الشعوب الأوروبية وتاريخها وأسباب حضارتها وتقدمها وقرر أن بعد عودته إلى مصر سيخدم بلاده بنقل العلوم الأوروبية حتى تتسع مداركهم.

وكانت البلاد منذ عودة رفاعة إلى مصر في حاجة ماسة إلى نقل العلوم الأوروبية إلى اللغة العربية فتولى منصب الترجمة وتدريس اللغة الفرنسية في مدرسة الطب بأبي زعبل وفي عام ١٨٣٣م نقل من مدرسة الطب إلى سلاح المدفعية بطرة وعهد إليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية وله فيها رسالة مترجمة في الهندسة العادية وهي من الرسائل التي كانت تدرس في المدرسة الحربية الفرنسية.

وفي عام ١٨٣٣م انتشر وباء بالقاهرة فسافر إلى طهطا وترجم مجلداً جغرافية "ملبترون" التي بدأ بتعريبها في باريس ثم عاد به إلى القاهرة وقدمه إلى محمد علي فنال إعجابه وأجزل له العطاء وأنعم عليه برتبة "صاغ قول أغاس" ومعناه رتبة عقيد معلم" واستمر بمدرسة طرة سنوات.

رأى رفاعة أن مصر في حاجة ماسة إلى طبقة من العلماء الأكفاء في اللغة العربية والفرنسية ليتمكنوا من تعريب الكتب الأجنبية ليربطوا بين الثقافتين العربية والأوروبية ويحاولوا النهوض والتطوير بالإدارة المصرية بالمناصب التي توكل إليهم فاقترح على محمد علي إنشاء مدرسة الألسن فاستجاب لهذا الاقتراح وأنشأ مدرسة الألسن في عام ١٨٣٦م واختار لها سراي الألفي بالأزبكية بجوار قصر الأميرة زينب هانم كريمة محمد علي "مكان فندق شبرد".

وكانت تعرف منذ إنشائها بمدرسة الترجمة وعرفت باسم مدرسة الألسن فيما بعد. وقد قام رفاعة بإدارة هذه المدرسة خير قيام واختار لها التلاميذ من مدارس الأرياف والأقاليم ومن طلبة الأزهر ١٥٠ تلميذاً.

وتحولت هذه المدرسة فيما بعد إلى كلية تدرس فيها اللغة العربية واللغات الأجنبية خاصة الفرنسية والتركية والفارسية والإيطالية والإنجليزية وعلوم التاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية والشرائع الأخرى. وقد اختار مجموعة من علماء مصر الوطنيين وهم الشيخ محمد الدمنهوري والشيخ علي الفرغلي الأنصاري (ابن خال رفاعة) والشيخ حسنين الغمراوي والشيخ محمد قطة العدوي والشيخ عبد الرحيم الطهطاوي والشيخ عبد المنعم الجرجاوي.

ولم يكن ناظراً لمدرسة الألسن وحدها بل أسند إليه إدارة معهد الفقه والشريعة الإسلامية ومدرسة المحاسبة ومدرسة إدارة الفرنجة.

ويبدو أن الشيخ رفاعة بهذا الإسناد إليه تلك المدارس كمدير جامعة في عصرنا، وأنعم عليه محمد علي في نهاية المطاف ٢٥٠ فداناً وأقطعه إبراهيم حديقة نادرة المنال في الخانقاه تبلغ ٢٦ فداناً وأنعم عليه سعيد باشا ٢٠٠ فدان وإسماعيل ٢٥٠ فداناً فيكون مجموع ذلك ٧٠٠ فدان.

وظل رفاعة بك ناظراً لمدرسة الألسن مع نظارة قلم الترجمة إلى أن أغلق التعليم أبوابه في عهد عباس ١٨٥١م. ولم يكتف عباس بذلك بل نفى رفاعة بك إلى السودان بحجة توليته نظارة مدرسة ابتدائية أمر بإنشائها في الخرطوم وأرسل كل من محمد بيومي أفندي كبير أساتذة الهندسة والرياضيات في مدرسة المهندسخانة وظل في السودان حتى توفى في الخرطوم، وأحمد طائل أفندي أستاذ الرياضيات فلماذا نفى رفاعة إلى الخرطوم؟

يبدو أن كتاب رفاعة "تخليص الإبريز" سبباً في نفيه إذ لا يخف أنه طبع في عهد عباس والكتاب يحتوي على آراء ومبادئ لا يرغب فيها عباس الحاكم المستبد.

ولما توفي عباس ١٨٥٤م وتولى سعيد الحكم عاد رفاعة من السودان فأسند إليه نظارة القلم الأفرنجي تحت رئاسة إبراهيم أدهم باشا ثم أسندت إليه المدرسة الحربية بالحوض المرصود الذي كان يتولى نظارتها سليمان باشا الفرنساوي جمع بين هذه المناصب نظارة قلم الترجمة ومدرسة المحاسبة والهندسة الملكية ومدرسة العمارة.

وفي عام ١٨٦٠م ألغيت جميع المدارس وألغي أيضاً قلم الترجمة وصار رفاعة بدون منصب في عهد إسماعيل. وفي عام ١٨٦٣م أعيد رفاعة إلى قلم الترجمة بوزارة المعارف العمومية وعين عضواً كبيراً في تنظيم التعليم في عهد إسماعيل.

ودعا إلى تعليم البنات وتثقيفهن أسوة بالبنين ووضع كتاباً في الأخلاق والتربية والآداب وكانت دعوته في هذا الكتاب إلى وجوب تعليم البنات وإعدادهن عن طريق التربية والتعليم للعمل والقيام بواجبهن في المجتمع.

ولرفاعة فضل كبير في نهضة القضاء فهو الذي عرب القوانين الفرنسية في عهد إسماعيل حتى فكرت حكومته في إصلاح النظام القضائي وعرب القانون المدني هو وعبد الله بك السيد، وتولى رئاسة تحرير مجلة (روضة المدارس) التي أنشأها علي باشا مبارك في عام ١٨٧٠م حينما كان وزيراً للمعارف العمومية.

وهي مجلة علمية أدبية تولى رئاستها رفاعة وباشر تحريرها ابنه علي بك فهمي رفاعة مدرس الألمان بمدرسة الإدارة والألسن وقتئذ وكان يعاون رفاعة في تحرير أبواب المجلة نخبة من العلماء والأدب وهم: علي باشا مبارك، وعبد الله فكري والشيخ حسين المرصفي والمسيو بروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصري القديم وإسماعيل باشا الفلكي ومحمد قدري باشا الفلكي ودكتور محمد بدر وأحمد بك ندا العالم النباتي الشهير والشيخ عبد القادر الأبياري وصالح بك مجدي وأبو السعود أفندي محرر جريدة وادي النيل والشيخ عثمان ممدوح والشيخ النواوي والشيخ حمزة فتح الله من

أفاضل الإسكندرية وصارت هذه المدرسة يتبارى فيها فطاحل الكتاب في ذلك العصر وكانت تصدر المجلة مرتين كل شهر وكانت توزع مجاناً إلى تلاميذ المدارس واشترك بعض التلاميذ الذين اتصفوا بالنبوغ في هذه المدرسة بالكتابة في المجلة. وظل رفاعة يشرف على هذه المجلة حتى أدركته الوفاه ١٨٦٣م وترك لنا العديد من المؤلفات والترجمات وبحق كان رفاعة مدرسة مصرية يشهد لها التاريخ بذلك.

الفصل الثالث

المستشار الطبي ويعد وزيراً للصحة في حكومة محمد علي

كلوت بك

ولد أنطون برطلمي كلوت في مدينة جرينويل بفرنسا في بداية عام ١٧٩٣م من أبوين فقيرين ونشأ نشأة الشظف والعسر وأعزم منذ طفولته بتشريح الحشرات ودرس طبائعها. وفي عام ١٨١١م توفى والده بعد أن غادر برينول. وكان لوالده صديق اسمه

دكتور سابيه فلمح الذكاء على أنطون فاتخذه مساعداً في أعماله الطبية وللتمرن على الجراحة وجد نفسه لا يقل عن غيره من الأطباء.

فانكب أنطون على كتب الطب والجراحة يستوعب ما فيها في أوقات فراغه ثم رأى أن برينول تضيق بما يجيش في نفسه فسافر إلى مرسيليا رغم نصيحة والدته على أن يطرد فكرته في الرحيل وهي في حاجة إليه إذ كان وحيدها ولكن لم يصادف فيها إلا الخيبة. فهم إلى الالتحاق بإحدى السفن بصفته جراحاً لملاحيها وسدًا لحاجته وكان ذلك وهو في سن التاسعة عشر. ولكن لحسن الحظ أنطون رفضه الربان وغرقت السفينة في تلك الرحلة.

دفعت الفاقة أنطون كلوت إلى العمل كحلاق فجعل يتردد على حلاق يعالج بالصفد والجراحة الصغرى ثم عاد إلى بلده راغماً والتحق بالمستشفى بعد كثرة الالتماس.

انكب على القراءة حتى فاق أقرانه وكان الفقر يلازمه وفي عام ١٨١٧م أتم دروسه وعين طبيباً صحياً بعد أن درس العلوم بنفسه وأتقن اللغة اللاتينية على يد أحد القساوسة ونال درجة البكالوريوس في العلوم.

وفي عام ١٨٢٠م نال درجة الدكتوراه بعد عناء شديد وهي التي فتحت له الباب الذي يعيش به فعاد إلى مرسيليا وعين طبيباً ثانياً بمستشفى الصدفة ومستشاراً جراحياً بمستشفى الأيتام، ولكن الوشاة تسببوا في إقالتهَ من هذا المنصب فانكب على العمل مرة أخرى وألف كتاباً عن استعمال آلات الولادة في الأحوال الخطرة ومن ثم أصبح دكتوراً مشهوراً في فن الولادة والجراحة في مرسيليا كلها.

وفي عام ١٨٢٥م اجتمع به مسيو تورنو أحد تجار الفرنسيين بمصر وكان قد عهد إليه محمد علي باختيار طبيب بارع يليق بمنصب طبيب لجيشه. فحبب إليه الذهاب إلى مصر فأجابه عن طيب خاطر وعند وصوله إلى مصر رأى فيضان النيل كانت تتبعه

أمراض كثيرة تتفشى في مصر ورأى أن الاحتياطات اللازمة لتصفية المياه لم تكن معروفة في تلك الأزمان وكان القاطنون بعيداً عن شواطئ النيل يشربون ماء مالحاً قد يكون ملوثاً ومن ناحية أخرى رياح الخماسين كانت تهب في الربيع وهي محملة بالأتربة والرمال بالهواء الساخن وقد قال عنها القدماء "إنها كانت تجف الدم وتلهبه وتهيج الأعصاب وتنشر الأوبئة والأمراض والرمد".

وفي مصر رأى أمامه باباً واسعاً للعمل الصالح والإصلاح الطبي وكان موضع ثقة محمد علي الذي لم يكن يتأخر عن تلبية ما يشير به عليه فأسس بمشورته مجلساً صحياً ليستعين بأعضائه مع الإجراء والتنفيذ وبث الوصايا الصحية مرتبة على مثال المجالس الصحية الفرنسية وإتماماً للنظام العسكري أنشأ المستشفيات العسكرية ومصلحة الصحة البحرية ولما كانت المستشفيات تحتاج إلى أطباء وتمورجية وغيرهم وملاحظة المرض وغير ذلك مما كانت تفتقر البلاد إليهم اضطر كلوت بك أن يعلم كل من هؤلاء واجباته عن التطبيب وأشهر المستشفيات التي بنيت بمشورته مستشفى أبي زعبل لمجاورتها لمقر الجند وأنشأ أيضاً مستشفى للبنات.

وفي عام ١٨٢٨م أسس المدينة الطبية وقد أراد من وراء ذلك أن لا يقتصر الطب على الجيش بل يتعلمه أبناء البلاد. وقد ساهم عند الانتهاء من هذه المدرسة أخذ يلقي دروسه فيها بواسطة بعض المترجمين من اللغة الفرنسية إلى العربية. وقد ترجمت له العديد من كتبه النفيسة في الطب والجراحة والعلوم الطبيعية وغيرها.

وكان التشريح أمراً لا يطاق وينكره الناس إلا أن كلوت بك لم يغلب على أمره بعد محاولة من أحد الأهالي قد قتل خلسة بخنجر فحاول القادة لكن المحاولة فشلت وفي عام ١٨٣٢م سافر كلوت بك مع ١٢ من تلاميذه إلى باريس لامتحانهم. في باريس فأمتحنهم في الجمعية الطبية وخرجوا بأرقى الشهادات وأسماؤهم: أحمد الرشيدي.. ومحمد منصور... إبراهيم البزاوي – حسين الهياوي وعيسوي النحراوي.. ومصطفى

السبكي.. ومحمد الشباشي.. ومحمد السكري... محمد الشافعي.. وأحمد نجيب.. ومحمد علي البقلي- حسن الرشيدي.

وما أشد ما كان من سرور كلوت وابتهاجه بنجاح تلاميذه لأنهم كانوا بمثابة النواة في نشر الفوائد الصحية والطبية في مصر.

دكتور محمد علي باشا البقلي الجراح الشهير

وفي عام ١٨٣٨م نقلت المدرسة الطبية من أبي زعبل إلى القاهرة وهي المعروفة بمدرسة القصر العيني وأنشئت فيها فصول درس القبالة (الداية) يتعلمها النساء مراعاة للتقاليد الشرقية وأنشأ لهن مستشفى خاصًا بهن مما كان له أكبر فائدة فيما بعد نظراً إلى تحجب النساء وعدم السماح للأطباء بالكشف عليهن عند الوضع.

وقد رأى أن العلاج على أيدي هؤلاء الذين يدعون بأن السحر هو سبب كل الأمراض وأن هؤلاء المدعين قد استحوذوا على أفئدة الناس لا فرق بين العظيم

والصغير ذلك أن الأمراض تحدث في الأجسام الآلام الشديدة قد تؤثر فيها تأثيراً يتناسب ودرجة استعداد الجسم والنفس معاً وقد يتسنى لبعض أقوياء الإرادة أن يؤثروا في ضعافها بمؤثرات قولية عملية فتهيأ لهم من العلم والنفوذ والجاه ما مكنهم من نتائج إيجابية زادتهم سطوة ومكنت في نفوس الناس الاعتقاد بالسحر الفعال وبعد دراسة كلوت بك لكل هذا فقرر أن ينشئ بعد ذلك الاستشارات الطبية في القاهرة والإسكندرية وألحق بكل منها "إجزاخانة" ولشد ما كانت عناية كلوت بك بدفع غائلة وباء الكوليرا في عام ١٨٣٠م مما جعل محمد علي ينعم عليه برتبة "بك" فكان أول ما نال هذه الرتبة من الأجانب كذلك أنعمت عليه الحكومة الفرنسية برتبة "أوفسييه دي ليجيون دو نور" كما أهدته الدول الأخرى عدة نياشين لمعالجة رعاياها في أثناء الوباء.

وعاد إلى باريس سنة ١٨٤٠م بعد مرافقته لإبراهيم باشا في غزوه لسوريا ثم رجع إلى مصر وظل بها حتى توفى محمد علي وتوفى إبراهيم فعاد إلى مرسيليا في عام ١٨٦٠م وتوفى بها في ١٨٦٨م ويعد دكتور دري باشا أول أستاذ في القصر العيني.

دكتور دري باشا الأستاذ الأول في الجراحة بالقصر العيني

الفصل الرابع

المستشار التجاري والعلاقات الخارجية
ويعد أول وزير خارجية في عصر محمد علي

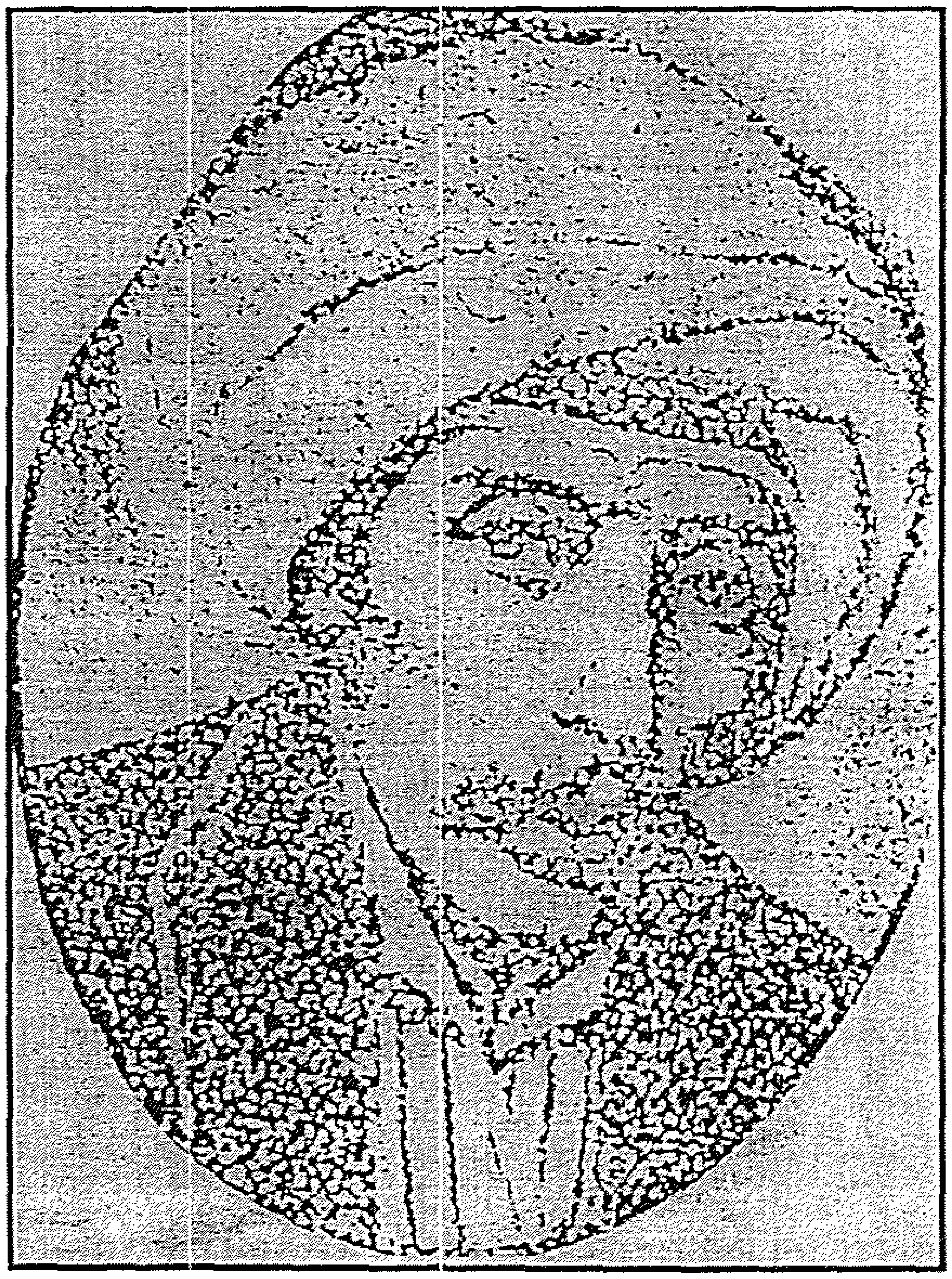

بوغوص بك

بوغوص بك بوسفيان أول أرمني عمل في خدمة محمد علي وله دور كبير في بناء مصر الحديثة.

ولد هذا الأرمني في عام ١٧٩٦م في أزمير. توفى والده ١٧٩٠م وكلفه خاله أركيل الذي كان يعمل مترجماً في القنصلية البريطانية. أجاد بوغوص اللغات الأوروبية قراءة وكتابة كما أجاد اللغة العربية تحدثاً وكتابة. وعمل تاجراً في الأسواق العالمية لإجادته اللغات الأوروبية. ارتحل من بلاده إلى مصر وكانت مهنته التجارة التي أكسبته الخبرة ومعرفة أحوال مصر وأتاحت ظروفه أن يستأجر جمرك رشيد وفجأة عاد إلى أزمير لقبول عرض القنصلية الإنجليزية بأن يعمل مترجماً لها والاستفادة من خبراته ومعرفته لمصر في مقاومة الحملة الفرنسية. وفي عام ١٨٠٠م عاد إلى مصر ليستقر في الإسكندرية كمترجم للقائد الإنجليزي "سيدني سميث". فاستأجر جمرك الإسكندرية وتمكن هو ومن معه من التجار الأجانب في مساعدة القائد الإنجليزي في طرد الفرنسيين. ولما انتهت الأمور في مصر وانسحب الأسطول الإنجليزي من الإسكندرية استخدمه الوالي خسرو باشا كمترجم له ثم انتقل إلى خورشيد باشا ليقوم له بنفس المهمة التي كان يفعلها مع خسرو باشا. وفي عام ١٨٠٥م تولى محمد علي أمور الحكم في مصر فانتقل للعمل معه. أما الفترة التي كانت ثورة المصريين على خورشيد باشا لم تذكر الوثائق عن أعمال بوغوص في هذه الفترة.

وعقب تولي محد علي حكم مصر انتقل بوغوص إلى الإسكندرية يمارس تجارته وتمكن بالاتفاق مع محافظ الإسكندرية أن يستأجر الجمرك في مقابل توريد ٢٥٠٠ كيسة للدولة لمدة خمس سنوات بشرط أن يسدد المبلغ كاملاً ولو حدث عجز بالإيرادات. ثم أعيد نفس الاتفاق مع محمد علي بشرط أن يتقاسم محمد علي مع بوغوص في حالة زيادة الربح وبهذا الاتفاق صار بوغوص شريكاً مع محمد علي في إيرادات الجمرك في المدة بين ١٨١٤م- ١٨١٩م. ومن خلال هذه الشراكة قد وضحت خطة محمد علي في حرصه في تحقيق حد أدنى للإيرادات هذا من جانب ومن جانب آخر أن محمد علي أعطى بوغوص ثقته ثم منحه عائداً قرش واحد على كل أردب يبيعه بوغوص للأجانب.

كان بوغوص في غاية الرعب الشديد من بطش محمد علي فهو حريص كل الحرص على ألا يقع في أخطاء قد تعرض حياته للقتل ولذلك إذا طلبه محمد علي للمثول بين يديه فإنه يقرأ صلواته قبل الدخول خوفاً أن يخطئ فيأمر محمد علي بإعدامه.

ومكانة بوغوص وثقة محمد علي فيه جعلت بوغوص يبعث خمسة من الأرمن في البعثات إلى أوروبا عام ١٨٢٦م منهم سليمان حكيكيان في الهندسة الذي صار فيما بعد بكفاءته ناظراً لمدرسة المهندسخانة من ١٨٣٤م - ١٨٣٨م بفرنسا.

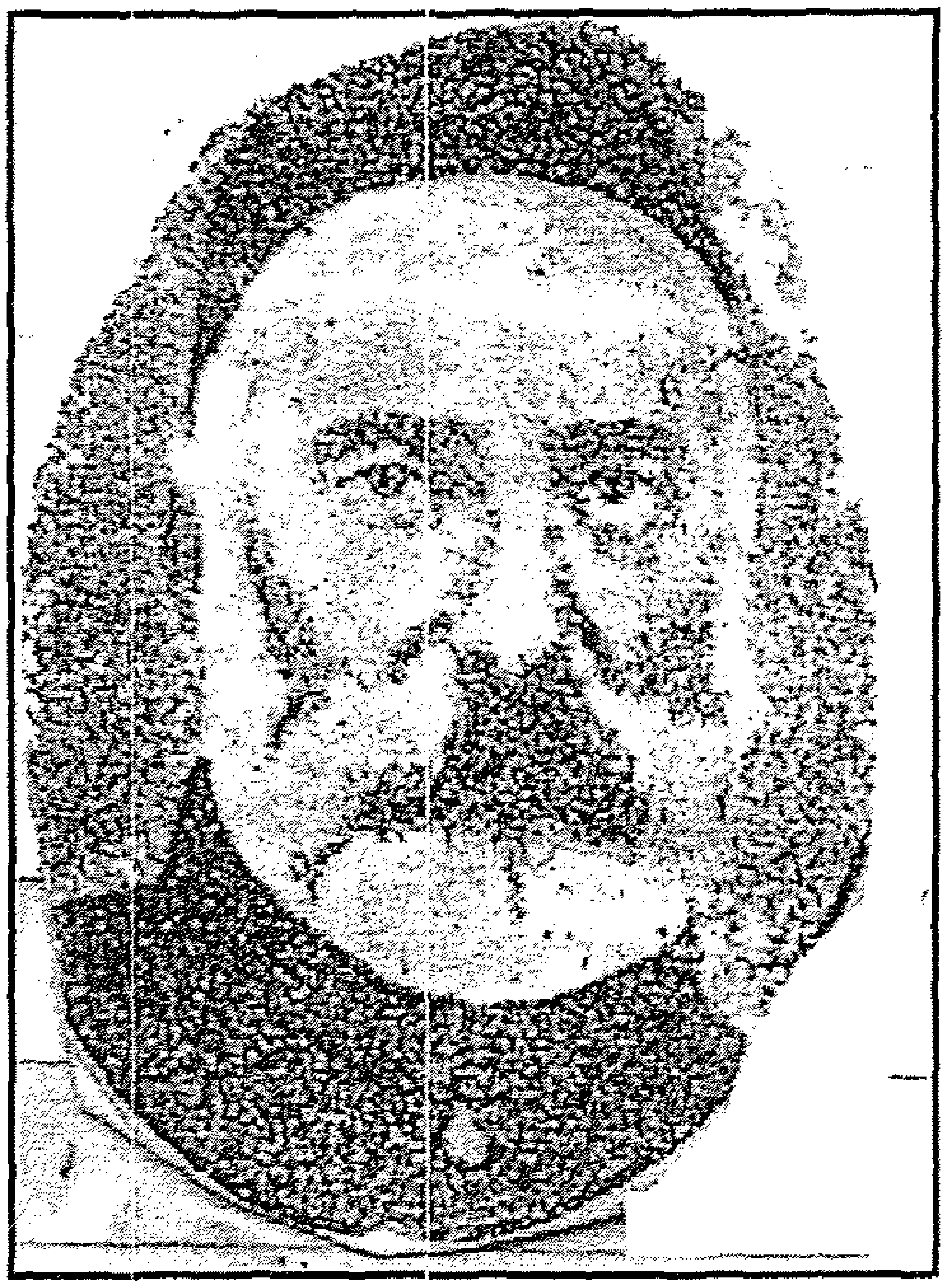

يوسف بك حكيكيان

كما أرسل يوسف أفندي للتخصص في فلاحة الأراضي والزراعة إلى فرنسا الذي تولى فيما بعد مديراً لحدائق شبرا الخاصة بمحمد علي باشا وهو الذي أدخل زراعة اليوسف أفندي في مصر فسمى باسمه. وهو من مواليد أرمنيا وكان عمره وقتئذ ثلاث وعشرين سنة تلقى علم الفلاحة في بلدة "روثل" بفرنسا وكان مرتبه الشهري ٥٠٠ قرش وعاد إلى مصر في عام ١٨٣٢م وعند عودته تولى نظارة مدرسة الزراعة بنبروه.

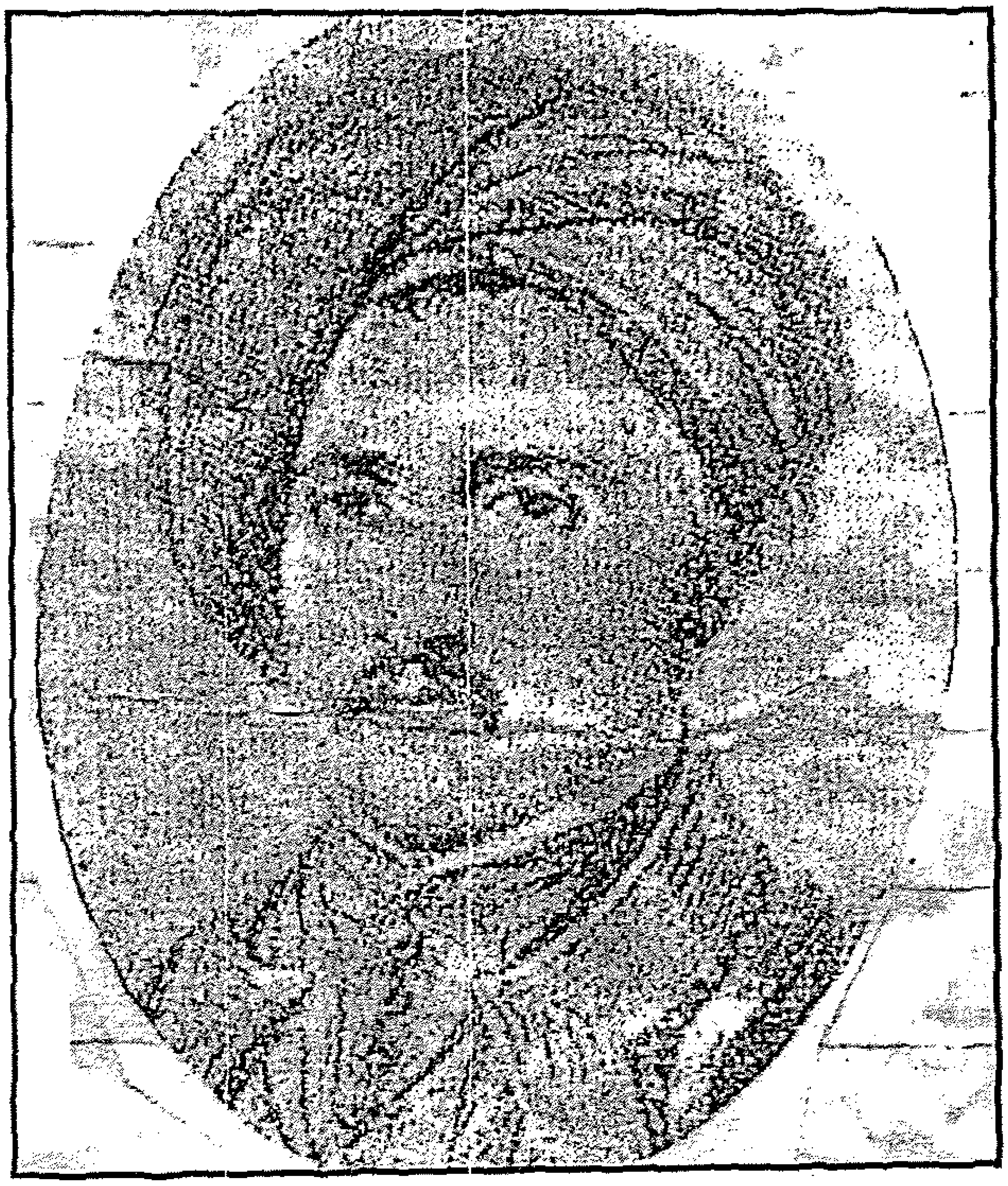

يوسف أفندي مدير حدائق شبرا
وهو الذي أدخل زراعة اليوسف أفندي في مصر فسمي باسمه

وفي بعثة ١٨٤٤م أرسل ستة من الأرمن ضمن البعثة وقد أتاح النظام الوظيفي الذي وضع أسسه محمد علي في ذلك الوقت للعائدين أن يتولوا أعمالهم في التخصصات التي لقب عليها وقد ظل هذا الوضع حتى أوائل القرن العشرين. ويعود الفضل لبوغوص باشا الذي فتح المجال أمام بني جلدته الأرمن في تولي المناصب الكبرى في مصر خاصة في الشؤون التجارية أو الشؤون الخارجية حتى صار ديوان الخارجية حكراً على الأرمن وقد أطلق عليه ديوان الأرمن فيما بعد. وصارت منذ ذلك الوقت وزارة الخارجية ميراثاً من بوغوص للأرمن وعقب وفاة بوغوص تولى أمين بك الوزارة.

ثم عزل وتولى اسطفان ويمرجيان ثم خلفه نوبار عام ١٨٦٦م وحين تم تشكيل أول وزارة مسؤولة تم اختيار نوبار رئيساً لها مع الاحتفاظ بمنصب ناظر للخارجية ثم عين ويكران بك زوج ابنته منصب وكيل النظارة وظل نوبار باشا ناظراً الخارجية مدة أربع سنوات.

نوبار باشا (رئيس الوزارة في عهد توفيق باشا)

واستخدم محمد علي أعداداً كبيرة من الأرمن خاصة من أسرة بوغوص في بعض المناصب الكبرى. بينما أعطى (أبرو) خال بوغوص أمراً بتأسيس البوستة (البريد) في عام ١٨٢١م كما أرسل نوبار إلى فرنسا يمثله في العاصمة الفرنسية.

ومن خلال الوثائق عرفنا أن محمد علي ألقى على عاتق بوغوص مهاماً كثيرة مع الترجمة وهو العمل الذي ظل يمارسه طوال تواجده في الإسكندرية وبعد ذلك أوكل

إليه العمل كمدير لديوان التجارة والأمن الخارجية الأفرنجية فكان محمد علي يقوم بإرسال المراسلات إليه ليقوم بترجمتها ويرسلها إليه. كما كان يراجع تراجم بعض الكتب وقد طلب منه مراجعة كتاب "روضة العمران" وإبداء رأيه في طبعه.

لعب بوغوص دور وزير الخارجية في تلك الفترة بحكم عمله كمدير لديوان التجارة والأمور الأفرنجية. وفي الحقيقة أن محمد علي لم يحدد طبيعة العمل له في هذا الديوان بل ترك الأمر لبوغوص يحدد طبيعة العمل ومهام ديوانه ومن خلال وثائق عصر محمد علي ومن خلال دفتر مهام الدواوين وجدت مهام كل ديوان من دواوين محمد علي. فلم أجد مهام ديوان التجارة والأمور الأفرنجية ولم يذكر أية بيانات عنه في ذلك الدفتر أو في الوثائق.

ظل بوغوص يعمل طوال حياته حتى ساءت حالته الصحية فامتنع عن طعامه رغم نصائح الأطباء أن يتناول ما يقيم أوده وبإصراره على عدم تقبل نصائح الأطباء يعد دليلاً واضحاً على رغبته في مفارقة الحياة وكأنه يصر على أن يفارق الحياة وهو في مكتبه. وفعلاً كان له ذلك ومات ودفن دون علم محمد علي. ولما وصلت أخبار وفاته لمحمد علي أمر بجنازة رسمية عسكرية تبدأ من منزله وتنتهي إلى مدفنه واشترك في هذه الجنازة ألف جندي من قوات محمد علي.

الفصل الخامس

المستشار التربوي التعليمي

علي باشا مبارك (أحد أعضاء بعثة محمد علي وزير المعارف في عهد إسماعيل)

ولد علي مبارك في قرية (برنبال) الجديدة بمركز دكرنس بمديرية الدقهلية في عام ١٨٢٤م في أسرة متوسطة الحال معروفة بالتقوى والصلاح والاشتغال بالعلم و يعرفون بعائلة المشايخ وكان جده الأكبر إمام مسجد القرية وخطيبها وقاضيها وقد اضطر مبارك أن يغادر برنبال الجديدة فراراً من قسوة جباة الضرائب واستقر به المقام في عرب السماعنة بالشرقية وما لبث أن صار فيها إماماً ومرجعاً لأحكام الدين، وهنا

حفظ علي مبارك القرآن في سنتين إلا أن قسوة الفقيه نفرته فأبى الاستمرار في القراءة ورغب في تعلم الكتابة ولكنه لم يجد الكاتب أقل غلظة من الفقيه، وبعد تجارب مؤلمة عينه أحد مأموري الزراعة كاتباً بأجر قليل.

رأى علي مبارك من المأمور شفقة وحسن معاملة فطاب له المقام عنده ولكنه خشى تقلب الظروف فعزم على أن يكون "بحالة لا ذل فيها ولا يخشى غوائلها وهذا يدلنا على أن علياً كان له نصيب من عزة النفس وإباء الضيم".

ولم يمض سنوات طويلة حتى عرف أن مأمور الزراعة إنما وصل إلى هذا المنصب بفضل تعلمه في إحدى المدارس التي أنشأها محمد علي باشا فقوى عزمه على أن يسلك الطريق الذي سلكه رئيسه وسار من تلقاء نفسه قاصداً القاهرة لدخول مدرسة القصر العيني. وبينما هو سائر على قدميه التقى ببعض الأطفال فهم أنهم تلاميذ في مكتب أنشأه محمد علي " بميت الفر" فدخله وحاول أهله أن يصرفوه عن عزمه ولكن حبه للتعلم حتى في هذه السن المبكرة حال دون بلوغهم مآربهم.

وبعد قضاء مدة في " ميت الفر " كان من التلاميذ الذين وقع عليهم الاختيار لدخول مدرسة القصر العيني ١٨٣٦م وهو لا يتجاوز الثانية عشر بفضل طموحه إلى الرقي وعزيمته القوية ولم تمض سنة حتى انتقلت هذه المدرسة إلى أبي زعبل وهناك بدأ علي مبارك يتذوق لذة تفهم العلم بفضل ما أوتي ناظر المدرسة من المقدرة في شرح الهندسة بطريقة بسيطة تفهمها عقول التلاميذ.

وفي عام ١٨٣٩م كان علي مبارك أحد الأذكياء الذين انتخبوا لإلحاقهم بمدرسة المهندسخانة ببولاق حيث قضى فيها سنتين كان ترتيبه في تحصيل العلم دائماً أول فرقته وكان من أساتذته محمود باشا الفلكي.

ولما أتم دراسته الهندسية أرسل في " بعثة الأنجال" إلى أوروبا وكان ضمن أعضائها بعض أولاد محمد علي وأحفاده ومنهم الخديوي إسماعيل وقصدت البعثة باريس

١٨٤٤م لتعلم الفنون الحربية وبعد سنتين نقل علي مبارك إلى مدرسة المدفعية والهندسة الحربية في متز (Metz) وعين ملازماً ثانياً في الجيش الفرنسي وبعد سنتين في هذه المدرسة نجح في الامتحان النهائي والتحق بإحدى فرق المهندسين الحربية بالجيش المصري وقضى فيها ما يقرب من سنة فأصبح من أبرع المهندسين المصريين... ولو طال عمر إبراهيم باشا في الحكم لنال علي مبارك فرصة للترقي لزيادة خبرته العلمية... أما عباس فقد عينه مدرساً بمدرسة طرة الحربية وأنعم عليه برتبة الصاغ واشترك مع موجيل بك Mougel كبير مهندسي القناطر الخيرية في وضع نظام لمرور السفن من القناطر ثم رقى بعد ذلك إلى رتبة أميرلاي وعينه ناظر مدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من مدارس وكلف بوضع نظام للتعليم في مدرسة المغروزة واختبار مدرسيها وما يدرس فيها من كتب وقد أظهر علي مبارك مقدرة عجيبة في رفع مستوى المدارس التي أدارها فكان يقوم بتدريس الطبيعة والعمارة ويرشد المدرسين ويزور الفصول الدراسية ويؤلف الكتب المدرسية وبلغ من حرصه على فائدة الطلاب فأنشأ مطبعة تطبع الكتب فطبع فيها كثيراً مما يلزم المدارس الحربية وفرق الجيش واعتنى بصرف الوجبات الغذائية وتوفير المياه النقية للشرب وبملابسهم وحث المعلمين على معاملة تلاميذهم بالحسنى وعدم الضرب. ولما تولى سعيد باشا أمور الحكم في مصر أصدر قراراً بمساهمة علي مبارك في حرب القرم واشترك فيها وتعلم اللغة التركية في تلك الفترة وعند عودته من حرب القرم لم يلتحق بأية وظيفة حكومية بل آثر العمل في التجارة فربح منها ربحاً وفيراً.

وفكر في مشروع إقامة شركة هندسية خاصة به هدفها بناء البيوت التي تباع للناس. ولكن تدخلت الظروف السياسية بوصول إسماعيل إلى الحكم فقرر إسماعيل الاستفادة من علي مبارك ومن خلال ذلك دخلت حياة علي مبارك في مرحلة جديدة بأن عينه إسماعيل ناظراً على القناطر الخيرية فأظهر علي مبارك براعة في توزيع كمية المياه بين فرعي رشيد ودمياط بحسب الحاجة وقد خالف رؤية الذين سبقوه من المهندسين أن أية محاولة للتوزيع في المياه تؤدي إلى خلل في بناء القناطر وبعد ذلك قام بإنشاء قناطر رياح المنوفية ومبانيه.

وأضاف الخديوي إسماعيل إلى عمل علي مبارك في ١٨٦٧م وكالة وزارة المعارف العمومية (ديوان المدارس) ونهض بالنظم التعليمية في مصر ويعد هذا الأول من نوعه. وبعد سنة أنعم الخديوي عليه برتبة الباشاوية ووكل إليه إدارة مصلحة السكك الحديدية ووزارة المعارف والأشغال ثم ديوان الأوقاف إلى جانب نظارة القناطر وقام بجميع هذه الأعباء بما أتاه الله من قدرات عالية وقوة ونزاهة في تسيير العمل في تلك المجالات.

ومن أهم أعماله وأعظمها أنه نقل المدارس من العباسية إلى درب الجماميز تيسيراً على التلاميذ وأولياء أمورهم فخصصت لها سراي الأمير مصطفى فاضل (وتشغلها الآن المدرسة الخديوية). وجعل فيها وزارة المعارف ووزارة الأشغال وديوان الأوقاف وهو صاحب الفضل الكبير في إصدار لائحة رجب ١٢٨٤هـ التي نظمت التعليم وقد أصدرها الخديوي إسماعيل ١٨٦٨م والهدف منها توحيد نظام التعليم في مصر وقسمت المدارس إلى ابتدائي وثانوي وعالية.

ولما كان علي مبارك ناظراً للمعارف وديوان الأوقاف في وقت واحد استطاع إصلاح عدد من الأماكن الموقوفة وجعلها مدارس بدلاً من بقائها خرائب وأحسن القيام على الأوقاف الخيرية وأنفق جزءاً من إيرادها على التعليم. وكانت غيرته شديدة على نشر التعليم بالطرق الحديثة والتماس كل فرصة لاستنباط موارد جديدة له وكان رأيه أن الحكومة قد تضطرها ظروفها في بعض الأحيان أن تغل يدها عن إمداد هذه المدارس بكل ما يلزمها من أموال...

توفي علي باشا مبارك في نوفمبر ١٨٩٣م وكان مثال الجد في كل عمل يقوم به ومع كثرة أعماله الرسمية كان إنتاجه في التأليف عظيماً ومن أهم كتبه "الخطط التوفيقية" وهي دائرة معارف لخطط مصر وآثارها في عصورها المختلفة ويقع في عشرين مجلداً.

الفصل السادس

المستشار الحربي

إبراهيم باشا (القائد العام للقوات المصرية وبطل الاستقلال)

مقولته المأثورة" لست تركياً فإنني جئت مصر صبياً ومن ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دماً عربياً"

توطد مركز محمد علي بصدور الفرمان العثماني بتوليته في عام ١٨٠٥م حكم مصر كوالي عثماني تابع للسلطة العثمانية. رأى محمد علي الاستقرار مع أسرته في مصر فبعث

في طلب أسرته مع ابنه الأكبر إبراهيم وكان عمره وقتئذ لا يتعدى السابعة عشر. ولما وصلت بهم الباخرة اصطحبهم إلى القلعة كمقر للحكم ومستقر للوالي وأسرته. وأصدر قراراً بتعيين ابنه إبراهيم حاكماً على القلعة ويؤكد ذلك الجبرتي بقوله "وهو أن محمداً علياً اختص بهذا الشرف أكبر ولديه".

ولكي تبقى الدولة العثمانية محمداً على عرش مصر عليه أن يسدد للباب العالي مبلغاً وقدره أربعة آلاف كيساً ولم يكن هذا المبلغ يمكن توفيره في تلك الظروف التي تمر بها مصر اضطر أن يعطيهم ابنه إبراهيم رهنية حتى يسدد المبلغ. فوافق الباب العالي وسافر إبراهيم إلى الآستانة حتى يتم تسديد المبلغ.

وبعد سنتين عاد إبراهيم إلى مصر وفي الحقيقة لا يوجد ما يثبت أن محمداً علياً قد سدد المبلغ المطلوب ليسترد ابنه وكثرت الأقوال بأن محمدًا علياً استرد ابنه في مقابل خدمات ذات قيمة. لم تذكر نوعية هذه الخدمات التي أداها محمد علي للباب العالي فكان من باب الجميل له أن الباب العالي تنازل عن المبلغ وأعطى لإبراهيم حريته والعودة إلى أبيه وهناك قول آخر "إن انتصار محمد علي في مصر على الحملة الإنجليزية ١٨٠٧م وإيقاع الهزيمة المنكرة لأكبر قوة في العالم قد رفعت من شأن محمد علي في نظر السلطان العثماني. فكانت مكافأته بأن تنازل عن المبلغ المطلوب من محمد علي وأعطى إبراهيم حرية التحرك من الآستانة إلى مصر".

عاد إبراهيم إلى مصر في ٢٦ سبتمبر عام ١٨٠٧م. واعترف الباب العالي بقوة محمد علي المتزايدة، وعند عودة إبراهيم أصدر محمد علي قراره بتعيينه دفتر دار (مفتشاً عاماً لحسابات أبيه) فأدى عمله على أكمل وجه وبجدارة فاكتسب ثقة أبيه فيه وإعجابه بعمله.

ويقال إن إبراهيم لم يمنح درجة الباشاوية إلا بعد أن منح أخيه طوسون بها ولا نتأكد من هذا الأمر لأن الحريق الذي شب في القلعة قد أكل كل السجلات السابقة لعام ١٨١٧م ولم يبق الحريق إلا القليل منها، وأصدر والده قراراً بتعيينه المسؤول على

جمع الضرائب في أقاصي الصعيد ، مكث إبراهيم باشا مدة طويلة يشرف على جمع الضرائب في الوجه القبلي وبجوار عمله هذا أضاف إليه والده قيادة الحملة التي كونت لقتال المماليك الهاربين من القاهرة فهاجمهم وطردهم إلى بلاد النوبة، وفي عام ١٨٠٩م صدر قراراً بتعيينه حاكماً على الصعيد مع الإبقاء على منصبه وهو الإشراف على جمع الضرائب وأضيفت إليه وظيفة جديدة إلى جانب الوظائف التي تقلدها وهي إصلاح أحوال الزراعة

المعروف عن إبراهيم أنه كان يجيد اللغة التركية والفارسية وكانت إجادته في اللغة العربية أقل من إجادته في اللغتين السابقتين ومن صفاته الجسدية فهو قصير القامة بدين له أنف مستقيم وعينان رماديتان ووجه ممتد فلم يكن رشيقاً وغالباً يقول الأصدقاء المخلصين له والمؤرخين يبدو قاسياً وماكراً وفي لحظة يبدو عطوفاً رحيماً خاصة مع الذين جرحوا في المعارك الحربية التي خاضها.

عرف إبراهيم باشا بذوقه الفني في الزراعة ويبدو ذلك واضحاً في تنسيق قصره الكائن بجزيرة الروضة بالقاهرة والذي استكمل بناءه ١٨١٤م بجمال حدائقه المزروعة على طريق التنسيق الإنجليزي وحدائقه الأخرى على التنسيق الفرنسي وزرع في هذه الحدائق أشجاراً من الهند وأمريكا وأوروبا وفي ركن من الحدائق بنى مغارة من قواقع تم العثور عليها على سواحل البحر الأحمر، كما توجد نافورة كريستال تصب الماء في حوض من المرمر مما يبعث انتعاشاً في النفس خاصة في الصيف عندما تشتد الحرارة. وكان يخلو إلى نفسه أحياناً فيذهب إلى المغارة ويدخن فيها أنواع التبغ وأحياناً يدعو بعض المقربين إليه إلى التدخين معه وتسليته في وقت فراغه مع تبادل الأحاديث السياسية أحياناً وقد يثير جدلاً حول الأمور العسكرية مع بعض قياداته وأحياناً يصدر منها أوامره لقواته...

ومن أبرز صفات إبراهيم باشا شجاعته وإقدامه وحبه للنظام وصرامته في تطبيقه ففي ميدان القتال يعيش عيشة الجندي البسيط في المأكل والنوم ويشارك جنوده في

السراء والضراء وكثيراً ما كان يقطع المراحل الشاسعة سيراً على الأقدام ليعطي جنوده وقواده قدوة على ضرورة احتمال شدائد الحروب مما جعلهم يتعلقون به ويستميتون في القتال تحت قيادته.

كان شديد الذكاء صادق الفراسة بعيد النظر في عواقب الأمور ميالاً إلى الاقتباس من أسس تقدم الأمم الأوروبية وكان بعكس قواد الشرق وأمرائه لكونه شديد البساطة كفرد عادي في وقت السلم وفي وقت الحرب أسد جسور ويقول البارون بوالكونت أنه قابل محمدًا علياً قبل مقابلة إبراهيم في طرسوس عقب انتصاره في معركة قونيه وإبرام اتفاق كوتاهيه واستطلع آراء كل منهما السياسية فقال عن إبراهيم إنه لم تتوافر القوى عنده في تأسيس الممالك كما توافرت عند أبيه ولكنه كان متحلياً بما يكفيه من المواهب وأهمها المحافظة على كيان الممالك وترقيتها وتقدمها...

حافظ إبراهيم على احترام أبيه وإجلاله له. ولم يداخله الزهو حتى بعد انتصاراته العظيمة إلى حد أنه لم يكن يسمح لنفسه بالتدخين في حضرته، كما أنه كان لا يبرح مجلس أبيه إلا بإذنه وهذا دليل على الإخلاص والطاعة والاحترام وما اعتاده من قبل".

وأشار البارون أن الفوارق بينه وبين أبيه فقال " إن محمداً علياً كان يمثل فكرة الحكم المطلق بعكس إبراهيم كان يميل إلى الأخذ بالمبادئ الحرة... ثم أن هناك خلافاً جوهرياً بينه وبين ابيه في مسألتين مهمتين الأولى أنه كان غير موافق على نظام الاحتكار الذي اتبعه محمد علي في مصر والشام رغم أنه نفَذ أوامر أبيه في هذا الصدد والمسألة الثانية أن إبراهيم كان يميل إلى إحياء القومية العربية كما تشهد ذلك أقواله وأقوال حاشيته وبطانته بعكس محمد علي كان متشبع بالفكرة التركية وكان من رأي إبراهيم أن يجعل أبوه من الإمبراطورية التي أسسها إمبراطورية عربية بحيث يكون حكامها ورعايها وجيشها من جنس واحد وأمة واحدة (الأمة المصرية) وأن يعيد إلى القومية العربية وجودها واستقلالها بما لديها من لغتها وآدابها وتاريخها.

وبذلك على تشبيعه لهذه الفكرة ما راوه البارون عنه من أنه كان يقول في أثناء فتوحاته بالشام إنه ينوي إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب لهم سواء في الإدارة أو في الجيش ويجعل منهم شعباً مستقلاً ويشركهم في إدارة الشؤون المالية ويحملهم مسؤولية سلطة الحكم وتكاليفها.

وذكر البارون أن إبراهيم كان يعد نفسه عربياً إلى حد أن أحد جنوده خاطبه بالحرية التي كان إبراهيم يشجع عليها رجاله فقال " كيف تطعن على الأتراك وأنت واحد منهم؟ فنظر إليه وأجاب على الفور "أنا لست تركياً فإني جئت مصر صبياً ومن ذلك الحين مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دماً عربياً".

إبراهيم باشا يواسي بنفسه الجرحى من رجالة في ميدان القتال

الباب الثالث

البعثات المصرية إلى أوروبا

تقـــديم

بعد ما استقرت أمور الحكم بمصر لمحمد علي رأى أن الأزهر ليس المعين الوحيد الذي يمده باحتياجاته من رجال إداريين وفنيين ومهنيين يصلحون للقيام بأعباء دولة حديثة مثل الدول الأوروبية المعاصرة له تخرج من الأزهر الشريف العديد من علماء الدين والشريعة والفقه لكن محمد علي يريد أن يقيم صرحاً جديداً عن غيرها مبنى على العلوم الحديثة فاتجه نظره إلى الأساليب الأوروبية في إقامة دولته الحديثة.

وفي نفس الوقت أبقى على الجامعة الأزهرية بتراثها الديني العلمي والاستفادة من خريجيها المتفوقين علمياً بإرسالهم في بعثات إلى أوروبا للتخصص في مختلف العلوم والفنون حتى إذا عادوا إلى وطنهم كانوا رواد النهضة المصرية الحديثة على مواقعهم في مصر حسب ما تخصصوا فيه ليحلوا محل الأجانب في تلك المواقع. وفي نفس الوقت تقع على عاتقهم تعليم وتدريب المصريين على ما درسوه وتدربوا عليه في أوروبا.

كان محمد علي منذ عودة المبعوثين حريصاً كل الحرص في أن يستوثق من مهاراتهم واستيعابهم فيما تخصصوا فيه ثم يطلب من كل واحد منهم يترجم له كتاباً في العلم أو الفن الذي اختص بدراسته أما الذين دربوا على الصناعة منهم فكان يأمر باختبارهم فيما درسوه ودربوا عليه حتى إذا تأكد من مهاراتهم ودرايتهم استغنى عن خدمات الأجانب ويحلوا بدلاً منهم في الوظائف التي كانوا يشغلونها في الصناعة.

فكر محمد علي في إرسال بعثاته إلى أوروبا. فاتجه نظره إلى إيطاليا لسببين أولهما أن الإيطاليين في مصر بكثرة والتصق المصريين بهم فتعلموا اللغة الإيطالية والسبب الثاني أن اللغة الرسمية الأوروبية في ذلك الوقت بمصر هي اللغة الإيطالية. حتى الرسائل التي كانت تبعث من القنصليات الأجنبية كانت ترسل باللغة الإيطالية. كما أن الإيطاليين كانوا بكثرة في الموانئ المصرية فأرسل محمد علي بعثتين إلى إيطاليا لدراسة فن سبك الحروف والطباعة وبعض الفنون العسكرية وبناء السفن وطلب استدعاء بعض المعلمين الإيطاليين وقد أمر بترجمة بعض الكتب الإيطالية إلى اللغة العربية.

ثم تحولت مصر من إرسال بعثاتها إلى إيطاليا بأنها أرسلت معظم بعثاتها إلى فرنسا. أقامت مصر أول مؤسسة للبعثات في باريس عام ١٨٢٦م حيث كان عدد أعضائها ٤٤ عضواً ثم زاد العدد فوصل في عام ١٨٣٢م إلى ١١٤ عضواً في مختلف التخصصات ولما كتب الله لهم سلامة الوصول إلى مصر كانوا من الدعائم الأساسية الهامة في بناء نهضة مصر الحديثة التي أقامها محمد علي.

إن اهتمام محمد علي بالتحصيل العلمي وترقية الفكر المصري لمدة طويلة أوجد في مصر حركة علمية وثقافية جديدة، وأعاد للغة العربية مكانتها التي كانت عليها من قوة في البيان والنحو والأساليب الأصلية ثم أصبحت لغة الكتب والتدريس في مختلف العلوم.

وكانت المطبعة الأميرية ببولاق لطباعة أعداد كثيرة من الكتب العربية المؤلفة والمترجمة في العلوم بكل التخصصات وفي العلوم العسكرية والحربية التي تخص الجيش المصري والأسطول. هذه الكتب المترجمة من اللغات الأجنبية كانت تتمشى مع التقدم العلمي الحديث.

ولذا أرسل محمد علي أول بعوثه إلى إيطاليا وكان لهذا دلالته السياسية بأن محمد علي لم يكن مدفوعاً من أية دولة أوروبية للتزود من الثقافة الغربية ولذا اضطر أن يرسل بعودته إليها وما قيل عن أن الفرنسيين قد أوحوا إليه بذلك عن طريق القنصل الفرنسي دروفتي Droveit الذي أقنعه بفائدة البعوث. ويقول الأمير عمر طوسون في بداية كتابه عن البعثات العلمية في عهد محمد علي " ابتدأ محمد علي ينفذ ما جال في خاطره فأنشأ المدارس في القطر على مثال المدارس في أوروبا واستعار لها الأساتذة من هناك. ثم ساق إليها التلاميذ قسراً ولكنه بعد ذلك أحس بأن كل هذا لا يفي بالغرض المطلوب. وأن حاجة البلاد إلى جانب من المدرسين وغيرهم لا تزال حيث كانت ولا يريد أن تحتاج بلاده إلى شيء من الخارج فهدته فكرته إلى الحل الصحيح المضفل بأن يبعث البعوث من الشبان الذين أهلتهم معاهد العلم بمصر إلى أوروبا ليتمموا دراستهم بها ويتخصصوا في العلوم التي ليس فيها من المصريين أخصائيون".

أرسل محمد علي في ١٠ يناير ١٨٣٥م إلى مسيو جومار رسالة يقول فيها "جناب المحترم السيد جومار العضو بمعهد فرنسا... شكراً لك يا صديق مصر العامل بجد وإخلاص لنفعها حتى كأنك نبراس رغباتي في تمدين البلاد التي جعلني الله على رأسها إذا لم تنقطع عن إظهار ولائك بأدلة قاطعة وهي تلك الجهود العظيمة التي تعاينها في مراقبتك التلاميذ الذين أرسلتهم إلى وطنك منذ سنين عديدة، وقيامك حق القيام بتهذيبهم وإني مقدر تضحيتك وإني وإن لم أجد وسيلة الآن للتغلب على تمنعك الذي ليس له مصدر غير رقة طباعك، أرجو رغبة في إظهار ما يكنه فؤادي من قدر فضائلك العظيمة حق قدرها، ألا ترفض الهدية الصغيرة التي أقدمها لك ألا وهي علبة تبغ قد تكون لها قيمة في نظرك عندما تعلم أني أنا الذي أهديتها إليك وقد كلفت

وزيري الأمين بوغوص بك أن يوصلها إليك وأني أوكد أيها السيد أن هذه ليست مكافأة تليق بجهودك التي عادت على مصر بالفوائد الجليلة. بل هي تذكار صغير من أمير ساعدته على أن يسير بعض الخطوات في طريق تمدين الشعب الذي يحكمه، وهي في الوقت ذاته رجاءً مني لك بالاستمرار في المستقبل فيما بدأت به، وإني لفي انتظار هذا البرهان الجديد على تفانيك في خدمة قطر مدين لك بكثير من الخدم الصالحة ومن وجهة أخرى لكن متأكد من العزيمة الصادقة التي أعتز بها ألا وهي معاضدة الرغبات التي يبديها أمالك الموهبين غيرة على الإنسانية تلك الرغبات التي تبدونها في سبيل الإصلاح وأني أهدي إليك في الختام تحياتي عن خالص مودتي.

محمد علي

الفصل الأول

البعثات المصرية الأولى إلى إيطاليا

عثمان نور الدين: منظم البعثات المصرية الكبرى

أرسل إلى إيطاليا في عام ١٨٠٩م وقضى خمس سنوات يدرس في "بيزا وليفوون" ثم توجه لتكملة دراسته لمدة عامين في باريس ثم عاد إلى مصر ١٨١٧م والذي رشحه لهذه البعثة الطويلة المدى القنصل السويدي يوسف بكتي.

Joseph Bockty وهذا دليل واضح على أن مساعي القنصل السويدي كانت ذات شأن في إرسال البعثة الأولى إلى إيطاليا دون التدخل من فرنسا ووطن عثمان نور الدين "جزيرة مدلل" ثم التحق بمصر واعتبرها وطنه الثاني وأعماله التي قام بها وخدماته الجليلة تدل على إخلاصه الشديد وحبه لمصر.

وخلال بعثته في إيطاليا أظهر نبوغه في العلوم الحربية والبحرية وعند عودته إلى مصر أسند محمد علي إليه تنظيم البعثات الكبرى التي بعثت إلى فرنسا واختير في اللجنة التي تكونت ١٨٢٢م لوضع برنامج التعليم العسكري بالمدارس الحربية المصرية على النظام الحديث وكان ضمن عضوين في اللجنة أحدهم الكولونيل سليمان الفرنساوي ومهندس/ أحمد أفندي الذي أسس المدرسة الإعدادية الحربية بالقصر العيني ومدرسة أركان حرب بالخانكة وقد أعجب بمقدرته كلوت بك وأثنى عليه وقد وضع في منزلة عليا عند محمد علي لإخلاصه وكفاءته وقد نال رتبة "سرعسكر" ترقية له لإخلاصه ثم رقى إلى رئاسة الأسطول المصري ١٨٢٧م بدلاً من محرم بك ثم أنعم عليه محمد علي

برتبة الباشاوية ، أحبه محمد علي لدرجة كبيرة وكان لا يستغنى عنه فبنى له منزلاً على ساحل الميناء غربي رأس التين ليكون قريباً منه ومن سفن الأسطول بالميناء ثم عين رئيساً للجهادية (وزير الحربية) براً وبحراً. وبهذا الحب والمكانة لدى محمد علي أصبح عثمان نور الدين الرجل الثالث في مصر بعد محمد علي وإبراهيم. وكما ذكرت كان له فضل في إيفاد البعثات إلى فرنسا، وقد تعرف على مسيو جومار Jomard أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون التي كانت في صحبة نابليون في مصر أثناء تواجد الحملة بها.

توطدت العلاقات بين كل من عثمان نور الدين ومسيو جومار فصار عثمان له منزلة عظيمة عند مسيو جومار الذي طلب منه أن يسعى إلى إقناع محمد علي بإرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا لتلقي العلوم والفنون فيها ووافق عثمان على هذا الرأي وبعد عودة عثمان من بعثته الفرنسية بثلاث سنوات عندما رأى محمد علي فيه الكفاءة والنبوغ اجتمع به ودار بينهما حديث عن البعثات الشبابية المصرية إلى أوروبا وبعد اقتناع محمد علي برأي عثمان نور الدين بأن يوالي محمد علي في إرسال البعثات إلى فرنسا ومن كفاءة نور الدين التي أعجب بها محمد علي حين وضعه في قيادة الأسطول المصري في الحرب السورية الأولى خاصة في حصار عكا لما رأى منه تطبيق النظم البحرية الحديثة. ومنها المناوشات البحرية مع العدو وتدريب الجنود أثناء تجواله في البحر مدة ثلاثة أشهر لا يروا فيها البر.

ففي عام ١٨٣٣م دخل عثمان نور الدين جزيرة كريت مع محمد علي لتنظيم الحكم المصري بها فأقام عثمان عدة إصلاحات إدارية واجتماعية. واعتزم تجنيد أهلها وكان ينوي اتخاذ ميناء "السودة" ميناء حربياً ليكون قاعدة للأسطول المصري في أثناء جولاته في البحر المتوسط.

وعقب عودته إلى مصر وصلت الأخبار عن تجنيد الكريتين مما أدى إلى إشعال نيران الثورة في الجزيرة وكان الثوار من الفلاحين وعدد الذين حملوا السلاح منهم ستة

آلاف واتجهوا إلى مقر الحامية المصرية فأرسل حاكم الجزيرة "مصطفى الأرناؤوطي" نبأ الثورة إلى محمد علي فأرسل إليه قوة من الجند تحت قيادة عثمان نور الدين لإخمادها. ولم يستخدم عثمان القوة لإخماد الثورة بل استخدم مع الثوار اللين والسياسة بعد أن أوقع بعضهم أسرى. لكنه وعدهم بالعفو، وأرسل إلى محمد علي يطلب منه العفو عنهم، فرفض محمد علي طلبه وأمر بتصفيتهم جسدياً فقرر عثمان نور الدين تقديم استقالته من خدمة الحكومة المصرية وارتحل من الجزيرة عام ١٨٣٣م وبعث إلى يوغوص بك وزير الخارجية المصرية يخبره بأنه اعتزل خدمة محمد علي وارتحل إلى مسقط رأسه مدينة مدلل ومنها إلى الآستانة عاصمة الإمبراطورية العثمانية حيث استقر فيها حتى فارق الحياة، وفي الحقيقة لم يعرف من أعضاء البعثة الأولى إلا عثمان نور الدين أو لم يستدل على بقية الأعضاء من دار المحفوظات المصرية ولا في سجلات الخارجية الإيطالية ومدارسها.

وكل ما وصل إلينا بعد رحيل عثمان نور الدين من الجزيرة أن محمد علي أصدر أوامره بإعدام زعماء الفتنة في كريت وإدخال الشباب من أهلها قهراً وتعسفاً في خدمة القوات المصرية.

والبعثة الثانية أرسلت إلى إيطاليا في عام ١٨١٣م

لم يستدل إلا على عضو واحد هو "نيقولا سايكي" أفندي الذي أرسل إلى ميلان لدراسة فن الطباعة وسبك الحروف وعمل قوالبها... واستمر إرسال البعثات إلى إيطاليا بعد عام ١٨١٣م ثم توالت البعثات إلى إيطاليا بزيادة ملحوظة في عامي ١٨١٨م-١٨١٩م ومعظم أعضاء هذه البعثة أرسلوا إلى "بيزا" في إيطاليا فدرسوا الفنون العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة. وجميع مبعوثي مصر إلى إيطاليا لم يسجل أسماؤهم في سجلات دار المحفوظات.

الفصل الثاني

الحياة العامة في مصر

النوابغ في البعثة الأولى إلى باريس ١٨٢٦م

١- الرسالة الأولى من محمد مظهر المبعوث المصري في باريس ١٨٢٦م إلى صديقه يقول فيها:

محمد مظهر ناظراً لمدرسة المدفعية بطرة

صديقي العزيز.. تذكرني في كتابك الأخير بوعدي عند سفري من مصر أن أصف لك ما آراه من المعجبات في فرنسا وهأنا أفي لك بوعدي.

عندما نزلت في مرسيليا من على ظهر الباخرة التي أقلتنا من ميناء الإسكندرية إلى مرسيليا الميناء الفرنسي، ظهر لي جملة مناظر لم أرها من قبل أولها جمال المباني مع علوها الشاهق ثم الشوارع المرصوفة مع اتساعها واستقامتها. ثم أني سمعت جلبة لم أسمع مثلها ورأيت بعد ذلك عربات تجرها الجياد وهي أول مرة في حياتي أرى فيها هذا المنظر، وكانت تلك العربات لا ينقطع مرورها في الشوارع وقد استولت على الدهشة عندما وقع بصري على السيدات الفرنسيات وقد سفرن بحرية بأزيائهن الجميلة في الشوارع والميادين والمتنزهات الأمر الذي تأباه عاداتنا وشرائع بلادنا. وعندما وصلت دخلنا بعض البساتين تسر الناظرين تختلف فيها الجماهير للنزهة. ثم أدخلوني إلى قاعات عظيمة الاتساع رأيت فيها الصور الجميلة لأمهر المصورين الفرنسيين وشاهدت في موضع آخر أبدع ما أخرجته يد أصحاب الصناعة والفنون. وإني كثيراً ما أذهب إلى المماثل (المسارح) التي لا يمكنك أن تفهم ما هي إلا إذا شاهدتها عياناً.

وأذكر أنا بمصر كانوا يخوفونني من طبيعة بلاد فرنسا، ولكني لما جئتها لم أجد فيها شيئاً يصعب احتماله، خصوصاً في هذه السنة التي بلغ فيها لطف الطبيعة درجة حرمتني من رؤية ما كنت أمني نفسي برؤيته ألا وهو الزحف بالقباقيب على الجليد، فالشباب يذهب إلى محل يسمى ميدان الجليد حيث يصير الماء صلباً كالحجر، فيزحفون فوقه بأحذية مسلحة من أسفلها بعصى من الحديد فنجدهم يسرعون أمامك جرياً كالبرق الخاطف وأذكر أن هذا المنظر جميل وعجيب .

السلام.

صديقك مظهر

وقد أقام مهندس محمد مظهر بباريس عشر سنوات تخصص فيها في دراسة الرياضيات والهندسة ونبغ في العلوم الهندسية والرياضية وقد امتدحه مسيو جومار في رسالة له قائلاً "نبوغ مظهر أفندي في الرياضيات يستدعي النظر".

عاد محمد مظهر إلى مصر وعين ناظراً للمدرسة المدفعية بطرة وتولى مناصب مختلفة وهو الذي بنى "فنار" الإسكندرية القائم بطرف جزيرة رأس التين وبنى القناطر الخيرية وقناطر فرع رشيد. ونال الباشاوية في عهد الخديوي إسماعيل باشا.

٢- مهندس/ مصطفى بهجت باشا

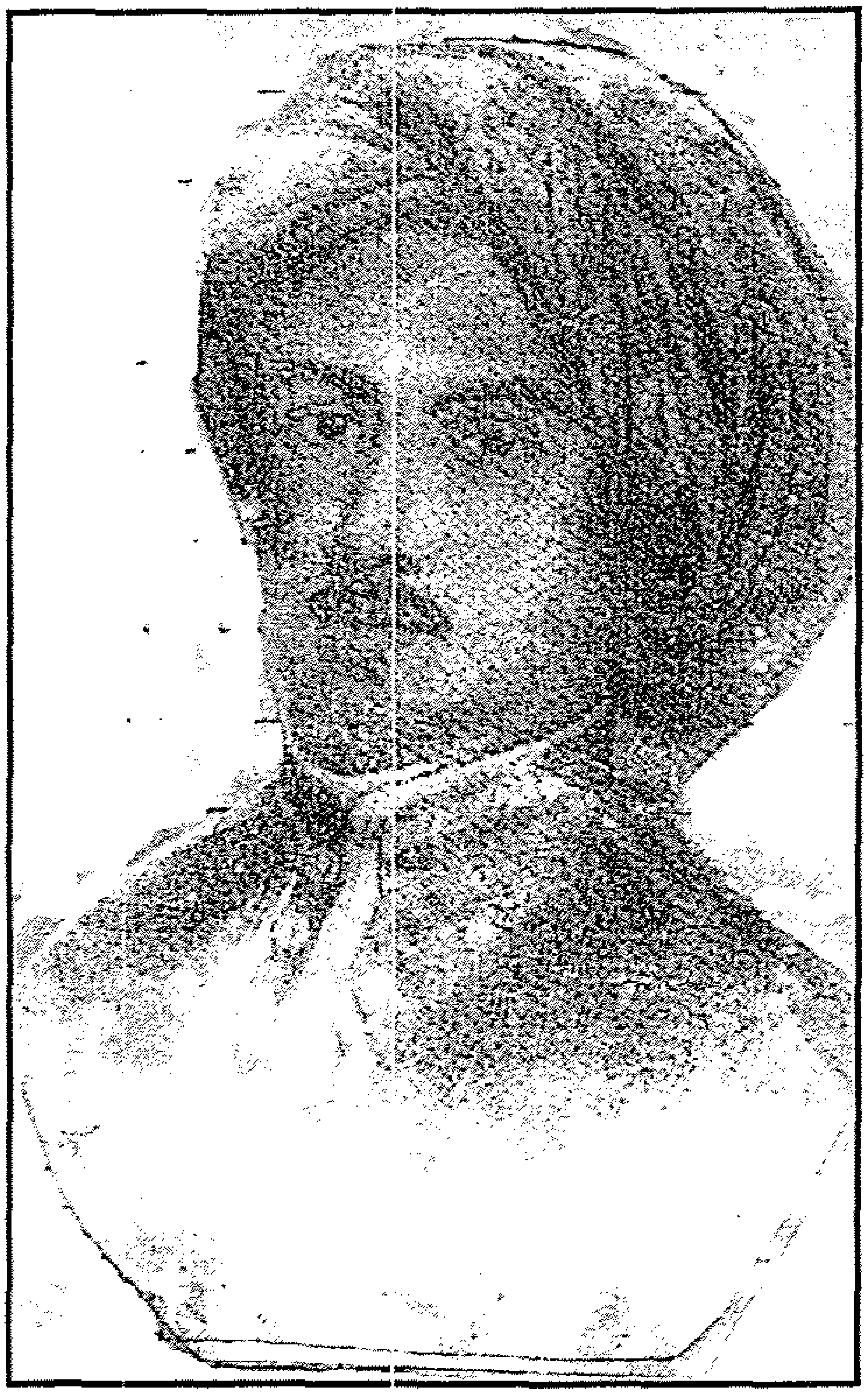

وكان اسمه مصطفى مخرجي لكن عرف بعد ذلك باسم بهجت باشا الذي عرف بآثاره الهندسية.

تلقى علومه في المدارس الحربية والعالية وأقام بها ثلاث سنوات ثم التحق بمدرسة المهندسخانة بالقلعة وكان عمره وقتئذ ١٧ عاماً ثم سافر مع البعثة الأولى إلى باريس وأقام بها عشر سنوات أتقن خلالها العلوم الرياضية والهندسية ثم سافر إلى إنجلترا للسياحة وطبق العلم بالعمل وعاد إلى مصر في ١٨٣٥م وعين ناظراً لمدرسة

القصر العيني وبقى في هذه الوظيفة سنتين رقي خلالها إلى رتبة بكباشي ثم عين ناظرًا لمدرسة المدفعية بطرة ثم رقي إلى باشمهندس الجفالك وعهد إليه مشروع لتسهيل الملاحة في الشلالات وقدم مشروعاً بذلك ونال رتبة أميرلاي ثم اشترك مع مهندس موجيل بك في بناء القناطر الخيرية.

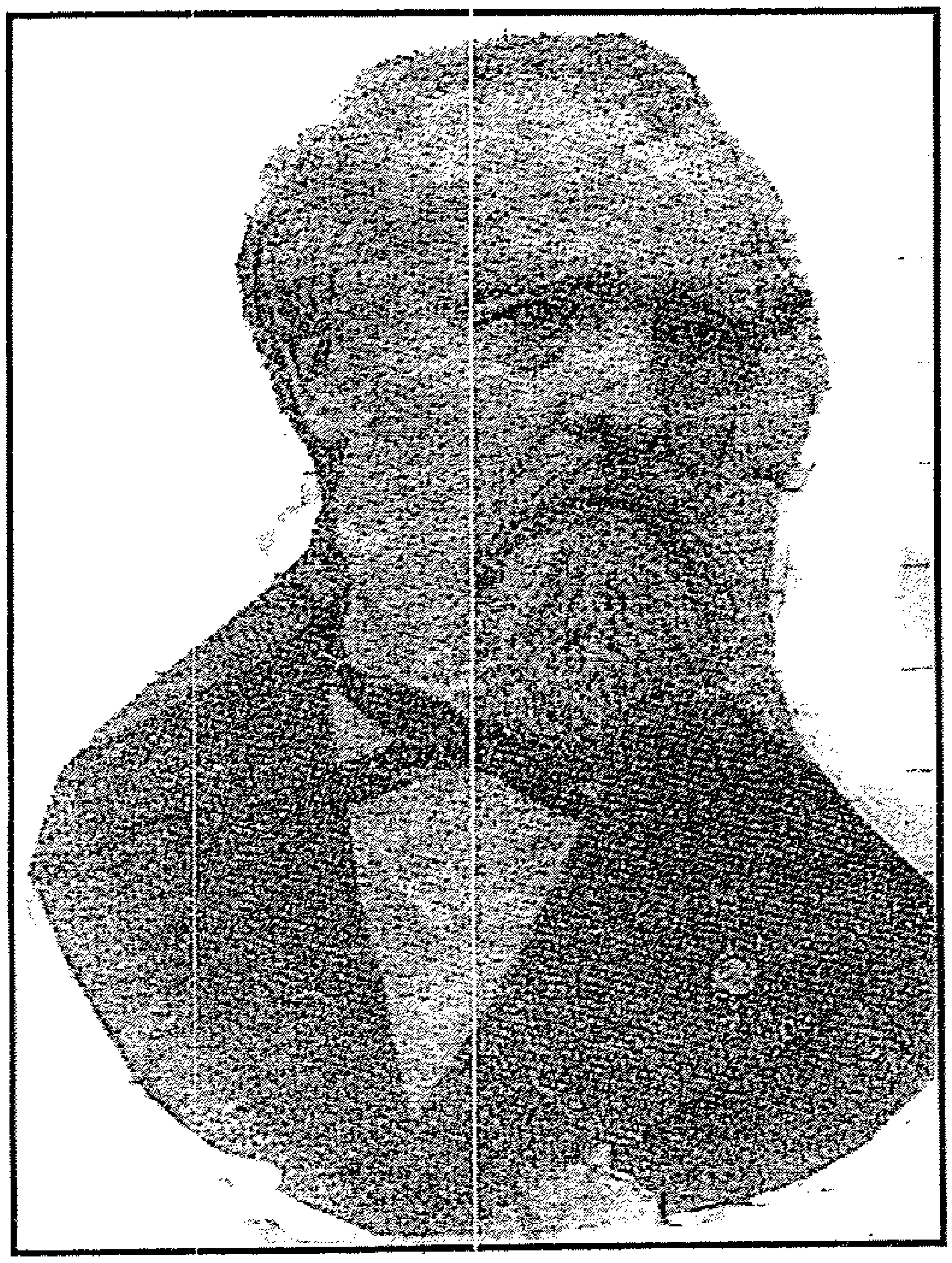

مهندس / موجيل باشا

وعين مصطفى بهجت باشا مفتشاً لهندسة المنوفية والغربية وعهد إليه عباس باشا بوضع تصميم لتجديد الجامع الأحمدي بطنطا فقام بمهنته خير قيام إلى أن تم بناؤه في عهد إسماعيل باشا. وباشر إنشاء السكك الحديدية من بنها إلى كفر الزيات سنة ١٨٢٧م ونال رتبة لواء وعين مفتشاً لهندسة الوجه القبلي ومن أهم أعماله أنه خطط تصميم الترعة الإبراهيمية من أسيوط إلى جسر كوم الصعايدة الفاصل بين مديريتي المنيا وبني سويف ثم عين ناظراً (وزير) للمعارف العمومية ١٨٧٠م ثم كلف بالإقامة بالقناطر الخيرية وقد أمده محمد مظهر باشا بالرسوم والتفاصيل التي يطلبها في أثناء إقامة مصطفى

بباريس مع موجيل بك والإخصائيين من كبار المهندسين الفرنسيين لإصلاح العيون التي ظهر بها خلل بقناطر فروع دمياط وأدركته الوفاة ١٨٧٠م .

أعضاء البعثة الأولى في صورة تذكارية

أول بعثة مصرية أرسلها محمد علي إلى باريس

في الصف الأعلى من اليمين إلى اليسار:

١- مصطفى مخرجي مهندس القناطر الخيرية.

٢- رفاعة بك رافع ناظر مدرسة الألسن.

٣- حسن بك ناظر البحيرة.

٤- محمد بيومي مدرس بمدرسة المهندسخانة.

الصف الثاني:

٥- محمد علي مدرس بمدرسة الطب.

٦- محمد شباسي مدرس بمدرسة الطب.

٧- علي باشا مبارك في الوسط

٨- مهادي بن كهلو ولد في ليمو.

٩- مختار بك ناظر المعارف.

الصف الأسفل:

١٠- محمد بك السكري مدرس بمدرسة الطب.

١١- أمين بك ناظر الكهرجات.

١٢- مظهر بك مهندس قناطر وجوه.

١٣- محمد شافعي ناظر المدرسة الطبية.

٣- دويدار مصطفى مختار بك (أول وزير لوزارة المعارف العمومية)

ألباني الأصل ولد في مدينة قولة جاء إلى مصر مع والديه وهو طفل وعندما بلغ من العمر ٢٦ عاماً انتخبه محمد علي للبعثة الأولى إلى باريس حيث يقوم بدراسة الفنون الحربية وكان في عام ١٨٢٦م ولما تفوق في دراسته عينه أستاذه - مسيو لاكور Lacout سكرتير الصحة والمندوب الحربي- رئيساً للفرقة الأولى. ونجح دويدار في دراسته بتفوق فنقل في العام التالي إلى المدرسة الملكية لتلقي دروس أركان الحرب.

عاد إلى مصر في أول أغسطس من العام ١٨٣٢م بعد أن أتم دراسته الحربية وتنقل في العديد من الوظائف الحكومية حيث عين عضواً في المجلس الأعلى الحكومي ثم تقلد وزارة الديوان الحربي في عام ١٨٣٥م ثم تقلد وزارة المعارف العمومية ويعتبر أول وزير لها. وقد منحه محمد علي رتبة البكوية وقام بإنشاء العديد من المدارس الحكومية لاهتمامه بنشر التعليم والثقافة بين أبناء مصر. وظل يبذل جهوداً في تنظيم الوزارة خلال مدة أربع سنوات. وفي عام ١٨٣٩م انتقل إلى العالم الآخر بعد أن قدم العديد من الجهود التي تشهد له وزارة المعارف العمومية بذلك.

٤- مهندس محمد بيومي أفندي (عالم وأستاذ الرياضيات)

ولد في دهشور بمدينة الجيزة- انتخب للسفر مع البعثة الأولى في عام ١٨٢٦م إلى فرنسا لدراسة الهندسة والرياضيات وهو زميل محمد مظهر وليس أقل منه في علم الهندسة ودخل في المدرسة الملكية الهندسية وأقام تسع سنوات وأتقن في خلالها الهندسة والعلوم الرياضية وقد منح درجة الدبلوم ونبغ في الرياضيات وعاد إلى مصر في أوائل عام ١٨٣٥م .

وعند عودته إلى مصر عين مدرساً في مدرسة المهندسخانة ببولاق ثم زادت خبرته فصار كبيراً لأساتذة مدرسة المهندسخانة وعالماً من علماء الرياضيات وكان أستاذًا لكل من المهندسين النوابغ وهم:

١- سلامة باشا ٢- محمود بك الفلكي ٣- دفلة أفندي

٤- عامر بك حمود ٥- إسماعيل باشا وغيرهم.

انتقل محمد بيومي من التدريس في مدرسة المهندسخانة إلى قلم الترجمة للعمل بها وله مؤلفات في ذلك:

١- جر الأثقال ٢- كتاب الجبر والمقابلة ترجم عن الفرنسية وطبع ١٨٤٠م

٣- ثمرة الاكتساب في علم الحساب مترجم عن الفرنسية وطبع ببولاق ١٨٤٦م

٤- كتاب الهندسة الوصفية في مجلدين

٥- كتاب جامع الثمرات في وصف حساب المثلثات ترجم عن الفرنسية وطبع ببولاق في عام ١٨٤٧م.

وعين في عهد عباس باشا الأول مدرساً للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم وتوفي في عام ١٨٠٢م في منفاه بالسودان.

٥- أرتين سكياس الأرمني باشا (وزير وزارة الخارجية والتجارة)

تولى وظيفة مدير مدرسة الإدارة والترجمة بالقلعة عام ١٨٣٥م ثم عين بعد ذلك عضواً في المجلس الأعلى للحكومة، وفي عام ١٨٣٦م عين عضواً في المجلس الأعلى للمدارس ثم عين سكرتيراً خاصًا لمحمد علي عام ١٨٣٩م ثم رقى إلى درجة فريق في الجيش المصري ثم تولى ديوان الخارجية المصرية عقب وفاة بوغوص وقد اتخذ الأسلوب اليوغوصي في إدارة الديوان.

قد خدم أرتين بك محمد علي باشا وإبراهيم باشا وعباس وسعيد. وتولى إدارة الشؤون الخارجية عقب وفاة بوغوص يوسف بك وكان أرتين بك همزة وصل بين محمد علي ودول أوروبا وتركيا.

كان يجيد اللغات التالية: (العربية- التركية- الفرنسية- الإيطالية- الإنجليزية- الأرمنية) وهي لغة بلاده وأرسله محمد علي إلى أوروبا عام ١٨٤١ م لمفاوضة الحكومة الفرنسية وحكومة إنجلترا في اشتداد الأزمة السياسية التي نشأت بعدما غزا محمد علي فلسطين وسوريا والأناضول وشتت جيوش السلطان محمود في حمص وحماه وبيلان ونزيب وقونيه.

اتصل أرتين بك بلورد والنجتين ولورد بالمرستون من وزراء إنجلترا ومسيو نبير ومسيو جيرو من وزراء فرنسا توثقت قوى الصداقة بينه وبين رشيد بك سفير تركيا في باريس. وأنعم عليه محمد علي برتبة فريق وأنعم عليه السلطان محمود برتبة "بالا" ولما مرض محمد علي في يوليو ١٨٤٨ م وأشار عليه الأطباء بالسفر إلى أوروبا للاستشفاء اصطحب معه أرتين بك وبعد مرض محمد علي واعتزاله الحكم بقى أرتين صاحب خطوة في عهد إبراهيم باشا وعباس باشا وسعيد باشا ومن مميزات أرتين بك أنه كان من أكبر أعداء مشروع حفر قناة السويس وانحاز إليه في هذا مصطفى فاضل إلا أن ديليبسبس تمكن من التغلب عليهما لأن نابليون الثالث كان يقصده بسبب صلة القرابة التي كانت بين ديليسيبس وأوجيني زوجة نابليون الثالث واعتزل الخدمة ثم فارق الحياة.

٦- خسرو سكياس أفندي الأرمني (السكرتير الأول لمحمد علي باشا)

من أصل أرمني ولد في الآستانة جاء مع أسرته وأخيه أرتين بك سكياس (وزير الخارجية والتجارة) الذي تولى الوزارة عقب وفاة بوغوص. وكان عمره ثمانية عشر عامًا حين انتخب للبعثة الفرنسية لدراسة العلوم السياسية وعاد إلى مصر في ديسمبر ١٨٣٢ م. وتولى أمور السكرتارية في عصر محمد علي حيث كان السكرتير الثاني لمحمد علي... ثم سكرتيراً أول لإبراهيم باشا وعباس الأول وقبل وفاته في عام ١٨٧٣ م كان يعاون شقيقه أرتين بك في جميع أعماله وقد اتخذه مترجماً ثم أميناً ثم رئيساً لإدارة الديوان للخديوي.

٧- مهزدار عبدي شكري باشا

من أصل عثماني ولد في الآستانة جاء إلى مصر ولما بلغ من العمر تسعة وعشرين عاماً أرسله محمد علي في بعثة إلى باريس لدراسة علم الحقوق. ولما اكتملت دراسته القانونية عاد إلى مصر في الثالث من أكتوبر عام ١٨٣١م وتولى وظيفة وكيل ديوان الداخلية (وزارة الداخلية) وكان والده قد تولى رئاسة ديوان الداخلية ثم نقل بعد ذلك إلى وزارة المعارف فتولى وزيراً لها في يناير ١٨٣٢م، كان لقبه عند البعثة أفندي ثم منح لقب الباشاوية عند عودته من البعثة. وقد رأس البعثة في باريس حتى ١١/ ٩/ ١٨٢٨م.

٨- أسطفان أفندي أرمني (وزير الخارجية)

من أصل أرمني ولد في سبكاسيا بأرمنيا. جاء إلى مصر وظل بها حتى بلغ من العمر ٢٢عاماً انتخب للبعثة في عام ١٨٢٦م لدراسة العلوم السياسية في باريس وعاد إلى مصر في ديسمبر عام ١٨٣١م وعند عودته بعث إلى باريس لتولي مديراً للمدرسة المصرية بباريس ١٨٥٠م وثم وزيراً للخارجية المصرية ونال درجة البكوية لكنه اعتزل الخدمة في عام ١٨٥٧م ثم توفى في عام ١٨٥٩م.

٩- محمد شنان أفندي أرمني الجركسي (وكيل العمارة البحرية)

من أصل شركسي جاء إلى مصر وهو طفل مع أسرته التي هاجرت إلى مصر وعندما بلغ من العمر عشرين عاماً انتخب للسفر إلى فرنسا لدراسة العلوم البحرية وقد تلقى هذه الدراسة في ترسانة (برست) وقد كان في صحبة زميليه حسن أفندي الإسكندراني ومحمود أفندي للسفر سياحياً إلى إنجلترا وذلك تطبيقاً للعلم مع العمل وعاد إلى مصر في أوائل شهر يونيه عام ١٨٣٣م ترقى منصب البحرية ثم وكيلاً للعمارة البحرية المصرية ونال البكوية وفي أثناء قيادته للسفينة البحرية في حرب القرم جاءته قتيلة من مدافع العدو دمرت السفينة وغرق كل من فيها من بحارة ومات هو غرقاً ولم ينقذه أحد وكان ذلك ١٨٥٥م.

١٠- الفريق البحري مصطفى باشا (القائد العام للدونتمة البحرية المصرية)

من مدينة قولة وكان قبطاناً في السفن التجارية. بعث إليه محمد علي بطاقة استخدام للعمل على الدونتمة المصرية لثقته فيه وكان محمد علي يعرف مقدار خبراته البحرية فعينه وكيلاً للدونتي (الأسطول) التي بعث بها إلى الدولة العثمانية في حرب اليونان. وقد اشترك في معركة نافارين تحت القيادة لإبراهيم باشا وعقب نهاية حرب اليونان عينه محمد علي وزيراً للبحرية وأطلق عليه لقب "ناظر السفائن" ثم عينه قائداً عاماً للدونتي المصرية وظل في هذه القيادة حتى جاءته الوفاة في عام ١٨٤٣م.

١١- المهروار عبده شكري باشا

التحق بالبعثة الفرنسية التي سافرت في عام ١٨٢٦ك لدراسة علوم الإدارة المدنية وعاد إلى مصر وأثبت تفوقاً في دراسته بفرنسا. وعينه محمد علي في ديوان المعارف وقد بذل جهوداً جبارة في تنظيم التعليم وتولى نظارة المعارف العمومية في عام ١٨٥٠م إلى ١٨٥٤م.

١٢- أدهم باشا

رئيس مصانع القلعة - وتموين الجيش المصري بالمهمات

كان محمد علي يرى أن الفارق العلمي الكبير بين إنجلترا ومصر في التقدم لم يكن وليد طفرة واحدة بل حصيلة جهود أجيال كبيرة، كان يرى من الضروري أن يتعلم الشيء الكثير، لذا عمل على بعث أدهم بك رئيس مصانع القلعة ومعه خمسة عشر شاباً من أذكى الشباب وأقدرهم على تحمل مصاعب الغربة إلى إنجلترا ليتعلموا العلوم ويروا بأعينهم ويعملوا بأيديهم الصناعات المختلفة ويعرفوا أسباب تفوق الإنجليز. وبعد أن أتموا دراساتهم وتدريباتهم عادوا إلى وطنهم ليعلموا إخوانهم ما درسوه وتدربوا عليه وعاد معهم أدهم بك الذي منحه محمد علي رتبة الباشاوية وعينه في رئاسة مخازن تموين وإمداد الجيش بالملابس والمهمات والذخائر والأسلحة وغيرها.

١٣ـ مهندس أحمد طايل أفندي

هو من بلدة "بلتان قليوبية" مركز طوخ التحق في بعثة إلى فرنسا وتخصص في الهندسة وعاد إلى مصر وعين بمدرسة المهندسخانة مساعداً لمدرس ثم معيداً لدروس أستاذ/ محمد بيومي أفندي، ثم عين مدرساً لعلوم الميكانيكا والجبر ثم مهندساً للتعليم العالي. ثم أرسل إلى الخرطوم بالمدرسة الابتدائية التي أنشأها عباس الأول فذهب مع رفاعة الطهطاوي وأستاذ محمد بيومي وعادوا في أول حكم سعيد باشا.

عاد مهندس أحمد طايل مصاباً بالحمى وتوفي عند وصوله إلى مصر ودفن في بلدة بلتان. وقال عنه علي باشا مبارك "وكان قصير القامة صغير الجسم. كثير الفهم لا يبالي بأكثر الأمور وله جرأته على الأمور والإقدام وكان محباً لتلاميذه يرغب في تعليمهم وأخذ عنه أكثرهم أو جميعهم".

١٤- مهندس أحمد قايد باشا

بعث إلى فرنسا لدراسة العلوم بمدارسها وظل بها عشر سنوات وعين بعد عودته مدرساً لعلم الرياضيات بمدرسة المهندسخانة وصار من كبار مدرسيها. ثم وكيلاً لها وتخرج على يده كثير من المهندسين النوابغ. وله مؤلفات في الهندسة والري منها:

١- كتاب الأقوال المرضية في علم بنية الكرة الأرضية ترجمة عن الفرنسية وطبع في مطبعة بولاق ١٨٤٤م.

٢- كتاب تحرك السوائل طبع في ١٨٤٧م.

٣- كتاب الدرة السنية في الحسابات الهندسة طبع ١٨٥٢م.

١٥- الكيميائي حسين محمد المدرس بمدرسة القصر العيني.

ألحق بالبعثة المسافرة إلى فرنسا بعد أن تعلم بمدرسة القصر العيني وبعد عودته من باريس عين بدار الضرب بالقلعة ثم نقل مدرساً للكيمياء والطبيعة بمدرسة القصر العيني. ورقى فيها حتى وصل إلى درجة كبير مدرسي الكيمياء بالمدرسة ومنح لقب

البكوية. قد تعلم الكيمياء وسبلها في معمل يتمرن فيه على تطبيق العلم على العمل تحت إنظار مدرس عملي هو مسيو جوتبيه دي كلوبري Couthier De Claubry ووزع مع زملائه على معامل كيميائية يتعلمون ويطبقون ما تعلموه في الصباغة وصنع الأملاح وتبييض الفخار والزجاج والأسمنت والتقطير والإنارة وصناعة السكر.

١٦- أحمد يوسف أفندي

ألحق في البعثة الأولى في فرنسا متخصص في دراسة العلوم الكيميائية وعين بدار الضرب ١٨٣٢م. صحب محمد علي في أثناء زيارته للسودان للكشف عن مناجم الذهب. وذكره رفاعة الطهطاوي وسماه أحمد أفندي يوسف الجشنجي ورحل إلى بلاد المكسيك لزيارة مناجم الذهب ثم عين مديراً لدار الضرب وكانت من أهم المناصب الكبرى في ذلك الوقت.

١٧- محمود ناجي بك

التحق في البعثة الأولى بفرنسا وزميل حسن باشا الإسكندراني وشنان بك وبعد عودته عينه محمد علي محافظاً لبيروت في أثناء الفتح المصري للشام فظل في هذا المنصب سبع سنوات من عام ١٨٣٣م- ١٨٤٠م وسار سيرة فيها عدل وإصلاح وأمية الناس وهو جد الداماد أحمد ناجي بك رئيس سوريا في ذلك الوقت.

١٨- محمد بك راغب

التحق بالبعثة الثالثة وبعث إلى إنجلترا حيث تخصص في بناء السفن وعين مع حسن بك السعران لرئاسة قسم الهندسة وإنشاء السفن في ترسانة الإسكندرية وتوليا العمل الذي كان يقوم به مسيو سريزي بك في الترسانة. والذين تعلموا في الفنون البحرية بإنجلترا صاروا من أمهر الضباط في الأسطول المصري وهم: (عبد الحميد الدياربي- يوسف أطاد- عبد الكريم أفندي).

١٩- محمد شريف باشا (صاحب النظام الدستوري في عهد محمد علي باشا)

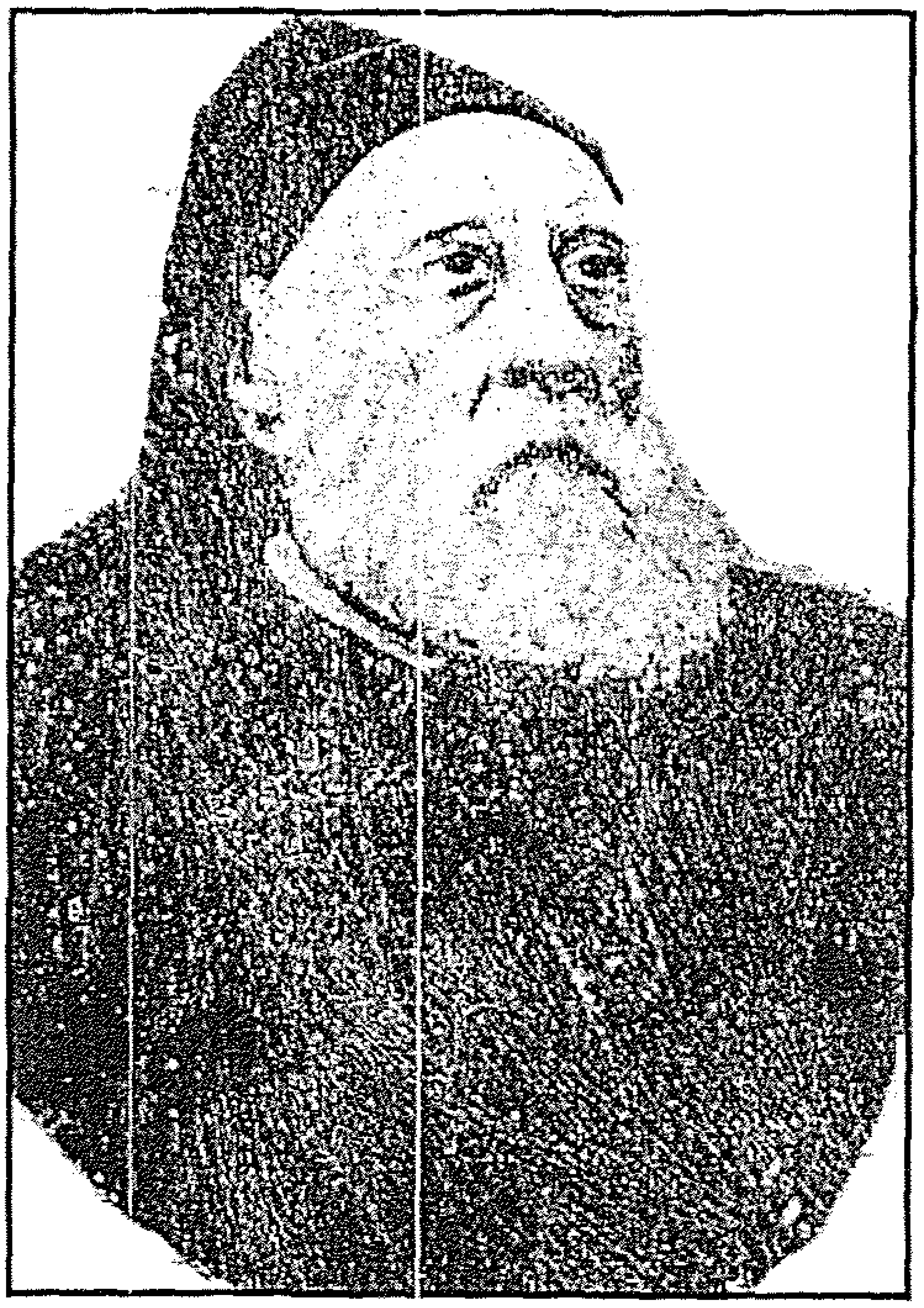

من تلاميذ البعثة الخامسة وهو الوزير مؤسس النظام الدستوري وصاحب الموقف المشرف في الدفاع عن وحدة مصر والسودان والمستقبل من الوزارة اعتراضاً على سلخ السودان من مصر. وله كلمة يحفظها التاريخ تدل على وطنيته وحبه للسودان حيث قال " إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا" وهي كلمة مشهورة خالدة.

٢٠- أمين بك الكرجي

من أعضاء البعثة الأولى، أتقن في فرنسا فن صب المدافع وصنع الأسلحة وعين عقب عودته من البعثة بالطوبنجانة المصرية "معمل الأسلحة والمدافع" برتبة يوزباشي ونال رتبة أميرلاي وقد ذكره في كتابه كلوت بك وعده ممن في مقدمة نوابغ البعثات المصرية وسماه "أمين بك مدير فابريقة البارود".

٢١- أحمد بك

من المبعوثين الأوائل تخصص في الفنون الحربية بفرنسا وقضى في دراسته ست سنوات واشترك في الحرب السورية الأولى وكان من أركان حرب إبراهيم باشا وقد عهد إليه بعد صلح كوتاهيه بتحصين مضايق جبل طوروس التي انتهت إليها حدود مصر الشمالية. فقام بهذه المهمة خير قيام واشترك معه الكونونيل سليم بك ولازم إبراهيم باشا في معركة تصبين.

٢٢- عبد الله بك السيد

التحق بالبعثة الخامسة وهو من الفيوم. كان طالباً بمدرسة الألسن وتخصص في فرنسا بدراسة الحقوق وبعد عودته تقلد المناصب الحكومية ثم عين رئيساً للمحكمة التجارية بالإسكندرية ثم مستشاراً في محكمة الاستئناف المختلطة في عام ١٨٧٥م وتوفي عام ١٨٧٦.

٢٣- أمير البحر رشيد ساهر باشا

أرسل في بعثة إلى فرنسا وكان عمره وقتئذ أربع وعشرين سنة تعلم الإدارة البحرية ومعه ثلاثة وهم حسن أفندي، ومحمود أفندي، ومحمد شنان أفندي وعادوا إلى مصر

والتحقوا بالأسطول المصري وظلوا فيه واشتركوا في المواقع البحرية خاصة في حرب اليونان ورقى رشيد إلى أمير البحر ثم منحه محمد علي رتبة الباشاوية في حربه مع اليونان.

٢٤- حسن الإسكندراني باشا

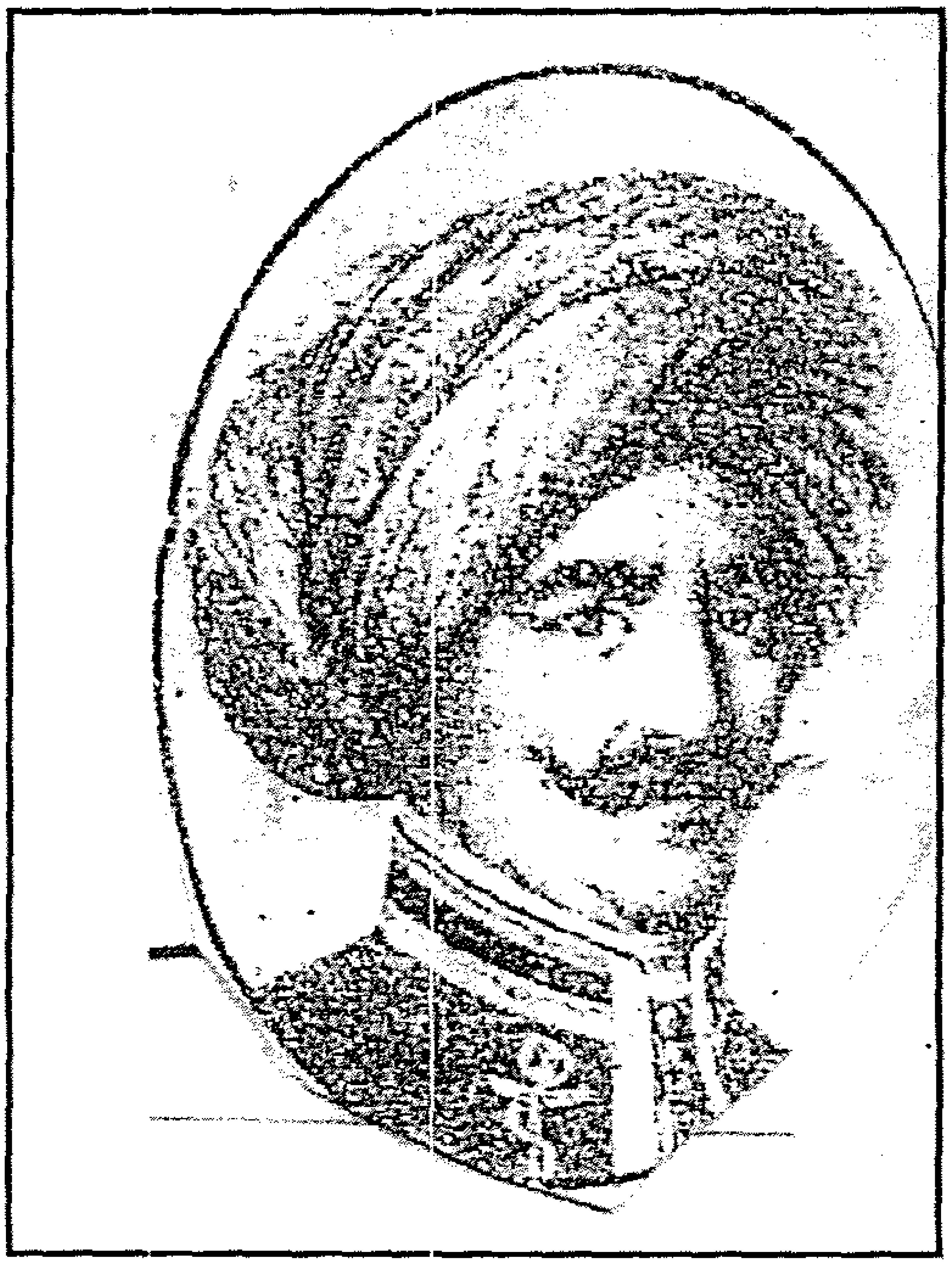

سافر إلى فرنسا لدراسة فنون الملاحة والهندسة البحرية وكان عمره وقت البعثة ٣٧ عاماً وعاد من فرنسا في عام ١٨٣١م فالتحق بالأسطول المصري وأثبت كفاءة ومهارة عالية وترقى في المناصب حتى صار رئيساً للترسانة بالإسكندرية ثم عين ناظرًا للبحرية (وزارة البحرية) ونال رتبة الباشاوية.

تولى قيادة الأسطول المصري في حرب الروسيا (حرب القرم) في عام ١٨٥٣م (في عهدي عباس الأول وسعيد) وكان هذا الأسطول مكون من ١٢ سفينة وظهرت شجاعته وخبرته في أثناء الحرب وكانت نهائية الفرق في البحر مع السفينة " مفتاح جهاد" التي كانت تنقل الجنود والضباط وقد غرقوا جميعاً في عام ١٨٠٥م.

٢٥ـ حسن أفندي الورداني

التحق بالبعثة الأولى ودرس في فرنسا الرسم والزخرفة والفنون الجميلة وعند عودته إلى مصر عين مدرساً لفن الرسم والنقش لمدرسة المهندسخانة ببولاق بدلاً من الأستاذ الفرنسي الذي كان بها ونبغ في فنه وتخرج من بين يديه عدد كبير من الرسامين وقد أشار إليه كلوت بك وعدة من نوابغ البعثات.

أعضاء البعثات المصرية من الأطباء في عهد محمد علي

١ ـ دكتور/ محمد الشباسي بك

عضو البعثة الرابعة إلى فرنسا ظل بها ثلاثة عشر عاماً لإتمام دراسته الطبية في باريس وعند عودته عين أستاذًا للتشريح بمدرسة الطب وقد ألف كتاب "التنوير في قواعد التحضير" وأشاد به كلوت بك وقد طبع هذا الكتاب في عام ١٨٤٨م وعرب كتاب "التنقيح الوحيد في التشريح الخاص الجديد" وقد طبع بمطبعة بولاق ١٨٤٥م.

٢ ـ دكتور/ مصطفى بك السبكي من مشاهير أطباء الرمد المصريين

سافر إلى فرنسا لدراسة الطب في البعثة الرابعة وعند عودته عمل مدرساً لطب الرمد في مدرسة طب القصر العيني وتوفى عام ١٨٤٤م.

٣ ـ دكتور/ عيسوي أفندي النحراوي

من أعضاء البعثة الرابعة تخصص في فرنسا في علم التشريح وعند عودته إلى مصر عمل أستاذاً في علم التشريح بمدرسة الطب وله كتاب طبع في ١٨٣٥م في التشريح العام.

٤ ـ دكتور/ حسين غانم الرشيدي من نوابغ الصيادلة المصريين

سافر إلى فرنسا في البعثة الرابعة وكان قبل سفره إلى فرنسا يراجع الكتب الطبية بمدرسة الطب وكان ذلك عام ١٨٣٢م وأقام بها ثلاثة عشر عامًا أتقن فيها علم الصيدلة

وعقب وصوله إلى مصر عين أستاذاً للصيادلة بمدرسة الطب ثم عين مديراً لمعمل الصيدلة وله مؤلفات في الصيدلة - الفن في الدواء- وهذا الكتاب طبع في عام ١٨٤٨م.

٥ـ دكتور/ محمد عبد الفتاح

بعث إلى فرنسا في البعثة الثالثة ودرس التاريخ الطبيعي في الطب ومنها كتاب "نزهة المحافل في معرفة المفاصل" طبع في عام ١٨٤١م.

٦ـ دكتور جراح/ إبراهيم بك البزاوي

من نبروه بمديرية الغربية... تلقي تعليمه الأول في مكتب البلد، ثم ترك المكتب وتعلق بالتجارة فسافر إلى القاهرة للتجارة فتعرضت تجارته للخسارة فدخل الأزهر فاختارته الحكومة للالتحاق بالطب في أبي زعبل ورقى إلى درجة ملازم. ونبغ في المدرسة فاختاره كلوت بك للسفر إلى فرنسا وأقام فيها ثلاثة عشر عامًا وأتم دراسته وعاد إلى مصر ١٨٣٣م ورقي لرتبة يوزباشي وعين أستاذاً بمدرسة الطب التي انتقلت فيما بعد إلى القصر العيني ثم رقى بعد ذلك لرتبة "صاغ قول غاس" وذاع صيته واشتهر بالكفاءة، اختاره محمد علي طبيبه الخاص وقربه وأغدق عليه من المنح والانعامات ثم رقي إلى رتبة أميرالاي. وكان مقصد الأمراء والبيوت الكبيرة في العلاج فكان في صحبة محمد علي إلى أوروبا ١٨٤٨م واختاره عباس باشا طبيباً له عند ولايته الحكم وكان في صحبة والدة عباس باشا في رحلتها إلى الحج في الأراضي الحجازية، وصفه علي مبارك باشا "أنه كان إنسان كريم الشيم رفيع الهمة، يغلب عليه الفرح والانبساط مصطحباً للمغاني وآلات الطرب".

ثم قال عنه في موضع آخر "خير من أنجبت مصر جراحاً فاشتهر في هذه المهنة "التشريح". وقد أقدم على ما لم يقدم عليه أحد غيره في ذلك الوقت حيث أنه كان يشق أدبرة الرجل ويعمل فيها العمليات ولم يسبقه في ذلك غيره".

وله مؤلفات هي:

١ - الأربطة الجراحية مترجمة عن الفرنسية.

٢- نبذة عن الفلسفة الطبيعية تأليف كلوت بك وترجمها إلى العربية وقدم نبذة في أصول الطبيعة والتشريح العام، كلوت باك وترجمها إلى العربية.

٧ـ دكتور/ عبد الهادي إسماعيل

ألحق بالبعثة الخامسة إلى فرنسا. أتم دراسته بمدرسة الطب البيطري بمصر ثم سافر إلى فرنسا فاستكمل دراسته في الطب البيطري وبعد عودته عين مدرساً بمدرسة الطب البيطري وفي عهد الخديوي إسماعيل ناظراً لمدرسة الطب البيطري.

٨ـ دكتور/ علي هيبة

عضو في البعثة الأولى لدراسة الطب في فرنسا وعند عودته عينه محمد علي طبيباً في القصر العيني. وبإخلاصه وإتقانه في العمل ومراعاته لمرضاه والعمل بجميع الوسائل المتوفرة لديه أن يصير من كبار الأطباء وترجم كتاب " السعادة في فن الولادة" قام بمراجعته دكتور/ أحمد حسن الرشيدي وله كتاب آخر " إسعاف المريض في علم منابع الأعضاء".

أطباء العيون

١ـ دكتور/ حسين عوف

٢ـ دكتور/ إبراهيم الدسوقي

اتيح لهما السفر إلى فرنسا بعد دراستهما في مدرسة القصر العيني في قسم الجراحة ورقيا إلى رتبة يوزباشي. وأرسلهما محمد علي إلى النمسا في ١٨٤٥م للتخصص في أمراض العيون (التي كانت منتشرة في ذلك الوقت انتشاراً ذريعاً) وكانت مصر في

حاجة إلى هذا التخصص كما أن الجيش والأسطول في حاجة إلى تخصص أطباء العيون خاصة انتشار الرمد في الصيف.

سافرا إلى مدينة " مينج" بالنمسا... ودرسا طب العيون على يد د/ يجر المشهور في طب العيون ونالا شهادتهما التخصصية وعادا إلى مصر. أمر محمد علي بسرعة الاستفادة بهما في هذا التخصص للتدريس في مدرسة القصر العيني وقد تخرج على أيديهما عدد من أطباء الرمد. وعلى الفور قام محمد علي بتوزيع الخريجين على بعض المدن ومنح دكتور/ حسين عوف رتبة الباشاوية وصار من أكبر الأساتذة في مجال تخصصه أما دكتور/ إبراهيم دسوقي منح درجة البكوية وظل أستاذاً لطب العيون.

٣ـ دكتور/ محمد الشافعي

بعث إلى باريس مع البعثة الرابعة وبعد عودته عين أستاذاً بمدرسة الطب ثم ناظراً لها وكان زميله في هذه البعثة أستاذ دكتور/ سالم باشا الطبيب المشهور وللدكتور سالم ثلاثة مؤلفات:

١ - أحسن الأغراض في تشخيص ومعالجة الأمراض طبع ١٨٤٣م في جزئين.

٢- الدرر الفوال في معالجة الأطفال كتاب ترجمة من مؤلفات كلوت بك وطبع بمطبعة بولاق ١٨٤٤م باللغة العربية.

٣- السراج الوهاج في التشخيص والعلاج طبع في ١٨٦٤م في أربعة مجلدات.

الفصل الثالث

أسماء المبعوثين إلى أوروبا

البعثة الأولى إلى فرنسا

م	التخصص	اسم المبعوث	عدد المبعوثين
١	الزراعة	يوسف الأرمني، خليل محمود	٢
٢	التاريخ الطبيعي والمعادن	علي حسين، أحمد النجدلي ، أحمد ابن أخ الدويدار	٣
٣	الكيمياء	عمر الكومي، أحمد يوسف ، أحمد شعبان ، يوسف العبادي	٤
٤	القوة المائية	مصطفى محرجي (بهجت) محمد بيومي	٢
٥	صب المعادن- صنع الأسلحة	عمر زادة أمين ، أحمد حسن حنفي	٢
٦	الطباعة والحفر	حسن الورداني ، محمد أسعد ، قاسم الجندي	٣
٧	الترجمة	رفاعة رافع الطهطاوي	١
٨	فن العمارة (بناء السفن)	حسين أفندي	١
٩	الميكانيكا	الشيخ أحمد العطار	١
١٠	الإدارة المدنية	عبدي شكري ، سليم الكومي ، محمد أمين ، أرتين ، محمد خسرو	٥
١١	الإدارة الحربية	رشيد أباظة، أحمد يكن ، سليمان راشد	٣
١٢	العلوم السياسية	اصطفان، خسرو الأرمني	٢
١٣	الإدارة البحرية	حسن الإسكندراني، محمود نامي ، محمد سنان	٣
١٤	علم الهندسة العسكرية	محمد مظهر، سليمان البحيري ، على الكرجي	٣
١٥	المدفعية	عمر أفندي ، سليمان لارأفندي	٢
١٦	الطب والجراحة	علي هبة ، الشيخ محمد الدشطوطي	٢

عدد التخصصات والمجالات	عدد الحاضرين	عدد الغائبين	جملة المبعوثين	أسماء الغائبين	عدد الذين لم يستدل على أسمائهم
١٦	٣٩	٥	٤٤	الشيخ الرقيق إبراهيم هيبة الشيخ العلوي لم نعرف أسباب غيابهم حتى في دفاتر دار المحفوظات بالقلعة	من واقع دفاتر دار المحفوظات بالقلعة ٢

البعثة الثانية إلى فرنسا أرسلت في أواخر عام ١٨٢٨

م	التخصص	اسم المبعوث	عدد المبعوثين
١	الهندسة والرياضيات	إبراهيم رمضان بك- أحمد فايد (باشا)- أشد زادة أحمد- أحمد دقلة بك- حسن الدمياطي- أحمد قائل أفندي- محمد أبو النجاح	٧
٢	الطبيعيات	حسين أفندي البقلي	١
٣	الإنشاءات البحرية	محمد أنيس- حسن السعران- محمد المراعي- عيسوي حاد- محمد يحيى- عراف أفندي- مصطفى نور الدين أفندي	٧
٤	الإدارة الملكية	حسن جركسي أفندي- وأخيه جركسي أفندي	٢
٥	العلوم السياسية	عابدين أفندي (توفى في أثناء تعليمه)	١
٦	صناعة العسل	الشيخ عبد الله- الشيخ محمد مرعي	٢
٧	العلوم الكيماوية وصناعة الجوخ	أحمد شعبان- علي حسن- علي الإسكندراني- حسين أغا	٤
٨	آلات الجراحة والبيطرة	محمد أبو العنين- محمد عبد الفتاح	٢
٩	الإجمالي		٢٦

عدد التخصصات والمجالات	عدد الحاضرين	عدد الغائبين	جملة المبعوثين	بعثات إلى فرنسا من السودان والأحباش	عدد الذين لم يستدل على أسمائهم
٨	٢٤	١	٢٥	عددهم ٤ مبعوثين: وادي بن كهلو- محبوب الحبشي- بلال الحبشي- مرسال الحبشي مبعوث سوداني واحد سلطان أبو مدين أمير سوداني	من واقع دفاتر دار المحفوظات بالقلعة ١

البعثة الثالثة أرسلت إلى ثلاث دول في عام ١٨٣٠

(إلى إنجلترا- إلى النمسا- إلى فرنسا)

البعثة الثالثة في يناير ١٨٣٠م أرسلت إلى الدول التالية بأمر من محمد علي باشا وهي إنجلترا والنمسا وفرنسا

١- البعثة الإنجليزية في عام ١٨٣٠م

م	التخصص	اسم المبعوث	عدد المبعوثين
١	الدوائر المنعكسة	لم يستدل على أسماء أعضاء البعثة لا في دفاتر المحفوظات بالقلعة ولا في الوقائع المصرية ولم يعرف أسباب ذلك	٢٠
٢	التجنيد والفروسية		
٣	صناعة الميكانيكا		
٤	صب المدافع		

٢- البعثة النمساوية في عام ١٨٣٠م

م	التخصص	اسم المبعوث	عدد المبعوثين
١	نسيج الأجواخ	لم يستدل على أسماء أعضاء البعثة لا في دفاتر المحفوظات بالقلعة ولا في الوقائع المصرية ولم يعرف أسباب ذلك	٤
٢	العباءات	جملة البعثات التي أرسلت إلى إنجلترا وفرنسا بأمر محمد علي = ٢٠+٤ = ٢٤	

٣ـ البعثة إلى إنجلترا في عام ١٨٣٠م

ملحقة بالبعثة الإنجليزية بأمر بوغوص باشا وزير خارجية مصر ومدير الشئون التجارية المصرية

م	التخصص	اسم المبعوث	عدد المبعوثين
١	الفنون البحرية	عبد الحميد بك الديار بكر - يوسف أكاد أفندي - عبد الكريم أفندي	٣
٢	بناء السفن	محمد راغب بك	١
٣	الهندسة	يوسف سكيكيان	١
٤	السجاجيد	إسماعيل حنفي	١
	الإجمالي		٦

٤ـ البعثة إلى فرنسا في عام ١٨٣٠م

م	التخصص	اسم المبعوث	عدد المبعوثين
١	عصم الشبت	خليل البقلي - حسن محيسي	٢
٢	آلات الجراحة	عبد الرحمن - محمد عناني	٢
٣	علم طبائع المياه	هنري درسي - حسن أبو الحسن	٢
٤	الساعات	محمد حاكم - إبراهيم الدسوقي	٢
٥	الصناعة والجواهر	إبراهيم العتال - حسن الرازي	٢
٦	نسيج الأقمشة الحريرية	مصطفى الزرابي - عبد المريس	٢
٧	الأجواخ	علي الزرابي - حسن الجيزاوي - عبد الرب - محمد عطيه	٤
٨	النقش والدهان	محمد إسماعيل - محمد مراد	٢
٩	السراجة (السروجية)	سليمان البنهاوي - محمد عزب	٢
١٠	طبع السيوف	محمد رمضان - جاد غزالي	٢
١١	الشيلان الأنقزوية	محمد محيسن - محمد حسين	٢
١٢	الأحذية	محمد يوسف - محمد بغدادي	٢
١٣	البنادق والطبنجات	علي الشامي - أحمد الدارس	٢
١٤	شمع الأختام	محمد بنايل - حسن الإسكندراني الصغير	٢
١٥	إنشاء السفن	حسن البغدادي - علي الجيزاوي	٢
	جملة أعضاء البعثة		٣٢

عدد التخصصات	عدد الحاضرين	جملة البعثة	ملاحظات
٢٣	٢٠ سفينة إنجليزية ٤ سفينة نمساوية ٣٦ سفينة فرنسية ٦ سفينة إنجليزية	٧٤ مبعوثاً	بأمر محمد علي ٥٨ عضواً وبأمر بوغوص ٦ أعضاء

البعثة الرابعة إلى فرنسا في نوفمبر ١٨٣٢م

أرسلت إلى فرنسا بعثة مكونة من ١٢ عضواً لدراسة الطب وقد تم اختيارهم من مدرستي الطب والصيدلة بعد أن أتموا دراساتهم في مصر وكانوا في صحبة كلوت بك وتم امتحانهم في الجمعية الطبية بباريس. وخلال البعثة تزوج ثلاثة من الأعضاء من باريسيات وهم إبراهيم النبراوي أفندي- وحسين الهباوي أفندي- وأحمد بخيت أفندي وحضروا مع زوجاتهن إلى مصر على نفقة الأزواج الثلاثة وأعضاء البعثة هم:

١- إبراهيم النبراوي أفندي
٢- محمد الشباسي أفندي
٣- مصطفى السبكي أفندي
٤- السيد أحمد الرشيدي أفندي
٥- عيسوي النحراوي أفندي
٦- السيد حسين غانم الرشيدي أفندي
٧- محمد علي البقلي أفندي
٨- محمد الشافعي أفندي
٩- محمد السكري أفندي

١٠- حسن الهباوي أفندي

١١- محمد منصور أفندي

١٢- أحمد بخيت أفندي

أسماء الأساتذة الفرنسيين الذين امتحنوهم مع صحبة كلوت بك:

١- مسيو ديجنيت

٢- مسيو لاري

٣- مسيو ديبويترن

٤- مسيو أورفيلا

٥- مسيو روستان

٦- مسيو بيجان

٧- مسيو روش

٨- مسيو ماجندي

٩- مسيو كلوكيه

١٠- مسيو ياريزت

١١- مسيو جوبرت

في مادة التشريح وقد قام بتدريس هذه المادة دكتور/ كلوت بك .

الفصل الرابع

محاضرات كلوت باك في التشريح

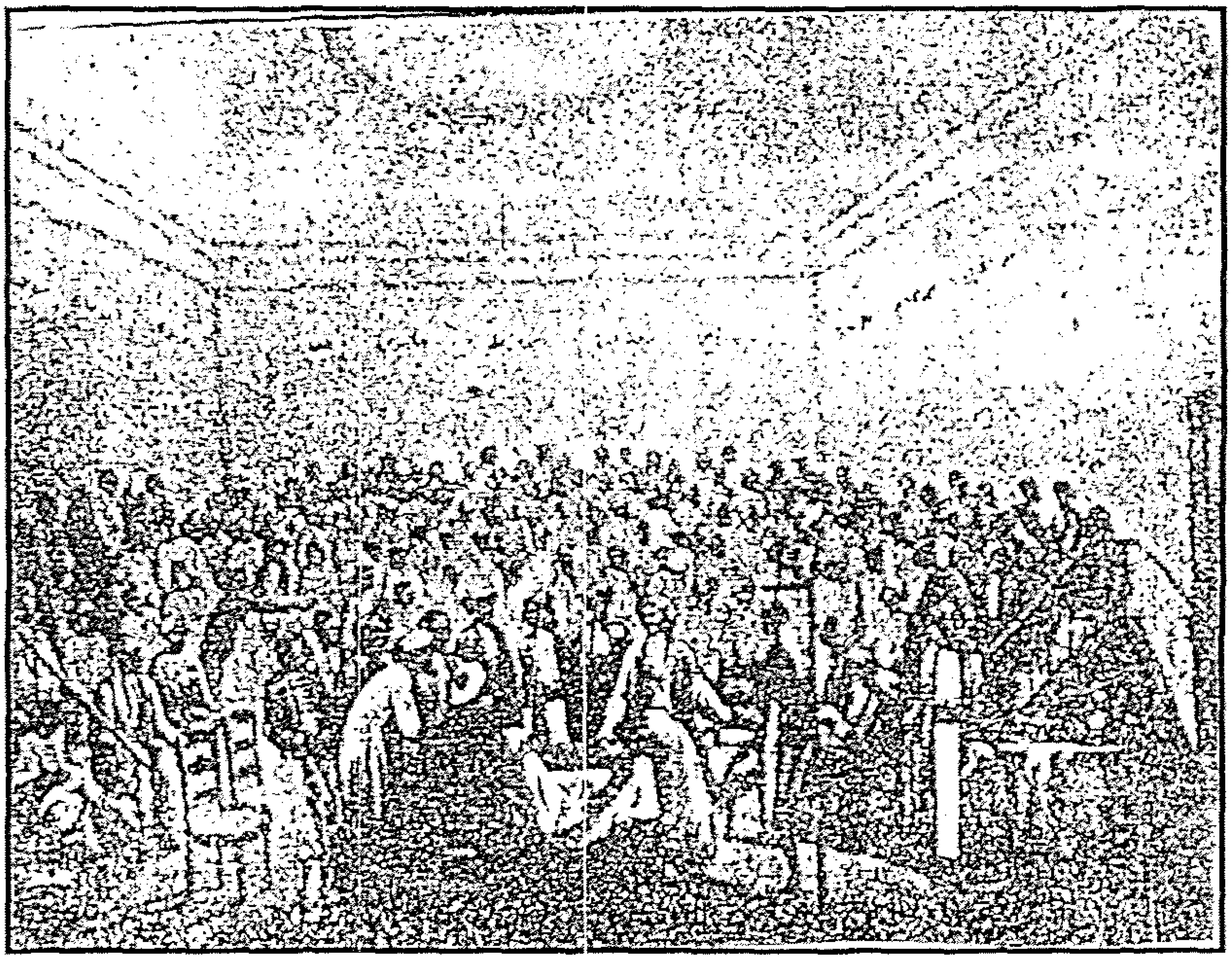

هذه الصورة توضح تدريس مادة التشريح لكلوت بك

بين أعضاء البعثة المصرية في عام ١٨٣٢م

المحاضرة الأولى:

رأينا قبل الكلام على كل من الجهاز الهضمي والتنفسي أن نشرح المسالك الموجودة في الرأس والعنق التي يمر منها الطعام والهواء. إذا عملنا قطاعًا طوليًا في الرأس ماراً بمنتصف الأنف يلاحظ أن بها فراغين مهمين العلوي منهما يسمى بالفراغ الأنفي

ويسمى السفلي فراغ الفم ويفصلهما عن بعضهما سقف الحلق، ولا يفصل سقف الحلق هذين الفراغين فصلاً تاماً بل هما يتصلان من الجهة الخلفية ويتكون في موضع اتصالهما فراغ آخر يسمى بالبلعوم. وسقف الحلق قسمان: الأمامي عظمي والخلفي لحمي لين وطرفه من الداخل مدلي كالستارة بين فراغ الفم والبلعوم ويعرف باللهاة وتمكن رؤيته بسهولة عند فتح الفم.

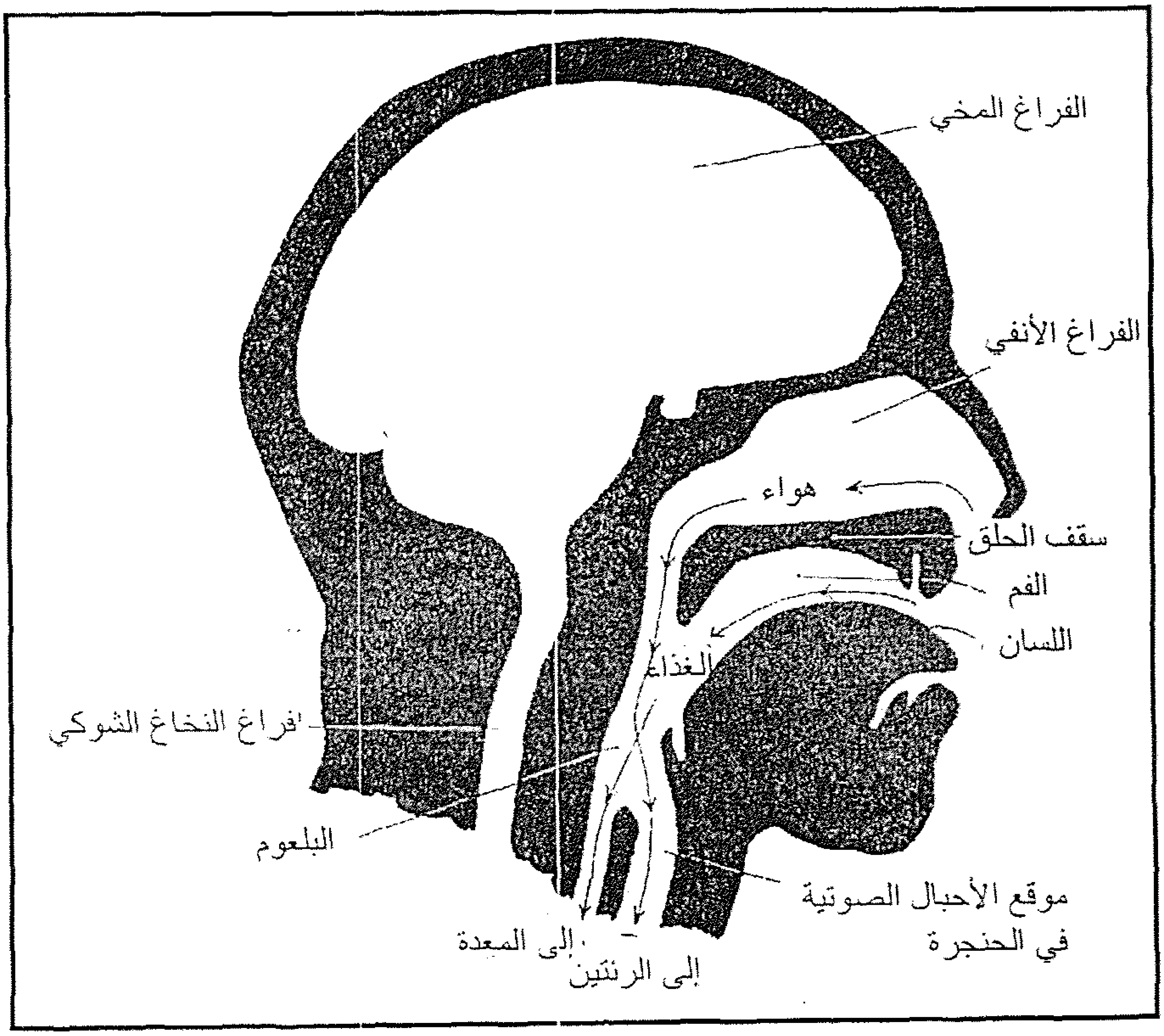

الفراغات والفتحات الموجودة بالرأس

البلعوم : أنبوبة عضلية غشائية قصيرة تتجه إلى أسفل، وتنفتح فيه فتحتا الأنف الداخليتان المتصلتان بالفراغين الأنفيين، وكذلك فتحة تجويف الفم من الخلف وتمتد من البلعوم قناتان الأولى عضلية تمر في العنق وتخترق الصدر إلى أن تتصل بالمعدة وتسمى هذه القناة بالمريء، وعلى ذلك فالأغذية التي تدخل الفم تمر منه إلى البلعوم

فالمريء فالمعدة. والقناة الثانية التي تتصل بالبلعوم تسمى بالقناة الهوائية وتمتد أمام المريء وهي قناة صلبة نوعاً، الجزء العلوي منها منتفخ ويسمى بالحنجرة أو عضو الصوت، والسفلى منها يسمى بالقصبة الهوائية.

يتصل البلعوم بالحنجرة بواسطة فتحة تسمى المزمار تغطى بغطاء غضروفي يسمى لسان المزمار، ويكون لسان المزمار مرفوعاً ليسمح للهواء بالمرور في أثناء التنفس والتكلم.

أما وقت ابتلاع الطعام أو الشراب فإن فتحة الحنجرة تغلق بمساعدة لسان المزمار، وبذا يمتنع دخول الأجسام الصلبة أو السائلة إلى القصبة الهوائية. إذ أن هذا المجرى مخصص لمرور الغازات فقط.

ويستنتج مما تقدم أن هناك طريقين يمكن للهواء أن يسلكهما عند التنفس:

الأول أن يدخل من فتحتي الأنف ويمر بالفراغات الأنفية ويخرج إلى البلعوم من فتحتي الأنف الداخليتين ويمر إلى الحنجرة بالقصبة الهوائية عن طريق المزمار، والطريق الثاني أن يمر الهواء عند التنفس من فتحة الفم مباشرة إلى البلعوم فالمزمار فالحنجرة فالقصبة الهوائية.

ويوجد بأعلى البلعوم ثقبان صغيران يؤديان إلى الأذنين ويسميان بفتحتي قناة استاكيوس، وعلى ذلك فالفتحات المتصلة بالبلعوم سبع هي:

(أولاً) فتحتا الأنف الداخليتان.

(ثانياً) فتحتا قناتي استاكيوس.

(ثالثاً) فتحة الفم.

(رابعاً) فتحة المرئ.

(خامساً) المزمار.

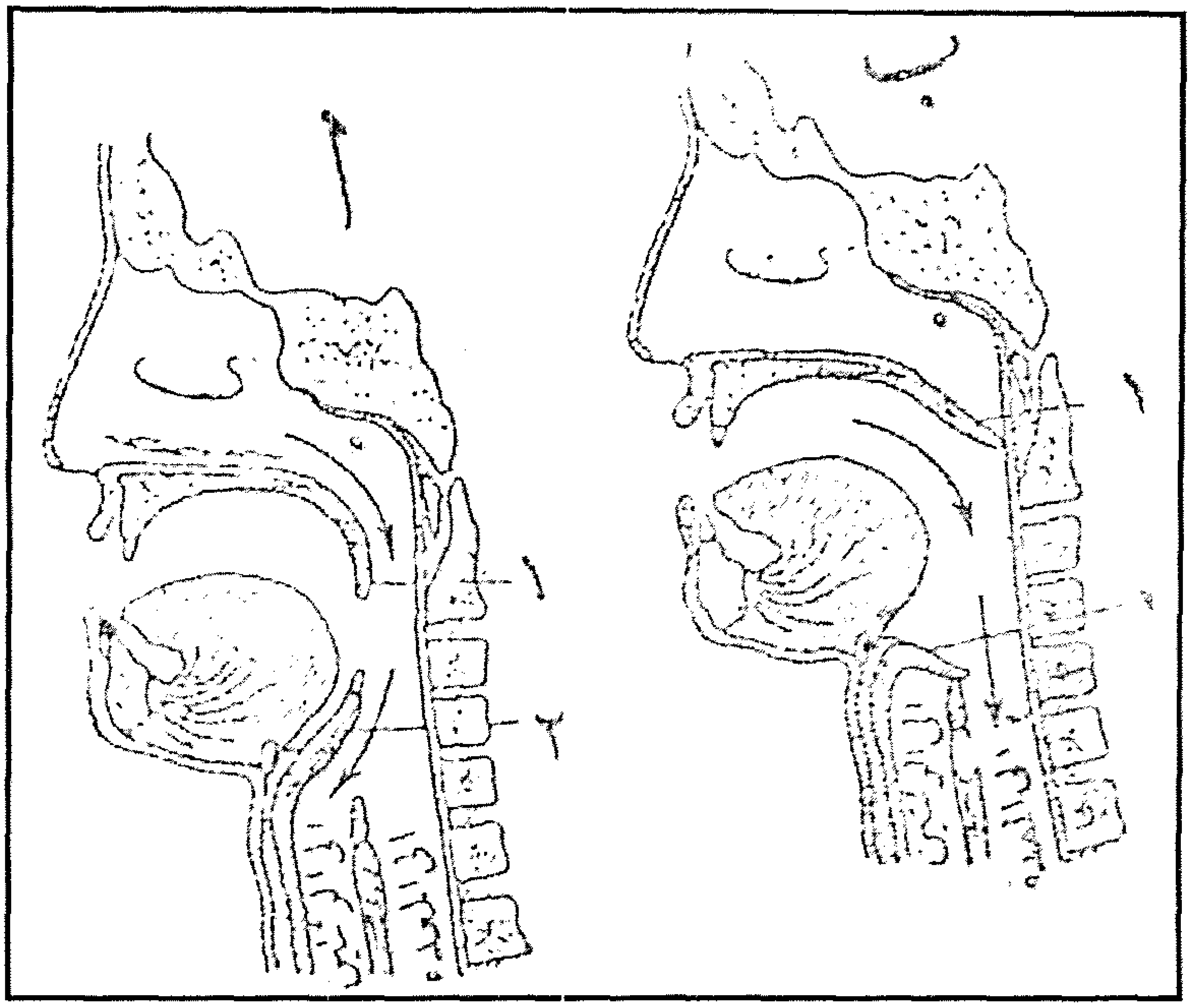

رسم بياني لإظهار مواضع

اللهاة – لسان المزمار – في حالة التنفس وفي حالة البلع

الجهاز الهضمي

الجهاز الهضمي هو الجهاز المختص بتقطيع الطعام ومضغه وبلعه ومزجه بعصارات مختلفة تذيب منها ما هو صالح حيث يمتص لفائدة الجسم، أما ما لم يهضم أو يمتص فيمر منه إلى خارج الجسم ويعرف بالبراز.

وينقسم هذا الجهاز الهضمي تبعاً لوظائف أجزائه إلى قسمين:

(١) القسم الأول هو القناة الهضمية وهي عبارة عن أنبوبة طويلة تختلف أجزاؤها في الشكل والاتساع وتبتدئ بالفم وتنتهي بالاست أو الشرج.

(٢) القسم الثاني عبارة عن ملحقات القناة الهضمية وهي الأعضاء التي تفرز سوائل هاضمة على الأغذية كالغدد اللعابية والكبد والبنكرياس.

القناة الهضمية

تتركب القناة الهضمية من الأجزاء الآتية:

١ - الفم.

٢- البلعوم.

٣- المريء.

٤ - المعدة.

٥ - الأمعاء الدقيقة.

٦ - الأمعاء الغليظة.

وسنتكلم فيما يلي عن هذه الأجزاء:

١ - **الفم** فتحة أفقية بالسطح الأمامي للرأس تحيط به الشفتان وبداخله فراغ يحتوي على الأسنان واللسان.

الأسنان أعضاء عظمية مثبتة في حافتي الفكين العلوي والسفلي وعددها في الإنسان الكامل ٣٢ سنة نصفها في كل فك وتختلف في الشكل والحجم.

فتوجد في الجزء الأمامي الوسطى من كل فك أربع أسنان حادة تسمى بالقواطع وظيفتها قضم الطعام، وعلى كل جانب منها سن واحدة مدببة تعرف بالناب، وظيفته تمزيق الطعام، ويلي كل ناب خمسة ضروس سطوحها عريضة وغير مستوية وظيفتها طحن الطعام. فتكون وظيفة الأسنان في مجموعها قضم الطعام وتمزيقه وطحنه ليتحول إلى أجزاء دقيقة تتمكن العصارات الهاضمة من أن تتخللها فتؤثر عليها.

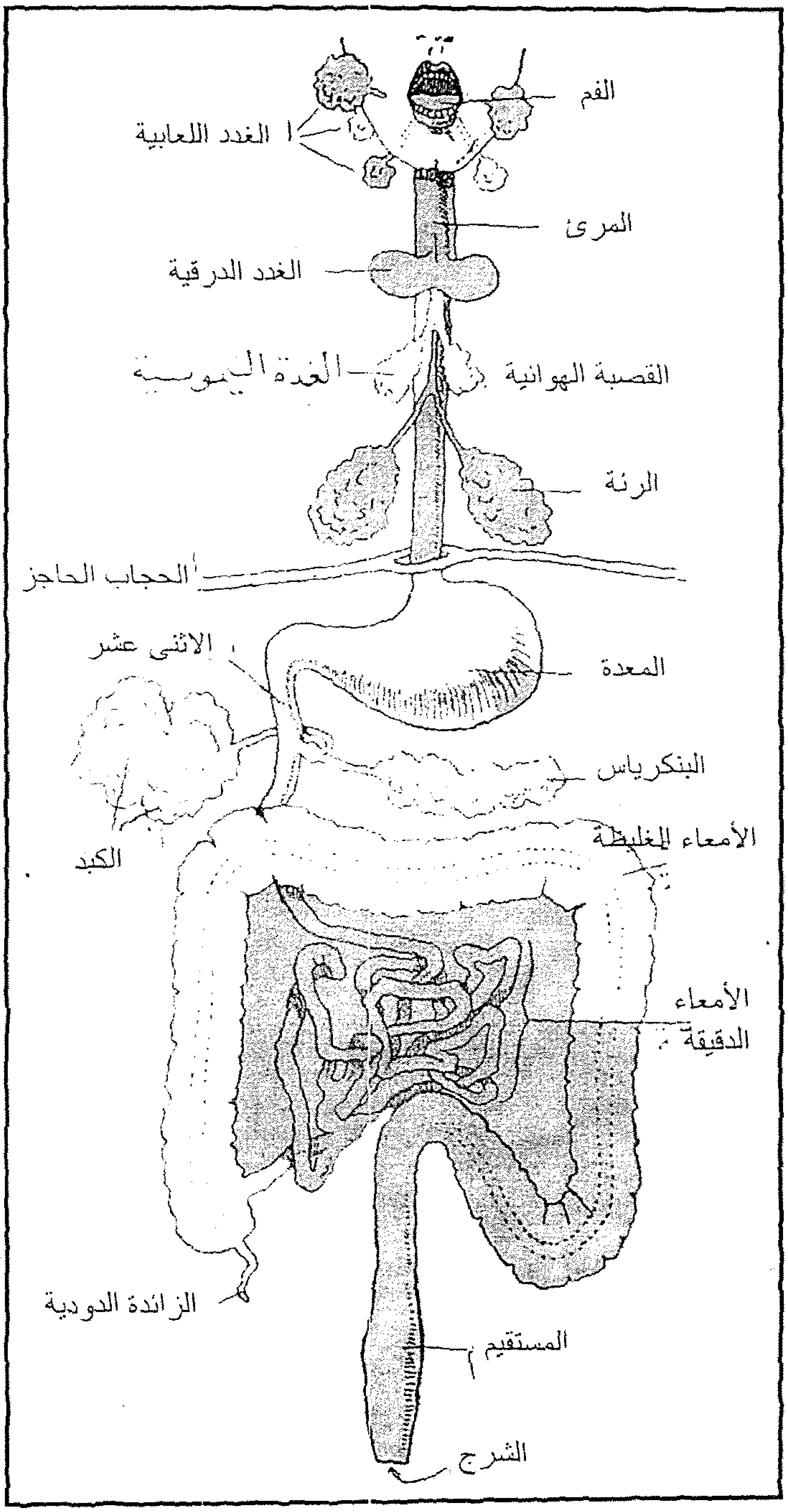

الجهاز الهضمي

ويظهر التركيب الداخلي للسنة من القطاع الطولي لها. اللسان عضو عضلي عريض تتصل قاعدته بباطن الفم من الداخل ويتجه طرفه إلى الأمام ويتحرك اللسان إلى جميع الاتجاهات وفائدة اللسان تذوق الطعام وتحريكه في الفم فضلاً عن مزاياه الأخرى في النطق.

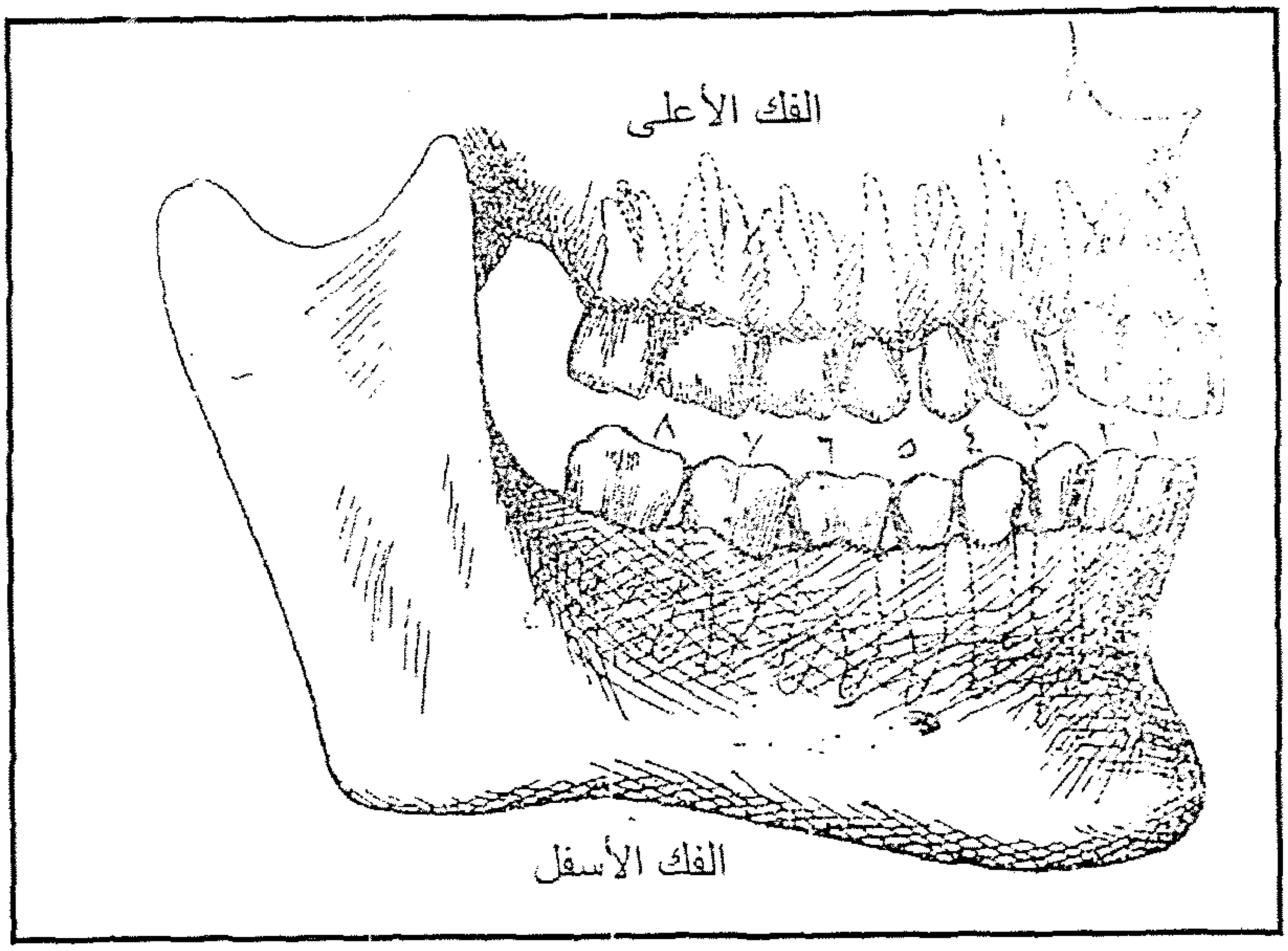

(الفكان)

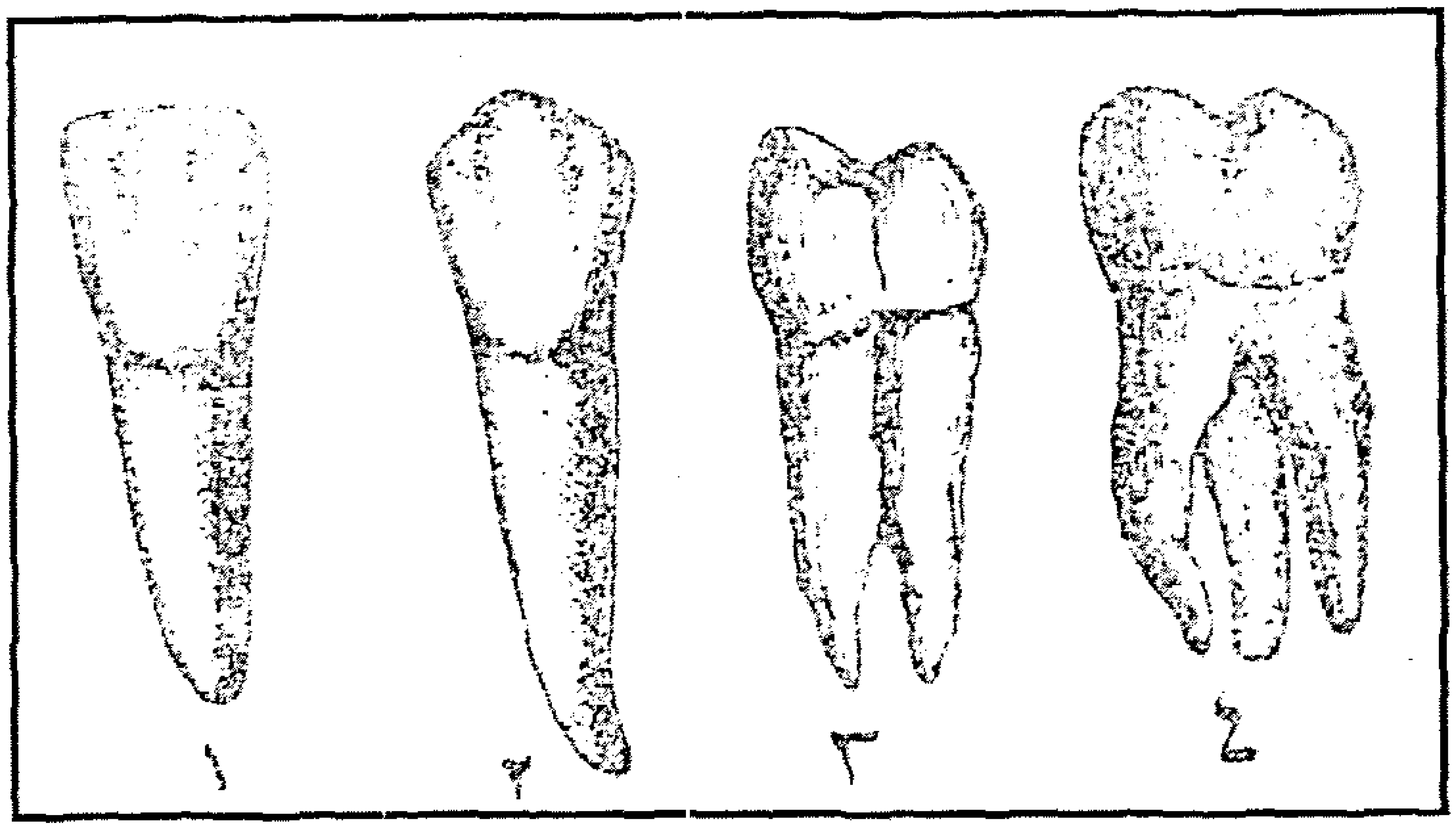

منظر أنواع الأسنان المختلفة ويرى بكل منها التاج والعنق والجذر

(١) سنة قارضة (٢) ناب (٣) ضرس أمامي (٤) ضرس طاحن

٢- **البلعوم** : هو الجزء العلوي من القناة الهضمية الذي يلي الفم، وقد سبق وصفه.

٣- **المريء** : أنبوبة عضلية ضيقة مرنة تلي البلعوم ويبلغ طولها ٢٥ سنتيمتراً تقريباً ويمتد المريء في العنق والصدر ويمر من الحجاب الحاجز ويتصل بالمعدة. وتشتمل جدر المرىء على عضلات طولية وأخرى دائرية تحدثان به حركة دودية. ويبطن المريء بغشاء يفرز سائلاً مخاطياً، وبفعل الحركة الدودية ومعاونة الإفراز المخاطي لها يسهل انزلاق الكتلة الغذائية داخل المريء.

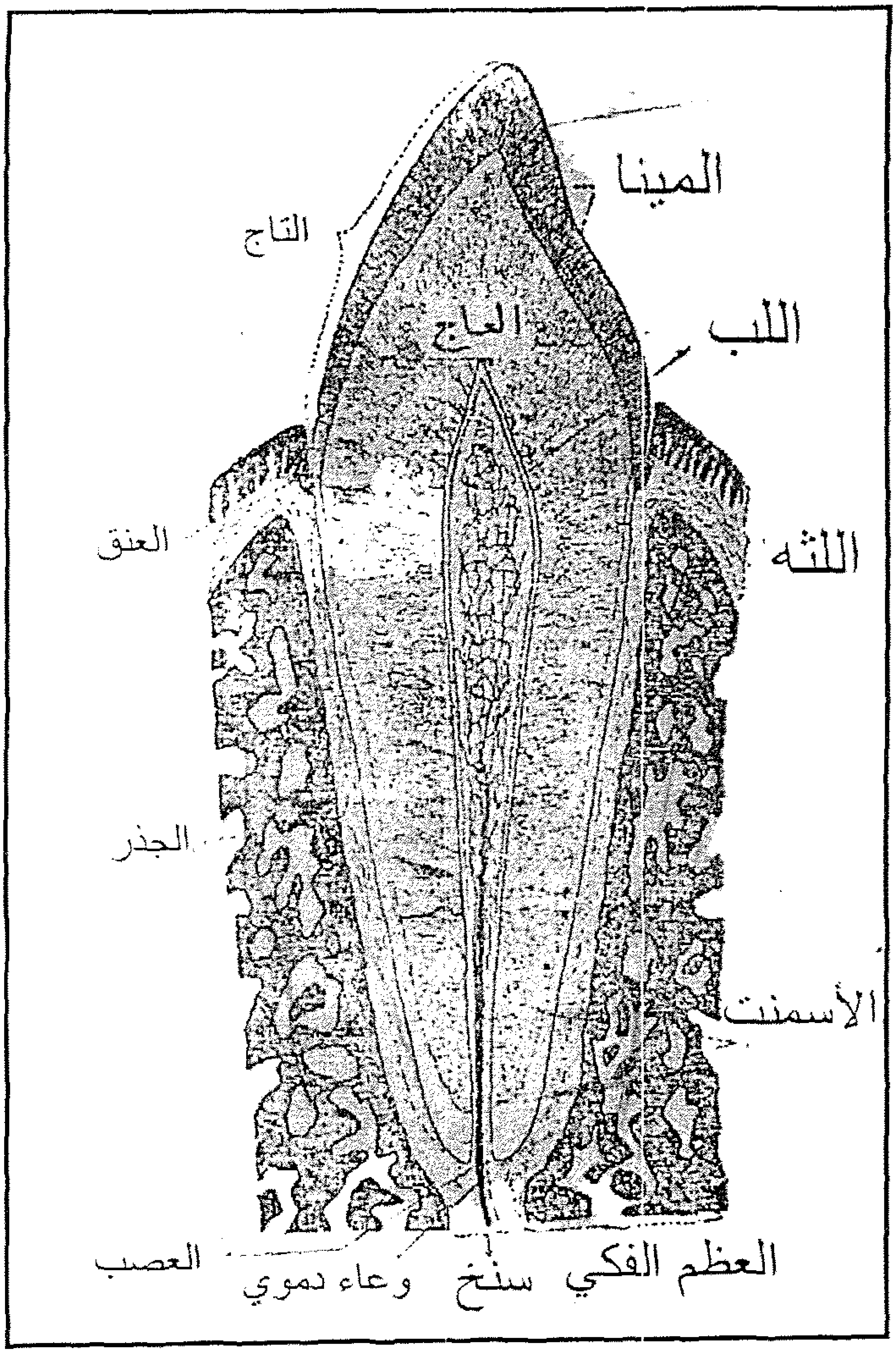

قطاع طولي في الناب

٤ - **المعدة** : كيس منتفخ سطحه العلوي- المتجه إلى اليمين- مقعر وسطحه السفلي- المتجه إلى اليسار- محدب، ويبلغ طول المعدة ٢٥ سنتيمتراً. وتوجد تحت الحجاب الحاجز ويفصلها عنه الفص الأيسر من الكبد. وتشتمل جدر المعدة على عضلات طولية ودائرية ومائلة وتبطن من الداخل بغشاء مخاطي يكون مجعداً عندما تكون المعدة فارغة ويقل هذا التجعد عند امتلائها.

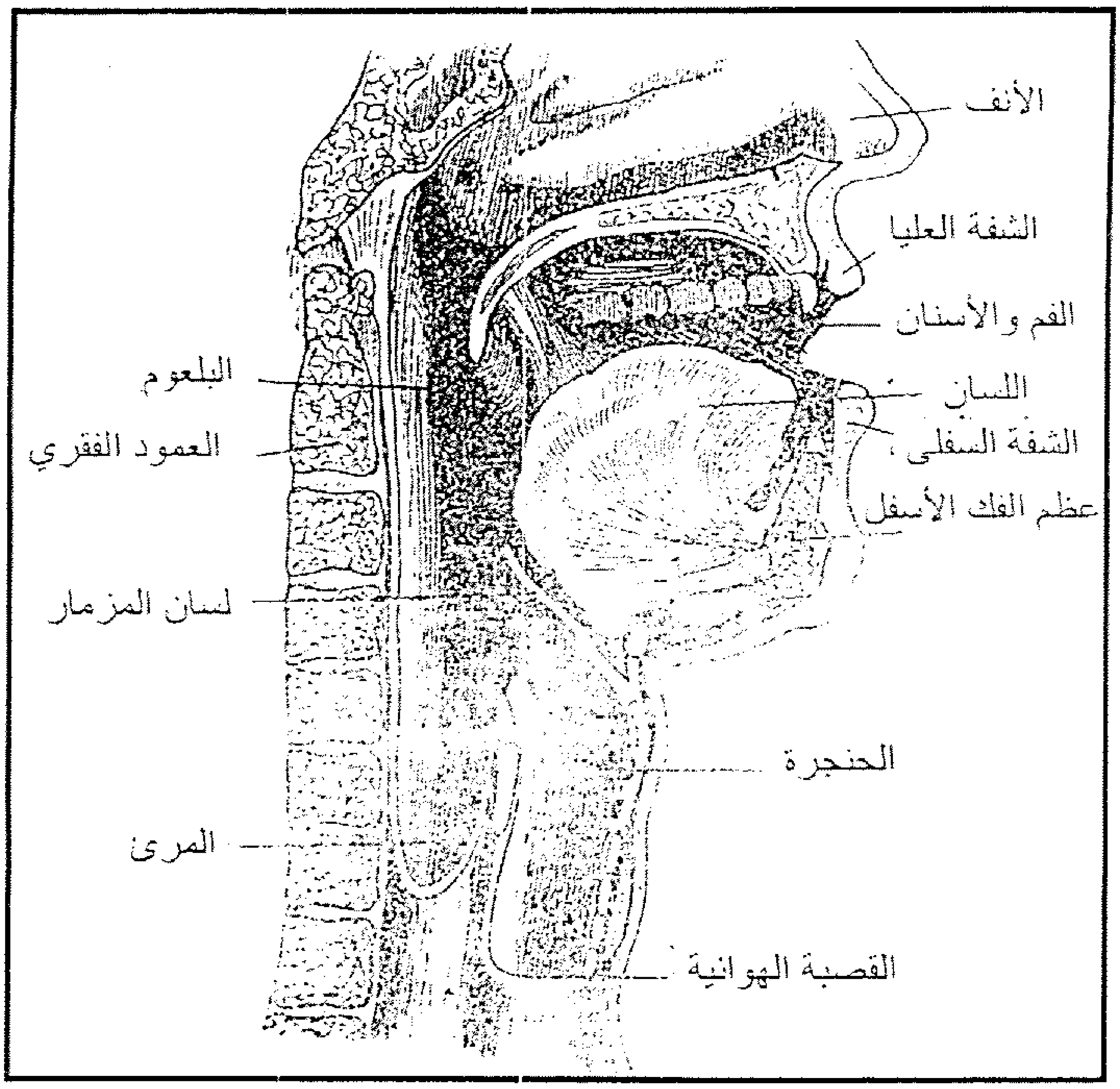

قطاع في الرأس والعنق

شكل ولون هذا الغشاء قرنفلي عند وجود الطعام بالمعدة وباهت عند خلوها منه، وينشأ اللون القرنفلي من توارد الدم إلى المعدة عند الابتداء في عملية الهضم، وبالغشاء المخاطي غدد تفرز سائلاً حمضياً يسمى بالعصير المعدي يحتوي على حمض الكلوريدريك وخمائر هاضمة كالبيسين والمنفحين (خميرة المنفحة) ومواد مخاطية وأملاح مختلفة وللمعدة طرفان الأيسر منها يعرف بالطرف الفؤادي وينفتح المريء في أعلاه ويسمى موضع اتصال المريء بالمعدة (الفؤاد) والطرف الأيمن للمعدة يسمى بالطرف البوابي وبه فتحة تؤدي إلى

الأمعاء الدقيقة، ويعرف موضع اتصال المعدة بالأمعاء (البواب) ويحاط البواب بعضلات دائرية عاصرة قوية تغلقه باستمرار إلا في أحوال خاصة.

ويرتبط بالجانب الأيسر من المعدة جسم أرجواني اللون منبسط قليلاً يسمى الطحال وحجمه كقبضة اليد ويزن نحو ١٧٠ جراماً ويتخلله عدد عظيم من الأوعية ملأى بالكرات الدموية الحمراء والبيضاء ويشتمل الطحال على ألياف عضلية تنقبض وتنبسط فتقلل حجم الطحال أو تزيده. ويقوم الطحال بتخزين كمية من الدم خصوصاً في أثناء الراحة التامة وفي أثناء الهضم.

٥- **الأمعاء الدقيقة** : أنبوبة طويلة ضيقة كثيرة الالتواء تشغل حيزاً كبيراً من الفراغ البطني ويبلغ طولها ستة أمتار تقريباً ويبتدئ من البواب وتنتهي عند اتصالها بالأعور وهو أول الأمعاء الغليظة (شكل ١٤) وتنقسم الأمعاء الدقيقة إلى ثلاثة أقسام: الأول يسمى بالاثنى عشر ويبلغ طوله ٢٥ سنتيمتراً تقريباً وهو أوسع قسم في الأمعاء الدقيقة (وسمى الاثنى عشر لأن طوله يبلغ اثنى عشر قيراطاً.

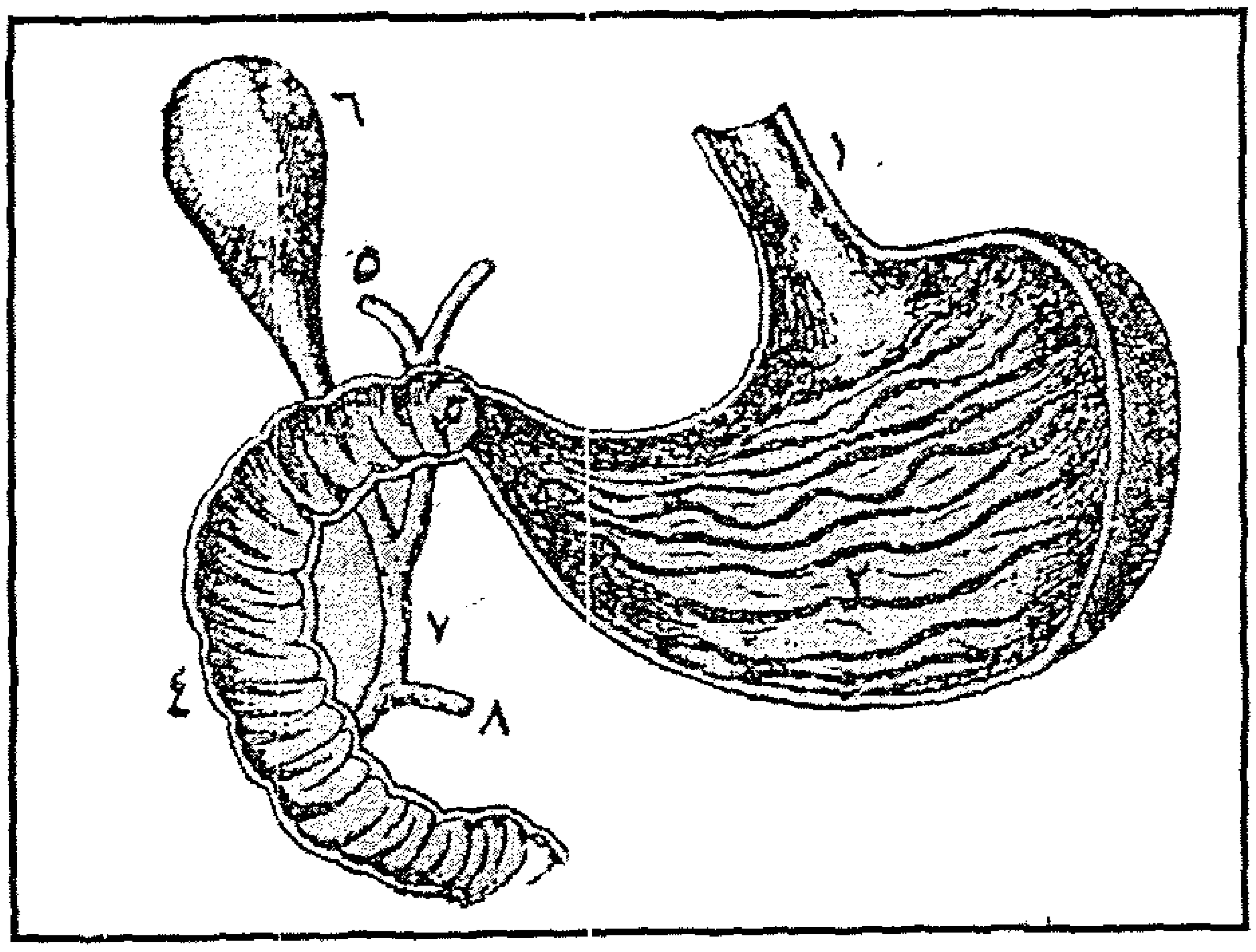

المعدة والاثنى عشر مفتوحان ليظهر الغشاء المخاطي المبطن لهما
(١) المريء (٣) الغشاء المخاطي المبطن للمعدة (٣) البواب (٤) الاثنى عشر (٥) القناة الصفراوية من الكبد (٦) الحوصلة الصفراوية (٧) القناة الصفراوية العامة (٨) القناة البنكرياسية

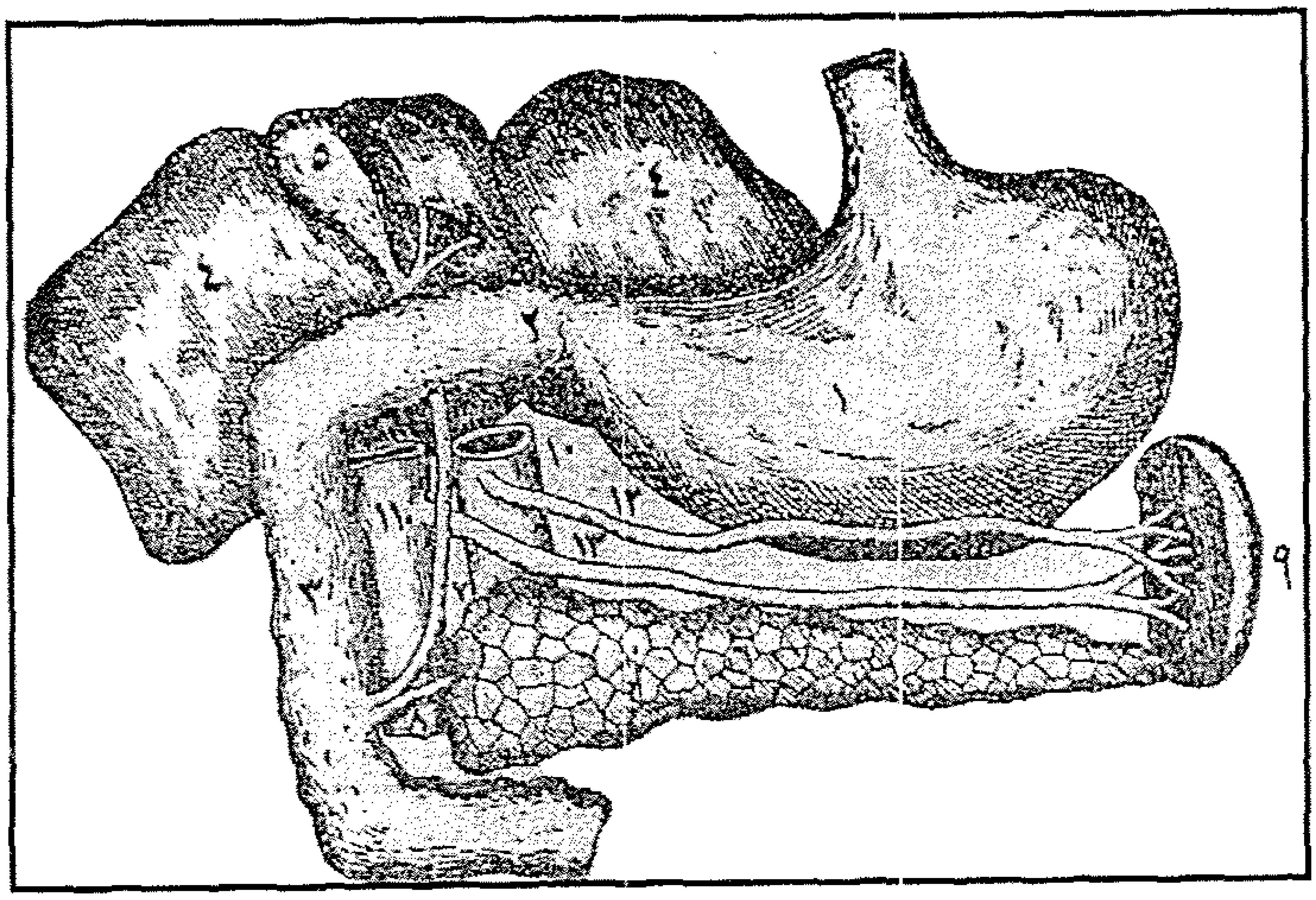

(١) المعدة (٢) البواب
(٣) الاثنى عشر
(٤) السطح السفلي للكبد
(٥) الحوصلة الصفراوية
(٦) غدة البنكرياس
(٧) القناة الصفراوية
(٨) القناة البنكرياسية
(٩) الطحال (١٠) الأورطى
(١١) الوريد البابي
(١٢) الشريان الطحالي
(١٣) الوريد الطحالي

المعدة والاثنى عشر والكبد والطحال والبنكرياس

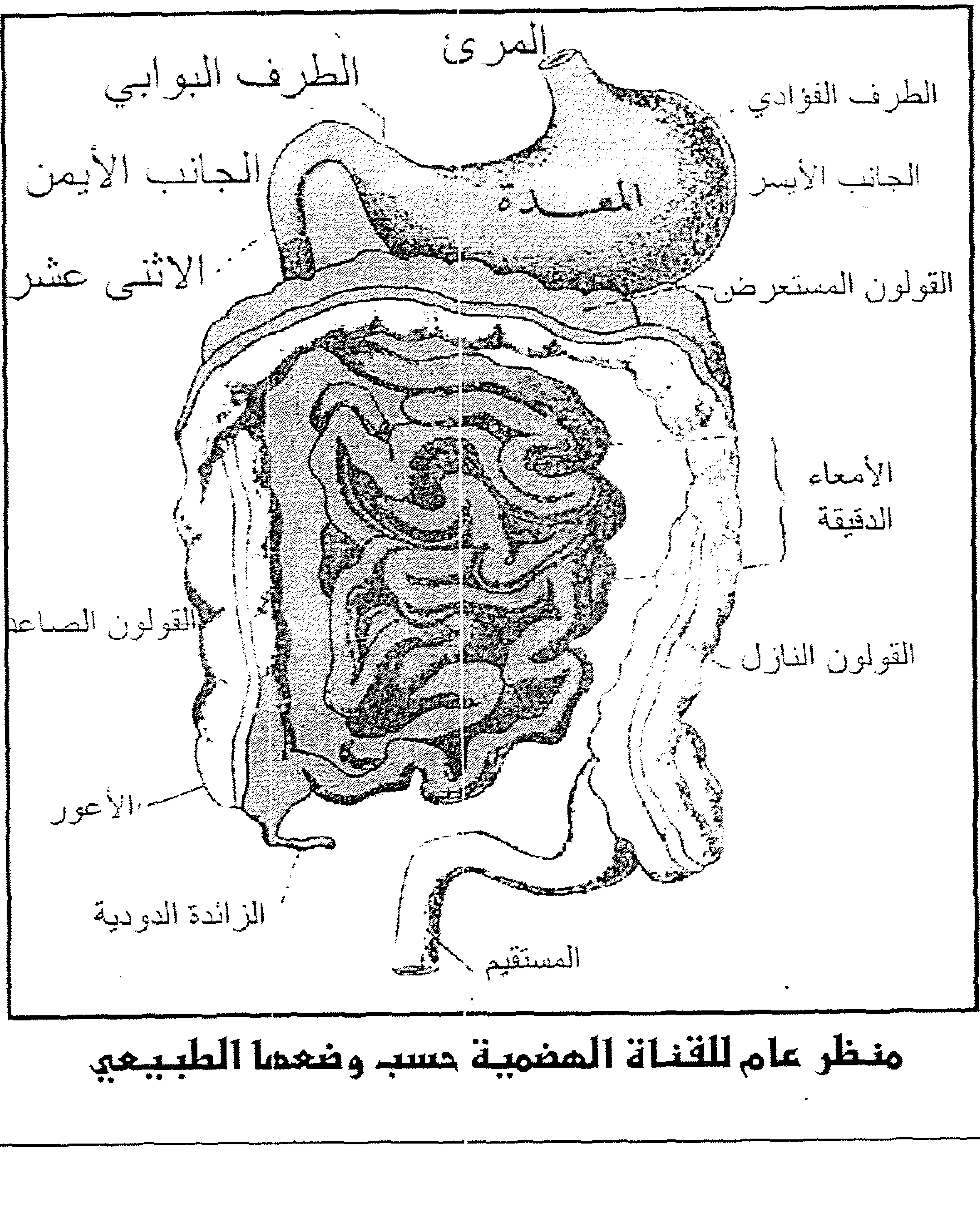

منظر عام للقناة الهضمية حسب وضعها الطبيعي

ويلي الاثنى عشر الصائم فاللفائفي. وليس هناك حد ظاهر بين الأخيرين يميز بعضهما عن بعض. توجد بجدار الأمعاء الدقيقة عضلات طويلة وأخرى دائرية وتبطن الأمعاء بغشاء مخاطي كثير التجاعيد وهذه تزيد في مساحة السطح المعوي الداخلي وتبطئ حركة مرور الأطعمة حتى تتمكن الأمعاء من امتصاص أكبر كمية ممكنة من الأطعمة المهضومة.

توجد بالغشاء المخاطي أنواع من الغدد تفرز مواد مخاطية وأنواع تفرز عصارات هامضة تعرف بالعصير العلوي. وبهذا الغشاء عدد كبير من زوائد دقيقة الحجم تسمى بالخملات تعطى السطح الداخلي للأمعاء ملمساً قطيفياً وفائدة هذه الخملات امتصاص الأغذية الذائبة وينتشر الطبقة الموجودة تحت الغشاء المخاطي عدد عظيم من الشعيرات الدموية والأوعية اللبنية والأعصاب.

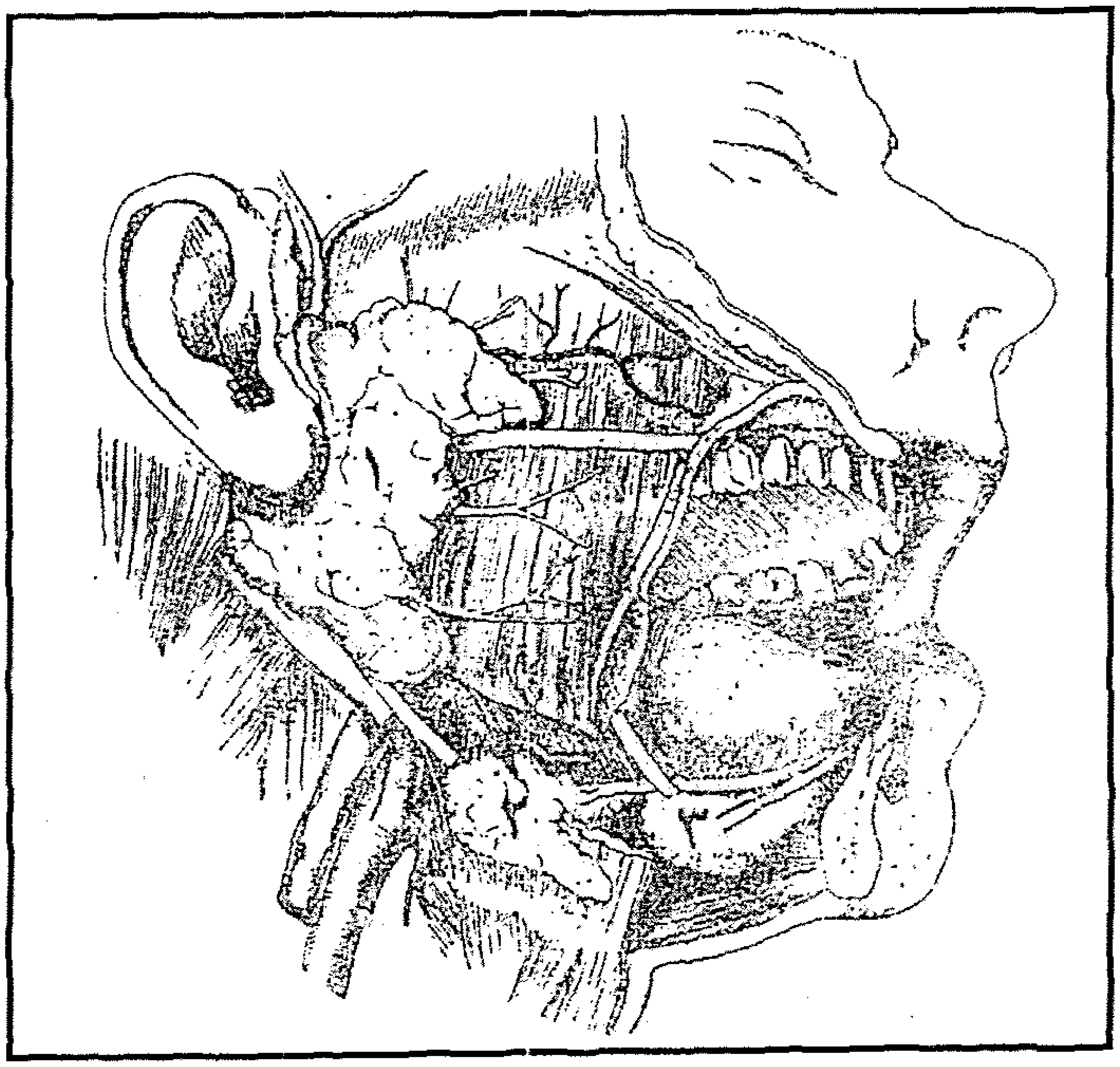

الغدد اللعابية وقنواتها التي تنفتح في فراغ الفم

(١) الغدد النكافية (٢) الغدد تحت الفك (٣) الغدد تحت اللسان

٦- **الأمعاء الغليظة** : أنبوبة متسعة في مبدئها وضيقة في نهايتها ويبلغ طولها ١٨٠ سنتيمتراً تقريباً. وتنقسم الأمعاء الغليظة إلى ثلاثة أقسام تسمى بالأعور والقولون والمستقيم ، فالأعور كيس صغير في الجهة اليمنى من الفراغ البطني وفيه تنفتح الأمعاء الدقيقة. وبالطرف السفلي للأعور أنبوبة متطاولة رقيقة مسدودة تسمى الزائدة الدودية أما القولون فيلي الأعور ويمتد في البطن بهذا الشكل وينتهي في الجهة اليسرى من البطن حيث يتصل به المستقيم الذي ينتهي بالاست أو الشرج.

تتركب جدر الأمعاء الغليظة من عضلات طولية وأخرى دائرية وتبطن الأمعاء الغليظة بغشاء مخاطي يفرز مواد مخاطية لتسهيل مرور فضلات الطعام الآتية من الأمعاء الدقيقة، ولا توجد خملات بجدار الأمعاء الغليظة، ويحاط الاست بعضلات دائرية عاصرة تغلقه باستمرار بحيث تحكم إقفاله فلا يفتح إلا عند الحاجة.

ملحقات القناة الهضمية

تتصل بالقناة الهضمية أجسام غدية وظيفتها إفراز مواد هاضمة للتأثير على الأغذية وهي:

أولاً: الغدد اللعابية:

توجد ثلاثة أزواج من الغدد اللعابية، حول الفم تفرز اللعاب الذي ينصب في فراغ الفم بواسطة قنوات خاصة لكل منها، واللعاب سائل شفاف قلوي التأثير يشتمل على مواد مخاطية وخميرة هاضمة تسمى بتيالين تؤثر على المواد النشوية وتحولها إلى مواد سكرية ذائبة (سكر شعير) ومن فوائد اللعاب ترطيب الأطعمة عند المضغ فتتكون منها كتل غذائية يسهل ابتلاعها كما أنه يمنع تأثير المواد الحمضية على الأسنان بخاصيته القلوية، وتختلف كمية اللعاب الذي يفرز يومياً من لتر إلى لترين.

ثانياً: الكبد:

الكبد أكبر غدة في الجسم وموضعه في أعلى الفراغ البطني من الجهة اليمنى ويغطى الجزء الأمامي من المعدة حيث يوجد فصه الأيسر بينها وبين الحجاب الحاجز ويتركب الكبد من فصين كبيرين، أحدهما أيمن والآخر أيسر، وآخرين صغيرين واقعين بينهما، فالفص الأيمن كبير ويمتد في الجانب الأيمن من أعلى الفراغ البطني، أما الفص الأيسر فصغير ويمتد فوق السطح الأمامي للمعدة ويفصلها عن الحجاب الحاجز. والسطح العلوي للكبد محدب ومن المعروف أن السطح السفلي للحجاب الحاجز مقعر ولهذا فإنه ينطبق على الكبد تمام الانطباق، أما السطح السفلي للكبد فيه حفر مناسبة لشكل الأعضاء التي يعلوها أو يجاورها.

ويوجد بالسطح الأسفل للكبد كيس غشائي صغير كمثري الشكل يسمى بالحوصلة الصفراوية يصل إليها جزء من إفراز الكبد المسمى بالصفراء، وتخرج من هذه الحوصلة قناة تسمى بالقناة الحوصلية تتصل بالقناة الصفراوية الآتية من الكبد والتي تنفتح في الاثنى عشر. وهذه الصفراء التي يفرزها الكبد عامل في هضم المواد الدهنية.

ثالثاً: البنكرياس:

البنكرياس غدة كبيرة الحجم نوعاً يبلغ طولها ستة عشر سنتيمتراً تقريباً وموضوعة في الانحناء الواقع بين الطرف البوابي للمعدة والاثنى عشر، وتمتد أسفل المعدة. ويفرز البنكرياس عصارة هاضمة تخرج منه بواسطة قناة خاصة تتصل بالقناة الصفراوية عند انفتاحها في الاثنى عشر.

والعصارة التي يفرزها البنكرياس تشتمل على عدة خمائر هاضمة تؤثر على الأنواع المختلفة من الطعام.

(ملاحظة) يبطن الفراغ البطني بطبقة غشائية رقيقة جداً تسمى بالغشاء المصلي أو البريتون، ويحيط البريتون كذلك بجميع الأحشاء البطنية كالمعدة والأمعاء وغيرهما. وتربط الأحشاء معاً بواسطة غشاء يسمى المساريقا مكون من طبقتين بريتونيتين تمتد بهما الأوعية الدموية، ويفرز الغشاء المصلي سائلاً بسيطاً يساعد على انزلاق الأحشاء.

الهضم

يدخل الطعام في الفم فيقطع ويمضغ بالأسنان ويحصل ذلك بتحريك الفك الأسفل حركة سفلية علوية وأخرى جانبية. أما الفك العلوي فثابت، وفي أثناء المضغ ينصب اللعاب عليه ويمتزج بالكتلة الغذائية، ومما يسهل المضغ والبلع وجود مواد مخاطية باللعاب. (وتؤثر خميرة البيتالين الموجودة في اللعاب على المواد النشوية فتحيلها إلى مواد ذائبة، ولهذا يجب مضغ الطعام جيداً وببطء حتى يتمكن اللعاب من الاختلاط بالطعام والتأثير على أكبر كمية ممكنة من المواد النشوية فيه) ويقوم اللسان بتحريك الكتلة الغذائية وتساعده في ذلك عضلات الشفتين والخدين وبعد تمام المضغ تتحول الكتلة الغذائية بواسطة حركات اللسان والخدين إلى كرة تسمى بالبلعة الغذائية (البلوع) وهذه تنزلق إلى الجزء الخلفي من الفم فتنقبض عضلاته وفي نفس الوقت ترتفع الحنجرة وتنقفل فتحتها فتمر البلعة الغذائية إلى البلعوم الذي يدفعها إلى المريء بواسطة انقباض عضلاته. وعند ذلك تبتدئ عضلات المريء في الانقباض الذي تنشأ عنه حركة دودية بشكل تموجات من أعلى إلى أسفل، بحيث أن جزء المريء الموجود أعلى البلعة يضيق فيضغطها إلى أسفل وهكذا تستمر إلى أن تدخل المعدة من فتحتها الفؤادية.

عندما يصل الطعام إلى المعدة تفرز عليه العصارة المعدية وتقوم عضلات المعدة بحركة تساعد على مزج الطعام بالعصارة المعدية وفي أثناء عملية الهضم يكون البواب مقفلاً، غير أنه ينفتح من وقت إلى آخر ليسمح للأغذية بالمرور منه إلى الاثنى عشر.

والغذاء بعد أن يتم هضمه في المعدة يعرف بالكيموس، والكيموس سائل لبني غليظ القوام، حمضي التأثير، ذو رائحة خاصة به. وفي الاثنى عشر تصب على الكيموس عصارتان هاضمتان هامتان آتيتان من غدتين مختلفتين، تسمى العصارة الأولى منهما بالصفراء وتأتي من الكبد بواسطة القناة الصفراوية وتسمى الثانية منهما بالعصارة البنكرياسية وتأتي من البنكرياس بواسطة قناة خاصة وتتصل هاتان القناتان معاً عند دخولهما في الاثنى عشر. ثم تمر محتويات الاثنى عشر إلى بقية الأمعاء حيث تختلط بعصارة هاضمة أخرى يفرزها الغشاء المخاطي المبطن لها فتؤثر هذه العصارات المختلفة في المواد التي لم تتأثر من قبل ويصبح الغذاء المهضوم ذا قوام لبني سائل يسمى إذ ذاك بالكليوس، ويمر الكليوس في الأمعاء الدقيقة بواسطة حركتها الدودية وفي هذه الأثناء تمتص منه الأغذاية الذائبة بواسطة الخملات الموجودة فيها، أما الجزء الباقي بعد ذلك فيمر إلى الأمعاء الغليظة ويمنعه من الرجوع إلى الأمعاء الدقيقة صمام ذو شرفتين ممتدتين نحو الأعور.

يستمر الامتصاص في الأمعاء الغليظة أيضاً فتمتص المواد الذائبة بالتدريج وبذلك يصبح الجزء الباقي أكثر صلابة وتحتفظ الأمعاء الغليظة به مدة معينة قبل تبرزه.

ويحصل في هذه الأثناء تعفن ناشئ من وجود أنواع من البكتريا تعيش في الأمعاء الغليظة.

وتحتوي المواد البرازية عادة على ماء بنسبة ٧٥٪ تقريباً وعلى مواد أخرى تشمل الأملاح المعدنية والمواد المخاطية وما تخلف من الطعام الذي لم يهضم أو لم يكن قابلاً للهضم.

التفاعلات الكيميائية التي تحصل في الطعام في أثناء هضمه

(١) المواد الكربوهيدراتية:

تذوب المواد الكربوهيدراتية القابلة للذوبان كالسكر في الفم بواسطة ماء اللعاب إن لم تكن ذائبة من قبل، أما غير القابلة للذوبان كالنشا، فتتأثر بواسطة خميرة اللعاب المسماة بتبالين وتحولها إلى نوع من السكر قابل للذوبان يعرف بسكر الشعير.

ويستمر تأثير اللعاب على المواد النشوية في المعدة إلى أن تتشبع الكتلة الغذائية بالعصير المعدي الحمضي التأثير فيقف عمل الخميرة اللعابية لأنها لا تعمل إلا في وسط قلوي.

يتم هضم المواد السكرية والنشوية التي لم تتأثر باللعاب في الأمعاء بواسطة إحدى خمائر العصارة البنكرياسية المسماة إميلوبسين والعصير المعوي، وتتحول المواد الكربوهيدراتية في النهاية بعد الهضم إلى مواد سكرية بسيطة ذائبة كسكر العنب وسكر الفواكه ثم تمتص على هذه الصورة.

(٢) المواد البروتينية:

تؤثر خميرة الليسين الموجودة في العصارة المعدية على المواد البروتينية فتذيبها وتحولها إلى مواد أبسط تركيباً (مواد بيتونية) ولا تعمل خميرة الليسين إلا في وسط حمضي. أما المواد الزلالية الموجودة في اللبن فتنيجتها خميرة أخرى اسمها المنفحين ليسهل التأثير عليها بواسطة البيسين .

وتؤثر كل من العصارة المعوية وإحدى الخمائر الموجودة في العصارة البنكرياسية المسماة تريبسين على البروتينات وعلى البيتونات، التي نتجت من الهضم المعوي وتحليها إلى مواد أكثر بساطة تعرف بالأحماض الأمينية وهي التي تمتص على هذه الحال.

(٣) المواد الدهنية:

تتحول المواد الدهنية في الأمعاء الدقيقة إلى مستحلب أي أنها تتجزأ إلى حبيبات دقيقة جداً، وذلك بتأثير إحدى خمائر العصارة البنكرياسية المسماة استبايسين بعد خلطها بالصفراء، وبعد ذلك تؤثر على هذه الحبيبات الدهنية خميرتان إحداهما الخميرة البنكرياسية السابقة الذكر (استبابسين) والأخرى خميرة اللبياز في العصير المعوي، ونتيجة ذلك إحالة الحبيبات الدهنية إلى جلسرين وأحماض دهنية وهي مواد ذائبة يسهل امتصاصها في الأوعية اللبنية حيث يتحدان بعد الامتصاص مباشرة ويكونان حبيبات دهنية جديدة.

(٤) المواد المعدنية:

تذوب المواد المعدنية في ماء العصارات الهاضمة المختلفة إن لم تكن ذائبة من قبل وبذلك يسهل امتصاصها.

الامتصاص:

يهضم الطعام في القناة الهضمية إما بتحويله إلى مواد ذائبة أو بتجزئته إلى جزيئات دقيقة يسهل مرورها من الغشاء المخاطي.

وتوجد بجدار الأمعاء تحت الغشاء المخاطي شبكة دقيقة من الأوعية الدموية الشعيرية ولأجل أن تصل الأغذية الذائبة إلى الدم تمر في الغشاء المخاطي المبطن للأمعاء ثم تخترق جدر هذه الأوعية الشعيرية فيحملها الدم معه وتعرف هذه العملية بالامتصاص بواسطة الأوعية الدموية.

وتقوم الأوعية الدموية بامتصاص المواد الكربوهيدراتية المضهومة التي تحولت إلى أنواع بسيطة من السكر وكذلك المواد البروتينية التي تحولت إلى مواد أزوتية بسيطة قابلة للذوبان (أحماض أمينية) .

أما المواد الدهنية المهضومة فتمتص بواسطة مجموعة أخرى من الأوعية الدقيقة تسمى بالأوعية اللبنية. وتوجد الأوعية اللبنية من الشعيرات الدموية في الغشاء المخاطي المبطن لجدر الأمعاء الدقيقة وفي الخملات المنتشرة فيها.

ومما يلاحظ أن الأوعية اللبنية تحتوي على سائل لبني في أثناء عملية الهضم لوجود الحبيبات الدهنية به، أما إذا منع الغذاء الدهني عن الإنسان مدة طويلة فإن السائل الموجود بهذه الأوعية يكون رائقاً شفافاً.

وتجتمع الأوعية اللبنية بعضها مع بعض لتكون أوعية أكبر منها وهكذا تصب محتوياتها في الأوعية الكبيرة قبل دخولها في القلب، ويكون مجموع الأوعية اللبنية السابق ذكرها جزءاً من الجهاز الليمفاوي.

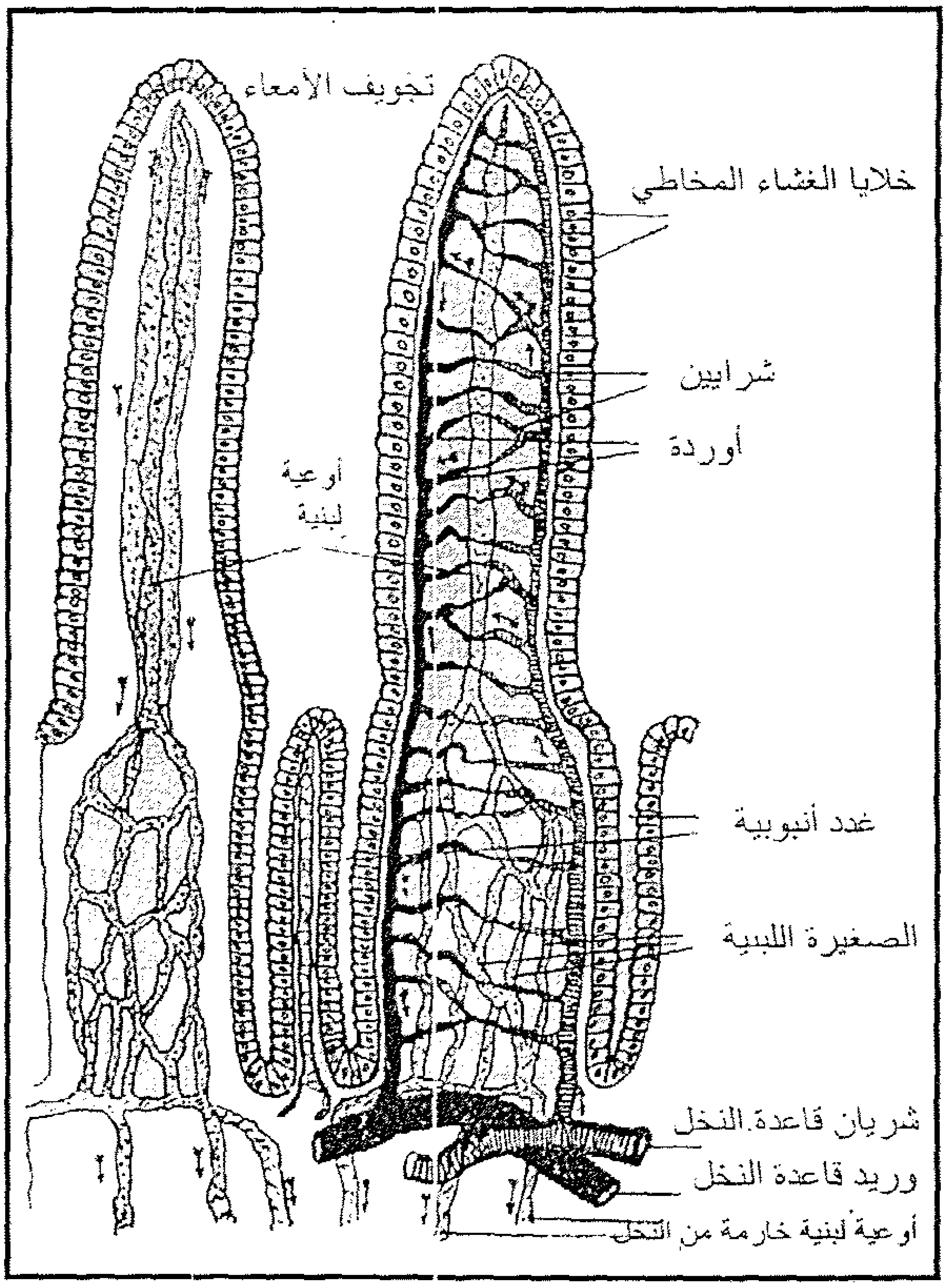

خملات الامتصاص بالأمعاء

الجهاز الدوري:

الجهاز الدوري هو جهاز وعائي مقفل مملوء بسائل أحمر اللون هو الدم، ويقوم هذا الجهاز بتوزيع الدم على أجزاء الجسم المختلفة ويركب من: القلب وهو عضو عضلي مركزي وظيفته دفع الدم الذي يتجمع فيه وذلك في طريقين: أولهما الرئتان وثانيهما الجسم ويتم هذا بواسطة الجزء الثاني من الجهاز الدوري المكون من الأوعية الدموية وهي أنابيب متصلة بالقلب وظيفتها حمل الدم منه وتوزيعه في جميع أجزاء الجسم ثم إرجاعه إليه، وهذه الأوعية ثلاثة أنواع .

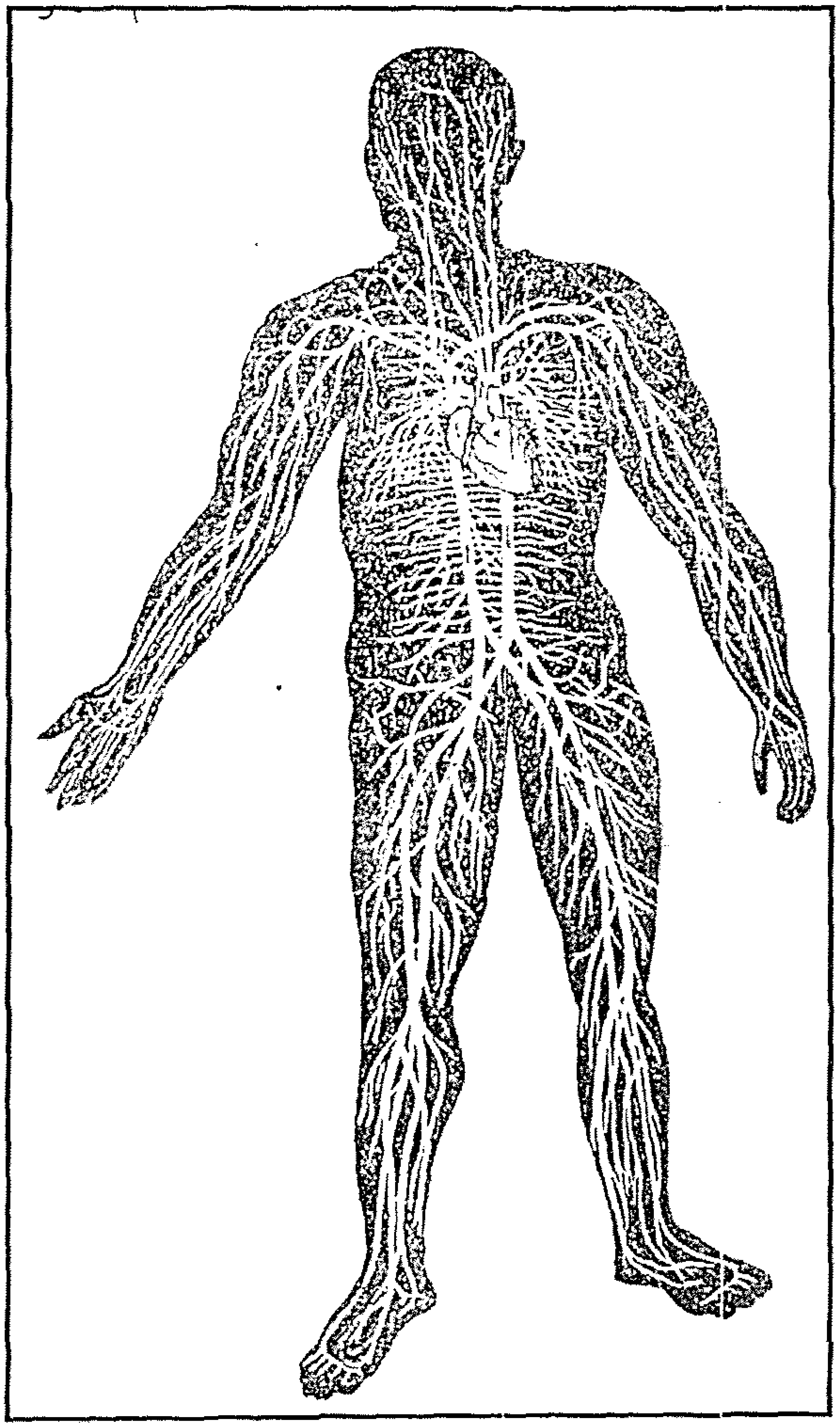

شكل عام للدورة الدموية - القلب والأوعية الدموية الكبيرة

القلب :

القلب عضو عضلي أجوف يدفع الدم في الأوعية الدموية إلى جميع أجزاء الجسم بواسطة انقباضات عضلاته القوية. والقلب ذو شكل مخروطي يبلغ حجمه كحجم قبضة اليد ومتوسط وزنه في الإنسان الكامل النمو ٢٩٠ جراماً وهو موضوع في وسط الفراغ الصدري بين الرئتين وتتجه قاعدته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل مائلاً قليلاً إلى اليسار. ويحاط القلب بغشاء مصلى مزدوج يسمى التامور لحمايته من الاحتكاك بالأعضاء التي تجاوره.

ويتركب القلب من أربع حجرات، اثنتين علويتين تسميان بالأذينين واثنتين سفليتين تسميان بالبطينين. ويفصل الأذينين عن بعض جدار رقيق، أما البطينان فيفصلهما جدار سميك.

يتصل الأذين الأيمن بالبطين الأيمن بواسطة فتحة بينهما وبنفس الطريقة يتصل الأذين الأيسر بالبطين الأيمن.

ويحرس كلاً من هاتين الفتحتين صمام مكون من شرفات غشائية تتصل بالجدران العضلية للبطين بواسطة أحبال وترية متينة. وتسمح هذه الشرفات للدم بالمرور بسهولة من الأذين إلى البطين المتصل به، إلا أنه عندما يمتلئ البطين بالدم تطفو الشرفات على سطح الدم فتسد الفتحة الموجودة بين الأذين والبطين وعندما ينقبض البطين يزداد الضغط على الشرفات من أسفل فتسد الفتحة سداً محكماً وبذلك لا يمكن للدم الرجوع إلى الأذين ولا يجد أمامه منفذاً يخرج منه إلا عن طريق الشريان الخارج من البطين.

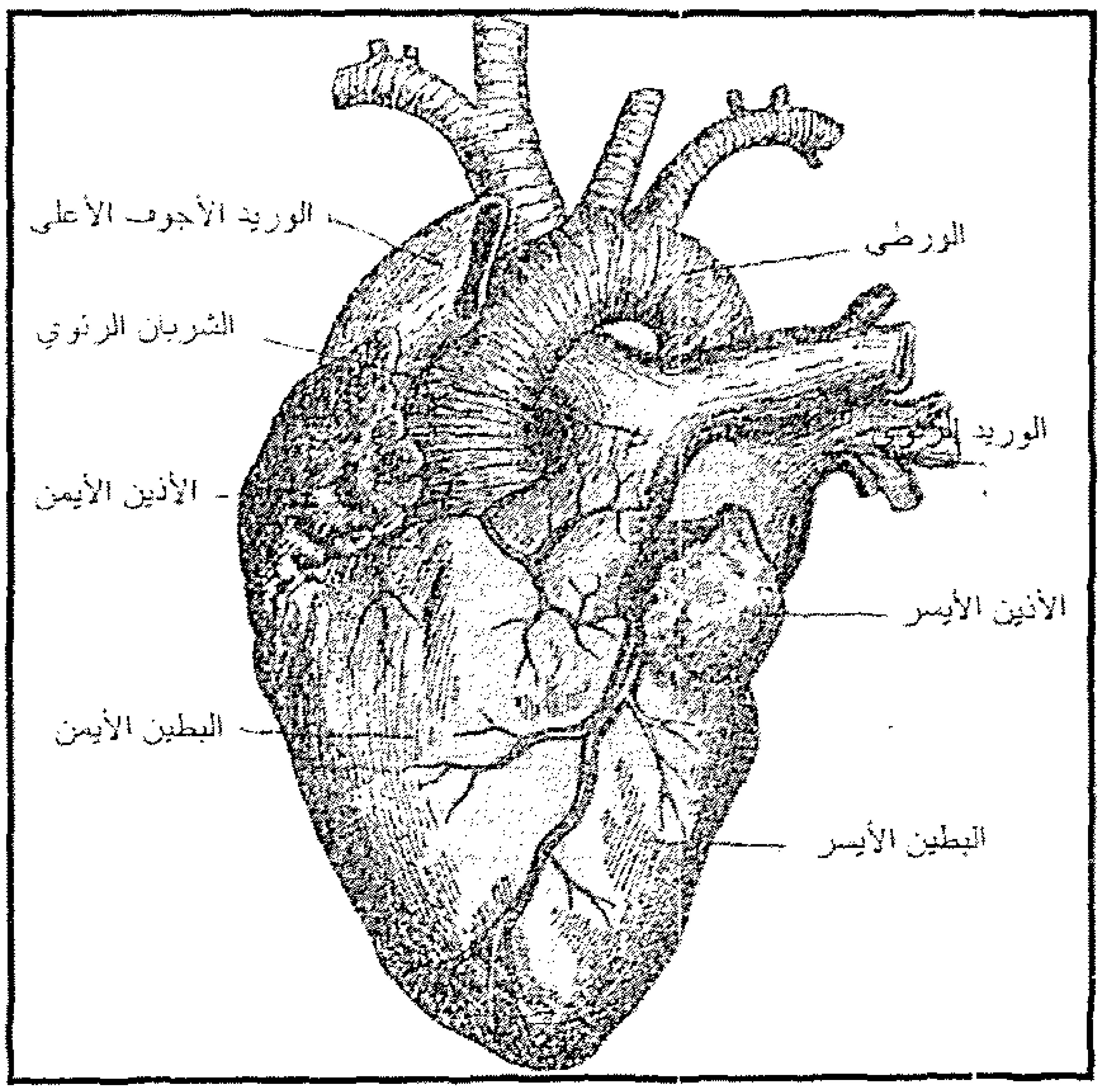

القلب ونصف الحجم الحقيقي

وللصمام الموجود بين الأذين الأيمن والبطين الأيمن ثلاث شرفات أما الموجود بين الأذين الأيسر والبطين الأيسر فله شرفتان فقط. وتتصل بالقلب أوعية مختلفة يحمل بعضها الدم إلى القلب ويحمل البعض الآخر الدم منه، والأوعية هي:

(١) الوريد الأجوف العلوي
(٢) الوريد الأجوف السفلي
(٣) الأذين الأيمن
(٤) البطين الأيمن
(٥) الشريان الرئوي
(٦) الأوردة الرئوية
(٧) الأذين الأيسر
(٨) البطين الأيسر
(٩) الأورطى

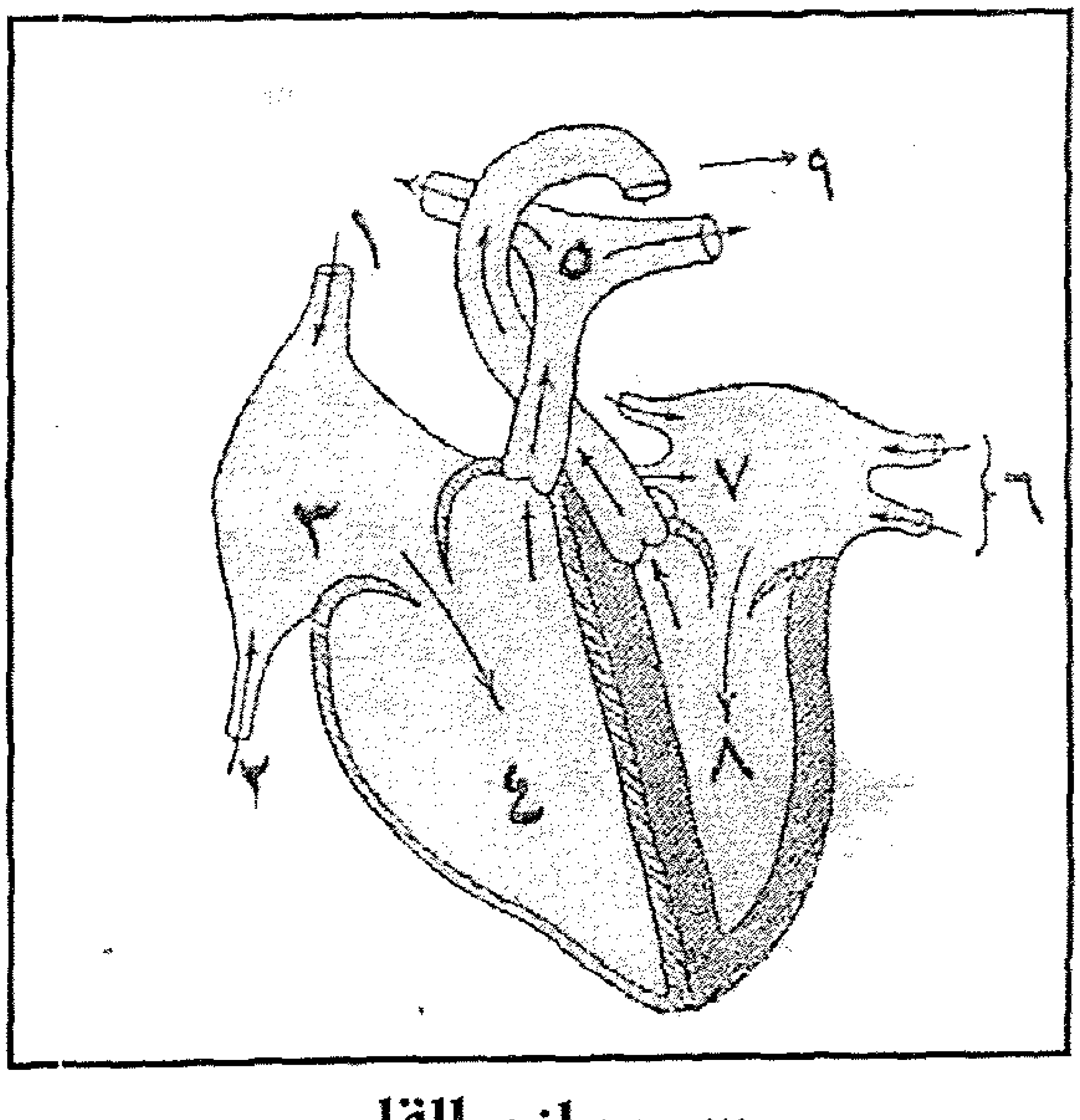

رسم بياني للقلب

(١) الوريدان الأجوفان: يدخل الأذين الأيمن وريدان كبيران يحملان الدم غير النقي (غير المؤكسد) من جميع أجزاء الجسم ليرجعاه إلى القلب فيتجمع في أحدهما الدم الآتي من النصف العلوي للجسم ويسمى بالوريد الأجوف العلوي. ويتجمع في الآخر الدم الآتي من النصف السفلي للجسم ويسمى بالوريد الأجوف السفلى.

(٢) الشريان الرئوي: يخرج من البطين الأيمن شريان واحد يسمى بالشريان الرئوي يتفرع إلى فرعين ويتجه كل منهما إلى الرئة المقابلة له ويحمل الشريان الرئوي الدم غير النقي أو الوريدي (غير المؤكسد) إلى الرئتين ليتأكسد فيهما.

(٣) الأوردة الرئوية: تدخل في الأذين الأيسر أربعة أوردة رئوية تجلب الدم إلى القلب بعد أن يتأكسد في الرئتين.

(٤) الأورطى (الأبهر) : يخرج من البطين الأيسر شريان واحد كبير يسمى بالأورطي أو الأبهر ويحمل الدم النقي أو الشرياني (المؤكسد) من القلب لتوزيعه على جميع أجزاء الجسم ويتفرع إلى فروع يتجه بعضها إلى الجزء العلوي من الجسم والبعض الآخر إلى الجزء السفلى منه.

وعندما ينقبض بطينا القلب يندفع الدم في الشريانين الخارجين منهما (الشريان الرئوي والأورطى)، ويحيط بفوهة كل شريان صمام غشائي يتركب من ثلاث شرفات هلالية الشكل ، وتكون هذه الشرفات بشكل الجيوب فيمر الدم الخارج من البطين إلى الشريان من بينهما بسهولة وإذا حاول الرجوع تمتلئ هذه الجيوب وتتقارب حوافها فتسد فوهة الشريان وتمنع بذلك رجوع الدم إلى البطين وتسمى هذه الصمامات بالصمامات الهلالية.

الشرايين:

الشرايين هي الأوعية الدموية التي تخرج من القلب وهي ذات جدر سميكة ومرنة لوجود عضلات دائرية وألياف مرنة بها وهذا مما يساعدها على تحمل ضغط الدم الذي يندفع فيها من القلب واستمرار سيره إلى الأمام. والشرايين هي التي تحمل الدم النقي أي المؤكسد في الجسم ويستثنى من ذلك الشريان الرئوي الذي يحمل الدم غير النقي إلى الرئتين لينقى فيهما.

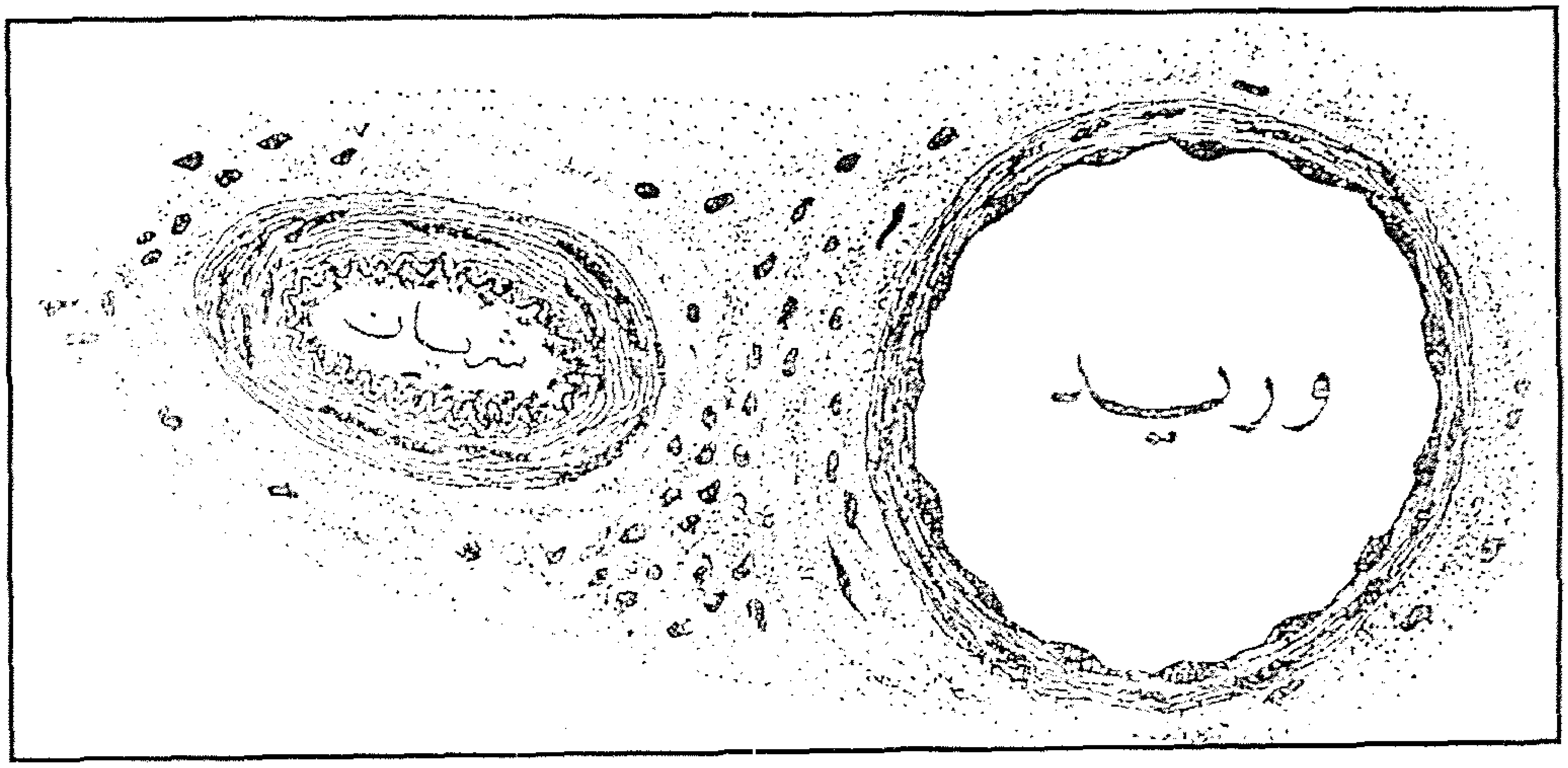

(قطاع عرضي في شريان ووريده × ٣٠٠)

الشعيرات:

تتفرع الشرايين إلى فروع أصغر فأصغر وفي نهاية هذه الفريعات تبتدئ الشعيرات وهي دقيقة طولاً وقطراً ويماثل قطرها قطر الكرة الدموية الحمراء تقريباً وجدر الشعيرات غشائية ورقيقة جداً ومنها يحصل تبادل الغازات بين الدم والأنسجة التي تمر فيها، وتترشح منها كذلك المواد الغذائية السائلة الموجودة في الدم، وعلى العموم فمعظم التغييرات التي تحصل للدم في أثناء مروره في الجسم تحصل في هذه الأوعية.

الأوردة:

تتجمع الشعيرات وتكون أوعية أكبر فأكبر تسمى الأوردة وتنفتح الأوردة النهائية في القلب. وتختلف عن الشرايين في كون جدرها رقيقة غير مرنة وإذا قطعت تلتئم بعد مدة يسيرة.

(الشعيرات الدموية]×٣٠٠[)

وتحمل الأوردة في العادة الدم غير النقي لتوصله إلى القلب ما عدا الأوردة الرئوية فإنها تحمل إلى القلب الدم النقي الوارد من الرئتين. وتوجد بكثير من الأوردة خصوصاً أوردة الأطراف صمامات تشبه الصمامات الهلالية وهذه الصمامات تسمح للدم بالمرور في اتجاه القلب وتمنعه من الرجوع بفعل جاذبية الأرض على الدم.

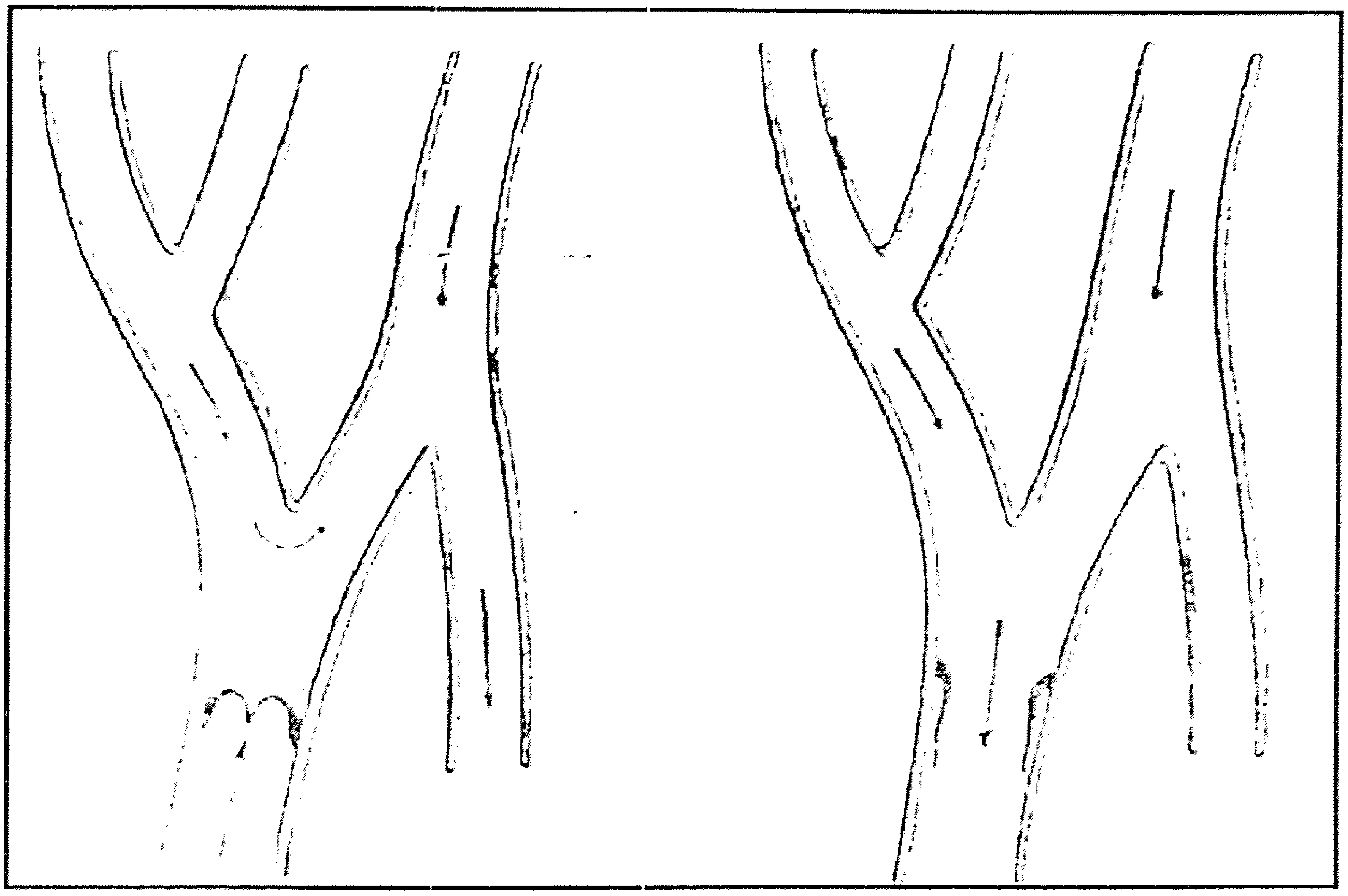

(قطاع طولي في وريد]٣× [الصمام مغلق إلى اليمين والصمام مفتوح إلى اليسار)

الدم:

الدم هو السائل الأحمر الذي يملأ القلب والأوعية الدموية المتصلة به، وهو قلوي التأثير ذو رائحة خاصة به. وتختلف كميته الموجودة في جسم الإنسان إذ تبلغ بالتقريب ١ / ١٣ من وزنه.

يتركب الدم من سائل أصفر يسمى بالبلازما يحتوي على عدد كبير جداً من أجسام دقيقة تسمى بالكرات الدموية. وتتركب البلازما من ٩٠٪ تقريباً من الماء و١٠٪ من مواد بروتينية وسكرية ودهنية وبولينا وأملاح معدنية مختلفة أغلبها ملح الطعام.

يكون الدم سائلاً في حالة الحياة ما دام في الأوعية ولكنه متى خرج من الجسم وترك مدة قصيرة فإنه يتحول إلى كتلة هلامية تعرف بالجلطة الدموية.

تتكون الجلطة الدموية بفعل عاملين مهمين أولهما خميرة خاصة تتكون في الدم وثانيهما وجود فوسفات الجير الذائبة فيه ولا تحصل الجلطة الدموية بفعل عامل واحد من العاملين المذكورين وبفعل هذين العاملين تتحول إحدى مواد الدم الزلالية السائلة إلى مادة أخرى تسمى بالفبرين ترسب على شكل خيوط دقيقة جداً ومتعددة ومتقاطعة وهذه الخيوط تحصر بينها كل الدم من سائل وكرات فتتكون في هذا كله كتلة متماسكة تسمى بالجلطة الدموية ثم تنكمش خيوط الفبرين فتقصر فتقل الجلطة في الحجم فيخرج منها سائل مائل إلى الصفرة يسمى بالمصل.

وتتكون الجلطة عادة إذا قطع وعاء من الأوعية الدموية وانسكب الدم منه سواء كان ذلك في داخل منسوجات الجسم أو على سطحه وبتكوينها تعتبر كسداد للوعاء تمنع خروج الدم منه إذ لو كان الدم غير قابل للتجلط (أي تكوين الجلطة) لخرج من الوعاء المقطوع (وهو ما يسمى بالنزيف) دون أن يكون هناك أي حائل لذلك حتى يستنفد الحيوان دمه فيهلك فقدرة الدم على التجلط هي التي تحمي جسم الحيوان من خطر النزيف.

الكرات الدموية:

يوجد منها نوعان حمراء وبيضاء (١) الكرات الحمراء عبارة عن أقراص رقيقة صغيرة جداً مقعرة قليلاً من سطحيها والكرة الحمراء عبارة عن خلية حية ليس لها نواة في الإنسان ومعظم الحيوانات الثديية، وتحتوي على نواة في بعض الحيوانات كالأسماك والضفادع والزواحف والطيور. وتتركب الكرات الحمراء من جدار خلوي داخله البروتوبلازما ومادة تسمى الهيموجلوبين وهي التي تكسب الدم لونه الأحمر ومن خواص الهيموجلوبين الهامة أنه يحمل كلاً من غاز الأكسجين وثاني أكسيد الكربون وينفصل عنها بسهولة، وتظهر أهمية هذه الخاصية عند تبادل الغازات مع الدم في الرئتين وأنسجة الجسم المختلفة.

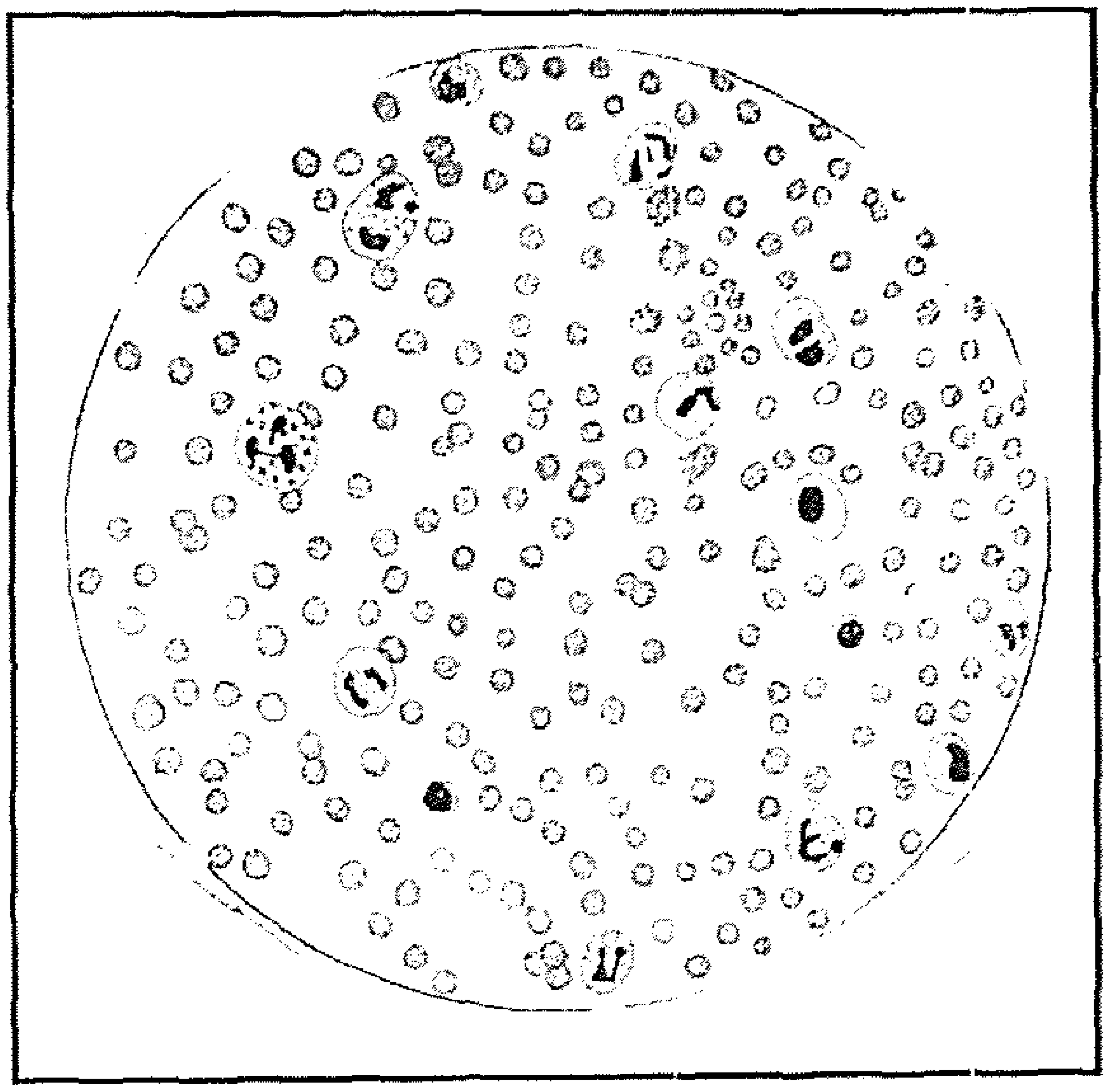

الكرات الدموية الحمراء والبيضاء (البيضاء هي المحتوية على نواة)

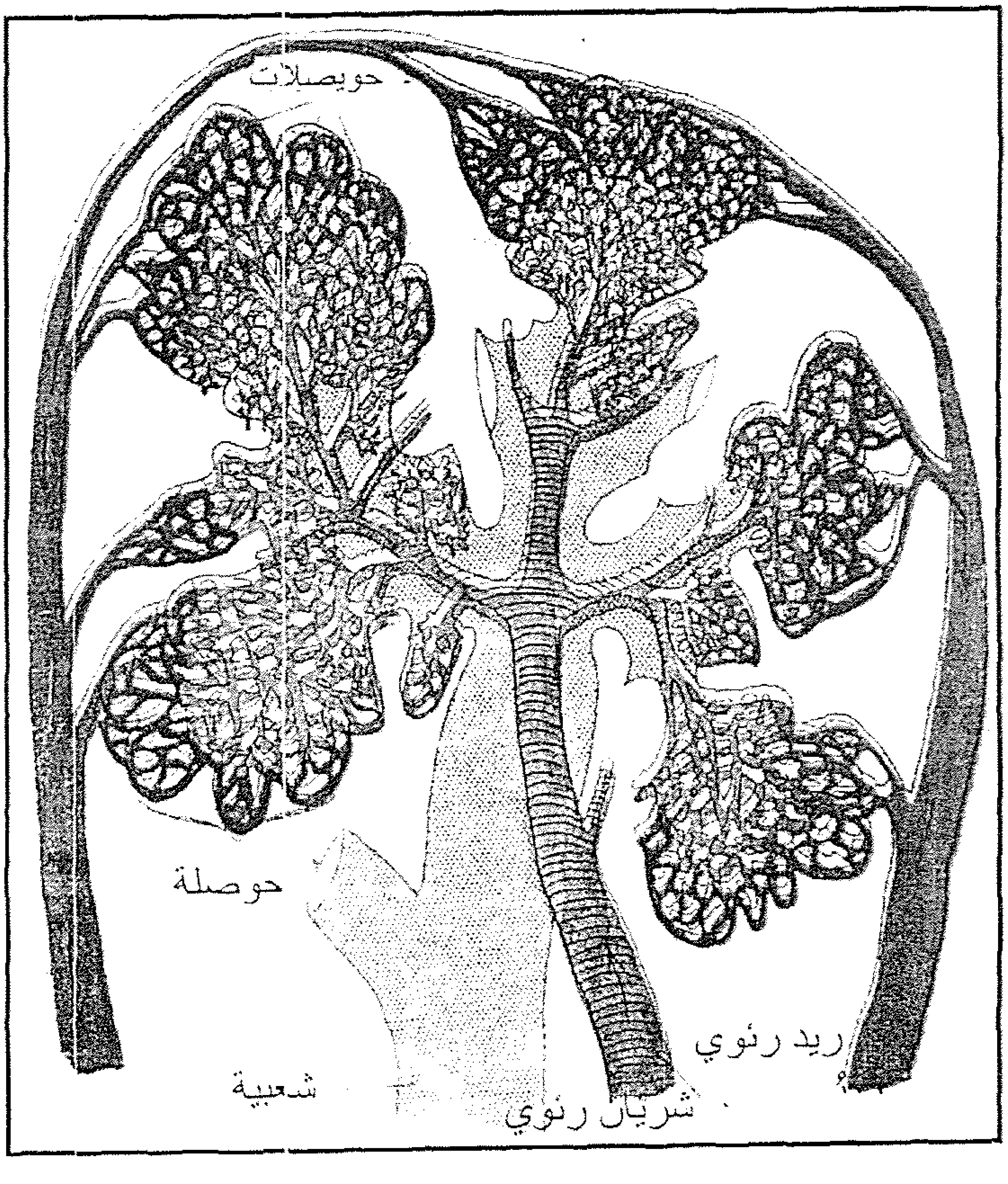

الدورة الدموية حول الحويصلات الرئوية

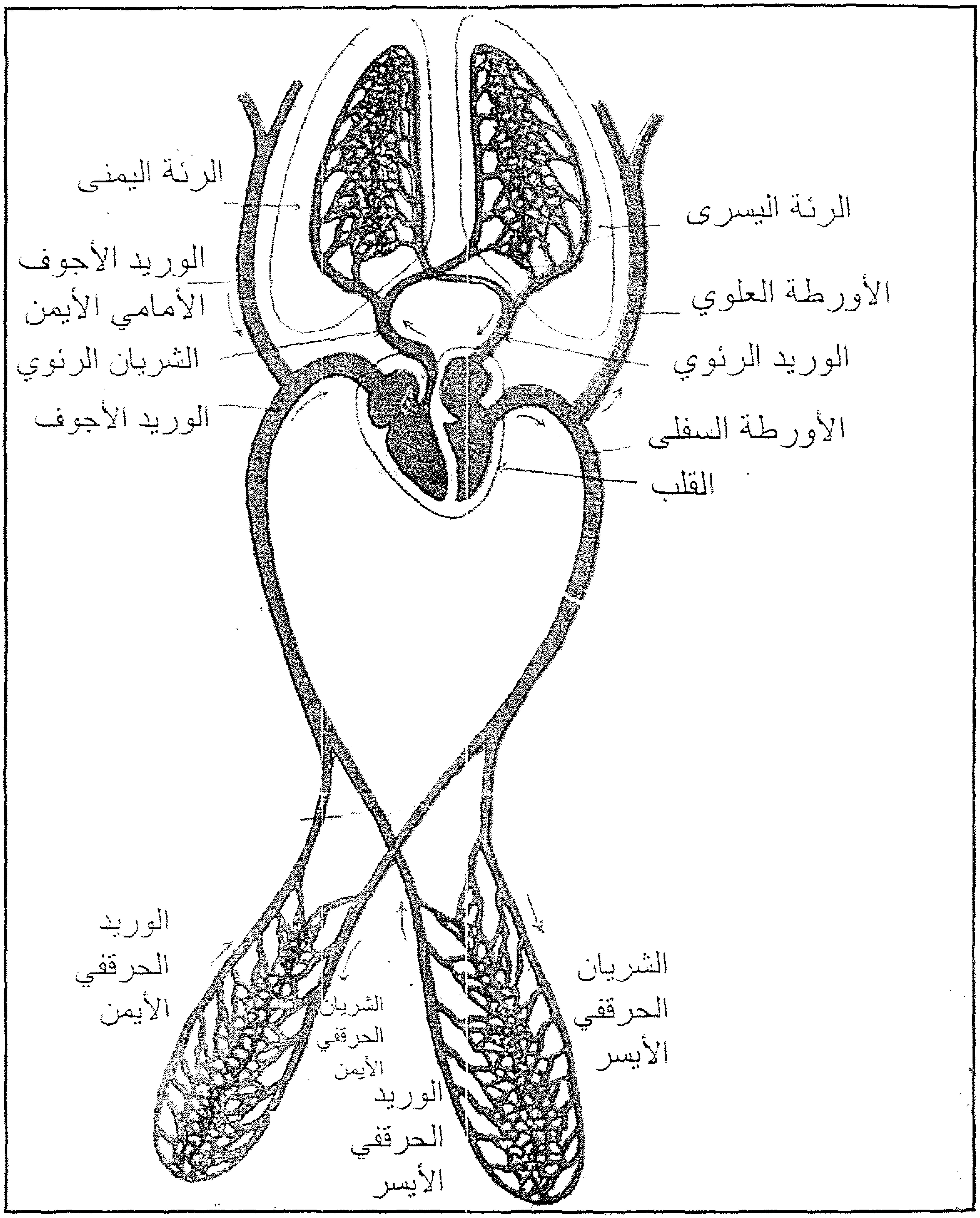

الدورة الدموية

(٢) الكرات البيضاء هي خلايا عديمة اللون ذات نواة وهي أكبر قليلاً من الكرات الحمراء ويمكنها التحرك من تلقاء نفسها بخلاف الكرات.

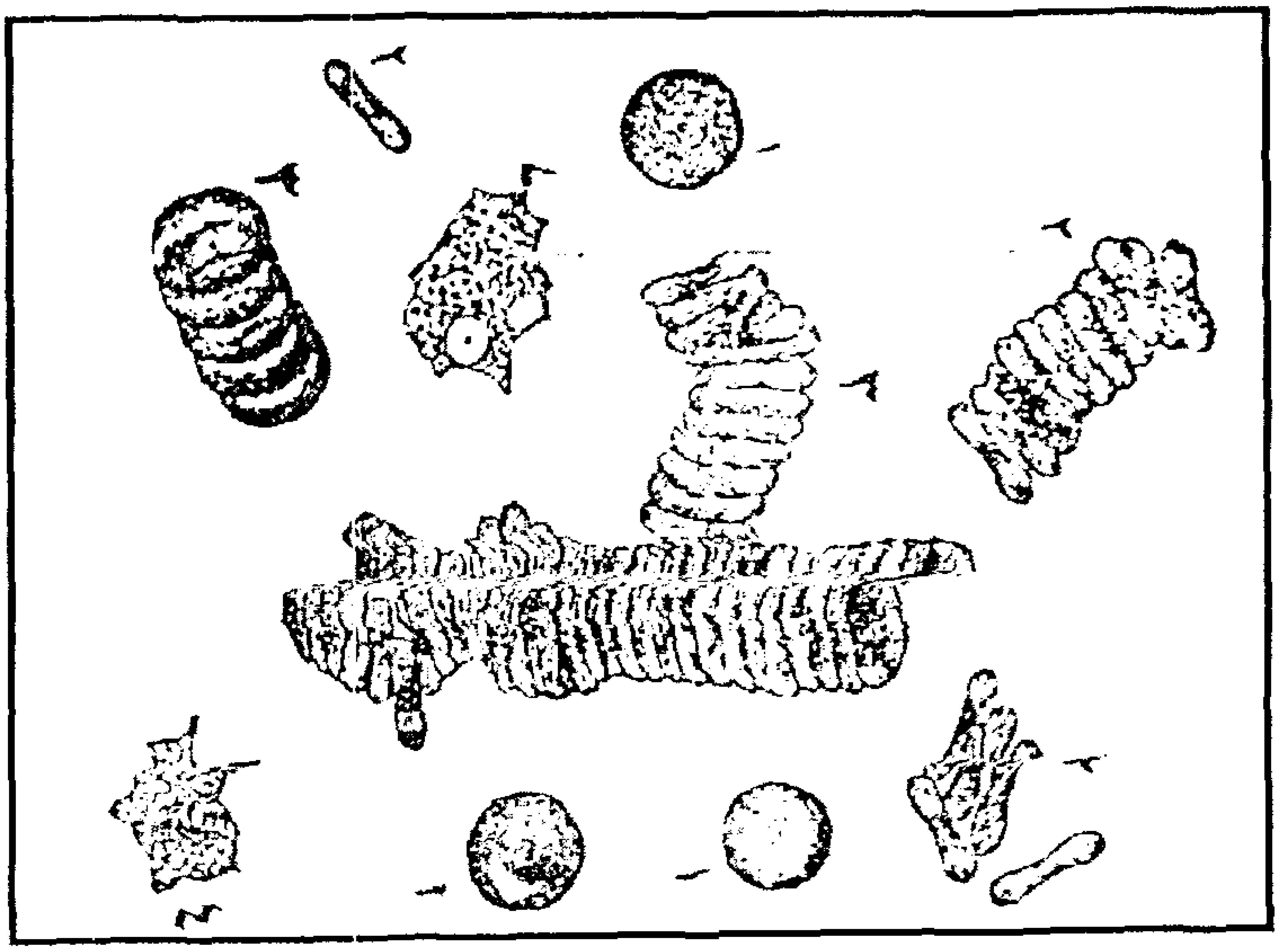

(١) منظر سطحي للكرات الحمراء

(٢) منظر جانبي للكرات الحمراء

(٣) كرات حمراء مصطفة بعضها خلف بعض

(٤) كرات دموية بيضاء

الكرات الدموية ٤٠٠

الحمراء تتركب من مادة بروتوبلازمية ليس لها شكل معين لأنها ليست محاطة بجدار خلوي. وعدد الكرات البيضاء الموجودة في الدم أقل بكثير من الحمراء ونسبتها إلى الحمراء ١: ١٠٠٠.

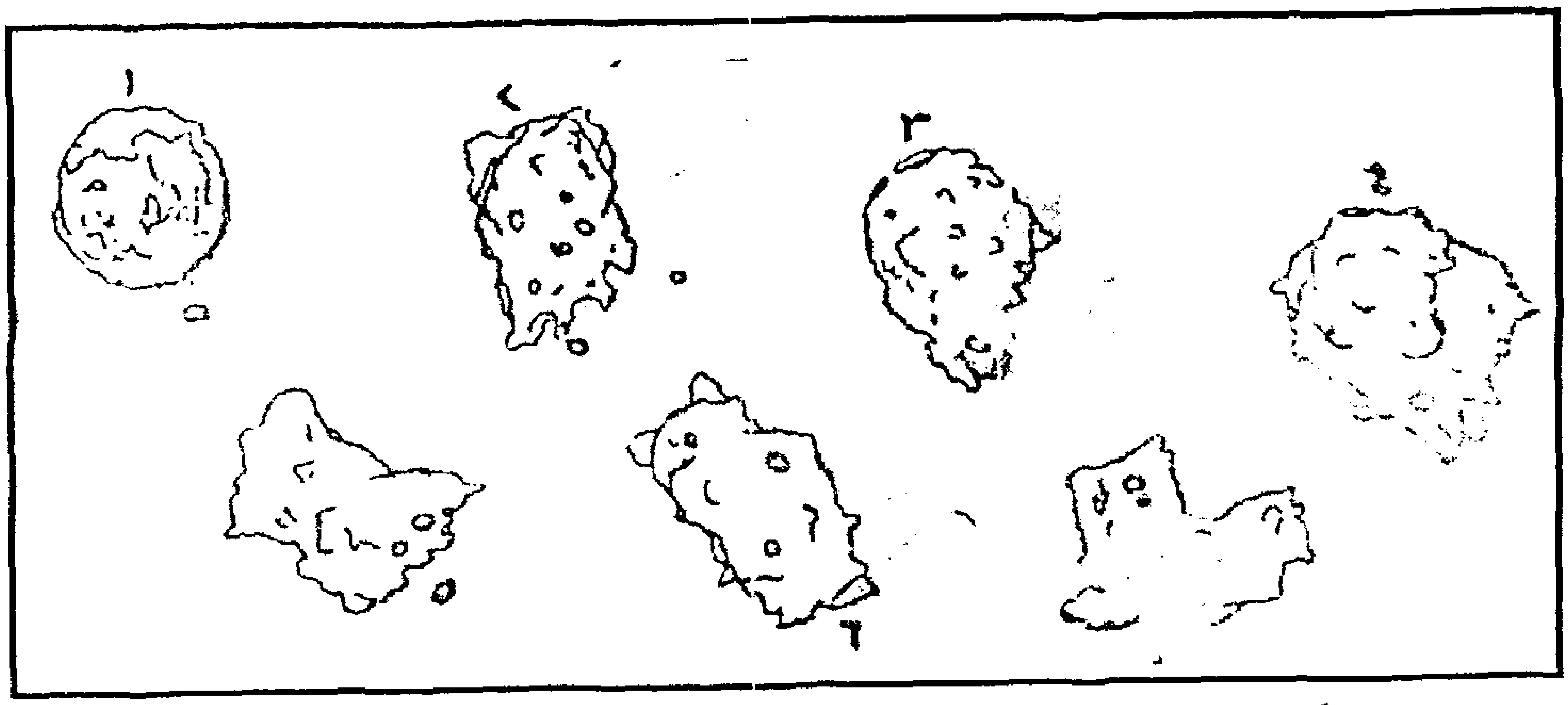

أشكال تبين حركات الكرات الدموية البيضاء ٥٠٠

ويختلف عدد هذه الكرات قلة وكثرة باختلاف سن الإنسان وجنسه ونوع الطعام الذي يتعاطاه وكميته وحالة الجسم الصحية.

وهناك أعضاء لها علاقة بالكرات الدموية فنخاع العظام مثلاً يكون الكرات الحمراء وبعض أنواع من الكرات البيضاء، والطحال يكون أنواعاً أخرى من الكرات البيضاء كما أنه يستهلك فيه كثير من الكرات الدموية الحمراء المجهدة.

الدورة الدموية:

يتجمع الدم الوريدي من جميع الجسم في الوريدين الأجوفين ويصب في الأذين الأيمن من القلب. وعندما يمتلئ هذا الأذين بالدم ينقبض فيندفع الدم إلى البطين الأيمن ماراً من الصمام الثلاثي الشرفات، وعند ذلك ينقبض هذا البطين فيدفع الدم في الشريان الرئوي الذي يوصله إلى الرئتين وهنا يتأكسد أي أنه يتحول من دم وريدي إلى دم شرياني ويعود بواسطة الأوردة الرئوية إلى الأذين الأيسر الذي ينقبض ويدفعه إلى البطين الأيسر ماراً من الصمام الثنائي الشرفات، ثم ينقبض هذا البطين فيدفع الدم في الأورطى الذي يوزعه على جميع أجزاء الجسم. وهنا يقوم الدم بتوزيع الأغذية والأكسجين على أنسجة الجسم وجميع المواد الناتجة في الأنسجة من عمليتي التغذية والتنفس، ثم يتجمع في الأوردة ويعود إلى القلب بواسطة الوريدين الأجوفين وهكذا تستمر الدورة الدموية.

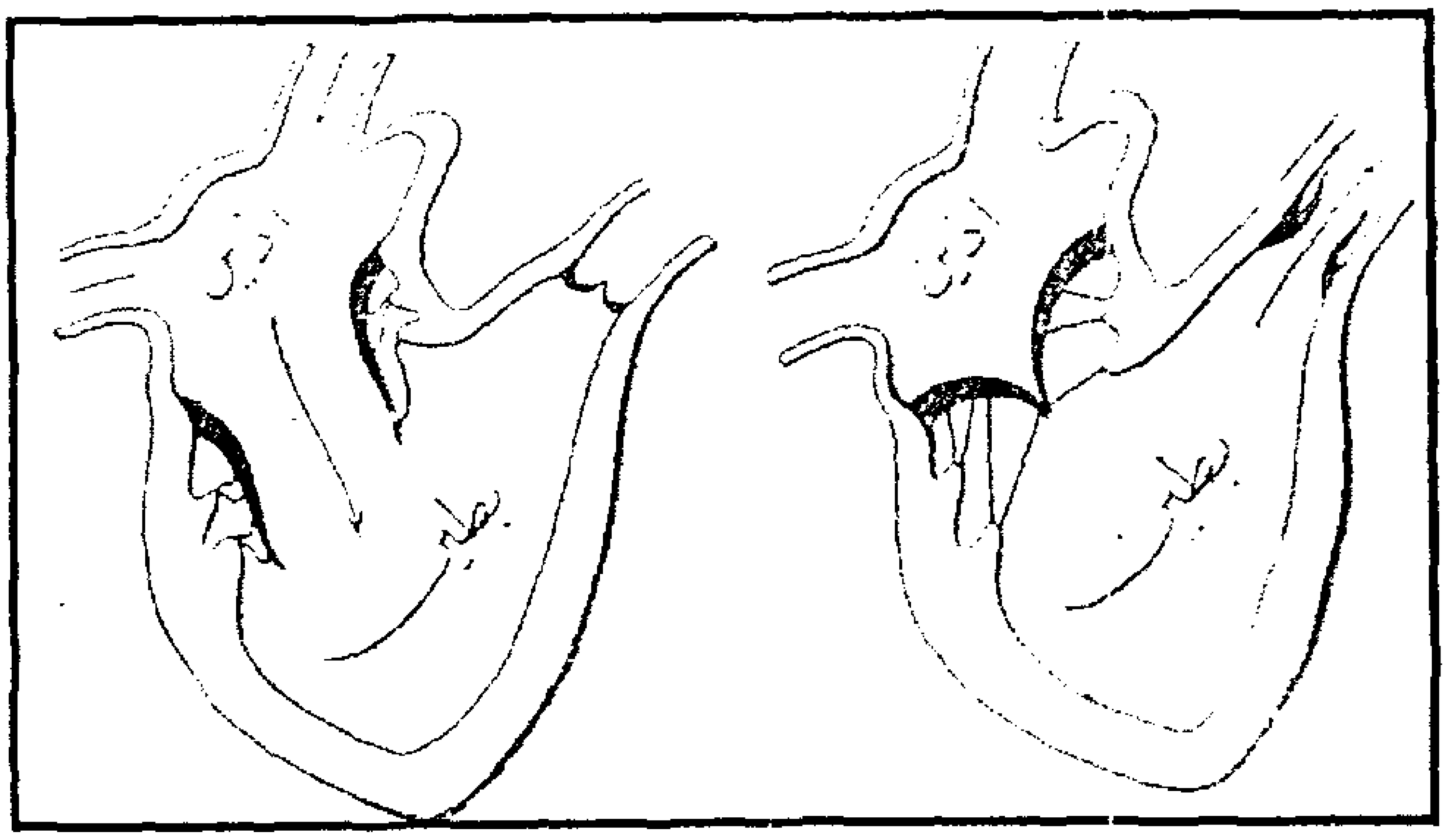

رسم بياني للقلب في حالتي انقباضه وانبساطه يبين موضع الشرفات (على اليمين) في حالة انقباض البطينين (على اليسار) في حالة انبساط البطينين

ويرى مما سبق أن هناك دورتين:

(الأولى) الدورة الدموية الصغيرة أو الرئوية وهي عبارة عن مرور الدم من البطين الأيمن إلى الرئتين ثم عودته إلى الأذين الأيسر.

(الثانية) الدورة الكبيرة وهي عبارة عن مرور الدم من البطين الأيسر في الأورطى إلى بقية أجزاء الجسم ثم عودته إلى الأذين الأيمن بواسطة الوريدين الأجوفين.

المحاضرة الثانية في التشريح

الجهاز التنفسي

الجهاز التنفسي هو مجموعة الأعضاء المختصة بعملية التنفس التي هي عبارة عن أخذ الأكسجين اللازم للجسم من الهواء وإخراج ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء. وغاية هذه العملية هي احتراق المواد السكرية الموجودة في منسوجات الجسم للحصول على الطاقة التي تستعمل في تأدية الأعمال. وإذا نفدت المواد السكرية من الجسم اتحد الأكسيجين مع المواد الدهنية للوصول إلى الغاية نفسها، وإذا نفدت المواد الدهنية اتحد الأكسيجين مع المواد الزلالية المدخرة في الجسم، وإذا استمر الأمر اتحد مع المواد الزلالية المكونة لخلايا الجسم نفسها، وكل هذا يحصل بالتتابع في أثناء التجويع أو الصوم المستمر.

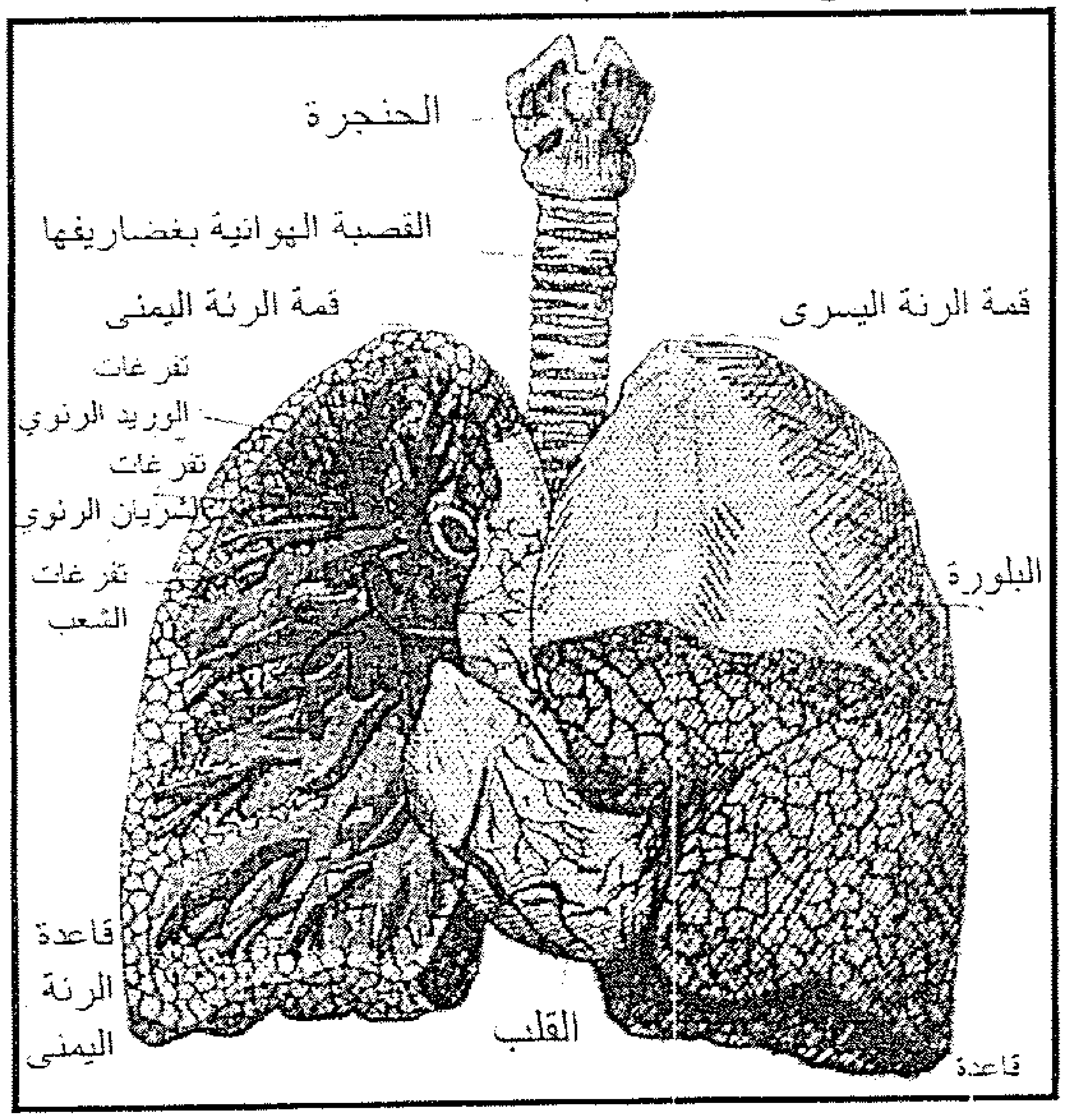

الشكل الخارجي لأعضاء التنفس

وتتلخص أعضاء التنفس

١- الأنف :

عضو غضروفي عظمي بارز في وسط الوجه له فتحتان أماميتان تتصلان بالوسط الخارجي (الهواء) وفتحتان خلفيتان تتصلان بأعلى البلعوم. وبوسط الأنف حاجز عمودي يفصل تجويفه إلى حجرتين مستقلتين، وبكل حجرة توجد عظام ملتوية ليزداد سطح الأنف الداخلي المعرض للهواء، وينمو عند فتحتي الأنف الأماميتين شعر قليل متقاطع فائدته منع الأتربة والمواد الغريبة من الدخول مع الهواء.

وتبطن الأنف بغشاء مخاطي تنتشر في المنطقة العليا منه ألياف العصب الشمي وتمتد فيه كثير من الأوعية الدموية، فائدتها تسخين الهواء قبل وصوله إلى البلعوم.

ويفرز الغشاء المخاطي مادة مخاطية تحفظ أسطح التجاويف الأنفية رطبة على الدوام، كما أنها ترطب الهواء الداخلي إذا كان جافاً. ومما سبق تتبين جلياً فائدة التنفس عن طريق الأنف وضرر التنفس عن طريق الفم إذ يصل الهواء في الحالة الأخيرة إلى المسالك الهوائية بارداً محملاً بمواد غريبة.

٢- البلعوم :

البلعوم أنبوبة عضلية غشائية قصيرة تقع خلف تجاويف الفم والأنف وأمام العمود الفقري العنقي ويتصل به من أعلى فتحتا الأنف الخلفيتان ومن الأمام فتحة تجويف الفم الداخلية ومن أسفل فتحتا المريء والحنجرة.

٣- الحنجرة :

الحنجرة هي الجزء العلوي من الأنبوبة الهوائية، والحنجرة حجرة غضروفية متسعة نوعاً مكونة من ثلاثة غضاريف: الأول أو العلوي منها ناقص الاستدارة من

خلف وعريض وبارز من الأمام ويعرف الجزء البارز منه بتفاحة آدم، والثاني كامل الاستدارة، والثالث مكون من قطعتين موضوعتين فوق الغضروف الثاني من خلف ويمتد الحبلان الصوتيان بينهما وبين السطح الخلفي للغضروف الأول والحنجرة عضو الصوت.

٤- القصبة الهوائية:

القصبة الهوائية تلي الحنجرة مباشرة وهي أنبوبة مرنة متسعة ومفتوحة على الدوام وهذا ناتج عن وجود حلقات غضروفية ناقصة الاستدارة من الخلف ويقرب شكلها من كاسة السين تحاط هذه الغضاريف بمنسوجات ليفية وعضلية تربط الحلقات بعضها ببعض وتتم إقفالها. ويمتد المريء خلف القصبة الهوائية مقابلاً للجزء الناقص من الغضاريف وبذا يسهل تمدده عند مرور الطعام فيه.

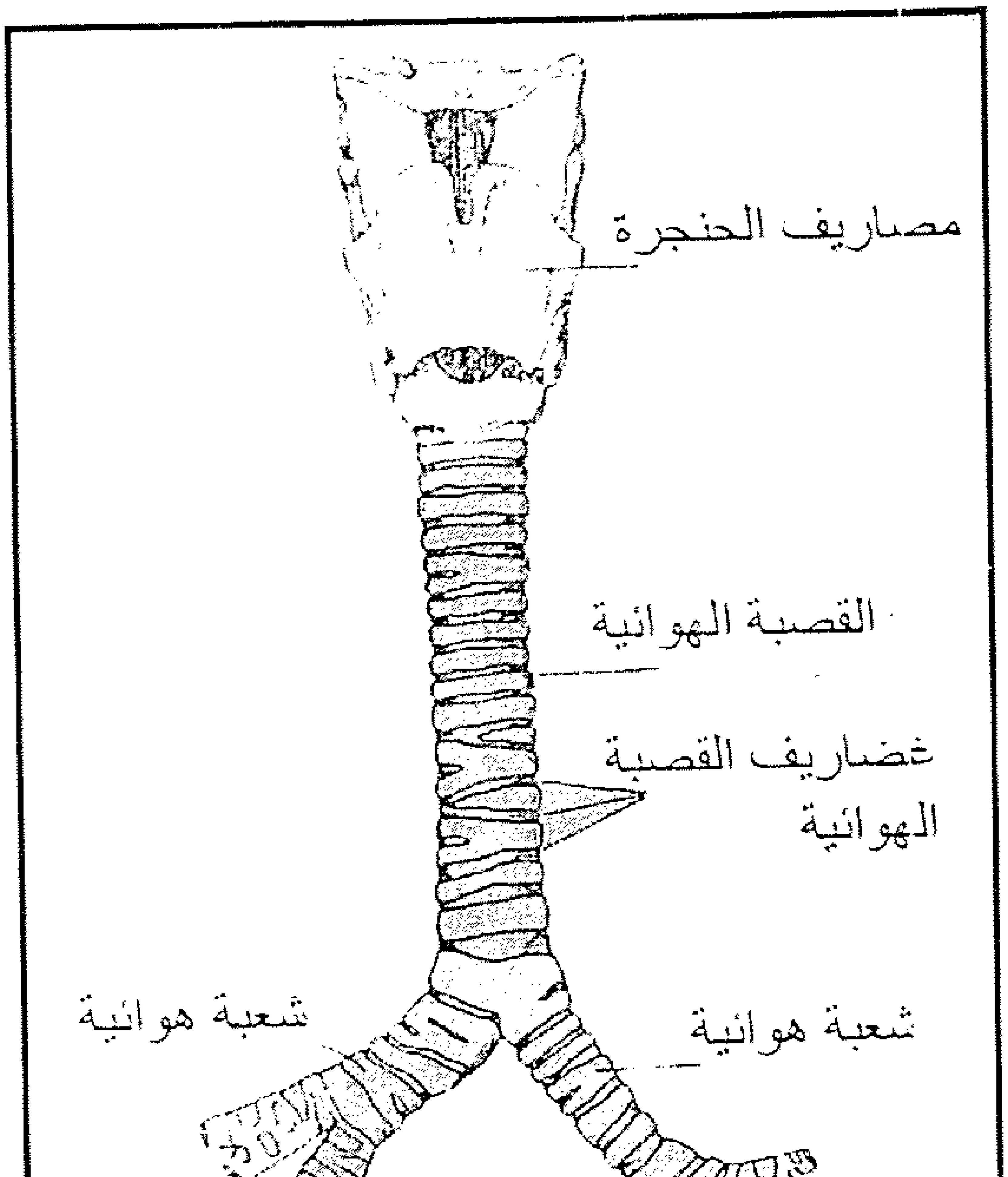

القصبة الهوائية وفروعها

ويبلغ طول القصبة الهوائية نحو ١٢ سنتيمتراً وتمتد في أسفل العنق وأعلى التجويف الصدري حيث تتفرع إلى فرعين يسميان بالشعبتين ويتصل كل فرع بالرئة المقابلة له ويتفرع فيها إلى فروع أصغر فأصغر تسمى بالشعيبات.

تتخلل جميع أجزاء الرئة وتنتهي بمجموعات من تجاويف تسمى بالحويصلات الهوائية، وتحيط الشعيبات الكبرى غضاريف ناقصة تتلاشى تدريجياً كلما صغر حجم الشعيبات ولا توجد بالمرة في الشعيبات الدقيقة.

وتبطن كل من الحنجرة والقصبة الهوائية وفروعها الكبيرة بطبقة رقيقة من غشاء مخاطي به خلايا هدبية سطحها الداخلي مغطى بزوائد كثيرة رقيقة وقصيرة.

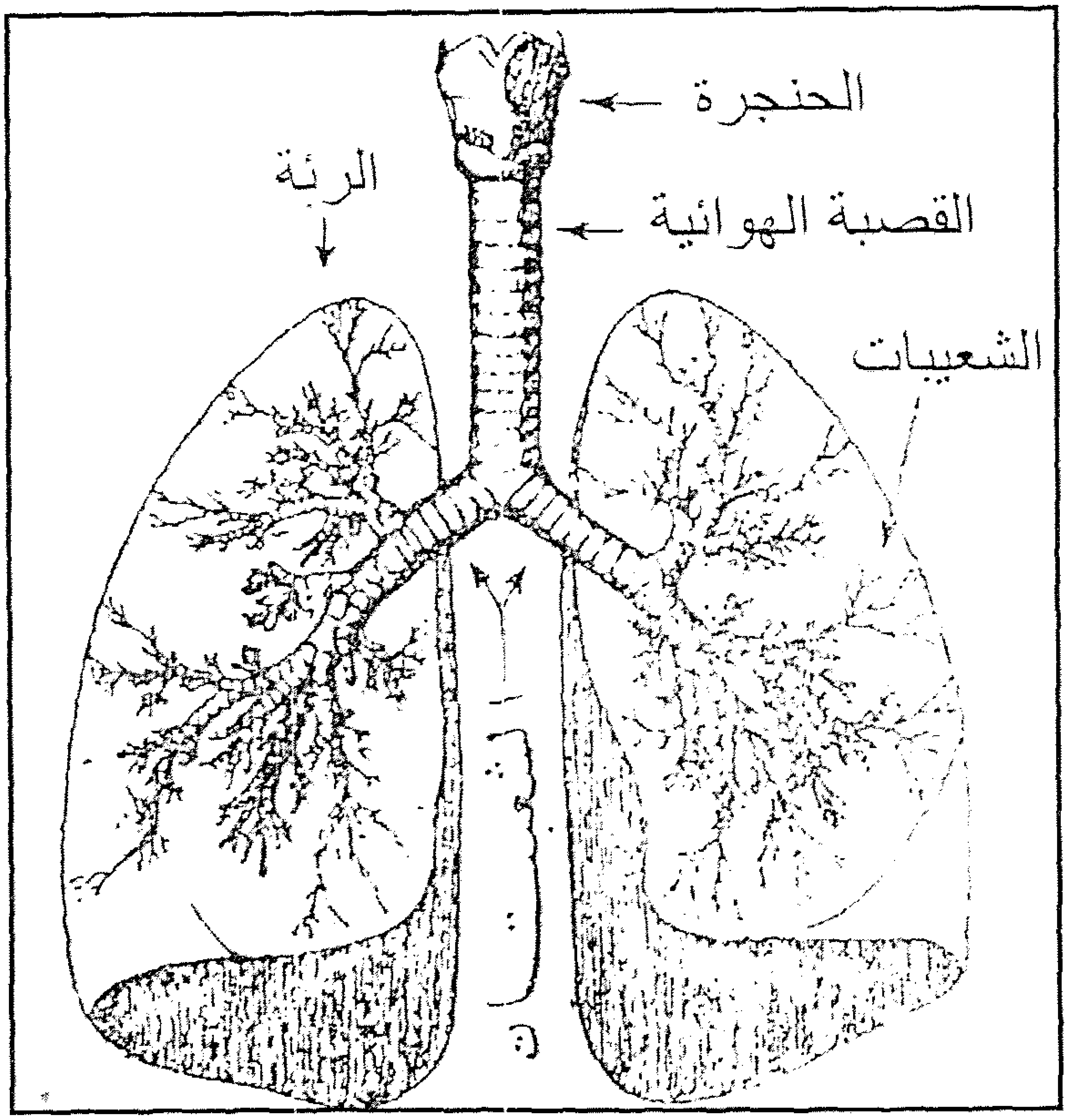

الرئتان وتفرع القصبة الهوائية فيهما

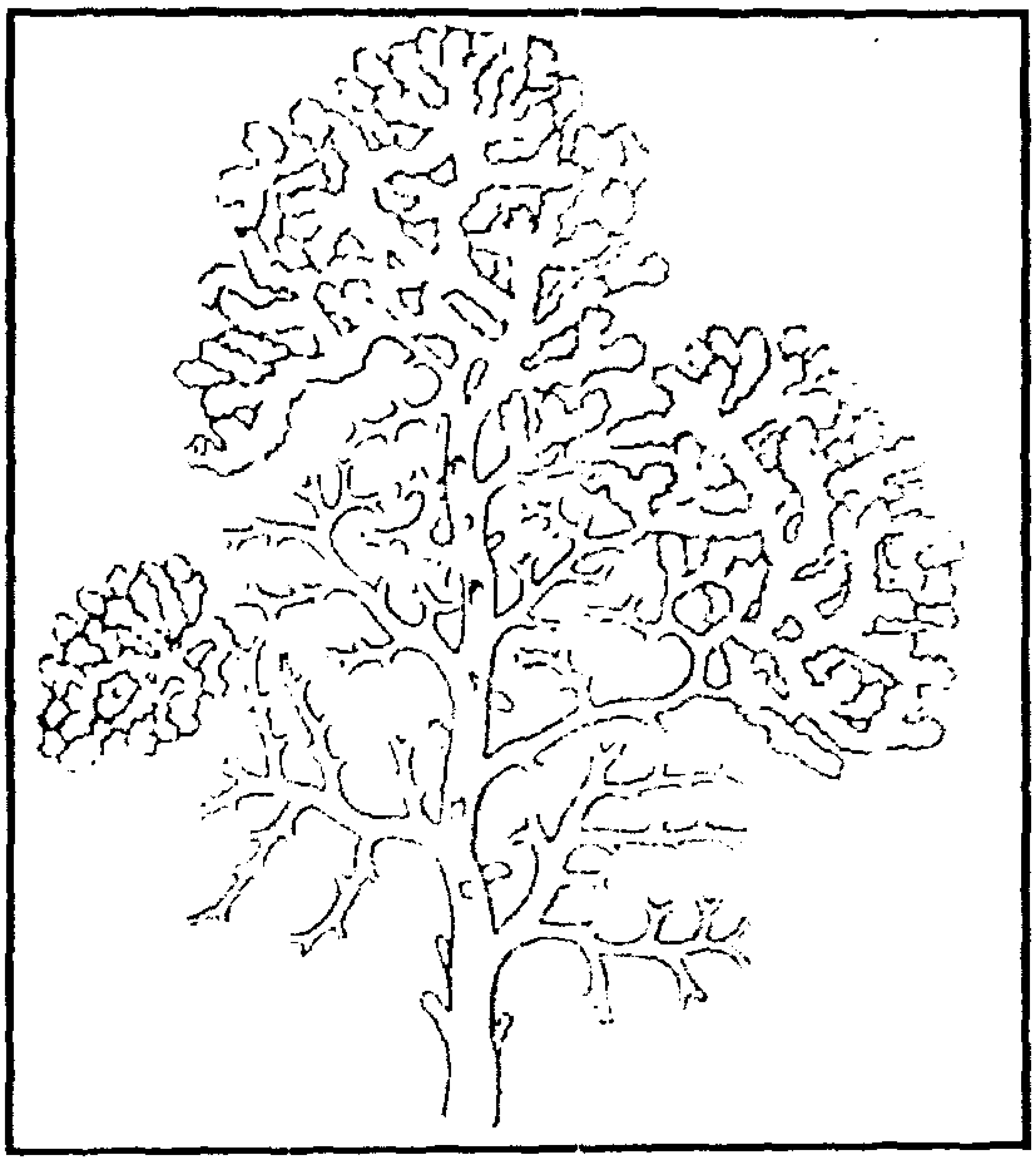

الحويصلات الهوائية × ٣٠٠

وتتحرك هذه الأهداب حركة مستمرة من أسفل إلى أعلى تساعد على طرد أية مادة غريبة في هذه الأنابيب نحو الفم. وبهذه الطريقة تطرد ذوات التراب وما شابهها الداخلة مع هواء التنفس إلى الخارج.

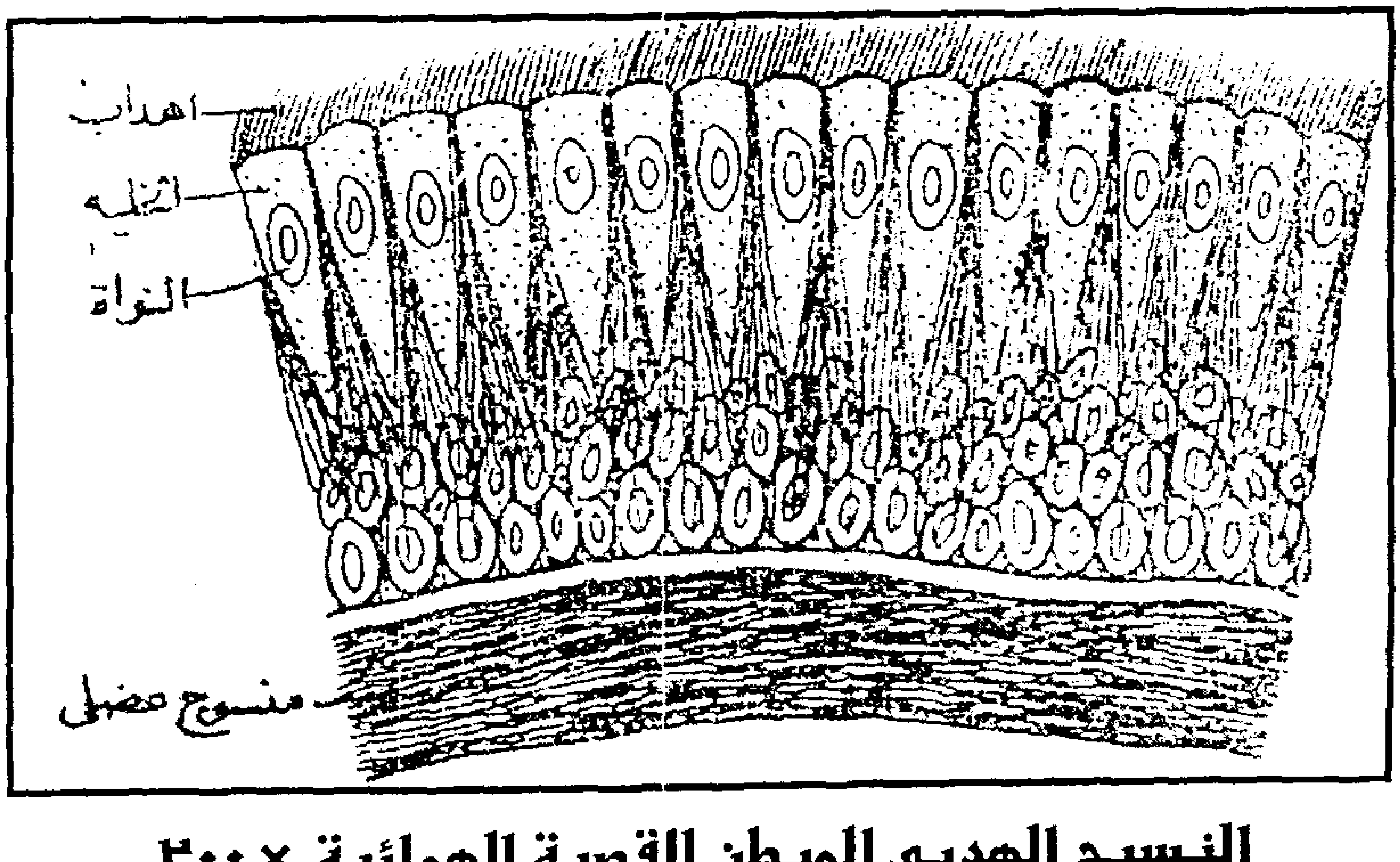

النسيج الهدبي المبطن للقصبة الهوائية × ٣٠٠

٥- الرئتان:

للإنسان رئتان تملآن الجزء الأكبر من الفراغ الصدري، والرئة اليمنى منهما أكبر من اليسرى وتتركب من ثلاثة فصوص أما اليسرى فتتركب من فصين، ويتجزأ كل فص بدوره إلى فصيصات صغيرة. والرئة عضو إسفنجي مرن خفيف الوزن ذو لون قرنفلي في الأطفال ولكنه يتغير إلى لون رمادي ثم يصير قاتماً لكثرة ما يصل إلى نسيجه من الأتربة والمواد الغريبة.

وتتركب الرئة من نسيج مرن يتخلله عدد كبير من الأنابيب الهوائية والحويصلات والأوعية الدموية.

تبطن جدر العلبة الصدرية من الداخل بغشاء رقيق يسمى البلورا ويلتف هذا الغشاء أيضاً حول كل من الرئتين، وتوجد بين الغشائين مادة لتسهيل احتكاك الرئتين بجدر الصدر.

ووظيفة الرئتين تنقية الدم أي تحويله من دم وريدي إلى دم شرياني ويصل الدم الوريدي إلى الرئتين في أوعية آتية به من القلب.

« فائدة التنفس في إعطاء الطاقة الحيوية »

لأجل أن ينتقل قطار من مكان إلى آخر لابد له من قوة تحرك عجلاته، والقوة التي تستعمل لتسيير القطار هي الناشئة عن احتراق (أكسدة) الفحم (الكربون) إذ باتحاد الكربون مع الأكسيجين ينفرد مجهود (طاقة) على شكل حرارة تحول الماء إلى بخار، وهذا البخار عندما يحبس ولا يجد له منفذاً يضغط على آلات خاصة تحرك ذراع القاطرة فتدور العجلات وبذا ينتقل القطار من مكان إلى آخر ولأجل أن يحرك حيوان من مكان إلى مكان لابد له من مجهود يصرفه حتى يتمكن من الانتقال إلى المكان المراد. ويحصل الحيوان على المجهود اللازم له من احتراق (أكسدة) المادة الغذائية الموجودة في

جسمه وينفرد غاز ثاني أكسيد الكربون (كما ينفرد عند احتراق الفحم في فرن الوابور) ويخرج من الرئتين عند التنفس.

والمجهود الناتج لا يستنفذه الحيوان في الحركة فقط بل في أغراض أخرى كإنتاج حرارة جسمه أو في التفاعلات الكيميائية التي تحصل في أنسجته والتي هي في معظم الأحوال عمليات أكسدة.

من ذلك يستنتج أن التنفس في الكائنات الحية هو عملية، الغرض منها انفراد المجهود أو الطاقة ليتمكن الكائن الحي من القيام بوظائفه الحيوية. ولأجل الحصول على هذا المجهود تتأكسد المواد العضوية الموجودة في جسمه فتتحلل إلى مواد أبسط منها، وذلك بأن تتحول الكربوهيدرات والدهون إلى ماء وغاز ثاني أكسيد الكربون وتتحول البروتينات إلى بولينا ومواد أخرى.

ولأجل أن تتم هذه العمليات الكيميائية لابد من الحصول على الأكسيجين، فيحصل الإنسان والحيوانات الهوائية التنفس على الأكسيجين اللازم لها من الهواء الجوي وتحصل الحيوانات المائية التنفس على الأكسيجين اللازم لها مما هو ذائب منه في الماء.

آلية التنفس (ميكانيكية التنفس):

يحصل التنفس في الإنسان بدخول الهواء إلى الرئتين وتعرف هذه العملية بالشهيق ثم خروجه منهما وتعرف هذه العملية بالزفير.

تحدث عملية الشهيق بواسطة انقباض عضل الحجاب الحاجز فيقل تحدبه من جهة الصدر، وفي الوقت نفسه تنقبض العضلات الخارجية الموجودة بين الضلوع فتتحرك الضلوع حركة علوية أمامية جانبية فيزداد بذلك حجم الفراغ الصدري فتتمدد الرئتان ويندفع الهواء الجوي إذ ذاك فيهما.

وتعقب الشهيق مباشرة عملية الزفير التي تحدث من ارتداد الحجاب الحاجز والضلوع بانقباض عضلاتها الداخلية إلى موضعها الأصلي فيقل حجم الفراغ الصدري فيخرج الهواء الزائد من الرئتين.

وتعقب الزفير فترة قصيرة ثم يبتدئ شهيق آخر وهكذا. ولا يخرج كل الهواء الموجود في الرئتين عند الزفير بل يبقى بهما جزء كبير حجمه ٢٥٠٠ سنتيمتر مكعب تقريباً، أما ما يدخل أثناء الشهيق وما يخرج عند الزفير فيبلغ في التنفس الاعتيادي ٥٠٠ سنتيمتر مكعب ويخرج مع الزفير مقدار من غاز ثاني أكسيد الكربون وكمية من بخار الماء ويمكن التحقق من وجود ثاني أكسيد الكربون بالنفخ في ماء الجير الذي يتعكر لتكوين كربونات الجير فيه، ومن وجود بخار الماء بالنفخ على سطح لامع بارد كسطح المرآة.

ويبين الجدول الآتي تحليل الهواء قبل دخوله في الجهاز التنفسي وبعد خروجه منه:

الهواء	قبل الدخول	بعد الخروج
أكسيجين	٪٢٠.٩٦	٪١٦.٤
أزوت	٪٧٩	٪٧٩.٥
ثاني أكسيد الكربون	٪٠.٠٤	٪٤.١
درجة الحرارة	تكون كدرجة حرارة الجو	تكون ٥٤

ويتنفس الإنسان الكامل النمو نحو ١٥ مرة في الدقيقة ومن ذلك يمكن تقدير كمية الهواء اللازم له في مدة معينة، ففي الأربع والعشرين ساعة مثلاً يحتاج إلى:

١/ ٢ لتر × ١٥ تنفس × ٦٠ × ٢٤ ساعة = ١٠٨٠٠ لتر من الهواء.

ومن هذا تظهر ضرورة تهوية الأماكن التي يعيش فيها خصوصاً إذا لاحظنا أن غاز ثاني أكسيد الكربون في حد ذاته سام إذا كثرت كميته في الهواء.

ويختلف عدد مرات التنفس باختلاف السن وحالة نشاط الجسم، فعندما يقوم الإنسان بعمل عضلي عنيف كالعدو مثلاً يحتاج إلى صرف مجهود كبير ولذا يضطر إلى التنفس بسرعة ليحصل على الأكسيجين اللازم لأكسدة ما تحويه أنسجة جسمه من المواد الغذائية والتخلص مما ينتج عن هذا التأكسد.

الدورة الدموية الرئوية:

يندفع الدم الوريدي من القلب في الشريان الرئوي الذي يتفرع إلى فرعين يتجه كل منهما إلى رئة ويتفرع كل فرع بدوره إلى فريعات تنتهي في آخر الأمر إلى شعيرات دقيقة تنتشر في جدران الحويصلات الهوائية.

وبالنسبة إلى رقة جدر الحويصلات الهوائية والشعيرات الدموية تتبادل الغازات الموجودة في كل من الحويصلات الهوائية والشعيرات الدموية التي تحيط بها فيمر غاز ثاني أكسيد الكربون من الدم إلى الحويصلات الهوائية ويمر الأكسيجين من الهواء إلى الدم، وفي هذه الشعيرات يتحول الدم الوريدي المحمل بثاني أكسيد الكربون إلى دم شرياني نقي مؤكسد ذي لون قرمزي.

ويتجمع الدم النقي في أوردة صغيرة تتحد بعضها مع بعض وتكون في النهاية الأوردة الرئوية التي تصب محتوياتها في الأذين الأيسر للقلب وعندما يتوزع هذا الدم الشرياني في الجسم يعطي أكسجينه للمنسوجات المحتاجة إليه أي يؤكسد الأغذية المحتوية عليها وينتج عن ذلك:

(أولاً) انطلاق المجهود الذي كان كامناً في هذه الأنسجة.

(ثانياً) تكوين مواد متخلفة عن التأكسد، أهمها الماء وثاني أكسيد الكربون.

ويمر غاز ثاني أكسيد الكربون الناتج من التأكسد إلى الشعيرات الدموية فيتحد الدم فيصير غير نقي أو وريدياً وعندما يعود هذا الدم الوريدي إلى الرئتين ينفصل عنه غاز ثاني أكسيد الكربون ويتحمل بالأكسيجين.

أما الماء الناتج من التأكسد وكذلك بعض المخلفات الأخرى فيتخلص الجسم منها إما بواسطة الرئتين حيث تخرج مع الهواء على شكل بخار أو بواسطة الجلد على شكل عرق أو بواسطة الكليتين على شكل بول.

المحاضرة الثالثة في الإخراج

الإخراج هو فصل مواد معينة من الدم تقوم به بعض الأعضاء كالكليتين والجلد والرئتين. والغرض منه تخليص الجسم من مواد، إما أن يكون في بقائها ضرر له، وإما أن تكون زائدة عن حاجته، وإما أن تكون عديمة الفائدة له. ويسمى الإخراج في بعض الكتب بالإفراز.

١- الجلد:

يكون الجلد غطاء خارجياً حول الجسم لوقايته ويتركب من طبقتين. إحداهما خارجية تسمى البشرة، والأخرى داخلية تسمى بالأدمة.

وتتكون البشرة من جملة طبقات، الخارجية منها مكونة من طبقة قرنية تتحور تدريجياً إلى قشور.

ويختلف سمك البشرة في أجزاء الجسم المختلفة فتكون سميكة في كعب الرجل وراحة اليد مثلاً.

وعند فحص الجلد بعدسة مكبرة نجد به عدداً من الثقوب هي عبارة عن فوهات الغدد التي تخرج العرق.

وتنتشر بالبشرة ألياف عصبية قليلة ولكن لا تتخللها أوعية دموية أبداً. وتوجد بخلايا الطبقة السفلى من البشرة حبيبات ملونة يختلف مقدارها تبعاً للجنس فتوجد بكثرة في الزنوج وتكون قليلة في سكان المناطق الشمالية.

وتتركب الأدمة من ألياف ضامة مرنة يتخللها كثير من الأعصاب والأوعية الدموية والليمفاوية، وبسطحها بروزات تعرف بالحلمات يرد إليها كثير من الأوعية الدموية وأطراف الأعصاب الخاصة بالحس. وتنتشر بالجزء الغائر من الأدمة وبالطبقة التي تحتها حبيبات دهنية تختلف في القلة والكثرة تبعاً لموضعها في الجسم، وهذه المادة الدهنية عامل مهم في حفظ حرارة الجسم نظراً إلى أنها موصل رديء للحرارة.

وترجع حساسة الجلد كعضو للمس إلى انتشار الألياف العصبية في حلمات الأدمة؛ وتختلف أطراف هذه الألياف العصبية في شكلها ووظيفتها.

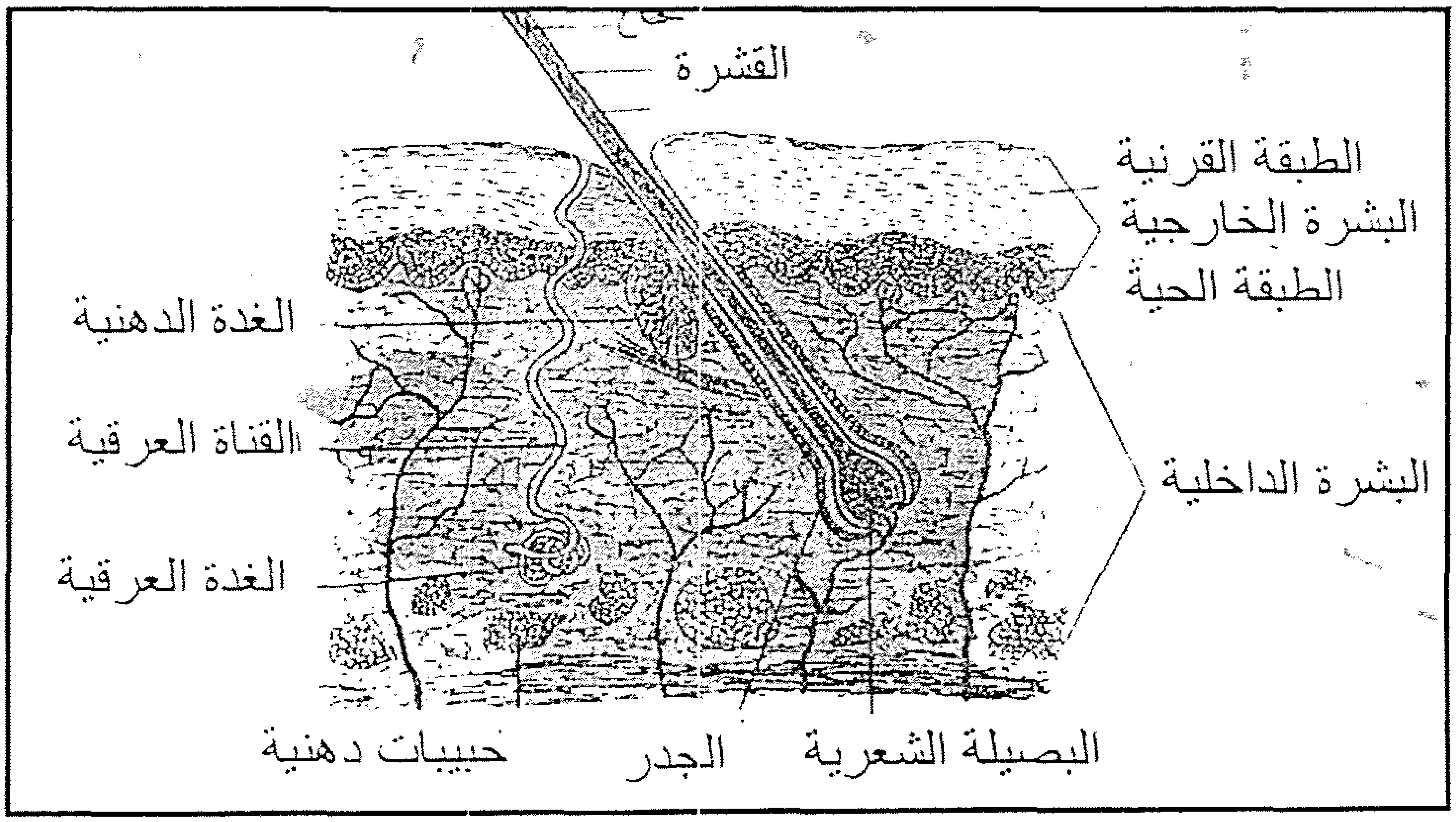

قطاع في الجلد × ٦٠

قلنا إنه يشاهد بسطح الجلد ثقوب صغيرة، كل ثقب منها هو فتحة قناة طويلة (القناة العرقية) تنتهي بجسم أنبوبي كثير الالتواء كروي الشكل تقريباً موضوع في الطبقات السفلى من الجلد ويعرف بالغدة العرقية.

وتحاط الغدة العرقية بشبكة من الشعيرات الدموية وتظهر إذ ذاك بشكل كتلة حمراء، ووظيفة هذه الغدة فصل العرق من الدم الموجود في الشعيرات السابقة الذكر.

ويتركب العرق من ٩٩٪ ماء و ١٪ مواد صلبة معظمها أملاح معدنية أهمها ملح الطعام ومواد عضوية كالبولينا.

يخرج العرق من الجسم باستمرار، بدليل أنك إذا وضعت يدك على لوح من الزجاج زمناً بسيطاً تتكون عليه طبقة من الضباب هي عبارة عن العرق الذي خرج من فوهات الغدد العرقية ويبخر ثم تكثف على سطح الزجاج البارد وصار كالضباب.

وفي العادة لا يشعر الإنسان بالعرق، لأنه يتبخر أولاً بأول حال ظهوره على سطح الجسم. ويبلغ ما يخرج من العرق يومياً ١٠٠ جرام أما عند ازدياد درجة حرارة الجو، أو عند القيام بمجهود عضلي عنيف فيزداد إخراج العرق ويظهر بشكل نقط مائية على سطح الجلد فوق فوهات الغدد العرقية.

وأهم فوائد العرق هي أنه يحفظ حرارة الجسم ثابتة تقريباً عند ارتفاع درجة حرارة الجو أو عقب القيام بمجهود عضلي عنيف، إذ أن إخراج العرق وتبخره يحفظان درجة حرارة الجسم ثابتة.

يقل إخراج العرق إذاً ببرودة سطح الجسم وذلك لقلة توارد الدم إلى الأوعية الجلدية تبعاً لانقباضها وضيقها، ويزداد إخراج العرق إذا تعرض سطح الجسم إلى درجة حرارة مرتفعة أو قام الإنسان بمجهود عنيف إذ في هذه الأحوال تتسع الأوعية الجلدية فيزداد توارد الدم إليها.

وهناك تضامن بين عمل الجلد وعمل الكليتين إذ يلاحظ أن مقدار البول يقل صيفاً لنشاط الجلد ويزداد شتاء لقلة نشاطه.

وتشاهد على سطح الجلد ثقوب أخرى هي فوهات نوع آخر من الغدد الجلدية تعرف بالغدد الدهنية التي يكثر وجودها حول مخارج الشعر وتفرز مواد دهنية تحفظ الجلد ليناً وكذلك الشعر.

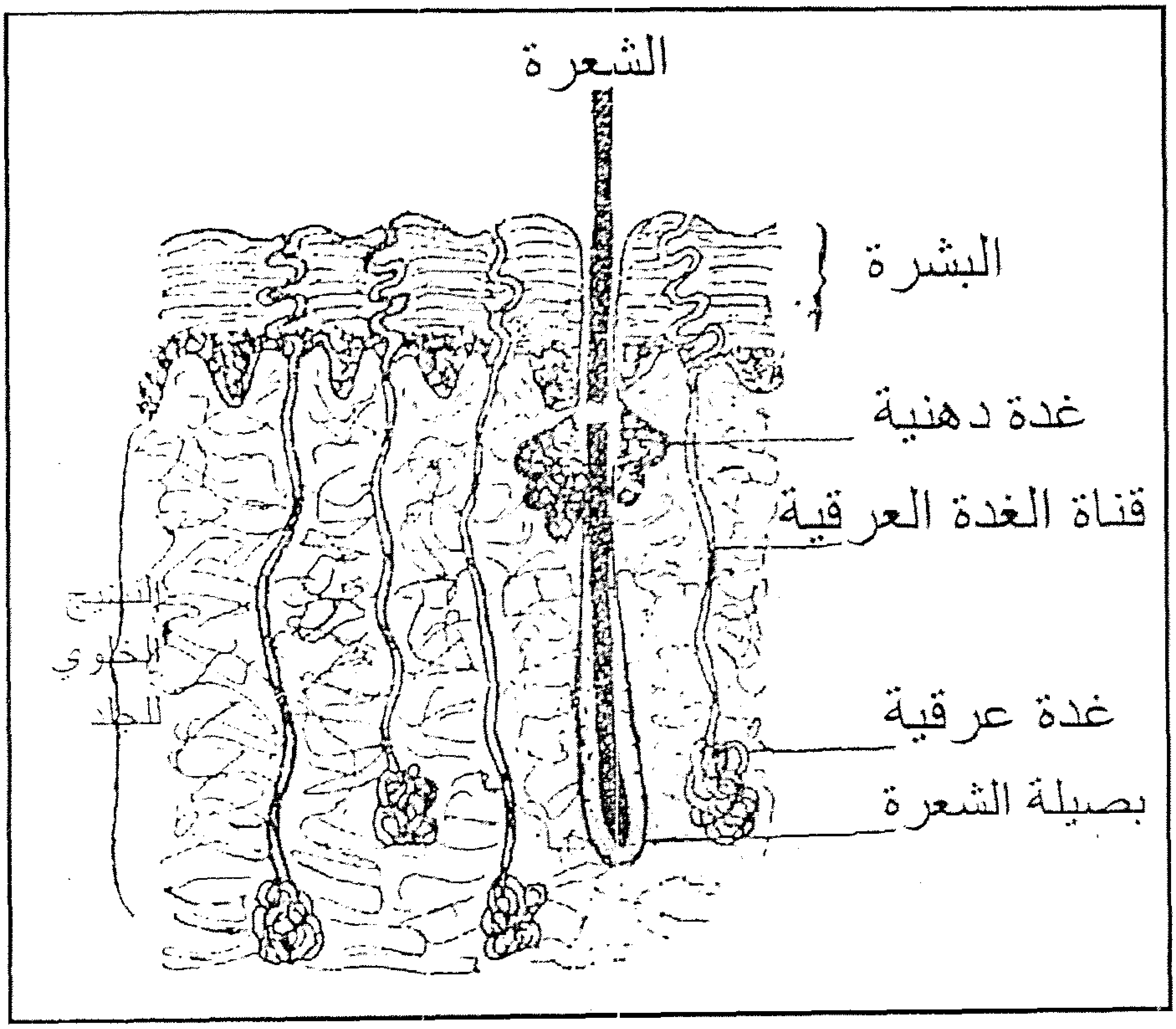

قطاع في البلد × ٣٠

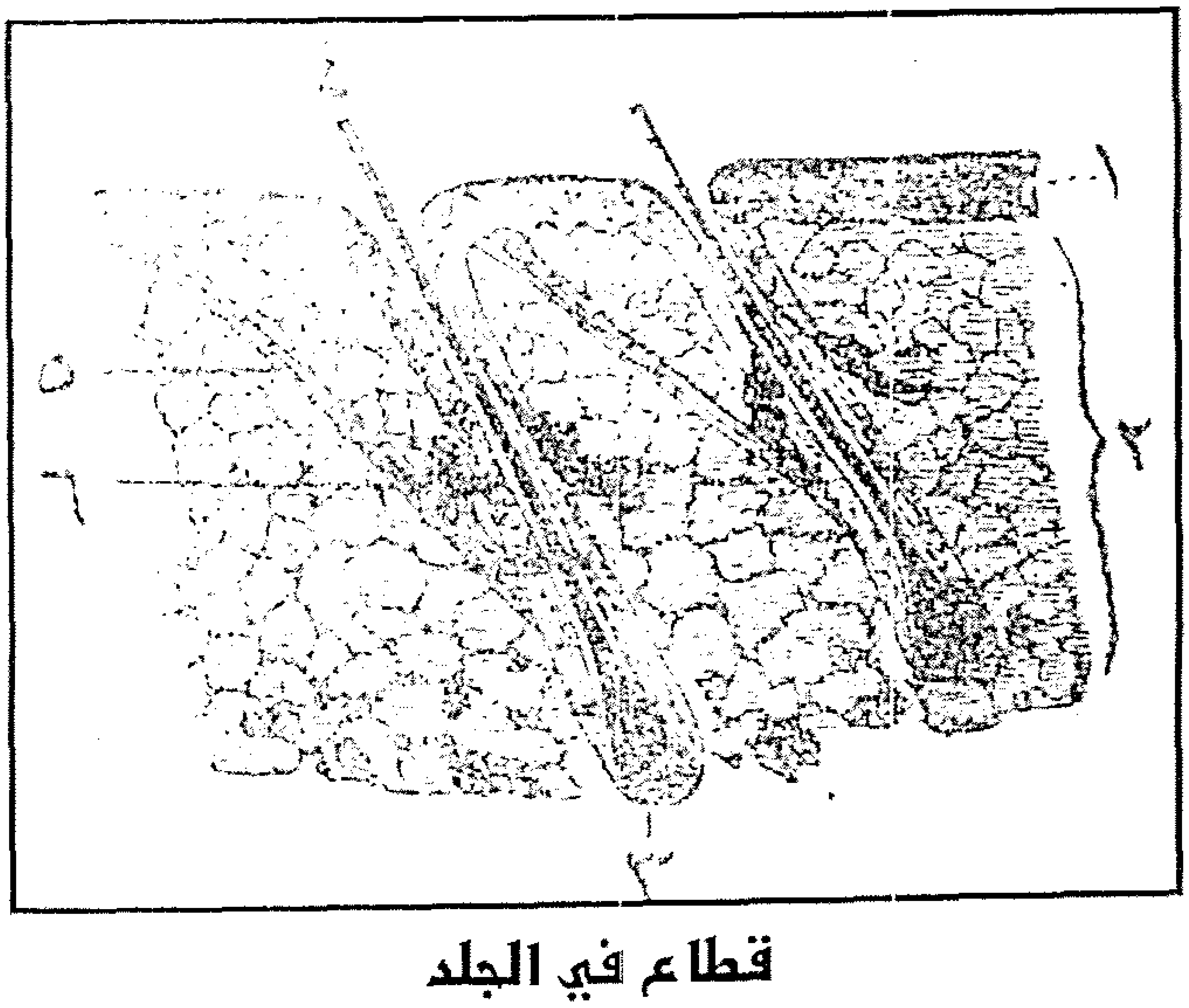

(١) القشرة
(٢) الأدمة
(٣) البصيلة الشعرية
(٤) الشعرة
(٥) العضل المحرك للشعر
(٦) الغدة الدهنية.

قطاع في الجلد

الأعضاء الجلدية:

تنمو من الجلد أعضاء مختلفة هي الأظافر والشعر. والظفر عبارة عن نتيجة تجمد طبقات البشرة وتحولها إلى مادة قرنية صلبة عند أطراف الأصابع ثم بروزها خارج الجسم، ويزداد الظفر في الطول بنمو البشرة التي أنتجته.

وأما الشعرة فتتكون أصلاً من جزء من البشرة غار داخل الأدمة وكون جزءاً منتفخاً يعرف بالبصيلة الشعرية وهي التي تنمو منها الشعرة وتتصل بقاعدة البصيلة أوعية دموية لتغذيتها وأعصاب لحساسيتها.

وتتصل بالشعر عضلات غير إرادية عند انقباضها يقف الشعر كما يحصل في حالة القشعريرة أو الفزع.

٢- الكليتان:

للإنسان كليتان موضوعتان في الجهة الخلفية من الفراغ البطني على جانبي العمود الفقري مقابل الثلاث فقرات القطنية الأولى ومستندتان على عضلات الجدار الخلفية للبطن ومدفونتان في الأنسجة المحيطة بهما المشتملة على كمية كبيرة من الدهن.

تشبه الكلية في شكلها حبة اللوبية ويبلغ طولها ١٠ سنتيمترات وعرضها ٦ سنتيمترات وسمكها ٣.٥ ووزنها ١٤٠ جراماً تقريباً.

الغدتان فوق الكلى

وللكلية حافة خارجية محدبة وأخرى داخلية مقعرة تتجه نحو العمود الفقري ويوسط الحافة الداخلية للكلية انخفاض يسمى بالسرة تمر منه الأوعية والأعصاب الداخلة إلى الكلية والخارجة منها. وتتصل بكل كلية ثلاثة أوعية هي:

(١) **الشريان الكلوي:** يتفرع من الأورطى البطني ويحمل الدم النقي إلى الكلية.

(٢) **الوريد الكلوي:** يخرج من الكلية ويحمل الدم بعد مروره فيها ويتصل بالوريد الأجوف السفلي.

(٣) **الحالب:** هو القناة التي تخرج من الكلية وتنقل ما تكونه من البول إلى المثانة.

والحالب مجرى رفيع طوله ٢٥ : ٣٠ سنتيمتراً يخرج من الكلية وينفتح في السطح الخلفي للمثانة بشق رفيع مائل يعمل كصمام فيسمح بمرور البول إلى المثانة ويمنعه من الرجوع إليه.

والمثانة كيس عضلي متين بيضي الشكل موضوع في التجويف الحوضي ويبلغ طوله نحو ١٢ سنتيمتراً. وتشتمل جدر المثانة على عضلات غير إرادية، وتبطن بغشاء مخاطي، والجزء السفلي منها ضيق ويعرف بعنق المثانة ويحاط بعضلة دائرية عاصرة تحفظه مقفلاً إلا عند اللزوم، وينفتح عنق المثانة في قناة تسمى قناة مجرى البول.

تركيب الكلية، إذا شقت الكلية طولياً يمر بالسرة أي من الجانب الخارجي إلى الداخلي، ويلاحظ أن الحالب يتصل بفراغ يعرف بحوض الكلية تبرز فيه من مادة الكلية أجزاء مخروطية الشكل تسمى أهرامات ملبيجي، وتتركب الكلية من طبقتين إحداهما داخلية تسمى بالنخاع، والأخرى خارجية تعرف بالقشرة، وتحاط القشرة بطبقة ليفية رفيعة تسمى بالمحفظة.

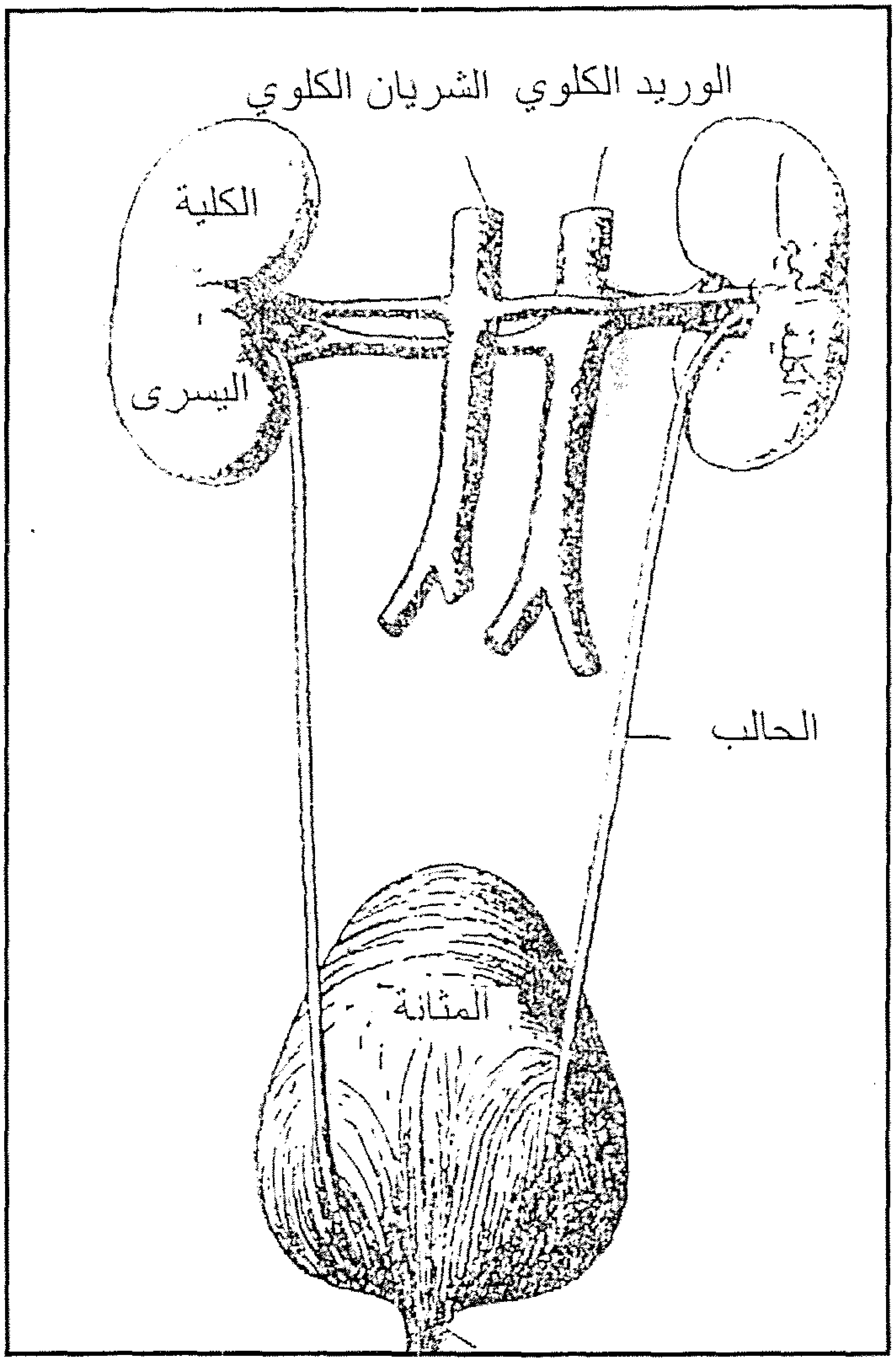

الجهاز البـولي

ينتشر بالطبقة القشرية عدد عظيم من أجسام كرية الشكل دقيقة تعـرف بكريـات ملبيجي تتصل بها أنابيب دقيقة جداً كثيرة التعرج تمتد في الطبقة النخاعية ويتجمع كـل عدد عظيم منها فيكون جسماً يعرف بأهرام ملبيجـي تفـتح أنابيبـه في حـوض الكليـة. وينتشر في الكريات وحول الأنابيب السابقة الذكر عـدد عظـيم مـن الأوعيـة الدمويـة الشعيرية.

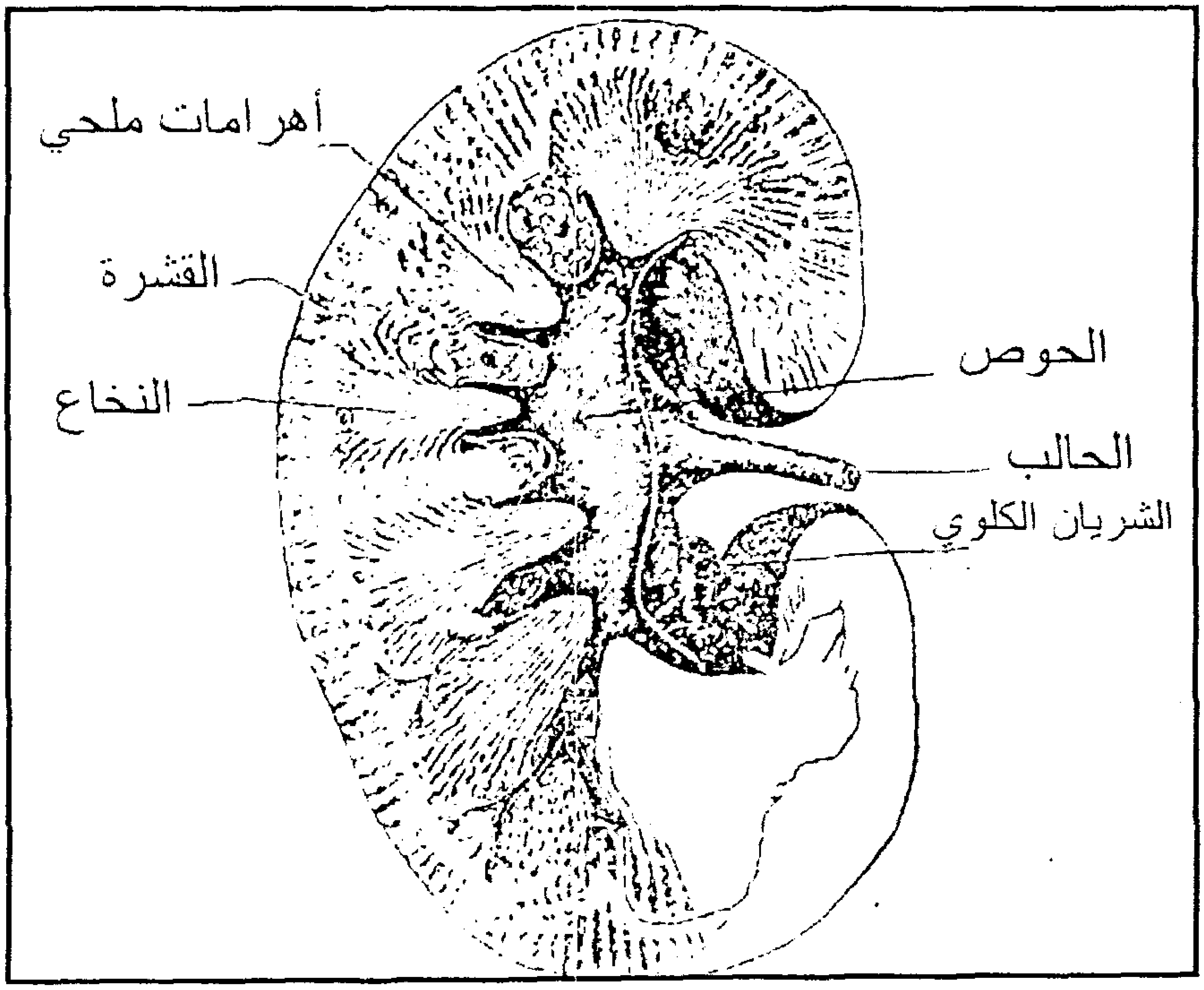

قطاع طولي في الكلية

وتقوم كريات ملبيجي والأنابيب القريبة منها بإفراز البول من الدم وتصبه في حوض الكلية حيث يمر في الحالب ويتجمع في المثانة.

تكوين البول: تكون الكليتان البول من الدم باستمرار، ويمر هذا البول من طريق الحالبين إلى المثانة نقطة فنقطة، فوظيفة المثانة إذاً هي تخزين البول فقط، وعند امتلائها به تتنبه جدرانها وتحصل بها انقباضات متوالية إنذاراً بإخراج محتوياتها وعند التبول تنقبض عضلاتها وترتخي العضلة العاصرة فيمر البول منها إلى الخارج في قناة مجرى البول.

البول: البول سائل أصفر اللون تقريباً وتأثيره في حالة الصحة حمضي ضعيف يتركب من: ٩٦٪ ماء و ٤٪ أجسام صلبة.

وهذه الأجسام الصلبة إما أن تكون عضوية أو معدنية، ومعظم العضوية هي البولينا أو أملاح حمض البوليك، وتقدر البولينا بنسبة ٢٪ من البول تقريباً.

أما المعدنية فهي أملاح الكبريتات والفوسفات والكلور ولكن أهمها ملح الطعام (كلوريد الصوديوم)، ويحتوي البول كذلك على مواد ملونة ومواد أخرى تكسبه رائحته الخاصة.

ويحتوي البول في الأحوال المرضية على مواد غريبة عنه كالزلال أو سكر العنب الأصفر أو الدم أو الصديد.

وتختلف كمية البول التي يفرزها الإنسان صحيح الجسم اختلافاً كبيراً تبعاً للطقس والطعام والشراب وتبلغ بالتقريب لتراً في اليوم.

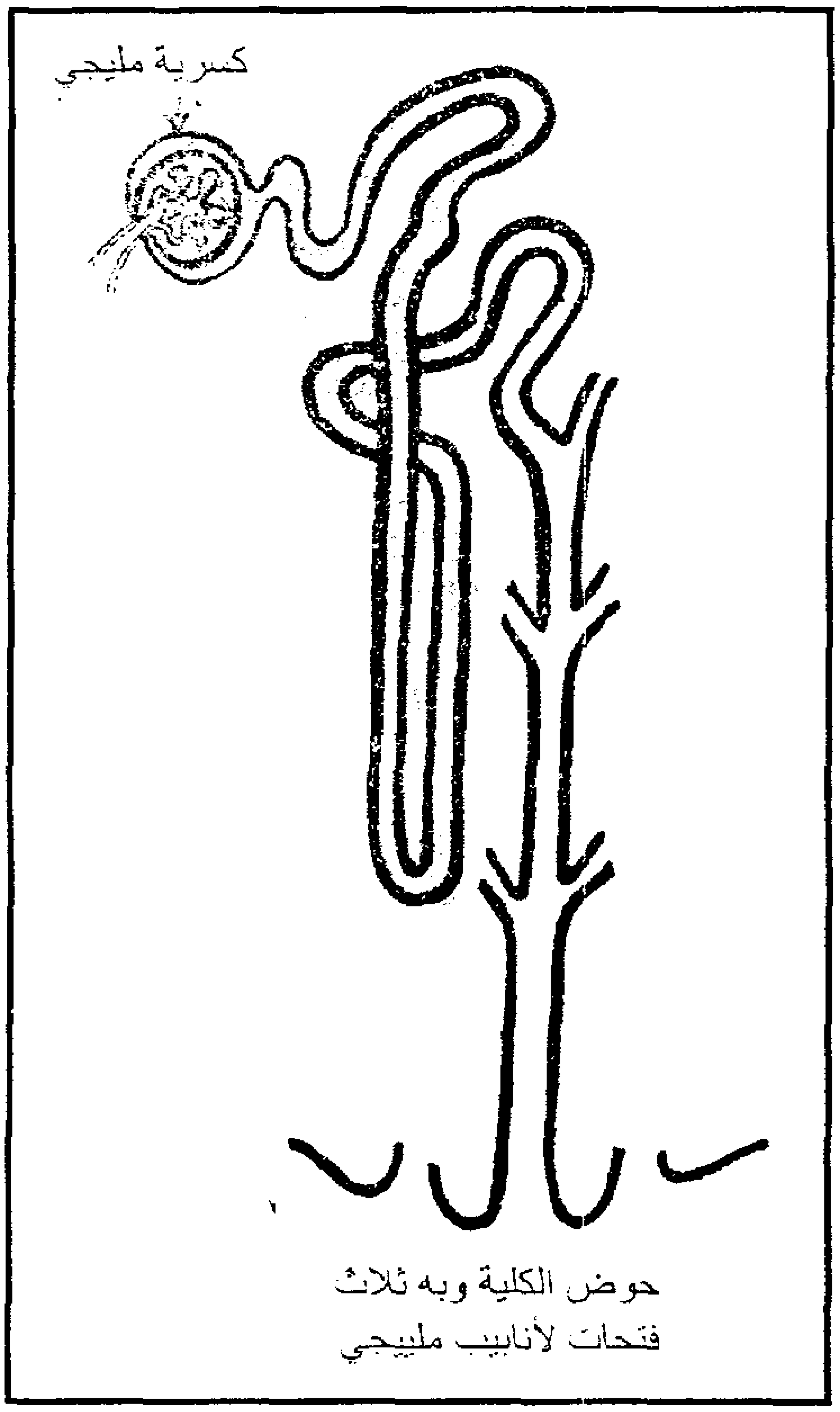

أنبوبة مليبجي مكبرة كثيراً

المحاضرة الرابعة في المجموع العصبي

يتسلط المجموع العصبي على جميع حركات الجسم تقريباً وهو الذي يتحكم في تصرفات الجسم ونشاطه كالإحساس والإدراك والإفراز وهو الذي يساعد على حدو الارتباط بين جميع الوظائف الحيوية التي يؤديها الجسم.

ويتركب المجموع العصبي من قسمين هما:

(أولاً) الجهاز العصبي المركزي ويشتمل على المخ والنخاع الشوكي (الحبل الشوكي).

(ثانياً) الجهاز العصبي الطرفي وهو مكون من الأعصاب.

المخ:

يتركب الجهاز العصبي من المخ والنخاع الشوكي والمخ هو أكبر عضو عصبي في الجسم ويملأ فراغ الجمجمة ويتركب من خلايا عصبية كثيرة الفروع وألياف عصبية يرتبط بعضها ببعض بواسطة نسيج ضام من نوع خاص ويزن مخ الرجل البالغ ثلاثة أرطال تقريباً في المتوسط .

والسطح الخارجي للمخ كثير التعريجات والثنيات ويغطى المخ بغشاء رقيق يمتد بين ثنياته يسمى الأم الحنونة وينتشر في هذا الغشاء عدد كبير من الأوعية الدموية التي تغذي المخ.

ويبطن فراغ الجمجمة المحيط بالمخ بغشاء آخر متين يسمى الأم الجافية وفائدته تغطية السطح الخشن للعظام لحماية المخ.

ويوجد بين الأم الجافية والأم الحنونة غشاء ثالث يسمى العنكبوتية يتصل في بعض المواضع بالأم الجافة من سطحه الخارجي ويفصله عن الأم الحنونة فراغ يمتلئ بسائل مصلي ونسيج رقيق وظيفتها تخفيف تأثير الصدمات الخارجية على المخ.

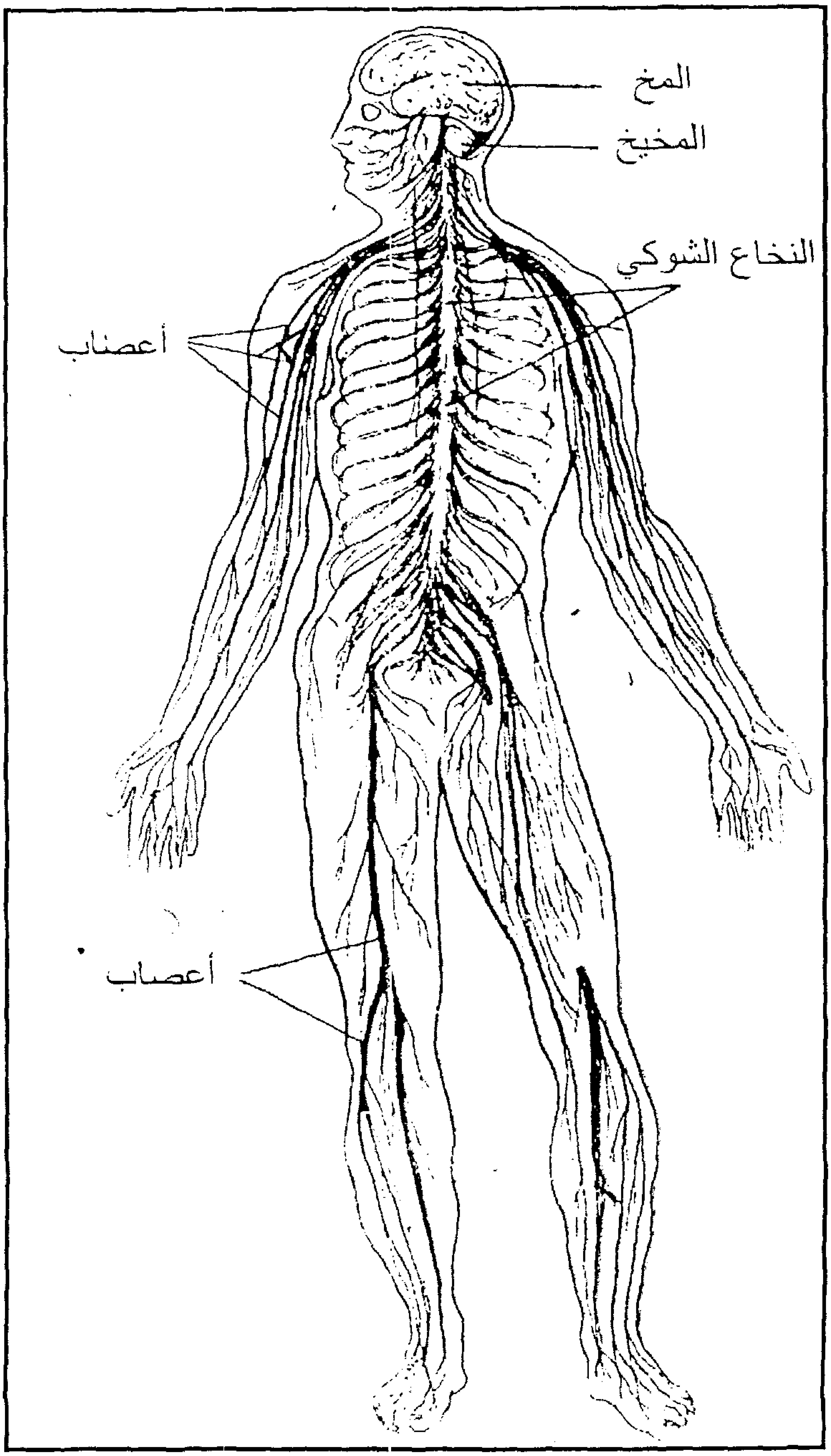

الهيكل العصبي للإنسان " مصغراً اثنتي عشرة مرة "

(١) **النصفان الكرويان:** يكونان الجزء الأكبر من المخ (تسعة أعشار تقريباً) وهما قسمان أيمن وأيسر بينهما انخفاض وسطي يمتد إلى غور بعيد ولكنه لا يفصلهما تماماً وسطحهما العلوي كثير التجاعيد والثنيات، فتزداد بذلك مساحة سطحيهما وهناك علاقة بين كثرة هذه التجاعيد وعمقها وبين قوة الإدراك. ويوجد بوسط كل من النصفين الكرويين فراغ يمتلئ بمادة سائلة.

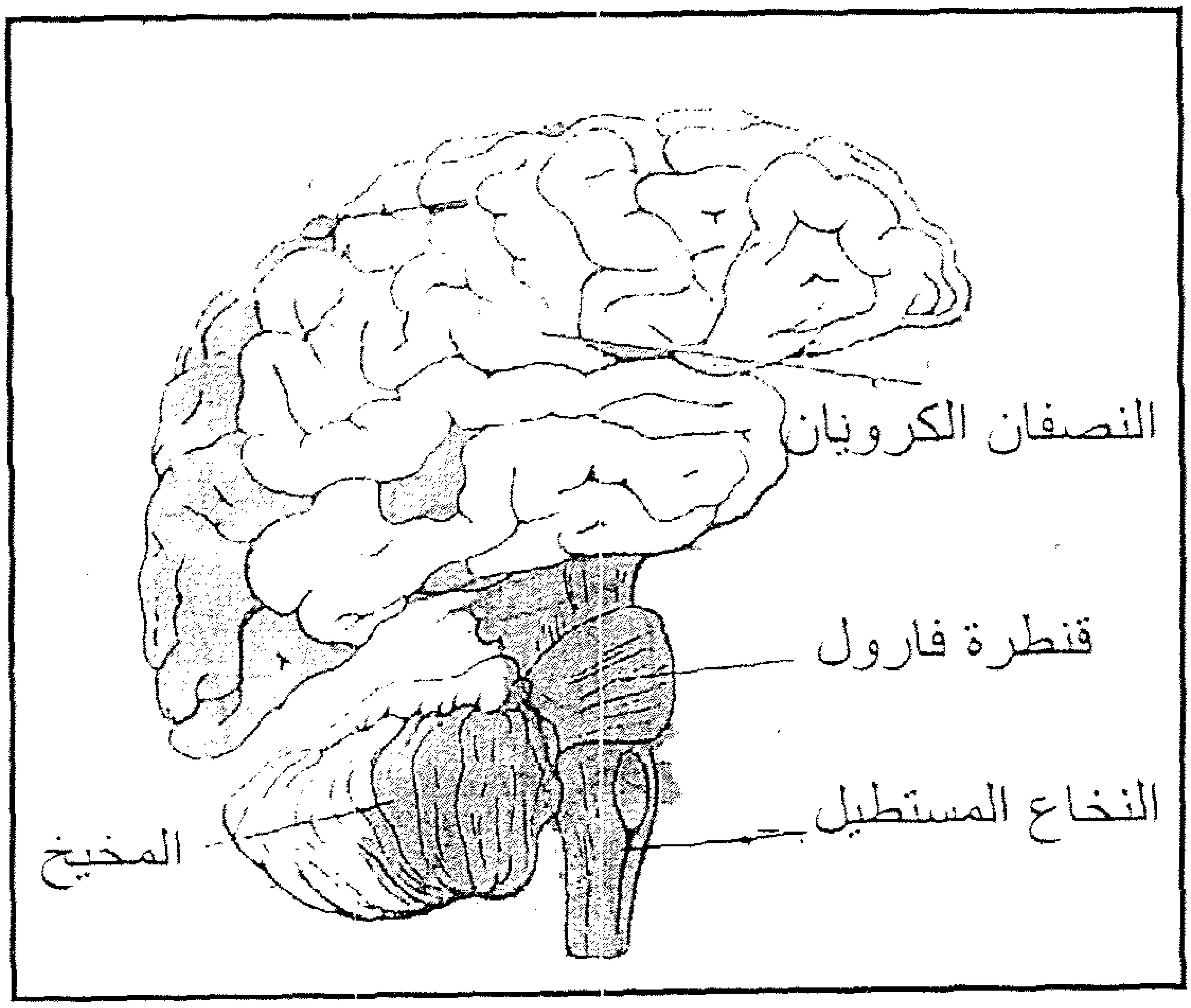

المخ

وفي النصفين الكرويين توجد مراكز الحواس، وهذه المراكز هي مجاميع من الخلايا العصبية تنتهي إليها ألياف الأعصاب الحسية المقابلة كألياف العصب البصري وألياف العصب الشمي إلخ فنجد مثلاً مركز الإبصار في الجزء الخلقي من النصفين الكرويين ونجد مركز السمع في متوسط الجزء الأسفل الجانبي من النصفين الكرويين أيضاً، والدليل على أن هذه الأماكن هي حقيقة مراكز للحس، أنه إذا أتلف أحدهما إثر حادث أو مرض أتلفت الحاسة المتضامنة مع هذا المركز وبطل عملها.

(٢) المخيخ: هو جزء صغير الحجم موضعه أسفل الجزء الخلفي من النصفين الكرويين ويتركب من فصين أيمن وأيسر بينهما فص ثالث وبسطح المخيخ ثنيات بسيطة وموازية بعضها البعض نوعاً.

ووظيفة المخيخ تنظيم الحركات العضلية وربط بعضها ببعض وحفظ توازن الجسم، إذ أنه عند حصول أي ضرر به يختل توازن حركات الجسم وليس معنى ذلك أن المخيخ هو مصدر الحركات الإرادية للجسم بل أنه المنظم لها وهو الذي يوجد الارتباط بين أعضاء الحركة.

(٣) قنطرة فارول: هي جسم عصبي يتصل من أعلاه بقاعدة النصفين الكرويين ومن خلف بالمخيخ ومن أسفل بالنخاع المستطيل ووظيفتها توصيل السيالات العصبية (التيارات العصبية) المتبادلة بين النخاع المستطيل والنصفين الكرويين.

(٤) النخاع المستطيل: كتلة عصبية توجد أسفل المخ ويبلغ طولها ٢.٥ سنتيمتر وتوصل قنطرة فارول بالحبل الشوكي.

ويتحكم النخاع المستطيل في حركات التنفس والقلب والابتلاع وينظم إفراز العرق وحجم الأوعية الدموية وغير ذلك ومنه تمر جميع السيالات العصبية الصادرة من المخ إلى النخاع الشوكي إلى المخ. وإذا أصيب النخاع المستطيل بأي ضرر نتج عنه أعراض خطرة.

النخاع الشوكي

النخاع الشوكي كتلة عصبية مستطيلة تمتد بين النخاع المستطيل داخل القناة الشوكية في العمود الفقري وهو جسم اسطواني تقريباً يبلغ طوله ٤٥ سنتيمتراً وقطره ثمانية مليمترات في المتوسط وينتهي تدريجياً في أسفله على شكل خيط رفيع. ويشتمل

النخاع الشوكي على ألياف عصبية من نوعين: أحدهما يحمل التأثير العصبي من المخ إلى الجذع والأطراف وثانيهما يحمل التأثير العصبي من سطح الجذع والأطراف إلى المخ ويشمل أيضاً مراكز الحركة الانعكاسية في هذه الأجزاء ويحاط الحبل الشوكي بثلاثة أغلفة كأغلفة المخ.

ويحسن هنا أن نذكر أن هناك ثلاثة أنواع من الحركات هي:

(أولاً) حركات إرادية أي أن الإنسان يدركها أثناء وقوعها وتتم بإرادته كحركات الأطراف والجذع المختارة.

(ثانياً) حركات غير إرادية وهي التي تتحقق بعيداً عن الإرادة كلية كمحركات القلب والرئتين والمعدة والأوعية الدموية.

(ثالثاً) حركات انعكاسية مجالها مجال الحركات الإرادية ولكنها تتم بدون تداخل الإرادة فيها كما ينقبض الذراع فجأة إذا وخز.

الحساسية

الحساسية هي قدرة الحيوان على أن يشعر بمختلف المؤثرات الخارجية أو الداخلية فينفعل طبقاً لهذه المؤثرات. ولهذا تنقسم الحساسية إلى قسمين:

(أولاً) الحساسية الخاصة: وهي ما يمكن حصرها في موضع معين من الجسم وتكون لها أضلاع خاصة تعرف بأعضاء الحس. وما تسمى بالحواس (جمع حاسة) إن هي إلا نشاط أعضاء الحس.

وتتلخص الحواس فيما يلي:

(أ) **حاسة الإبصار:** هي ما نتمكن بواسطتها من رؤية الأجسام المختلفة وأحجامها وألوانها وبعدها بعضها عن بعض وموضع هذه الحاسة العينان.

(ب) **حاسة السمع:** هي التي نتمكن بواسطتها من سماع الأصوات ومعرفة اتجاهاتها وموضع هذه الحاسة الأذنان.

(ج) **حاسة الشم:** هي التي نتمكن بواسطتها من معرفة روائح الأشياء وموضعها الأنف.

(د) **حاسة الذوق:** هي التي نتمكن بواسطتها من تذوق طعم الأشياء وموضعها اللسان.

(هـ) **حاسة اللمس:** هي التي نتمكن بواسطتها من معرفة خواص الأجسام لتعيين صلابتها ومرونتها وخشونتها أو نعومتها وتمييز البرودة أو الحرارة وقوة الضغط والآلام الجلدية وموضع هذه الحاسة الجلد.

(ثانياً) الحساسية العامة: ليس لها موضع معين بالجسم كالشبع والجوع والعطش والسرور والحزن والارتياح والتعب والرعب والبرودة والدفء ... إلخ.

وربما تمركز تأثير الإحساس العام على بعض الأعضاء فمثلاً عند الجوع الشديد يشعر الإنسان بهبوط وعدم ارتياح عام وفي الوقت نفسه قد يشعر بفراغ المعدة أو ألم فيها مع أن الجوع إحساس عام.

حاسة البصر

العين : يتركب عضو الإبصار من كرة العين المسماة بالمقلة وتتصل بها الأوعية الدموية والأعصاب والعضلات والجهاز الدمعي وتوجد جميعها داخل التجويف الحجابي في الجمجمة وترتبط المقلة بواسطة ست عضلات فائدتها تحريك العين في عدة اتجاهات. وتسند العين من الخلف ومن الأسفل وتثبتها في مركزها وسادة دهنية تزول تدريجياً كلما ازداد سن الإنسان ولهذا يلاحظ أن العين تغطس قليلاً في حالة الهرم.

وتحتفظ العين من المؤثرات الخارجية بواسطة غطاءين هما الجفنين الأعلى والأسفل. وحركة الجفن الأعلى أوسع مجالاً من حركة الجفن الأسفل. ويبطن الجفنان بغشاء مخاطي يعرف بالملتحمة يلتصق بالسطح الأمامي للمقلة. ويوجد بحافتي الجفنين شعر يعرف بالأهداب (رمش العين) وهو أطول في الجفن الأعلى منه في الجفن الأسفل، وبهما كذلك غدد تفرز مواد دهنية تمنع التصاقهما ببعضهما عند انطباقهما.

وتوجد بالزاوية الخارجية من حجاب العين غدة في حجم اللوزة الصغيرة تسمى بالغدة الدمعية تفرز سائلاً مائياً ملحي الطعم يعرف بالدمع يمر في قنوات دقيقة تنفتح على سطح الملتحمة بين الجفن الأعلى والمقلة من الخارج. ويتوزع الدمع على سطح العين ويحفظه رطباً نظيفاً. وهناك قناة تتفتح فوهتها في الزاوية الداخلية للعين وينفتح طرفها الآخر في الفراغ الأنفي تسمى بالغدة الدمعية. وفائدتها: حمل ما يزيد من حاجة العين من الدمع وصبه في الفراغ الأنفي. وقد يزداد إفراز السائل الدمعي في حالة تهيج العين لسبب أو لانفعال نفساني وإذا زاد لا تكفي القناة الدمعية لتصريف الدمع فيتدفق على الخدين.

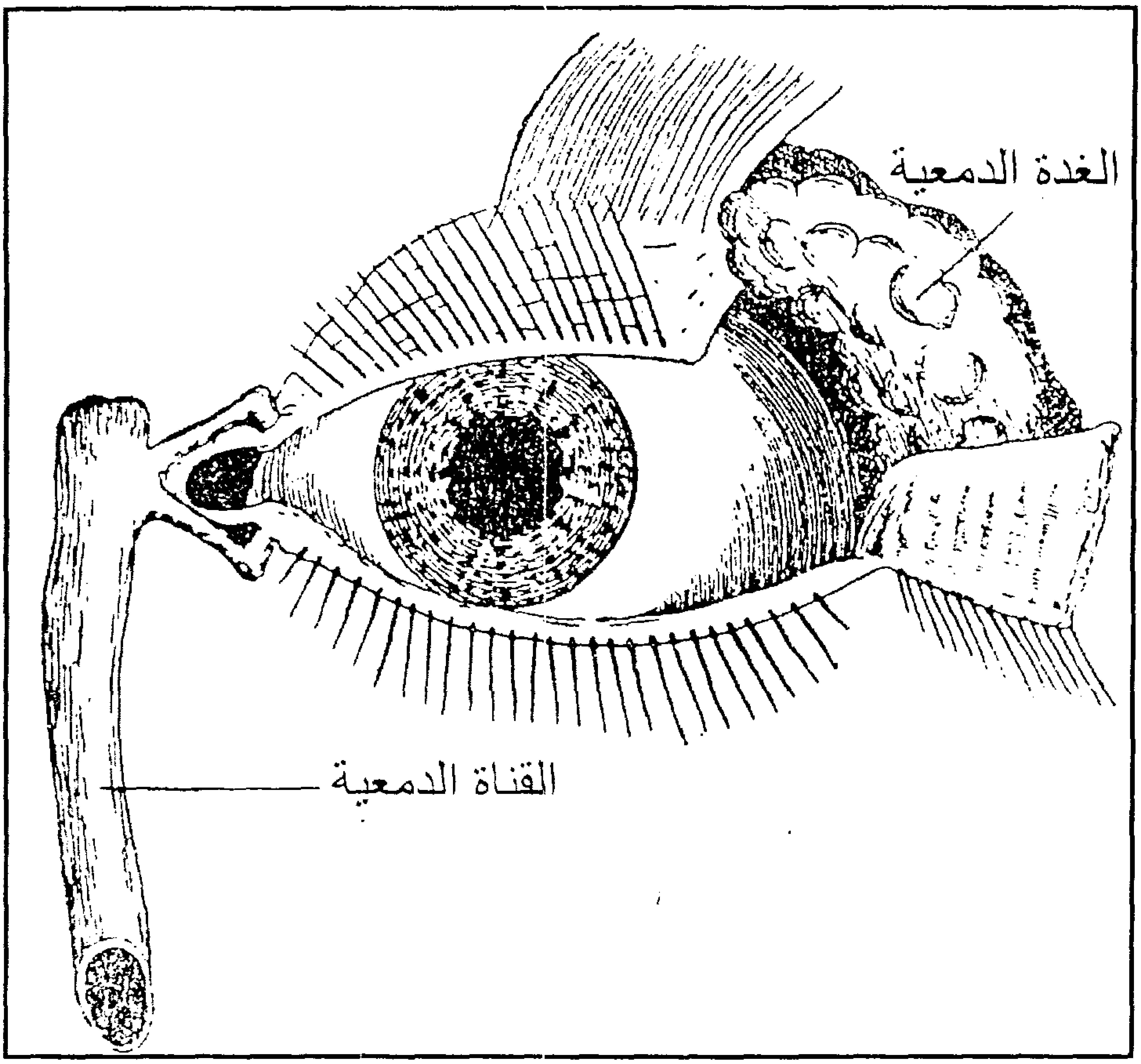

الغدة الدمعية

مقلة العين: المقلة جسم كري يبلغ ٢.٥ سنتيمتر وتتركب المقلة من ثلاث طبقات موضوعة بعضها فوق البعض وتسمى من الخارج إلى الداخل بالصلبة والمشيمة والشبكية.

فالصلبة طبقة سمكية من أغشية ليفية متبينة بيضاء تمتد حول كرة العين إلا في الجزء الأمامي منها حيث تتصل بغشاء شفاف يشبه زجاجة الساعة ويسمى بالغشاء القرني أو القرنية وتقدر مساحة القرنية بسدس مساحة العين. ومن ذلك نرى أن الجدار الخارجي للمقلة يتكون من غشاء الصلبة والقرنية ملتحمين.

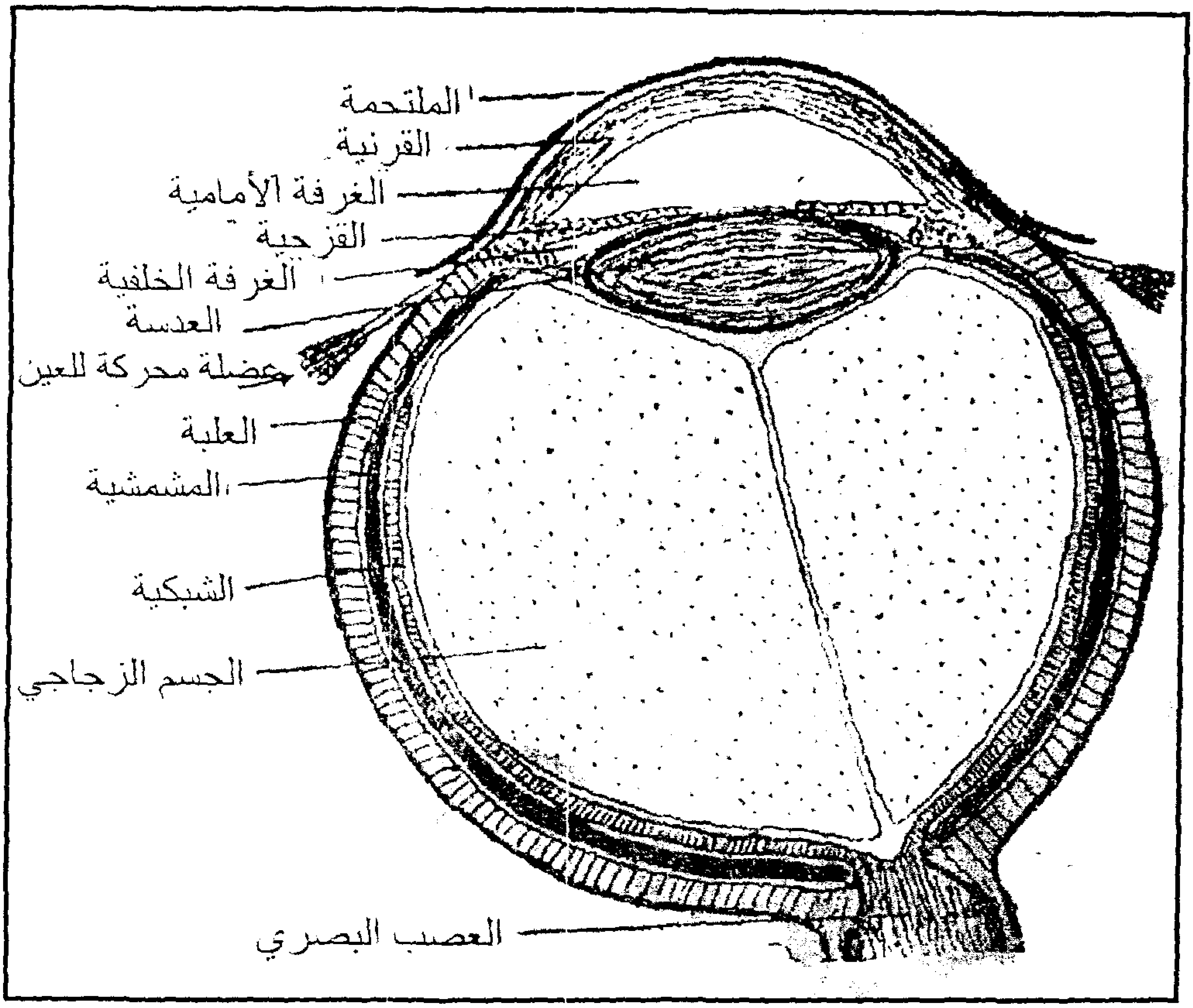

قطاع في العين

وتتصل بالسطح الداخلي لغشاء الصلبة طبقة ثانية تعرف بالمشيمة وتتركب من نسيج ضام يتخلله كثير من الأوعية الدموية وخلايا ممتلئة بمادة ملونة سوداء وتشغل المشيمة خمسة أسداس سطح كرة العين، ويتصل بأطراف المشيمة والصلبة جسم عضلي يسمى بالجسم الهدبي يخرج منه رباط مكون من ألياف رقيقة تتصل بالعدسة البلورية، ويتصل بالجزء الأمامي من الجسم الهدبي غشاء يعرف بالقزحية.

القزحية إذاً غشاء مستدير كالستار يرى خلف القرنية ويختلف لونه حسب الأفراد، لوجود خلايا مشتملة على مواد ملونة وهي التي تكسب العين لونها. وبوسط

القزحية فتحة مستديرة تعرف بالحدقة (أو النني) يمر منها الضوء إلى باطن العين، وتتركب القزحية من ألياف عضلية دائرية وأخرى شعاعية، فعند انقباض الأولى تضيق حدقة العين وعند انقباض الثانية تتسع الحدقة. ووظيفة القزحية تحديد كمية الضوء الداخلة إلى العين، فإذا كان الضوء شديداً صغرت فتحتها المركزية (الحدقة) وإذا كان الضوء قليلاً كبرت هذه الفتحة.

ويوجد خلف الحدقة جسم مستدير بلوري شفاف مرن حدب في سطحيه ولكن سطحه الخلفي أكثر تحدباً من الأمامي ويسمى هذا الجسم بالعدسة البلورية وفائدة العدسة جمع الأشعة وتركيزها وتوصيلها إلى باطن العين.

والشبكية هي الطبقة الداخلية التي تبطن تجويف العين وتشغل الأربعة أخماس الخلفية لسطح المشيمة الداخلي تقريباً. وتتركب من منسوج دقيق مكون من جملة طبقات والشبكية هي الطبقة الحساسة في العين.

وبين القرنية من الأمام والقزحية من الخلف يوجد فراغ يسمى بالغرفة الأمامية، وبين العدسة والجسم الهدبي من الخلف والقزحية من الأمام يوجد فراغ يسمى بالغرفة الخلفية وتحتوى الغرفتان على سائل ملحي يعرف بالسائل المائي وهما متصلتان معاً.

أما الجزء الخلفي من التجويف الداخلي للمقلة (أي خلف العدسة) فإنه يحتوي على جسم هلامي شفاف نصف سائل يعرف بالجسم الزجاجي.

طريقة الإبصار:

تسير الأشعة الضوئية في خط مستقيم إذا مرت في وسط واحد كالهواء أو الماء مثلاً، ولكنها تنكسر إذا مرت من وسط إلى وسط آخر، فإذا مرت الأشعة من الهواء إلى الماء أو إلى الزجاج فإنها تنكسر أي لا تسير في خط مستقيم بل تعمل زاوية مع الشعاع الأصلي.

فإذا مرت أشعة ضوئية خلال عدسة محدبة السطحين فإنها تنكسر بزاويا مختلفة وتتجمع خلف العدسة في نقطة معينة.

وإذا وضعت عدسة محدبة بين شمعة موقدة وقطعة من الورق ثم حركت العدسة إلى أن تظهر صورة الشمعة بوضوح على الورقة تلاحظ أن صورة هذه الشمعة تكون مقلوبة الوضع أي أن أعلى الشمعة يكون متجهاً إلى أسفل وبالعكس.

وتشبه عدسة العين العدسة الزجاجية المحدبة من الجهتين، وذلك أن أشعة الضوء الواقعة عليها تخرج منها منكسرة متجهة إلى مركز واحد تتجمع فيها كلها، وهذا المركز يقع في العين على سطح الشبكية. فكل نقطة من سطح أي جسم من الأجسام تنبعث منها أشعة ضوئية على سطح العدسة كلها، وهذه الأشعة بانكسارها تكون شكلاً لكل جزء من سطح الجسم، ونظراً إلى هذا الانكسار يكون شكل الجسم مقلوباً خلف العدسة كما هي الحال في آلة الفوتوغرافيا وفي قاع العين الذي يماثلها من هذه الوجهة، ويظهر هذا بوضوح في الشكل التالي.

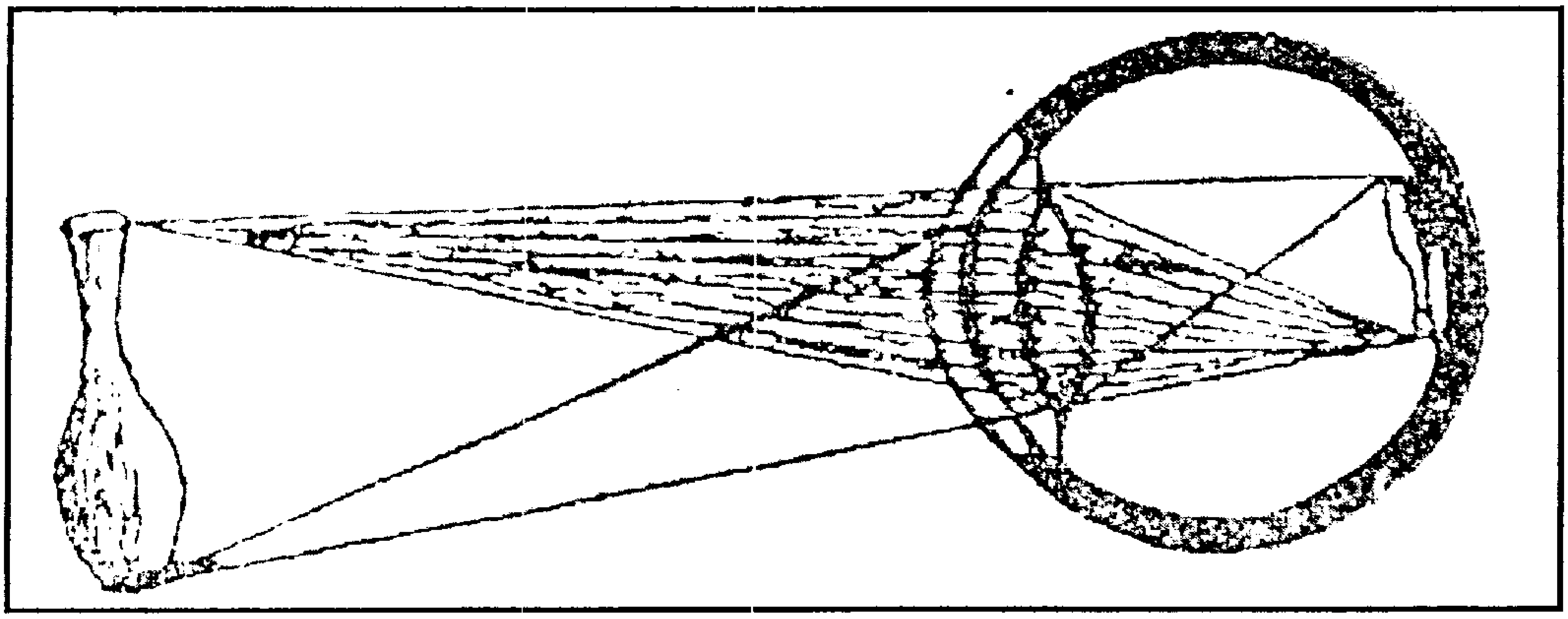

تكون صور المرئيات داخل العين

ثم تتنقل صورة المرئيات بواسطة الشبكية والعصب البصري وما يتبعه حتى تصل إلى مركز الإبصار في المخ فيراها الإنسان كما هي في الطبيعة.

الملاءمة الوظيفية: إذا نظرنا إلى عين مشرحة ظهر لنا أن هذا العضو مبطن في الداخل بطبقة لونها أسود حتى يكون فعل الضوء الآتي من الخارج (والحامل لشكل الأشياء) كاملاً على طبقة العين الحساسة. ولو كان تجويف العين ملوناً بلون أحمر أو أصفر أو أبيض مثلاً لتشتت فعل الضوء لما يمتص منه بهذه الألوان وكذلك نرى أن كل محتويات العين (من سوائل وغيرها) شفافة حتى تسمح بمرور أشعة الضوء ولو كانت معتمة لما سمحت بذلك. ونرى أيضاً أن العدسة يقل تحدبها أو يزداد حسب بعد الأشياء أو قربها من العين. فالعين في تركيبها إذن ملائمة للعمل الذي تقوم به وهو ما يسمى بالملاءمة الوظيفية.

حاسة السمع

الأذن:

الأذن عضو السمع وتتركب من أجزاء مختلفة يقوم بعضها باستقبال التموجات الصوتية وبعضها بتوصيل تأثيرها إلى الأجزاء الداخلية حتى يحمل العصب السمعي هذا التأثير إلى مركز السمع في المخ فيدرك الإنسان الأصوات. وللإنسان أذنان موضوعتان على جانبي الرأس وتنقسم الأذن تبعاً لتتابع أجزائها ووظيفتها إلى ثلاثة أقسام وهي:

(١) **الأذن الخارجية:** تتركب الأذن الخارجية من جزئين: الأول صيوان الأذن وهو الجزء المفلطح الموجود على جانب الرأس ويؤدي الجزء الثاني المسمى بالقناة السمعية الخارجية أو الصماخ وهي قناة قصيرة يبلغ طولها سنتيمترين ونصف تقريباً. ويجدر أنها غدد دهنية تفرز مواد تشبه الشمع تسمى صملاخ الأذن.

(٢) **الأذن المتوسطة أو التجويف الطبلي:** هو تجويف صغير غير منتظم الشكل محصور بين الغشاء الطبلي والأذن الداخلية ويحتوي على العظيمات السمعية وهي متصلة بعضها ببعض وممتدة من الغشاء الطبلي إلى الأذن الداخلية وتسمى هذه العظيمات بالمطرقة والسندان والركاب.

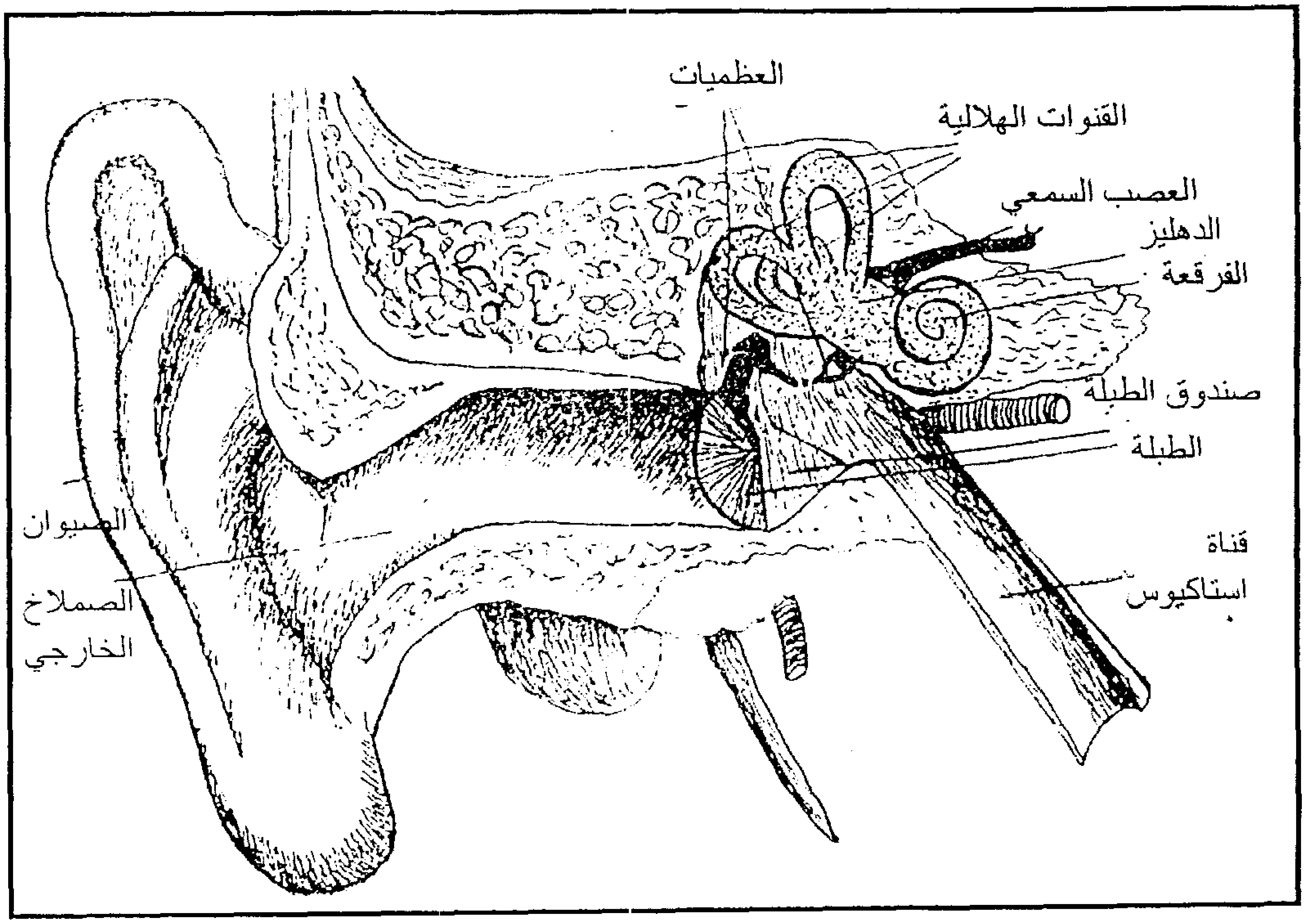

الأذن "أكبر من الحجم الطبيعي قليلاً"

يتصل التجويف الطبلي بالقسم العلوي من البلعوم بواسطة قناة تسبيس مبوبة استاكيوس (بوق استاكيوس) وفائدة هذه القناة توصيل الهواء الجوي إلى التجويف الطبلي فيتوازن بذلك كل من الضغط الخارجي والداخلي الواقعين على الطبلة.

(٣) الأذن الداخلية: تتكون من أعضاء السمع الحقيقية لانتشار ألياف العصب السمعي بأجزائها وتتركب الأذن الداخلية من أجزاء عظمية مجوفة تسمى بالتيه العظمي يبطن فراغها كيس غشائي يسمى بالتيه الغشائي.

ويتركب التيه العظمي من ثلاثة أقسام يسمى القسم الأوسط منها بالدهليز، وهو عبارة عن حجرة يتصل بها القسمان الآخران بواسطة فتحات معينة، وهذان القسمان

هما القنوات النصف دائرية أو الهلالية والقوقعية، وبالدهليز فتحة أخرى تسمى بالكرة البيضية تتصل بها أطراف الركاب. أما التيه الغشائي فهو عبارة عن كيس غشائي يشمل الفراغ الداخلي لأقسام التيه العظمي ويمتلئ بمادة سائلة تشبه الليمف تسمى بالسائل التيهي.

يتكون العصب السمعي من عدة فروع منتشرة في التيه الغشائي تمر من ثقوب صغيرة في التيه العظمي تتجمع بعضها مع بعض لتكون العصب السمعي. ويلاحظ أن أطراف الألياف العصبية منغمسة في السائل التيهي.

السمع: تحدث الأصوات تموجات في الهواء تتناسب وصنفها فيستقبلها الصيوان ثم تمر في القناة السمعية الخارجية إلى أن تصل إلى الغشاء الطبلي فيهتز اهتزازت مناسبة لها وتصل هذه الاهتزازات إلى الأذن الداخلية بواسطة العظميات السمعية إذ تتصل الأولى منها وهي المطرقة بالغشاء الطبلي والأخيرة وهي الركاب بالدهليز عند الكرة البيضية فتسري هذه الاهتزازات في السائل التيهي وتحدث به تموجات مناسبة لها فتنبه أطراف الألياف العصبية المغمورة فيه، وتنقل هذه الألياف ما تشعر به أطرافها إلى المراكز السمعية في المخ، وعند ذلك ندرك الأصوات المختلفة ونتعرف اتجاهاتها.

القنوات الهلالية: قلنا إن القنوات الهلالية هي إحدى أقسام الأذن الداخلية ولكن وظيفتها تخالف وظائف الأقسام الأخرى إذ أن وظيفتها حفظ توازن الرأس.

الملائمة الوظيفية: إذا نظرنا إلى الأذن نظرة إجمالية، نجد أن الجزء الخارجي منها وهو الصيوان كبير الحجم يشبه البوق في شكله وذلك مما يساعد على جمع التموجات الهوائية الصوتية وتوصيلها إلى الطبلة عن طريق القناة السمعية، ويلاحظ أن صيوان الأذن لين نظراً لأن هيكله غضروفي، كما تلاحظ رقة طبلة الأذن وتوترها حتى تهتز لأقل تموج هوائي يصل إليها.

ويشاهد أيضاً وجود العظميات السمعية مستندة على الطبلة من ناحية وعلى التيه الغشائي من الناحية الأخرى، وهذا مما يساعد على توصيل أي اهتزاز يحصل في الطبلة إلى السائل التيهي الذي تنتشر فيه أطراف ألياف العصب السمعي فتتأثر هذه الأطراف بتموجات السائل التيهي.

ومما يساعد الطبلة على القيام بوظيفتها تعادل الضغط الجوي على سطحيها وذلك بفضل وجود قناة استاكيوس. ويستنتج مما سبق بوضوح أن تركيب الأذن ملائم للوظيفة التي تؤديها.

المحاضرة الخامسة في أعضاء الحركة

أعضاء الحركة هي الأعضاء التي بواسطتها ينتقل جزء من الجسم أو الجسم كله من موضع إلى موضع آخر. ويتحقق هذا بتضامن الأقسام الثلاثة لهذه الأعضاء وهي العظام والمفاصل والعضلات.

(١) الهيكل العظمي: الهيكل العظمي هو مجموع عظام الجسم وهي أجزاء صلبة قوية مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً مفصلياً وهي التي تكسب الإنسان شكلاً معيناً وتتصل بالهيكل العظمي عضلات الحركة العامة وتحيط بعض أجزاء الهيكل بالأعضاء الهامة كالمخ والقلب والرئتين لتحميها.

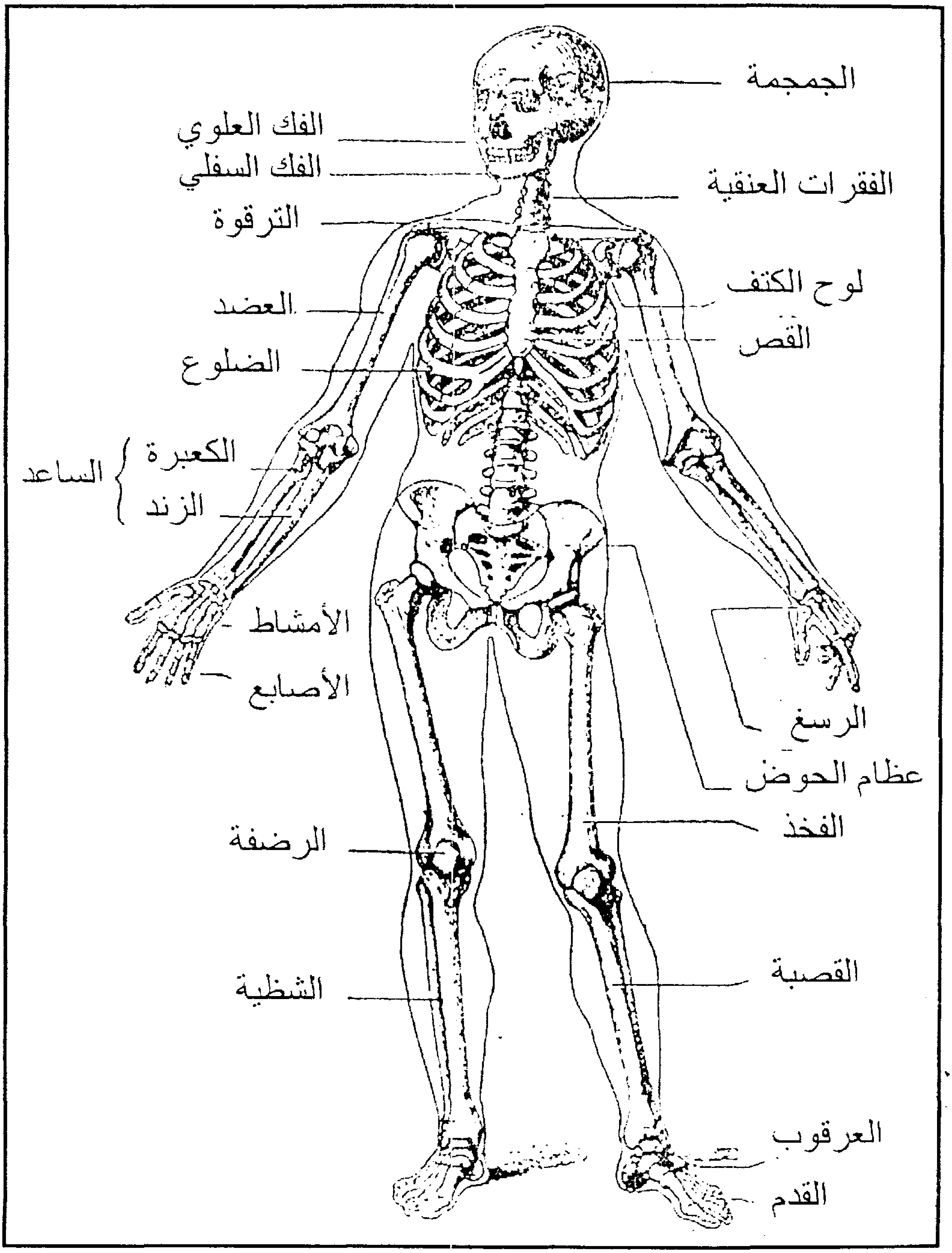

الهيكل العظمي

وتتصل بعظام الهيكل أجزاء صلبة مرنة من نسيج خاص تسمى بالغضاريف إذ تكون جزءاً صغيراً من الهيكل الداخلي. ينقسم الهيكل العظمي تبعاً لوضعه إلى قسمين هما:

(أ) الهيكل المحوري: وهو عبارة عن العمود الفقري والأجزاء المتصلة به كالجمجمة والعلبة الصدرية.

(ب) الهيكل الطرفي: وهو عبارة عن الطرفين العلويين والطرفين السفليين وسنتكلم فيما يلي باختصار عن كل جزء من أجزاء الهيكل :

العمود الفقري: يمتد العمود الفقري طولاً في الظهر ويتركب من عدد من عظام متشابهة تقريباً يتلو بعضها البعض تعرف بالفقرات وتكون محور الجسم الذي تتصل به بقية العظام فترتكز قاعدة الرأس على الجزء العلوي من العمود الفقري ويمتد الطرف السفلي للعمود الفقري بين عظام الحوض حتي يلتحم بها. ويتركب العمود الفقري من ٣٣ فقرة منها ٢٤ فقرة يتصل بعضها ببعض اتصالاً مفصلياً يسهل لها الحركة وتعرف بالفقرات المتحركة (وهي الفقرات العنقية والظهرية والقطنية) أما الفقرات الباقية وعددها ٩ فتلتحم مع بعضها وتعرف بالفقرات الملتحمة (وهي الفقرات العجزية والعصعصية).

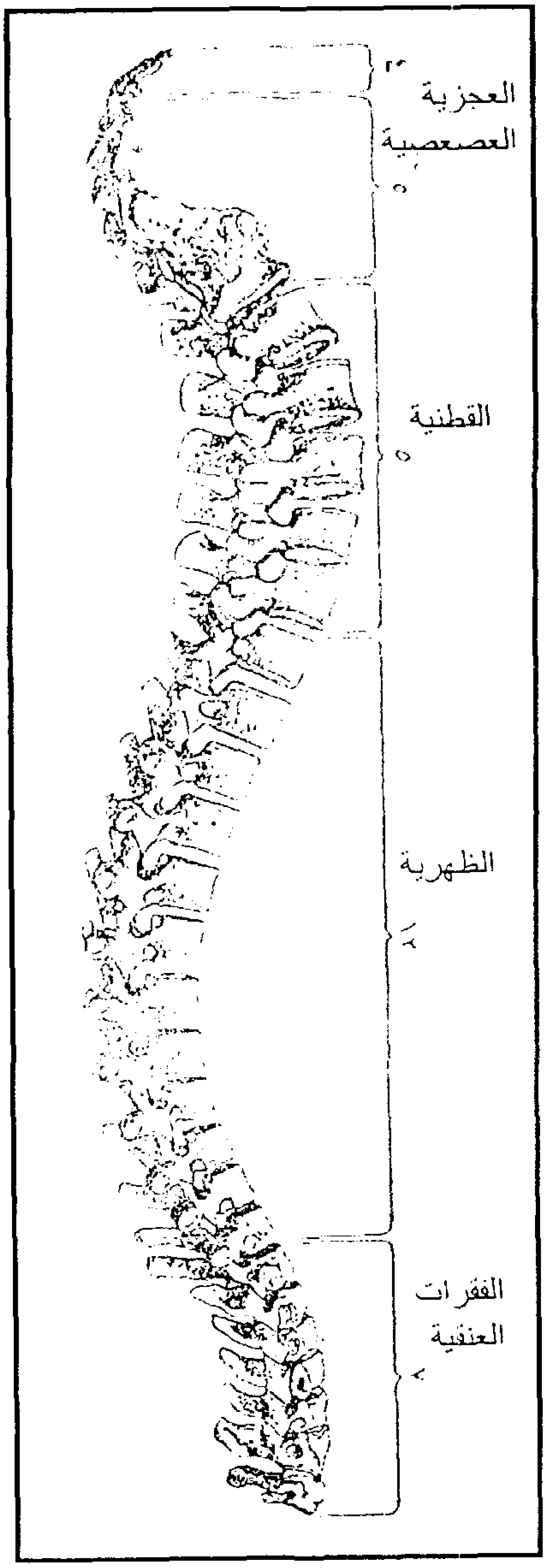

العمود الفقري

وبما أن الفقرات التي يتكون منها العمود الفقري مبنية على نظام واحد ولو أنها تختلف في الشكل قليلاً عن بعضها لذلك سنكتفي بوصف واحدة منها.

تتركب الفقرة من جزء عظمي سميك يسمى جسم الفقرة (وتتجه أجسام الفقرات إلى الأمام طبقاً لوضعها في السلسلة الفقرية) وتتصل بجسم الفقرة من الخلف حلقة عظمية تسمى بالحلقة الشوكية ويسمى الفراغ الواقع بين هذه الحلقة وجسم الفقرة بالفراغ الشوكي وبما أن الفقرات موضوعة بعضها تلو بعض-فتكون من حلقاتها الشوكية أنبوبة تسمى بالقناة الشوكية يمتد فيها الحبل الشوكي الآتي من المخ وتخرج من الحلقة الشوكية ثلاث زوائد عظمية تسمى بالنتواءات إحداها في الوسط (أي أنها مقابلة لجسم الفقرة وتتجه إلى الخلف) وتسمى بالنتوء الشوكي والاثنتان الأخريان جانبيتان وتعرفان بالتنوءين المستعرضين، وتتصل بهذه النتوءات الروابط والعضلات التي تستعمل في ربط وتحريك أجزاء العمود الفقري. وتوجد بين أجسام الفقرات أجزاء سميكة من الغضاريف المرنة تسمى بالوسائد فائدتها تسهيل حركات الفقرات بعضها فوق بعض (وعند الكبر في السن تتصلب هذه الوسائد وتصبح قليلة المرونة وبذلك يصعب على المسنين إحناء ظهورهم).

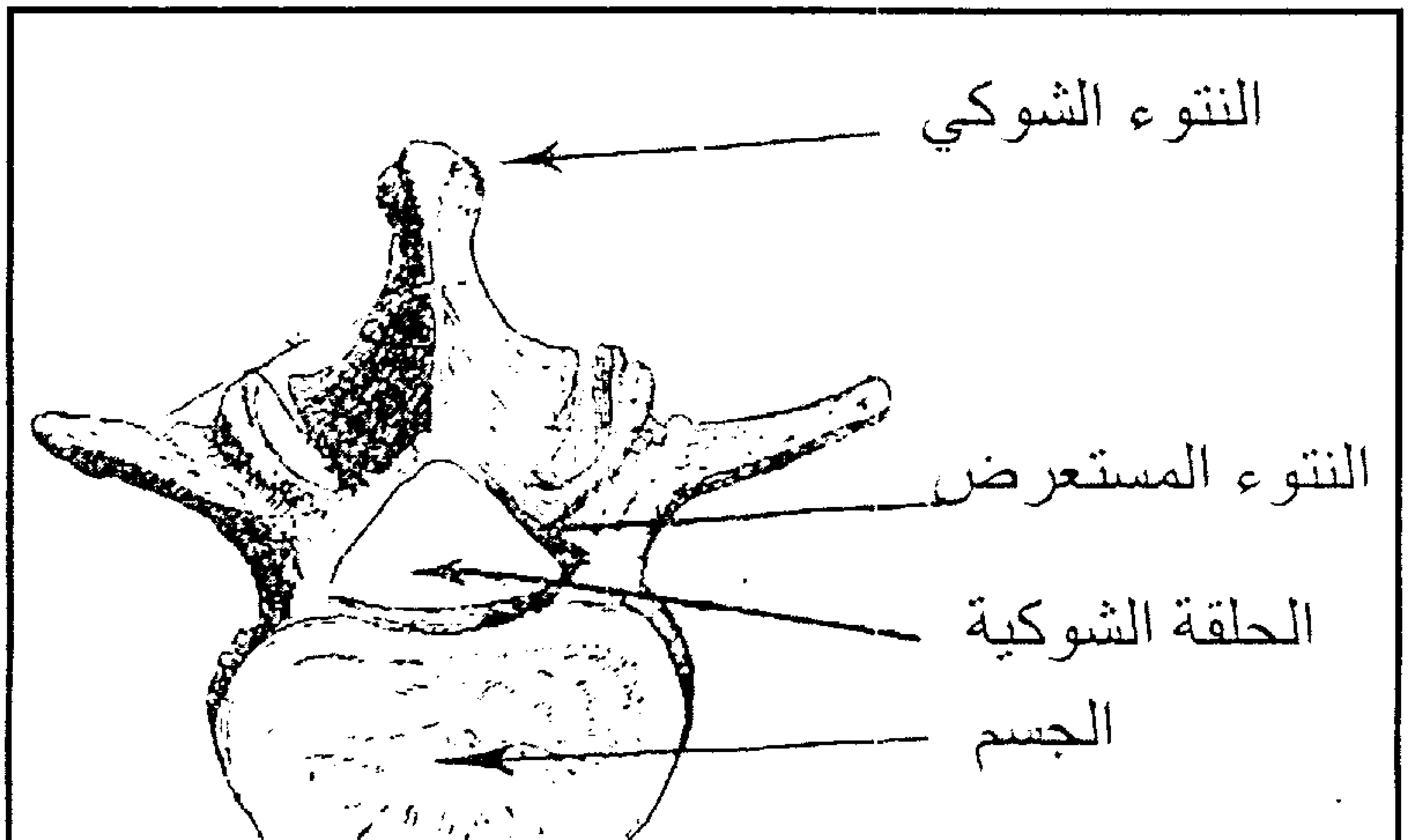

فقرة قطنية

الضلوع والقص: للإنسان ١٢ زوجاً من الضلوع تتصل مع الفقرات الظهرية البالغ عددها ١٢ فقرة اتصالاً مفصلياً وتتلوى الضلوع متجهة إلى الأمام ومائلة قليلاً إلى أسفل ثم تتصل بالقص الممتد في وسط الصدر إما مباشرة أو بواسطة جزء غضروفي يسمى بالغضروف الضلعي وذلك في العشرة أزواج الأولى من الضلوع أما الزوجان الأخيران فلا يتصلان بالقص ويسميان بالضلعين العائمين.

والقص هو عظمة منبسطة ممتدة طولياً في وسط الصدر من الأمام وتقابل العمود الفقري الممتد في الظهر، وطرف القص السفلي غضروفي.

ومما سبق يعلم أن كلاً من العمود الفقري الظهري والقص والضلوع تكون هيكلاً مرناً يعرف بالعلبة الصدرية ويحتوي فراغه على الأعضاء الصدرية كالقلب والرئتين.

(١) الضلوع
(٢) القص
(٣) الترقوة
(٤) لوحة الكتف
(٥) العمود الفقري

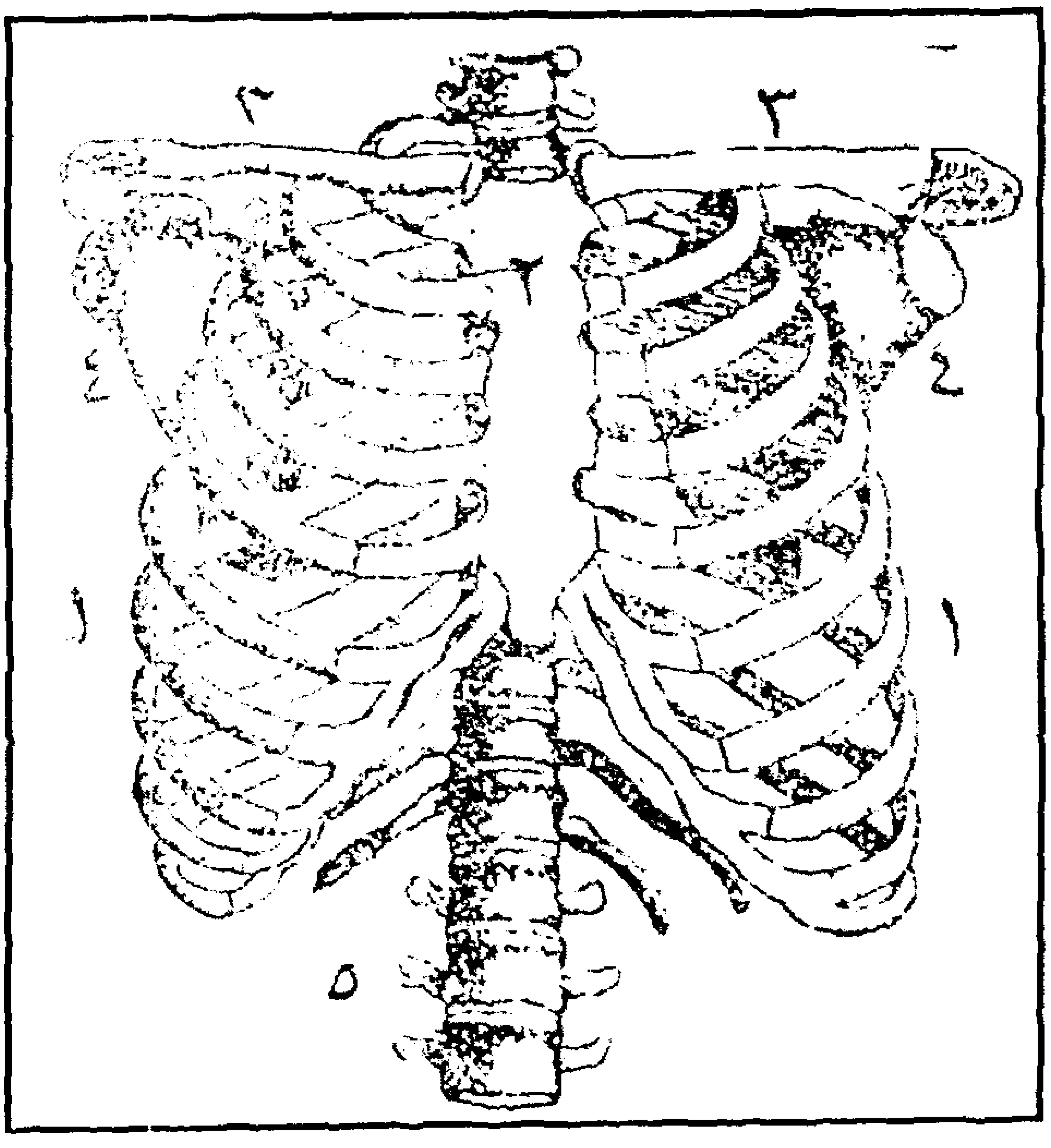

العلبة الصدرية

الجمجمة: تعلو الجمجمة العمود الفقري وترتبط ارتباطاً متيناً وتتركب الجمجمة من منطقتين هما:

(أ) المنطقة المخية: وتشمل العظام التي تحيط بالمخ.

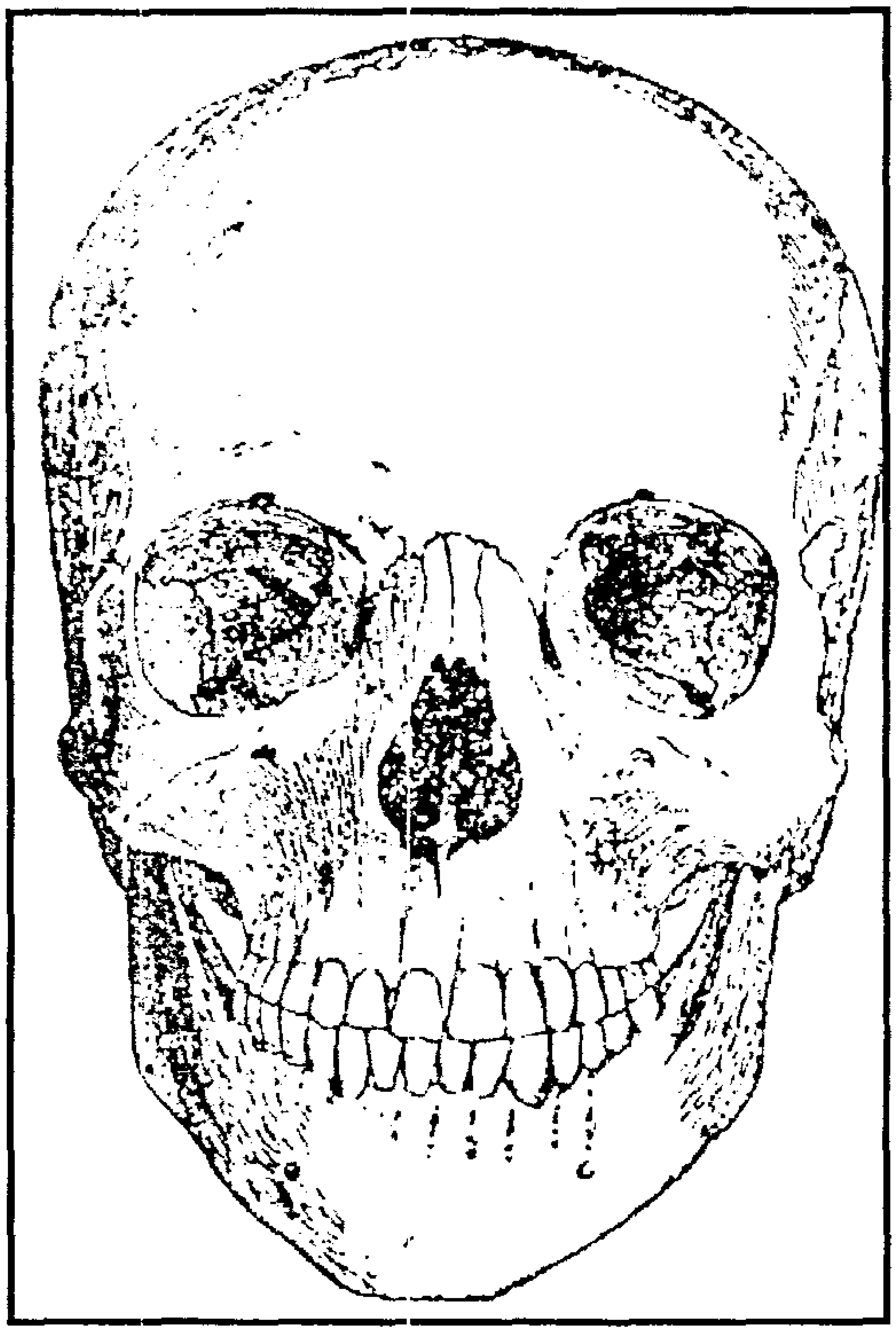

الجمجمة

(ب) المنطقة الوجهية: وتشغل الجزء الأمامي والسفلي من الجمجمة تتصل بأسفل الجزء الوجهي من الجمجمة عظمة منحنية تشبه حرف (د) تسمى بالفك السفلي ويقابلها من أعلى الفك العلوي ويحمل الفكان العلوي والسفلي الأسنان.

وتتكون الجمجمة من عظام كثيرة ملتحمة بعضها ببعض بواسطة بروزات معشقة كأسنان المنشار تسمى بالتداريز ولا يسمح مثل هذا الالتحام بالحركة، وتكون هذه البروزات واضحة أثناء الطفولة ويتم التحام بعضها تماماً عند الكبر.

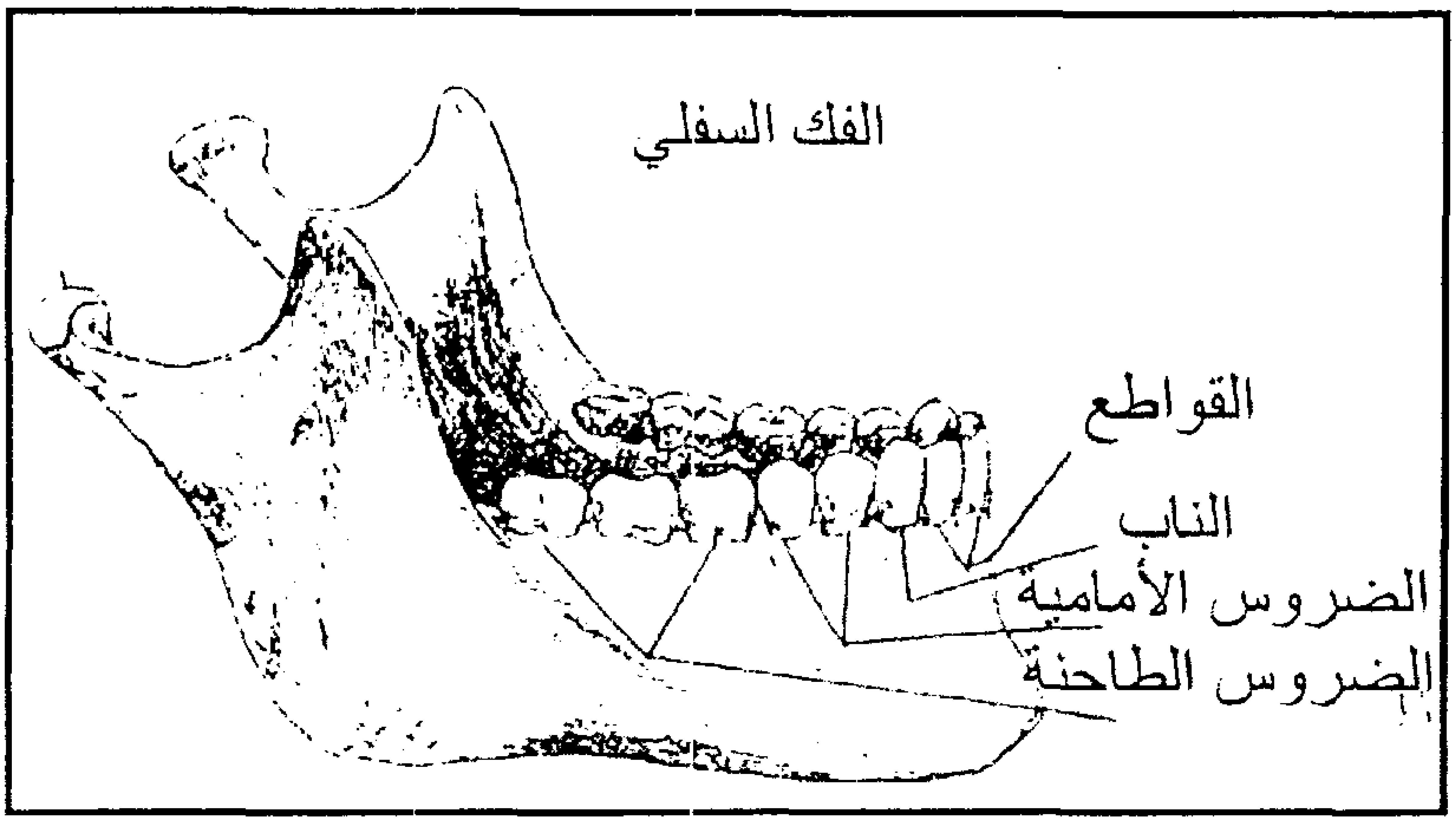

الفك السفلي

الأطراف

تتصل عظام الأطراف بالهيكل المحوري بواسطة عظام موصلة تسمى بالأحزمة.

الطرف العلوي: يتصل الطرف العلوي بالهيكل المحوري بواسطة العظام الموصلة وهي عبارة عن عظمتي لوح الكتف والترقوة:

(أ) لوح الكتف: عظمة مثلثة الشكل منبسطة يمتد بسطحها الخلفي بروز هام مستعرض أما السطح الأمامي فناعم ومقعر قليلاً في أعلى الظهر خلف الضلوع. ويوجد بطرف اللوح من جهة الذراع تجويف قليل الغور يسمى بالتجويف الأروح (العنابي) ويتصل رأس العضد بهذا التجويف حيث يتكون المفصل الكتفي (المنكبي).

(ب) الترقوة: عظمة مستطيلة منحنية قليلاً تمتد بين لوح الكتف وأعلى القص، ووجود الترقوة في الحيوان مما يساعد على توجيه الكتفين إلى الخلف. وتكون الترقوة ضعيفة التكوين في الحيوانات المستديرة الأكتاف كالقط والكلب وغير موجودة بالمرة في الخيل والمواشي والأغنام.

يتركب الطرف العلوي في الإنسان من الأجزاء الآتية:

١- العضد.

٢- الساعد (ويتركب من الزند والكعبرة).

٣- الرسغ.

٤- اليد (وتتركب من الأمشاط السلاميات).

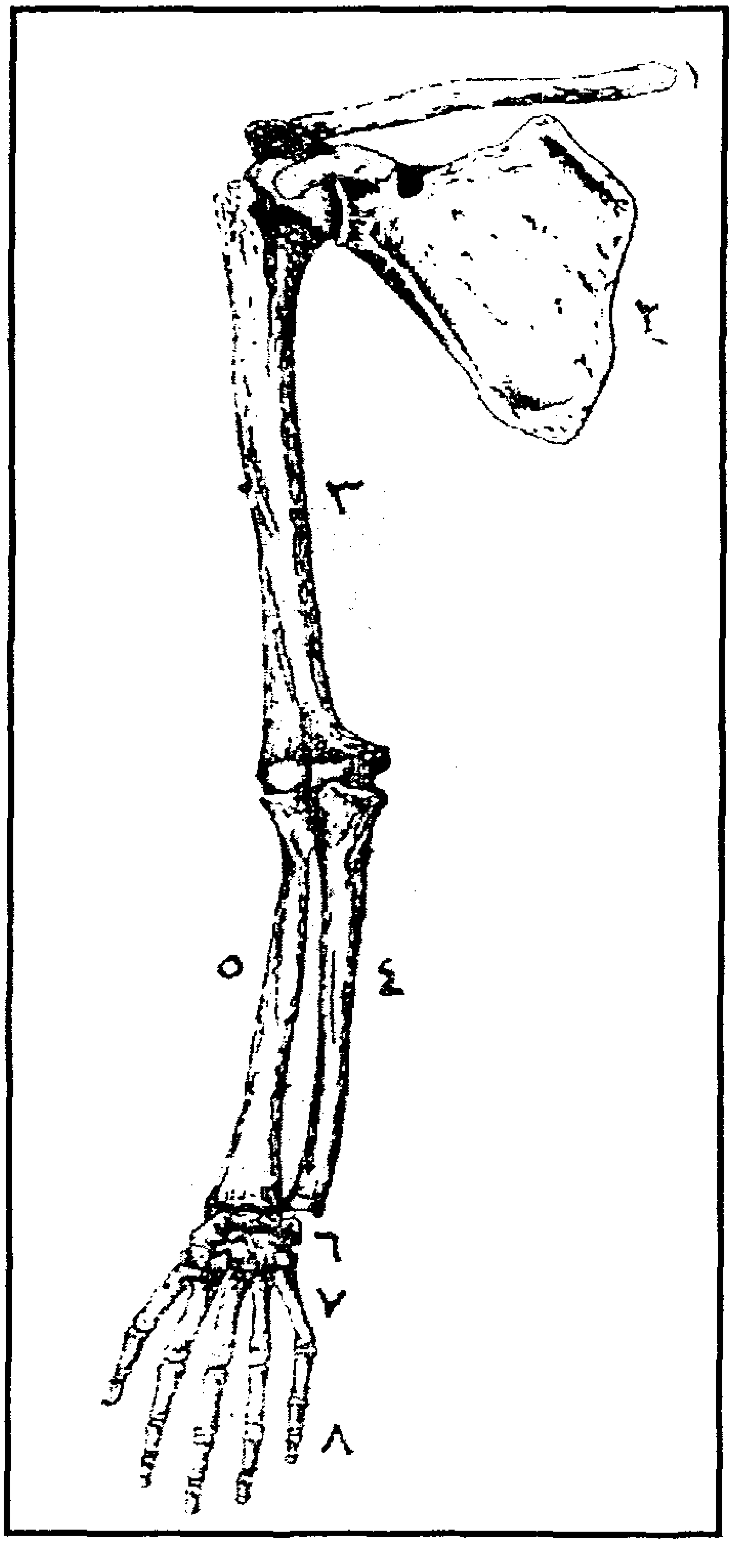

(١) الترقوة
(٢) لوح الكتف
(٣) العضد
(٤) الزند
(٥) الكعبرة
(٦) عظام الرسغ
(٧) أمشاط اليد
(٨) سلاميات الأصابع

عظام الطرف الأمامي

(١) **العضد:** عظمة طويلة قوية طرفها العلوي به جزء مستدير هو رأس العضد الذي يتصل بالتجويف الأروح اتصالاً مفصلياً وتكون حركة هذا المفصل عظمية ودائرية تقريباً لكبر رأس العضد وقلة غور التجويف الأروح.

(٢) **الساعد:** ويتركب من عظمتين هما الزند والكعبرة وهما متساويتان في الحجم تقريباً ولكن الطرف العلوي للزند غليظ ويكون مع الطرف السفلي للعضد مفصلاً رزياً (كالمفصلات الموجودة بالأبواب وهي تسمح بالحركة في اتجاه واحد) أما الكعبرة فتشبه الزند إلا أن طرفها العلوي رفيع والسفلي غليظ.

إذا وضع الساعد على مائدة بحيث تتجه راحة اليد إلى أعلى يكون الزند والكعبرة متوازيين في الوضع والثانية منهما وحشية (أي متجهة إلى الخارج) وإذا قلبت راحة اليد إلى أسفل فإن الزند يحفظ موضعه أما الكعبرة فتدور مع اليد بحيث تتقاطع مع الزند كما في الشكل التالي. ومقدرة اللإنسان على تقليب اليد أو إدارتها كما سبق كانت عاملاً مهماً في تقدم الصناعات اليدوية التي يمتاز بها الإنسان عن بقية الحيوانات.

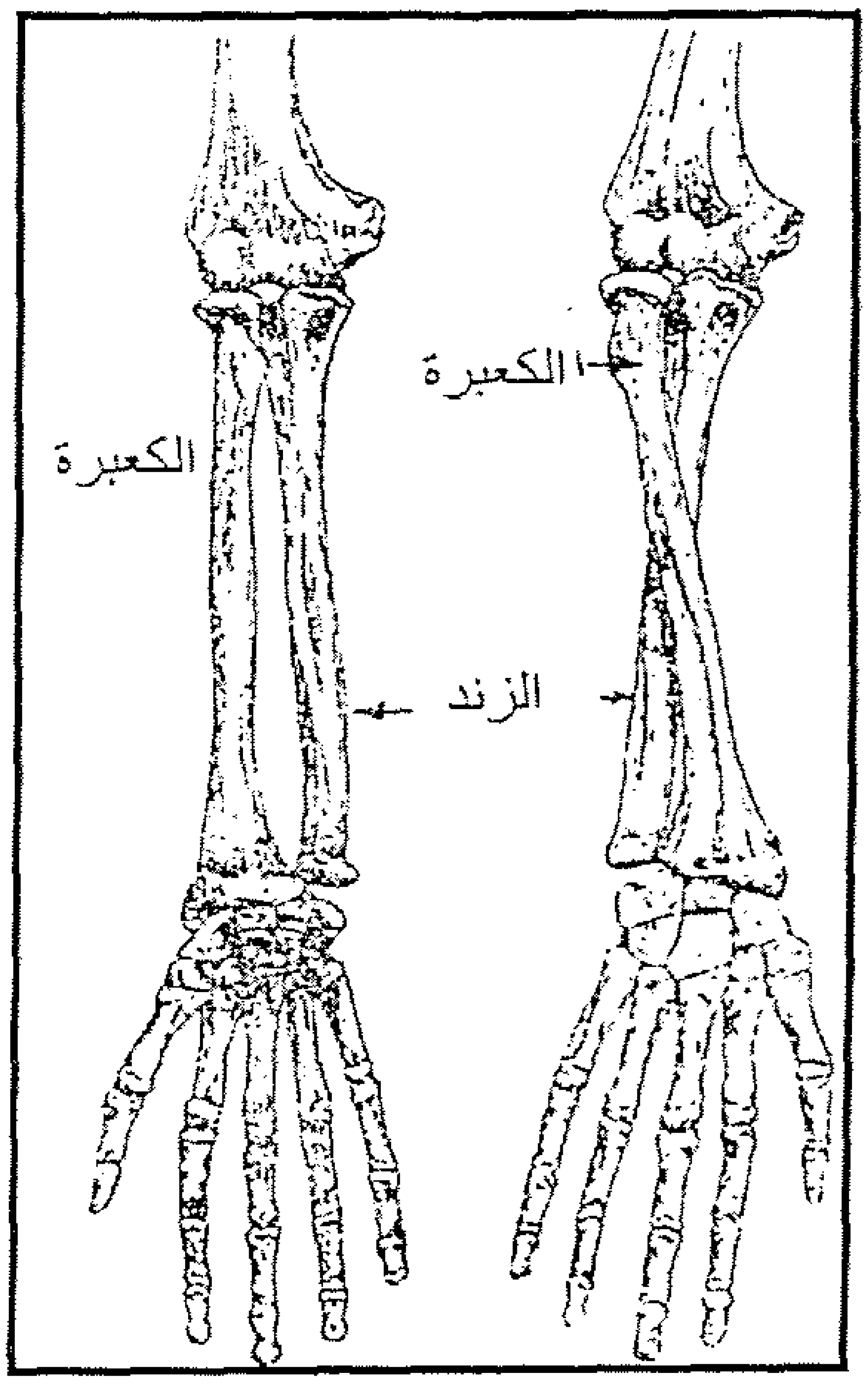

(١) في الحالة الطبيعية

(٢) عند التواء الكعبرة مع اليد على الزند

عظام الساعد واليد

(٣) الرسغ: يتركب الرسغ من ثماني عظام صغيرة مرتبة من صفين بكل منهما أربع عظام، وتتصل هذه العظام مع بعضها ومع العظام المجاورة لها بواسطة أربطة بشكل يسهل لكل منها حركة انزلاقية بسيطة، وحركة الرسغ مع حركة الزند والكعبرة عليه تعطيان اليد حرية عظمية في حركتها.

(٤) اليد: تتركب اليد من قسمين من العظام وهما الأمشاط والسلاميات فالأمشاط هي خمس عظام طويلة تتكون منها راحة اليد ويتصل بكل مشط أصبع مكون من ثلاث سلاميات ما عدا الإبهام فيه سلاميتان فقط. ويلاحظ أن مشط الإبهام يتحرك إلى حد بعيد أكثر من أمشاط الأصابع الأخرى بحيث يمكن تحريك الإبهام ومقابلته بالأصابع الأخرى وهذا يسهل القبض على الأجسام الكبيرة والتقاط الأجسام الصغيرة.

الطرف السفلي: يرتبط الطرف السفلي للإنسان والهيكل المحوري بواسطة عظمتي الحوض وهما عظمتان متماثلتان ملتحمتان مع بعضهما في الخط الوسطي للحوض من أسفل ويفترقان من أعلى إلى أن يتصلا بعظم العجز كما في الشكل التالي ويتركب كل من عظمتي الحوض من ثلاثة أجزاء وهي الحرقفة والورك والعانة ويوجد بالسطح الخارجي عند التحام هاته الأجزاء الثلاثة مع بعضها تجويف يسمى بالتجويف الحقي يتصل به عظم الفخذ اتصالاً مفصلياً.

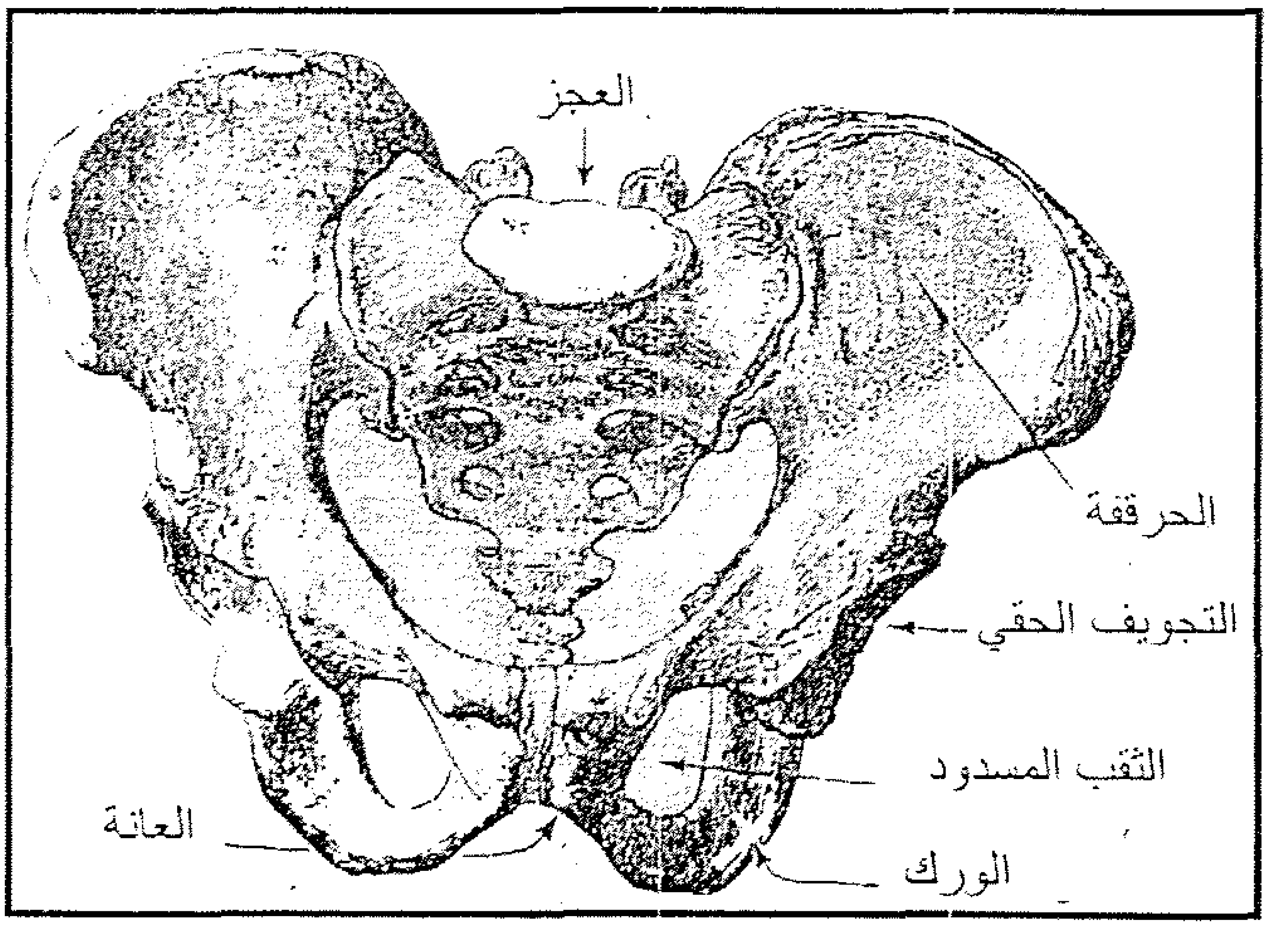

العجز وعظام الحوض كما ترى في الأمام

يتركب الطرف السفلي من الأجزاء الآتية:

١ – الفخذ.

٢– الساق (ويتركب من القصبة والشظية).

٣– العرقوب (أي رسغ القدم).

٤ – القدم (ويتركب من الأمشاط والسلاميات).

(١) **الفخذ:** عظم يماثل العضد إلا أنه أطول وأقوى منه لما يقوم به من حمل ثقل الجسم وبطرف الفخذ العلوي رأس مستدير يتصل بالتجويف الحقي الكائن بالحوض اتصالاً مفصلياً. وبما أن التجويف الحقي أعمق من التجويف العنابي ورأس الفخذ أكثر بروزاً من رأس العضد فلهذا تكون الحركة في هذا المفصل أقل منها في المفصل الكتفي.

(٢) **الساق:** يماثل الساعد في تركيبه من عظمتين هما القصبة والشظية غير أن الشظية لا تدور حول القصبة كما تدور الكعبرة حول الزند والشظية أضعف من القصبة وأرفع منها بكثير، وتكون القصبة مع الفخذ مفصلاً رزياً هو مفصل الركبة وتتحمل القصبة وحدها ثقل الجسم وتوجد عظمة صغيرة تسمى الرضفة أمام هذا المفصل لحمايته.

(٣) **العرقوب:** يتكون من سبع عظام إحداها كبيرة الحجم تمتد إلى الخلف وتكون العقب المعروف عند العامة بالكعب.

(٤) **القدم:** ويتركب من قسمين من العظام وهما الأمشاط والسلاميات فالأمشاط عبارة عن خمس عظام طويلة يتكون منها القدم ويتصل بكل مشط أصبع مكون من ثلاث سلاميات ما عدا الإبهام ففيه سلاميتان. ويلاحظ أن إبهام القدم لا يتحرك بسهولة كإبهام اليد ولهذا أصبحت وظيفة القدم قاصرة على المشي ولكنه بالمران قد يصل الإبهام في حركته وكذلك الأصابع الأخرى إلى حد بعيد.

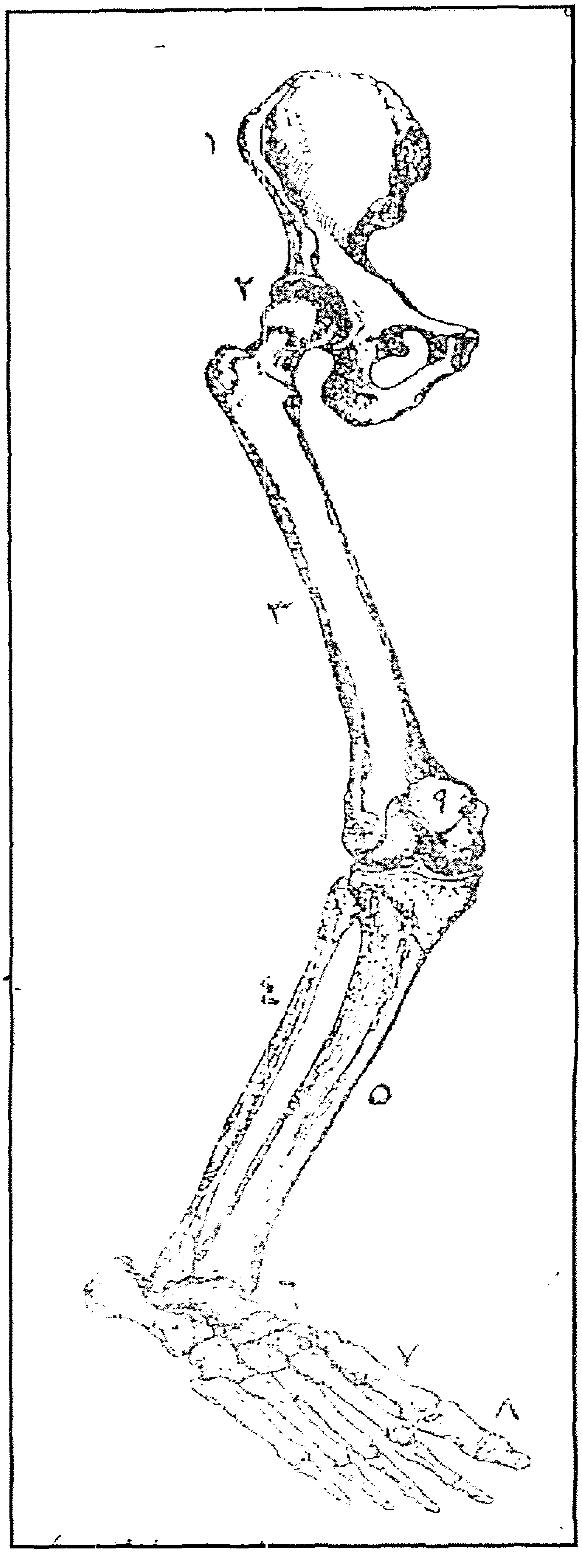

(١) عظمة الحرقفة
(٢) التجويف الحقي
(٣) الفخذ
(٤) الشظية
(٥) القصبة
(٦) عظام العرقوب
(٧) أمشاط القدم
(٨) سلاميات القدم
(٩) الرضفة

الطرف الخلفي

الغضاريف: أجزاء هيكلية متماسكة قابلة للانثناء بيضاء اللون أو نصف شفافة ويكون الهيكل الداخلي في الجنين غضروفياً ثم يستبدل أغلبه بالنسيج العظمي ويبقى بعضه غضروفياً حتى الكبر، ومن فوائد الغضاريف لجسم الإنسان ما يأتي:

(١) أنها تجعل الهيكل مرناً إلى حد ما ، ففي الصدر مثلاً تتصل الضلوع بالقص بواسطة أجسام غضروفية تعطي الصدر مرونة وتساعد على الحركة عند التنفس وكذلك فإن الوسائد الغضروفية التي توجد بين الفقرات تساعد العمود الفقري على الحركة والانثناء.

(٢) تغطي الغضاريف سطوح العظام التي تنزلق فوق بعضها فتسهل بذلك الحركة وتمنع احتكاك العظام بعضها ببعض وتخفف تأثير الصدمات على أطراف هذه العظام.

(٣) تتكون منها بعض الأعضاء التي يكثر انثناءها كصيوان الأذن والحاجز الأنفي ولسان المزمار... إلخ.

(٢) المفاصل: المفصل هو الجزء الناتج من ارتباط جزءين من أجزاء الهيكل بعضها ببعض والمفاصل ثلاثة أنواع هي:

١- مفصل ثابت أو غير متحرك.

٢- مفصل قليل الحركة.

٣- مفصل متحرك.

(١) المفصل الثابت: تلامس أسطح الالتحام بعضها البعض وتكون هذه الأسطح في الغالب مسننة كالمنشار كما في عظام الجمجمة وسمي مفصلاً لأنه متحرك في الرضيع.

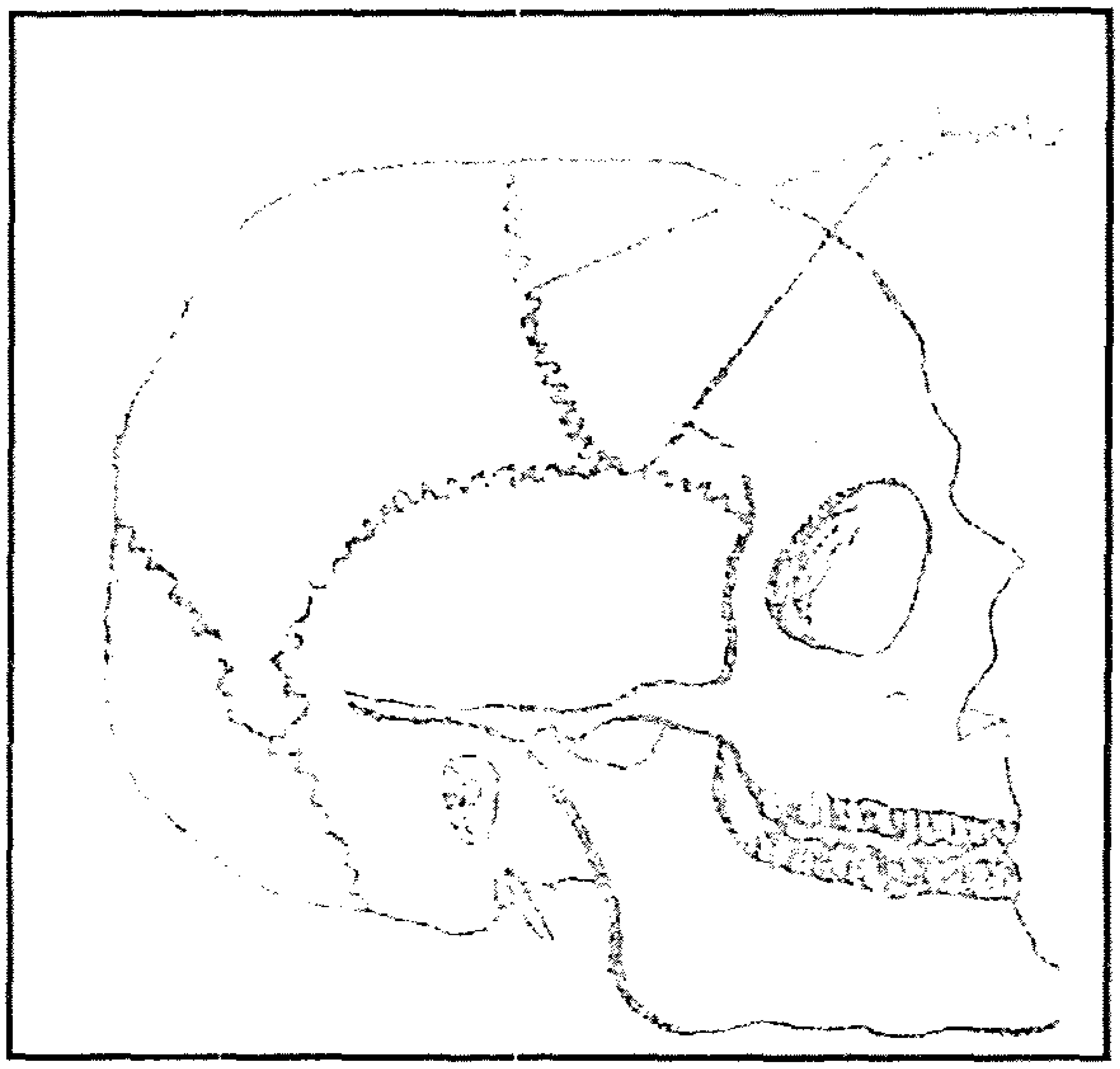

مفصل غير متحرك، الجمجمة

(٢) المفصل قليل الحركة: تكون فيه بين سطحي الاتصال طبقة غضروفية تسمح مرونتها بإحداث حركة بسيطة كما بين أجسام الفقرات.

(٣) المفصل المتحرك: وهو ما يسمى بالمفصل الحقيقي وفيه تكون الحركة سهلة واسعة النطاق.

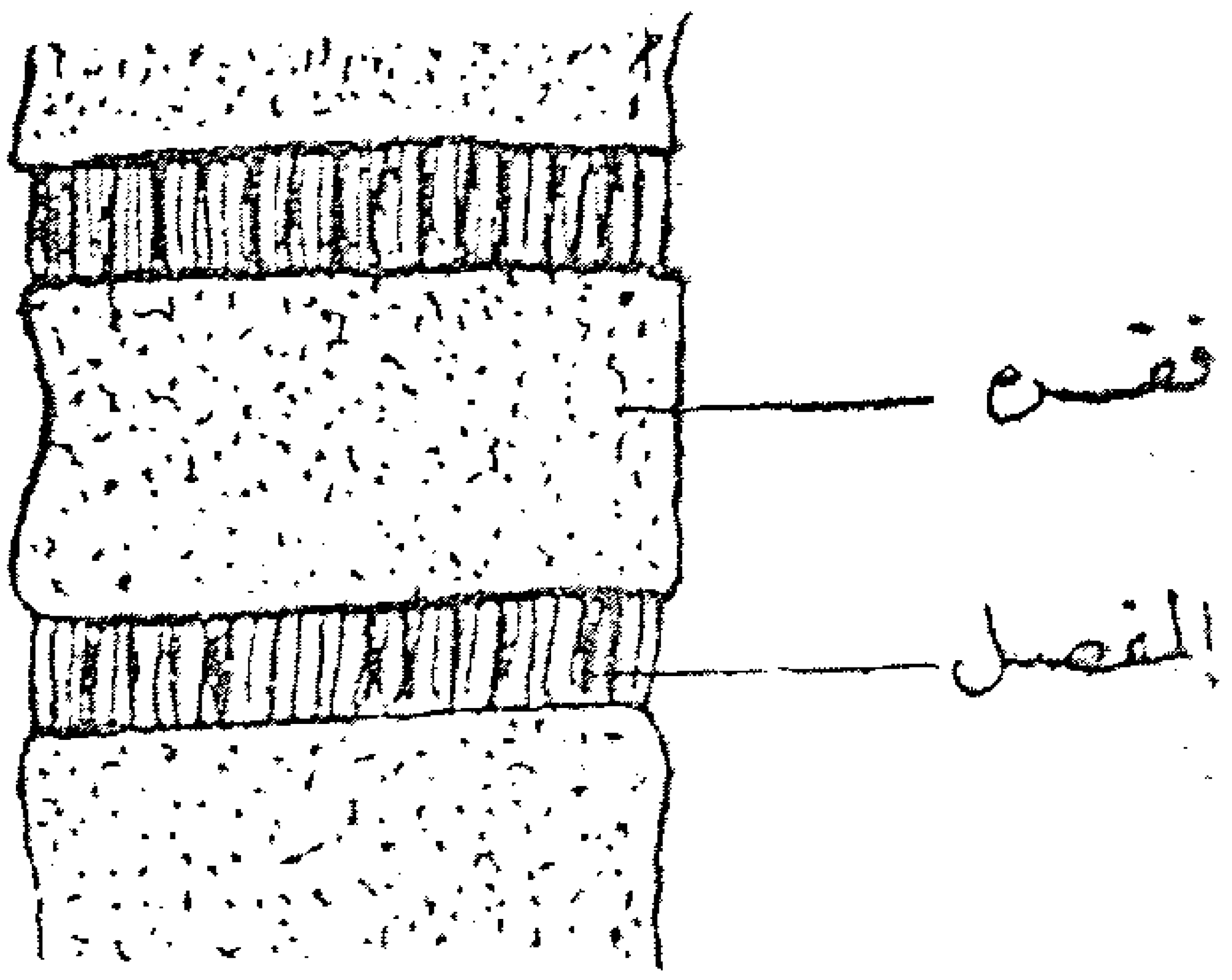

مفصل قليل الحركة
(الفقرات والغضاريف بينها)

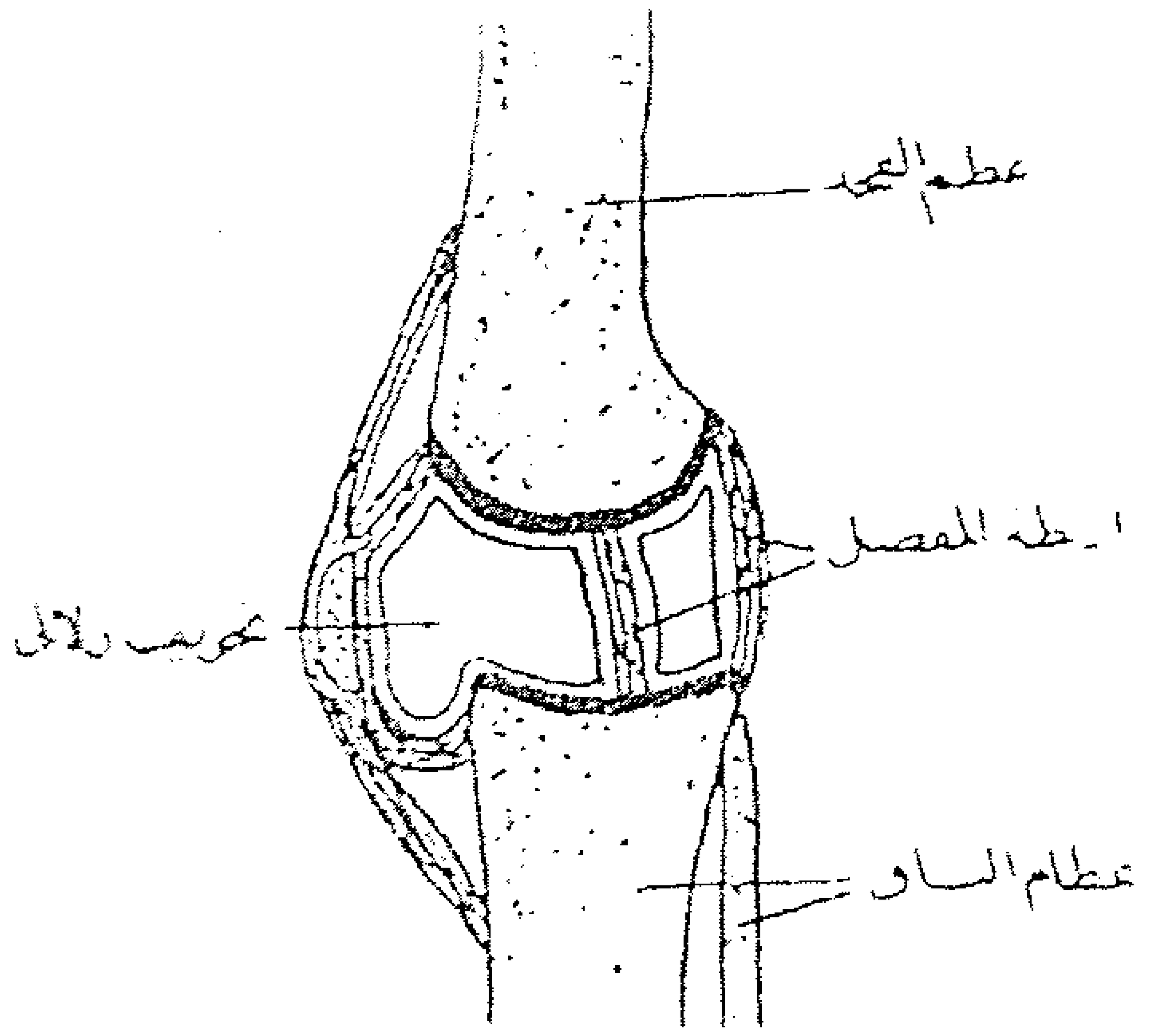

مفصل متحرك، (المفصل الوركي)

تغلب أطراف العظام في المفصل المتحرك بطبقة غضروفية رقيقة ويغطي هذا الغضروف بغشاء يسمى بالغشاء الزلالي يفرز سائلاً يسهل انزلاق أطراف العظام بعضها مع بعض ويحاط المفصل من الخارج بأربطة ليفية قوية تلتحم بحواف أطراف العظام المكونة للمفصل ويشاهد المفصل الحقيقي في الكتف والمرفق والرسغ والفخذ والركبة والكعب وبين الرأس والفقرة الأولى من العمود الفقري.

(٣) العضلات: عضلات الحركة العامة هي ما تعرف باللحم وتتركب العضلة من عدد كبير جداً من خيوط رفيعة متماسكة مع بعضها تسمى بالألياف العضلية، وتمتاز هذه الألياف بخاصية الانقباض فتقصر في الطول وتعظم في السمك وتحاط كل عضلة بغشاء رقيق يتداخل بين أليافها ويفصلها من العضلات المجاورة لها ومجموع عضلات الجسم يكون الجهاز العضلي الذي بواسطته تتحرك أجزاء الجسم بعضها على بعض وهذا بالتضامن مع العظام والمفاصل. وترتبط العضلات بالعظام بواسطة أوتار مكونة من ألياف قوية متصلة بأطرافها وهناك عضلات لها وتران فقط وأخرى لها ثلاثة أو أكثر.

يطلق عادة على عضلات الحركة العامة اسم العضلات الإرادية نظراً إلى تحكم الإرادة في الحركات التي تقوم بها في الحياة العادية. ويتكون العضل من جزء متوسط منتفخ يسمى بطن العضل ومن طرفين أقل سمكاً ويتصل بكل من طرفي العضل حبل متين يسمى بالوتر وتستعمل الأوتار لربط العضلات بأجزاء الهيكل العظمي وارتباط العضلات بالصفة المتقدمة يمكن الإنسان تحريك الأجزاء المتصلة بها هذه العضلات.

عندما تتحرك العضلة تنقبض أليافها ويغلظ جسم العضلة ويقصر طوله وبذلك يقترب العظم المتصل بأحد طرفي العضلة ونحو العظم الآخر، ولنضرب لذلك مثلاً انثناء الساعد على العضد عند وضع الذراع منبسطاً على منضدة فإذا أردنا إذ ذاك تحريك الساعد انقبضت العضلة ذات الرأسين الممتدة أمام العضد فيتحرك الساعد

نحو العضد وإذا أردنا بسط الساعد بعد ذلك انقبضت العضلة ذات الثلاثة رؤوس فيبتعد الساعد عن العضد.

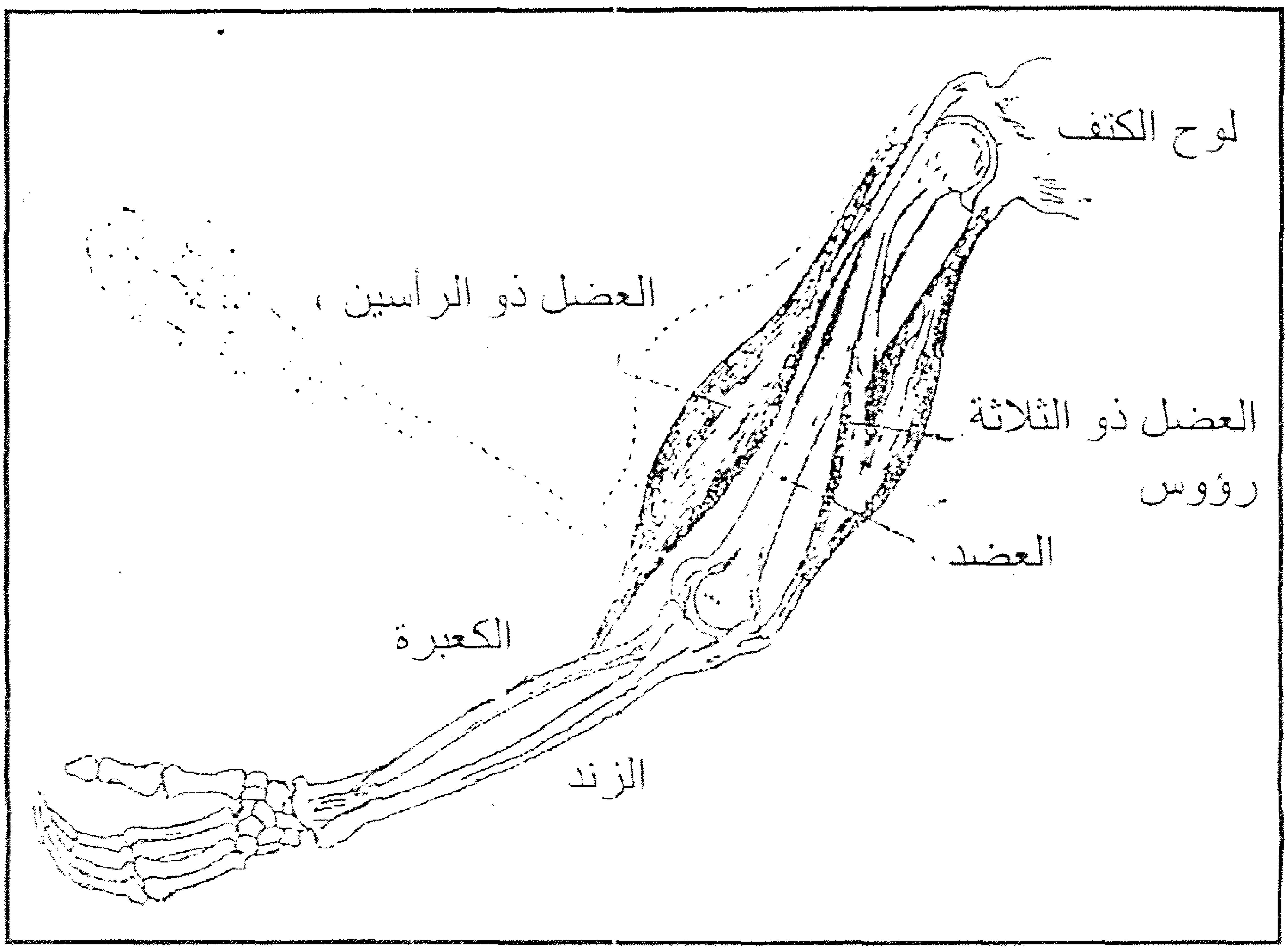

حركة انثناء الساعد على العضد وانبساطه

ويستنتج من هذا المثل أن العضلة ذات الرأسين هي قابضة وأن العضلة ذات الثلاثة رؤوس باسطة ففعل كل منهما مغاير لفعل الآخر.

ومن العضلات القابضة العضلة المستقيمة الفخذية الممتدة أمام الفخذ فإذا انقبضت قرب الفخذ من جدران البطن.

ومن العضلات الباسطة العضلة الرباعية الفخذية الممتدة أمام الفخذ فإنها إذا انقبضت انبسط الساق على الفخذ.

وهناك نوع آخر من العضلات يسمى بالعضلات المقربة لأنها تقرب الأطراف نحو الخط النصفي للجسم وأخرى تسمى بالعضلات المبعدة لأنها تبعد الأطراف عن

الخط النصفي للجسم. فمن العضلات المقربة العضلة العظمية الصدرية التي تمتد أمام الصدر والتي بانقباضها تقرب الذراع من الجذع ومن العضلات المبعدة العضلة الدالية التي تحيط بالكتف فإنها إذا انقبضت ارتفع العضد وبعد الذراع عن الجسم.

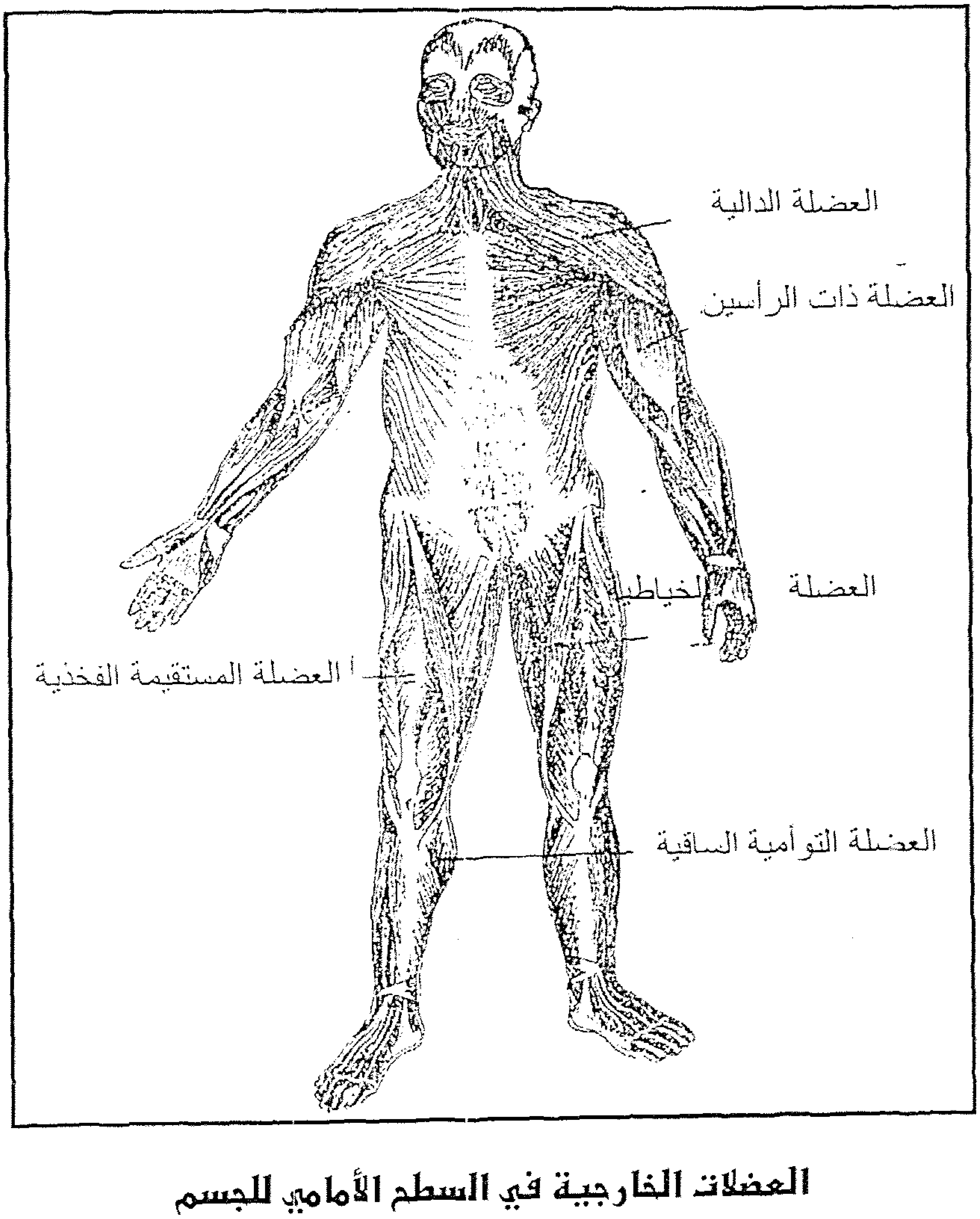

العضلات الخارجية في السطح الأمامي للجسم

وهناك عضلات مدورة مثل العضلة القصية الترقوية الحلمية الممتدة بانحراف على جانب العنق فإنها عند انقباضها تسبب دوران الوجه إلى الجهة الأخرى.

ومن العضلات الهامة الأخرى ما يلي:

(أ) العضلة المستقيمة البطنية: التي تمتد أمام البطن والتي عند انقباضها ينحني الصدر على البطن.

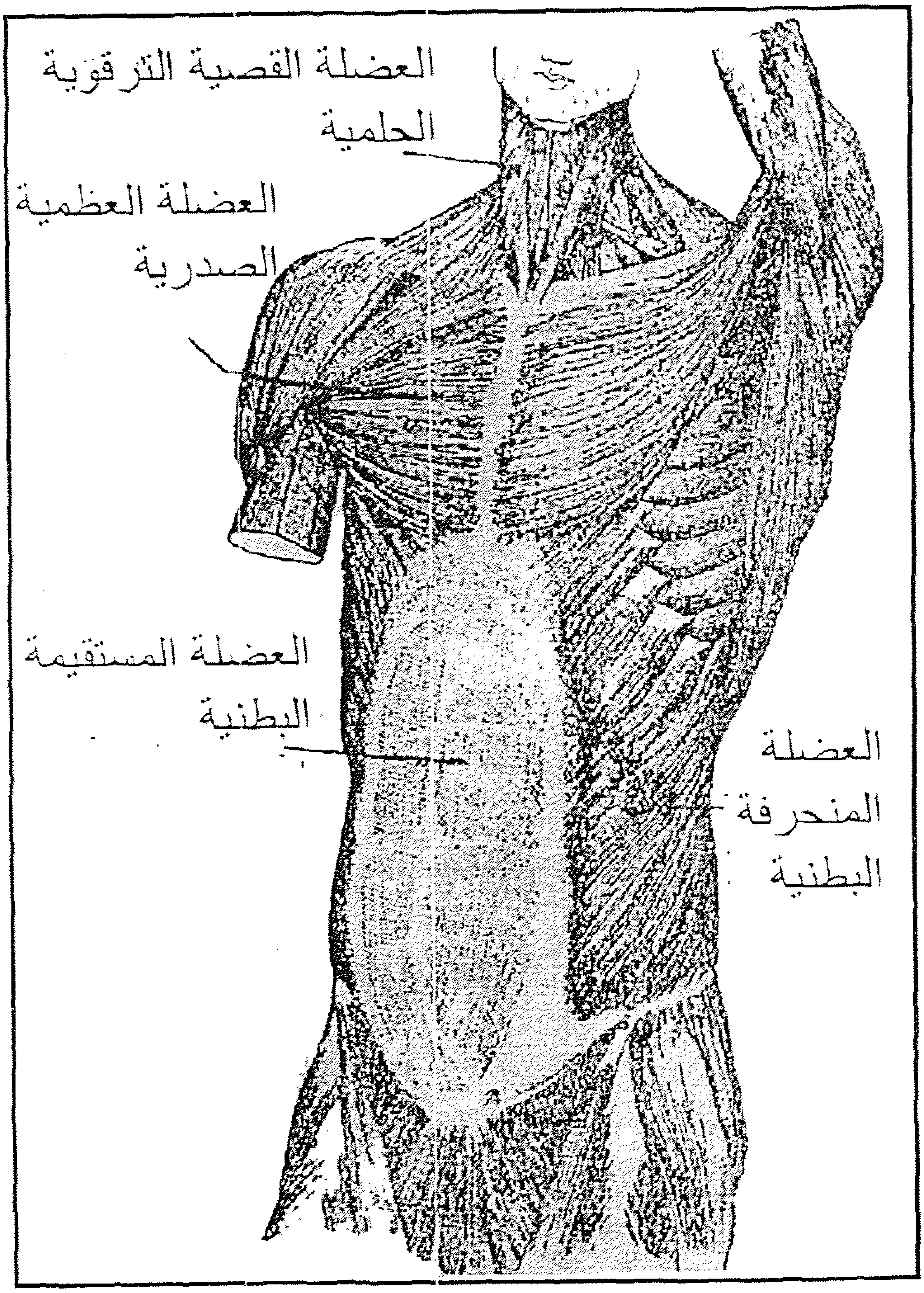

عضلات السطح الأمامي للجذع

(ب) العضلة المنحرفة البطنية: وهي ممتدة بجانب البطن وعند انقباضها ينحني الجذع إلى الجانب وإلى الأمام قليلاً.

(ج) العضلة المربعة المنحرفة: تمتد من مؤخرة الرأس إلى الكتف والظهر وعند انقباضها يتحرك الرأس والكتف إلى الخلف.

(د) العضلة العريضة الظهرية: تمتد في الظهر بين العضد والعمود الفقري وعظام الحوض وعند انقباضها يتحرك العضد إلى الخلف وإلى أسفل.

(هـ) العضلة العظمية الآلية: تمتد من عظم الحرقفة إلى الفخذ وعند انقباضها تحرك الفخذ إلى الخلف.

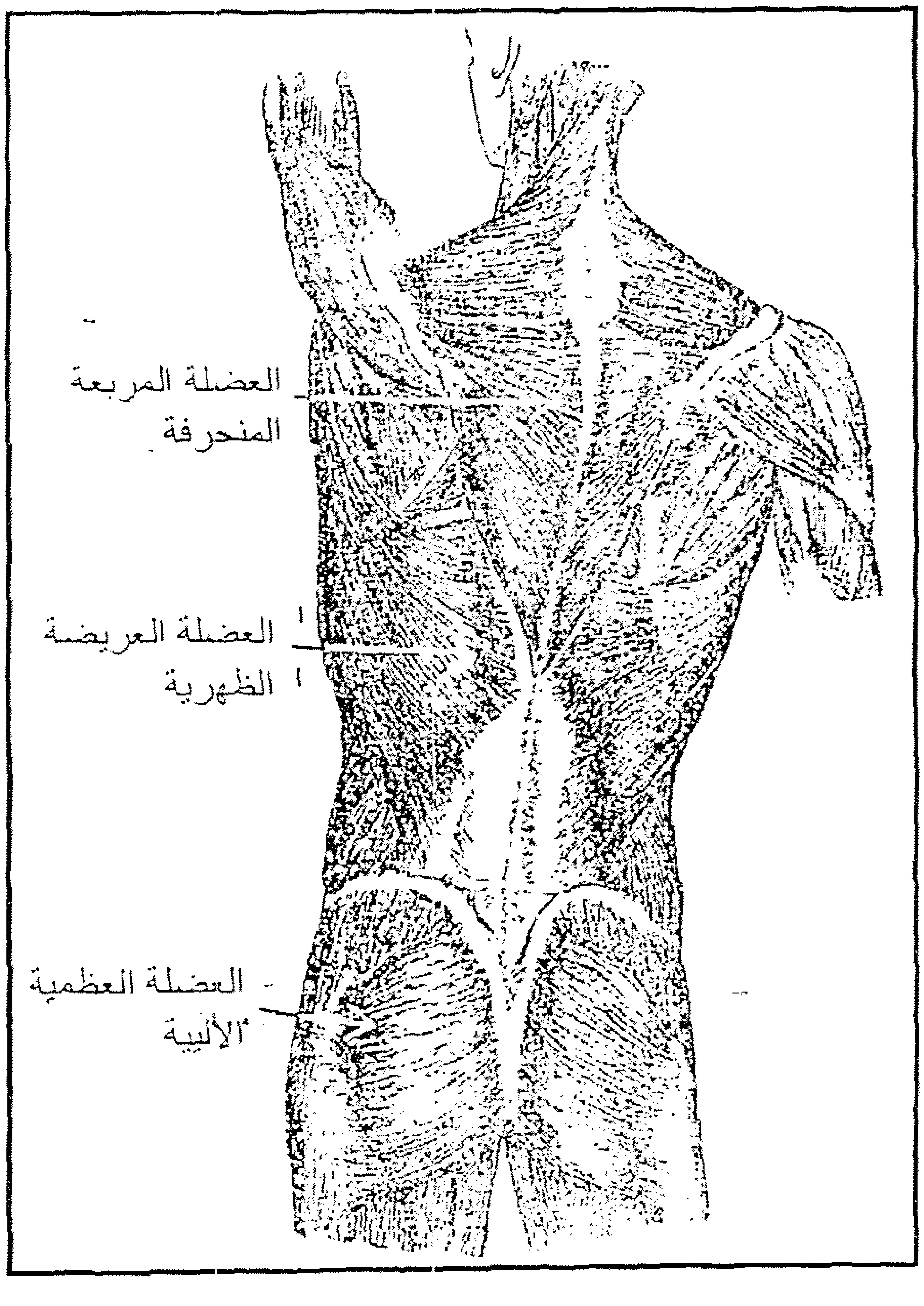

عضلات السطح الخلفي للجذع

(و) الحجاب الحاجز: وهو صحيفة عضلية متسعة وسطها غشائي وتتصل بجدار الجسم الداخلي فاصلة فراغ الصدر عن فراغ البطن والحجاب الحاجز عامل مهم في عملية التنفس وتخترقه ثلاثة أعضاء مهمة هي المريء والوريد الأجوف السفلي والأورطى.

(ز) العضلات العاصرة: هي عضلات حلقية مركبة من ألياف دائرية وتوجد في الجفنين والشفتين وفي الاست وعنق المثانة. وفعل العضلات يشبه فعل الروافع المعروفة في علم الطبيعة.

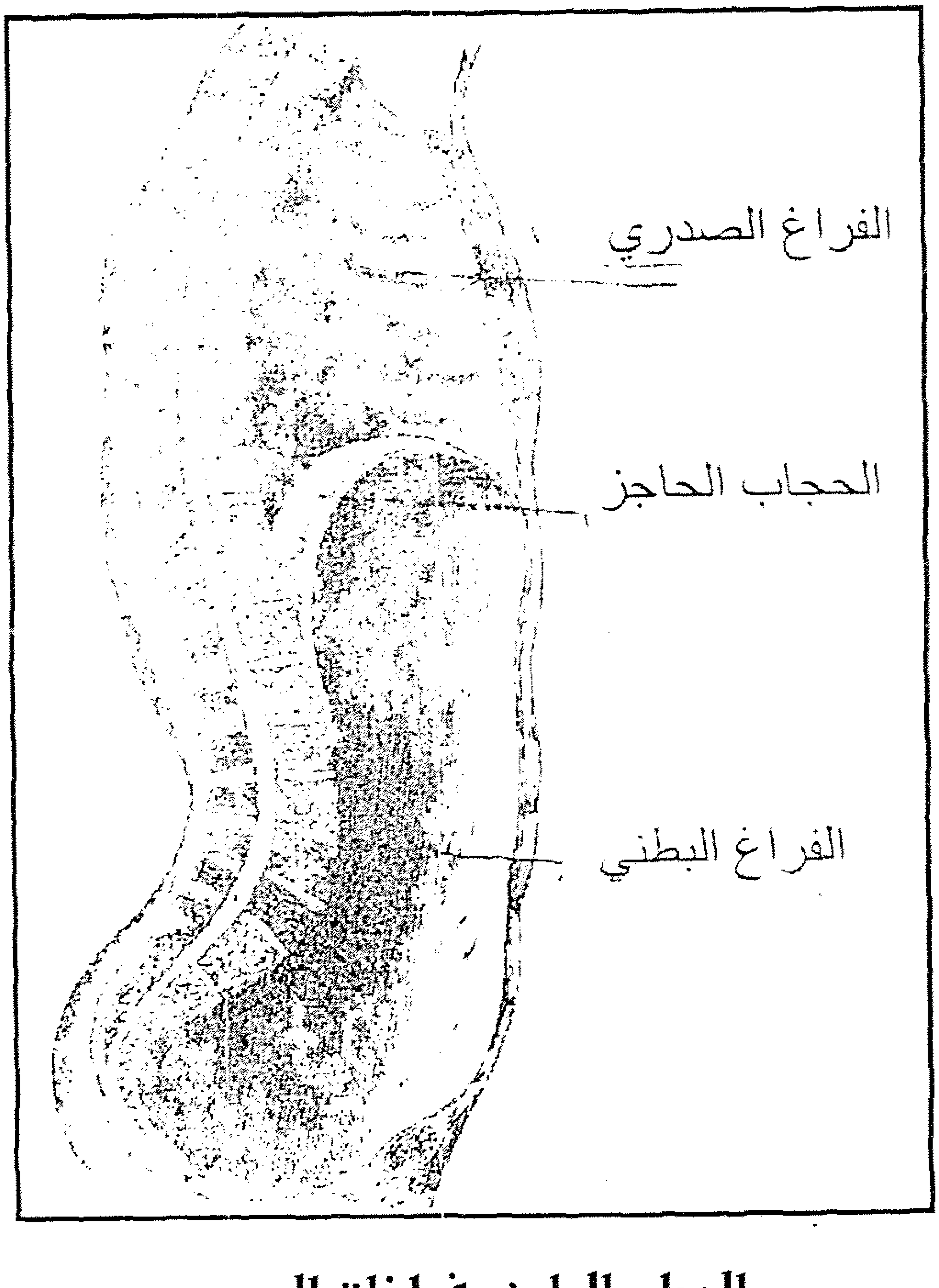

الحجاب الحاجز وفراغات الجسم

(٤) الروافع: الرافعة عبارة عن قضيب صلب (مستقيم أو منحنى) يتحرك بسهولة حول محور ثابت يعرف بمحور الارتكاز. توجد ثلاثة أنواع من الروافع وجميعها ممثل في جسم الإنسان وهي:

(١) النوع الأول من الروافع: يكون فيه محور الارتكاز واقعاً بين القوة والثقل.

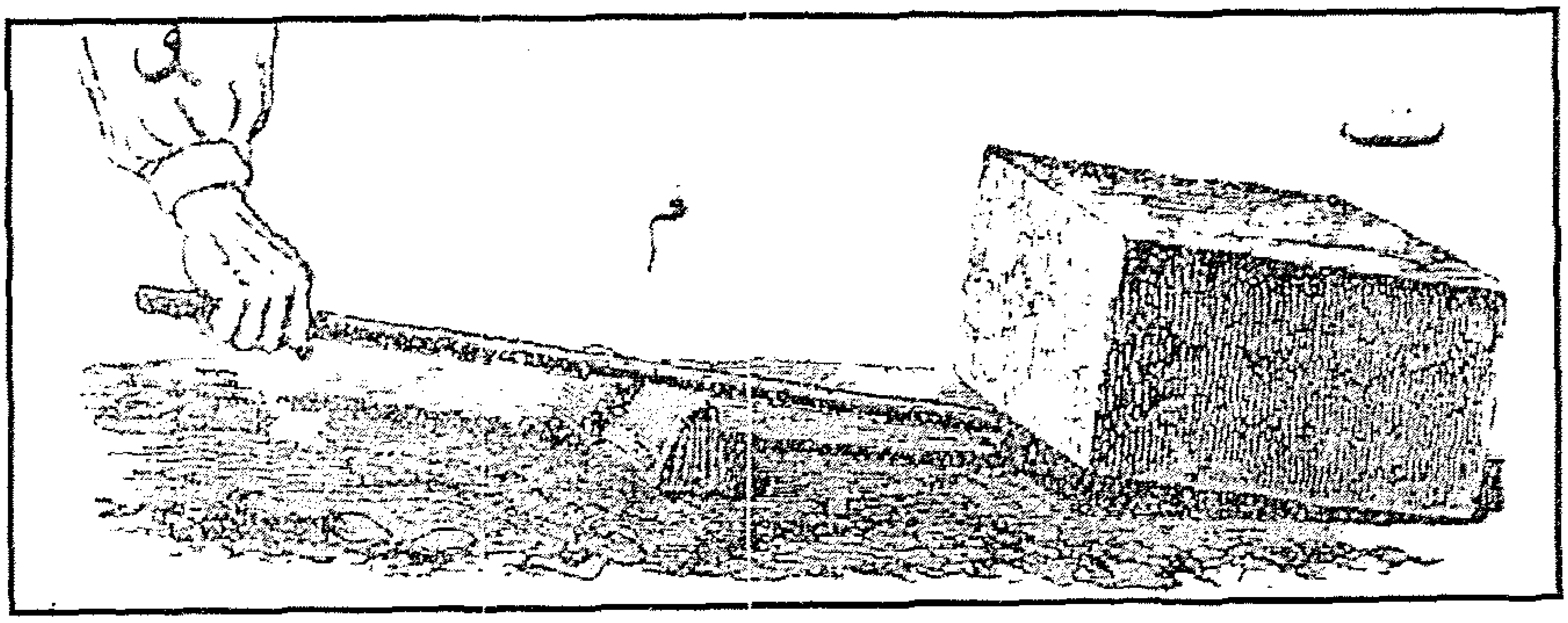

شكل يمثل الرفعة م محور الارتكاز ق القوة ث الثقل

ومن أمثلته ما يأتي:

(أ) حركة الجمجمة على العمود الفقري: توجد نقطة الارتكاز في هذه الحالة بين العمود الفقري والجمجمة فإذا انقبضت العضلات التي توجد خلف الرقبة يرتفع الوجه إلى أعلى وإذا انقبضت العضلات المضادة لها الموجودة أمام الرقبة ينحني الوجه إلى أسفل وعلى ذلك يمثل كل من الوجه والجزء الخلفي من الرأس الثقل والقوة بالتبادل.

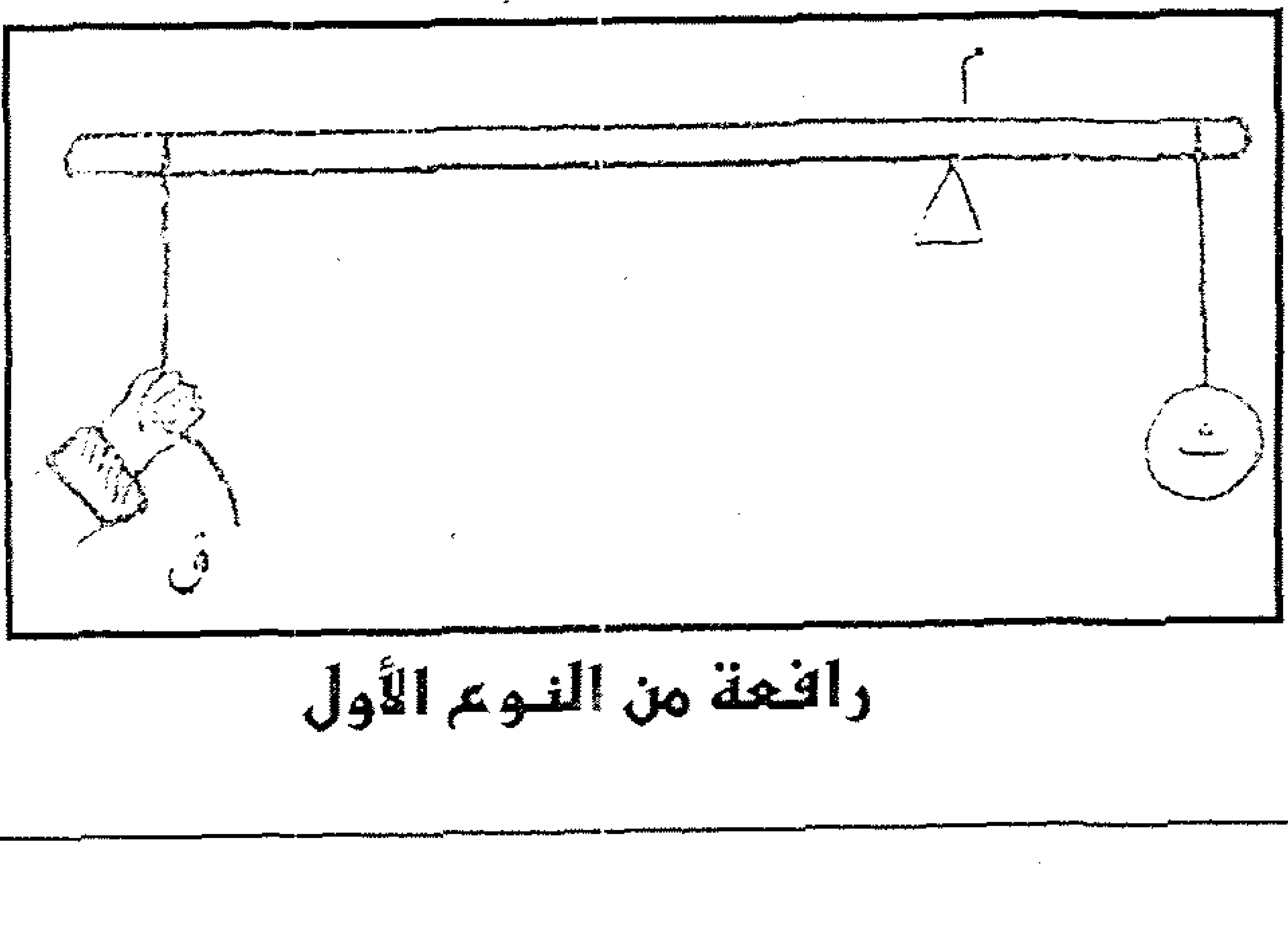

رافعة من النوع الأول

(ب) حركة انحناء الجسم واعتداله: تكون نقطة الارتكاز في هذه الرافعة هي المفصل الفخذي أما القوة فتأتي بالتبادل من العضلات التي تربط الجزء الخلفي من عظام الحوض بعظام الطرف الخلفي ومن العضلات المرتبطة بالجزء الأمامي لهذه العظام كما في الشكل التالي.

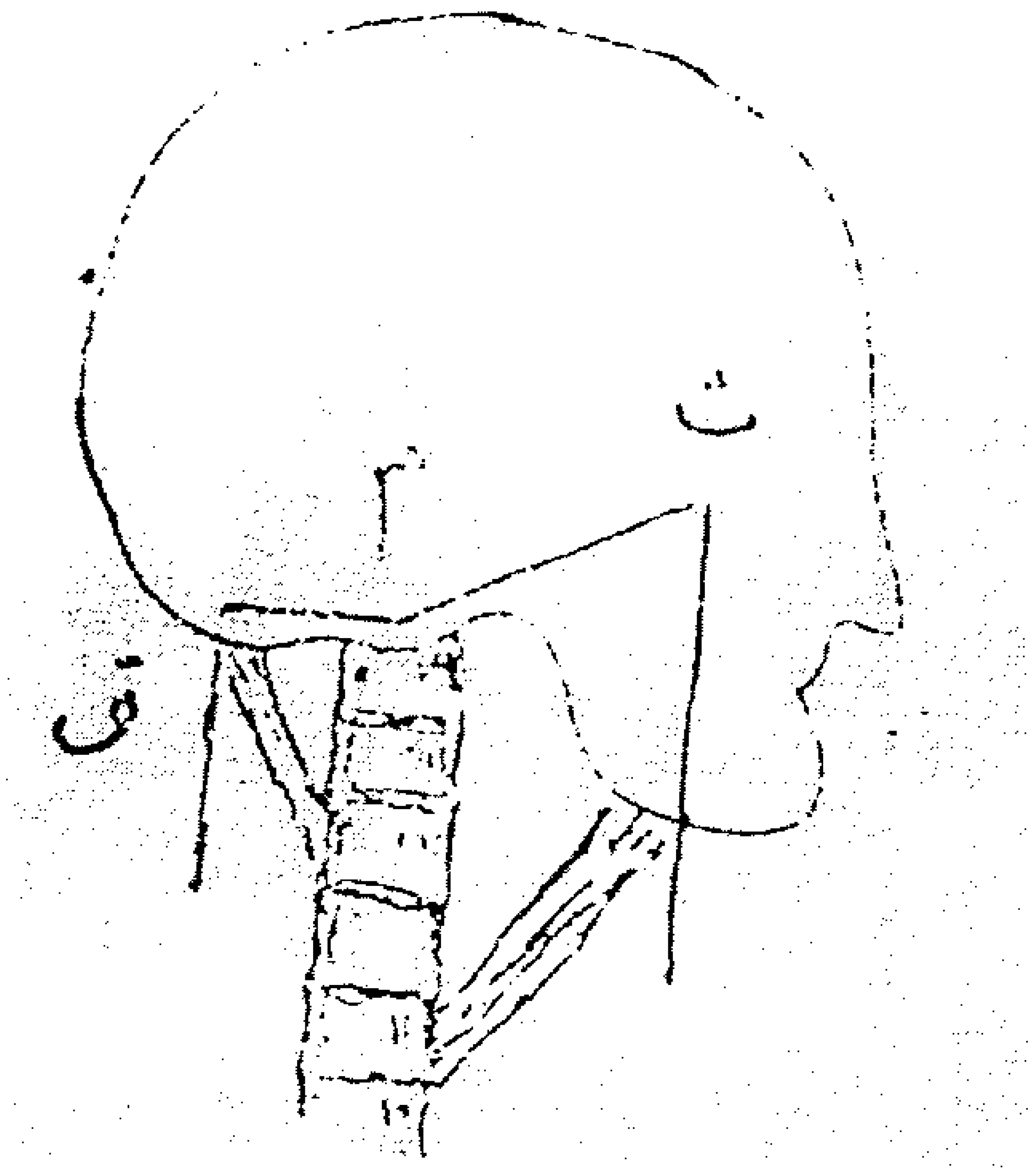

حركة الجمجمة (أمامية وخلفية وبالعكس) على الفقرة المحورية

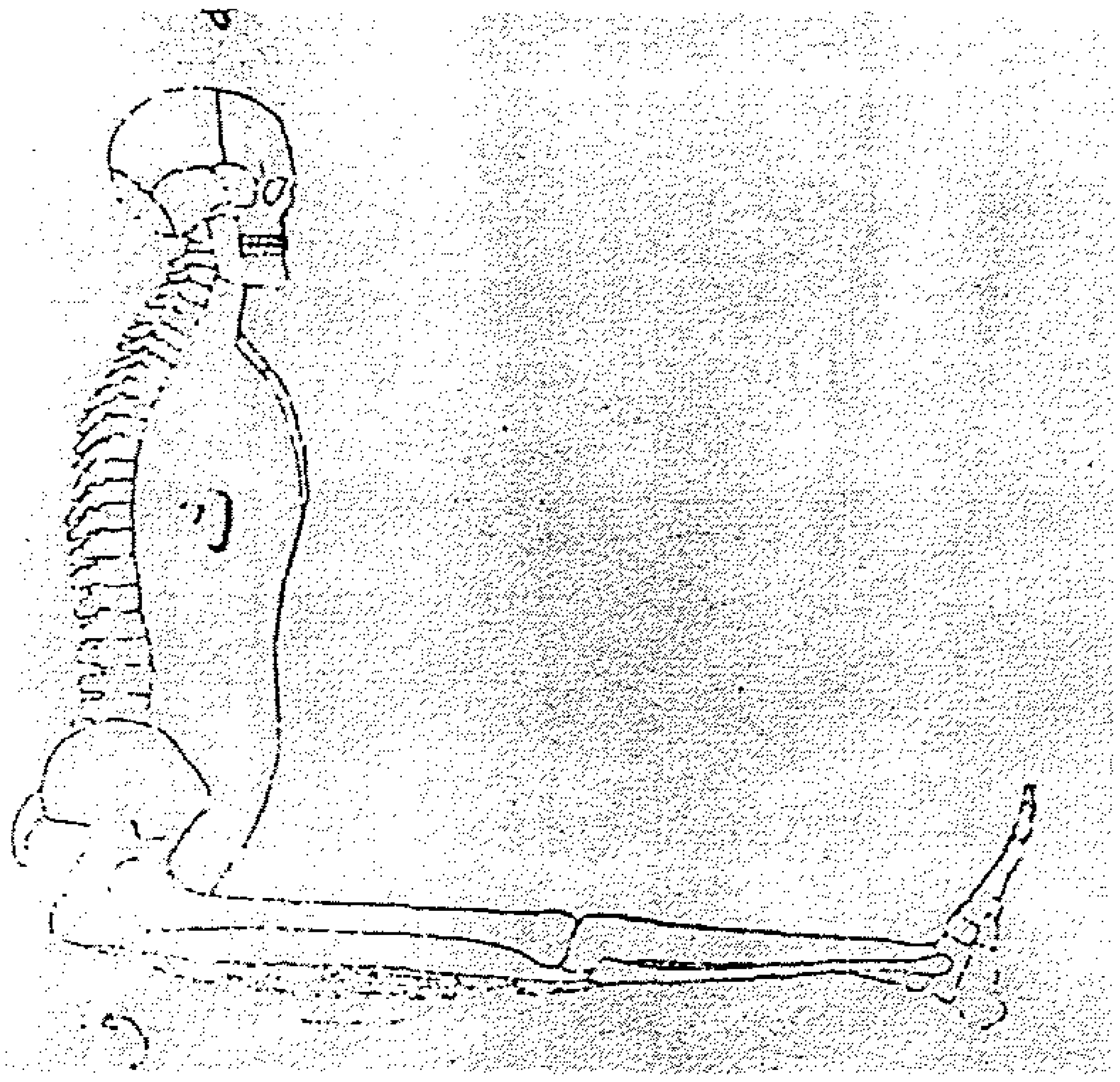

حركة انحناء الجسم واعتداله على المفصل الفخذي

(٢) النوع الثاني من الروافع: يكون فيه الثقل واقعاً بين محور الارتكاز والقوة ومن أمثلته ما يأتي:

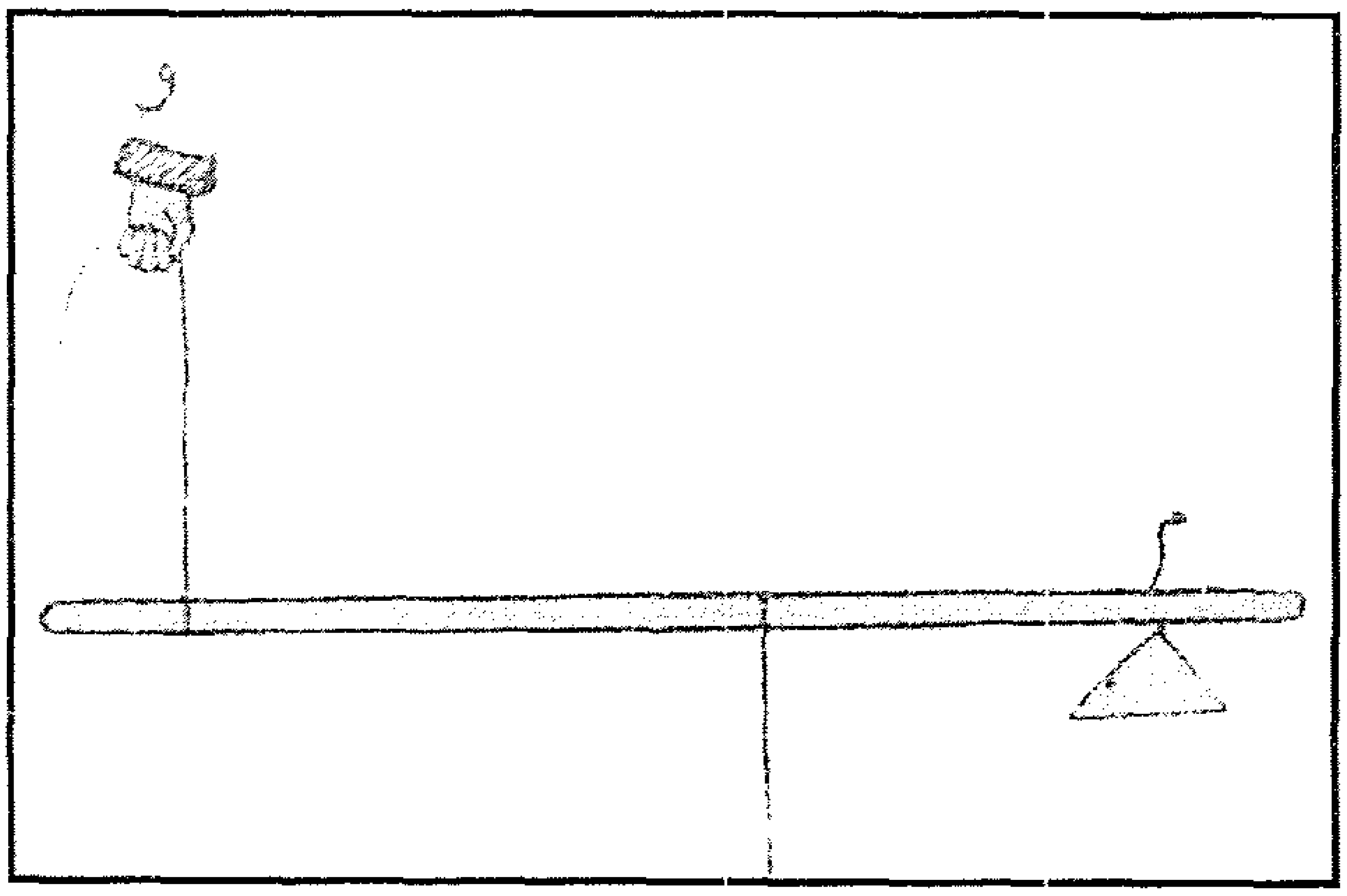

رافعة من النوع الثاني

رفع الجسم على أصابع القدم يمثل مشط القدم وأصابعه على الأرض محور الارتكاز ويمثل الساق الذي يحمل الجسم الثقل المراد رفعه والقوة تأتي من العضلة الممتدة في بطن الساق والتي يندغم وترها في عظم العقب كما في الشكل التالي.

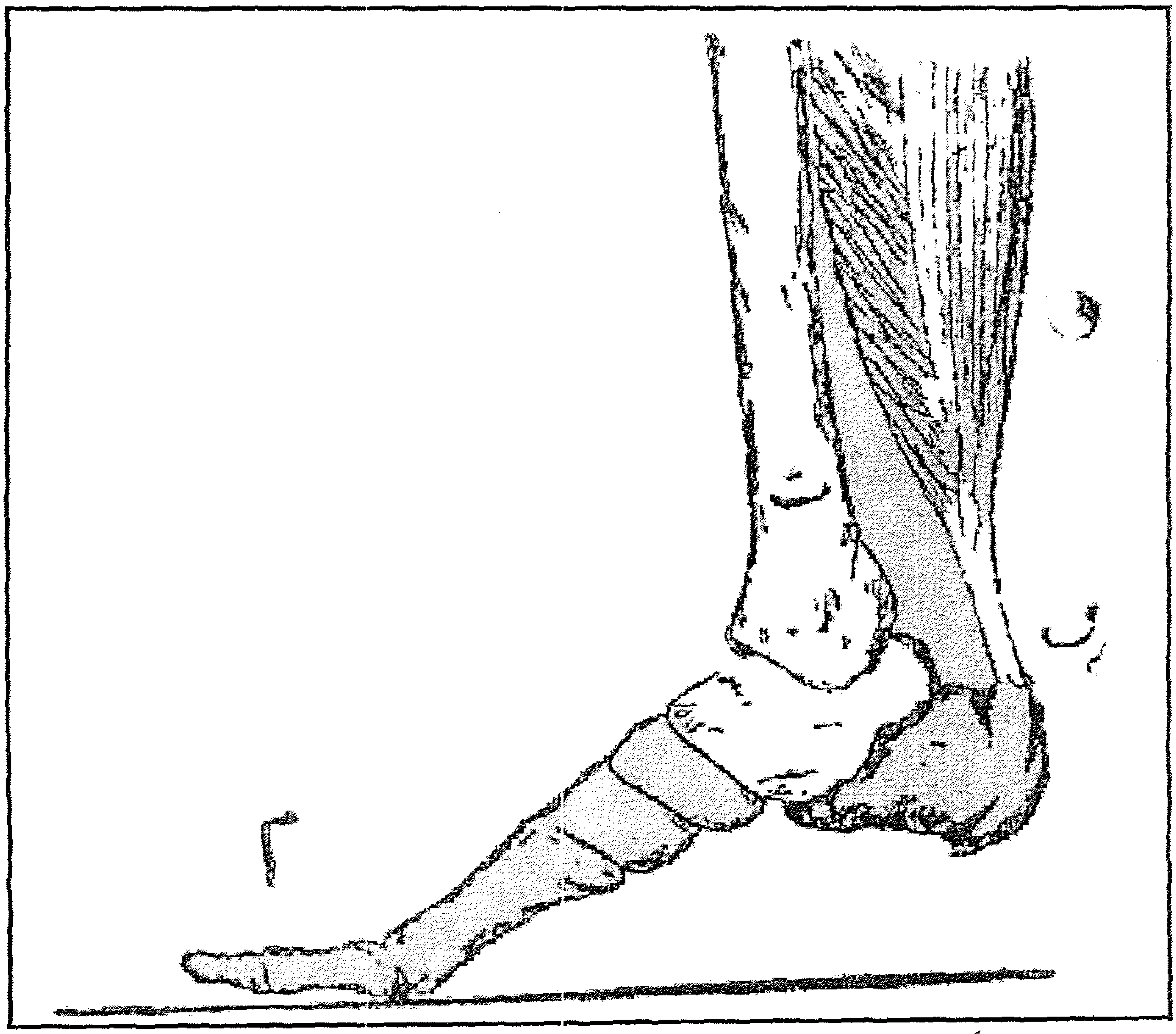

رفع الجسم على أصابع القدم

(٣) النوع الثالث من الروافع: تكون القوة فيه واقعة بين محور الارتكاز والثقل ومن أمثلته ما يأتي:

انثناء الساعد على العضد- محور الارتكاز في هذه الرافعة هو المفصل المرفقي الواقع بين العضد والساعد والثقل المراد رفعه هو الساعد واليد والقوة تأتي من العضلة ذات الرأسين الممتدة أمام العضد والتي يندغم وترها في عظم الكعبرة من الساعد.

الباب الرابع

- محاضرات في درجات الحرارة في جسم الإنسان
- دراسات في الفلك

المادة الثانية

أمراض المنطقة الحارة خاصة في مصر

قام بإلقاء المحاضرات في هذه المادة الدكاترة حسب الجدول والذي اعتمده عميد كلية الطب في باريس.

رقم المحاضرة	اسم الدكتور الذي ألقاها	اسم المحاضرة
الأولى	د/ كلوكيه Cloguet	مسؤولية المبعوث في توعية المصريين بالمحافظة على صحتهم مع إعطائهم لوحات عن مرض الحمى.
الثانية	د/ ديجينت Degentes	درجة الحرارة عند الإنسان السليم
الثالثة	د/ أورفيلا Orfila	الأسباب التي تؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة عند الإنسان
الرابعة	د/ بيجان Begin	العدوى
الخامسة	د/ روستان Reston	حاملو الميكروبات
السادسة	د/ روش Roche	أهم الحشرات الناقلة للأمراض

يعتمد

عميد كلية الطب

د/ جوبير Jutbert

الفصل الأول

درجات الحرارة

المحاضرة الأولى

د/ كلوكيه

قال في بداية المحاضرة: أنتم مسؤولون أمام ضمائركم وأمام مجتمعكم عن تغيرات معتقدات الشعب المصري السيئة إزاء الأمراض الضارة المنتشرة في المدن والقرى وبين قوات الجيش وتكون توعيتكم في النقاط التالية:

- التقليل من زيارة المريض.
- عدم مشاركة المريض في مأكله وشربه ونومه.
- عدم إغلاق النوافذ والمنافذ في المكان الذي يكون فيه مريض الحمى.
- عدم إثقال المريض بالملابس الثقيلة خاصة الغطاء.
- عدم منع الماء الصالح للشرب عن المريض الذي يعتقد أهله بأنه ضار به علماً بأن الماء قوام حياته وسر الشفاء له.
- القيام بتنظيف المريض واستبدال فراشه وتبصير أهله بأن منع نظافة المريض قد يؤدي إلى فقد بصره.

ثم ختم حديثه بأنه سيعرض عليهم لوحات عن المرض.

معلومات عامة في الحميات

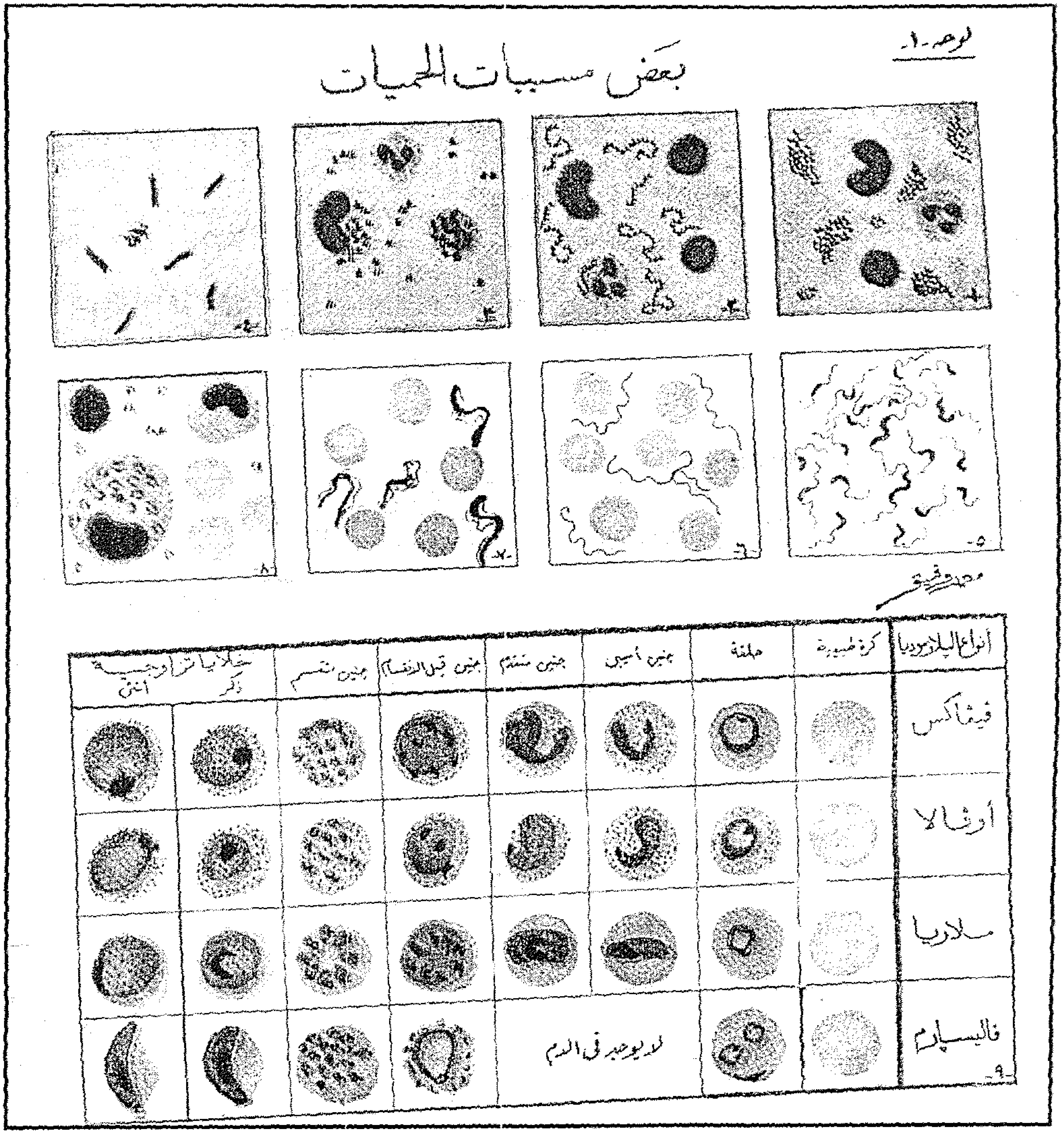

(١) مكورات عنقودية (٢) مكورات سيجمية (٣) مكورات ثنائية

(٤) ميكروبات عصوية (٥) ضمات الكوليرا (٦) ميكروبات لولبية

(٧) تريبانوزوم (٨) ليشمانيا

(٩) طفيليات الملاريا بأنواعها المختلفة وفي جميع أطوار حياتها في دم الإنسان المريض

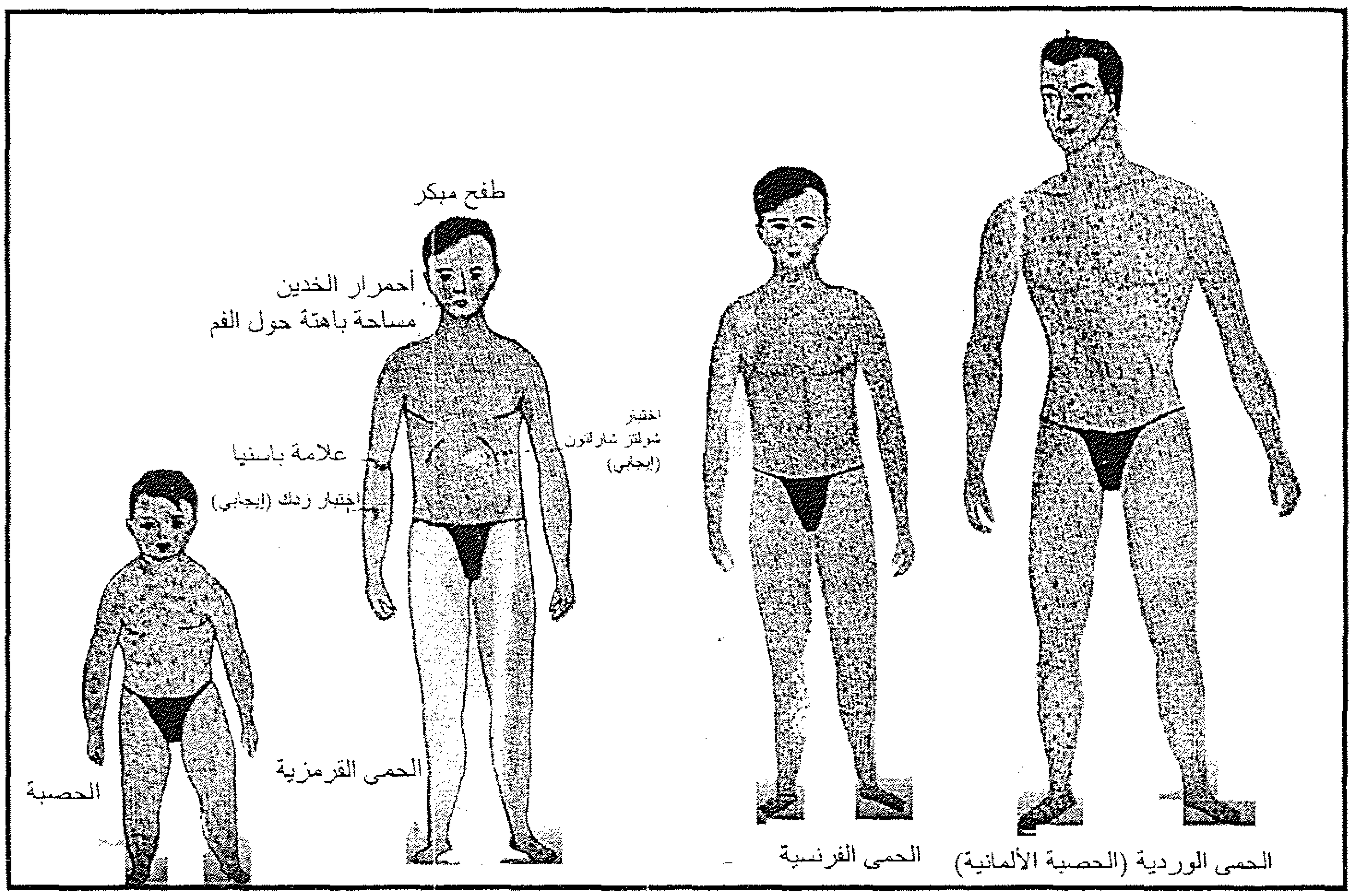

الطفح في الحمى الوردية (الحصبة الألمانية) والحمى القرمزية والحصبة

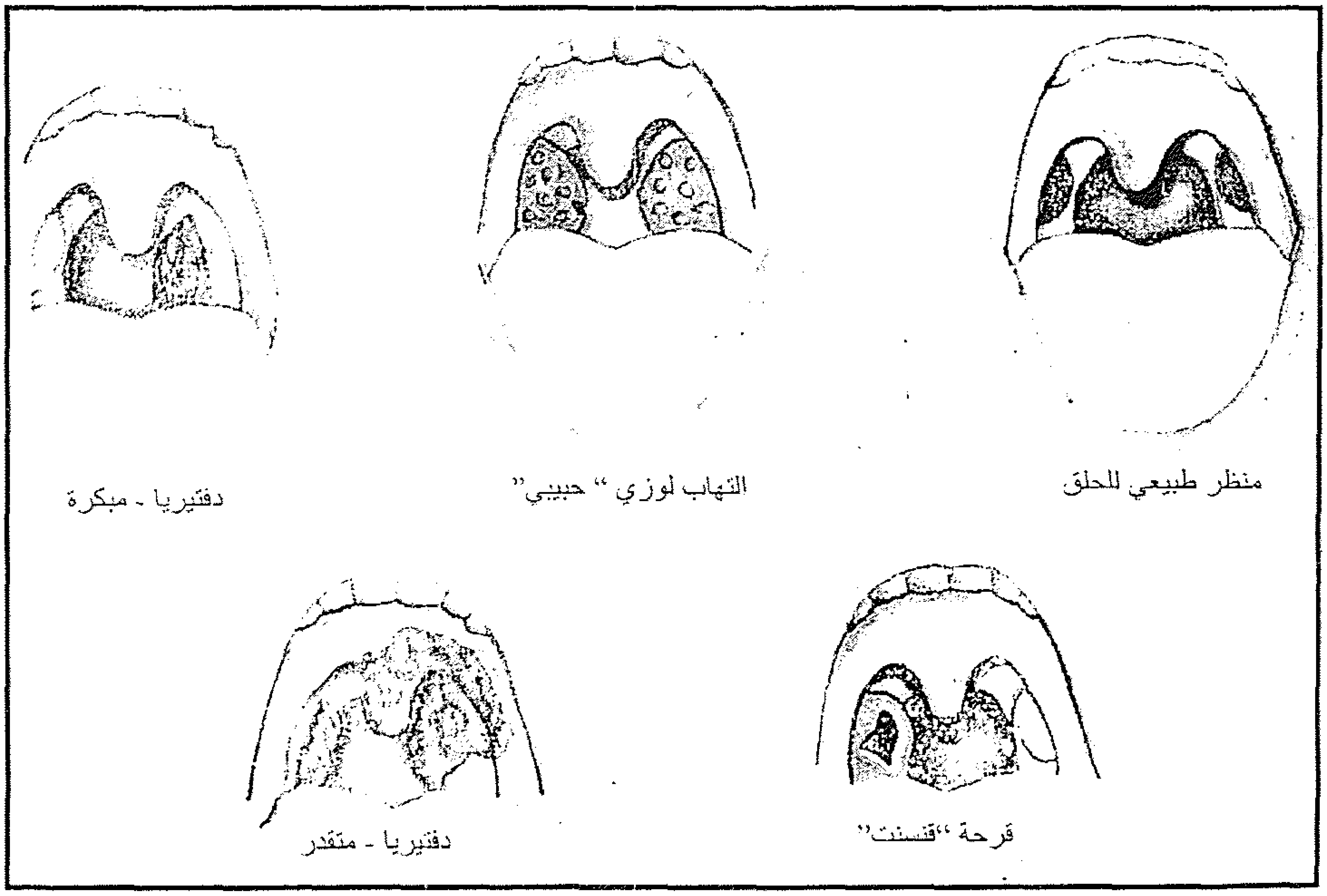

الحلق كما يبدو في بعض الحميات

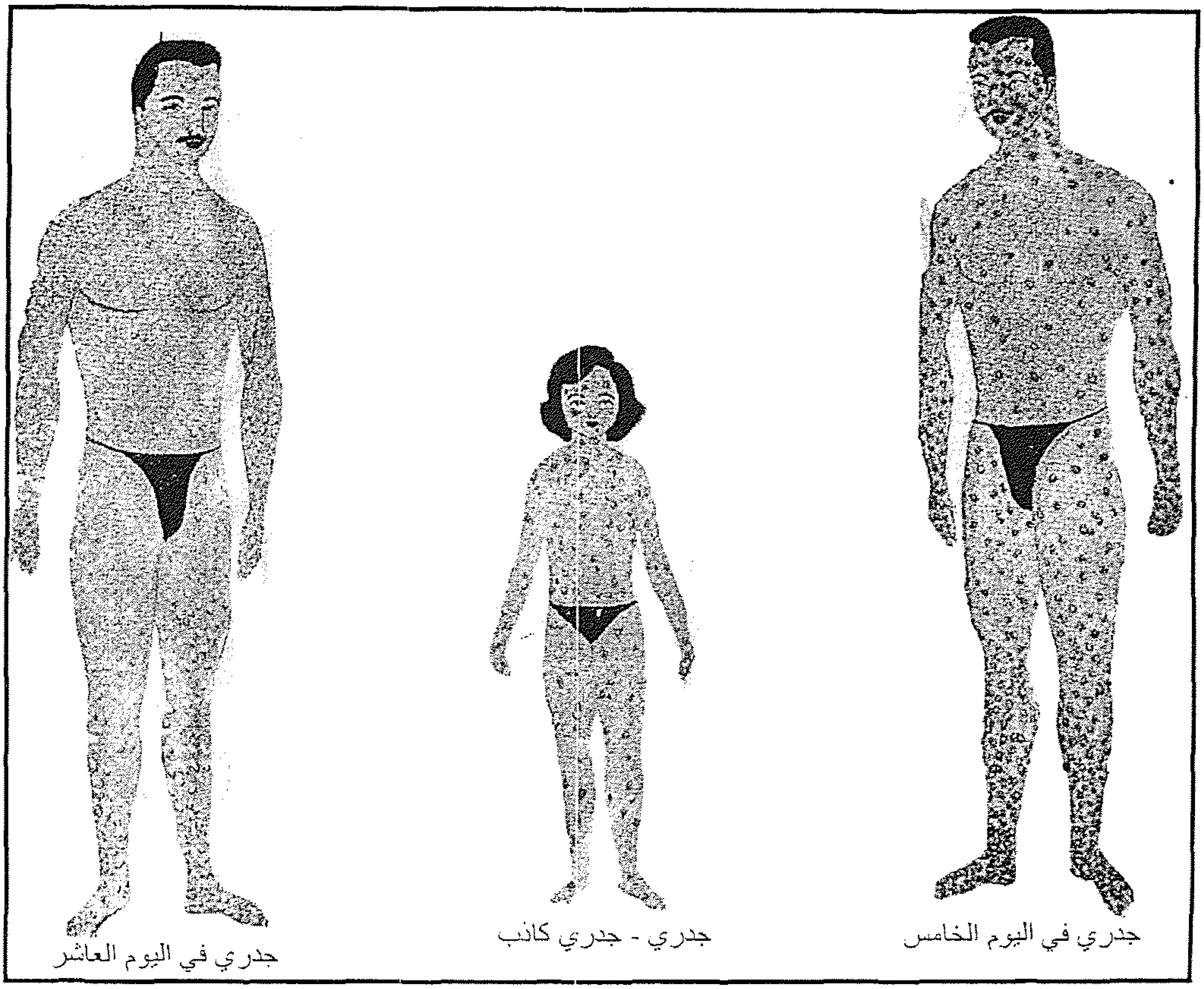

الجدري والجديري والجدري الكاذب

المحاضرة الثانية

تفاوت درجات الحرارة الطبيعية لدى الإنسان ألقاها د/ ديجنيت Degntes

بدأ محاضرته بعرض اللوحات التالية وعلق عليها ووضح التفاوت بين درجات الحرارة الطبيعية ودرجات الحرارة لدى المريض.

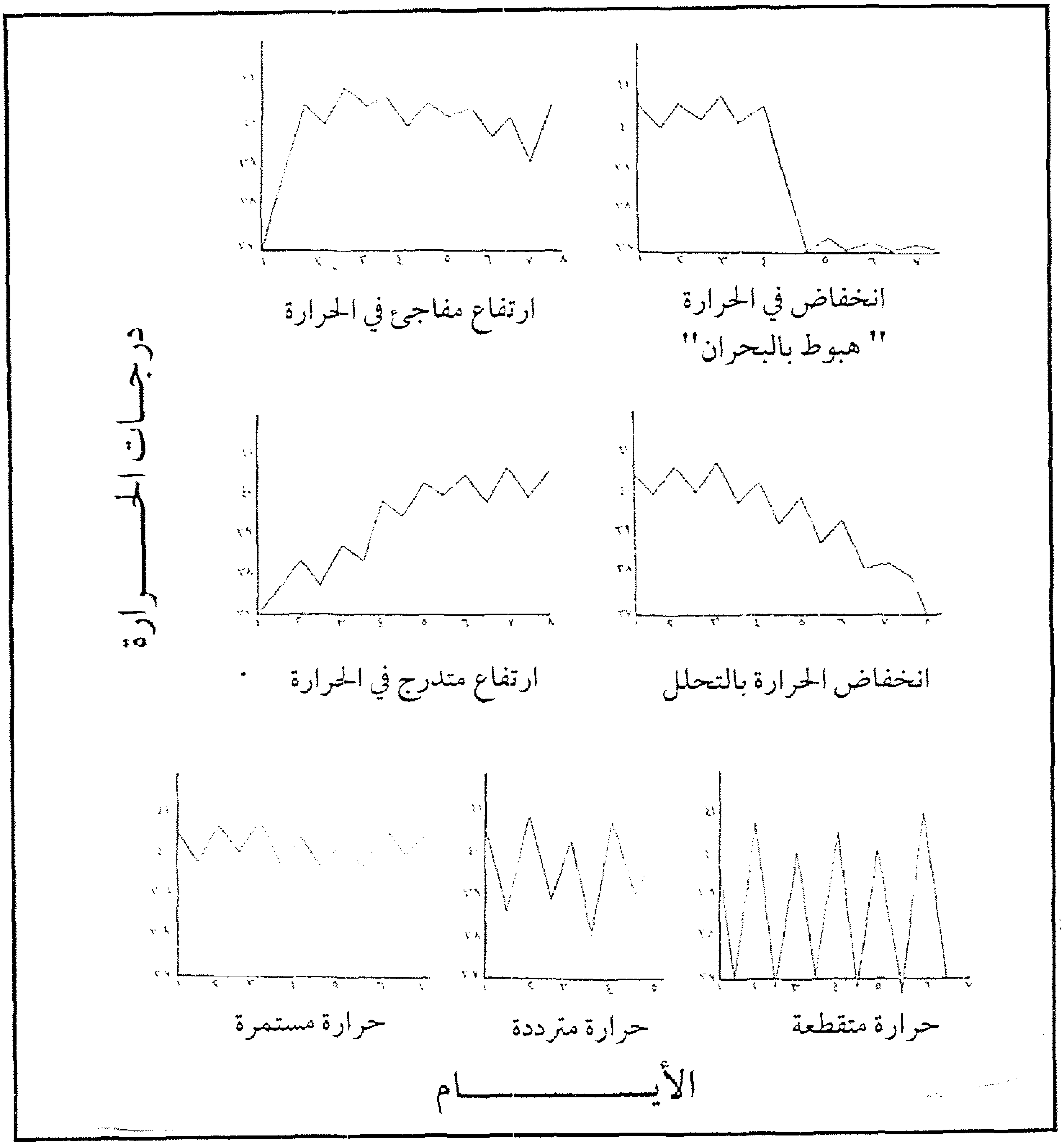

درجة الحرارة الطبيعية ودرجات الحرارة لدى المريض – الخط البياني لأنواع الحرارة المختلفة

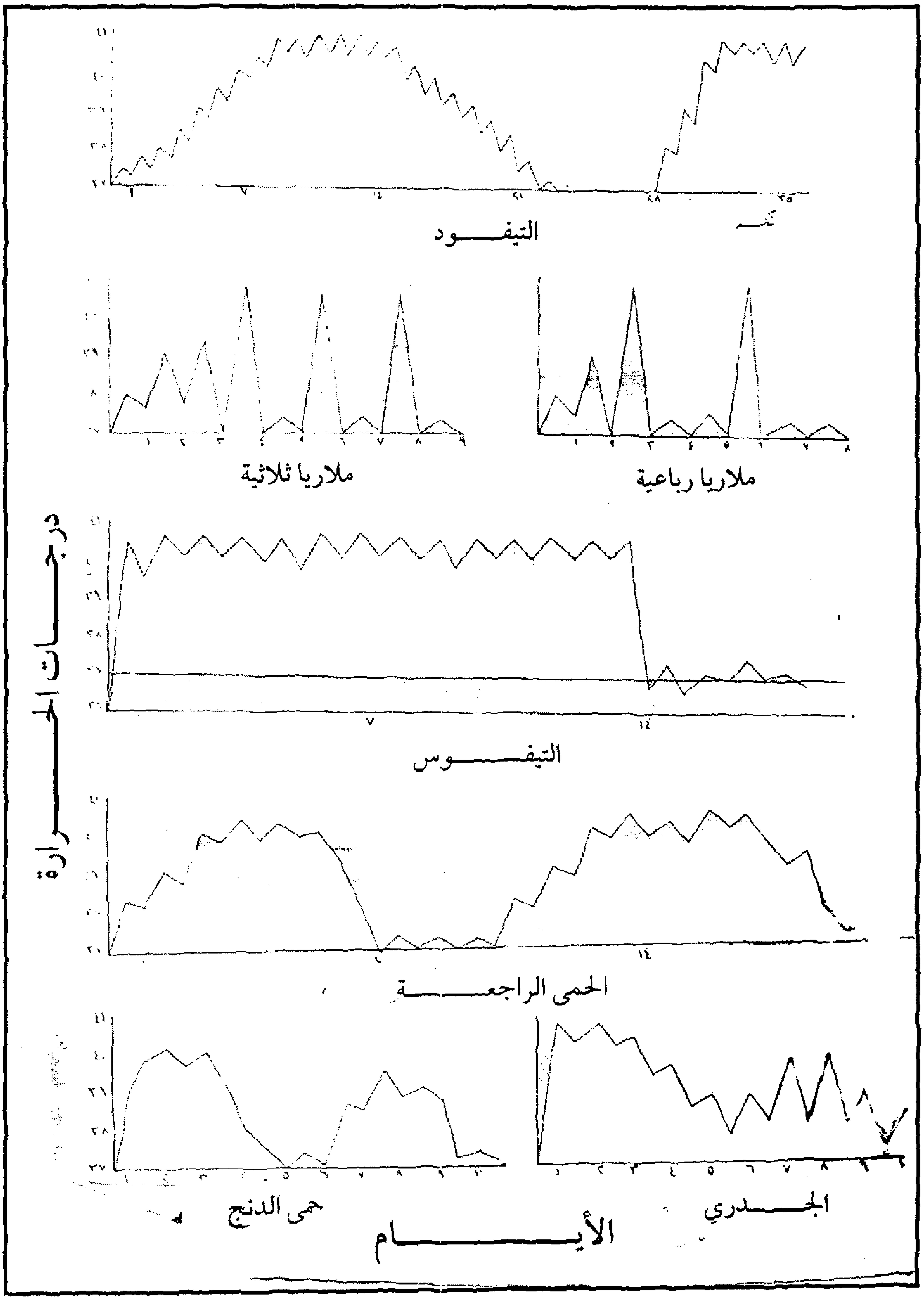

الخط البياني في بعض الحميات (في الحالات التالية)

واستطرد يقول بعد ذلك: درجة حرارة الجسم ليست متساوية عند كل إنسان في جميع أجزائه فحرارة الجوف داخل البطن والصدر أعلى بكثير من حرارة الفم والشرج وحرارة الأخيرين أعلى من حرارة الجلد. بل إن حرارة الجلد تختلف بعضها عن بعض فحرارة السطح المكفون من الجلد مثل تحت الأبط وثنايا الحفرة الأربية (بين الفخذ والبطن) أعلى من حرارة سطح الجسم المغطى بالملابس وحرارة سطح الأخير أعلى من حرارة سطح الجسم المعرض للجو مثل جلد الوجهين واليدين.

وتبلغ حرارة الجسم الطبيعية في الجوف أكثر من الشرج ومن الفم وفي ثنايا الجلد وعلى سطح الجلد.

وفي حالة الإجهاد لا سيما إن كان شديداً فقد يستطيع الدم جعل حرارة متساوية في جميع أجزاء الجسم بسبب سرعته ودورانه ولذلك ترتفع درجة الحرارة أعلى من الشرج أو الفم أو أكثر ولكنها لا تلبث أن تعود إلى حالتها الطبيعية متى أخذ الجسم راحته وعادت سرعة الدورة الدموية إلى طبيعتها. لذلك لا يعتمد على درجة الحرارة نشأت بعد الإجهاد ولو كان قليلاً ولا بعد انفعالات نفسية ولا بعد تناول شراب أو طعام ساخن أو بارد فإن ذلك يؤثر موضعياً على درجة حرارة الفم. كما يجب أن تقاس الحرارة أكثر من مرة في الوقت الواحد وفي أوقات مختلفة في الوقت الواحد.

وتختلف درجة الحرارة في الأعمار المختلفة في الطفل أعلى منها في البالغ وفي البالغ أعلى منها بقليل في الهرم وذلك راجع إلى مقدار نشاط خلايا الجسم في كل حالة ومقدار نشاط الشخص في كل سن.

وتختلف كذلك الشخص الواحد في الصباح عنها في المساء على حسب أداء الشخص من العمل في يومه فإن كانوا يعملون بالليل فالحرارة على عكس ذلك فتكون في الصباح أعلى عن المساء وهذا يبين لنا مقدار تأثير الراحة والجهد على درجة الحرارة الطبيعية للإنسان.

المحاضرة الثالثة

كانت لسير / أورفيلا Orfila عن أسباب ارتفاع درجة الحرارة

وبدأ حديثه عن أسباب ارتفاع درجة الحرارة وقال أسباب الارتفاع يعود إلى أسباب فسيولوجية وعند ذلك لا يدوم الارتفاع أكثر من ساعات تعود بعدها إلى المستوى الطبيعي.

قد يكون ارتفاعها بسبب مرض مفاجئ غير الحمى وفي هذه الحالة لا يستمر ارتفاعها طويلاً. ولكن ارتفاع الحرارة في أغلب الأحيان يكون عرضاً من أعراض الحمى ويجب أن لا يغفل أمرها.

والحرارة في الحقيقة سلاح من أسلحة الجسم لمقاومة الميكروب فهي نذير (نار) حرب مشتعلة داخل الجسم بين الميكروب المهاجم وباقي أسلحة الجسم المقاومة له وكأنها تفادي المريض أن سارعوا وساعدوا الجسم على مقاومة أعدائه من الميكروبات.

وليس ارتفاع درجة الحرارة ضاراً في حد ذاته بل هو نافع ومفيد ولا يجوز بحال أن يصمد إلى تخفيض درجة الحرارة بتعاطي العقاقير المخفضة فضررها أكثر من نفعها ومع ذلك إذا طالت مدة ارتفاع درجة الحرارة عن معدلها بدرجة كبيرة فإنه يجهد المريض وينهك قواه وإذن لابد من تخفيضها وأسلم طريق لذلك هو الطرق الطبيعية.

باستعمال الماء البارد بشتى الطرق كالحمامات والكمادات والشراب والحقن الشرجية بالماء الثلج وغير ذلك وهذا أحدث الآراء في علاج الحرارة المرتفعة حيث قال رسولكم " الحمى من الحميم أطفئوها بالماء البارد".

وقد ثبت لدينا ضرر كل العقاقير المخفضة للحرارة ضرراً كبيراً ولا يمكننا أن نشير إليها إلا مضطرين لذلك ومع تشعب أسباب ارتفاع درجة الحرارة وتنوعها يمكننا أن نوضح ذلك فيما يأتي:

(أ) الحميات النوعية وتنقسم إلى:

١- العدوى بالميكروبات سواء الكوارث أو العصوبات أو الضمات.

٢- العدوى بالفيروسات.

٣- العدوى بالراكتسيا.

وكثيرًا ما ترتفع درجة حرارة الجسم في الأطفال والبالغين وإن كان ذلك في الأطفال أكثر حدوثاً مما يسبب الذعر والهلع للمريض وأهله فيتبادر إلى الذهن أخطر الأمراض ونتصور أسوأ العواقب ولكن هذا الارتفاع لا يلبث أن يزول بعد قليل والحقيقة أن ارتفاع درجة الحرارة لا سيما في الأطفال قد يحدث لتوافه الأسباب كالإمساك والتهيج العصبي وكثرة الإجهاد في اللعب وشدة البكاء وغير ذلك.

ويحدث عند البالغين مع الإجهاد الجسماني فقد ترتفع درجة الحرارة بعد الجري مسافة ١٠٠ متر أو أكثر. كما ترتفع بعد الانفعالات النفسية ولكنها سرعان ما تعود إلى حالتها الطبيعية بزوال سبب ارتفاعها وبذلك تعاود الطمأنينة قلب المريض وأهله ومع ذلك وهو دائماً الأولى بحسن أن تقدر أسوأ الفروض ونهتم بارتفاع الحرارة كما لو كانت عرضاً من أعراض الحمى لا سيما إذا استمرت أكثر من عدة ساعات فإن ارتفاع درجة الحرارة هو أبرز أعراض الحمى وكأنه نذير من الله ومرشد إلى أنه هناك ألم بهذا الإنسان مرضي، عليه وعلى أهله أن يتداركوه خصوصاً إذا صحب هذه الحرارة بعض الأعراض.

وانتهت المحاضرة بعد ساعة ونصف من الابتداء وقد قمنا (التلاميذ) عملياً بممارسة درجات الحرارة على بعضنا قد وجدنا اختلافاً شديدًا فيها... وبدأ المسيو يناقشنا فيما ذكر وشكرنا وخرج من قاعة المحاضرات.

المحاضرة الرابعة

ألقاها مسيو بيجان Begin وموضوع محاضرته : العدوى

عرف العدوى بانتقال الميكروب من مصدر العدوى إلى جسم السليم بطريق مباشر أو غير مباشر. ووضح كيف تحدث العدوى ، بأن يجب أن يتوفر ثلاثة شروط:

١- مصدر العدوى.

٢- طريقة نقل العدوى.

٣- جسم قابل للعدوى.

ثم أخذ يوضح كل شرط على حدة:

أولاً: مصدر العدوى: إن مصدر العدوى يأتي عن طريق الإنسان أو الحيوان.

(١) الإنسان: أهم مصادر العدوى لأخيه الإنسان في حالتين:

(أ) الإنسان المريض: هو أهم مصدر للعدوى فمتى دخلت الميكروبات المؤدية الضارة في جسمه توالدت وتكاثرت بالملايين وبأعداد لا يتصورها الإنسان وبذلك يصير جسمه معمل للتفريخ ولنشر الميكروبات التي تخرج من جسمه بطرق شتى تبعاً للأمراض المختلفة فهي تخرج:

- **مع التنفس:** يكون هواء الزفير وما يصاحبه من الرزاز وكذلك البصاق واللعاب والبلغم ومخاط الأنف محملاً بالميكروبات في كثير من الأمراض وأهمها على سبيل المثال: الانفلونزا- السعال الديكي- الجدري- الجديري- الدفتريا- الحمى الشوكية- الحمى القرمزية.
- **مع البراز:** يكون البراز محملاً بميكروبات الأمراض التي تتوالد في الأمعاء مثل: التيفود- الباراتيفود- الكوليرا- الدوزنتاريا.

- **مع البول:** يخرج ميكروب الحمى المتموجة في البول ويكون البول سبب العدوى وكذلك في بعض حالات من التيفود والباراتيفود.
- **العدوى بالطفيليات وحيدة الخلية.**
- **العدوى باللوبيات.**
- **حميات سبب العدوى منها غير معروف تماماً.**

(ب) أمراض غير حمية: يكون ارتفاع الحرارة من أهم أعراضها وليس فيها تجمعات صديدية تعالج بمبضع الجراح وأهمها: الدرن الدخني- والتهاب حوض الكلى- والتهاب البلورا والنزلات المعوية الحادة- التهاب الكبد- مرض هودجن- النقرص الحاد- ارتفاع درجة الحرارة في الأطفال بدون سبب ظاهر- حمى الهستريا في البالغين- الحمى المصطنعة في التمارجين- السرطان- نزيف المخ- أمراض جلدية حادة.

ومع أنه يبدو أنه لا دخل لأخصائي الحميات في بعض هذه الأمراض إلا أن ارتفاع درجة الحرارة فيها دون وجود أعراض تشير إلى السبب تجعل أخصائي الحميات أو من يستشار فيها ولذلك لا غنى له عن دراستها جيداً.

(جـ) أمراض صديدية بالجسم: من أهم أعراضها ارتفاع في درجة الحرارة لكن مكانها قد يخفى مدة طويلة وتعالج على أنها حمة ومن واجب أخصائي الحميات أن يلم بها إلماماً ما وأن يعرف كيف يشخصها ويعالجها إن كانت قابلة للعلاج يغير مبضع الجراح وإلا عليه الاستعانة بالجراح فوراً وأهمها خراج تحت الحجاب الحاجز- تقيح البلورا لا سيما بين فصوص الرئة – تكيس صديدي بالكلى- خراج خلف الزور- تقيح المجاري الصفراوية أو تكيس صديدي بالمرارة- تقيح الجيوب الأنفية- تقيح الغدد الليمفاوية لا سيما داخل التجويف الصدري أو البطني- تقيح الغدة النكافية مما يشبه

حمى النكاف – تقيح البروستاتا – تقيح البيضتين – أو تكيس صديدي بأحدهما أو بقناة فلوب أو خراج بالدي أو خلفه وغيرها.

بهذا فقد بينا مقدار تشعب أسباب ارتفاع درجة الحرارة وبينا الصعوبات التي تجهد أخصائي الحميات والتي يجب أن يعد نفسه لمعرفتها وتشخيصها والتفريق بينها.

المحاضرة الخامسة

ألقاها مسيو روستان Reston وموضوع محاضرته : حاملو الميكروبات

فقال " إن حاملي الميكروبات على أنواع كثيرة وهم:

(١) الحامل المتحضن: وهو شخص أصيب بعدوى ولم تظهر عليه أعراض هذا المرض وقد يثبت أن كثيراً من المرضى يبدأون في إفراز الميكروبات وإخراجها من أجسامهم في آخر دور الحضانة وقبل ظهور المرض عندهم.

(٢) الحامل الناقل : وهو الذي ذاق مرارة المرض وظهرت عليه أعراضه ثم تم الشفاء له بإذن من الله. وهو أكثر أنواع حاملي الميكروبات وجوداً ولا يحدث ذلك في كل الأمراض بل أنه في أكثر أنواع الأمراض يتطهر المريض ويخلص من ميكروباتها قبل شفائه منها وحامل الميكروب الناقل لا يحمل الميكروب عادة إلى أجل طويل بل يتخلص منه مدة وجيزة وقليل من يحمل الميكروب بعد مرضه مدة طويلة وأقل منه من يحمل الميكروب طول حياته.

(٣) الحامل المخالط: وهو شخص سليم يخالط مريضاً مثل والد المريض ووالدته وزوجته وممرضته أو طبيبه يحمل بعض ميكروبات المرض وبسبب لا يعرفه إلا الله لا يصابون بالمرض. وقد ينقلون المرض إلى غيرهم ويظلون كذلك يحملون ميكروب المرض حتى يتم شفاء المرض ويتخلص من الميكروب أو يبتعدون هم عنه.

(٤) الحامل المجهول: وهو شخص سليم وجد عنده ميكروب مرض من الأمراض بطريق الصدفة وكان فحص فحصاً بتكزيزلوجيا لوجود مريض في المنطقة التي يعيش فيها أو اشتبه في أمره هذا الحامل المجهول قد يكون أخذ الميكروب من حامل آخر وقد يكون أصيب بعدوى ولم يظهر عليه من الأعراض المرضية ما يستدعي استشارة أحد في نظره فتحمل الأعراض البسيطة التي انتابته حتى زالت وبقى يحمل الميكروب إلى غيره من الأصحاء وهولاء هم أهم أنواع الميكروبات ويجب أن نعلم أن كل نوع منهم يحتمل أن تكون حالته واحدة من حالتين:

(أ) إما يكون حاملاً للميكروبات حملاً مؤقتاً: أي لمدة وجيزة لا تتجاوز ثلاثة أشهر .

(ب) إما يكون حاملاً للميكروبات حملاً دائماً مزمناً: وهو الذي يحمل الميكروبات مدة طويلة أي أكثر من ثلاثة أشهر وقد يحملها طول حياته.

(٤) العدوى بالملامسة: هناك بعض الأمراض ينقل فيها الميكروب من جسم المريض إلى السليم بمجرد اللمس وهي الأمراض التي تحدث بالجلد قروحاً أو جروحاً تفرز القيح والصديد مثل الزهري والسيلان والحمرة وبعض الأمراض الجلدية.

(ب) الإنسان حامل الميكروب: كل إنسان يحمل عدداً كبيراً من الميكروب ولكنها ميكروبات غير ضارة أما المقصود هو حامل الميكروبات التي تسبب الأمراض ويكون في ظاهره في صحة جيدة ولا تظهر عليه أية أعراض لهذا المرض وهو مع ذلك ينشر الميكروبات في إفرازاته يمنة ويسرة . ويتسبب في كثير من الأمراض بل الأوبئة وهو لا يدري فأينما حل تظهر الأمراض والأوبئة وهو مع ذلك بريء كل البراءة ومثل هذا أخطر على الإنسانية من المريض الذي يمكن عزله أو منع الأصحاء من الاختلاط به.

ومن حكمة الله أن المريض لا يستطيع التنقل وبذلك يتقي ضرره محدداً بمكانه أما حامل الميكروب فشديد الخطر لأنه يتحرك في كل مكان حيثما يشاء ولا يشعر بمرض يقعده ولا تظهر عليه علامات أعراض تمنعه من التجوال. وقد كان اكتشاف حامل الميكروبات نتيجة للأبحاث الحديثة التي أوجبت البحث عن حامل الميكروب هو الهدف الأول عند ظهور وباء جديد أو تكرار الإصابة أو تكرار الإصابة في ملجأ أو مدرسة لم يدخلها مريض.

ولم تسن الدولة قوانين تمنع حامل الميكروب من الاختلاط بالأصحاء وإنما يعتمد الطب في منع تسرب العدوى من هؤلاء وختم محاضرته فقال أترك لزميل لي أن يتحدث عن حاملي الميكروبات. كما يجب أن نفهم أنه في كلتا الحالتين:

١- إما أن يكون إفرازه للميكروب إفرازاً مستمراً Carrier Intenonittent أي كلما فحصنا إفرازاته فحصاً بتكريولوجياً وجدنا الميكروب في كل مرة فهو يفرزها باستمرار وبدون انقطاع طول مدة حمله للميكروب.

٢- وإما يكون إفرازه للميكروبات إفرازاً منعطفاً Carrier Intenonittent فإذا فحصنا إفرازاته باستمرار فحصاً بتكريولوجياً دقيقاً وجدنا الميكروبات فيها بعض المرات ولا نجدها في بعضها الآخر فهو إذن لا يفرز الميكروبات في كل مرة ولذلك يجب في كل حالة أن نفحص إفرزات حامل الميكروب فحصاً بتكريولوجياً دقيقاً ثلاث مرات على فترات وفي ظروف مختلفة إن أمكن. وسأترك قاعة المحاضرات لزميل لي وليكمل بقية الموضوع الذي أثرته لكم.

المحاضرة السادسة

ألقاها مسيو روش Roche وموضوع محاضرته : أهم الحشرات التي تنقل الأمراض

فقال " إن الحشرات كثيرة في المناطق الحارة ولها خطورتها في نقل بعض الأمراض وسأذكر هذه الحشرات وما تنقله من أمراض وعليكم مسؤولية في توعية الناس في بلدكم بالقضاء على هذه الحشرات الضارة بالصحة العامة والتي تنقل المرض الذي يؤثر على تعطيل الدولاب العملي في بلدكم. وهذه الحشرات هي:

(١) **الذباب المنزلي:** ينقل التيفود- الباراتيفود- الكوليرا- الدوزنتاريا- الإسهال- الرمد الصديدي والحبيبي- الجدري- عدوى الجروح- الديدان المعوية.

(٢) **القمل:** ينقل التيفود الوبائي- الحمى الراجعة في مصر- حمى الخنادق.

(٣) **البعوض:** الأنوفيل ينقل الملاريا- اللولكس وينقل داء الفيل- الأيدس وينقل الحمى الصفراء وحمى الدنج.

(٤) **برغوت الفأر :** ينقل الطاعون الدملي والسمعي والتيفود المتوطن من الفأر.

(٥) **القراد:** ينقل الحمى الراجعة في السودان.

(٦) **ذباب الرمل :** ينقل القرحة الشرقية وحمى الثلاثة أيام.

(٧) **ذباب تسي تسي:** ينقل مرض النوم في أواسط آسيا.

(٨) **البق:** من العجيب أن البق مع كثرة انتشاره لم يفهم لكونه ينقل أي مرض من الأمراض ولم يعلم دليل على أنه له أي دور في انتشار الأوبئة وإن كان دليل على الإهمال والقذارة.

كيف يتم الوقاية من الأمراض المعدية؟ " لكي نمنع العدوى يلزم أن نقضي على مصدرها وعلى طرق انتشارها ونبعد الشخص القابل للعدوى عن مصدرها أو نحصنه ضدها.

أولاً: المريض: يجب أن يعزل عن الأصحاء إذ أنه أكبر مصدر للعدوى وأحسن طريقة لذلك أن نبني مستشفى للعزل إجبارياً في بعض الأمراض ولا سيما التي تنتشر بسرعة على شكل وبائي مثل الكوليرا- والجدري- والتيفود- والطاعون وغيرها وإذًا لم ننس بناء مستشفى لكي يتم عزل المريض في حجرة خاصة به حتى يتم شفائه.

ثانياً: حامل الميكروب: ولا تزال مشكلة حاملي الجراثيم مشكلة معقدة فحامل الجراثيم لا يمكن كشفه إلا بمراقبة إفرازاته.

ثالثاً: الحيوانات: يجب ذبحها في مكان بعيد عن السكان ويمنع ذبحها خارج هذا المكان. أما الكلاب فهي مسؤولية من يقنيها والكلاب الضالة تجمع وتقتل إذا أصيب كلب بمرض الكلب فيجب قتله فوراً. أما القطط فإنها إذا مرضت يجب قتلها أو البعد عنها وعلى العموم يجب تجنب اقتناء الكلاب والقطط إلا للضرورة وقد ختم محاضرته بنصيحة للطلاب بأن يراعوا الأمور الصحية مثل:

١- النظافة وحفظ المأكولات وغليها أو تطهيرها قبل أكلها.

٢- يجب على الشاربين للألبان أن يقوموا بغليها لأن اللبن من أهم الأغذية التي تنقل الأمراض.

٣- مقاومة الحشرات مثل الذباب والناموس والقمل والبراغيث والبق وغيرها من الحشرات.

٤- غسل الأيدي قبل الأكل وبعده. ثم قال "أتمنى لكم حياة طيبة عند عودتكم إلى وطنكم".

الفصل الثاني

البعثة الفلكية إلى فرنسا

أرسلت هذه البعثة لتعلم علوم الفلك في مدينة باريس تحت إشراف مسيو لوفيربيه رئيس المرصد الفلكي وقد وجد عدد أعضائها ثلاثة في دفاتر المحفوظات وهم: (١) محمود أحمد (٢) إسماعيل مصطفى (٣) حسين إبراهيم.

وكانت رئاسة البعثة لمحمود أحمد أفندي حيث كان يعمل مدرساً للعلوم الرياضية والفلكية بمدرسة المهندسخانة في ذلك الوقت.

١- محمود أحمد حمدي الفلكي: من مواليد ١٨١٥م من بلدة الحصة من مديرية الغربية تعلم بالكتاب ودخل مدرسة المهندسخانة بالقلعة وأتم دراسته بها وكان من نوابغها ثم عين أستاذاً لها عندما نقلت إلى بولاق ١٨٣٤م ثم صار مساعداً للأستاذ محمد بيومي أفندي أحد خريجي البعثة الأولى وتعلم على يد بعض المشاهير علي مبارك وعلي إبراهيم باشا وحماد عبد العال وله كتاب في الكسوف الشمسي.

٢- إسماعيل مصطفى الفلكي: تلقى العلوم على يد محمود أفندي الفلكي ثم التحق بالمرصدسخانة القديمة ثم سافر لدراسة الفلك وله كتاب الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة.

٣- حسين إبراهيم أفندي الفلكي: تعلم في المهندسخانة ثم التحق بالمرصدخانة المصرية وكان يصدر تقاويم ميقاتية للسنين الهجرية وله مباحث علمية فلكية عامة وقد سافر إلى باريس لما انتظمت الدراسة في مرصد مسيو لوفيربيه كانت

المحاضرات عن الكواكب السيارة التي قررت أن أنقلها كاملة لتعرف مدى قيمة العلوم الفلكية التي تلقاها هؤلاء الثلاثة في باريس من مسيو لوفيربيه وعند عودتهم إلى مصر قاموا بتدريس مادة الفلك في المرصد المصري ببولاق.

المحاضرة الأولى

وبدأ مسيو لوفيريه محاضرته بالترحيب بالمصريين الذين جاءوا إلى مرصده ثم قال حضرات السادة سيكون حديث اليوم عن:

الكواكب السيارة

النجوم ثابتة في الفضاء تحفظ أشكالها وصورها من ساعة إلى أخرى والقول بأنها ثابتة تقريبي اعتباري، أما حركتها الظاهرة من حيث الشروق والغروب فتنشأ من دوران الأرض حول محورها ذلك على الضد من الكواكب السيارة فإنها تظهر متحيرة في سيرها بين النجوم تارة لتقدم إلى الأمام وترتد أخرى إلى الوراء. وهي ليست مضيئة لذاتها بل تظهر لنا كذلك بوقوع ضوء الشمس عليها وانعكاسه عنها. وهي تدور حول الشمس من الغرب إلى الشرق في أفلاك مستديرة تقريباً وفي مستويات تميل قليلاً على الدائرة الكسوفية. ويبلغ عددها الآن تسعة هي بحسب بعدها عن الشمس كما يأتي: عطارد- الزهرة- الأرض- المريخ- المشترى- زحل- أورانوس- نيبتون وتسمى الكواكب الأربعة الأولى الكواكب الأرضية ولعطارد والزهرة أوجه كأوجه القمر لأنهما يقعان بين الشمس والأرض ولم تلبث الأرصاد حتى الآن أن لهما أقماراً. أما الكواكب الأخرى فلها أقمار عديدة. فاللأرض قمر واحد وللمريخ اثنان وللمشترى تسعة ولزحل مثله ولأورانوس أربعة وليبتون واحد. أما في المنطقة الواقعة بين المريخ والمشترى ألوف من الكويبكبات Asteroids يدور جميعها حول الشمس في أفلاك مستديرة تقريباً ويبلغ متوسط ميلها على الدائرة الكسوفية نحو تسع درجات. ومن المحتمل أن تكون هذه الكويكبات قد تجمعت لتكون كوكباً في هذه المنطقة فلم تنجح أو أن انفجاراً هائلاً حدث في كوكب كان موجوداً فهشمه الانفجار أجراماً صغيرة هي هذه الكويكبات.

ثم وزع على الثلاثة المبعوثين جدول ثم قال " ومن الجدول الآتي تتبين العلاقة بين دورة الكوكب ومتوسط بعده عن الشمس. وكان العلامة الفلكي "كيلر" أول من كشف عن هذه العلاقة في القرن السابع عشر وقاعدتها أن مربع الدورة يتناسب مع مكعب البعد المتوسط للكوكب. ولقد حقق "نيوتين" إمكان استنباط هذه العلاقة بطريقة مباشرة من قانون الجاذبية. وتبين أيضاً من نفس الجدول قانون بود Bode لأبعاد الكواكب عن الشمس:

الاسم	متوسط الأبعاد باعتبار بعد الأرض يساوي أ	الدورة النجمية	الدورة الاقترانية	القطر المتوسط	الجرم (أو الكتلة)	متوسط الكثافة	قوة العكس
عطارد	٠.٣٨٧	٠.٢٤ سنة	١١٦ يوماً	٠.٣٩	٠.٤٠	٠.٧٠	٠.٠٧
الزهرة	٠.٧٢٣	٠.٦١	٥٨٤	٠.٩٧٣	٠.٨١	٠.٨٨	٠.٥٩
الأرض	١.٠٠٠	١.٠٠٠	–	١.٠٠٠	١.٠٠٠	١.٠٠٠	٠.٢٩
المريخ	١.٥٢٤	١.٨٨	٧٨٠	٠.٥٣١	٠.١٠٨	٠.٧٢	٠.١٥
الكويكبات	١.٤٦-٥.٧١	١.٧٦-١٣.٧	٣٨٤--٨٤٥	–	–	–	–
المشترى	٥.٢٠٣	١١.٨٦٢	٣٩٩	١٠.٩٥	٣١٦.٩٤	٠.٢٤٢	٠.٤٤
زحل	٩.٥٣٩	٢٩.٤٦	٣٧٨	٩.٠٢	٩٤.٩	٠.١٣	٠.٤٢
أورانوس	١٩.١٩١	٨٤.٠١	٣٧٠	٤.٠٠	١٤.٦٦	٠.٢٣	٠.٤٥
نبيتون	٣٠.٠٧١	١٦٤.٧٨	٣٦٧.٥	٣.٩٢	١٧.١٦	٠.٢٩	٠.٥٢

وليس لهذا القانون أي أساس رياضي وإنما يتفق تقريباً على وجه المصادفة مع الأبعاد الحالية وهو كما يأتي:- أضف إلى العدد ٤ كلاً من الأعداد صفر ، ٣ ، ٣ × ٢=٦، ٦ × ٢ = ١٢ وهلم جرا فتجد أن حاصل الجمع مساوي تقريباً لمتوسط بعد الكوكب عن الشمس باعتبار أن البعد المتوسط للأرض يساوي ١٠ .

	٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤
	٠	٣	٦	١٢	٢٤	٤٨	٩٦	١٩٢	٣٨٤
حاصل الجمع	٤	٧	١٠	١٦	٢٨	٥٢	١٠٠	١٩٦	٣٨٨
الكوكب	عطارد	الزهرة	الأرض	المريخ	الكويكبات	المشترى	زحل	أورانوس	نبيتون

تحصل حركة الكواكب الظاهرة أي سيرها المتحير بين النجوم لأننا ننظر إليها من فوق الأرض دائرة من حول الشمس. فهذه الحركة الظاهرة هي محصلة الحركة العكسية للأرض وحركة الكواكب الذاتية.

خذ مثلاً الزهرة فإنها تظهر في المساء قريبة من الشمس فويق الأفق الغربي، ثم لا تلبث أن تبتعد عن الشمس تدريجياً ليلة بعد ليلة حتى تصل بعد ثمانية أشهر إلى أقصى مداها شرقاً، حيث تبعد عن الشمس نحو ٤٨ درجة. ثم تقترب من الشمس ثانية وبعد مضي شهرين تتلاشى في أشعتها. ومن ثم يزداد لمعانها تدريجياً حتى يبلغ نهايته العظمى بعد عودتها بشهر واحد، فتظهر إذ ذاك جد لامعة حتى لقد تحدث ظلاً في المساء. ولا تلبث أن تظهر كنجم الصباح مبكرة في شروقها ليلة بعد ليلة، حتى تبلغ أقصى مداها غرباً. وبعد مضي شهرين تعود ببطء حتى تختفي مع أشعة شمس الصباح. ولقد فسر الإغريق هذه الحركة بأن الأرض مركز الكون وأن الكوكب يدور من حول مركز دائرة صغيرة بينما يدور المركز في دائرة أخرى كبيرة مركزها الأرض. وعليه فلكل كوكب دائرتان إلا الشمس فإن لها دائرة واحدة. وبواسطة هذه الأشكال الهندسية يمكن تفسير الحركة الظاهرة للكواكب العليا لكن في حالة عطارد والزهرة لا يتفق هذا والواقع. ولقد فسر قدماء المصريين ذلك بجعل دائرة أصلية واحدة هي فلك الشمس تمر بمراكز الدوائر الصغيرة التي تسير فيها الكواكب السفلى. وقام "قوبرنيقوس" في أوائل القرن السادس عشر يبين أن الحركة الظاهرة للنجوم أي شرقها وغربها إنما تنشأ من دوران الأرض حول محورها، وأن الحركة الظاهرة للكواكب تنشأ من دورانها حول الشمس في أفلاك مستديرة، ولكنها مختلفة المركز. وكان يظن أنه لا يليق فلسفياً أن تكون أفلاك الأجسام السماوية سوى منحنيات كاملة، والدائرة هي أكمل المنحنيات وانتهت المحاضرة.

المحاضرة الثانية

في صبيحة اليوم الثاني ذهبنا إلى المرصد واستقبلنا المحاضر بترحاب ثم سألنا عن أحوالنا قائلاً: كيف حالكم ثم قال سنتكلم عن بقية من المحاضرة السابقة.

ولم يرق في نظر الفلكي الشهير "تيجو براهي" الذي اشتهر بأرصدته العديدة، أن تدور الأرض من حول الشمس، وحجته في ذلك أنه إذا كانت الأرض تدور من حول الشمس فلابد أن تظهر هذه الدورة في النجوم الثابتة ولم تثبت الأرصاد التي قام بعملها على مواقع النجوم بواسطة أجهزته التي كانت في ذلك العهد من أحسن طراز، ولكن عندما تقدمت العلوم وصارت الأرصاد دقيقة جداً، تبين أن النجوم الثابتة تغير موضعها على مدى السنة بسبب زاوية اختلاف النظر وهي بذلك ترسم دوائر صغيرة في السماء تسمى الدوائر الاختلافية. وهذه الدوائر الصغيرة جداً بالنسبة إلى أبعاد النجوم الشاسعة ليست سوى صورة مصغرة لمدار الأرض حول الشمس.

إن الأرصاد العديدة التي قام بها "تيجو براهي" خصوصاً الأرصاد الخاصة بالمريخ والتي كانت على جانب عظيم من الدقة، قد مكنت العلامة "كيلر" من نتيجة سير الكواكب في أفلاكها واستنباط قوانينه الثلاثة المشهورة باسمه وهي:

(١) تدور الكواكب حول الشمس في شكل قطع ناقص الشكل تحتل إحدى بورتيه.

(٢) المساحة نصف قطرية التي يحدثها الكوكب في الانتقال على مداره، تتناسب وزمن الانتقال.

(٣) القانون التوافقي وهو مربع زمن دوران الكوكب يتناسب مع مكعب بعده المتوسط من الشمس. وباستعمال هذه القوانين استنتج "نيوتن" مبادئ الجاذبية وقوانينها المشهورة.

كان يظن حتى أواخر القرن الثامن عشر أن فلك زحل هو الحد النهائي للنظام الشمسي ولم يتخيل أحد وقتئذ وجود كوكب آخر وراء هذا الحد. وفي سنة ١٧٨١ م كشف "وليم هرشل" جسماً ضئيلاً يتحرك بين النجوم. ولقد عملت أرصاد عديدة لهذا الكوكب الذي سمي "أورانوس". ومن هذه الأرصاد أمكن الاستدلال على عناصر فلكه ومتى عرفنا هذه العناصر بأكملها. أمكننا التنبؤ بموقع الكوكب بين النجوم.

بعد مضي سنين عديدة ظهر من مقابلة الأرصاد الخاصة بمواقع "أورانوس" مع المواقع المستنتجة من المعادلات الرياضية أن هناك فروقاً ذات شأن بلغت أكثر من دقيقة قوسية. وبعد تغير بسيط في عناصر فلك "أورانوس" أمكن تخفيضها إلى ٢٠ ثانية قوسية. ولو أن هذه الكمية يمكن اعتبارها صغيرة، غير أنها حقيقة لأن الأرصاد من المراصد المختلفة قد بينتها بوضوح تام، والكميات الضئيلة في العلوم الدقيقة، تكون في معظم الأحيان سبباً لكشوف عظيمة.

لذلك قام الرياضي الفرنسي "لفرييه" بأبحاث رياضية طويلة وبعد الانتهاء من بحوثه كتب إلى "جال" المساعد الفلكي بمرصد برلين الرسالة الآتية: " وجه المنظار إلى نقطة في الدائرة الكسوفية بكوكبة الدلو وعلى طول ٣٢٦ درجة، تجد في منطقة لا تتجاوز درجة قوسية كوكباً جديداً يبدو كنجم من القدر التاسع وله قرص محسوس". وتم كشف هذا الكوكب الثامن على مسافة ٥٢ دقيقة من المكان الذي تنبأ به الرياضي الفرنسي. وكان ذلك أعظم وأبهر انتصار لنظرية الجاذبية. فقد أخذت شهرتها العالمية في الانتشار، وتبوأت مكاناً عالياً بين النظريات الرياضية لا يزحزحها عنه أية نظرية أخرى. (والبحث الرياضي الذي قام به "لفرييه" قام به آدمز الإنجليزي على حدة).

ولقد توالت الأرصاد الفلكية على الكوكب "نيبتون" وحسبت عناصر فلكه، غير أن هذه الأرصاد جميعها تقع في مدى أكثر بقليل من نصف دورته الكاملة، ولذا يكون من الصعب معرفة التقلقل الذي يحدثه جسم آخر في مداره. أما "أورانوس" فقد توالت عليه الأرصاد مدة دورتين ونصف تقريباً، وصار مداره معروفاً بالضبط. ولم يزل هناك بعد كشف نبتون فروق طفيفة في حركته لا تتجاوز أكثر من خمس ثوان قوسية. وقد علل ذلك بأنه لابد وأن يكون سبب هذه المفارقات تأثير جرم سماوي آخر أبعد عن الشمس من "نبتون".

ولحسن الحظ أدخل التصوير الشمسي كأداة من أدوات الرصد الفلكي وصار استعماله شائعاً في كثير من المراصد. واللوحة الفوتوغرافية أكثر حساسية من العين لأن الضوء الضئيل المنبعث من الجرم السماوي يتراكم ويحدث تأثيراً متناسباً مع زمن العرض. وبتقدم العلوم الفوتوغرافية أصبح من الممكن أخذ صورة بأي نوع من أنواع الإشعاع الطيفي. واللون الأحمر عادة لا يؤثر في الألواح العادية، غير أنه يمكن استعمال ألواح خاصة تتأثر به. وإذا أخذت صورة فوتوغرافية متوالية لمنطقة سماوية فبمقابلة بعضها بالبعض الآخر، يظهر جلياً من حركة الانتقال بين النجوم، وإن كان هناك في هذه المنطقة أي كوكب أو مذنب. فالنجوم تظهر مضيئة مستديرة الشكل، بينما تبدو الأجسام الأخرى كخط مضيء يتناسب طوله من زمن العرض وساعة انتقال الكوكب.

بهذه الطريقة تمكن فليكو مرصد "فلاجستاف" في ولاية "أريزونا" بالولايات المتحدة الأمريكية، من إثبات وجود جسم متحرك بين النجوم ودام رصد هذا الجسم وحينئذ طير نبأ هذه الأرصاد إلى جميع مراصد العالم زيادة في التأكيد وللحصول على مواقع أخرى لهذا الجسم تساعد على حساب عناصر فلكه. أخذت في مرصد حلوان بواسطة المنظار المعاكس البالغ قطره ٣٠ بوصة لوحة فوتوغرافية للمنطقة التي ينتقل فيها هذا الجسم، كانت هي الصورة الأولى التي أخذت في غير المراصد الأمريكية. وواليت العمل في أخذ الألواح ليلة بعد ليلة ولدى مقابلتها بعضها ببعض، تمكنت من تمييز حركته بين النجوم. فهو يظهر في الصورة كنجم صغير ضئيل جداً من القدر الرابع عشر. ولابد أن تعرض اللوحة مدة ٤٠ دقيقة على الأقل، حتى يحدث تأثير في اللوحة الحساسة.

بلغ عدد الألواح التي أخذت في مرصد حلوان ٣٠ لوحة في مدى شهرين. ذلك بأن ضوء القمر يحول دون استعمال الفوتوغرافية أسبوعين كل شهر. ثم حسبت مواقع

هذا الكوكب بطريقة رياضية جديدة أتت بنتائج على جانب عظيم من الدقة في زمن أقل بكثير من الزمن الذي كان متبعاً في المرصد في الماضي لحساب مواقع المتنبأت أو الكواكب.

هذه الناحية من العلوم الفلكية الخاصة بالكواكب أي معرفة حركتها والتنبؤ بمواقعها، هي الناحية الرياضية البحتة. وقد كانت الشغل الشاغل لعلماء الفلك في العصور الغابرة، ولم نتمكن من حلها إلا منذ نيف وخمسين ومئتي سنة، عندما عرفت مبادئ الجاذبية. وتوالت البحوث الرياضية الخاصة بالديناميكا السماوية، وتقدمت تقدماً عظيماً. فمسألة الأجسام الثلاثة الخاصة بالقمر والشمس والأرض مسألة على جانب عظيم من التعقيد ولم يوفق الباحثون في حلها تماماً إلا منذ زمن قريب. وفي التالي ذهبنا إلى المحاضرة الثالثة وموضوعها الجزئيات الغازية.

المحاضرة الثالثة

الجزئيات الغازية

سيكون حديثنا عن الجزئيات الغازية ثمة ناحية أخرى في العلوم الفلكية الخاصة بالكواكب، هي الناحية الطبيعية. ما هي العناصر التي تتألف منها الكواكب؟ وهل لها جو هوائي مثل جونا؟ وما هي الذرات التي يتركب منها ذلك الجو؟ أهي صالحة لأن تكون بيئة للحياة أم لا؟ إلى غير ذلك. وقد يطول بي المقام إذا تكلمت بإسهاب عن جميع هذه الموضوعات، ولذلك سأقصر حديثي اليوم على ذكر أهمها. مثال ذلك الهواء الجوي فوق سطح الكواكب.

يتألف جو الكوكب من جزئيات غازية متطايرة قد تفلت من الكوكب، لولا قوة الجاذبية فالكواكب الصغيرة مثل عطارد وأيضاً قمر الأرض ليس لها جو هوائي وذلك لأن قوة الجاذبية على سطح هذه الكواكب ضعيفة جداً فجرم الكواكب الصغيرة غير

قادر على الاحتفاظ بالذرات التي تتألف منها الغازات الهوائية. أما الكواكب الأخرى فلكل منها غلاف جوي يحيط به وتختلف كثافته ومدى ارتفاع طبقاته باختلاف الكواكب. فالزهرة مثلاً - وقد تدعى أحياناً شقيقة الأرض - لها جو كجو الأرض ذو كثافة عالية. وجو المريخ قليل الكثافة كما أن الطبقات الجوية في الكواكب العليا ترتفع إلى آلاف الكيلومترات.

وإشعاع الكواكب أو النجوم ليس سوى موجات أثيرية في الفضاء، إلا في طول الموجة الواحدة، فطول الموجة اللاسلكية يتراوح بين بضعة أمتار إلى عدة كيلو مترات في حين أن الموجة الإشعاعية للضوء المرئي، يتراوح طولها من ٤ إلى ٨ أجزاء من ١/ ١٠٠٠٠ من المليمتر الواحد. جميع هذه الموجات تسير بسرعة واحدة ثابتة في الفضاء تساوي نحو ٣٠٠.٠٠٠ كليو متر في الثانية الواحدة وتقل سرعتها في داخل الأجسام الصلبة الشفافة كالزجاج مثلاً قلة تتناسب وطول الموجه. فكلما قصرت الموجة أبطأت في سيرها. وعندما تقع حزمة الإشعاع الضوئي على منشور الزجاج يظهر التباطؤ داخل الزجاج بانكسار الشعاع الضوئي أو انحنائه وخروج الحزمة الضوئية منحلة إلى مؤلفاتها من اللون الأحمر إلى اللون البنفسجي.

منشور الزجاج هو الوحدة الأساسية للجهاز الطيفي فهو يحلل الإشعاع إلى أجزائه بحسي طول كل منها. فالإشعاع المنبعث من الأجسام الصلبة أو السائلة أو الغازات الوهاجة ذات الكثافة العالية جداً يتحلل بواسطة الجهاز الطيفي إلى طيف مستمر الألوان.

أما الغازات الملطفة أو البخار الوهاج للعناصر فيظهر طيفها كخطوط لامعة على سطح مظلم، كل خط منها صورة لفتحة الجهاز على مختلف الألوان المتجمعة في الغاز الملطف. كما أن شدة لمعانها وظهورها يتوقفان على الطريقة التي بواسطتها يتولد الإشعاع من الغاز. وأخيراً عندما يمر إشعاع أي جسم ذى طيف مستمر على غاز

وهاج درجة حرارته أقل من درجة حرارة الجسم الأصلي يظهر الطيف لامعاً مستمراً تتخلله خطوط مظلمة في نفس الموقع من الطيف الذي تقع فيه الخطوط اللامعة المميزة للجسم الغازي الملطف. فكأن هذا الأخير يمتص هذا الجزء.

هذه خلاصة القوانين التي استنتجها "كيرشوف" من تجاربه العديدة في تحليل الإشعاع الضوئي. فإذا أردنا أن نطبق ذلك على طيف الشمس صادفتنا بعض المشكلات. ذلك بأن للشمس غلافاً جوياً يتألف من غازات كثيرة أقل حرارة من قرص الشمس نفسه ذي الطيف المستمر. وعليه يظهر طيف الشمس مضيئاً على الدوام ويتخلله خطوط الامتصاص المظلمة الناشئة من هذه الغازات. لكن إشعاع الشمس يمر حتماً خلال الطبقات الجوية للأرض قبل مروره في الجهاز الطيفي. فعلاوة على الخطوط الماصة لجو الشمس سيظهر في الطيف الخطوط الماصة للغازات الأرضية.

المحاضرة الرابعة

الأرصاد الطبيعية

يوجد طريقتان رئيسيتان لتمييز الخطوط الطيفية الأرضية. أولاهما: مقابلة طيف الشمس وقت الزوال بطيفها، عندما تكون في الغروب أو الشروق. فعندئذ يخترق الإشعاع الذي يصلنا مسافات طويلة من جو الأرض، فيقابل عدداً كبيراً من ذرات الغازات الأرضية. وهذه تمتص جزءاً عظيماً من الإشعاع المميز لعنصرها. وبالمقارنة تظهر الخطوط الخاصة بالغازات الأرضية أشد إظلاماً في طيف الشمس في حالتي الغروب والشروق. أما الخطوط الشمسية المحضة، فلا تتغير مطلقاً مع ارتفاع الشمس عن الأفق، بل تظهر مظلمة في الحالتين وبقوة واحدة.

وثمة طريقة أخرى نلخصها فيما يلي: حيث إن الشمس تدور حول محورها، فعندما يقترب أحد طرفيها منا يبتعد الآخر. وعند مقارنة طيف طرفي الشمس في آن

واحد، نجد أن الخطوط الشمسية مفرقة بعضها عن بعض، وذلك بفعل ظاهرة "دوبلر". أما الخطوط الأرضية فهي ثابتة مستقرة في الحالتين. ومن طيف الشمس تستبين لنا الغازات الموجودة في جو الأرض مثل الأكسجين والبخار وثاني أكسيد الكربون والأوزوت والنشادر ومركبات أخرى من الأيدروجين والكربون. غير أننا لم نتمكن حتى الآن من رؤية الخطوط المميزة للأيدروجين الحر والأزوت. حتى أن بعض الغازات الآنفة الذكر، يجب أن تكون موجودة بوفرة، حتى تظهر خطوطها في الطيف بوضوح تام. وذلك يرجع إلى صعوبة الأرصاد في هذه الجهة من الطيف.

أما الأرصاد الطيفية للكواكب، فسوف تتخللها دائماً الخطوط المميزة للغازات الموجودة في جو الأرض. لذلك كان كل ما يمكن عمله، هو الاستدلال بالمقارنة لمعرفة إن كان في غلافها الجوي غاز مماثل للغازات الأرضية. فإذا ظهرت خطوط طيفية عند مقارنة طيف الشمس بطيف الكواكب، منطبقة تمام الانطباق على الخطوط الأرضية في طيف الشمس، وتكون في الوقت ذاته أشد قوة في الكوكب، ونستدل من ذلك على أن في جو الكواكب عنصراً غازياً مماثلاً للعنصر الموجود في جو الأرض. وهنالك طريقة أخرى، إلا أن تنفيذها يحتاج إلى أجهزة قوية جداً، وذلك بمقارنة طيف الكوكب مع طيف الشمس عندما تبلغ سرعة الكوكب بالنسبة إلى الأرض نهايتها العظمى، حيث يمكن التفريق بين الخطوط الطيفية للغازات الموجودة في جو الكوكب، والخطوط الطيفية الأرضية المماثلة لها. وظهور خطوط أو أشرطة طيفية في الكواكب، مع عدم ظهورها في طيف الشمس، يدل على وجود عناصر غازية فيه. مثال ذلك الأشرطة الطيفية في طيف الزهرة. فإنها تدل على وجود كميات عظيمة من ثاني أكسيد الكربون في جوها.

يحيط بجو الزهرة طبقات كثيفة من الغيوم دائمة الوجود. ويظهر ذلك جلياً عندما تؤخذ صورة فوتوغرافية لهالة الضوء "فوق البنفسجي". فالضوء الذي يصدر من هذا الكوكب، هو ضوء الشمس المنعكس من الطبقات العليا لجوه. والتحليل الطيفي يبين

لنا الغازات التي تتألف منها الطبقات العليا فقط. ولم تسفر الأرصاد العديدة بواسطة الجهاز الطيفي عن وجود كميات وافرة من الأكسيجين أو بخار الماء. غير أنها بينت بوضوح وجود طبقة كثيفة من ثاني أكسيد الكربون يبلغ مدى ارتفاعها نحو كيلو متر واحد. وبالرغم من أنه لا يمكن معرفة الأحوال القائمة على سطح الكوكب نفسه، فإنه إذا قورنت هذه الأحوال، بتلك التي تقوم من فوق الأرض، أمكن استنتاج أن كميات البخار المائي والأكسجين، قليلة جداً فيه؛ في حين أن كميات ثاني أكسيد الكربون عظيمة جداً. ومن المحتمل أن تكون الحرارة المتوسطة لسطح الكوكب أشد دفئًا مما هي عليه على سطح الأرض. ولكن الإشعاع الشمسي لا أثر له في الكوكب، لوجود الغيام الكثيف. ولهذا قد يكون من المتعذر جداً صلاحية الزهرة حتى للحياة النباتية. فالأكسجين الذي يخرجه النبات، والذي هو ضروري لحياة أي نوع من الحيوان، لا وجود له في الزهرة.

ليست الحال كذلك على سطح المريخ الذي يمكن أن يرى بسهولة تامة. فالخطوط الكثيرة الموجودة على سطحه، والتي كان يظن أنها قُنى عظيمة مخططة بأشكال هندسية على أتم وأحسن نمط، تظهر بوضوح في المنظار المكبر وفي اللوحة الفوتوغرافية. والغيام في المريخ متقطع يوجد تارة وينعدم أخرى. أما البقع البيضاء الموجودة في قطبيه، والتي تختلف أشكالها باختلاف الفصول المريخية، فتزداد في الشتاء، وتنقص في الصيف المريخي. فهي بلا شك قطع من الثلج الجليدي كالتي توجد في قطبي الأرض. والتحليل الطيفي للإشعاع المريخي، يبين أيضاً أن البخار المائي في جو المريخ قليل جداً، وأن كميات الأكسيجين تكاد تكون معدومة. فالأرصاد الحديثة المتعددة، تبين أن كمية هذا الغاز تساوي نحو واحد في المئة من الكمية الموجودة على مساحة مساوية من سطح الأرض.

وقد تكون كمية ثاني أكسيد الكربون مماثلة للكمية الموجودة في جونا، غير أن التحليل الطيفي لم يُبن عن ذلك بعد.

ويظهر سطح المريخ كأنه صحراء قاحلة ربما استدل من لونه الأحمر على أن الأكسجين الحر الذي قد يظن أنه كان موجوداً في وقت ما، قد نفد كله في أكسدة المواد السطحية الموجودة بكثرة فيه.

يكاد يكون الأكسجين منعدماً من جو المريخ، كما أن الماء الموجود على سطحه محدود الكمية. أضف إلى ذلك أن الليالي المريخية على جانب عظيم من البرودة، وأن النهاية العظمى للحرارة في المنطقة الاستوائية عند الظهر المريخي، لا تتجاوز ١٠° مئوية. ويتبين من كل هذه الأحوال، أن المريخ لا يصلح بدوره أن يكون بيئة صالحة للحياة، اللهم إلا الحياة البدائية.

أما الكواكب العليا فتختلف تمام الاختلاف عن الكواكب الأرضية. فدرجة البرودة فيها عظيمة، إذ تبلغ على سطح المشترى نحو ١٤٠° مئوية تحت الصفر. ويبلغ مدى ارتفاع أجوائها ألوف من الكيلو مترات.

ومن المحتمل أن تكون هذه الكواكب مؤلفة من نواة صخرية يحيط بها طبقة سميكة من الثلج. كما يحتمل أيضاً أن تكون هذه الكواكب قد احتفظت بغاز الأيدروجين، ولو أن حل الطيف لا يبين عن ذلك، إذ لا توجد إلا مركبات من الأدروجين والأزوت والكربون. وجو المشترى وزحل مملوء بغاز النشادر ومركب آخر من الكربون والأيدروجين هو الميثان. وثمة أشرطة طيفية لجميع الكواكب العليا، لم تعرف الغازات المسببة لها بعد.

هذا طرف من دراسة الكواكب السيارة من الناحية الطبيعية. وهناك ناحية أخرى ليست بعلمية لكنها نفسية روحية. وهي أن العلوم الفلكية على الإطلاق تدخل في نفوسنا روعة عظيمة. فالأرض التي نعيش من فوقها ليست إلا نقطة صغيرة من بحر زاخر يعج بالنجوم والكواكب والمذنبات وقد نبحث عن كوكب غير الأرض غير حافل بالحياة فلا نجد له من أثر مما يجعلنا نبحث.

المحاضرة الخامسة

التعرف على أجهزة المرصد للكواكب السيارة

سأعرض عليكم بعض الصور التي أخذت لكواكب أخرى

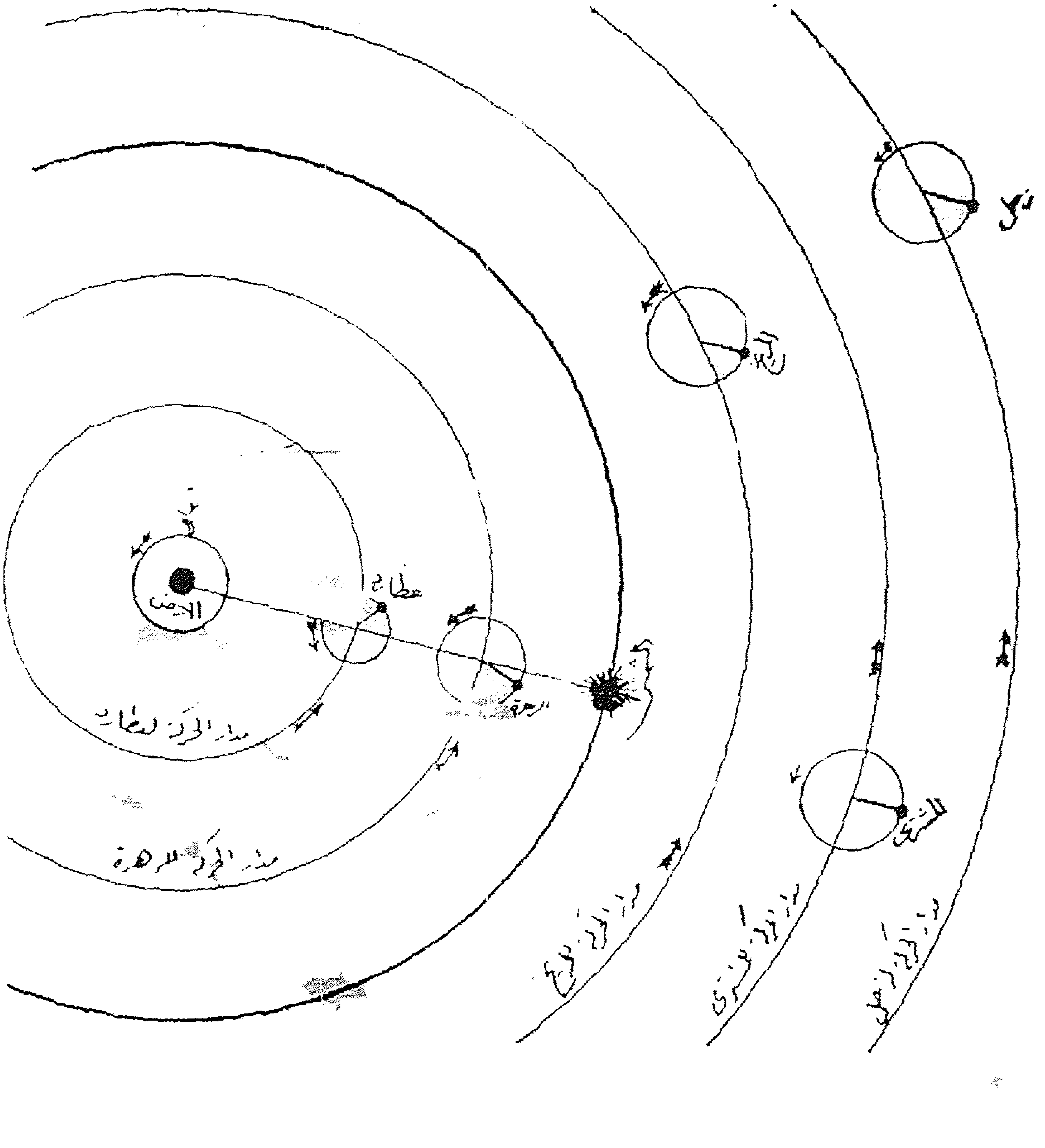

النظام الشمسي الطليموسي

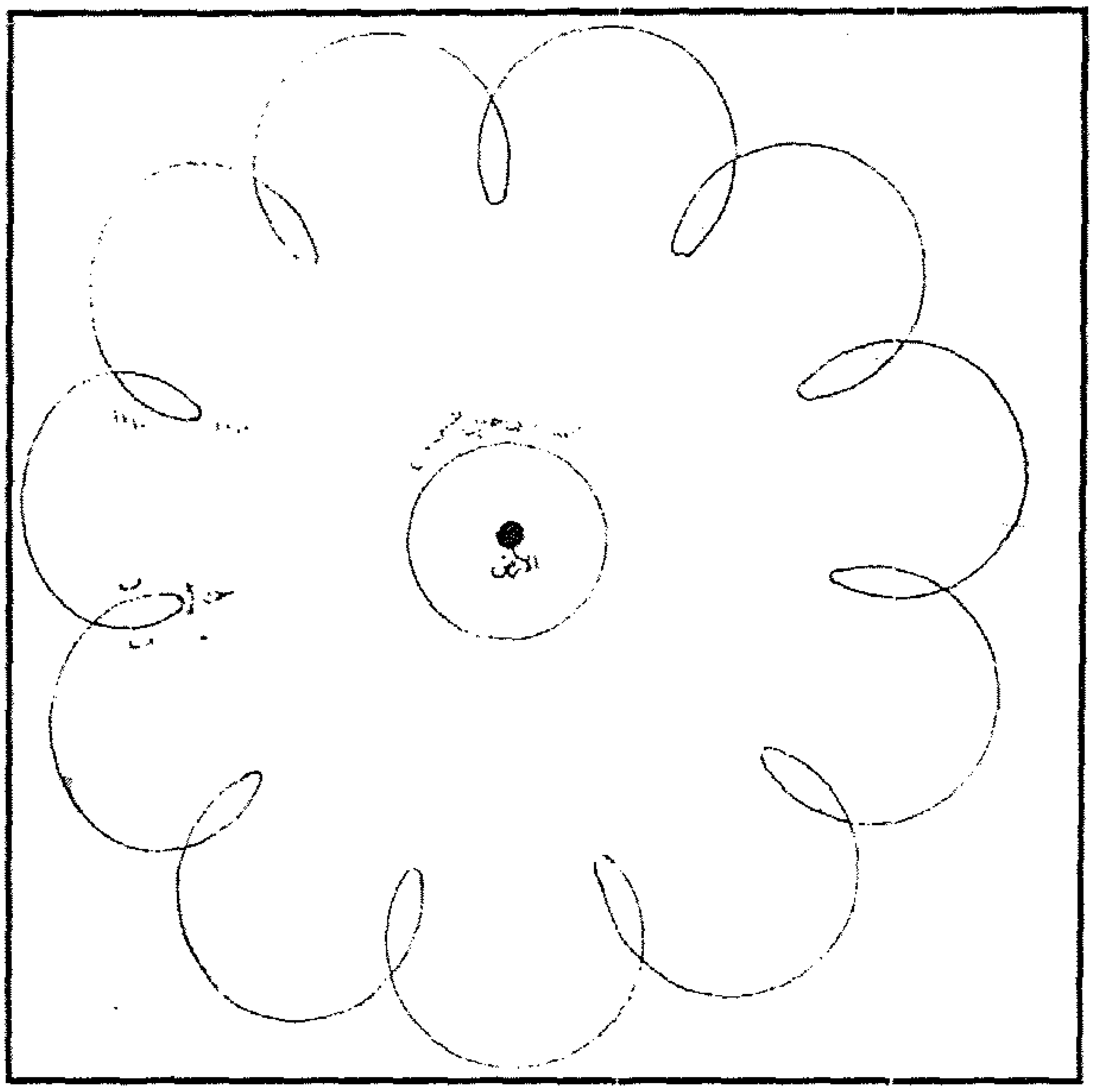

الفلك الظاهري للمشترى من سنة ١٧٠٨ إلى سنة ١٧٢٠ في نقطة ما يظهر الكوكب كما لو كان ثابتاً أما في نقطة جـ فتظهر الحركة العكسية

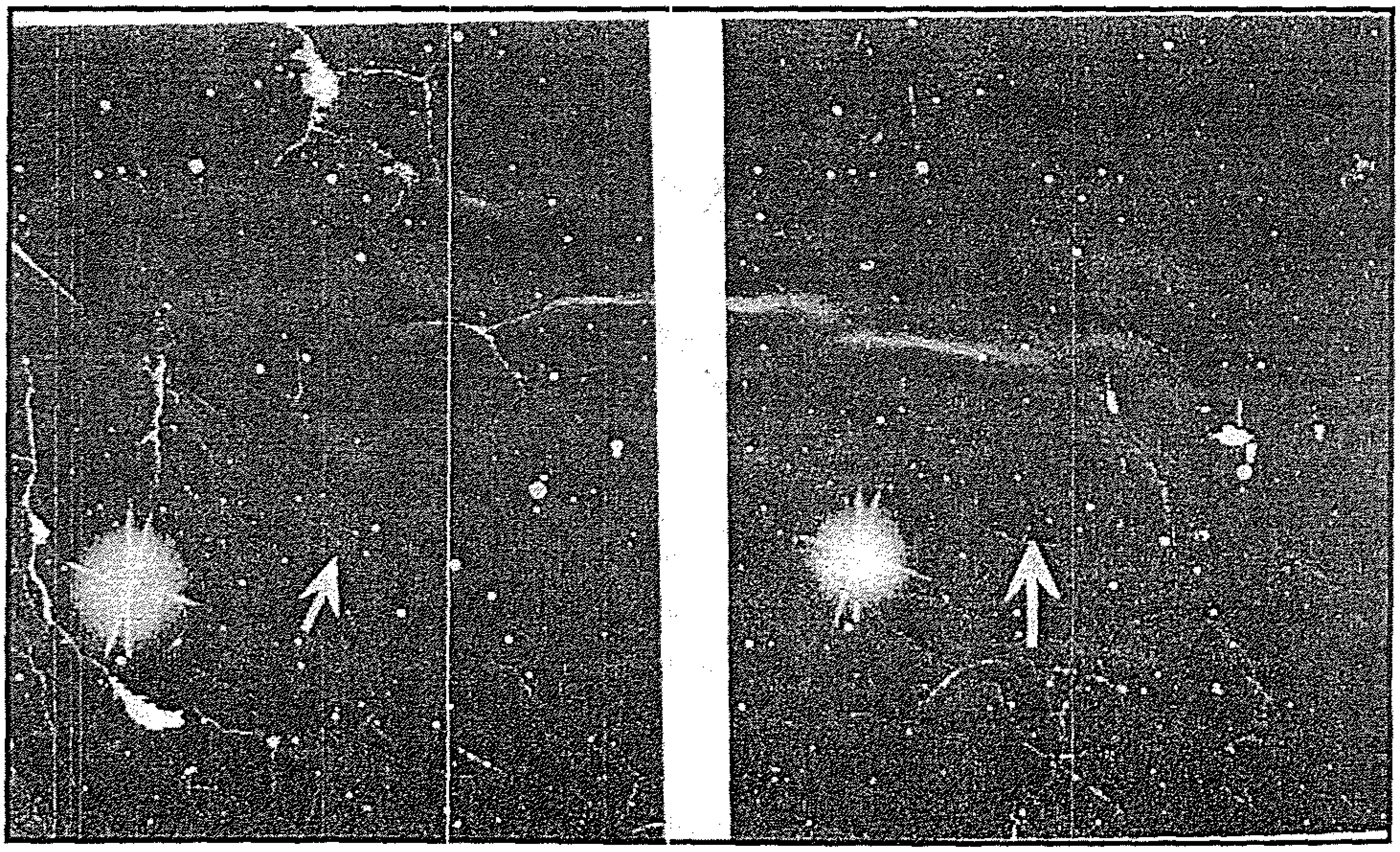

أخذت هاتان الصورتان بواسطة المنظار العاكس البالغ قطره ٣٠٠ بوصة. وكان مدة العرض لكل منهما ٦٠ دقيقة. النجم المضيء إلى شمال السهم هو نجم الوسط من التوأمين ويشير السهم إلى جسم ضئيل يتميز عن سائر النجوم بحركته بينهما. فالمركز الذي تجعله بين النجوم يوم ١٩ مارس يختلف عنه في ٢٤ مارس. لقد تبين فيما بعد أنه كوكب سيار يدور حول الشمس.

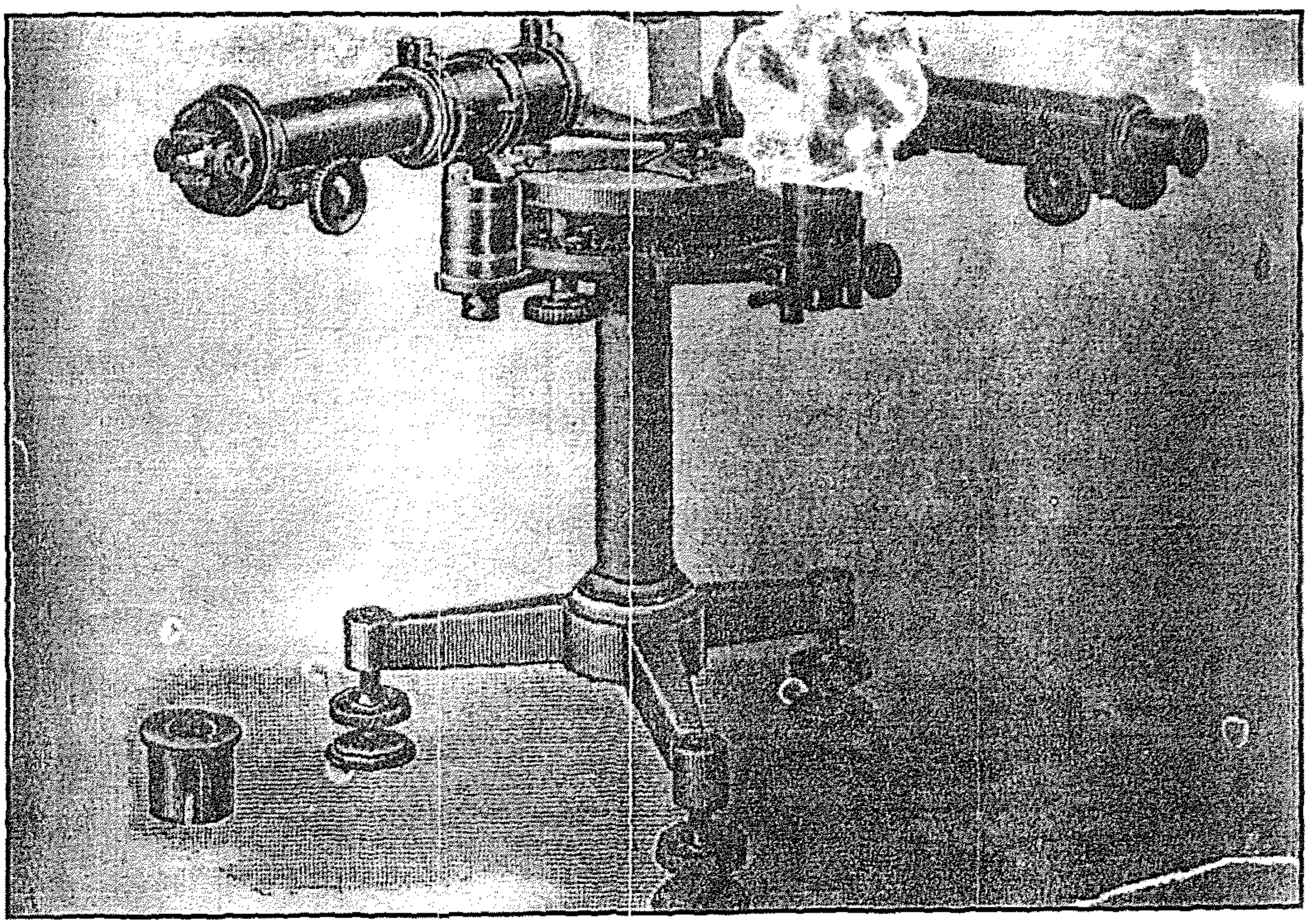

الميطاف جهاز تحليل الضوء

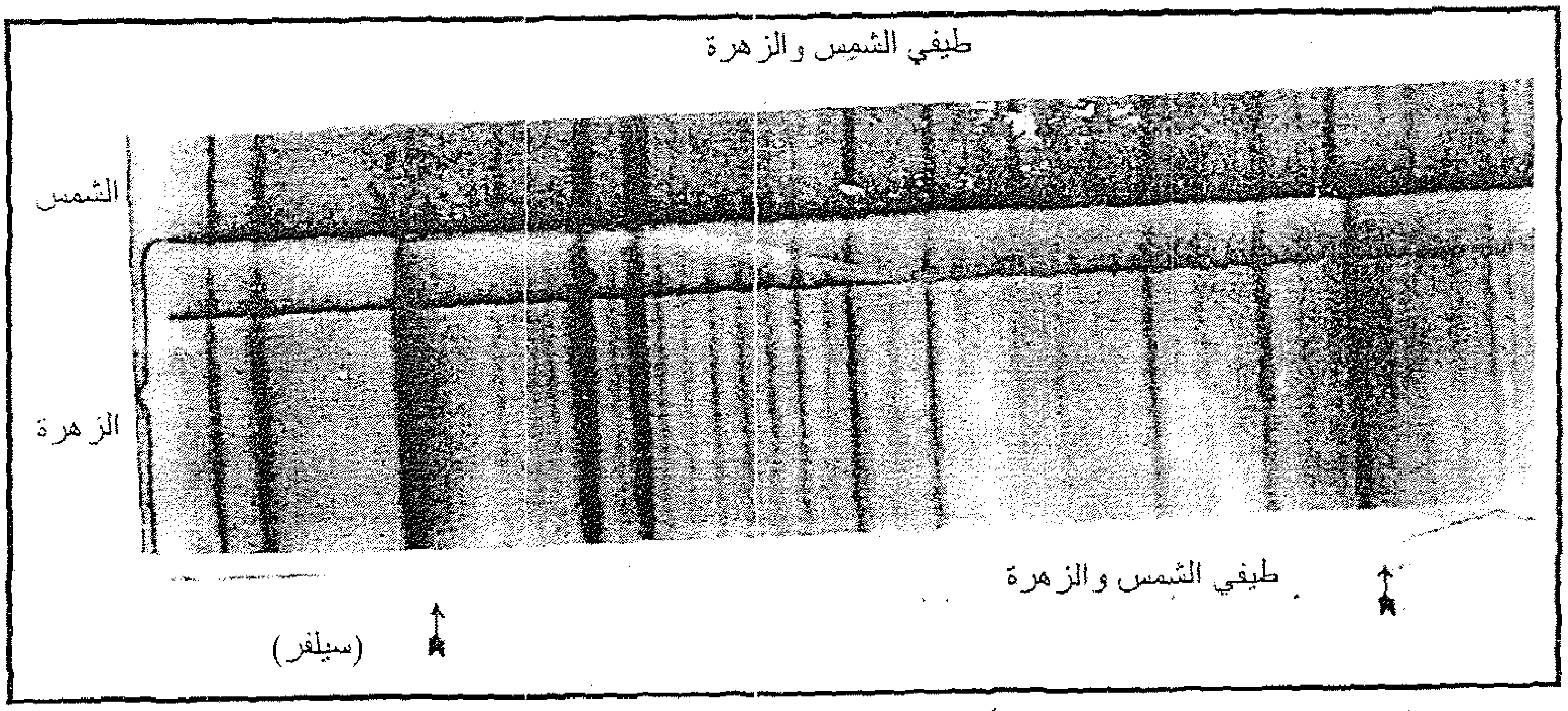

السهمان يشيران إلى الأشرطة غير الموجودة في الشمس والتي تثبت وجود ثاني أكسيد الكربون في الزهرة

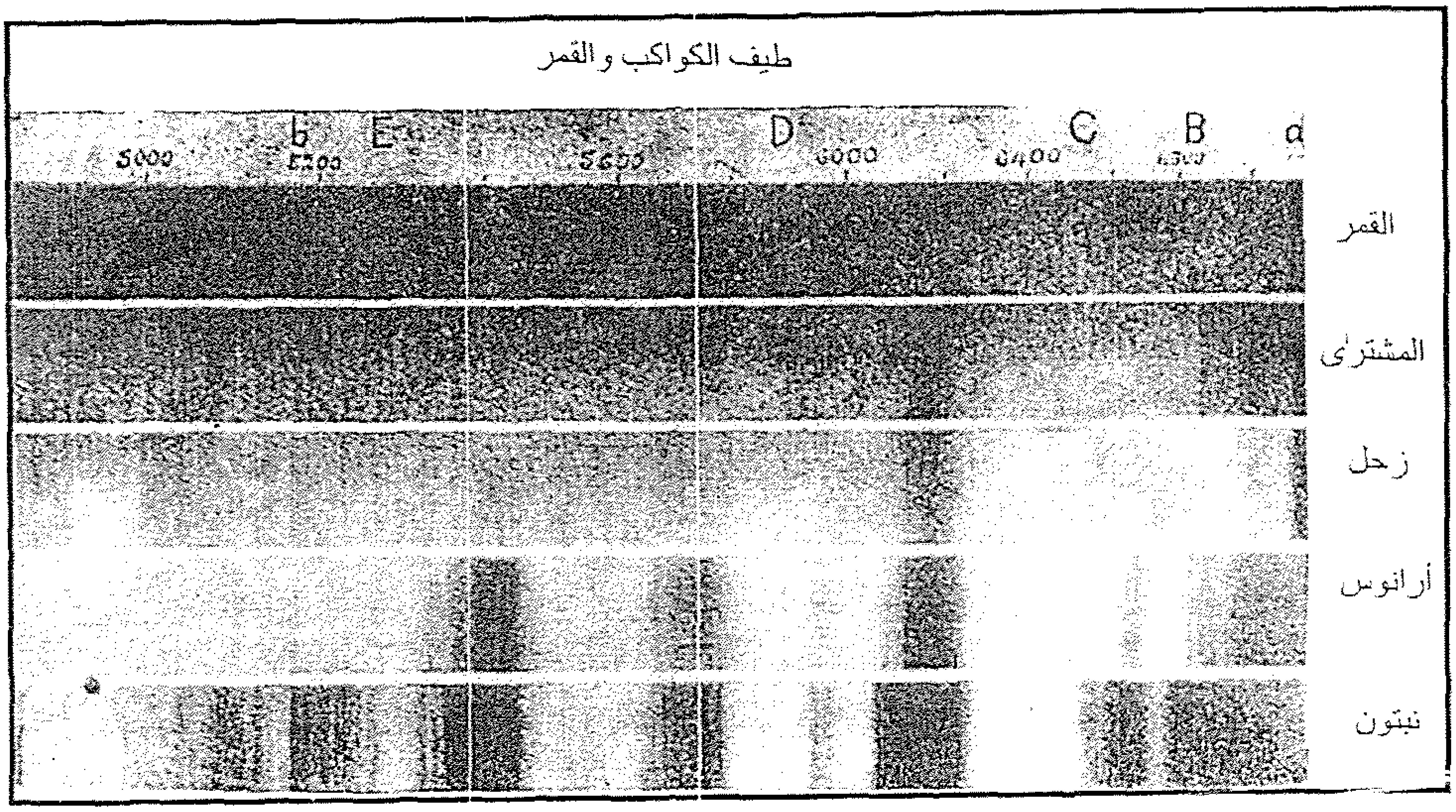

تبين في هذه الصورة الخطوط الطبقية الموجودة في جو الكواكب والقمر على السواء. يلاحظ أنه في طيف الكواكب يوجد أشرطة طبقية لا توجد في طيف القمر تشتد طوراً في طيف أورانوس ونيبتون ويعزي ذلك إلى وجود مركبات من الكربون والأيدروجين في جو الكواكب

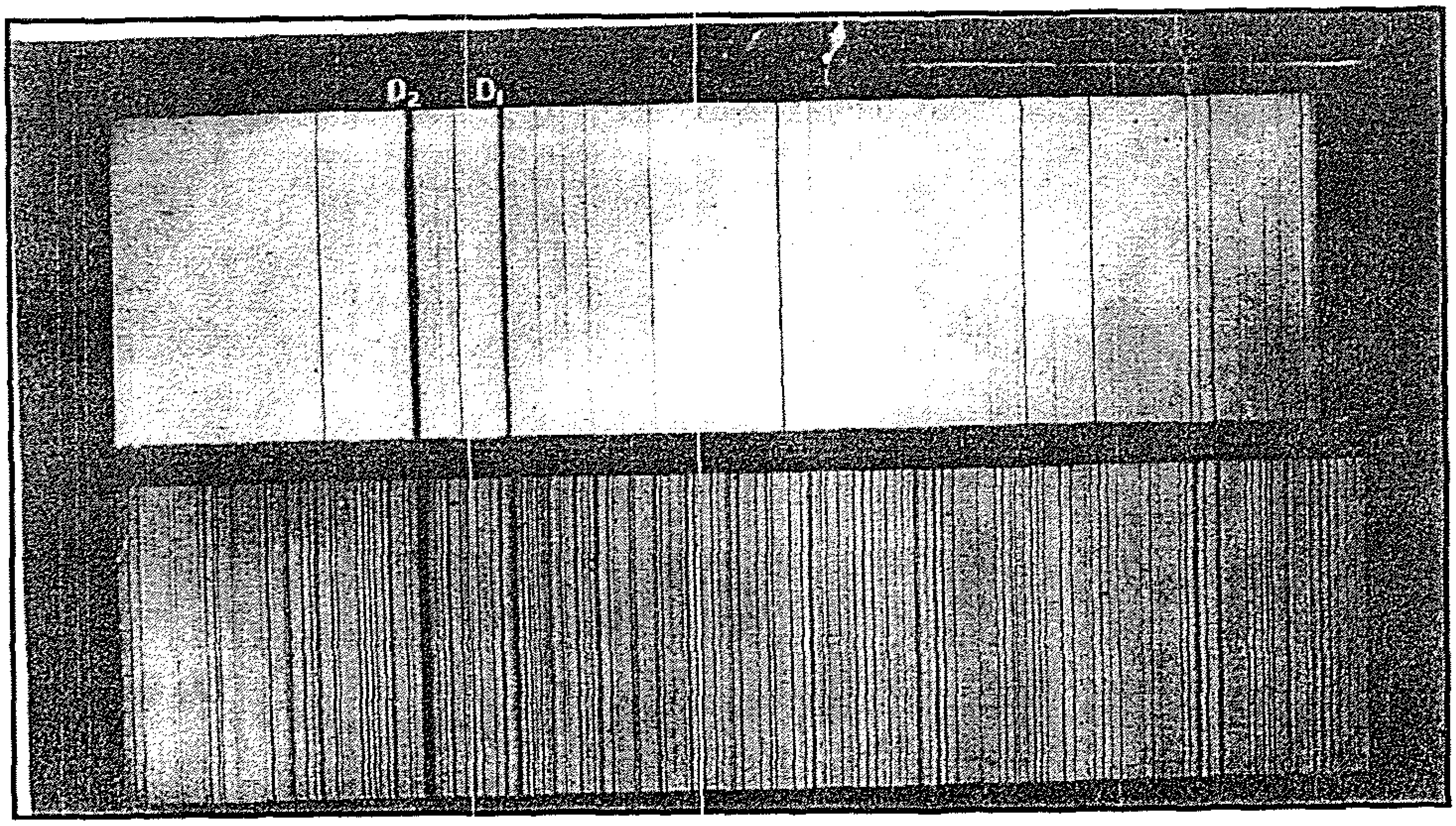

طيف الشمس وهي في كبد السماء وطيفها قريبة من الأفق

في الحالة الأخيرة تظهر الخطوط الطبقية لجو الأرض واضحة. هي خطوط بخار الماء الموجود في جونا وذلك لأن الأشعة الشمسية تخترق مسافات طويلة في الحالة الثانية عنها في الأولى

(أ) و (م) باللون البنفسجي و (ب) و (ه) باللون دون الأحمر ومنها يظهر بوضوح تأثير لون المرشح الضوئي في إظهار التفاصيل على سطح المريخ ووجه الأرض في سان جوزي

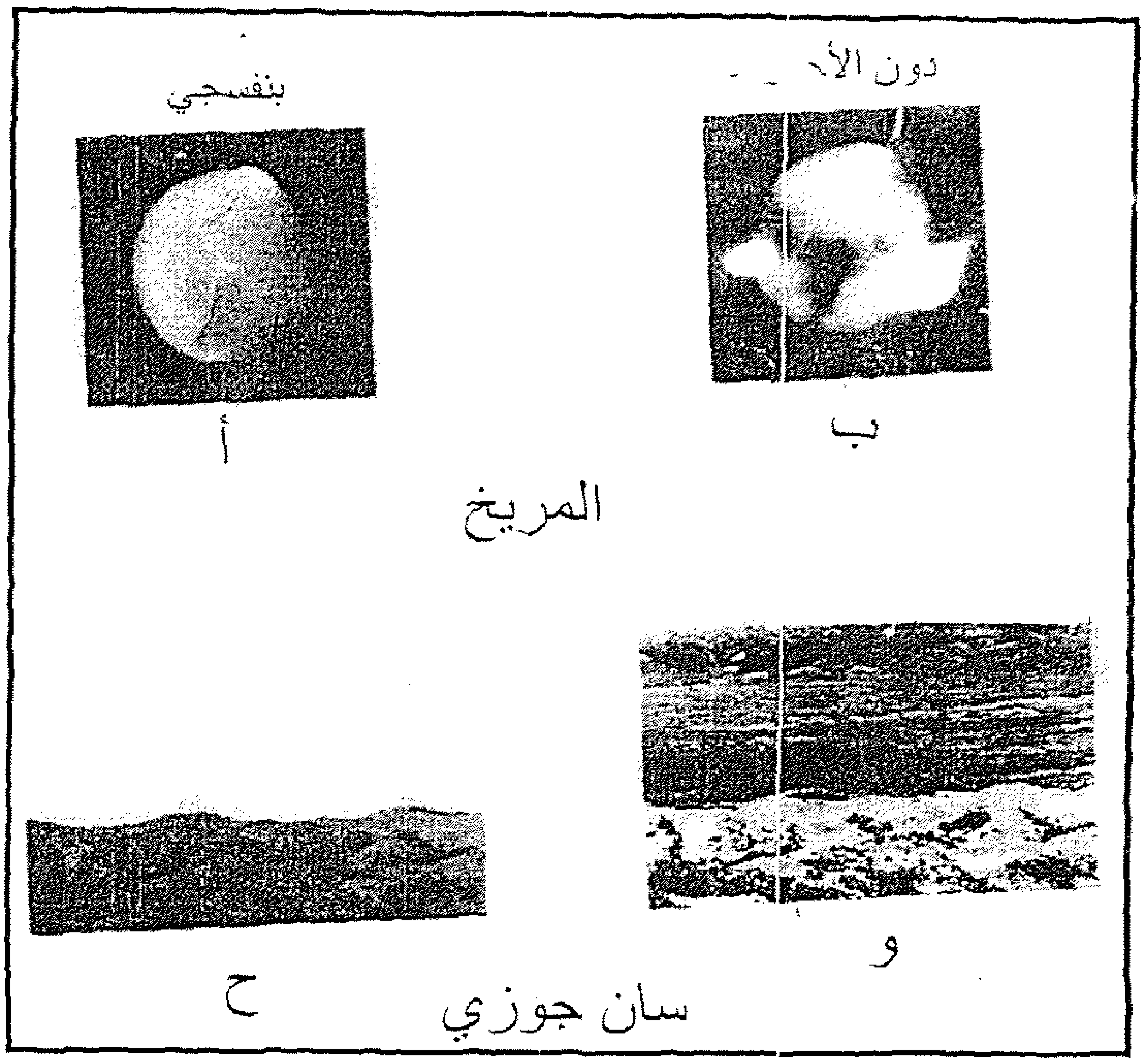

صورة كوكب المريخ ومدينة سان جوزي بأمريكا أخذت من جبل هامتلون

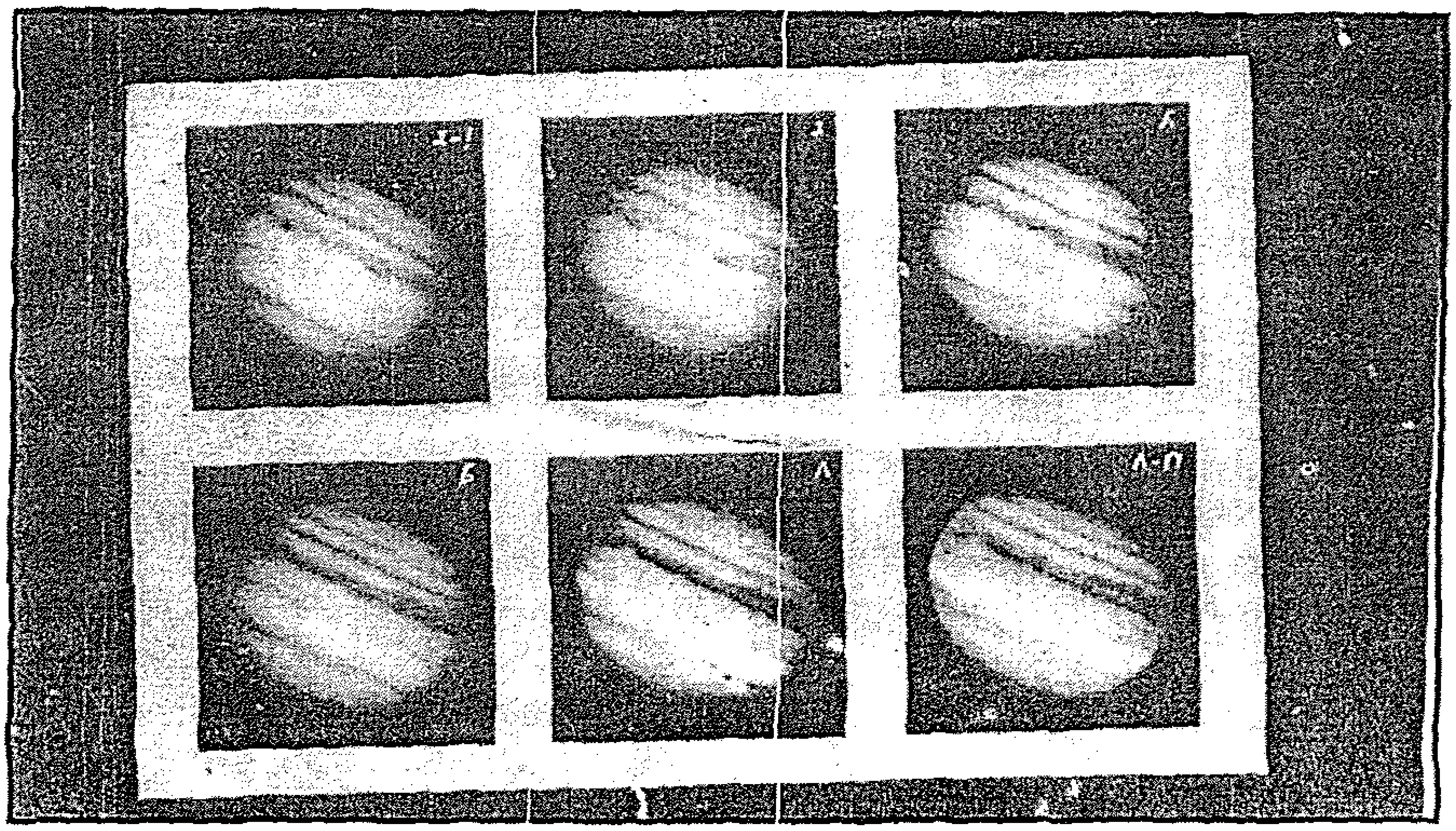

صورة المشترى بمرشحات ضوئية مختلفة في اللون فوق البنفسجي حتى دون الأحمر ويظهر بوضوح مناطق المشترى

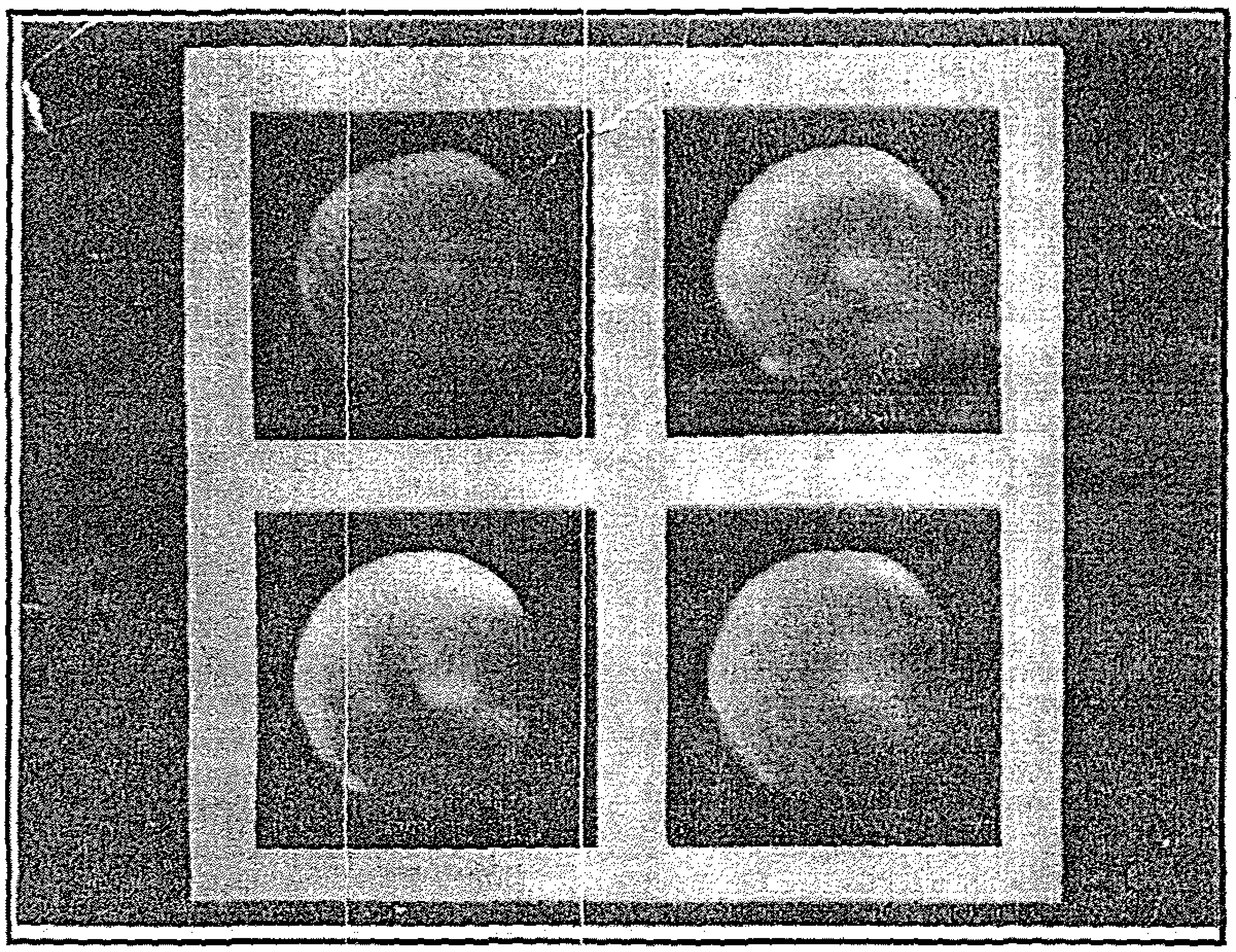

صورة للمريخ مأخوذة بواسطة مرشحات ضوئية تسمح بمرور اللون البنفسجي وما فوقه
ويظهر منها الغيام حول المريخ

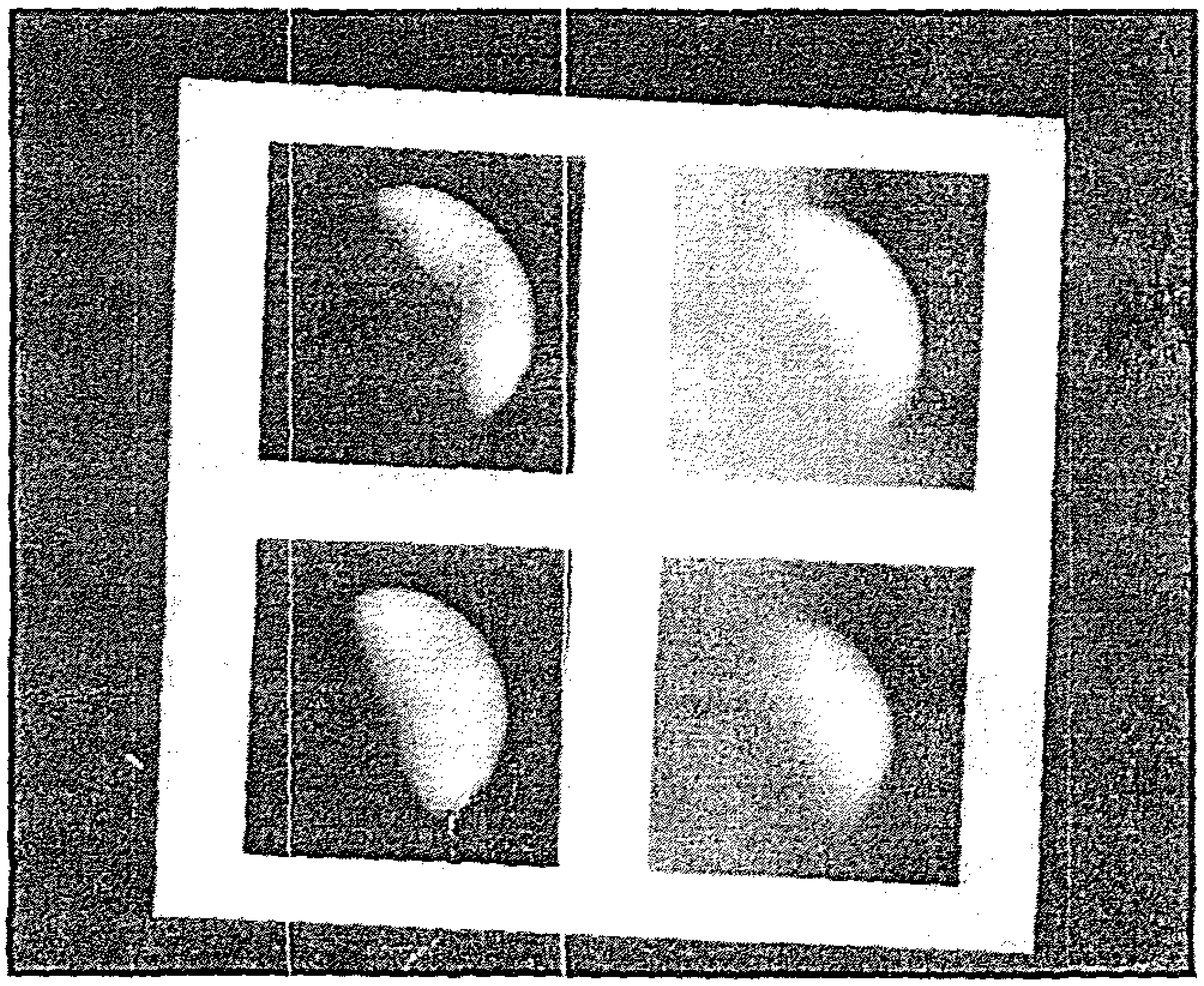

وجه من أوجه الزهرة
صورة إلى اليسار مأخوذة بواسطة مرشحات للون فوق البنفسجي
والتي على اليمين بمرشحات دون الأحمر

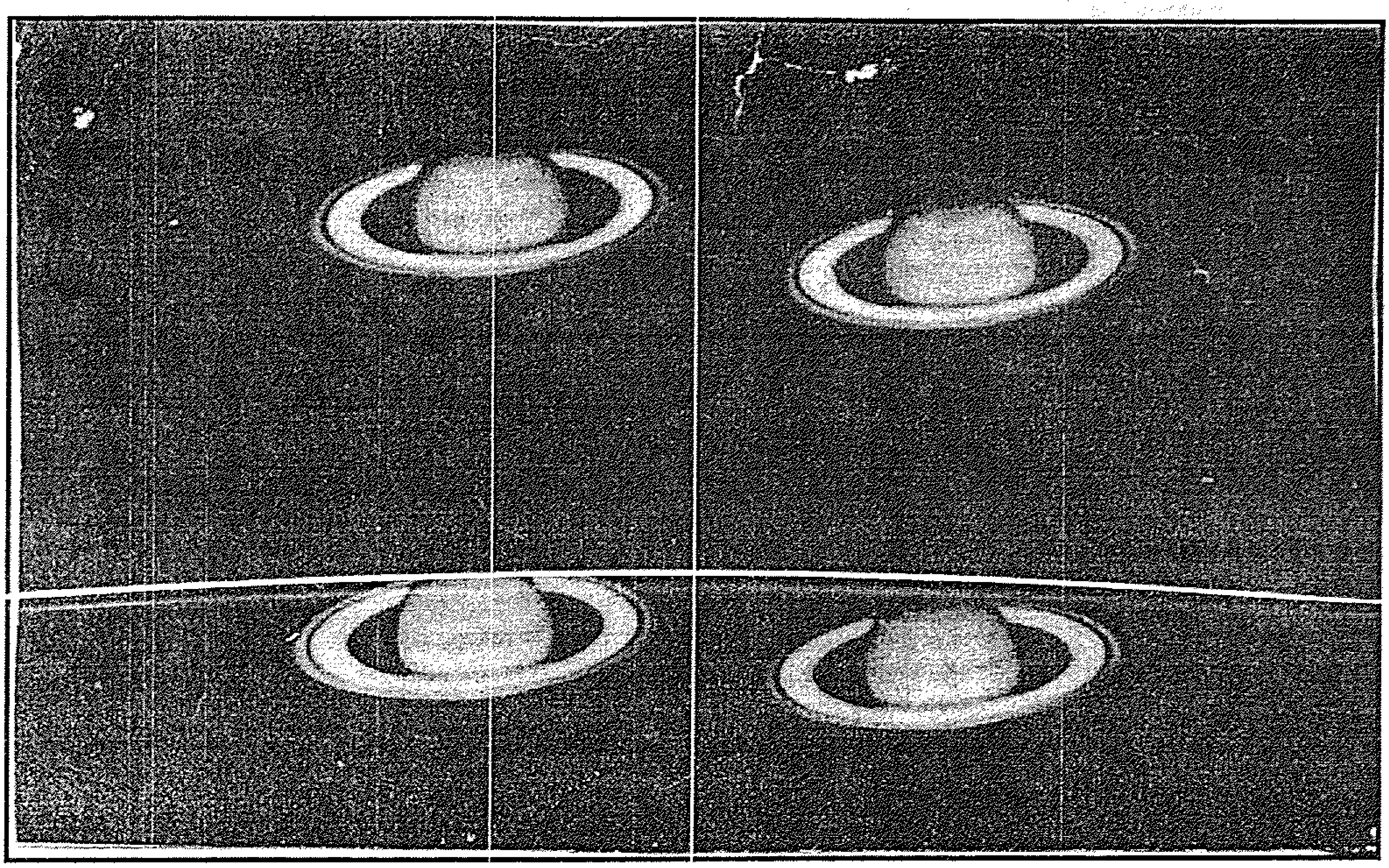

كوكب زحل وأطوافه

نهاية الدراسة عن الفلك

بهذا العرض السريع عن الكواكب السيارة يمكننا أن نتعرف على بعض المعلومات التي نستفيد بها في مرصدنا بمصر.

وفي النهاية أتمنى لكم إقامة طيبة

ومع السلامة

الباب الخامس

أعضاء البعثات فى الصناعات

الفصل الأول

أعضاء البعثات فى الصناعة

بعثة تدريب على مختلف الصناعات التي كانت مصر في حاجة إليها في عام ١٨٣٠ وبجانب هذا التدريب تعلموا مادة الرياضيات والرسم واللغة الفرنسية وقد تعلم بعض منهم بيان اللغة الفرنسية على يد أستاذ خاص

كما وجدت أسماؤهم في دفاتر دار المحفوظات والصناعات التي بعثوا بها إلى فرنسا وهم:

العدد	الأسماء	الصناعات
٢	خليل البقلي حسن مجبس	بصم الشيت
٢	عبد الرحمن محمد عناني	آلات الجراحة
٢	هنري روسي حسن أبو الحسن	علم طبائع المياه
٢	محمد حاكم إبراهيم الدسوقي	الساعات
٢	إبراهيم العتال حسن الرزاري	الجواهر والصياغة
٢	محمد إسماعيل محمد مراد	النقش والدهان المتعلقين بالمعمار والمباني

العدد	الأسماء	الصناعات
٢	مصطفى الزرابي عبد المر	نسج الأقمشة الحريرية
٢	حسن محمد محمد خليل	الشمع
٣	علي الزراري حسن الجيزاوي وإبراهيم العتال	صباغة الأجواخ
٢	سليمان البهنساوي محمد عزب	السراجة والروجية والسباكة
٢	محمد رمضان جاد غزال	طبع السيوف
١	محمد مجبس	الشيلان الا تفروية والسجاد
٢	محمد محسن إسماعيل حنفي	
٢	محمد يوسف محمد بغدادي	الأحذية
٢	علي الشامي أحمد الدراسي	البنادق والمنجنيقات
٢	محمد نايل حسن الأسكندراني	شمع الأختام
٢	حسن البغدادي علي الجيزاوي	إنشاء السفن
٢	عبد الرب محمد عطية	صناعة الأجواخ

اهتم محمد علي بضناعة السجاد لاحتياج مصر إليها بدلاً من الاستيراد ولذا أرسل أعضاء البعثة إلى تركيا للتعرف على أنواع السجاد فيها وألوان الصباغة . ظل هؤلاء المبعوثون في تركيا للدراسة وكيفية صناعة السجاد ثم بعد ذلك التحقوا بزملائهم لتكملة دراستهم في باريس.

عرض للسجاد التركي كوسيلة للتعرف على نوعية السجاد التركي

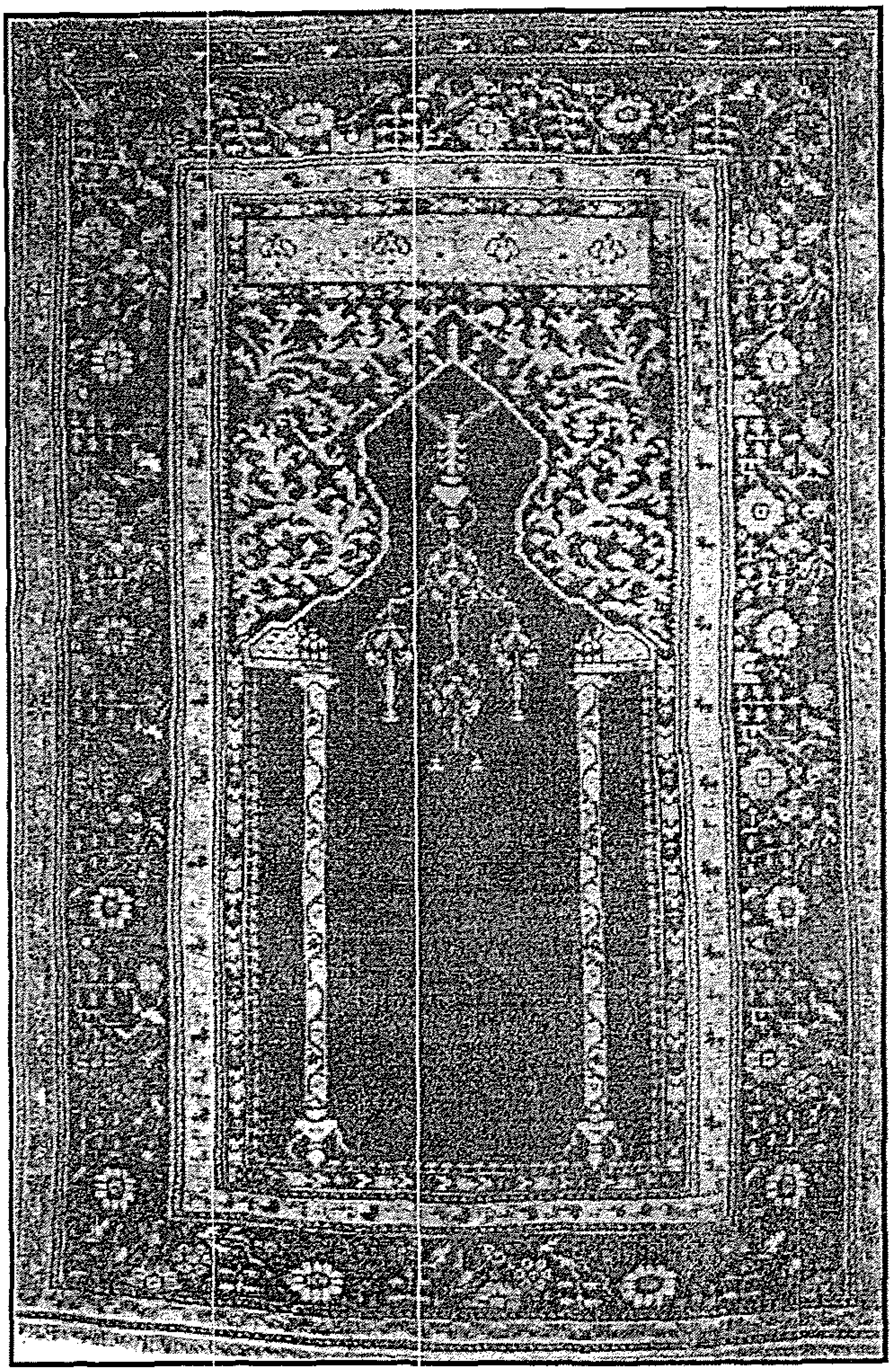

كولا صناعة في القرن السادس عشر

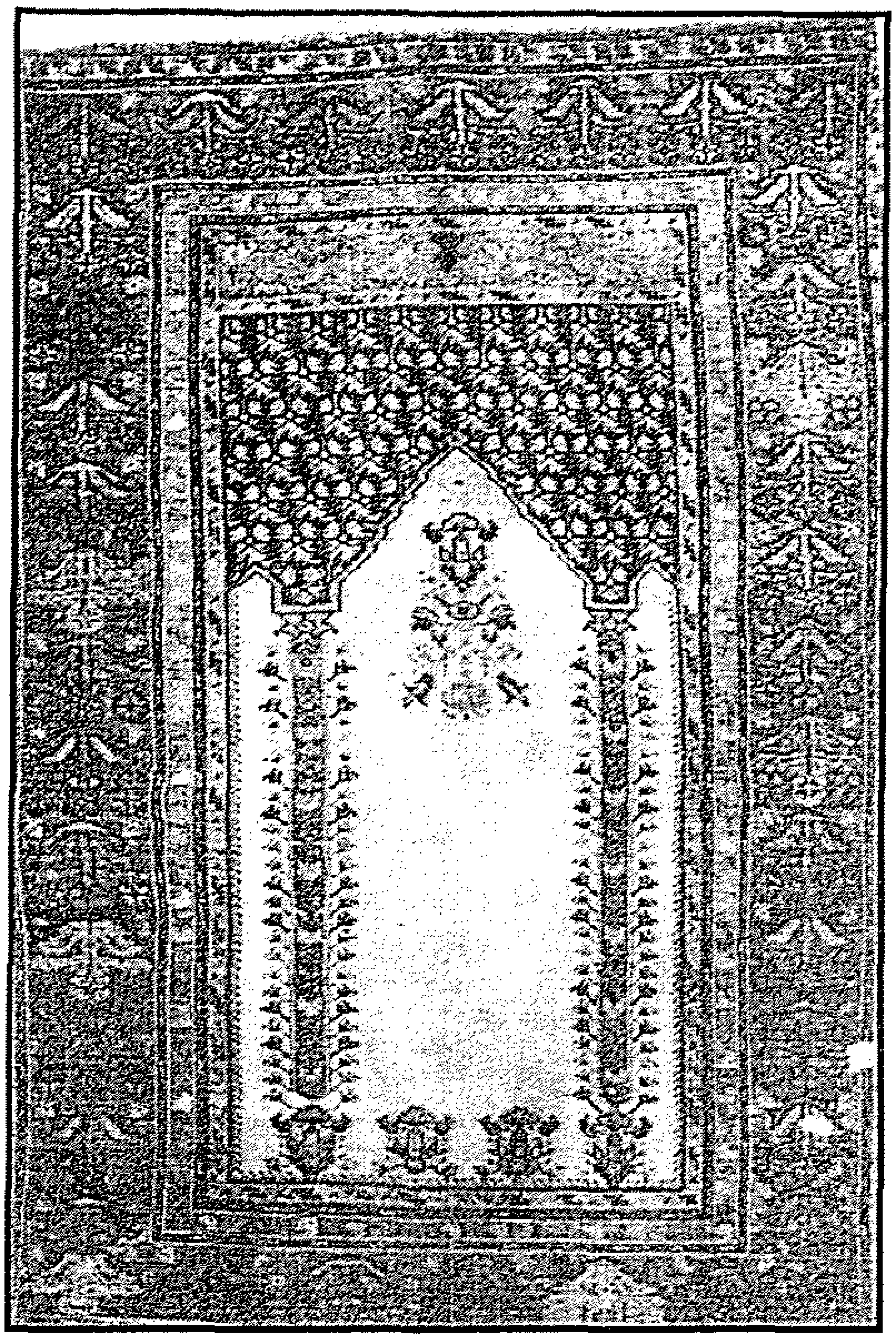

كولا صناعة القرن السابع عشر

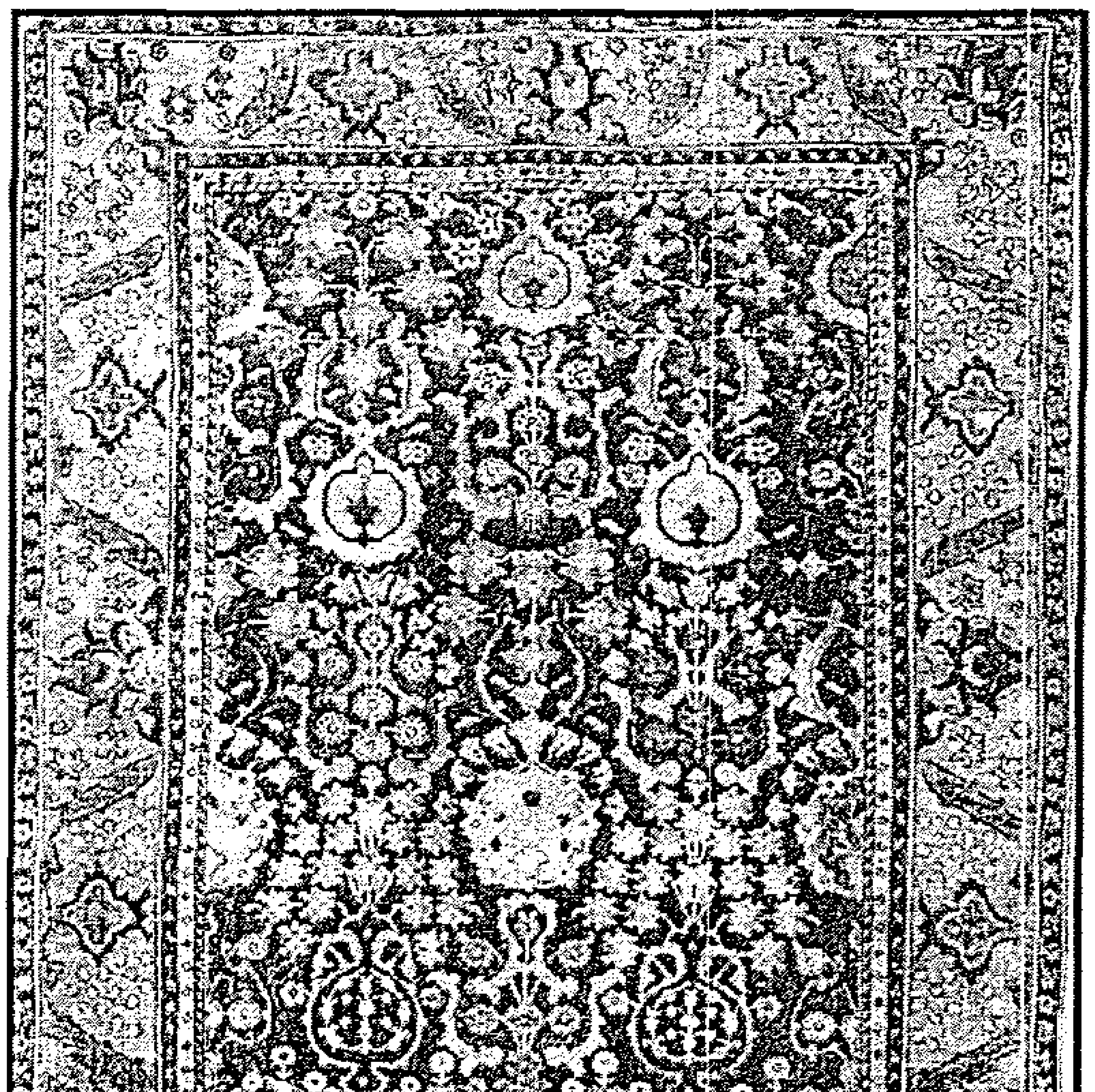

أصفهان صناعة القرن السادس عشر

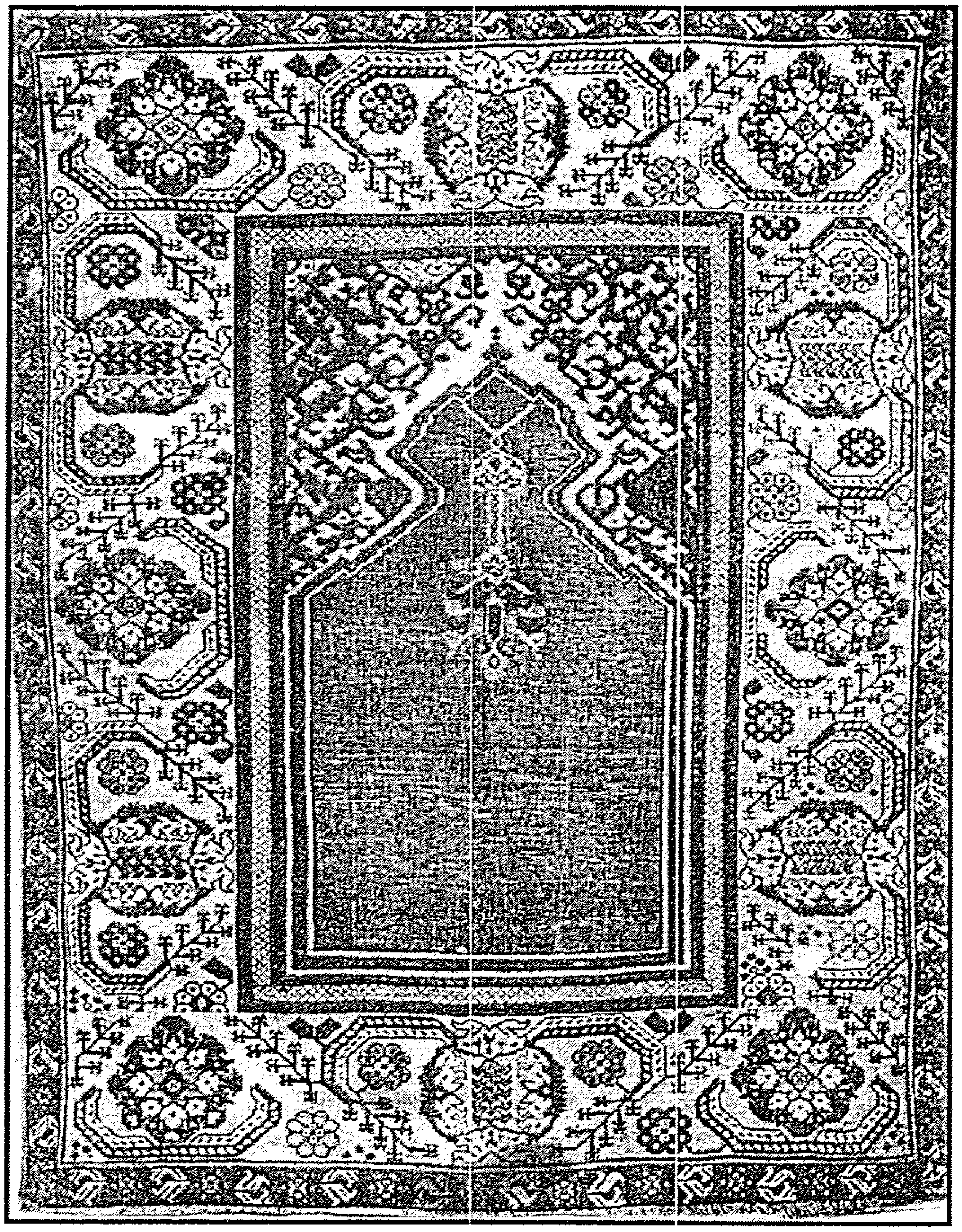

ميلاس صناعة القرن السادس عشر

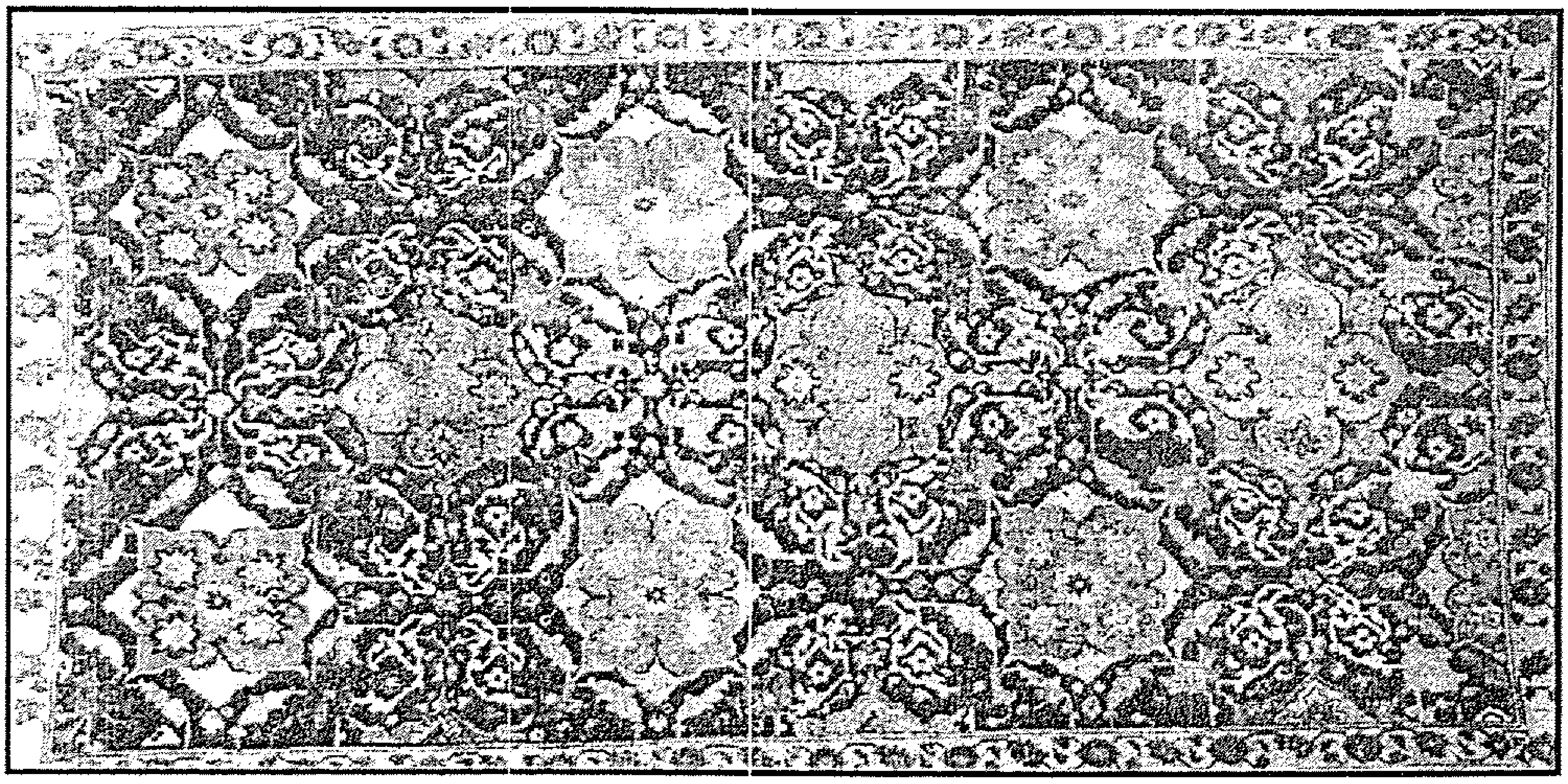

كوبا صناعة القرن السابع عشر

لادك صناعة القرن
السابع عشر

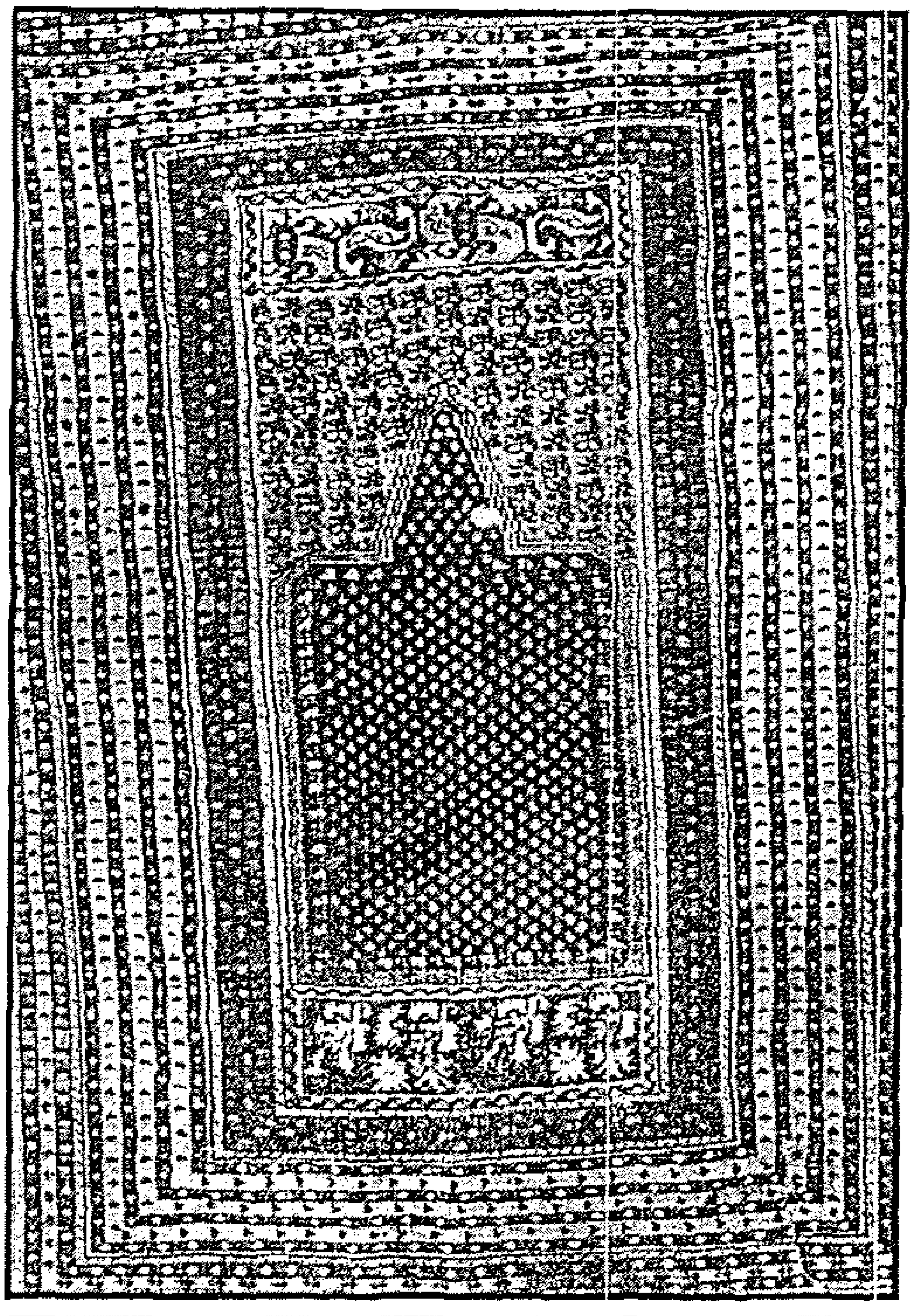

جروس ستكلي صناعة
القرن الرابع عشر

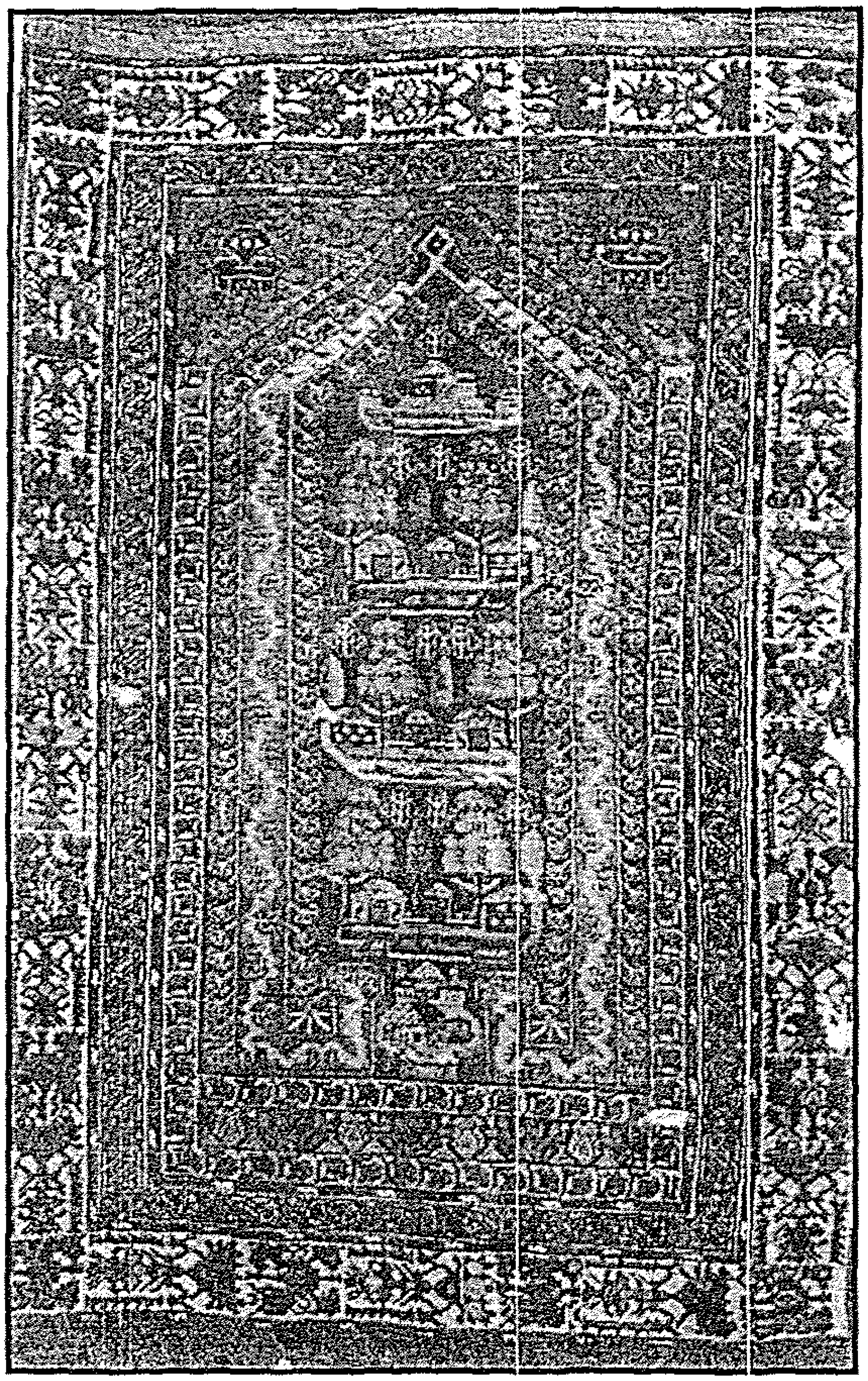

كبرشاهير مازارك صناعة القرن السابع عشر

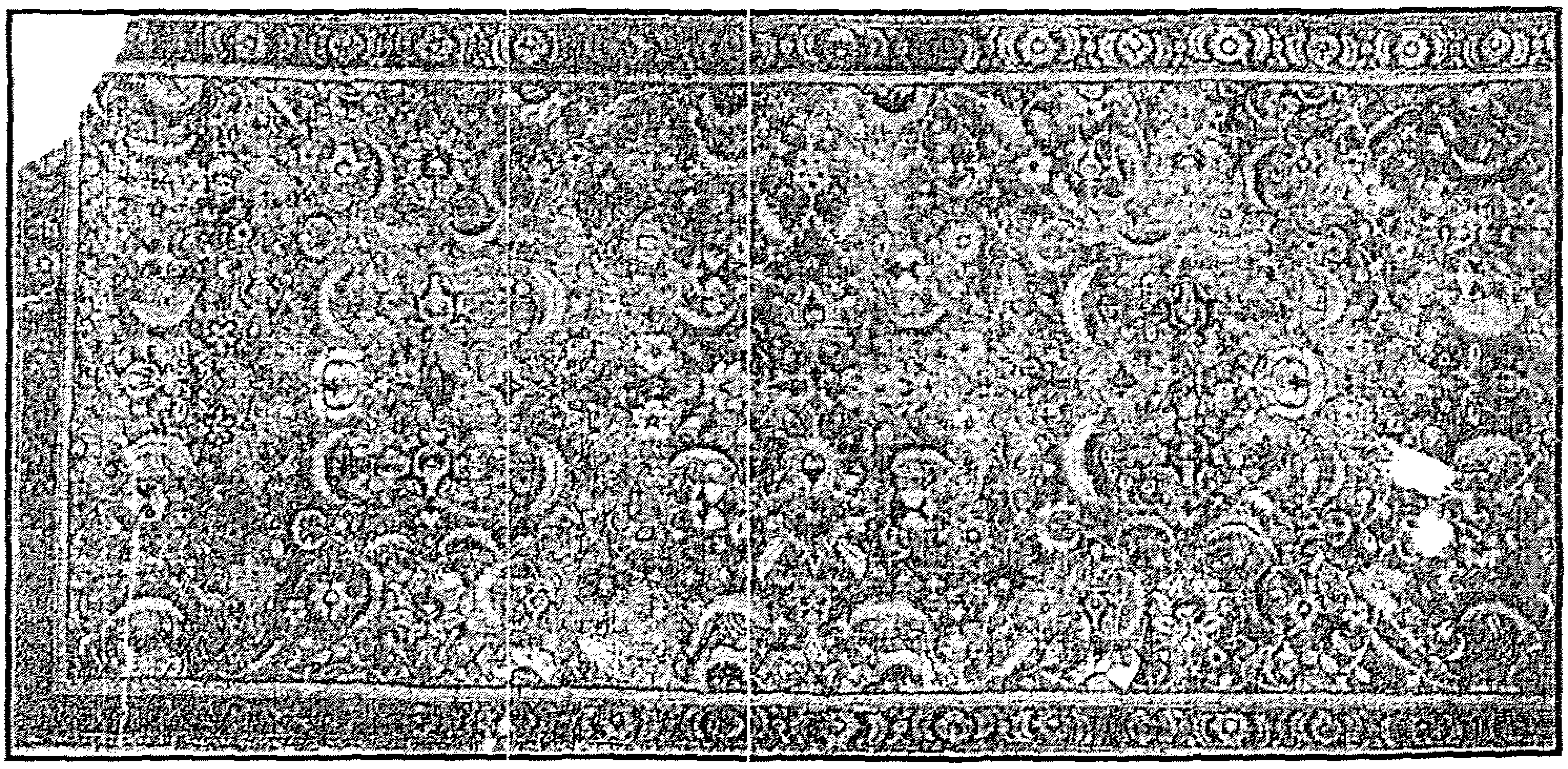

أصفهان صناعة القرن السادس عشر

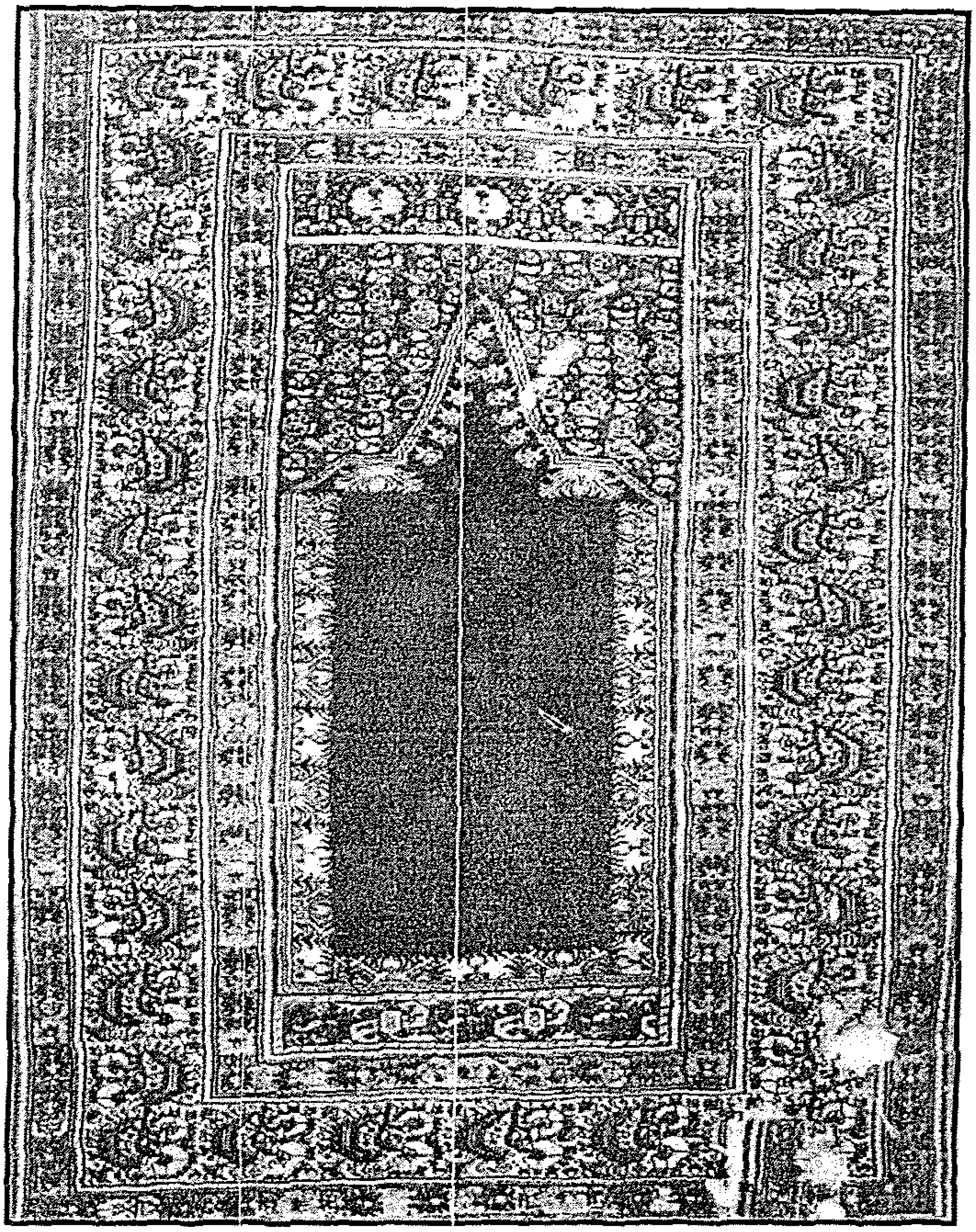

جروس بصرة

الفصل الثاني

صناعة القرن الثامن عشر

صناعة السجاد

صناعة السجاد أو الأبسطة من الصناعات القديمة التي نشأت من صناعة النسيج ويرجع الفضل الأكبر في نموها وتطورها إلى الحاجة الماسة لجميع القبائل التي ترحل من مكان إلى آخر أو البدو الذين يستقرون في مكان معين بأثاث يتصف بسهولة النقل وخفة الحمل، وهم بطبيعة معيشتهم يتنقلون برعي الغنم والماعز والجمال أي الحيوانات ذوات الصوف أو الوبر وحياتهم على هذه الصورة توفر لرجالهم ونسائهم فراغاً كبيراً من الوقت يصرفون أكثره في غزل الصوف ونسجه بما يناسب حاجتهم ولك أن تعرف ما يسمونه "حبشة البدو" أو خيمته فتجدها بيتاً من الشعر يقيه تقلبات الجو. وسجادة أو كليم يفترشه للنوم والجلوس مضافاً إلى ذلك بقية أثاثه القليل كالرحى والطاسة وغيرهما وما نراه اليوم في هذه الخيمة من المحتويات وهو عين ما رآه أسلافنا منذ آلاف من السنين عندما عكف الإنسان على رعي الأغنام وغيرها من الحيوانات وقبل أن يعكف على الزراعة.

وكانت هذه الصناعة في بدئها غاية في البساطة ومصنوعاتها من الوبر أي عبارة عن النوع المسمى الآن بالكليم والألوان طبيعية بسيطة أما السجاد ذو الوبر فإنه لم يصنع إلا أخيراً، وقد أجمع الباحثون على أن هذا الصنف لم يصنع إلا في القرن الثالث عشر، ولكن

التنقيب الأثري في التركستان الشرقية قد أثبت أن هذا الصنف صنع في القرن الرابع، وعثر في الفسطاط على قطع منه يرجع عهدها إلى القرن التاسع وازدهرت صناعة السجاد وبلغت منتهى الإتقان والإبداع في القرن السادس عشر وفي ذلك صنعت أكثر القطع الفنية القيمة التي تتحلى بها الآن معظم المتاحف الأثرية في أوروبا وأمريكا وعقب ذلك انحطاط استمر الآن ويرجع هذا إلى أمرين ، أحدهما العجز عن شراء القطع الثمينة والآخر لدور الصناعة الأوروبية في العصور الحديثة في نسج السجاد وبتكلفة أقل مما سهل على الناس شراء هذا النوع الحديث في كل المناطق في الغرب والشرق. وإن قل الإقبال على الشراء يرجع إلى ظهور أنواع أخرى من البلاط الملون الذي يغري الناظر إليه بشرائه ويهيء له بأن الأرض مفروشة بالسجاد.

مناطق صنع السجاد:

إن صناعة السجاد بكثرة في المناطق التي تتوفر فيها المراعي الطبيعية من الأغنام والحيوانات. وتاريخياً نجد أن صناعة السجاد في الفتح الإسلامي قد غمرت الأسواق حتى رحلت عند فتح الأندلس. ولما انقسمت البلاد الإسلامية إلى دويلات صغيرة وصار لكل دولة عاصمتها أخذ الملوك يبحثون عن أسباب الرفاهية، كانت الطنافس أهم الأشياء التي اتجهت إليها أنظارهم وعنايتهم.

ومع مرور القرون نجد أن بعض الدول قد ازدهرت فيها هذه الصناعة وأخرى بقيت فيها الصناعة لا تطوير فيها. وفي العصور التي مرت على مصر خاصة في عهود الملوك الطولونية والدولة الفاطمية وحكم المماليك في مصر نهضت الصناعة وازدهرت. ثم قل الاهتمام بصنعتها حتى انعدمت تماماً والبلاد التي اشتهرت بصناعة السجاد هي: إيران- الأناضول- شمال العراق- الشام- القفقاس- وفي بلاد التركستان في داخل حدود الصين كسمرقند- وكأشجار ببلاد الأفغان والبلخ وشمال

الهند أما أسبانيا وشمال أفريقيا فقد قلت فيها هذه الصناعة. ولكل منطقة من هذه المناطق مميزاتها الخاصة في الصناعة والألوان والرسم وقواعد الخيوط (الموتة) المادة الأولية المهمة التي تقوم عليها صناعة السجاد هي الصوف فإن ٥٠٪ من السدي واللحمة في صناعة السجاجيد الشرقية هي ٩٠٪ من الوبرة السطحية صرف حرف والتشييم إما من القطن وإما الحرير وأكثر استخداماً صوف الغنم وبعده في الدرجة صوف الجمال ثم صوف الماعز ويوجد الصوف بجميع أنواعه في البلاد الجبلية الباردة فيكون طويلاً ناعماً لامعاً مستقيلاً كما ينحط نوعه فيكون خشناً في البلاد الحارة خاصة الجافة منها.

وتجز الحيوانات عادة في الربيع وكلما كان الحيوان صغير السن حسن صوفه وجاد وصوف البطن أرق وأنعم من صوف الظهر فيوجد هذا لصنع الخيوط ويوخذ الآخر لصنع الوبرة وبعد جز الصوف يعالج معالجة خاصة فيغسل بالماء الدافئ أو البارد ويضرب بين حجرين حتى تزول منه أكثر المواد الدهنية فيكون أكثر ثقلاً للأصباغ النباتية التي كانت تستعمل قديماً.

وهناك أصباغ الأيكن تسري بسهولة في كل أنواع الصوف ويشترط في غسيل الصوف أن يكون في ماء حار من الأملاح. وهذا شرط ضروري يتوقف عليه قبول الصوف للأصباغ. بل هو شرط رئيسي في حسن الصناعة وأنك لتجد بلد اشتهر وإمتاز عن غيره في هذه الصناعة بالرغم من قربها وتجاورها تتعجب من ذلك فإذا بحثت لقيت السر في جودة الماء، وبعد الغسيل يجفف الصوف في الشمس والهواء ويمشط ويفرز بحسب اللون والصنف كل على حدة ثم يندف بالقوس على الطريقة التي يتبعها المنجد في ندف القطن، ثم يغزل إما الغزل العادي وهو المستعمل عند القبائل الرحل، وإما على عجلة خشبية بسيطة شاع استعمالها في معظم البلدان ومن

المغالاة في الحرص على متانة السجاد لا يكفي بالفتلة الواحدة المغزولة بل تصنع مزدوجه، أما الفتلة المزدوجة إذا أريد استعمالها في صنع وبرة السجاد، فإنها تزوج ثم تثلث وقد تربع أحياناً اللهم إلا في بعض الأنواع الرفيعة جداً كالساوك والقاشان، فإن الخيط يكون مزدوجاً فقط، وعندما يتم الغزل وقبل أن تصبغ الخيوط ثم تندفع في الماء الدافئ ثم تغسل جيداً بالماء.

أما القطن فموجود من أقدم الأزمان في كل سهول آسيا وهاتان المادتان لا تحتاجان إلى شرح طريقة تجهيزها لصنع السجاد.

الفصل الثالث

الصباغة في القرن الثامن عشر

الصباغة :

الشرقي بطبعه ماهر جداً في انتخاب الألوان. بل هو فنان ملهم في تنسيقها وهذا هو السبب الأكبر في ذيوع شهرة الأبسطة الشرقية ذلك بأن الصباغة من أهم الأسس في صناعة السجاد، غير أن وسائلها مع الأسف لم تدون بل كانت تحفظ سراً في الأسر يتوارثها الابن عن الأب عن الجد تعاقباً طبقة بعد أخرى. والأصباغ في الأكثر نباتية وتؤخذ إما من الجذور وإما من الورق وإما من الثمر كما تؤخذ من الأنعام أو من الحشرات. ولكن لم يصلنا عن طريق استخراجها واستعمالها إلا القليل.

اللون الأزرق:

يستخرج على اختلاف درجته من البني الفاتح إلى البنفسجي القاتم من أوراق نبات النيلة الذي يزرع بكثرة في الهند وأواسط آسيا فيقطع ويخمر في الماء وبعد التخمير ينقل السائل إلى وعاء كبير ويحرك ساعتين حتى ترسب المادة الملونة.

اللون الأحمر:

يؤخذ من جذور نبات الفوه ويكثر في الأناضول وأواسط آسيا وطريقة استخراجه أن تزرع النباتات في السنة الثانية أو الثالثة من عمرها وتجفف ويؤخذ هذا اللون من حشرة القرمز التي تعيش على شجر البلوط في البلاط الواقعة على ساحل البحر المتوسط لجبل لبنان بالتجفيف. وكل خمسين ألف حشرة تخرج رطلاً واحداً من الصبغ بعد أن تجفف وهذا أفضل من صبغ النبات في تلوين الصوف والحرير.

اللون الأصفر:

يستخرج من ثمار شجيرات صغيرة تنمو طبيعياً في الأناضول وغيرها من البقاع الواقعة غربي آسيا كما يستخرج اللون البرتقالي من جذور شجر الكركم وهناك لون ذهبي جميل يستخرج من زهرة نبات الزعفران إذ تجمع وهي صغيرة جداً حتى أن كل أربعة آلاف زهرة تخرج أوقية من الصبغ.

الدول التي تستخدم الألوان الثلاثة الرئيسية:

١- فاقت العجم جميع الأمم في الأزرق.
٢- برز الترك والتركمان في اصطناع اللون الأحمر.
٣- أما الصينيون في اللون الأصفر.

ومن مزج هذا الألوان الأصلية بعضها ببعض تتألف الألوان المختلفة أي المركبة مثل الأخضر وغيره.

اللون البني:

الضارب منه إلى الحمرة يصنع من الحناء والضارب منه إلى الأسود يصنع من العفص.

اللون الأسود:

يحدث من اختلاط أي ملح من أملاح الأنلين كالحد المستعمل الآن وهو أحط أنواع الأصباغ لأنه يحدث تآكلاً في الصوف وكان سبباً في إزالته من جميع السجاد القديم.

عملية تثبيت اللون (العظام):

إذا ما تم الصبغ بدأت عملية تثبيت اللون وأهم المواد التي تستعمل في هذا الفرض الشب وسلفات النحاس من المواد المعدنية وقشر الرمان وبعض أنواع الليمون والتمر الهندي من المواد النباتية وقد يمكن الجمع بين المواد المعدنية والنباتية.

استخدمت صباغ الأتلين في الصباغة فأثرت برخص ثمنها وسهولة استعمالها في صناعة الصباغة في الشرق وانحطت لعدة أسباب ، إحداها أن ألوان الأنيلين غير ثابتة وسبب آخر أنها تودي بالصوف وتجعله سريع التآكل وسبب ثالث أن الألوان المركبة قد تتغلب بسرعة إلى أحد عناصرها الأولى فضلاً عن فقدان اللمعان والبريق التي جعلت للسجاد الشرقي المكانة الأولى في عالم الصناعة. وتتصور مقدار الخراب الذي حدث ببلاد كثيرة كان أهلها يعيشون من جمع المواد الملونة في صناعة الأصباغ والصباغة، ولم يتنبه الشرقيون إلى أن المواد الجديدة التي أدخلوها في صناعتهم ضررها أكثر من نفعها إلا بعد أن أمحت تلك الصناعة ودفنت مع أسرار بقية الصناعات الجليلة التي كانت فخراً للشرق كصنع القاشاني والزجاج وغيرها.

النسيج:

ينسج السجاد على نول خشبي عمودي مكون من عضادتين قائمتين دراسة وقاعدته اسطوانتين متحركتين على العضادتين، فيثبتان ويشد عليهما الخيوط العمودية وتسمى السدى، وهي عادة أقوى وأمتن خيوط السجاد وتلف هذه الخيوط على الأسطوانة السفلى، ويلف عليها الأجزاء التي ينتهي العمل فيها من السجاد حتى يبقى الجزء القائم به للعمل دائماً على مستوى واحد والسجاد الكبير يستغل به جملة جالسين الواحد إلى جنب الآخر.

وعند أسفل الأسطوانة العليا وعلى مسافة قريبة منها توضع اسطوانة أو اثنتان من الخشب أصغر منها حجماً فتنقسم الخيوط قسمين أي خلفين خيطاً بعد الآخر واحداً من أمامها والآخر من خلفها، ثم تثبت الخيوط الأمامية على بعضها على مسطرة من الخشب مستعرضة على الخيوط الخلفية وحدها في الغالب وقد توضع أخرى على الخيوط الأمامية أيضاً.

ويبدأ العمل بصنع ما يسمى "الحصيرة" وهي نسيج الكليم فيختلف عرضها باختلاف أنواع السجاد، والغرض من صنعها المحافظة على أطراف السجادة لإنهاء العادة سريعة التآكل بالاستعمال، ثم يوضع صف من العقد وتستخدم الوشيعة أو اليد في أمرار خيط مستعرض لحبسها ويسمى اللحمة لسهولة مروره تشد الخشبة المثبتة على الخيوط الخلفية ثم تعود من الجانب الآخر بعد شد الخيوط الأمامية، وتختلف عادة خيوط اللحمة باختلاف أنواع السجاد وبعد مرور اللحمة يستعمل مشط معدني أو خشبي ليزداد ضغط اللحمة على العُقد وتسوى الوبرة إما بمقص وإما بسكين، وتختلف الوبرة طولاً وقصراً باختلاف نوع السجاد ويبدأ العمل دائماً من الأسفل متجهاً إلى الأعلى في اتجاه واحد ومن اليسار إلى اليمين، ويختلف السجاد جودة ونوعاً باختلاف عدد العقد في كل عشرة أو خمسة عقدة في حين يوجد في غيرها عشرة آلاف عقدة، ومن هنا ينشأ الاختلاف بين السجاد جودة ومتانة.

أما طريقة وضع العقد فعلى نوعين الأول وهو أكثرها شيوعاً هي العقد التركية المسماة "جوردس" نسبة إلى بلدة في آسيا الصغرى وهي ذائعة في مصنوعات الأناضول والقفاص وبعض السجاجيد الهندية وأغلب السجاجيد الإيرانية والثانية وهي الإيرانية وتسمى "سنا" نسبة إلى بلدة في إيران فشائعة في كثير من السجاد العجمي والتركماني والصيني أما العقد فتربط على خطين من السدى، فالعقد التركية تمر بالخيطين من الأمام ثم تعود بين الخطين إلى الأمام ثابتة، وأما الإيرانية فإنها تلف على خيط واحد من السدى ثم على الثاني والعقد الإيرانية تزيد السجاد متانة وتساعد الصانع على إبداع رسوم أجمل وأوضح . جوانب السجاد من الأجزاء المعرضة للتآكل بالاستعمال فيعمل ما يسمى "البورسل" وهي عبارة عن خيوط سميكة جداً تجدل على جانبي السجاد وتتعشق مع اللحمة عند النسيج وقد تكون بسيطة أو مزدوجة أو أكثر من ذلك فتختلف باختلاف البلاد التي تصنعه أما أطراف السجاد فتحمي أولاً بنسيج الكليم

المكون للرأسين ، ثانياً يترك أطراف خيوط السدي طويلة أو حبكها كشبكة أوجدلها شراريب وكلها من مميزات الصناعة في بلاد مختلفة.

الرسم:

يميل الشرقي بطبيعته إلى الألوان الزاهية وله مقدرة عجيبة على أن يخلق من هذه الألوان أشكالاً ورسوماً غاية في الإبداع لا يملها النظر والسجادة عبارة عن لوحة أو صورة منسوجة محاطة بإطار هو "الكنار" مكون من جملة خطوط تختلف في العدد والسعة والعرض بحسب نوع السجاد، وأما الرسم الداخلي فيختلف اختلافاً كبيراً بحسب البلدان والمناطق المختلفة ويمكن إجمال القول إن رسم السجاد التركي والقفقاس والتركماني مكون من أشكال هندسية والإيراني من أشكال نباتية مأخوذة من الطبيعة أي من الأشجار والزهور والحيوانات وفي بلاد الشيعة تدخل صورة الإنسان والحيوان أما في بلاد السنة فلا يدخل شيء من ذلك إطلاقاً. وفي عصر السجاد الذهبي أي في القرن السادس عشر كان رسم السجادة الواحد لا تتعدد فيه الأشكال في حين أن نصف السجادة يماثل النصف الآخر وكانت الرسوم في ذلك العهد غاية في الإتقان.

أشكال السجاد:

١- **سجاد الصيد:** وتدخل فيه صورة الإنسان يصطاد راكباً أو راجلاً والحيوانات المفترسة تفترس حيوانات أخرى ويقوم هذا المنظر في داخل غابة من الأشجار والزهور المختلفة.

٢- **سجاد ذو ميداليون:** وللسجادة منها عادة أربعة أركان كل ركن يماثل ربع السرة ومحلاة كلها مع أرضها بغصون الأشجار والأزهار.

٣- **السجاد ذو الأواني:** وهي عبارة عن أصيص أو زهرية تخرج منها الشجرة وتتفرع منها الأغصان وتنتهي بأشكال الزهور المختلفة الجميلة.

٤- **سجاد الجنائن:** وفيه يرسم بستان وسطه نافورة ويقسم إلى طرقات تحيط بأحواض من الزهر المختلف.

٥- **سجاد الأشكال الهندسية:** وهو مقسم إلى أشكال هندسية تتخللها صور أزهار غريبة.

٦- **نوع نادر جداً من السجاد :** يهدى للملوك عليه بيوت من الشعر الفارسي يوكون مموهاً بخيوط الذهب أو الفضة وتوجد أعداد كبيرة منها في أوروبا ولم يوجد في الشرق وفي القرن الثاني عشر أي بعد اكتساح الغز لغربي آسيا ظهر في رسم السجاد لأول مرة السحاب وغير ذلك من الأشكال الصينية الخاصة بالسجاد الإيراني.

بدأ انحطاط الرسم في القرن السابع عشر وذلك بتكبير الرسم حتى يملأ أرض السجاد بأقل عدد ممكن من الأشكال ثم يتعدد الرسم على أرض السجادة. ولكن بقى الطابع الأصيل في أن كل شكل بسيط تراه في السجاد يكون أصلاً مأخوذاً من الحياة العامة المحيطة بالصانع كالأرض والجبال والسماء والسحاب والأشجار والزهور والأدوات. غير أننا نجد أحياناً كثيرة أن الأشكال بقيت وأصبحت بعيدة عن الأصل.

الفصل الرابع

بلاد السجاد

هذه البلاد مكونة من مقاطعات وكل مقاطعة تصنع السجاد بطريقة خاصة وتحافظ عليها محافظة تامة، وتختلف كل مقاطعة عن الأخرى في المادة المستعملة وفي اللون والرسم وفي أغلب الأحيان يمكن تمييزها بعضها عن بعض بسهولة ولكن يتعذر ذلك في حالات كثيرة تبعاً لانتقال الصناع أحياناً من مقاطعة إلى أخرى فينقل الصانع الرسم ويحافظ على طريقة الصنع مثلاً ولكنه يستعمل ألواناً ومواد يستدل منها على أنها منتوج بلدته الأصلية.

الترك

وجد أقدم السجاد التركي في جامع علاء الدين "بقونيه" وهو يرجع إلى عهد السلجوقيين من القرن الرابع أو الخامس عشر، وهي الآن في متحف الأوقاف باستامبول.

وعندما فتح السلطان سليم في القرن السادس عشر بلاد العجم استصحب إيرانيين لصناعة السجاد بآسيا الصغرى فظهرت بدائع منهم في عمل السجاد المسمى "عشاق" وهو نوع كبير الحجم وله "مداليون" ومزين بأزهار وأشجار ولكن جمال السجاد التركي الحقيقي يظهر جلياً في سجادة الصلاة التي كان يعتنى بها عناية خاصة.

أنواع السجاد التركي

١ - اللادك	٤ - الجوردس	٧- البرجما
٢- كونيه	٥ - الكولا	٨- اليوردك
٣- ملس	٦- الموجور	٩- الكيرشهر

وأدخلت هذه الصناعة حول أزمير وهركه وسيواس ولكنها شغلت بإرضاء الذوق الأوروبي والرغبة في التدبير.

القفقاس (مدينة كانت تابعة لإيران)

هذه الصناعة قديمة جداً ووجدت في النوع المسمى بالأرمني والقفقاس كان جزءًا من تلك البلاد تابعاً لإيران فإنه كان يشتغل على الطريقة الإيرانية ويكاد لا يختلف عنها في حين أن جزءاً آخر اشتغل على الطريقة التركمانية.

أنواع السجاد القفقاسي

١ - الكازاك	٣- الداغستان	٥- الشروان	٧- الخيلا	٩- الكراجة
٢- التشتلي	٤- الباكو	٦- السوباك	٨- الكراباغ	١٠- دربند

أنواع السجاد الإيراني

١ - باخشايش (شمال العجم)
٢ - الهزر (شمال العجم)
٣ - البيجار (شمال العجم)
٤ - شاوش بولاك (شمال العجم)
٥ - الكردستان (شمال العجم)
٦ - موصل (شمال العجم)
٧ - سنا (شمال العجم)
٨ - الهمذان (أواسط العجم)
٩ - السربند (أواسط العجم)
١٠ - الفرحان (أواسط العجم)
١١ - الدوشاغان (أواسط العجم)
١٢ - سلطان أباد (أواسط العجم)
١٣ - الكرمنشاه (أواسط العجم)
١٤ - الكرمان (أواسط العجم)
١٥ - الكاشكاي (أواسط العجم)
١٦ - الشيراز (أواسط العجم)
١٧ - الخراسان (أواسط العجم)
١٨ - الغبان (أواسط العجم)
١٩ - الهيراث (أواسط العجم)

أنواع السجاد التركماني

١ - النجارة الملوكية (التكة)
٢ - اليامور (غرب التركستان)
٣ - الأفغان (غرب التركستان)
٤ - البلوش (غرب التركستان)
٥ - البشير (غرب التركستان)
٦ - السمرقند (شرق التركستان)
٧ - الكاشجار (شرق التركستان)
٨ - الخوتان (شرق التركستان)
٩ - السماد الصيني (شرق التركستان)

الباب السادس

المبعوثون والدراسة الهندسية

الفصل الأول

الدراسة الهندسية للمبعوثين إلى فرنسا

لقد أطلقت على بعض الكتب التي كانت في يد أحد الورثة من المبعوثين في هذا المجال. ولا يمكنني أن أنقل هذه الموضوعات، التي كانت تدرس بحذافيرها وإنما أنقلها إلى القراء من خلال رؤوس هذه الموضوعات كاملة.

١ - المبادئ العامة للدارسين في مجال الدراسة.

٢ - دراسة المغناطيسية.

- المغناطيس الطبيعي.
- المغناطيس الصناعي.
- قطب المغناطيس.
- تركيب المغناطيس.
- المغنطة بالتأثير.
- المجال المغناطيسي.
- تخطيط المجال المغناطيسي.
- مقدرة الأجسام المختلفة على الاحتفاظ بمغناطيسيتها.
- الدايلية والحواجز المغناطيسية.

٣- الوحدات المغناطيسية.

- قانون الجذب والتنافر.
- وحدة القطب.
- شدة القطب.
- شدة المجال المغناطيسي.
- الجهد وفرق الجهد المغناطيسي.

٤- الكهرباء الاستاتيكية

- مبادئ عامة للكهرباء بالاحتكاك عند القدماء.
- حالة التكهرب.
- تولد نوعان للتكهرب في آن واحد ومقدار واحد.
- المواد الموصلة والمواد العازلة.
- عزل الأجسام.
- الكهرباء بالتأثير.
- التأثير سابق الجذب.
- الجهد الكهربي.
- المجال الكهربي وخطوط القوة الكهربية.
- آلة ويمز هوست شرحها وعملها.
- مقر الشحنات الكهربية.
- توزيع الشحنات مع السطوح الخارجية.

الأجهزة التي تستعمل لمعرفة الكهربية على الأجسام

١ - إيلكترومترهنلي.

٢ - اكتشاف الالكتروسكوب ذي الورقتين الذهبيتين.

الوحدات المستعملة في الكهرباء الاستاتيكية ومقاديرها وعلاقاتها ببعض

- كمية الكهرباء- وحدة الكمية.
- الجهد- وحدات الجهد.
- تعريف الجهد.
- السعة- وحدات السعة.
- الطاقة الكامنة في الشحنة.
- شدة المجال- وحدة الشدة.

المكثفات

- نظرية المكثفات.
- سعة المكثفات.
- معامل السعة النوعية.
- شحن وتفريغ المكثف.
- بعض أنواع المكثفات المستعملة.

الكهرباء التيارية

١ - التيار الكهربي.

- العمود البسيط.

- التفاعلات المحلية والاستقطاب في العمود البسيط.
- عمود دانيال.
- عمود جروف.
- عمود بنزن.
- عمود ثاني أكسيد الكربون.
- عمود الكلانشية.
- الأعمدة الجافة.
- الأعمدة القانونية.
- عمود كلارك.
- عمود وستون كادمبوم.
- البطاريات الكهربية.

شدة التيار الكهربي

- وحدات شدة التيار وكمية الكهرباء.
- تعريف عمل للأمبير والكولوم.
- المكافئ الكيميائي الكهربي.
- القوة الدافعة الكهربية المضادة.
- فرق الجهد والقوة الدافعة الكهربية.
- المقاومة.
- قانون أوم.

- قانون المقاومة.
- توصيل المقاومة- المقاومة الداخلية للأعمدة وتيار القصر.
- توصيل الأعمدة للحصول على أكبر تيار في الدائرة الخارجية.
- الطاقة الكهربية.
- القدرة الكهربية.
- وحدات الطاقة المستعملة.
- معامل جول.

الكهرومغناطيسية

- المجال المغناطيسي.
- القوة الناشئة بين قطب مغناطيس وجزء صغير من سلك يمر به تيار كهربي في سلك مستقيم عند نقطة تبعد عنه بمسافة.
- شدة المجال الناشئ عن مرور تيار في شكل دائرة عند مركز هذه الدائرة.
- الملف الدولي.
- شدة المجال الناشئ عن مرور تيار في الملف الدائري.

منحنيات المغناطيس

- كثافة الازدحام ومعامل النفاد.
- التدفق المغناطيسي.
- كيفية إيجاد معامل النفاد.
- منحنيات المنمغطس.

الدائرة المغنا يسية

- قانون الدائرة المغناطيسية.
- مقارنة الدائرة المغناطيسية بالدائرة الكهربائية.
- أعمدة قانون الدائرة المغناطيسية في تصميم الآلات الكهربائية.
- الروافع المغناطيسية.
- الوصلات المغناطيسية للمحاور.
- القوة الناشئة بين سطحين ممغنطين.
- التعويض المغناطيسي.
- التيارات الإعصارية.

القوة الدافعة الكهربية

- كيفية إنتاج القوة الدافعة الكهربية.
- القوة الدافعة الكهربية المتولدة بالاستنتاج النفسي
- معامل الاستنتاج النفسي ومعامل الاستنتاج المتبادل.

التيار المتغير

- القيمة اللحظية للقوة الدافعة الكهربية المتميزة المتوالدة في موصل.
- الملوحة وزمن الموجه والتردد.
- الصورة العامة للمعادلة.
- الزاويا الميكانيكية والزاويا الكهربية والعلاقة بينهما.
- القيمة اللحظية للتيار المتغير في موصل.

- العلاقة بين التردد وسرعة دوران الملف وعدد الأقطاب.
- القيمة المتميزة المتوسطة.

التأثير المغنا ـيسي للتيار المتغير

- التأثير المغناطيسي للتيار المتغير.
- إيجاد معامل التأثير النفسي للملف المعلوم.
- العلاقة الوجهية بين موجة حفظ المنبع وموجة التيار في دوائر التيار المتميز.

المكثفات

- المكثفات.
- وجه التشابه بين المكثف وأنبوبة بها قرص من المطاط.
- القدرة المستهلكة في المكثف.
- توصيل المكثفات بالتوالي.

أجهزة القياس للتيارين المستمر والمتغير

- الأمبيرمترات
- العدادات المبينة للنهاية العظمى للتيار.
- الفولتمترات.
- الواتمترات.

الفصل الثاني

دراسة في فن العمارة والبناء (الخرسانة المسلحة) للمبعوثين إلى فرنسا

المحاضرة الأولى عن الخرسانة

تقدم فن العمارة والبناء عما كان عليه في العصور السابقة فبعد أن كانت الضخامة في المواد هي كل ما يلجأ إليه الناس والمهندسون المعماريون. أخذت هذه النظرية تتلاشى تدريجياً حتى وصل خلط الخرسانة بالحديد.

إن هذا الخلط قد أعطى أكبر مقاومة بأقل ثمن ممكن وحساب الخرسانة المسلحة هو نتيجة أبحاث قيمة وتجارب عديدة ارتكزت على علمي المواد والكيمياء. وحيث أن الصلب معروف بقوة احتماله للشد كما أن الخرسانة تقاوم الضغط لدرجة كبيرة ولا تستطيع مقاومة الشد إلا إلى حد محدود تطبيقي إذ أن تستعمل المادتان للإنشاءات المعرضة لكل من الشد والضغط كالكمرات وغيرها بأن توضع أسياخ الحديد في الطبقات للشد وتترك الخرسانة وحدها لتتحمل إجهادات الضغط خصوصاً وأنه وجد أن التماسك بينهما شديد وأن معامل التمدد للخرسانة والحديد يقربان من بعضهما جداً وأن وجود الحديد داخل الخرسانة يحفظه من المؤثرات الجوية وتمتاز الخرسانة المسلحة بعدة مزايا أهمها:

أولاً: مقاومتها للحريق.

ثانياً: سهولة تشغيلها وتنفيذها.

ثالثاً: تكاليفها أقل مما لو استعمل الحديد بمفرده.

رابعاً: عدم حاجتها إلى الصيانة والتعهد بعد التنفيذ.

ومن جهة أخرى تقابل هذه المزايا بعض عيوب أهمها:

أولاً: توصيلها للحرارة.

ثانياً: حاجتها إلى دقة وعناية وملاحظة تامة أثناء التنفيذ.

ثالثاً: صعوبة إصلاح الخطأ فيها وترميمها إذا وجد خلل.

وقد شاع استعمال الخرسانة المسلحة فتعمل منها الأعتاب والطوابق والأعمدة والحوائط والأساسات والسدود والكباري وأعمدة الإنارة وأعمدة التليفونات وفلنكات السكك الحديدية والمواسير.

إجهاد التماسك:

ينتج التماسك والاتحاد بين عنصري الحديد والأسمنت أي قوة التصاقهما ببعضهما من انكماش الخرسانة حول أسياخ التسليح فيسبب توزيع الإجهادات داخل الخرسانة المسلحة بانتظام ويحمى حديد التسلح من هذه الخرسانة عند هدم المنشآت الخرسانية.

ويختلف إجهاد التماسك ومقاومة الحديد للانزلاق بحسب تركيب الخرسانة وسطح أسياخها وشكل قطاعها وتزداد مقاومة الانزلاق هذه بنسبة كبيرة للخرسانة بعد مضي سنتين من صبها عند مقاومتها بعد ثلاثة أشهر من صبها وتزداد أيضاً قوة الالتصاق كلما زادت كمية مياه المزيج بحيث ألا تتعدى كمية المياه حداً محدوداً وإلا نقصت تلك القوة.

وعند تصميم الأعتاب الخرسانية غير كاف أن يكون حديد التسليح ذا قطاع مناسب لمقاومة قوى الشد أو الضغط بل يجب أن يكون طوله وأسطحه كافية لمقاومة قوى الانزلاق أيضاً ولحساب إجهاد التماسك.

إجهاد القص الأفقي والشد القطري

إن إجهاد القص على قطاع ما ينشأ عنه إجهاد قص مساو له في المقدار وعلى قطاع عمودي عليه وأنه يمكن الجزم بأن حالة إجهاد القص هذه تولد إجهاد شد وإجهاد ضغط على قطاعات مماثلة على مستوى القطاعات المجهدة قصاً بمقدار ٤٥° وفوق ذلك فإن كل من إجهادى الشد والضغط القطري تساوي إجهادي القص.

ومعنى هذا أن إجهاد القص الرأسي في الأعتاب الخرسانية ينشأ عنه إجهاد قص أفقي مساو له في المقدار وبالتالي ينشأ عن ذلك إجهادي شد وضغط في اتجاه القطر أي مستويات مائلة ٤٥° تسمى بإجهادى الشد والضغط القطري.

أما توزيع القص الأفقي على قطاع العتب فيمكن البرهنة على أنه يتبع منحنى قطع مكافئ الشكل الموضح نهايته العظمى عند محور الخمول للقطاع ومقدارها ٣/ ٤ الإجهاد المتوسط أما عزم الانحناء فنهايته العظمى عند الألياف المتطرقة وتنعدم عند محور الخمول ويمكن القول بأنه يقع أغلبه على الشفتين لأن قوتي الشد والضغط الأفقيتين يمكن تركيزهما بالقرب من الألياف المتطرفة ومعنى هذا أن أغلب قوة القص تقاومها روح العتب لأن معظم مساحة منحنى توزيع قوة القص الأفقي على القطاع يقع على الروح.

المحاضرة الثانية

الأعتاب الخرسانية

عند تصميم الأعتاب الخرسانية المسلحة يجب ملاحظة قوى الشد الأفقية وكذلك الشد القطري فإذا رسمنا عتباً وبينا الألياف المتعددة الطول ينشأ الشكل التالي:

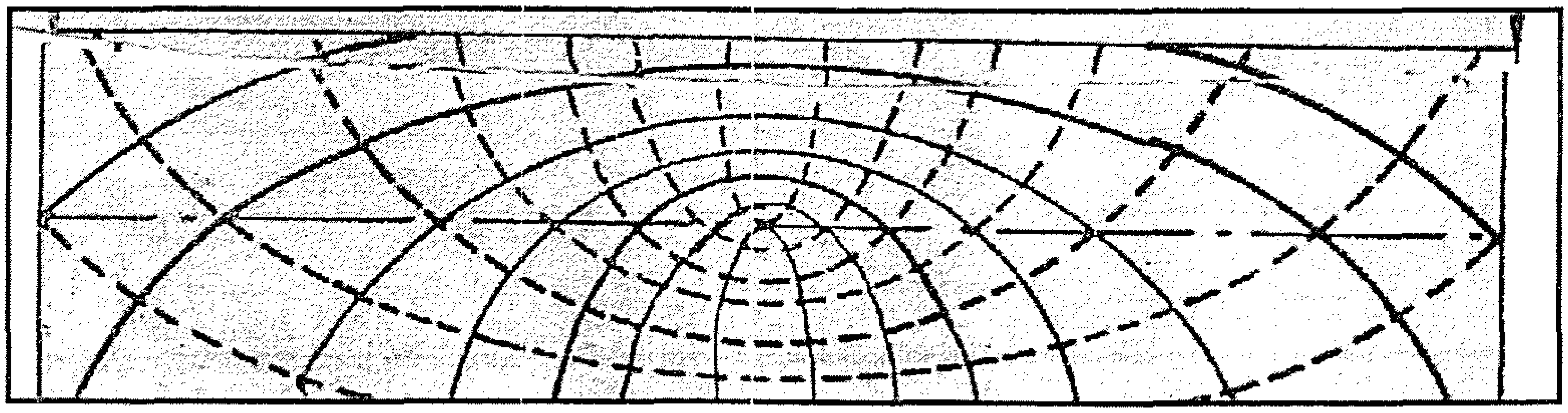

ففي وسط الكمرة حيث قوة القص معدومه نرى أنه لا يعمل على الألياف سوى القوى الأفقية الناشئة عن عزوم الانحناء فيكون اتجاه الجهد تقريباً أفقياً ويزداد ميله كلما ابتعدنا عن وسط الكمرة إلى الطرفين حيث تزداد قوة القص تدريجياً وعند الطرف يقل عظم الانحناء وتكبر قوة القص فتصير محصلة القوى على الألياف متجهة في اتجاه الشد القطري فقط وهو ٤٥°.

ويستدل من ذلك على أنه توجد عوامل أخرى خلاف الشد الأفقي الناشئ عن عزم الانحناء وهذه العوامل هي جهد القص والشد القطري في الكمرة لذلك وجب وضع أسياخ رأسية وقطرية لاتقاء خطر هذين العاملين على التوالي كما هو ظاهر بالشكلين.

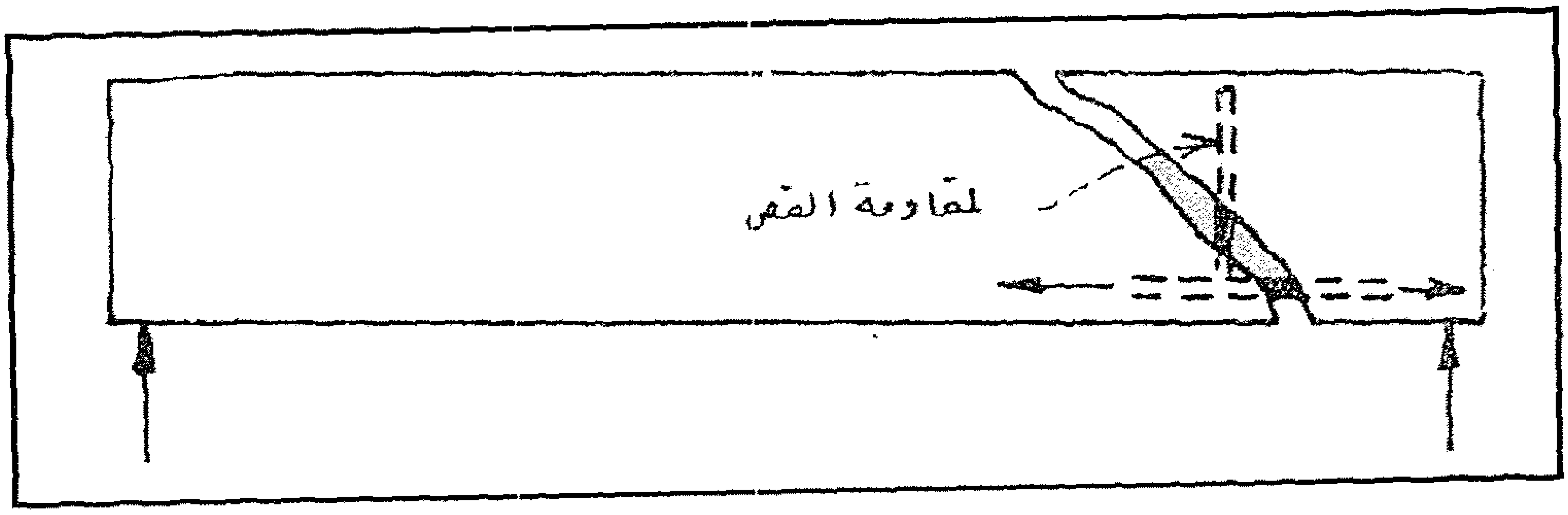

كما أن هذه الأسياخ أو الركابات يجب أن تثبت بالأسياخ الأفقية تثبيتاً متيناً وإلا فتكون عرضة للانزلاق.

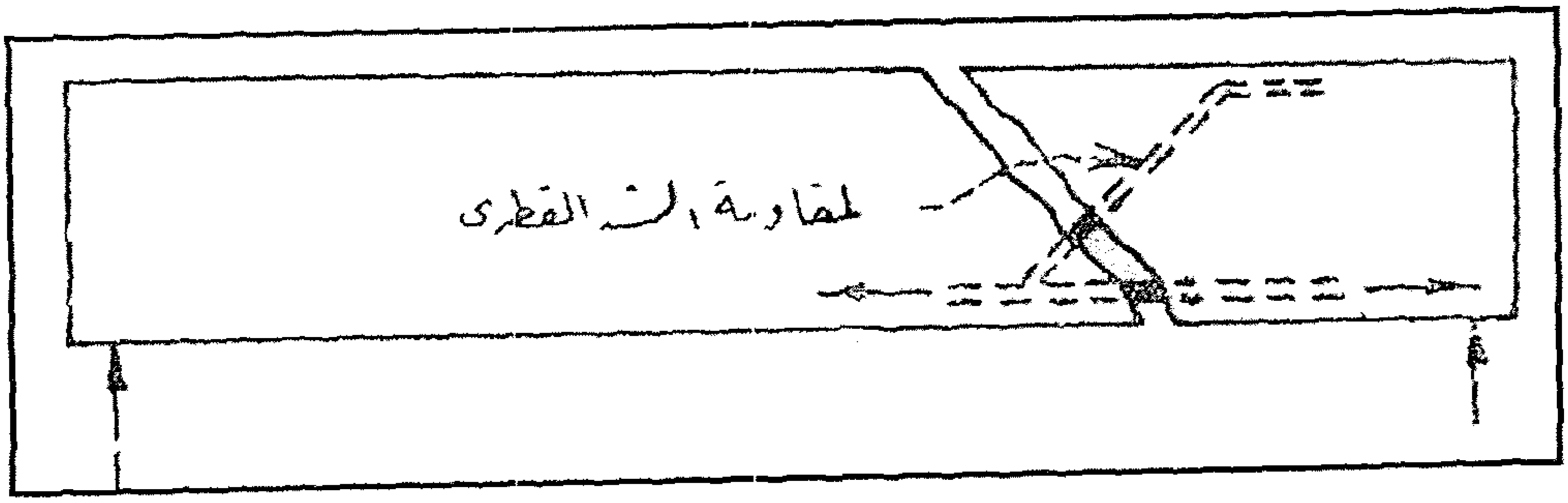

ويمكن الاستعاضة عن الركابات القطرية بثني بعض الأسياخ الأفقية بشرط أن تكون مقاومة الأسياخ الباقيه كافية لعظم الانثناء خصوصاً أن أغلب الأعتاب تعتبر مثبتة من الطرفين فهناك عزم انثناء سالب عند الأطراف فتكسيح.

الأسياخ الأفقية السفلى تساعد على مقاومة عزم الانحناء السالبة فيقتضى تكسيح الأسياخ السفلى ابتداء من النقطة التي يتغير فيها عزم الانحناء من موجب إلى سالب ويكون عادة عند ١/ ٥ أو ١/ ٤ ل حيث ل هي فتحة الكمرة.

مما يساعد على فهم ضرورة الكانات الرأسية المائلة لمقاومة قوى القص والشد القطري مشاهدة تجارب تعمل على أعتاب من الخرسانة المسلحة.

والشكل التالي يبين كمرة مسلحة في حالة الكسر بتأثير حمل مركز في وسطها زيد تدريجياً فمرت على أربعة أدوار.

أولاً- تصير الألياف الخرسانية السفلى للكمرات تحت تأثير الشد فينشأ عن ذلك أن محور الخمول يكون في وسط القطاع كأنها كمرة خرسانية عادية لا مسلحة.

ثانياً- عندما يبلغ جهد الشد في الخرسانة ٢٤ كج/ سم٢ وهو أقصى جهدها يبتدئ الحديد بأخذ الشد وبذا يقل الشد على الخرسانة كما أن محور الخمول يرتفع فتزيد جهود الضغط على السطح الأعلى للخرسانة.

ثالثاً- تظهر شقوق رأسية في وسط الكمرة وتزداد في الامتداد والوسع بزيادة الحمل.

رابعاً- يأتي دور الكسر فتكسر الكمرة بإحدى الطرق الآتية:

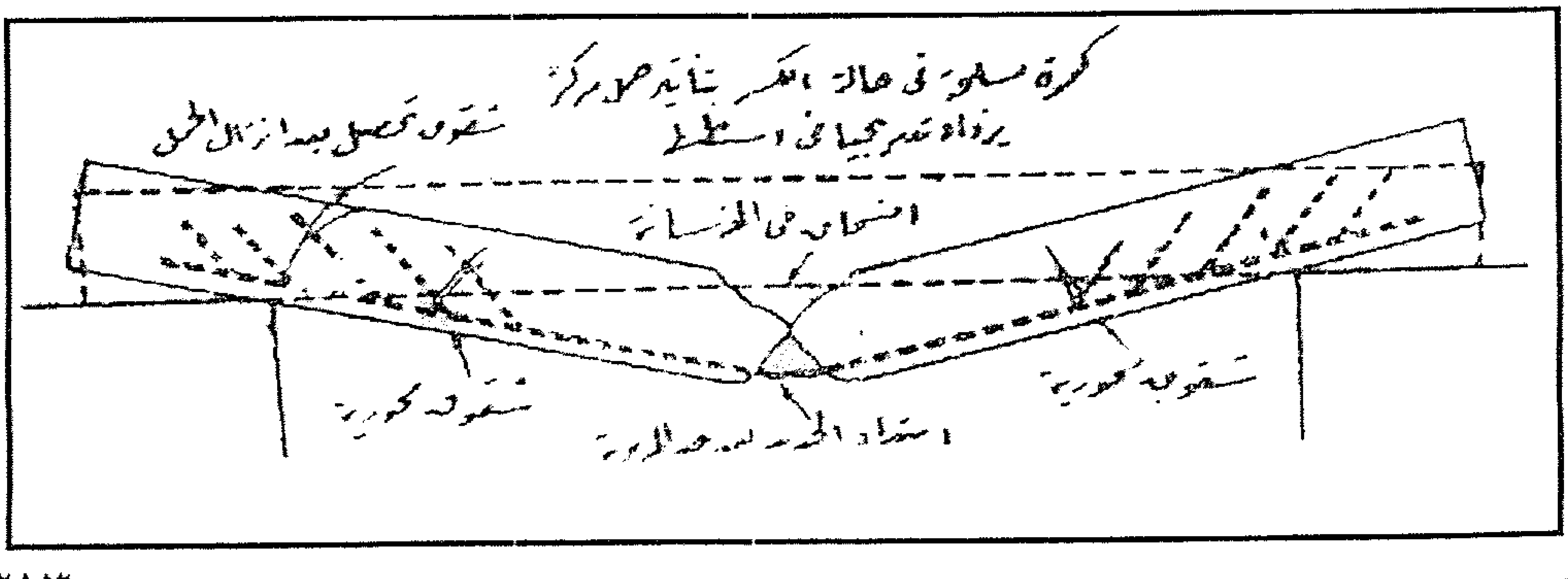

(أ) ظهور شقوق مائلة تحت الأحمال المركزة.

(ب) ظهور شقوق في وسط الكمرة متجهة نحو الجانبين.

(جـ) ظهور شقوق تحت الحمل المركز متجهة إلى إحدى نقط الارتكاز.

(د) سحق الألياف العليا للخرسانة تحت مجهود الضغط وهذه الحالة هي أكثر الحالات شيوعاً وبواسطتها تستحق الألياف العليا للكمرة بينما يصبح الحديد على وشك التطور إلى درجة نهاية المرونة.

ومن المشاهدات التي تلاحظ في عمليات التجارب أنه كلما تكسر الكمرات بمجهود القص أو القطم لأنه متى بلغ جهد القص ٧ كج/ سم٢ يبتدئ ظهور شقوق فطربه على أن الكمرة كسرت بالشد القطري وتميل هذه الشقوق ٤٥° فتقطع الخمول ثم يبتدئ أن تكون أفقية.

وقد وجد أيضاً أن المنقوبة الرأسية والقطرية تقوي الكمرة بمقدار الضعف وأن التقوية القطرية أهم كثيراً من التقوية الرأسية لأنها تمنع الشقوق.

ملخص النقط الهامة في تصميم الأعتاب الخرسانية:

من المعتاد أن المعاليم هي الأحمال والفتحة وإجهادات الشد والضغط للحديد والخرسانة على التوالي ونسبة معامل المرونة لهما ويكون المطلوب حساب العرض والارتفاع العملي للقطاع وقطاع التسليح وعدد الأسياخ وعند حساب القطاع يبدأ

أولاً- بإيجاد عرضه وهذا يختلف باختلاف الفتحة وله نسبة معينة فيكون ١/ ٤٠ من الفتحة في الفتحات من ٨ متر فما فوق ويكبر من هذه النسبة إلى ١/ ٢٥ من الفتحات الصغيرة ولابد أيضاً مراعاة الظروف فإن كانت الكمرة لتحمل حائط أو عرض طوبة نصفها نصف قالب فلابد من عمل عرض العتب أكبر من نصف طوبة وإن كانت لتحمل حائط بعرض طوبة فيكون عرضها على الأقل طوبة وهكذا.

ثانياً- يمكن أن نحدد المقدار ٧.

ثالثاً- تحديد مقدار النهاية العظمى لعزم الانحناء.

رابعاً- الكانات الرأسية.

خامساً- في بعض الأسياخ الأفقية من الجانبين لمقاومة الشد القطري بحيث تكون الأسياخ الباقية كافية لمقاومة عزم الانحناء.

ويلاحظ إذا كان هناك داخل منطقة الضغط أسياخ من الحديد حينئذ محصلة الضغط تساوي في هذه الحالة مجموع الضغط في الحديد العلوي مضافاً إليه الضغط في الخرسانة فوق محور ثقل الخرسانة المضغوطة.

الأعتاب ذات الارتفاع المنخفض:

قد يقتضي أحياناً لبعض الأسباب أن يكون الارتفاع للأعتاب المسلحة أصغر من الارتفاع المحسوب بالطريقة المباشرة التي ذكرناها فيسمى حينئذ العتب ذو الارتفاع المخفض فيكون من المحتم والحالة هذه زيادة التسليح وزيادة عرضه لأن ذراع الأزواج سيقل في هذه الحالة فيعوض عنه بزيادة في قوة الشد والضغط حتى يتساوى عزم الانحناء في الحالتين.

ويصبح العتب بقطاع أكثر كلفة من العطاء المعتاد كما أنه يجب الاعتناء في هذه الحالة بنوع خاص أن يوضع الحديد في محله تماماً لأنه إذا ارتفع الحديد عن موضعه قل ذراع الازدواج وكان العتب معها معرضاً لخطر عظيم.

المحاضرة الثالثة

الطوابق الخرسانية

لتطبيق النظريات السابقة في الخرسانة المسلحة على الطوابق الخرسانية تقول إن الطابق إما أن يكون محمولاً من الجهتين فقط وإما محمولاً من جهاته الأربع كان ذلك على كمرات أو على حيطان وقد يكو مرتكزاً عند أطرافه أو مثبتاً أو مستمراً.

ولإمكان التصميم يجب معرفة أولاً الحمل على الوحدة المربعة من مساحة الطابق وهو مجموع الحمل العرض أو الحمل الحي مضافاً إليه الحمل المستقيم أو المثبت موزعاً على مساحة الطابق والمراد بالحمل المستقيم هو وزن الطابق بما عليه من الأرضيات سواء كانت خشبية أو غير ذلك ولتقدير الحمل المستقيم يتعين تقدير سمك الطابق بالتقريب قبل التصميم ويكون عرضه من ١/ ٢٥ إلى ١/ ٤٠ من طول الفتحة ويستحسن أن لا يقل سمك الطابق عن ٨ سم.

وفي هذه الحالة تحول الأحمال الحية إلى أحمال تكافئها من حمل مستديم كما هو معروف وفي العادة يقسم الطابق إلى مستطيلات بواسطة كمرات إذا كانت أبعاده كبيرة بحيث تكون أطول جانبيه ل ، ل١ مستاويين على قدر الإمكان. فإذا كان الطابق بحيث أن طوله أكبر من ضعف عرضه أو أن ل > ٢ ل فإن يسلح من جهة واحدة فقط باعتبار أن الفتحة هي البعد الأقل هذا ويجب وضع أسياخ بالطول أيضاً للتوزيع فقط بحيث يكون البعد بين الواحد منها والآخر أكبر وقطره أصغر من الأولى فيعتبر في هذه الحالة تصميم الطابق كتصميم عتب مستطيل طوله هو الفتحة الصغرى ل١ وعرضه هو الوحدة.

فسنعمل لذلك القوانين السابق ذكرها في الأعتاب المستطيلة ولا يفوتنا أنه يجب ثني الأسياخ السفلى إلى أعلى عند الحاملين في حالة الطابق المثبت لمقاومة عزم الانحناء

السالب ابتداء من ١/ ٥ الفتحة من الجانبين مع وجوب تجنيش أطراف الأسياخ حسب أصول الصناعة وربط الأسياخ الطولية مع العرضية بسلك لحفظها في مواضعها .

ولتحضير الأرضية لوضع الأساس إما تدق خوازيق من الخرسانة أو الحديد أو الخشب على عمق كاف بحيث يصل إلى الأرض الصلبة وإما إنزال طبقة من الأرض على عمق مناسب ويملأ مكانها بدكة قوية.

ملحوظة هامة:

بقية المحاضرات التي كانت تلقى على أعضاء البعثة لم أعثر عليها ربما أتلفت أو مزقت من دفاتر أعضاء البعثة أو ربما أهملت من ورثة المبعوثين لعدم الاهتمام بما جاء فيها.

الباب السابع

النهضة العلمية في عصر محمد علي

الفصل الأول

مؤلفات أعضاء البعثة الطبية الأزهرية بعد عودتهم من فرنسا

م	اسم المبعوث	مؤلفـــــاته	تاريخ طبع مؤلفه
١	إبراهيم النبراوي أفندي موطنه: نبروه من مديرية الغربية	١- نبذة في الفلسفة الطبيعية. ٢- نبذة في الأصول الطبيعة والتشريح العام ترجم المؤلفين من مؤلفات كلوت من الفرنسية إلى العربية. ٣- الأربطة الجراحية قام بتأليفه.	١٨٣٧ ١٨٣٨
٢	محمد الشباسي أفندي من طلبة الأزهر	١- التقيح الوحيد في التشريح الخاص الجديد. ٢- التنوير في قواعد التحضير.	١٨٤٥ ١٨٤٨
٣	مصطفى السبكي أفندي من طلبة الأزهر	١- المصطلحات العلمية والطبية لكلوت بك وقد قام بترجمته إلى العربية	١٨٦٠
٤	السيد أحمد الرشيدي أفندي من طلبة الأزهر	١- ترجمة رسالة تطعيم الجدري مؤلفه كلوت بك. ٢- الدراسة الأولية في الجغرافيا الطبيعية مؤلفه كلوت بك. ٣- ضياء الثيرين في مداواة العينين مؤلفه كلوت بك. ٤- بهجة الرؤساء في أمراض النساء مؤلفه كلوت بك. ٥- نزهة الأفيال في مداواة الأطفال مؤلفه كلوت	١٨٣٦ ١٨٣٨ ١٨٤٠ ١٨٤٤ ١٨٤٥

م	اسم المبعوث	مؤلفـــــاته	تاريخ طبع مؤلفه
		بك. ٦- الروضة البهية في مداواة الأمراض الجلدية مجلدان مؤلفهما كلوت بك. ٧- نخبة الأمثال في علاج تشوهات الأطفال وهو ذيل الكتاب السابق. ٨- عمدة المحتاج في علمي الأدوية والعلاج في أربعة مجلدات كبيرة ويعتبر هذا الكتاب دائرة معارف للعلوم الطبية ووسع له دكتور حسين عودة الدمشقي فهرساً أبجدياً للمواد التي بها.	١٨٤٧ ١٨٦٦
٥	عيسوي النحراوي أفندي من طلبة الأزهر	١- المصطلحات العلمية والطبية (الجزء الخاص بالتشريح العام واشترك في ترجمته مع بعض رفاقه في البعثة). ٢- ترجم كتاب التشريح العام لعلماء فرنسيين	 ١٨٣٥
٦	السيد حسين غانم الرشيدي أفندي من طلبة الأزهر	١- ترجمة كتاب الدرن اللامع في النبات وما فيه من المنافع لمؤلفه د/ فيجري بك أحد أساتذة مدرسة الطب وقد ساعده في الترجمة محمد عمر التونسي مصحح كتب الطب ومحررها.	١٨٤١
٧	محمد علي البقلي ولد في زاوية البقلي إحدى قرى المنوفية	١- رسالة في الرمد الصديدي. ٢- روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى. ٣- غرر النجاح في أعمال الجراح في مجلدين. ٤- نشر الكلام في جراحة الأقسام. ٥- قانون الطب.	 ١٨٤٣ ١٨٤٦ لم يطبع

م	اسم المبعوث	مؤلفـــــاته	تاريخ طبع مؤلفه
		٦- قانون الشرعية والاصطلاحات الشرعية. ٧- كان يحرر مجلة اليعسوف وقد ساعده في تحريرها الشيخ إبراهيم الدسوقي وهي أول مجلة طبية صدرت باللغة العربية ويوجد منها مجلد بدار الكتب المصرية.	ومات قبل أن يكمل تأليفهما ١٨٦٥
٨	محمد الشافعي أفندي من طلبة الأزهر	١- أحسن الأغراض في التشخيص ومعالجة الأمراض (أربعة مجلدات). ٢- كتاب الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال لكلوت بك وترجمه إلى العربية. ٣- كنوز الصحة ويواقيت المنحة (عربه إلى العربية). ٤- السراج الوهاج في التشخيص والعلاج في أربعة مجلدات.	١٨٤٣ ١٨٤٤ ١٨٤٤ ١٨٦٤
٩	محمد السكري أفندي من طلبة الأزهر	وهو من الأطباء المشهورين ولم يعثر على أي مؤلف له.	بدون تاريخ
١٠	حسن المهياوي أفندي من طلبة الأزهر	نال إعجاب أساتذته الفرنسيين لتفتحه على أعضاء البعثة الطبية. لكنه لم يعمر وقد عين طبيباً في مستشفى الإسكندرية للجنود البحرية.	بدون تاريخ
١١	محمد منصور أفندي من طلبة الأزهر	لا يوجد له مؤلفات وعين مدرساً في مدرسة الطب	بدون تاريخ
١٢	أحمد نجيب أفندي من طلبة الأزهر	لا يوجد له مؤلفات ولم يعمر طويلاً وقد عين بعد عودته من فرنسا في مدرسة الطب	بدون تاريخ

م	اسم المبعوث	عودته إلى مصر	ترقيته	الوظائف التي شغلها
١	إبراهيم النبراوي أفندي	١٨٣٨	يوزباشي صاغقول أميرلاي رئيس الأطباء رتبة التمايز	عمل مدرساً في مدرسة الطب بالقصر العيني اختاره محمد علي طبيباً خاصاً له ثم من بعده اختاره عباس طبيب خاص.
٢	محمد الشباسي أفندي	١٨٣٨	نال رتبة البكوية	عمل معلماً في مدرسة الطب المصرية للتشريح الخاص والتحضير عيادة المستشفيات العسكرية والملكية معاً
٣	مصطفى السبكي أفندي	١٨٣٨	أستاذ	في مدرسة الطب معلماً للعلوم الطبيعية.
٤	السيد أحمد الرشيدي أفندي	١٨٣٨	معلم	للتشريح في مدرسة الطب.
٥	عيسوي النحراوي أفندي	١٨٣٨	معلم	للانتربـاذين والمادة الطبية بمدرسة الطب استقل بالتأليف والترجمة.
٦	السيد حسين غانم	١٨٣٨	صاغقول بكباش قائمقام أميرلاي	عين في مستشفى القصر العيني باستخراج وخوجه في عمليات الجراحة الصغرى والكبرى والتشريح الجراحي.
٧	محمد علي البقلي	١٨٣٨		معلماً للأمراض الباطنية ثم تولى رئاستها.
٨	محمد الشافعي أفندي	١٨٣٨	معلم	في مدرسة الطب.
٩	محمد السكري أفندي	١٨٣٨	نال البكوية معلم	لأمراض العين بالقصر العيني
١٠	حسن المهياوي أفندي	١٨٣٨	معلم	في مستشفى الإسكندرية للجنود البحرية حيث كان لدراسة الطب ثم توفى ١٨٤٠.
١١	محمد منصور أفندي	١٨٣٣	معلم بمدرسة الطب ثم عاد إلى فرنسا ١٨٣٦	
١٢	أحمد نجيب أفندي	١٨٣٨	معلم بمدرسة الطب	

الفصل الثاني

البعثة الخامسة ١٨٤٤ هي أكبر البعثات التي أرسلت إلى فرنسا وأعظمها شأناً وآخر بعثة كبرى أرسلها محمد علي

كان في هذه البعثة أنجال وأحفاد محمد علي وأطلق عليها علي باشا مبارك "بعثة الأنجال".

وقد انتخب القائد سليمان باشا الفرنساوي أعضاء البعثة من نوابغ طلاب المدارس المصرية العالية بمصر وانتظم في سلكها بعض المعلمين والموظفين.

قال علي باشا مبارك وكان أحد أعضائها يصف تكوينها وسفرها وابتداء الدراسة فيها وفي سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤ م) انتخب سبعة من متقدمي الفرقة الأولى من مدرسة المهندسخانة ببولاق للسفر مع أنجال محمد علي باشا إلى بلاد فرنسا لتعلم العلوم العسكرية "فكنت أنا في جملتهم وكذلك أخذ من غير هذه المدرسة كمدرسة الطوبجية بطرة ومدرسة السواري (الفرسان بالجيزة) والمكتب العالي بالخانقاه ومدرسة الألسن بالأزبكية وغير من طلب التوجه برغبته من الدواوين (موظفي الحكومة وخلافها) فسافرنا ووفر لنا محل مخصوص بباريس ومن يلزم من الضباط والمعلمين فأقمنا فيه جميعاً وبعد سنتين انتقل المتقدمون في العلوم إلى المدارس الخصوصية".

وفي موضع آخر قال " عزم (محمد علي) على إرسال أنجاله الكرام إلى مملكة فرنسا ليتعلموا بها. وصدر أمره بانتخاب جماعة من نجباء المدارس المتقدمين ليكونوا معهم وحضر المرحوم سليمان الفرنساوي إلى المهندسخانة فانتخب عدة من تلاميذها فكنت فيهم وكان ناظرها يؤمئذ "لامبير بك" فسافرنا إلى تلك البلاد، وجعل مرتبي كل شهر مئتين وخمسين قرشاً فجعلت نصفها لأهلي (١٢٥ قرشاً) يصرف لهم من مصر كل شهر

وكانت هي سنتي معهم منذ دخلت المدارس. فأقمنا جميعاً في باريس سنتين في بيت واحد فنخص بنا ورتب لنا المعلومون لجميع الدروس والضباط والناظر من الجهادية الفرنسية لأن رسالتنا عسكرية فكنا نتعلم التعليمات العسكرية كل يوم.

كان الغرض من هذه البعثة أن يتخصص المبعوثون في العلوم العسكرية وعددهم سبعون مبعوثاً ثم لحق بهم غيرهم والنفقات التي أنفقت عليهم ٩٤٦١٥ جنيهاً وأسماء المبعوثين ما يأتي: أبناء محمد علي باشا.

١ - الأمير عبد الحليم.

٢ - الأمير حسين (فارق الحياة أثناء تواجده بباريس ولم يكمل تعليمه).

٣ - الأمير إسماعيل (الخديوي إسماعيل باشا).

٤ - الإمام نصر أبو الوفا (إمام البعثة) وصاحب كتاب (المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية) وكتاب (تسلية المصاب في فراق الأحباب).

بقية أعضاء البعثة المتخصصين في العلوم العسكرية

م	اسم المبعوث	م	اسم المبعوث
١	محمد شريف باشا	٢٦	حنفي خندبك
٢	علي مبارك باشا	٢٧	أحمد نجيب باشا
٣	عماد إبراهيم باشا	٢٨	شحاته عيسى بك ناظر مدرسة أركان حرب في عهد الخديوي إسماعيل باشا
٤	حماد عبد العاطي باشا	٢٩	فريد أفندي
٥	حسن أفلاطون باشا صار فيها بعد وكيل وزارة الحربية	٣٠	محمد إسماعيل أفندي
٦	عثمان صبري باشا الذي صار فيما بعد رئيس محكمة الاستئناف المختلطة ١٨٨٩	٣١	محمد خفاجي بك

م	اسم المبعوث	م	اسم المبعوث
٧	علي شريف باشا الذي صار رئيس مجلس القوانين	٣٢	صالح أفندي
٨	أباظه مراد حلمي باشا	٣٣	خورشيد أفندي
٩	محمد عارف باشا	٣٤	حسن شكيب أفندي
١٠	محمد راشد باشا	٣٥	حسن سليمان أفندي
١١	حسن نور الدين بك	٣٦	صادق سليم بك ناظر مدرسة المهندسخانة في عهدي إسماعيل وتوفيق.
١٢	حسين كوجك بك	٣٧	خورشيد برتو أفندي
١٣	مصطفى مصطفى أفندي	٣٨	أحمد بك السبكي
١٤	عبد الفتاح أفندي	٣٩	مصطفى حليم أفندي
١٥	ولي حلمي بك	٤٠	محمد شوقي أفندي
١٦	سليمان نجاتي بك مأمور المدارس الحربية ثم قاضي بمحكمة الإسكندرية المختلطة ثم وكيل الاستئناف الأهلية ١٨٨٣	٤١	لطفي أفندي
١٧	محمد أفندي	٤٢	سعيد نصر باشا رئيس محكمة الاستئناف المختلطة ١٩٠٣م
١٨	محمد شاكر أفندي	٤٣	أباظه راشد أفندي
١٩	أحمد عجلية بك	٤٤	أحمد حلمي أفندي
٢٠	نافعي رحمي بك	٤٥	علي فهمي بك
٢١	أحمد راسخ بك مدير الوقائع المصرية ثم مستشار محكمة الاستئناف المختلطة ١٨٧٦ وتوفى في عام ١٨٨٥.	٤٦	محمد مصطفى أفندي
٢٢	أحمد أسعد أفندي	٤٧	أحمد خير الله بك صار فيها بعد قاضيًا بالمحكمة المختلطة

م	اسم المبعوث	م	اسم المبعوث
٢٣	منصور عطية أفندي	٤٨	شاكر أفندي
٢٤	قيصرلي أحمد أفندي	٤٩	محمد حسن أفندي
٢٥	خليل أفندي	٥٠	كوجك علي أفندي

أعضاء البعثة الطبية ضمن بعثة ١٨٤٤

م	اسم المبعوث
٥١	أحمد ندا بك
٥٢	عبد العزيز الهواري باشا مدير دار الضرب وصك العملة في عهد إسماعيل
٥٣	عبد الرحمن الهواري مدرس بمدرسة الطب
٥٤	إبراهيم السبكي أفندي
٥٥	محمد الفحام أفندي
٥٦	مصطفى الواطي بك تخصص في طب الأسنان وبعد عودته رأس قسم الطبيعيات بفروعها في قلم الترجمة وصار بعد ذلك وكيل مدرسة الطب.
٥٧	عثمان إبراهيم أفندي تخصص في طب الأسنان وعهد إليه بتدريس طب الأسنان في مدرسة الطب ومعالجة المرضى في المستشفى
٥٨	محمد أفندي يونس
٥٩	محمد أفندي الشرقاوي
٦٠	بدوي سالم أفندي وعهد إليه بتدريس الكيمياء والصيدلة بمدرسة الطب
٦١	حسن بك هاشم
٦٢	محمد إبراهيم أفندي تخصص في التعدين
٦٣	علي عيسى أفندي تخصص في التعدين
٦٤	عبد الهادي إسماعيل أفندي صار ناظرًا لمدرسة الطب البيطري في عهد إسماعيل
٦٥	نبروا أفندي

الفصل الثالث

تخصصات في العلوم المختلفة

م	اسم المبعوث
١	محمد صادق باشا
٢	نوبار أفندي (غير نوبار باشا الوزير المشهور)
٣	بولص لالي
٤	أسطفان خشادور أفندي
٥	أرتين خشادور أفندي(جاء في الكتاب الذهبي أن أحدهما عين مستشاراً لمحكمة الاستئناف ١٨٧٥م وتوفى ١٨٧٦م)
٦	أدهان أسطفان أفندي
٧	يوسف أسطفان أفندي
٨	عبد الرحمن محمد أفندي
٩	حسن الشاذلي

مجموع البعثة كلها: ٧٠ في العلوم العسكرية والطب والطبيعيات + ١٠ متخصصين في علوم مختلفة = ٨٠ جملة أعضاء البعثة

البعثة المرسلة إلى النمسا ١٨٤٥م

أولاً: التخصص في طب العيون:

م	اسم المبعوث
١	حسين عوف باشا
٢	إبراهيم دسوقي أفندي

ثانياً: التخصص في الكيمياء الصناعية:

م	اسم المبعوث
١	مصطفى المجدلي بك كان يعمل بمدرسة القصر العيني كمدرس

بعثات ١٨٤٧م

أولاً: البعثة السابعة: أرسلت إلى فرنسا

عدد المبعوثين من طلاب الأزهر خمسة لتعلم الحقوق والوكالة في الدعاوى وسقطت أسماؤهم سواء في الوقائع المصرية أو في دار المحفوظات بالقلعة.

ثانياً: البعثة الثامنة: أرسلت إلى إنجلترا

عدد المبعوثين ٢١ نجاراً سافروا على ظهر السفينة الحربية المسماة (الشرقية) وقد أنشئت هذه السفينة في ترسانة الإسكندرية في صحبة راغب بك ناظر الترسانة للإنفاق على تدريب هولاء على فن بناء السفينة بدار الصناعة بالإسكندرية أن يسافر عليها إلى إنجلترا لإصلاحها وتركيب الأجزاء النجارية. وهؤلاء النجارون كانوا يعملون في دار الصناعة. والمقصود من إرسالهم إتقانهم فن النجارة هناك مدة وجود هذه السفينة

بإنجلترا ثم عادات السفينة بنجاريها في نفس العام بعد أن ركبت لها الآلات النجارية بقوة ٥٠ حصاناً.

ثالثاً: البعثة التاسعة: تم اختيار ٢٥ من مدرسة المهندسخانة للتخصص في علم الميكانيكا إلى إنجلترا ومنهم إلى فرنسا وأسماء هؤلاء هم:

م	اسم المبعوث
١	حسن أفندي ذو الفقار
٢	إسماعيل أرناؤوط
٣	أحمد أفندي المهدي
٤	علي صادق باشا الذي صار فيما بعد وزيراً للمالية
٥	عثمان عرفي باشا الذي صار فيما بعد قاضي بمحكمة الإسكندرية المختلطة ثم محافظاً للإسكندرية
٦	علي أفندي الإسكندراني
٧	غانم أفندي عبد الرحمن
٨	عبد الله أفندي بيروز
٩	إبراهيم سامي باشا الذي صار فيما بعد عضو في القومسيون الطبي بالسكك الحديدية
١٠	أحمد طلعت أفندي
١١	سليمان أفندي يوسف
١٢	عثمان يوسف أفندي
١٣	إسماعيل بوشناق أفندي
١٤	سلامة أفندي الباز
١٥	عمر أفندي علي

م	اسم المبعوث
١٦	عثمان القاضي أفندي
١٧	عثمان دكروري بك
١٨	علي أفندي صالح
١٩	جودة عوض بك
٢٠	سليمان موسى بك

الذين تعلموا في إنجلترا وأوصلوا الخط التغلرافي إلى السودان.

م	اسم المبعوث
١	عباس عبد العزيز أفندي
٢	علي الغداوي أفندي
٣	سليمان طه أفندي
٤	خطاب عبد العزيز أفندي
٥	عيسى جاهين أفندي

وكانت هذه البعثة آخر البعثات التي أرسلت إلى أوروبا قبل وفاة محمد علي.

البَابُ الثَّامِنُ

الرواد الأوائل

في الترجمة والطباعة والنشر

تقـــديم:

لم يكتف محمد علي في سبيل إقامة دولة حديثة أن ينشر التعليم فأنشأ المدارس وعمل على إيفاد البعوث إلى أوروبا واهتم بالترجمة التي كانت مصر في أشد الحاجة إليها منذ البداية بحيث أن ينقل العلوم الغربية والفنون إلى لغات يستوعبها الدارسين في المدارس المصرية. وكانت الترجمة من اللغات الأوروبية خاصة الفرنسية إلى العربية والتركية.

وكان اهتمام محمد علي بجمع الكتب في مختلف ألوان العلم من مختلف الدول الأوروبية وأخذ ما يصلح منها للتدريس في مدارسه على المترجمين أن يقدموا بترجمتها بحيث يكون الكتاب المترجم في أيدي التلاميذ وأساتذتهم على السواء وجلب عدداً كبيراً من الكتب التركية ثم أرسلها للترجمة لكنه تدارك الأمر لما وجد فيها ما يعالج موضوعات قديمة لا تتفق مع العصر الذي تقدمت فيه أوروبا في جميع المجالات العلمية وقتئذ فكان من الصواب الذي رآه أن يجمع الكتب من البلدان الأوروبية ويذكر "أنطون بيروني" أن محمد علي كلف عضو البعثة الأولى عثمان نور الدين بأن يحضر من الكتب الفرنسية التي تبحث في أصول العلوم والفنون والاقتصاد السياسي وكان ذلك في عام ١٨١٧م. وفي العام الذي يليه أمر محمد علي بشراء مجموعة من الكتب وفي ٢٨/ ١٢/ ١٨٢٤م كتب الجنرال "بوبيه" من القاهرة إلى الجنرال "بليار" في باريس يقول إن محمد علي يريد جماعة من ضباط المدفعية وغيرهم وأنه يحتم هؤلاء معهم جميع الكتب التي تتناول أصول الفنون العسكرية التي تخصصوا فيها. وأيضاً إن القنصل الفرنسي "دروفتي" قد جمع طائفة من الكتب المهداة إلى محمد علي من قبل ناظر ترسانة بحرية طولون وهي تخص العلوم البحرية وقوانينها كما أنه أمر بشراء كتب من الآستانة وأزمير وفرنسا وكلف بعض أصدقائه أمثال " توسيجه" قنصل اليونان وكذلك رجال البعثات. وظل محمد علي يجمع الكتب ولا يبخل عن شراء بعضها حتى

بعد أزمة الحكم ١٨٤٠ كما طلب من أرتين بك في ٢٥/ ١٢/ ١٨٤٥م أن يكلف رئيس البعثة المصرية بفرنسا "أسطفان أفندي" بشراء مجموعة كتب في الهندسة كان مهندس محمد بهجت بك قد أخبر محمد علي بأنها ظهرت بعد عودته من أوروبا في ٢٠/ ٦/ ١٨٤٦م. كما أصدر محمد علي أمراً إلى آرتين بك أن يشتري من فرنسا ما يلزم من كتب ومعدات وآلات لدراسة الكيمياء والنبات وغيرها ما دامت هذه الكتب غير موجودة في مخازن الحكومة.

لم يكن يهدف محمد علي من شراء الكتب في كل العلوم المختلفة أن تخزن في المكتبات المدرسية وإنما هدفه هو الانتفاع بها بعد ترجمتها. وأن تكون هذه الكتب لكبار المؤلفين المعروفين الذين ذاع صيتهم وشهرتهم في التأليف ومعالجة الموضوعات الطبية والتاريخ والجغرافيا والهندسة وغيرها من العلوم الأخرى. كما اهتم بأن تكون الكتب المترجمة في المدارس التي لا غنى عنها في الدراسة وظلت هذه الحال إلى أن جاء المبعوثين المصريين من الخارج ليتولوا تدريس هذه العلوم في المدارس.

وهنا سؤال يطرح نفسه على من اعتمد محمد علي في الترجمة لهذه الكتب إلى العربية والتركية؟ فبدأ سلم الترجمة بأنه اعتمد على السوريين المقيمين في مصر ليتولوا عملية الترجمة إلى حين عودة أعضاء البعثات المصرية من الخارج أو حتى تستطيع مدارسه أن تخرج العدد الكافي من الذين يجب الاعتماد عليهم في النقل من اللغات الأجنبية وكان كل أعضاء البعوث وخريجي هذه المدارس يقومون بالترجمة إلى جانب ما كانوا يقومون به من أعمال أخرى. رأى محمد علي أن إنتاج الترجمة للعلوم عند المبعوثين وخريجي المدارس قليل عما كان يرجوه منهم وأن عدد الكتب المترجمة غير كافٍ لمتطلبات التعليم في مصر فقرر أن ينشئ مدرسة الإدارة الملكية في سبتمبر ١٨٣٤م ومدرسة التاريخ والجغرافيا في العام نفسه على أن يكون عمل مدرسي المدرستين القيام بالترجمة. وظلت هذه الحال حتى عام ١٨٣٥م فقرر إلغاء مدرسة الإدارة الملكية وأنشأ بدلاً منها مدرسة

الألسن التي اكتمل نموها خلال أربع سنوات منذ إنشائها وتخرج منها أعداد كبيرة مهمتهم ترجمة التاريخ والآداب تحت إشراف رفاعة الطهطاوي وبعض الأساتذة وكان نجاح هذه المدرسة له أثر عظيم حتى أن اللجنة التي شكلت لتنظيم التعليم في مصر لم تلبث أن قررت إنشاء قلم الترجمة ١٨٤١م وقد ألحق هذا القلم بمدرسة الألسن وقد أنشأت اللجنة غرفة خاصة بالمترجمين وقسمت هذه الغرفة إلى أربعة أقلام أحدها لترجمة كتب الرياضة والقسم الثاني لترجمة العلوم الطبية والطبيعية والقسم الثالث لترجمة كتب المواد الأدبية كالتاريخ والجغرافيا والمنطق والفلسفة والقوانين والقصص والأدب والقسم الرابع لترجمة الكتب التركية وألحق بهذه الأقسام عدد من الناسخين حتى إذا تم إعداد الكتب المترجمة أرسلت إلى ديوان المدارس ليشير إلى طبع النافع منها بعد الإطلاع عليه.

الفصل الأول

موجة كبيرة من الترجمة في عصر محمد علي

برز عدد كبير من المترجمين السوريين وأعضاء البعثات وخريجي مدرسة الألسن ومن الموظفين ومن اشتهر من السوريين هم:

م	اسم المترجم	الكتب التي قام بترجمتها من الفرنسية أو الإيطالية إلى العربية
١	الأب أنطون رفائيل راهب. اشتغل بالترجمة في عهد الحملة الفرنسية وكان العضو الشرفي في المجمع العلمي الذي أنشأه بونابرت في القاهرة وقد رحل إلى فرنسا بغد مغادرة الحملة فعين مساعداً بمدرسة اللغات الشرقية ١٨٠٣م بباريس وعاد إلى مصر سنة ١٨١٦م.	ترجم من الفرنسية: (١) كتاباً في صباغة الحرير تأليف ماكنر **Maequer**. (٢) قواعد الأصول الطبية المحررة عن التجارب لمعرفة كيفية علاج الأمراض الخاصة ببدن الإنسان. (٣) طلب محمد علي ترجمة كتاب الأمير للمؤلف الإيطالي ميكافلي لكن محمد علي فضل عليه مقدمة ابن خلدون وترجمت إلى اللغة التركية بقلم محمد أفندي الشهير بريري زاده. (٤) وضع قاموس عربي إيطالي.
٢	يوحنا عجوري السوري	وكان من ضعفه في اللغة الفرنسية يترجم إلى الإيطالية ثم يقوم بدوره من ترجمته إلى

م	اسم المترجم	الكتب التي قام بترجمتها من الفرنسية أو الإيطالية إلى العربية
		العربية. وترجم عدد من الكتب هي: (١) كتاب طبي وهو القول الصريح في علم التشريح تأليف بايل **Bayle** وهو جزئين وبه إضافات لكلوت بك. (٢) منتهى الأعراض في علم الشفاء من الأمراض تأليف كل من بروسيه وسانسون. (٣) رسالة في الطب البشري للمؤلف بروسييه. (٤) رسالة في علم الجراحة تأليف كلوت بك. (٥) كتاب مبلغ البراح في علم الجراح تأليف كلوت بك. (٦) كتاب الأزهار البديعة في علم الطبيعة تأليف برون. (٧) كتاب الجواهر السيئة في الأعمال الكيماوية تأليف برون. (٨) كتاب في علم النبات لبرون.
٣	يوسف فرعون السوري	(١) رسالة في علم البيطرية. (٢) التوضيح لألفاظ التشريح تأليف مسيو جيراد. (٣) نزهة الأنام في التشريح العام تأليف لافارج.

م	اسم المترجم	الكتب التي قام بترجمتها من الفرنسية أو الإيطالية إلى العربية
		(٤) روضة الأزكياني في علم الفسيولوجيا تأليف لافارج. (٥) غاية المرام في الأدوية والأسقام تأليف جرجوار ولابنو. (٦) منتهى البراح في علم الجراح تأليف برنس. (٧) ترجم إلى التركية قانون نامة بيطاري.
٤	جورج فبدال الحلبي	(١) المنحة في سياسة حفظ الصحة تأليف الخواجة برنار. (٢) قانون الصحة للمؤلف برنار **Bernard**.
٥	أوغسطين ستاكيني الدمشقي	العجالة الطبيعية فيما لابد منه لحكماء الجهادية وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة مدرسة الطب بأبي زعبل.
٦	يعقوب السوري	(١) دستور الأعمال الفرباذينية كحلماء الديار المصرية. (٢) كتاب الأفرباذين.

أعضاء البعثات الطبية

قد ذكرت في الفصل السابق الكتب التي قام بترجمتها كل من:

١- إبراهيم النبراوي ٢- أحمد حسن الرشيدي ٣- عيسوي النهراوي

٤- محمد الشباسي ٥- محمد السبكي ٦- حسن غانم الرشيدي

٧- محمد الشافعي ٨- محمد علي البقلي ٩- مصطفى السبكي

١٠- السيد أحمد الرشيدي

ترجم كل من:- **محمد عبد الفتاح**

١- تحفة التعلم في أمراض القدم وراجعه وصححه رفاعة رافع الطهطاوي.

٢- نزهة المحافل في معرفة المفاصل تأليف ريجو **Rigo** .

٣- الطب العملي تأليف المعلم وانيل.

٤- البهجة السيئة في أعمار الحيوانات الأهلية تأليف جيرارد **Girard**.

عطيه أفندي: قام بترجمة " مجمع الغرور في سياسة التغيير" تأليف رونيستيه.

تراجم تلاميذ الفرقة الأولى بمدرسة الألسن

اسم المترجم	الكتب المترجمة
خليفة أفندي محمود	١- كنز البراعة في مبادئ الزراعة. ٢- تنوير الشرق بعلم المنطق تأليف دومرسيه **Dumrsay** وقام بمراجعته وتصحيحه رفاعة رافع الطهطاوي. ٣- أتحاف الملوك الألبان تقديم الجمعيات الأوروبية ألفه المؤرخ الإنجليزي روبرلسن وقد ذيله المترجم بجدول الكلمات الغربية.

اسم المترجم	الكتب المترجمة
	٤- أتحاف ملوك الزمان بتاريخ إمبراطورية شرعان لنفس المؤرخ الإنجليزي روبرتسن وقد قام بمراجعته رفاعة رافع الطهطاوي. ٥- قاموس اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية وقد ذكرت الوقائع المصرية في ١١ يونيه ١٨٤٨م أن محمد علي أمر بطبع ما يلزم منه على نفقة الميرعي (الحكومة).
عبد الله أفندي حسين	وقام بترجمة وهو تلميذ في مدرسة الألسن تاريخ الفلاسفة اليونانيين وقام بمراجعة الترجمة وتصحيحه رفاعة رافع الطهطاوي.
إبراهيم أفندي مصطفى البياع	١- مطلع شموس السير في وقائع كرلوس الثاني عشر. ٢- قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون مراجع الترجمة رفاعة رافع الطهطاوي وقد اشترك في الترجمة مع إبراهيم أفندي كل من: محمد عبد الرازق- عبد الله أبو السعود ٣- بداية القدماء وهواية الحكماء قام بالتصحيح والمراجعة رفاعة رافع الطهطاوي.
عبد الله أبو السعود أفندي	نظم اللآلي في السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك وصححه وراجعه رفاعة رافع الطهطاوي.
السيد صالح أفندي مجدي	١- كتاب جداول المهندسين. ٢- كشف رموز المصون في تطبيق الهندسة على الفنون وقد اشترك معه كل من: عيسوي زهران- محمد الحلواني.
أحمد أفندي عبيد الطنطاوي	الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر تأليف فولتير وراجعه رفاعة رافع الطهطاوي.
محمد أفندي الشيمي	إفاضة الأذهان في رياضة الصبيان

اسم المترجم	الكتب المترجمة
السيد أفندي عمارة عبد العال	تهذيب العبارات في فن أخذ المساحات تأليف لوكره صححه من الناحية الفنية بيومي أفندي.
حسن أفندي قاسم	ترجم كتاب ملوك فرنسا تأليف المؤرخ الفرنسي موينقورس وقد أهدى المؤلف هذا الكتاب لشريف باشا مدير عموم المالية فطبعه شريف باشا على نفقته وقد ألحق به حسن أفندي قاسم صفحات لذكر معجم البلدان والأماكن الجغرافية في هذا الكتاب.

تراجم موظفي الإدارات الحكومية

اسم المترجم	الكتب التي قام بترجمتها
جاكو فاكي أوجيرو بولو موظف بالديوان الخديوي	١ - قام بترجمة كتاب فترينه تاريخي إلى التركية تأليف كاسترا. ٢ - أصول الهندسة تأليف لوجاندر.
حسن أفندي وعبد الله عزيز كاتبان بديوان محمد علي	١ - نقلا إلى التركية تاريخ نابليون بونابرت تأليف روفيجو Revigo وقد طبع بمطبعة سراي رأس التين. ٢ - نقلا أيضاً إلى التركية تاريخ إيطاليا تأليف بوتا Botta. ٣- ترجم عبد الله عزيز التلخيصات المتعلقة بتدبير أمور سلطة الدولة العثمانية للأمير فوجه مصطفى بك الكورحه لي. ونقله من التركية إلى العربية بأمر من محمد علي باشا ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً.
السيد أحمد عاصم	كتب ترجمت من العربية إلى التركية: مظهر القديس بخروج الفرنسيس تأليف عبد الرحمن الجبرتي وما زال هذا الكتاب مخطوطاً
سعيد أحمد بلم	السيرة الحلبية
رستم أفندي يسم	سفارة نامة لرفاعة رافع الطهطاوي.

اسم المترجم	الكتب التي قام بترجمتها
أحمد مصطفى	تصبيرة البردة
جبرائيل يوسف نخلع الكاتب بديوان الخديوي	كلتان ترجمها من الفارسية إلى العربية.
غير معروف المترجم	تاريخ نابليون بونابرت نقل إلى التركية وغير معروف كل من المترجم ولا المؤلف.
مشاني زادة محمد عطا الله	ترجم وصايا فردريك الأكبر إلى قواده ونقلت من الفرنسية إلى التركية تحت عنوان وصايا نامة سفرية.
مصطفى يحيى الشركسي	الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال نقلها المترجم إلى التركية من العربية.
علي أفندي جيزة لي	إفاضة الأذهان في رياضة الصبيان نقلها من العربية إلى التركية.
محمد عصمت أفندي	١ - كنوز الصحة بواقيت المنحة نقلها إلى التركية من العربية. ٢ - أصول الهندسة ومبادئ الهندسة ونقلها من العربية إلى التركية

تراجم كبار رجال الدولة من العربية إلى التركية

اسم المترجم	الكتب التي قام بترجمتها
إبراهيم أدهم بك	١ - نقل من الفرنسية إلى التركية رسالة في علم جر الأثقال. ٢ - رسالة في الهندسة من العربية إلى التركية. ٣- المقالات في الهندسة من العربية إلى التركية. ٤ - أصدر إبراهيم أدهم بك أمراً لسعد نعام أن ينقل إلى العربية سياحة في أمريكا تأليف هنري بركام
عثمان نور الدين أفندي	ترجم من العربية إلى التركية ١ - سياسة نامة جهادية بحرية. ٢ - قانون نامة عسكر سواريان جهادية.

اسم المترجم	الكتب التي قام بترجمتها
	٣- قانون نامة سنابن بحرية جهادية.
كباني بك	١- تحفة الضابطين. ٢- قانون نامة ثالث سواري. ٣- كتاب في تعليم الحرية والزراق.
أسطفان أفندي	١- لوماندرايه الفرسان
أحمد خليل أفندي	١- قانون نامة. ٢-- عساكر بين كان جهادية. ٣- عساكر طوبجيان جهادية بحرية. ٤- قانون نامة بحرية جهادية. ٥- بالاشتراك مع عثمان نور الدين أفندي تعليم نامة عساكر بيادكان.
شاني زادة عطا الله	ترجم من الفرنسية إلى التركية قوانين العساكر الجهادية
حسين رفعي	ترجم من الفرنسية إلى التركية تلخيص الأشكال.
سليم أفندي	ترجم من الفرنسية إلى التركية كتاب عمل البارود.
البكباشي أحمد عبيد أفندي	ترجم من الفرنسية إلى العربية تعليمات البيادة ومناوراتها.
كتب لم يستدل على مترجمها	١- تعليم المشاة والفرسان والمدفعية ترجمت إلى العربية والتركية. ٢- جميع ما ترجم من الكتب في الفنون العسكرية يبلغ عددها ١١١ (مئة وأحد عشر كتاباً) طبع فيه ٦ (ستة كتب) في مطبعة الجهادية وطبع الباقي في مطبعة بولاق.

أولاً: تراجم رفاعة رافع الطهطاوي من الفرنسية إلى العربية

اسم الكتاب	مؤلفه
١ - المعادن النافعة	تأليف فيراد بمشورة مسيو جومار ناظر المدرسة الحربية المصرية بباريس.
٢- مبادئ الهندسة	معجم ببيان بعض كلمات هندسية وتفسير ألفاظ صطلاحية
٣- قلائد المفاخر في غريب فوائد الأوائل والأواخر	دينج Deeping وقد وضع في أوله قاموساً صغيراً يشرح ما ورد فيه من ألفاظ غريبة.
٤- التعريفات الشافية لمدن الجغرافية	قد ذيله بجدول الألفاظ الاصطلاحية المستعملة في الجغرافيا بأنواعها المرئية على حروف العجم.
٥- الجغرافيا العمومية	مطبرون Mate-Brun

الكتب التي قام بتصحيحها

اسم الكتاب	مؤلفه
١. كنز المختار في كشف الأراضي والبحار	كتاب جغرافي سبق طبعه في مالطة صحح عبارته
٢. كتاب أشرف على ترجمته	برهان البيان وبيان البرهان في احتلال دول الرومان تأليف مونتسيكو وقد قام بترجمته علي أفندي الجبيلي ولم تتم الترجمة إلا بعد وفاة رفاعة وقد طبع هذا الكتاب في ديسمبر ١٨٧٦ م.

ثانياً: الكتب التي قام بمراجعتها رفاعة رافع الطهطاوي

١- كنز البراعة في فن الطباعة.

٢- تاريخ الفلاسفة اليونانيين.

٣- بداية القدماء وهداية الحكام.

٤- تحفة القلم في معرفة أمراض القدم.

٥- الدراسات الأولية في الجغرافيا الطبيعية.

٦- تنوير الشرق بعلم المنطق.

٧- نظم اللآلى في السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك.

٨- أتحاف الملوك الألبان بتقديم لجمعيات أوروبا.

٩- أتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شارلمان.

١٠- قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون.

١١- الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر.

١٢- اشترك معه في تصحيح كتاب سياحة في الهندسة قطة العدوي.

١٣- كما اشترك معه قطة العدوي في تصحيح كتاب تاريخ ملوك فرنسا.

١٤- راجع كتاب سياحة في أمريكا.

الفصل الثاني

الدار المصرية للترجمة في عصر محمد علي

واستعانت دار الترجمة ببعض الذين يجيدون اللغة العربية من ناحية قواعدها وأساليبها وألفاظها القديمة بنخبة من خريجي الأزهر. حيث أن المترجمين الذين نقلوا من الفرنسية خاصة "يوحنا عجوري ويوسف فرعون وجورج فيدال" كانت لغتهم سقيمة بحيث لا يمكن أن تصل إلى أذهان التلاميذ والقراء دون مراجعة وتصحيح ما بها من ألفاظ غامضة وكذلك ترجمة خريجي مدارس الألسن. وحرصاً على سلامة الدقة العلمية في النقل الذي يحتاج إلى إطلاع واسع هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن دكتور كلوت بك رأى ضرورة الاستعانة بهذه النخبة الأزهرية لما لهم دراية بكتب الطب العربية القديمة ومعرفة المصطلحات الطبية في أثناء الترجمة وبعدها حتى أصبح للطب في خمس سنين قاموسًا Cabufaire تزيد كلماته عن ستة آلاف كلمة. وتفادياً لهذا الأمر وتخطياً للأخطاء في المصطلحات أنشأ كلوت بك مدرسة لتلاميذه يتعلمون فيها اللغة الفرنسية حتى لا تشق عليهم الترجمة كما اختار من أعضاء البعثات المدرسين بمدرسة الطب مراجعين ومصححين لما يترجمه زملائهم.

وقد استعانت المدارس الخصوصية الأخرى بشيوخ الأزهر في مراجعة الكتب وتصحيح أخطائها اللغوية ولذا كان عمل المصححين يضارع في أهميته عمل المترجمين أنفسهم.

مدرسة الطب البيطري

وقد اختص بتصحيح الكتب المترجمة في مدرسة الطب البيطري.

١ - الشيخ مصطفى كساب.

٢ - الشيخ عبد المنعم.

مدرسة الزراعة

اختص بتصحيح الكتب الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني.

مدرسة الهندسة

اختص بالتصحيح الشيخ عبد الغفار الدسوقي.

مدرسة الألسن

واختص بالتصحيح كل من :

١ - الشيخ محمد قطة العدوي.

٢ - الشيخ أحمد عبد الرحيم الطهطاوي.

٣ - الشيخ محمد الفرغلي.

٤ - الشيخ رفاعة الطهطاوي.

مدرسة الطب

قام جماعة منهم الشيخ محمد عمران الهراوي الذي ظل في المدرسة حوالي عشر سنوات يعمل مصححاً أول ويعاونه كل من:

١ - الشيخ محمد محرم

٢ - الشيخ أحمد حسن الرشيدي الذي سافر ضمن البعثة الطبية إلى فرنسا.

٣- الشيخ حسين غانم الرشيدي وقد سافر ضمن البعثة الطبية إلى فرنسا.

وبعد سفر الشيخان خلفهما كل من:

١- الشيخ سالم عوض الفيناني

٢- الشيخ محمد بن عمر التونسي ويقترن اسم التونسي عادة باسم صديقه وتلميذه المستشرق الفرنسي دكتور "برون" Perron مدرس الطبيعة والكيمياء بمدرسة الطب وكان يعرف اللغة العربية ويعاونه التونسي في تعريب محاضراته.

طباعة القواميس المصرية

١- وضح الأب أنطوان روفائيل زاخور راهب قاموس طلياني وعربي يتضمن بالاختصار كل الألفاظ الجاري بها العادي والألزم ليتعلم الكلام ولمفهوميه اللغتين على الصحيح وكان هذا القاموس من أوائل القواميس التي طبعت في بولاق في عام ١٢٣٨ هـ حيث طبعت عدة قواميس منها قاموس فارسي تركي من وضع خيرت أفندي سكرتير ديوان محمد علي.

٢- وقاموس فارسي تركي هو تحفة وهبي وملخصه إضافة بعض الألفاظ العربية باسم "نخبة وهبي".

٣- قاموس آخر عربي- فارسي- تركي هو "سجة صبيان".

٤- طبعت الترجمة التركية في ١٢٥٠ هـ مع المتن العربي لقاموس الفيروز أبادي تحت عنوان " الأقيانوس البسيط في ترجمة القاموس المحيط".

٥- طبع قاموس فارسي تركي "برهان فاطمي".

٦- طبع قاموس عربي تركي "الترجمان".

٧- طبع قاموس عربي تركي فارسي "تحفة خيرت".

٨- أحضر كلوت بك من فرنسا " قاموس القواميس الطبية" لمؤلفه فابر Fabre من ثمانية أجزاء فتعاونت هيئة التدريس بمدرسة الطب تحت رئاسة ناظرها دكتور برون على ترجمة هذا القاموس واشترك في الترجمة كل من إبراهيم النبراوي ومحمد أفندي علي ومحمد شافعي ومحمد الشباسي وعيسى النهراوي ومصطفى السبكي وحسنين علي والسيد أحمد الرشيدي وحسين غانم الرشيدي.

وكان لبرون رأي آخر هو إلحاق المصطلحات الطبية القديمة بهذا القاموس ولذا أحضر القاموس المحيط للفيروز أبادي ووزعه على أعضاء هيئة التدريس واشترك معهم مصححو مدرسة الطب وهم:

١- الشيخ محمد عمر التونسي.

٢- الشيخ سالم عوض الفيتاني.

٣- الشيخ علي العدوي.

فاستخرج كل واحد منهم ما أمكنه استخراجه ويقول الشيخ التونسي في هذا الصدد " ثم خصني الناظر المذكور باستخراج ما في القانون من تعاريف وما في تذكرة داوود من معنى لطيف... إلخ".

في الحقيقة كان هذا العمل شاقاً ضخماً لم يفرغ منه إلا عند وفاة محمد علي. وخشى كلوت بك أن يضيع هذا القاموس فحمله معه إلى باريس وقدمه هدية إلى المكتبة الأهلية بها في سبتمبر ١٨٥٠ م وهو قاموس "الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية" للشيخ محمد عمر التونسي.

وقد اشترك في إعداد هذه القواميس كل من الشيخين محمد قطة العدوي وأبي الوفا نصر الهوريني وقد اشتركا في تصحيح القاموس المحيط الذي أراد "برون" أن يطبعه في مصر وقد طبع بأمر من سعيد باشا في عام ١٨٥٥-١٨٥٦ م.

واشترك الشيخ عبد الغفار الدسوقي مع المستشرق الإنجليزي "لين" Lane في إعداد ترجمة إنجليزية للقاموس المحيط وقد طبع نبضه العربي والإنجليزي في لندن عام ١٨٦٣م تحت عنوان "القاموس عربي- إنجليزي" Arabic - English Lexican وقد طبعت معظم الكتب المترجمة في بولاق أما سائر الكتب فكان بطبع مطبعة سراي رأس التين بالإسكندرية أو في مطبعة المهندسخانة أو في المطبعة الملحقة بمدرسة الطب بأبي زعبل.

الدار المصرية للطباعة في عصر محمد علي

كانت تسير حركة الطبع وإنشاء المطابع جنباً إلى جنب مع حركة الترجمة وكان الهدف من الترجمة للكتب نقل فنون الغرب والعلوم الغربية إلى المدارس المصرية وكان من الضروري إنشاء المطابع بمصر منذ زمن بعيد فأوفد محمد علي تيفولا مسايكي أفندي إلى إيطاليا في ١٨١٥م للتخصص في فن الطباعة. وقد درس تيفولا مسايكي هذا الفن وتعلم صك الحروف وعمل قوالبها وقد قضى بإيطاليا أربع سنوات ثم عاد إلى مصر فعهد إليه محمد علي بإنشاء مطبعة صاحب السعادة أو المطبعة الأميرية في بولاق. فكانت أول مطبعة أنشئت في عهد محمد علي وتأسست ١٨٢٠ م ولم تبدأ عملها إلا في ١٨٢٢م وهدفها طبع الكتب المدرسية من ناحية وطبع كتب الجيش مما يحتاج إليه في تدريبه من إرشادات وتعليمات وقوانين.

وقد استعان محمد علي بإنشاء المطبعة بالآراء التي أبداها كل من عثمان نور الدين والأب أنطوان رفائيل زافور. وكان محمد علي يستورد من إيطاليا كل ما تحتاجه الطباعة من أحبار وورق ثم بعد ذلك بدأ في الاستيراد من فرنسا.

وأول إنتاج لهذه المطبعة قاموس الأب رفائيل والكتاب الذي نشره شأني زادة محمد عطا الله من الفرنسية تحت عنوان "وصايا نامة سفرية" وكتاب الأب رفائيل عن "فن الصباغة" وقد طبع الكتابان في ١٨٢٣م وعين تيفولا مسايكي أول مدير للمطبعة

وكان يعاونه مشايخ من الأزهر قام تيفولا بتعليمهم طريقة الطبع وصف الحروف وغير ذلك. وقد عين بعضهم عند اتساع العمل وتنويعه رؤساء للأقسام.

وبعد سنوات أنشأ محمد علي العديد من المطابع يقال إن عددها ثماني فألحقت واحدة منها بمدرسة الطب في أبي زعبل وكان الكتاب الأول الذي طبع فيها "القول الصريح في علم التشريح" عام ١٨٣٢م وألحقت مطبعة أخرى بمدرسة المدفعية في طرة أول كتاب طبع فيها " الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار".

وكان هناك مطبعة الفرسان بالجيزة وأخرى بالقلعة لطبع الجرنال الخديوي ثم الوقائع المصرية كما كانت مطبعة بسراي رأس التين بالإسكندرية من المرجح أنها أنشئت عام ١٨٣٢ م وطبع أول كتاب فيها هو كتاب رفيجو Revigo عن نابليون (١٨٣٣م-١٨٣٤م) وكتاب بوتا Botta عن تاريخ إيطاليا وفي عام ١٨٤٤ م ألحقت بالمهندسخانة في بولاق مطبعة حجر خاصة كما ألحقت ببعض الدواوين مطابع لنشر الأوامر والقوانين والمنشورات المتعلقة بأعمالها.

فكان لديوان المدارس مطبعة ولديوان الجامعة مطبعة وقد أخرجت كتباً في الأدب ومختلف الفنون منها:

١ - كتاب ألف ليلة وليلة
٢ - كليلة ودمنة
٣- إنشاء الشيخ العطار
٤ - إنشاء خيرت
٥ - ديوان نديم
٦ - شرح ديوان حافظ
٧- الأجرومية
٨- الألفية
٩- الأزهرية

نشر قوائم عن الكتب

وأول القوائم التي نشرت بالكتب المطبوعة في مصر تلك التي نشرها المؤرخ فون عامر Hamer من تاريخه عن الإمبراطورية العثمانية وكانت تحوي ٣٨ كتاباً وفي أكتوبر ١٨٣١م نشر المستشرق الفرنسي رينو Reinaud في الجورنال الأسيوي قائمة أخرى بالكتب التي طبعت في ذلك الوقت وعددها ٥٥ كتاباً في النحو العربي والتاريخ والدين الإسلامي والأدب والشعر والمعارف العامة والرياضيات والعلوم الطبية والزراعة والفنون الحربية والبحرية وذلك عدا القواميس والمعالج وعددها ثلاثة.

وفي عام ١٨٣٨م أرسل القنصل الروسي "ميدم" Medem إلى حكومته قائمة بأسماء الكتب التي طبعت في بولاق منذ أن أنشئت المطبعة الأميرية مع بيان بأثمان هذه الكتب وبلغ عددها ٧٣ كتاباً.

وفي مارس ١٨٣٩م كتب دكتور بوزنج تقريره الذي نشرته الحكومة الإنجليزية عام ١٨٤٠م بقائمة تحوي أسماء جميع الكتب التي نشرت في القاهرة بالتركية والعربية على نفقة الحكومة المصرية وتبلغ عددها ٧٥ كتاباً. وقد ذكر إلى جانب ذلك ٥ كتب ترجمت في بولاق وطائفة لم تكتمل ترجمتها وكان عدد هذه الكتب ٢٣ كتاباً. كما وضح بورنج قائمة بأثمان الكتب وكانت تتراوح بين قرش واحد وهو ثمن الكتاب "علم الحال" باللغة التركية وثلاثة عشرة قروش (ثمن كتاب شرح المثنوي وهو مؤلف من ثلاثة أجزاء ومنقول من الفارسية إلى التركية).

وفي عام ١٨٤٢م أرسل دكتور " برون" إلى صديقه جول موهل Jules Mohi سكرتير الجمعية الأسيوية بباريس قائمة بما طبع من الكتب العربية والتركية والفارسية القديمة مع إغفال الكتب المترجمة.

أما المستشرق الفرنسي ببانكسي Bianchi أرسل إلى الجمعية قائمة أونى قد نشرتها الجمعية في "الجورنال الأسيوي" في ١٨٤٣م وبلغ ما ورد من الكتب في هذه القائمة ٢٤٣ كتابًا.

وفي مطبعة إفرنجية بالإسكندرية طبقت فيها قصيدة القنصل الإنجليزي صولت عنوانها "قصيدة وصفية عن مصر" Egyptien Des Iplive Poem ويقول البعض إن هذه المطبعة هي مطبعة سراي رأس التين. غير أن قصيدة القنصل الإنجليزي نشرت ١٨٢٤م أما مطبعة رأس التين فأكبر الظن أنها لم تنشأ إلا بعد ذلك بثمان سنوات أي في عام ١٨٣٢م ويزيد الأمر تعقيداً ما ذكره المونتيراجيبسيان Le Moniteur Egyptien دون أن يذكر المطبعة التي كانت تصور عنها.

الباب التاسع

صحافة محمد علي

الفصل الأول

الصحيفة الفرنسية المونتير إجيبسيان Le Moniteur Egyptien

حسب ما ورد من قول "بورنج" إن هذه الصحيفة الفرنسية التي كانت تصدر أسبوعياً ثم توقفت عن الإصدار في مارس ١٨٣٤م وكانت الحكومة المصرية تساندها بالمعونة بالرغم من أنها لم تكن واسعة الانتشار وقد ذكر القنصل الفرنسي " ميمو" Mimaiut قليلاً من المعلومات عنها فقال في رسالة بعثها من الإسكندرية يقول فيها الدوق بروجلي Broglie في ١٧/ ٨/ ١٨٣٣م بأن أول عدد ظهر من هذه الجريدة في ذلك اليوم وكان يوم سبت كما أرسل نسخة منها إلى حكومته. وقد ذكر اسم رئيس تحريرها الفرنسي هو تورل آتي من باريس ولم تكن له خبرة عن العمل الصحافي ولا يعرف شيئاً عن الحوادث التي جرت في مصر قبل حضوره لا تربطه بالشخصيات الكبيرة في حكومة محمد علي بصلات وثيقة. هذا إلى أن طريقته في الكتابة لم تكن تستهوي القراء. ولذا كان العدد الأول بصفة خاصة يعوزه الابتكار وحلاوة الأسلوب.

ويؤخذ مما قاله "بورنج وميمو" إن حكومة محمد علي كانت تحتضن هذه الصحيفة رغبة منها في أن يكون لديها جريدة تكتب بلغة أجنبية مثل الصحيفة الرسمية التركية التي كانت تصدر في الآستانة باسم "المونتير أتومان" Le Moniteur Ottman.

وهي صحيفة هدفها مهاجمة محمد علي في كل مناسبة وقد ذكر " دوهاميل" في إحدى رسائله إلى "روكمان" رئيس بعثة الإمبراطورية الروسية في القسطنطينية بتاريخ ٢٦/ ٢/ ١٨٣٤م أن الغرض من حملات تلك الجريدة إنما هو "تجريح كبرياء محمد علي".

ولذا كانت مهمة "المونتير إجيبسيان" الدفاع عن محمد علي وتنفيذ الاتهامات التي كانت تكيلها صحيفة القسطنطينية والمهم في ذلك ما ذكره "ميمو" من أنه بوصفه قنصلاً لفرنسا كان يرحب بصدور صحيفة فرنسية يتوقع لها الانتشار خارج مصر. كما كان يريد أن يتخذ منها على حد قوله وسيلة "لتسديد خطا من يحيد عن الجادة من الأوروبيين" وكان يرى مصلحة وطنه أن يستخدم نفوذه حتى يضمن خلو الجريدة من أية أقوال قد تلحق الضرر بالمصالح الفرنسية.

ولذا بادر "ميمو" بمقابلة محمد علي وبوغوص يوسف (وزير الخارجية المصرية) وطلب إليهما أن تمد الحكومة المصرية صحيفة "المونتير" بجميع الأخبار والبيانات وبكل معاونة قد تؤدي إلى سد النقص الناشئ عما يعوز رئيس التحرير من خبرة ودراية. كما طلب إليهما الإنفاق على خطة الجريدة سابقاً حتى لا يظهر فيها ما يسيء إلى مصالح فرنسا ومصر. وقبلت حكومة محمد علي ونفذته حتى أصبح كثيرون يرون في هذه الصحيفة "لسان حال" الحكومة المصرية.

وأخذت المونتير تنشر أبناء الحكومة المصرية على نحو ما كانت تفعله جريدة الوقائع المصرية وكانت هذه الأبناء بطبيعة الحال تعدد جهود محمد علي في ميادين الإصلاح في مصر وفي ممتلكاته الأخرى ومن ناحية أخرى كانت المونتير المصرية إلى حد ما ذلك اللسان الذي استطاع محمد علي أن يدافع به عن نفسه من افتراءات المونتير العثمانية في الأوساط الأجنبية وشاءت الظروف أن يوافق ظهور المونتير إجيبسيان موعد قدوم البعثة البولندية العسكرية إلى مصر وقد ثارت بسبب قدومها بعض الصعوبات انتهت باستقالة رئيسها الجنرال "دامنيسكي" Dembincki من خدمة محمد علي ومغادرة البلاد.

ورأى محمد علي أن يوضح الأسباب التي أدت إلى استقالة هذا القائد البولندي على نحو يحفظ العلاقات الودية بين حكومة مصر والبولنديين الأحرار "المهاجرين" ويذيع حقيقة هذه الأسباب في الأوساط الأجنبية بمصر وكان يرجو من غير شك أن

تبلغ إيضاحاته من يعنيهم الأمر في الخارج فاستخدم المونتير إجيبسيان لهذا الغرض ونشر عدد هذه الجريدة الثالث والعشرين الصادر ٢٥/ ١/ ١٨٣٤م بيان الحكومة المصرية على هذه المسألة وأماط اللثام عن الحقيقة في غير لبس أو غموض.

لكن حكومة محمد علي لم تكن شديدة الحرص على استمرار هذه الصحيفة التي أظهرت خدمة المصالح الفرنسية قبل كل شيء وكان رئيس تحريرها يتقاضى مرتبه من بيت تجاري فرنسي في مصر هو بيت "باستريه" Paster لا من خزينة محمد علي وقد امتنع باستريه عن دفع مرتب كان يتقاضاه "كاميل تورل" فسافر كاميل إلى القاهرة وقد بذل محاولاته مع محمد علي باشا ليحصل من حكومته على الأخبار والبلاغات بانتظام حتى يمكنه أن يواصل في إصدار صحيفته فلم يناول غير مجاملات ودية ووعود لم تنفذ.

وفي ٩/ ٥/ ١٨٣٤م كتب القنصل الروسي "دوهاميل" إلى حكومته عاد إلى الإسكندرية وإن صيحفته لم تصدر لأن يوغوص يوسف وزير خارجية مصر لم يقم بتشجيعها ولم تعد إلى الأبد.

لكن نائب القنصل الفرنسي "تبل" Tipple كتب إلى الجنرال "دامينسكي" أن تدرك عقب عودته إلى الإسكندرية ظل يكتب إلى بوغوص يطلب مساعدته لكن بوغوص لم يستجب لطلبه فتوقفت الصحيفة عن الإصدار ويعتقد تبل أنها لن تعود إلى الظهور وكان آخر عدد يوم السبت ٢٢/ ٥/ ١٨٣م٤. ولم تكن الجريدة الوحيدة التي كانت تدافع عن حكومة محمد علي لكن محمد علي اعتنى بجريدة أخرى هي الوقائع المصرية.

وإن تاريخ هذه الفترة هو تاريخ ميلاد الصحف المصرية الأولى، وهي بالترتيب الزمني:

(١) جرنال الخديوي في ١٨٢٧م

(٢) الوقائع المصرية في ١٨٢٨م

(٣) لومونيتور إيجيبسيان ١٨٣٣م

أما جرنال الخديوي فكان يصدر بالتركية والعربية في مطبعة القلعة مئة نسخة من كل عدد، وكان يصدر عن جهاز يسمى ديوان الخديوي، وهو أشبه شيء بمكتب رئيس الدولة. وكان يتولاه موظف كبير يسمى "جرنال ناظري" أي "ناظر التقارير اليومية".

وكان ديوان الخديوي المركزي هذا يتلقى التقارير والأخبار من دواوين مماثلة من المدن الكبرى، وكان يرأس هذه الدواوين ناظران للتقارير أحدهما جرنال ناظري للوجه البحري وجرنال ناظري للوجه القبلي، وكان هذا الناظران يواليان جرنال ناظري القاهرة بالتقارير والأخبار والبيانات تباعاً كل في حدود دائرته فينسق ديوان الجرنال العام ما كان يتلقاه من خلاصات أسبوعية ويعرضها على الوالي محمد علي كما كان يقوم بالعملية العكسية وهي إبلاغ قرارات الوالي في هذه الأمور لكل من يخصه الأمر. ولم يكن جرنال الخديوي يقوم بمجرد عرض هذه التقارير والبيانات والأخبار على محمد علي بل كان ينشرها بالمعنى الصحيح، فقد كان هذا الجرنال يصدر عن ديوان الخديوي يومياً ويطبع منه مئة نسخة توزع على كبار الموظفين وعلى مأموري الأقاليم، وكان هذا الجرنال اليومي يشتمل إلى جانب الأخبار الرسمية على بعض قصص ألف ليلة لتسهل قراءته، فهو أشبه شيء بالجريدة الرسمية ولكن تداول جرنال الخديوي ظل محدوداً في هذه الدائرة الحكومية كما ظل محدوداً في موضوعاته بهذه البيانات والقرارات الرسمية.

الفصل الثاني

الوقائع المصرية

أصدر محمد علي قراراً بشأن الجرنال الرسمي الوقائع المصرية في ٣/ ١٢/ ١٨٢٨م باللغتين العربية والتركية. وقبل صدور القرار الخاص بالوقائع كان محمد علي يطبع جرنال الخديوي في مطبعة صغيرة بالقلعة وكان ديوان الجرنال يتلقى التقارير الواردة من الأقاليم ثم يعرضها على محمد علي بعد تنقيحها فيطبع ما يراه مناسبًا منها في الجرنال باللغتين العربية والتركية وكان عدد النسخ التي تطبع نحو مئة نسخة توزع على النظار والمديرين ليقفوا على أهم ما يقع في مختلف أنحاء القطر ويكونوا على علم بما يريده محمد علي وحكومته.

وفي ٩/ ١٢/ ١٨٢٨م أصدر المجلس العالي لائحة بتنظيم ديوان الجنرال على نحو يجعل منه هيئة تفتيش إدارية كبرى ثم استبدلت كلمة التفتيش بكلمة الجرنال أما الغرض من إنشاء الوقائع المصرية أن تنشر الأخبار التي ترد من ديوان الخديوي والأخبار التي تأتي من أقطار الحجاز والسودان ومن بعض جهات أخرى وذلك ليكون كله نتيجة للحصول على النتائج الحسنة التي تأتي من محمد علي.

وفي يناير ١٨٤٢م صدر قرار بتنظيم الوقائع من جديد تنفيذاً لأمر محمد علي ذلك لكونه شديد الرغبة في وضع خطة سديدة تضمن صدور الوقائع على الوجه الأمثل كما هي الحال في صحافة الممالك الأخرى.

ولذا طلب محمد علي إلى شورى المدارس بحث موضوع "الوقائع والطرق" التي تكفل تحقيق هذه الغاية. وكان الأمر الجديد في هذا البحث أن الوقائع لم يقتصر نشرها على أخبار مصر وحدها بل أصبح من اللازم إضافة نبذة عن الحوادث الخارجية في الجريدة حتى يقبل الناس عليها برغبة وشوق.

وكان من الضروري الحصول على الأخبار أولاً بأول ونشرها على الجمهور لأن الأخبار تسقط قيمتها إذا تقادم عهدها ولكن الأخبار المصرية أهم ما تعني به الوقائع.

في ١٤/ ٣/ ١٨٢٤م حدد شورى المعاونة نوع الأخبار الداخلية التي يجب نشرها وتقرر أن يعهد إلى رفاعة رافع الطهطاوي ترجمة ما يرد في الصحف الأجنبية علاوة على بعض قطع أدبية من الكتب الأوروبية وانتخاب أخبار الملكية وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة.

ويرجع اختيار الشيخ رفاعة على أنه كان ناظر مدرسة الألسن وبها مترجمون جاهزون ولهذا عهد إليه (رفاعة) بوضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية بينما أحيلت أعمال إفراغ الترجمة في قالب حسن بدون الإخلال بالأصل العربي وتنظيم المواد حسب النظام التركي على حضرة حسين أفندي ناظر المطبعة الأميرية.

وعلى أيدى الشيخ رفاعة تقدمت الوقائع تقدماً ظاهراً وأخذت المقالات التي يكتبها الشيخ مكان الصدارة في الجريدة ولم يصرف تحرير الوقائع الشيخ رفاعة عن الترجمة فقد أنجز في أثناء نهوضه بأعباء الجريدة ترجمة مجلد آخر من جغرافية "ملطرون" فأنعم عليه محمد علي برتبة البكوية "أميرلاي" تقديراً لجهوده فضلاً عما أغدقه عليه من إنعامات مادية. لقد كان للحركة الواسعة حركة التعليم والترجمة والطبع أثر في مكافحة التعصب للعادات المصرية القديمة ذلك التعصب الذي كان مترسخًا في النفوس ومسيطراً على عقول العامة.

الباب العاشر

الخبراء العسكريون من أوروبا إلى مصر

الفصل الأول

خبراء فرنسا العسكريون

كلف محمد علي أحد تجار الإسكندرية مسيو تورنو Turneau بمهمة اختيار مدربين فرنسيين من بين ضباط الجيش الامبراطوري الفرنسي السابق على أن يفضل في الاختيار الذين جاءوا مع الحملة الفرنسية إلى مصر.

سافر مسيو تورنو إلى فرنسا في صيف عام ١٨٢٤م واتصل في باريس بالجماعة التي كانت تعرف وقتئذ باسم "المصريين" لسابق خدمة أفرادها في مصر تحت إمرة نابليون وكان من بينهم "بليار" Bellird الذي وقع معاهدة تسليم القاهرة في ١٨٠١م وكان آدم فرنسوا جومار" عضو مجمع القاهرة القديم وقد رحبوا به وأخذ بليار مهمة تأليف البعثة الفرنسية المطلوبة وفق رغبات محمد علي فاختار منهم ما يلي:

١- الجنرال البارون بوابيه Boyer ليكون لرياسة البعثة.

٢- بيير فرانسوا أكسافييه Pierre Francois Kavier.

٣- جودان Gauden.

٤- أدولف دي تارليه Adolphe de Torle.

٥- بولان دي تارليه (شقيق أدولف) Pauline de Torle.

٦- بوجول Pujol.

٧- لوديو Lodieu.

٨- شنيفل Chenneville.

٩- الجراح ديفينو Duivignauit.

١٠- انضم إلى هذه البعثة ضابط برتبة جنرال هو المركيز " دي ليفرون" Livron

وهؤلاء جميعاً كانوا بمصر في أيام الحملة الفرنسية على مصر ولبعضهم مواقف مشهورة خاصة في عهد الجنرال مينو Menou.

(١) بوابيه رئيس البعثة العسكرية بمصر

تاريخ رئيس البعثة (بوابيه) ١٧٧٢م-١٨٥١م له شهرة كبيرة منذ أن تطوع في خدمة الجيش الفرنسي ١٧٩٢م وانضم إلى المحاربين في جيوش الراين والسامبر والموز والبرانس الشرقية وشهد الحملة الإيطالية ثم انضم في حملة نابليون بونابرت إلى مصر وأصيب بجرح منذ الهجوم على الإسكندرية. ثم عينه نابليون حاكماً على إقليم الفيوم وصحب نابليون حملته على الشام ولكنه بقي في مصر.

وأخذ يكيد مينو بالاتفاق مع كل من (١) رينيه Raynier (٢) داماس Damas (٣) دور Daure فأعاده مينو إلى فرنسا مقضوباً عليه، لكنه لم يلبث أن عين رئيساً لهيئة أركان حرب جيش "سان دومنجو" فوقع في الأسر عند تسليم هذه المدينة ولم يعد إلى وطنه إلا بعد مضي ثلاث سنوات في يوليو ١٨٠٦م ثم التحق بجيوش فرنسا في ألمانيا وأسبانيا والراين وشهد معركة فرنسا ١٨١٤م وانضم إلى نابليون في حكم (المئة يوم) حتى عزل عن الامبراطورية الفرنسية نهائياً. وبعد ذلك سرح من الخدمة العاملة في عهد الملكية الفرنسية التي عادت إلى حكم فرنسا بعد نفي نابليون في ١٨١٦م دون أن يتقاضى مرتباً واعتبر محالاً على الاستيداع ابتداء من أول إبريل سنة ١٨٢٠م وهكذا كان بوابيه في عزله عند سعي الجنرال "بليار" ليحصل له على تصريح يمكنه من الخدمة بمصر مدة عشر سنوات.

(٢) بيير جاستون هنري مركيز دي ليفرون (١٧٧٠م-١٨٣١م)

Pierre Caston Henry Marquis de Livron

كان من ضباط العهد القديم في فرنسا، تدرج في المناصب العسكرية ولكنه ترك الخدمة العسكرية ١٧٩٢م وغادر فرنسا مع المهاجرين إبان اشتداد الثورة، بينما كانت الحملة الفرنسية محاصرة بمصر بعد تحطيم أسطولها في معركة أبي قير البحرية، دخلت ميناء الإسكندرية في ٥/ ٢/ ١٧٩٩م سفينة من نوع الأبريق قادمة من "راجوزه" على ساحل دلماشيا في بحر الأدرباتيك وكان على ظهر السفينة اثنان من المواطنين الفرنسيين أحدهما "هاميلان" **Hemelin** والآخر "ليفرن" وكانا يحملان ما تحمله السفينة من مسنوجات ونبيذ وما أتى ذلك من المؤن المرسلة إلى الحملة ومعرفة ما لديهما من أخبار. وفي يونيه ١٧٩٩م طلب أن يعهد إليهما بإحضار ٦٠٠.٠٠٠ أردب من القمح من الصعيد إلى بولاق. فوافق بونابرت على ذلك وذكر دور **Daure** الشرف على تموين الحملة وقتذاك أن ليفرون اشترك في حملات ١٧٩٩م و ١٨٠٠م في مصر وكان على رأس فرقة من المماليك والأروام (اليونانيين) المكلفين بحماية الغلال المجلوبة من الصعيد إلى القاهرة.

وفي عام ١٧٩٩م عهد إليه كليبر بمهمة سرية في تركيا وفيما بين ١٨٠٦م لـ ١٨١٥م عمل ليفرون في هيئة أركان الحرب في نابولي ووثق به ملكها (ميرا) **Murat**- أحد قادة نابليون ووكل إليه أمرًا بتنظيم سلاح الفرسان والإشراف على تموين الجيش بالأغذية والملابس مما أكسبه خبرة عظيمة في هذه المسائل ولم يغب عن محمد علي ما كان يتمتع به ليفرون من مزايا ولكنه لم يكن يريد على رأس البعثة العسكرية سوى ضابط واحد برتبة جنرال لذلك رأى أن ينتفع بمواهبه في نواح أخرى فصار يعهد إليه بشراء المهمات والأدوات لمصانعه من أوروبا كما بعث به إلى فرنسا ليحصل على تصريح بصنع قرقاطتين وسفينة من نوع الأبريق.

معاملة محمد علي لأعضاء البعثة العسكرية الفرنسية

قرر محمد علي أن يعامل أعضاء البعثة الفرنسية معاملة مميزة عن المدربين والمعلمين السابقين فخص رئيس البعثة بمرتب ضخم بلغ ٥٠٠٠٠ من الفرنكات أما باقي الأعضاء تتراوح مرتباتهم ما بين ١٥٠٠٠ و ٨٠٠٠ مضافاً إلى ذلك بدل الغذاء وعلف الخيل ونفقات السفر وأثمان الملابس مع أن اشترط في عقودهم أن يسموا بأسماء إسلامية دون الحاجة إلى خلع دينهم وأنهم لم ينفذوا هذا الشرط ، رغم ذلك لقوا جميعاً معاملة طيبة من محمد علي.

نصائح بليار إلى رئيس البعثة

بعث بليار إلى رئيس البعثة نصائح وإرشادات هي:

١ - أن تخلص البعثة في خدمة محمد علي.

٢ - ألا يفعلوا شيئاً ينفر منهم رجال الحاشية.

٣ - ألا يخفي عن أعينهم أن بوغوص يوسف ومستر صولت وجميع ممثلي الدول الأجنبية سوف يرمقونهم بعين الحسد والغيرة.

٤ - عليكم أن تظهروا بمظهر العسكري المنزه من الغرض البعيد عن السياسة كل البعد بمعنى أن يكون رجل حرب فحسب استدعي بصفة مؤقتة لتنظيم الجيش والدفاع عن البلاد.

٥ - ألا يكون للضابط الفرنسي أي امتياز على أي ضابط آخر له مثل مواهبه وخبرته سواء أكان هذا الضابط إنجليزيًا أم نمساوي أم روسياً.

٦ - كما يجب أن تكون وسائر أعضاء البعثة ذوي حرص وبصيرة وفطنة ورزانة في جميع الظروف لأن الترك قوم يساورهم الشك ومن صفاتهم الغيرة والحسد.

وفي ٢٤/ ١١/ ١٨٢٤م وصل بوابيه إلى الإسكندرية وزار محمد علي في قصره بالميناء. وفي اليوم التالي قدم إلى محمد علي أعضاء البعثة وأبلغه أن الجنرال "ليفرون" بين رجالها. وأحسن محمد علي استقبالهم واعدًا إياهم بالعطف والتشجيع. وفي أول ديسمبر غادر بوابيه والبعثة الإسكندرية إلى القاهرة وأخذ يعني بتشكيل الألايات الجديدة وتنظيم القيادة العليا وسلاح المدفعية وسلاح المهندسين العسكريين.

بعث بوابيه إلى جوامار رسالة قال فيها " ليس من شك في أنك صدقت كما صدقت كل قاله مسيو تورنو من أن الجنرال الفرنسي سوف يكون في هذه البلاد مسموع الكلمة مطاع الأمر منظورًا إليه بعين الاعتبار ولكن لا أحب أن تخدع نفسك فإن عملي مقصور على إصدار الأوامر طبقاً للأنظمة واللوائح ولا شيء غير ذلك أما الباقي فتتولاه السلطات التركية... وليس على ظهر الأرض من يفوق هؤلاء الأتراك في إساءة الظن والجهل والعجرفة والشراسة وتثبيط الهمم وإني إذ أقرر ذلك لا أدخل في عداد هذه الجماعة أبناء العرب فهم بعيدون عن مناصب الحكم في هذه الديار بل إنهم أنفسهم مغلوبون على أمرهم وهو ما يؤسف له حقاً لأنهم شعب يتمتع بمواهب نادرة وفي استطاعته أن يأتي بالجليل من الأعمال إذا أحسن توجيهه وقد وجدت جميع الأعمال في مصر بأيدي الإيطاليين، كما وجدت اللغة الفرنسية منبوذة كما لو كانت مبعث خطر، وجميع الأساتذة الذين يقومون بتدريس الرياضيات والعلوم والآداب والفنون وما إليها من الطليان. وفي كل عام يرسل إلى أوروبا عدداً يتراوح بين ثلاثين وأربعين شاباً لدراسة العلوم والفنون، فضلاً عن الشؤون العسكرية ولكنهم يرسلون إلى "بيزا" ولقد أوضحت ما في ذلك من الخطأ إذ أن الواجب يقتضي إرسال هؤلاء إلى روما حيث يدرسون الفنون العسكرية".

وإن بوابتيه لم يضيق بالترك والإيطاليين وحدهما فقد بدأ الانقسام يدب بين أعضاء البعثة منذ أن وضع على رأس المشاة أحد أولئك الأعضاء وهو الكولونيل "جودان" **Gaudin** تاركاً له حرية التصرف.

أما جودان فقد أظهر من اللين والمرونة ما جذب به المصريين نحوه فأخذوا يؤثرون الاتصال به دون غيره فيما يجد من الشؤون فكان يفصل فيها دون الرجوع إلى رئاسته ثم عظم نفوذه حتى بات يعتقد أنه الرئيس الحقيقي للبعثة.

وازدادت الخلافات عمقاً واتساعاً عندما استقدم بوابيه من فرنسا بعد موافقة محمد علي سبعة ضباط آخرين وهم:

١- هاراجلي Haragli ٢- دي بارون De Parron

٣- ماليه دي لاشيفا ليري Mallet de la Chevallerie

٤- بيكو Pecalld ٥- بيس Pees ٦- سوى Suye

٧- كانترل Cantrele

وأضف إلى استخدام الضباط السبعة صرامة بوابيه وخلقه العسكري وتأثره بارشادات بليار كل ذلك ساعد على زيادة النفور منه مما أتاح الفرصة لجودان أن يثبت أقدامه في مركزه ويصبح مقرباً من محمد علي وذلك على خلاف ما حدث لرئيسه بوابيه إذ فقد ثقة محمد علي به وعطفه عليه.

وهناك أسباب أخرى منها أن بوابيه اهتم بزيادة ثروته بدلاً من مراعاة مصالح بلاده مما جعله يترك تصريف الشؤون بيد الكولونيل "جودان" الذي استطاع أن ينال ثقة محمد علي ووزير الحربية وكبار ضباط الجيش وأكثرية من المدربين والمعلمين ويقول " درفتي" أن بوابيه ظل راضياً على هذه الحالة ثمانية أشهر.

وفجأة حاول بوابيه استعادة وضعه ونفوذه وسلطانه اتباعاً لمشورة "ليفرون" وقد أدى هذا النشاط المفاجئ الجديد إلى تعميق الهوة بينه وبين " جودان" حتى استدعى الأمر تدخل القنصل الفرنسي بناء على طلب محمد علي في مارس ١٨٢٦م ورغم التدخل ظل العداء قائماً بين الرجلين وحدث بعد ذلك أن القومندان "بيكو" رفض

الخضوع لأوامر بوابيه فأصر بوابيه على معاقبته فأمر محمد علي بطرده من الخدمة غير أن بوابيه عاد يصر من جديد على أن يطرد "جودان" فرفض محمد علي هذا الرأي فتقدم بوابيه باستقالته فقبلها محمد علي.

ويعتقد "دروفني" أن محمد علي قد غير موقفه من البعثة ورئيسها لأن "جودان" كان قد أطلع محمد علي على "الغرض السري" الذي يهدف إليه، رغبة في الانتقام من "بوابيه" إلا أن "بوابيه" كان قد أفضى إلى بعض أصدقائه بأخبار وردت إليه من باريس خلاصتها إن الدول أجمعت على تأييد اليونانيين ضد العثمانيين ثم أضاف إلى ذلك قوله " في ظرف ثلاثة أشهر فحسب لم يكن في بلاد المورة تركي واحد فأخذ الشك يساور محمد علي من ناحية فرنسا ونواياها وبدأ يظهر نفوره من بوابيه. فغادر مصر في ٣/ ٨/ ١٨٢٦م قبل انقضاء المدة التي تنص عليها في عقد استخدامه ثم تبعه سائر أعضاء بعثته ولم يبق في خدمة محمد علي إلا " جودان".

ولا جدال في أن الظروف التي أحاطت بهذه البعثة حالت بينها وبين القيام بواجبها على الوجه الأكمل إلا أنه رغم تلك الظروف أمكن البعثة أن تتم تشكيل ستة آلاف فرقة جديدة من المشاة تتألف من ٢٥٠٠٠ رجل كما استطاعت إنشاء فرق أخرى من المهندسين والعسكريين وتنظيم المدفعية تحت إشراف الكولونيل "راي" **Ray** الذي قدم إلى مصر في أغسطس ١٨٢٥م.

وقد قام بزيارة معسكر الخانقاء "بوابيه" وبعث بزيارته في تقرير إلى بليار في ٢٨ ديسمبر ١٨٢٤م يقول فيه عن المجندين المصريين وغيرهم "عراة، حفاة يعوزهم الملبس والعتاد ويستخدمون أسلحة قديمة للغاية ولدى كل آلاي نحو ٢٠٠ بندقية غير صالحة للاستعمال أما سائر البنادق قد بلغ من سوء حالها أن جيشاً يحارب بها ما لا يزيد عن ثلاثة أيام لابد أن يستسلم عند أول هجوم".

ثم قال في تقريره عن المدربين للجنود " إنهم جميعاً من اللاجئين الأسبان والبيرمونتيين وأهل مملكة نابولي وكلهم من أراذل القوم ومن أحط من أقلتهم الأرض على ظهرها لا ذمة عندهم ولا ضمير لهم ولا يعرفون القانون أو الشرف".

أما شياندي أو قاسم أغا فقد وصفه بوابيه في رسائله بالدناءة والجهالة وطرده في يناير ١٨٢٥م وأحل "جودان" محله في تنظيم المشاة.

ولقد كان لفصل قاسم أغا صدى بعيدًا ودويًا شديدًا بين زملائه من قدامى المدربين فأخذوا يحبكون المكائد والمؤامرات لرئيس البعثة أما هو فكان يعتقد أن طرد شياندي إنما أعاد إلى الباقين صوابهم فزاد اهتمامهم بعملهم.

طريقة التجنيد في بداية عصر محمد علي

كانت طريقة تجنيد الفلاحين في النظام الجديد للجيش المصري قد أوجدت بعض الانتقادات لدى المعاصرين.

تبدأ الطريقة بحصر الأعداد المطلوبة للتجنيد ثم توزع هذه الأعداد على مديريات مصر. ويقوم مديرو المديريات بإحضار الأعداد المطلوبة من الفلاحين هذا من ناحية التوزيع العام. أما التوزيع الذي يخص كل مديرية يكون بأن يقوم مدير المديرية فيوزع الأعداد المطلوبة من كل قرية في مديريته. ويأمر مشايخ القرى بجمع هذه الأعداد وينشط مشايخ القرى في عملية الجمع دون مراعاة من تقدمت به السن أو صغار السن أو بين أرباب الأسرة الكبيرة ومن الذين لا يعولون أحداً على الإطلاق أو من بين الأسماء المعفاة من التجنيد أو المرضى وذوي العاهات.

وعلى الفور تنقل هذه الأعداد إلى المديرية وتقوم المديرية بنقلهم إلى المعسكرات التي أعدت للتجنيد وعند نقلهم يهرب الكثير منهم في الطريق أو يموت بعضهم خاصة

المرضى أو من الإعياء نتيجة قطع الطريق من القرية إلى المديرية ومنها إلى المعسكرات مشياً على الأقدام.

رأى المشرفون نتيجة النقص في الأعداد التي يزج بها في المعسكرات أقل من المطلوب ولكي يسدوا هذا النقص فاتخذوا طريقتين إحداهما وضع القيود في أيدي المجندين ثم يربطوا جميعاً في أحبال ويجروا إلى المعسكرات جراً.

أما الطريقة الثانية هي أن تجمع أعداد زائدة من الفلاحين عما هو مطلوب من كل مديرية. وغالباً كانت النساء تصطحب مع المجندين وفي عصمتهن أطفالهن ... فالحشد كله مكون من المجندين من الرجال ومعهم نسائهم وأطفالهم.

وعندما تفتح أبواب المعسكر لاستقبال المجندين يبقى النساء والأطفال حول المعسكرات. وتبدأ مرحلة جديدة في الاستقرار لهذه الأسر وبالتالي نرى ظهور قرى صغيرة حول المعسكرات.

وكان أقارب المجندين يشاركون الجند في مخصصاتهم من الغذاء. ووجد أن الغذاء لا يكفي هذه الجموع واضطرت الأسر أن تتيح لأطفالها أن تتسول حول المعسكر. ومن ناحية أخرى انزلقت بعض النسوة نتيجة الجوع إلى مهاوي الفساد فانتشرت الأمراض حول المعسكرات خاصة الأمراض الخبيثة التي لا علاج لها وسقط عدد كبير موتى.

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى هذه الحالة أن فرز الرجال كان يحدث بعد وصول المجندين إلى المعسكر بدلاً من أن يتم في قراهم أو في أماكن تبعد قليلاً منها.

ويحدث أحياناً أن الأعداد التي تصل إلى المعسكرات أكثر مما هو مطلوب ومن العجيب أن في عام ١٨٢٥م وصل إلى معسكر الخانقاه نحو ٧٠٠٠٠ نسمة لم يقبل منهم سوى ١٢٠٠٠ أما الباقون وعددهم ٣٦٠٠٠ فكانوا من النساء والفتيات

والأطفال والكهول. ولم يستغن عن هذه الطريقة إلا في ١٨٣٠ م بعد أن نجح كلوت بك في تنظيم الخدمة الطبية فكان الكشف الطبي يوقع عليهم حيث يجمعون.

الهروب من التجنيد

ابتكر بعض الفلاحين الذين يريدون الهروب من التجنيد الحيل التي تساعدهم في ذلك ومنها:

١- قطع الأصابع السبابة.

٢- يفقعون أعينهم.

٣- وحيل أخرى من التشويه.

وتلافياً لمثل ذلك أصدر محمد علي عقوبات صارمة لمن يفعل تشوهات تعفيه من التجنيد وقد بلغت العقوبات إلى حد الإعدام على من يحدث عاهات مفتعلة في جسمه، كما توعد النساء اللاتي يشتركن في ذلك بنفس العقوبة إذا ثبت بأن لهن يداً في ذلك وأمر جميع المشرفين على التجنيد أن يبذلوا قصارى جهدهم في منع حوادث التشويه وإلا عد ذلك إهمالاً منهم في تأدية واجبهم وحق عليهم مجازاتهم بأن تشوه أجسامهم.

من هؤلاء المجندين تمكنت البعثة الفرنسية وفق الأنظمة الفرنسية الحديثة أن تعد الآلايات الثلاثة المطلوبة في أربعة أشهر مما أثار إعجاب محمد علي عندما زار المعسكر في مارس ١٨٢٥م حيث مكث في المعسكر ١٥ يوماً شاهد في هذه الزيارة عرضاً عاماً ومناورات قام بها جنود هذه الآلايات.

وقال بوابيه في تقرير له في ٥ مايو ١٨٢٥م " إن الوالي (محمد علي) قد تملكته الدهشة لما رآه من انتظام الحركات ونتائج إطلاق النار عند التقدم والتقهقر وسير طابور الهجوم. وكله في فترة موجزة أعجب بكل ما استطاعت هذه الألايات في

الخمسة عشر يوماً أن تقوم به أمامه من حركات عسكرية في مهارة وبراعة وكان من أثر إعجاب محمد علي أن دعا إلى المعسكر جميع عظماء القطر ووزرائه وبعبارة أخرى كل من يكرهون الجديد".

على أن بوابيه لم يغب عن فكرة الاهتمام بملابس وعتاد وأسلحة الجند. ثم تقدم إلى محمد علي بمذكرة يطلب فيها الإسراع في تنظيم المدفعية كما كتب إلى وزير الحربية الفرنسية المركيز دي كامبرون تونير Clemtonnere يرجو الموافقة على إرسال بعض الضباط لتنظيم المصنع الذي يقوم على صنع المدافع والأسلحة لمحمد علي وللقيام بتعليم رجال المدفعية المصرية. وقد وافقت الحكومة الفرنسية (حكومة الملك شارل العاشر) على هذا الطلب، وفي أغسطس ١٨٢٥م هبط الإسكندرية ضابط المدفعية راي Ray الذي ذكر اسمه من قبل. وكان قد استدعى انتباهه رداءة الأسلحة المصنوعة بمصر، فطلب من محمد علي أن يشتري أسلحته من فرنسا سداً لهذا النقص في هذا السلاح. لكن محمد علي رفض هذا الطلب لأن في استطاعة مصر تحسين الإنتاج المحلي والارتفاع بمستوى الصناعة المصرية. وقد تحققت طموحات محمد علي بنجاح الصناعة المصرية.

ويرجع الفضل في ذلك إلى طرد "فرانجيني Frangini" الإيطالي الذي كان يشرف على هذه الصناعة. ويرجع أيضاً إلى الرقابة الشديدة التي فرضها ديوان الجهادية على المعامل والسلع والمصانع العسكرية وإلى تعيين مديرين جدد لترسانة القلعة.

وقد أدخل Rey (راي) نفسه عدة تحسينات على صناعة البارود كما عنى بتدريب رجال المدفعية.

أما المهندس الإيطالي "بورياني" Boreani الذي حل محل "راي" إثر عودته سريعاً إلى فرنسا فإنه حاول تحسين مخلوط المادة التي تصنع منها المدافع والأسلحة ثم تخرج ضباط الآلايات الستة الأولى في مدرسة المشاة وهي المدرسة التي انتقلت من أسوان إلى

أسنا ثم إلى أخميم (بمحافظة سوهاج) وجعلها سليمان الفرنساوي أساس النظام الجديد.

وفي مايو ١٨٢٣م أمر محمد علي بإنشاء مدرسة وجاق النخيلة (بمحافظة أسيوط) وإلى جانب ذلك صار الضباط الجدد يتخرجون من القصر العيني وحلت مدرسة النخيلة (بمحافظة أسيوط) محل مدرسة "سيف" الحربية السابقة وكان موضعها قرب "جهاد أباد" وسط معسكر الخانقاه وكان بها ٥٠٠ شاب تركي يدربهم (بلاسا) Plassa البيد مونتي.

أما مدرسة القصر العيني فقد أسسها "عثمان نور الدين" ثم تسلمها أحمد أفندي خليل وكان بها ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ تلميذ تراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٦ سنة تحت إشراف (دووج الفرنسي) وقد وافق الألاي الذي سافر إلى الحجاز ومعه بعض "التعليمجيه" الآخرين أمثال فيجوريه Vigoureux و "جيلني" Gelini و "جبرناتس" Gubernatis.

وكانت أركان الحرب تتكون من ثلاثة مكاتب هي:

١- مكتب المراسلات العامة والأوامر ويرأس هذا المكتب قائد أركان الحرب نفسه.

٢- مكتب لخدمة العسكر والشرطة.

٣- مكتب للأرشيف أو المحفوظات الفرنسية تحت إشراف (أدولف دي نارليه).

وظاهر أن عمل هذه الهيئة كان محدداً عند البداية وكان آخر أعمال (بوابيه) اشتراكاً مع (راي) و (جودان) والأخوين (أدولف ودي نارليه) في مجلس الجهادية الذي شكله محمد علي في ١٨٢٥م برئاسة (عثمان نور الدين) وكان المجلس يضم (بوابيه) وبعض الفرنسيين والضباط والترك الموجودين بالخانقاه من رتبة كولونيل. والغرض من تكوين المجلس باعتباره لجنة عسكرية هو توطيد نظم التعليم والتدريب في الجيش ودراسة بين (بوابيه) و (جودان) وانقض المجلس إلى مدى بعيد.

بوابيه وتنظيم القيادة العليا للجيش المصري وإنشاء مدرسة أركان حرب

اقترح بوابيه على محمد علي تأسيس مدرسة أركان حرب في الخانقاه على أن يختار طلبتها من بين الضباط الصالحين للقيادة. وحصل على موافقة محمد علي في ٢٥/ ٥/ ١٨٢٥م وفتحت المدرسة أبوابها في ١٥/ ١٠/ ١٨٢٥م في قرية "جهاداباد" وكان مديرها الضابط الفرنسي Jules Planats (1829) وكان من ضباط المدفعية القدماء في الجيش الامبراطوري.

حضر هذا الضابط في أغسطس ١٨٢٣م وعندما جاءت بعثة بوابيه طلب أن يعمل مع أعضائها. ولم يوافق محمد علي في بادئ الأمر ثم عدل رأيه بفضل تدخل بوابيه. وقدم "بلانا Planat إلى معسكر الخانقاه في إبريل ١٨٢٥م لكن إصابة مرض شديد لم يشف منه إلا بعد جهود جبارة بذلها كلوت بك في علاجه وعناية فائقة من جانب "بوابيه" وعندما تأسست مدرسة أركان الحرب تولى "بلانا" Planat إدارتها وكان عدد الطلاب الدارسين فيها في بادئ الأمر ١٨ طالباً بلغوا في العام التالي سبعين وقد تم اختيارهم من بين تلاميذ مدرسة القصر العيني الممتازين وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات. أما "بلانا" فقد انتحر في بداية عام ١٨٢٩م.

ورشح بوابيه (عثمان نور الدين أفندي في منصب قائد أركان حرب فوافق محمد علي. وقد رقى (عثمان نور الدين) إلى رتبة البكوية وكان عمره لم يبلغ وقتئذ السادسة والعشرين وله مواهب نادرة التي أوجدت في منصب القيادة. وعلاقاته مع سليمان الفرنساوي وثيقة للغاية. ومع أنه كان يميل إلى الإيطاليين الذين أكثر محمد علي من وجودهم في المدارس والإدارة إلا أنه استخدم الأخوين "أدولف" و " دي تارليه" وكليهما من أمهر ضباط أركان الحرب. وكانت النواة الأولى لهيئة أركان الحرب من الخريجين الأوائل من مدرسة أركان حرب وعددهم ثمانية عشر.

الفصل الثاني

خبراء البولندية العسكرية لمصر

تاريخ هذه البعثة جزء من تاريخ الجهود التي بذلها المهاجرون البولنديون بعد فشل ثورتهم الوطنية ضد روسيا للأسباب التالية:

(١) محاولة الروس تأليب الدول ضدها.

(٢) انضمام الروس إلى أعداء الثورة.

(٣) حركت روسيا الفتن الداخلية في بولوينا

وكانت الأمة البولندية قسمت بلادها في القرن الثامن عشر بين روسيا والنمسا وبروسيا، ولم يبق أية ذكرى لدولتها الوطنية القديمة. وهي تتوق دائماً إلى استعادة حياتها المستقلة السابقة عاقدة آمالها على نابليون في إحياء بولندا وبعثها من جديد.

لكن نابليون اكتفى بإنشاء غراند وقية "وارسو" وبعد سقوطه أصبح مصير بولندا مرتبطاً بالموقف الذي يتخذه ممثلو الدول في مؤتمر فيينا ١٨١٥م.

وقد قرر المؤتمر أن تستولى روسيا على بولندا عدا أجزاء منها ضمت إلى كل من بروسيا والنمسا. وكان القيصر إسكندر الأول في ذلك الحين ما زال صاحب ميول حرة فأنشأ من البقية الباقية منها مملكة هو ملكها ومنح البلاد دستوراً، وكانت هذه صفحة قد انطوت إلى الأبد، لولا أن القيصر قد عصف بالحقوق التي منحها للبولنديين وقضى على حرياتهم، ثم اشتدت المحنة على الشعب البولندي عندما جلس القيصر نيقولا

الأول على عرش روسيا وأراد أن يجعل من بولندا بلاداً روسية أصيلة وأظهر من الغلو الشديد ما أغرق في رجعيته.

وكانت المقابلة إزاء هذه السياسة الروسية أن تألفت الجمعيات السرية، وما كادت أن ادلعت نيران ثورة يوليه ١٨٣٠م في باريس التي أطاحت بعرش ملك فرنسا "شارك العاشر" مما كان له الأثر لدى البولنديين واشتعلت الثورة البولندية في ٢٩/ ١١/ ١٨٣٠م نتيجة إقدام القيصر الروسي باستخدام الجيش البولندي في حربه ضد فرنسا.

وعلى أثر هذه الثورة البولندية تشكلت حكومة مؤقتة برياسة "شكوبيكي" Chlopicki وبعد فترة وجيزة اندلع النزاع بين طرفي زعماء الثورة رغم أنهم ليس لديهم الخبرة الكافية في إدارة شؤون الحكومة.

وكانت الفرصة مواتية للقيصر الروسي أن يقضي عليها بسهولة ثم اضطر أن تدخل قواته العاصمة البولونية "وارسو" في سبتمبر ١٨٣١م. فاضطر بعض الوطنيين مغادرة بلادهم حيث أسقط في أيديهم ما يقوموا به من مقاومة ضد الجيوش الروسية.

وفي العاصمة الفرنسية (باريس) هبت جماعة كبيرة من البولونيين تحت زعامة أمير منهم هو "آدم جورج نزار توديسكي" Adam Georges Czartoryski واختاروه رئيساً لحكومة بولندا الحرة في "المهجر" وتألفت الحكومة ومهمتها الإشراف على أنشطة المهاجرين البولنديين، ثم تألفت هيئة وطنية يرأسها الجنرال "دفرنيكي" Dwrnicki وفي الوقت الذي استقر فيه المهاجرون البولنديون بباريس كانت جيوش إبراهيم باشا قد أخذت بلاد الشام تحت سيطرتها وقد ذاعت انتصارات إبراهيم في أوروبا وظهرت الدولة العثمانية أمام دول العالم هزيلة ضعيفة، وترددت الشائعات بين هؤلاء المهاجرين بأن محمد علي إنما أقدم على غزو الشام بناء على اتفاق سري بينه وبين روسيا لإذلال السلطان محمود الثاني وإضعاف الدولة العثمانية. وخشى المهاجرون أن يقعوا في يد الروس فشرع زعيمهم الأمير "البرنس توريسكي" يفاوض "نامق باشا" السفير

العثماني في باريس بشأن التحاق المهاجرين العسكريين بالجيش العثماني ضباطاً ومعلمين ولكن السلطان العثماني وجد نفسه أمام انتصارات إبراهيم في الشام ووصول قواته قرب القسطنطينية لا مناص أن يطلب نجدة الروس فدخل الأسطول الروسي المياه العثمانية ووقف في اتجاه القسطنطينية في فبراير ١٨٣٣م. فكان هذا التصرف كافياً لهدم أماني البولنديين المهاجرين.

غير أنهم لم تعوذهم الحيل نحو الدولة العثمانية فتقدموا برأي له من الأهمية التاريخية بمكان وقد ظهر ذلك في وثائق الدولة العثمانية وتمسك به محمد علي بعد ذلك في أكثر مفاوضاته مع الدول الأوروبية كلما تعقدت الأمور بينه وبين السلطان هذا الرأي هو "إحياء الامبراطورية العثمانية على يد محمد علي نفسه إذ أن الدبلوماسية البولندية في ذلك الوقت العصيب الذي مرت به الدولة العثمانية كانت تهدف إلى عقد صلح بين محمد علي والسلطان محمود الثاني على شرط أن يعين السلطان محمد علي صدراً أعظم فإذا تعذر هذا الأمر نصح البولنديوين الشعب العثماني بأن يعزل السلطان وينادي بمحمد علي خليفة على المسلمين وكان هدفهم من ذلك كله أن يتحد المسملون- أو العثمانيون- جميعاً في وجه روسيا وهو العدو المشترك.

تمسك البولنديون المهاجرون بفكرة محمد علي في القسطنطينية على رأس الامبراطورية العثمانية بأجمعها رغبة في إحياء الامبراطورية ذاتها ومنع الروس من تحقيق رغبتهم في السيطرة على بوغرين "البسفور والدردنيل" وبلغ الأمر شدته لدى البولنديين بأنهم رددوا فكرتهم في أحاديثهم وكتاباتهم فذكر الجنرال بم Bem أحد قادتهم في رسالة له إلى الوزير الإنجليزي بلمرستون بتاريخ ١١/ ٣/ ١٨٣٤م تعليقاً على ذهاب البعثة البولندية إلى مصر وأن رئيس البعثة سافر إلى هذه البلاد لاعتقاده أن محمد علي يجب أن يسيطر على الامبراطورية العثمانية برمتها آجلاً أم عاجلاً لاعتقاده أن محمد علي لديه الرغبة الحقيقية في منع روسيا من السيطرة على القسطنطينية.

وعندما وجد البولنديون أن السلطان ألقى بنفسه وبدولته في أحضان الروس. بدأ البولنديون يتجهون نحو مصر وأعلنوا رغبتهم في خدمة محمد علي بدلاً من السلطان وبدأوا يفكرون في اتخاذ مصر ذاتها قاعدة يدبرون منها الهجوم على روسيا أو على الأقل مناوراتها لأن مصر كدولة مستقلة تستطيع وحدها مقاومة النفوذ الروسي في القسطنطينية لذا نصح البرنس "نزار تورسكي" مواطنيه بأن يتصلوا بتلاميذ البعثة المصرية في باريس الذين قدموا إلى فرنسا في نوفمبر ١٨٣٣م ومعهم الطبيب المعروف "كلوت بك".

وعملاً بهذه النصيحة حاول المهاجرون الاتصال بكلوت بك في فبراير ١٨٣٣م وقابله أحدهم في منزل السيدة زوجة "بيسون" Besson وصرح كلوت بك في أثناء الحديث أن الصلح الذي تسعى إليه الدول الأوروبية لإبرامه بين محمد علي والسلطان سوف يكون في مصلحة محمد علي لأنه سيجمع كلمة العرب بحيث لا يبعد أن يشهد العالم عودة الخلافة القديمة إلى الوجود خلال سنتين أو ثلاث سنوات فكان لهذا التصريح أثر كبير في تشجيع المهاجرين البولنديين على الذهاب إلى مصر. ووقع اختيارهم على " هنري دمنيسكي" لهذه الغاية فسارع إلى مقابلة وكيل محمد علي في باريس وهو "محمد أفندي أمين" ناظر البعثة المصرية بعد "عبدى أفندي" واستطاع الجنرال البولندي أن يستميل إلى جانبه محمد أمين فكتب إلى محمد علي يبلغه رغبة " دمينسكي" في التواجد بمصر وبعد ذلك كتب " دمينسكي" إلى محمد علي في ٩/ ٥/ ١٨٣٣م موضحاً " إن الشدائد التي قاستها بلاده جعلته يذهب إلى فرنسا وأنه انتظر طويلاً عساه أن يرى أوروبا تنفض عن نفسها غبار عدم المبالاة وتنشط بوضع حد لمطامع الروس. لذا عرض خدماته على السلطان ما دام لا يرعى في أحضان روسيا. غير أن محمداً علياً وحده الذي اختاره الله سبحانه وتعالى للاقتصاص من الروس وحكومتهم ومن خلال ذلك يعرض خدماته على محمد علي عاقداً العزم أن يذهب إليه".

ولما استقر الرأي على سفر الجنرال إلى مصر أرسل إليه البرنس نزار توريسكي كتاب توصية لمحمد علي أوصت به الحكومة الفرنسية خيراً وكان معه في رحلته دكتور "هاج" Haage كما كان معهما القومندان "زميوت" Suemioth وقبل سفره أرسل إلى مواطنيه المهاجرين رسالة في ٢٠/ ٥/ ١٨٣٣م منشوراً يشرح فيه الظروف التي دعته إلى الالتحاق بخدمة محمد علي. وكان مما جاء في هذا المنشور قوله "رغبة في أن يهدي لمواطنيه فرصة الكفاح في سبيل وطنهم قد قر رأيه على أنه يشخص إلى الرجل الذي لم يكتف بأن يحرر نفسه ويحرر رعاياه من المزاعم والأوهام القديمة بل يبدو السير في طريق الحق والصدق والعمل على أحياء وطنه الذي تمزق شمله".

وفي ٢٦/ ٥/ ١٨٣٣م غادر "دمينسكي" باريس ولم يكد يبلغ مرسيليا في ٢/ ٦/ ١٨٣٣ حتى علم بصلح كوتاهيه بين محمد علي والسلطان. لكن هذه الأخبار لم تبعث في قلبه اليأس لأن روسيا في حد قوله سوف تحاول استغلال هذا الصلح على نحو ينجم عنه تعقد الأمور ومهما يكن من شيء فإن مجال العمل في مصر فسيح. وفي ٧/ ٦/ ١٨٣٣م أبحرت السفينة Vincitor وعلى ظهرها "دمينسكي" وصحبه فوصلت إلى مالطة بعد ثمانية أيام ثم غادرتها إلى مصر فهبطت في الإسكندرية في ١٥/ ٧/ ١٨٣٣م فاستضافها القنصل الفرنسي "ميمو" Mimout.

وفي اليوم التالي قابل وزير خارجية مصر "بوغوص" وكتب على الفور تقريره إلى البرنس "تزانوريسكي" يصف له المقابلة وما دار فيها من حديث فذكر أن بوغوص أخبره بوصول خطابه إلى محمد علي وكذلك مؤلفه عن حملة لتوانيا التي اشترك فيها، هذا فضلاً عن "ترجمة حياته" التي كتبها أحد البولنديين كما أخبره أن محمد علي معجب به وآية ذلك أن أمر بترجمة مؤلفه عن الحملة إلى اللغة التركية وإن كان محمد علي رحب به فيرجع الترحيب إلى خطاب الجنرال نفسه لا إلى توصية قنصل فرنسا ولا إلى رسائل أمين أفندي.

وفي ٢٠/ ٧/ ١٨٣٣م قابل "دمينسكي" محمد علي في سراية وحضر المقابلة كل من "زميوت" و دكتور " هاج" والقنصل "ميمو" وكان مدار الحديث روسيا وبولندا، وكان محمد علي حريصاً في كلامه حتى أن "دمينسكي" عندما تحدث إليه عن ضعف الجيش الروسي وعن شدة أسفه لقدومه إلى مصر بعد عقد الصلح وضياع الفرصة فقال محمد علي "لا أستطيع الدخول في حرب مع روسيا لأنني لا أغني عن توافر المدافع والعتاد قبل التفكير في مثل هذه الخطوة التي لا يتسنى اتخاذها بأمور ثلاثة هي المال أولاً والمال ثانياً والمال ثالثاً ودائماً" ثم أضاف إلى قوله " والآن وقد انتهينا من الحرب يجب علينا أن نفكر في مسائل السلم" وعقب الانتهاء من المقابلة أبدى محمد علي رغبته بأن يعتمد عليه هو وصحبه في تنظيم جيشه.

وأبحر محمد علي في ٢٧/ ٧/ ١٨٣٣م في رحلة إلى كريد غير أنه قبل مغادرة الإسكندرية أرسل إلى ابنه إبراهيم يخبره أنه سيرسل "دمينسكي" إذا رغب في ذلك وأرسل إبراهيم موافقته. وفي اليوم التالي لسفر محمد علي أبلغ "بوغوص يوسف" وزير خارجية مصر والجنرال البولندي أن الباب العالي قد وافق على اقتراحه الخاص بتشكيل هيئة أركان حرب للجيش وعليه أن يستقدم من يريد من الضباط لتشكيل هذه الهيئة. وكان من رأي الجنرال استخدام عشرين أو أربعة وعشرين من الضباط البولنديين.

وفي ٢٧/ ٨/ ١٨٣٣م غادر دمينسكي ومعه زميوت وهاج الإسكندرية إلى الشام على السفينة "كوليبا" بقيادة القبودان مراد ثم وصلوا "كسنلي" Casanti وهو ميناء صغير شرقي "مرسين" في اليوم نفسه ثم سافروا براً إلى طرسوس ثم إلى أطنه فوصلوا إليها في ٢٩/ ٨ ومكثوا بها إلى ٢٢/ ٩ وهناك قابل "دمينسكي" إبراهيم باشا وبحث معه مسألة تنظيم الجيش فوافق إبراهيم على قبول الضباط العشرين الذين يراد استخدامهم. ولكنه لم يلبث أن اقترح على الجنرال استدعاء ٤٠٠ من الضباط البولنديين لتوزيعهم على فرق الجيش المختلفة كما أظهر له أنه ليس ثمة ما يدعو إلى استقدام ضباط لهيئة أركان الحرب،

إذ أن ضابطاً أو اثنين يكفيان كل ألاي عند ذلك أبدى "دمينسكي" خشيته من أن يثير وجود مثل هذ العدد الكبير من البولنديين المسيحيين الشعور في الجيش المصري. فأعلن إبراهيم أن التعصب الديني لا مكان له في الجيش أو الأسطول المصريين. ولذلك أرسل إبراهيم مقترحاته لأبيه قبل البت في الموضوع نهائياً.

وجاء رد محمد علي بالرفض وإن كان قبل استدعاء ضباط بولنديين ليكونوا معلمين ليس غير ذلك على أن إبراهيم رفض أن يمنح العدد القليل من الضباط الذي اقترحه "دمينسكي" لتشكيل هيئة أركان الحرب بنفس المرتبات التي تمنح للضباط الترك أو أن تهيأ لهم فرص الترقية كزملائهم مما حمل الجنرال البولندي على الاعتقاد بأن السر في تشدد إبراهيم أنه لا يريد تأليف هيئة يترتب على وجودها ضياع سلطته وسيطرته على ضباط الألايات وسائر القادة وزاد الموقف حرجاً إصرار الجنرال على ألا يقبل أحد من البولنديين في الخدمة إلا بناء على اختياره هو وبموافقته وقد أدى تمسك كل من الرجلين بموقفه ووجهة نظره إلى توتر العلاقات بينهما.

ويعزو "دمينسكي" هذا التوتر كذلك إلى سعايات أو بالمعنى الآخر إلى وشايات بعض المواطنين البولنديين خاصة "زولا" Szula وبينوسكي Beniowski لدى إبراهيم مما جعل الأمور تزداد جرحاً إلى حد أن الجنرال رفض العودة إلى غزة لتدريب بعض فرق الفرسان هناك طوعاً لإرادة إبراهيم وقرر العودة لعرض الأمر على محمد علي ويعد هذا الخلاف هو المعول الذي هدم البعثة البولندية وفي مقدمة الخلاف هو تشكيل هيئة أركان الحرب وهو أهم ما اقترحه "دومينسكي" لإصلاح النظام الجديد إذ قال إن الجيش كانت تسوده الفوضى لأنه لم تكن هناك هيئة أركان حرب أو ضباط كبار بل لم تكن هناك غير ألايات متفرقة ولم يكن ثمة وحدات أو فرق تحت إمرة قائد "جنرال" ولا أوامر يومية وهكذا انعدم كل اهتمام بالرجال الذين يحصدهم الموت حصداً في غير رحمة أو شفقة.

وقد كتب " دمينسكي" إلى محمد علي عقب عودته إلى مصر في ديسمبر ١٨٣٣م عن مقابلته لإبراهيم ثم أعد قائمة بعدد الأعضاء الذين تتألف منهم هيئة أركان الحرب وكذلك عدد الضباط والمعلمين في قوات المشاة والفرسان. وما يتكلفونه جميعاً من نفقات قدرها ٢٠٩.٦٠٠ فرنك. واقترح محمد علي أن يستخدم ضابطين من الجنرالات البولنديين.

قدم دمينسكي مشروعاً لتنظيم الجيش في مصر والشام بتاريخ ٢٩/ ١٢/ ١٨٣٣م ومحتوياته ما يلي:

١- إنشاء هيئة أركان حرب.

٢- إدخال إصلاحات فنية في تشكيل ألايات المشاهة والفرسان والمدفعية.

٣- تقسيم الجيش إلى ستة لواءات يشمل كل منها أربعة ألايات من المشاة والفرسان.

٤- عدد من البطاريات (المدفعية).

٥- زيادة عدد الجيش النظامي إلى ١٢٠٠٠٠ في وقت الحرب و ٨٤٠٠٠ وقت السلم.

٦- ما عدا البدو والجنود غير النظاميين.

وقد تعطل هذا المشروع لعدة عوامل أهمها:

١- سوء التعامل بين دمينسكي وإبراهيم باشا.

٢- اعتقاد إبراهيم أن الجنرال البولندي تنقصه الخبرة العسكرية الكافية لأنه لم يبلغ المراتب العليا في قيادة الجيوش.

٣- أن دمينسكي قضى في لتوانيا وقتاً طويلاً بعد عزله بعيداً عن الحروب العنيفة والأعمال العسكرية ذات الخطر.

٤- أما موزوبنسكي Moszynski الذي ألحق بخدمة إبراهيم في سوريا تحت اسم "نادير بك" اقترح تعيين الجنرال "شلومبيكي" Chiopick بدلاً من دمينسكي. وكان للسياسة الدولية دور هام في إخفاق البعثة البولندية ذلك لأن الدول الأوروبية ألحت على محمد علي في قبول الصلح مع السلطان.

وألحت أيضاً على محمود الثاني ليتفق مع محمد علي منعاً لروسيا لبسط سيطرتها على تركيا. وكانت الدول الأوروبية حريصة كل الحرص على ألا يعكر شيء صفو السلام الذي تم عقده في كوتاهيه. وعلى محمد علي ألا يحاول إزعاج الباب العالي أو استثارة روسيا حليفته الجديدة. وكان محمد علي باشا يعرف ما بين روسيا وبولندا. فأدرك تمام الإدراك أن وجود دمينسكي في خدمته سوف يلفت النظر إليه ويثير الشكوك من ناحية نواياه السليمة لا سيما بعد أن بات منتظراً أن يصل إلى مصر في بداية عام ١٨٣٤م القنصل الروسي الجديد "دوهاميل" Duhamel وكان يهم محمد علي بطبيعة الحال أن تظل علاقاته ودية مع روسيا ولأنه لا يريد بسبب وجود البولنديين في مصر وبسبب القضية البولندية أن تحدث مشكلات جديدة قد تزيد الموقف جرحاً وتعقيداً وزاد الطين بلة أن دمينسكي نفسه لم يدع أية فرصة تمر دون أن يبدي عداءه السافر لروسيا وعزمه الأكيد على أن يتخذ من مصر كما كتب القنصل الإنجليزي كامبل إلى حكومته في ٢١/ ٧/ ١٨٣٣م "نقطة ارتكاز لتأليف جيش بولندي يستخدم ضد روسيا. هذا إلى دمنيسكي منذ هبط الإسكندرية في يوليو سنة ١٨٣٣م وعرف بقرب حضور "دوهاميل" لم يتردد في الإلحاح على بوغوص حتى يحول محمد علي دون حضور القنصل الروسي لما يترتب على ذلك من آثار بالغة في نفوس المسلمين قاطبة كما قال" إن الأنظار جميعاً تتجه صوب محمد علي باعتباره رجل المستقبل الذي سوف يتم على يدبه إنقاذ تركيا لذلك كان كل ما أمكن الباشا الموافقة عليه في هذه الظروف السماح باستقدام عدد محدود من البولنديين يستخدمون تعليمجية في الجيش شأنهم في ذلك شأن سائر الضباط من الأمم الأخرى.

غير أن سوء الطالع لم يشأ أن يفارق البعثة. فأتت الشائعات أكلها بأن في مرسيليا ٤٠٠ جندي على وشك الهبوط على أرض مصر. والشائعات كاللهب سرعان ما يلتهم في طريقه كل شيء وقد قام البولنديون الخارجون على دمينسكي بترويجها وإلى جانبهم بعض اليونايين الذين كانوا في خدمة روسيا من ناحية أخرى. ثم ازدادت هذه الشائعات اشتعالاً حيث تناقلها قناصل الدول أمثال "ميمو" و "كامبل" بل إن دمينسكي نفسه صار يعتقد بصحتها.

لذا أصدر محمد علي أوامره المشددة لمنع هؤلاء البولنديين عند حضورهم من النزول على أرض مصر كما أمر بإعادتهم إلى الموانئ التي أبحروا منها على ظهر سفن مصرية أعدت لهذا الشأن.

واستاء دمينسكي من إصدار هذه الأوامر واعتبرها إهانة لمواطنيه فعقد النية على الاستقالة من خدمة محمد علي ومبارحة مصر وعبثًا حاول بوغوص إقناعه بعدم قبول هؤلاء الجنود مجاملة لروسيا والحكومة الفرنسية والحكومة الإنجليزية وأن هذه المجاملات لا تستدعي أن يكون موقفه هكذا ورغم الجهد الذي بذله "بوغوص" في إقناعه إلا أن دمينسكي أصر على الاستقالة.

وكان رأي كامبل أن صدور أوامر محمد علي القاطعة في هذه المسألة قبيل وصول "دوهاميل" كان إجراء موفقاً لأن "دوهاميل" كان يحمل تعليمات حكومته بالضغط على محمد علي ليطرد "دمينسكي" وجميع البولنديين من خدمته وكان من المحتمل أن يرفض محمد علي تحقيق رغبات الروس محافظاً على مركزه في الدولة العثمانية، على أن الجنرال البولوني رغم إصراره على ترك الخدمة كتب دمينسكي خطاباً إلى محمد علي في ٢/ ٣/ ١٨٣٤م قال فيه " إن جيش جنابك العالي في حاجة إلى رجل ماهر يستطيع تنفيذ المشروع الذي وصفه لتنظيمه. ومن الواجب أن يتم بأقصى سرعة ممكنة، فقد عملتم الشيء الكثير حتى جمعتم الجنود ولكنكم لم تفعلوا سوى الشيء اليسير في سبيل

تشكيل الجيش وتنظيمه والمحافظة عليه، وضمان وحدته، والتأكيد من الوسائل التي يستطاع بها تغذيته بالرجال دون أن يحيق بالبلاد الأذى والخراب، كما أن جنابكم العالي لم تعملوا غير القليل لإعداد القادة الذين يتولون زمامه".

وسافر دمينسكي من الإسكندرية إلى مرسيليا في ١٧/ ٤/ ١٨٣٤م وبذلك انتهى عمل البعثة البولندية في مصر. وفي ٩/ ٥/ ١٨٣٤م قال "دوهاميل" إن الجميع في القاهرة معنيون بالتنظيم الجديد للجيش ذلك الذي ظهر "دمينسكي" أن الحالة تستدعي إجراءه على الفور".

الباب الحادي عشر

الاقتصاد المصري في عصر محمد علي

الفصل الأول

السياسة التجارية

التجارة في أواخر القرن الثامن عشر

نشأت التجارة بين قرى مصر ومدنها لاختلاف أحوال الإنتاج الزراعي والصناعي في البلاد، ولذلك نجد سكان كل قرية أو عدة قرى يتخذون يوماً من أيام الأسبوع يجتمعون فيه للتجارة بيعاً وشراء، لموازنة إنتاجهم واستهلاكهم. واتسعت حركة التجارة بينهم حتى وجدت أسواق كثيرة في مدن وبنادر منتشرة في الوجهين البحري والقبلي.

كانت أسواق الوجه القبلي تساعد على تلبية حاجة السكان هناك. فالقرى يجتمع فيها الناس للمبادلة وابتياع الحاجات. أما المدن الكبيرة فقد كانت أسواقاً هامة لها قيمتها، ومن أهمها: إسنا وقنا وأسيوط.

وكانت السلع توزع من القاهرة والإسكندرية على أسواق الوجه البحري وأهمها منوف وطنطا وسمنود والمنصورة ودمياط.

وهي سوق هامة يؤمها كثير من التجار وهم خليط من جنسيات غير مصرية فمنهم الأتراك واليونانيون واليهود والعرب والأوروبيون. والإسكندرية ميناء للتجارة الخارجية يتصل بالدول الأجنبية وتصدر منه غلال مصر والبضائع الشرقية التي كانت ترد إلى مصر وترغب فيها الدول الأوروبية كالبن والمنسوجات الهندية والعطارة والتوابل، كما كانت الميناء الرئيسي لتجارة الواردات من البضائع الأوروبية والتركية.

سوق القاهرة:

كانت القاهرة محطة تجارية عظيمة وسوقاً ترد إليها منتجات البلاد المختلفة من إفريقية وآسيا وأوروبا كما كانت تصدر ما يزيد عن استهلاكها إلى الجهات المجاورة من الأمم المختلفة. ولعظم التجارة في القاهرة وجب أن تقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- تجارة المواد الغذائية والعقاقير.

٢- تجارة المنسوجات.

٣- تجارة الكماليات.

وكان السيد أحمد المحروقي كبير تجار القاهرة وله نفوذًا كبيرًا في السوق، ويرأس المحكمة التجارية التي تفصل في المنازعات بين التجار.

وقد سكن التجار الأجانب في منازل أقيمت فوق حوانيتهم ويتولى حراستها حراس أمناء.

أما التجار الشوام فقد سكنوا وكالة التفاح، والأتراك في وكالة الشوربجي، والتجار العبيد في وكالة الجلابية.

وفي وكالات المغاربة والمجاورين و "البيريقدار" وخليل أفندي، أمام التجار المغاربة.

وكان الحاكم العثماني في مصر لا يهتم بشؤون التجارة، اللهم إلا ما يتعلق بجمع الرسوم الجمركية، يضاف إليها ما ابتدعه الولاة من ضرائب جديدة، عرفت "بالدخولية" وضعها الحكام للحصول على المال، فعرقل ذلك اتساع دائرة التجارة الداخلية ورفع من أثمانها وأصبح عبئاً على السوق التجارية. وبدا أثره على المستهلكين الذين ضعفت قدرتهم الشرائية فكسدت بتلك السوق التجارية.

ولقد اتسمت هذه الفترة بالإهمال في أمور التجارة، فالنقد مضطرب، والعملات الأجنبية تتداول بأسعار غير أسعارها الحقيقية، والكيل والوزن لا ضابط لهما، والنقل غير منظم، والموانئ غير صالحة لرسو السفن، والمنازعات الكثيرة بين طوائف المماليك تزيد من حالة الاضطراب والكساد في دائرة التجارة والعلاقات التجارية الخارجية مع الدول تسير في نطاق ضيق محدود.

ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر زاد الاضطراب والكساد في السوق التجارية بسبب المعارك الحربية وغيرها مما جعل قطع حبل التجارة أمراً محتوماً.

وكان الحكام والأمراء يفرضون على التجار فروضاً لا تخضع في تقديرها وجبايتها لقانون ثابت أو مواعيد محدودة، إنما كانت تفرض وتجبى عدة مرات في السنة حسب حاجة الحكومة إلى المال. وقد نجم عن هذا أن اضطر التجار إلى إغلاق حوانيتهم أحياناً وإلى زيادة أثمان السلع كي يعوضوا ما أصابهم من خسارة، فاضطربت السوق بسبب ذلك.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كثيراً ما اعتدى العرب على قوافل التجار إذ كانت القوافل تأتي من بلاد العرب أو من بلاد الشام تسلك سبيلها إلى القاهرة عن طريق برزخ السويس والصحراء، وكثيراً ما كانت تتعرض لنهب العرب وسلبهم.

ومما زاد من هذا الاضطراب أن فرق الجند إذا ما ضاق بها الحال، أو لم تدفع إليهم مرتباتهم بانتظام، كانوا يتدخلون في السوق مشترين وبائعين، ينهبون من الفلاحين أرزاقهم، ويبيعونها لأهل المدن بأعلى الأسعار.

ولم تكن العوامل البشرية وحدها التي زادت من الاضطراب في هذه الفترة، بل إن الأسباب الطبيعية زادت من حدته، إذ لا ننكر أثر فيضان النيل في الإنتاج الزراعي، فإذا نقص الفيضان وقلت المياه حدد ذلك مساحة الأراضي المزروعة فيقل الإنتاج تبعاً لذلك.

ولما عادت البلاد إلى حكم الأتراك بعد جلاء الفرنسيين وقبضوا على ناصية الحكم بها، ساءت الحالة من جديد، فزادت الضرائب وفرضت الغرامات لتستطيع الحكومة أن تسد ما يطلب منها من نفقات وأخصها مرتبات الجند خوفاً من أن يثوروا. فأرهق بسبب ذلك التجار والسوق التجارية جميعاً.

الاتفاقات التجارية:

إن المعاهدات التجارية التي تعقد بين البلاد والأقطار هي التي تنظم التجارة الدولية، وتجعلها تسير في طريق مرسوم منعاً للمشكلات التي تنشأ عن وجود هذه العلاقات.

وكانت المعاهدات التجارية التي بين تركيا وبين الدول الأجنبية تحمل بين بنودها أن تنفذها جهات الامبراطورية العثمانية ومنها مصر مراعية حسن المعاملة وامتياز الدول المتعاقدة على غيرها في الرسوم الجمركية، وإن كانت كل دولة في آخر الأمر، تمسكت بالحقوق التي كسبتها الدول الأخرى التي سبقتها، حتى أصبحت هذه الامتيازات التجارية عبئاً على إدارة الجمارك، وعلى الخزانة، وعلى تجارة الصادرات التركية والمصرية أيضاً.

النظام الجمركي:

أنشأ السلطان سليم في مصر أربعة جمارك هي: جمارك بولاق والإسكندرية ودمياط والسويس، وكلها تأتي بإيراد كبير.

فتجار قوافل دارفور وسنار وفزان تأتي إلى جمرك مصر القديمة، وتجارة تركيا وآسيا إلى دمياط والإسكندرية، وتجارة الدول الأوروبية إلى الإسكندرية، وتجارة بلاد العرب والهند إلى السويس.

وكانت بضائع قوافل السودان تصل إلى النيل عند أسيوط، وهناك تدفع رسماً جمركياً فادحاً، بيد أن هذا الرسم حدد بعد ذلك كي لا تكون فداحته سبباً في ضعف هذه التجارة وعدم الإقبال عليها.

فالرقيق "رجلاً كان أو امرأة" فرض عليه ٤٨٠ ميديا وعلى الجمل المحمل ٩٠٠ ميديا والمحمل بريش النعام ١٩٨٠ ميديا وغير المحمل ٢٤٠ ميديا.

وكانت قوافل سوريا تأتي إلى مصر لتحمل حجاج الجزائر ومراكش وتونس وطرابلس ومصر إلى مكة. وإذا ما أصبحت الملاحة خطرة قامت هذه القوافل بنقل البضائع المستوردة والمصدرة إلى سوريا بدلاً من ميناء دمياط.

أما التجارة الأوروبية مع مصر فقد خضعت لرسم متفق عليه في عقود ومعاهدات مبرمة بين الدول العثمانية والدول الأوروبية. على أن تجارة الأوروبيين منذ عهد المماليك أصابها الاضطراب والإرهاق، فالسفينة الفرنسية مثلاً التي تدفع الرسم الجمركي في إحدى الموانئ التركية يجب أن تدفع رسماً آخر عندما تصل ميناء آخر من موانئ الامبراطورية العثمانية، وكذلك حرم على التجار الأوروبيين تصدير المواد الغذائية من مصر كالقمح والأرز وكذا اللبن، إلا أنه رغم هذا التحريم نجحت وسائل التهريب نجاحاً عظيماً واستطاع التجار الأوروبيون أن يصدروا كميات عظيمة من الحبوب إلى أوروبا. كما زاد التهريب عند حدود مصر وسوريا وتمكنت قوافل العرب من تهريب البضائع التي تدفع عليها ضريبة جمركية عالية في جمارك القاهرة ودمياط.

وقد كانت البضائع التي ترد إلى القطر يدفع عنها رسوم في الإسكندرية أو دمياط. غير أن موظفي الجمارك تهاونوا في فرض الرسوم حتى تولى إدارة جمارك الإسكندرية ودمياط وبولاق رجل يدعى "حنا فجر" وهو سوري الجنسية ففرض ضرائب باهظة على شحنات مرسلة إلى ليفورنة وتريستة، كما زادت ضريبة البن في جمرك السويس زيادة كبيرة، فاستفاد الأفراد من هذا كله فائدة عظيمة وجنوا أرباحاً كبيرة.

وقد خضع التجار لأوامر الأمراء كي لا تصيبهم غرامات أو يضايقوا، كما سكت قناصل الدول الأوروبية ولم يحركوا ساكناً.

ثم إن الأمراء سعوا لدى السلطان وحصلوا منه على إذن بأن تصبح الجمارك التزاماً مقابل دفع مبلغ معين. كما أنشأ الأمراء جمركاً في رشيد سار على نهج جمركي الإسكندرية وبولاق وآخر في القصير.

الحملة الفرنسية والجمارك:

ويمكن القول بأن جميع الجمارك عدا جمركي رشيد والسويس، كانت قبل وصول الحملة الفرنسية في يد رؤساء حكومة المماليك، واستمرت الحال على هذا المنوال حتى حملة بونابرت على مصر، ولقد كان من أهم أغراض هذه الحملة الاستفادة من موقع مصر الجغرافي، وذلك بإحياء طريق مصر والبحر الأحمر للتجارة بين الشرق والغرب، ودراسة مشروع وصل البحرين بشق قناة عبر برزخ السويس، حتى تعود إلى مصر - في ظل الحكم الفرنسي - أهميتها التجارية السابقة، ويستطيع الفرنسيون أن ينافسوا تجارة الهند الإنجليزية منافسة ناجحة، فيحرموا إنجلترا من عوامل تفوقها السياسي في القارة الأوروبية.

كما حرص نابليون أيضاً على أن يشجع التجارة بين مصر والبلاد المجاورة بتسيير النقل في النيل، وحماية القوافل، وتنظيم الجمارك..على أن حالة الاضطراب التي لازمت الحكم الفرنسي مع قصر مدته وما وقع فيه من فتن وغزو ومقاومة شعبية ومقاومة مراد في الصعيد، كل هذه العوامل لم تهيئ السبل لمشروعات بونابرت، فلم تصب التجارة في مصر شيئاً من النجاح.

وفي أثناء الحملة تولى مسيو "Poussielgue" إدارة جمارك الإسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق. ووكل لبعض الكتاب الذين كانوا وكلاء لموظفي الجمارك القدماء العمل معه، وبجانب هذا كله استمر في جباية جمرك مصر القديمة.

وقد عهد إلى مسيو "Parceval" بإدارة جمرك السويس. أما جمرك القصير وقنا الذي أنشأه "أمير جرجا" فقد عهد به إلى الجنرال "Dcsaux" حينما فتح الصعيد.

وبقى العمل بنشرات "التعريفة" القديمة في كل مكان، ماعدا جمرك السويس، لأن القائد العام خفض ضريبة كل "فرد" من البن خمسة أبو طاقة (عملة مصرية في عهد المماليك).

وقد كان إيراد الجمارك في أثناء الحملة الفرنسية قليلاً جداً بسبب الحرب مع الإنجليز والأتراك التي أضعفت تجارة فرنسا في البحر الأبيض المتوسط، وبعثت الخوف في نفوس العرب وشعوب إفريقية، كما منع استيراد البضائع التي كانت تسلك طريق البحر الأحمر أو طريق قوافل السودان وفزان ومراكش.

ولم يحدث تغيير في "التعريفات" الموضوعة، غير أن رسوم أسيوط التي فرضت على البضائع الواردة من الخارج أو من البلاد التي يحتلها "مراد" أصبحت ٥٪ وفرض على البضائع الواردة من جهات أخرى ٢.٥٪. وقد شوهد أنه من الضروري التفريق بين الرسوم المفروضة على البضائع المستوردة والبضائع المصدرة، لأن طبيعة الرسوم الجمركية وطريقة فرضها تقضي بهذه التفرقة.

وليس بخافٍ أن ظلم موظفي الجمارك الذي فشا في البلاد أدى إلى فرض رسوم باهظة على الاستهلاك وعلى الصناعة، عرفت بالرسوم الجمركية الصغيرة، بيد أن المشروع الجديد الذي وضعه الفرنسيون ألغى جميع الرسوم القديمة، وقصر فرض الرسوم الجديدة على الأشياء التي تدخل مصر أو تخرج منها، فأصبحت الضريبة على الصورة الآتية:

١ - تحصل على الواردات ضريبة تتراوح بين ٥٪ و ٧٪ في الإسكندرية ورشيد ودمياط والقاهرة وأسيوط.

٢- تحصل على الصادرات ضريبة قدرها ٤٪.

ويدل هذا على أن الرسوم الجمركية قد خفضت عما كانت عليه قبل الحملة، خاصة إذا ما أسقطنا من حسابنا نفقات الجمارك التي ألغيت. على أن رسوم جمرك أسيوط ارتفعت ارتفاعاً كبيراً على تجارة البن لبعد بلاد العرب، كما ارتفعت على البضائع الهندية الواردة إلى القصير.

وقد أعفيت شحنات البضائع الواردة من الخارج من الرسوم الداخلية، إذا دفع ما فرض عليها منها عند وصولها إلى الحدود. وإذا وصلت القاهرة من غير أن يدفع عليها رسم ألزم صاحبها بدفعه.

وقد عومل المصريون معاملة الفرنسيين، فكانوا يدفعون نصف الرسوم المقررة على التجار الأجانب، بشرط أن تكون شحنات الطرفين (المصريين والفرنسيين) مرسلة إلى فرنسا أو واردة منها إلى مصر.

فلما عادت أمور البلاد إلى الأتراك المماليك بعد الحملة، وقبضوا على ناصية الحكم بها، فساءت الحالة من جديد، فزادت الضرائب وفرضت الغرامات لتستطيع الحكومة أن تسد ما يطلب منها من نفقات وأخصها مرتبات الجند خوفاً من أن يثوروا، وعاد إرهاق التجار الأجانب.

الفصل الثاني

محمد علي والسياسة التجارية

ومنذ اللحظة الأولى رسم محمد علي سياسته الجديدة، مؤسسة على أن يتصل بالقرية في الحكم، وفي كل ناحية من نواحي الإنتاج والتجارة، وهذا ما أطلق عليه سياسة الاحتكار، أي أن الحكومة تضبط التجارة الداخلية والخارجية تحت أحكام خاصة، ومراقبة دقيقة، وفي هذا التنظيم حد من مصلحة الأفراد يقابله نفع للدولة. (مذهب التجاريين).

سياسة الاحتكار:

بدأ محمد علي حوالي ١٨١٠م بجمع الضرائب عيناً خاصة الغلال من الصعيد، واستمر على ذلك فترة أعلن بعدها امتلاكه للأرض، وأصبحت أدوات الإنتاج في يده كما رأينا، واستدعى هذا أن ينظم العلاقة بينه وبين الزراعيين في الإنتاج، فرسم سياسة الاحتكار التي هي في الواقع تمس التجارة الداخلية قبل التجارة الخارجية.

نظم محمد علي علاقته مع الزارعين على أساس أن كل فلاح يورد إلى "شونة" الحكومة كميات معينة من الغلات الزراعية صيفية كانت أو شتوية أو نيلية.

قد أعد محمد علي شوناً حكومية واختار لها أمكنة مناسبة بحيث تكون قريبة من "موردات" النيل التي أعدها كي يسهل تسويق وجمع المحصولات من الفلاحين في

هذه الشون، ومنها تحمل إلى موردات النيل التي تستخدم في نقل تلك الغلات. وعين في كل شونة موظفين مسؤولين عن إدارتها وهم "ناظر وباشكاتب" وقباني كيال وسمسار، ولكل من هؤلاء عمل خاص يقوم به، ورئيس هؤلاء جميعاً ناظر الشونة، وهو الذي يتصل بالفلاحين عند توريد السلع الزراعية ويحميهم من غدر الكيالين والقبانيين والسماسرة عند تعيين رتب القطن أو الكتان، وكذلك يتصل بمعاوني "الموردات" ورؤساء المراكب النيلية عند تسلم تلك الأرزاق لشحنها ونقلها إلى الجهات التي تأمر الحكومة بنقلها إليها.

كان على الفلاحين في القرى أن يوردوا محصولاتهم وفق إعلام يأخذه الفلاح من صراف قريته ليورد بمقتضاه ما يحمله إلى الشونة، وإذا ما حضر الفلاح إلى الشونة ومعه الإعلام المذكور يقوم الناظر ومعه المكيال أو القباني بكيل أو وزن ما ورده الفلاح، بحيث لا يطفف الكيل أو الميزان فيغبن الفلاح، ثم يدون ما ورد بظهر الإعلام ويختم بخاتم الناظر ليوفي الفلاح حقه بمقتضاه ويغادر الشونة إلى قريته أو بلدته مباشرة بعد أن يورد محصوله ويتسلم إعلامه. وقد يؤذن له بالمبيت فيها إذا كانت قريته أو بلدته بعيدة ويصعب عليه العودة في يومه، ولا يسمح لخدمة الشونة أن يأخذوا منه شيئاً بغير حق.

وقد يحدث أحياناً أن يوكل فلاح أو جماعة من الفلاحين وكيلاً عنهم بدلاً من أن يذهبوا إليها جميعاً، وكان على كل وكيل أن يورد غلة كل فرد باسمه لأنه إذا وردها باسم غيره أو باسمه هو عد في حكم السارقين وعوقب بضربه بالسوط تأديباً له.

وكانت الحكومة تقرر تسعيرة تنظم بها المعاملات، وتضبط حركة السوق التجارية، وكان مجلس الشورى يتولى تقدير التسعيرة الحكومية بعد الاستئناس بآراء ذوي الخبرة، ويقوم "الديوان الخديوي" بإذاعتها ونشرها في الجهات المختلفة للعمل بها.

وكان "المحتسب" هو الأغا الذي يراقب السوق، واستمرت وظيفته في عصر محمد علي كما كانت في العصر السابق له، إلا أن عصر محمد علي كثرت فيه التنظيمات التجارية واتبعت فيه سياسة تجارية معينة جعلت وظيفته في نطاق ضيق.

تسعيرة مشتريات الحكومة من الفلاحين:

وضعت هذه التسعيرة وقيدت في دفتر الشونة، تشتري الحكومة على أساسها المحصولات، فإذا ورد الفلاح للشونة محصولاته قدر ثمنها بمقتضى هذه التسعيرة، ثم يقيد المبلغ في "العلم" الذي يعطي للفلاح ليتسلم به الثمن من الصراف.

تسعيرة تبيع بها الحكومة للأهالي:

وكانت أعلى من تلك التي تشتري بها كي تستطيع أن تغذي الخزانة بما تربحه، وشملت هذه التسعيرة الغلال والحبوب التي تباع في "الوكالات" والرقع لغذاء الأهالي في القاهرة، وكذلك تسعيرة المنسوجات والمصنوعات الحكومية التي يبتاع الأهالي بمقتضاها ما يلزمهم.

تسعيرة تبيع بها الحكومة للتجار المصريين:

وكانت بلا ريب أغلى من التسعيرتين السابقتين، ونورد فيما يلي جدولاً يصور لنا التسعيرات المختلفة في صورة واضحة:

نوع المحصول	الكيل أو الميزان	الثمن الذي تدفعه الحكومة للفلاح أو القوافل	الثمن الذي تبيع به الحكومة للاستهلاك المحلي	الثمن الذي تبيع به الحكومة للتصدير
	أقة	قرش	قرش	قرش
القمح..	الأردب ١٤٥	٢٧	٥٦	٩٠
الذرة..	الأردب ١٤٥	١٦	٢٧	٦١
الفول..	الأردب ١٤٥	١٨	٣٢	٤٦
الشعير..	الأردب ١٤٥	١٨	٣٢	٤٦
حمص...	الأردب ١٤٥	٣٦	٦٠	٧٠
الأرز..	الأردب ٢٢٥	٦٠	-	٢٧٠ } ٢٤٧
الملح..	الأردب ٢٤٠	١ } ٣/ ٤	٣	٤ } ٥
الشمع...	القنطار ٤٤	٥٠ } ٣٠٠	١٠٠	١٢٥ } ٤٥٠
الحناء..	القنطار ٤٦	٢٩	القنطار ٤٤ أقة	٨٢
السكر..	القنطار ٤٤	٤١	-	١٥٠ } ٥٠٠ المكرر
الروم..	الأقة	٣ } ١٥	٦	-
الزبدة..	الرطل	١ } ٢٥	١ } ٧٥	-
البن اليمني	القنطار ٤٤	٣٠٠	-	٧٠٠

نوع المحصول	الكيل أو الميزان	الثمن الذي تدفعه الحكومة للفلاح أو القوافل	الثمن الذي تبيع به الحكومة للاستهلاك المحلي	الثمن الذي تبيع به الحكومة للتصدير
القطن المنسوج	-	٢٠٠	-	٥٨٠ ‏-‏ ٦٠٠
القطن المغزول..	بالأقة	٦	-	٩
قطعة نسيج	طولها ٣٢ ذراعًا وعرضها ٢.٥	٤٦ ‏-‏ ٤٢	٤٢	-
المناديل المطبوعة	-	٣	٥	-
منديل ملون لليد	-	١٠ ‏-‏ ٥٠	١٦	-
الكتان...	القنطار ٤٤ أقة	٧٤	-	١٨٠
النيلة...	الأقة ٤٠٠ درهم	٣٥	-	٧٥ من النوع الأول ٦٥ من النوع الثاني ٥٩ من النوع الثالث
جلد الجاموس ×	-	٢٥	-	١٢٤
جلد العجل ×	-	١٩	-	٦٥
الحصير..×	بالقطعة	١٥	-	٤٠
الزمبيل..×	بالعدد	٣٥	-	٥٠
الورد...	-	القنطار ٣٠	الناتج من القنطار ٣٠٠	-
الحيوانات...	تشتري الحكومة من الفلاحين حيواناتهم بأقل من ٤٠٪ عن الثمن الذي يدفعه المشترون الآخرون			
(×) وضعت هذه العلامة أمام السلع التي أعطيت التزاماً				

وكان يراعى في تقدير التسعيرة كميات المحصول وحاجة السوق المحلية والطلب الخارجي، فإذا زاد الإقبال ارتفعت التسعيرة، وإن زاد المحصول عن الحاجة كان الثمن رخيصاً، وقد شدد في الأخذ بالتسعيرة ومراعاة تنفيذها، ومن خالف العمل بها يعاقب عقاباً شديداً ليكون عبرة لغيره.

تجارة الصادرات:

أما التسعيرة التي كان يعمل بها في بيع المحصولات لتصديرها إلى الخارج فكانت تبحث في "ديوان التجارة" ويوافق عليها المجلس ثم تنفذ، وربما كانت التسعيرة التي يباع بها أوامر فردية نتيجة أسئلة أو استفهام "بوغوص" وزير التجارة عما يتبعه فيأمره محمد علي ببيع المحصولات بأسعار معينة. كما كان بوغوص يقوم ببيع صفقات بالمزاد للحصول على أعلى سعر يمكن الوصول إليه.

وقد تولى الوكلاء التجاريون الذين عينهم محمد علي البيع في معظم موانئ الدول الكبرى التي يتعامل معها مثل تريستة والآستانة وأزمير وليفورنة ومرسيليا ولشبونة ولندن. كما كان له وكلاء في امبراطوريته وكذلك في بمباي بالهند.

وكان عقاب التجار المخالفين المصدرين منهم والموردين ألا تعاملهم الحكومة، كما حرمت على التجار الآخرين والموظفين والأعيان مساعدتهم في أعمالهم التجارية، وإلا حرم هؤلاء التجار أيضاً من معاملة الحكومة وعوقب الموظفون والأعيان لمخالفتهم لتلك الأوامر.

سياسة البيع:

كانت لهذه السياسة طرق ترمي إلى أهداف معينة وأهم هذه الطرق:

١- أنه يجب على الموظفين المختصين بإدارة دواوين البيع أن يتجسسوا ويعرفوا أحوال التجار ومقدرتهم المالية لئلا تضيع أموال الحكومة، وإلا حصل المبلغ الذي يعجز التاجر المفلس عن سداده من الموظف المسؤول.

٢- أنه حرم على الأهالي بيع محصولاتهم بعضهم لبعض قبل موعد الحصاد.

٣- أن محمد علي يهيمن على حركة التجارة الداخلية هيمنة تامة.

البيع بالنسبة أو الأجل:

اتبعت هذه الطريقة في عصر محمد علي، فإن التجار كانوا يشترون ما يريدون سواء بالتسعيرة التي تحددها الحكومة أو بطريقة المزاد ويدفعون جزءاً من الثمن والباقي يدفع بعد مدة يتفق عليها بمقتضى سندات أو تحويلات.

وقد تدعو الحال أحياناً إلى أن يتفق محمد علي مع بعض التجار على بيع محصولات معينة بسعر محدد، على أن يتسلم الثمن منهم أولاً حتى إذا ما حل وقت جمع المحصولات أخذوا ما اشتروه.

الفصل الثالث

التنظيم القضائي للفصل في المنازعات التجارية

لم يكن هناك في الفترة الأولى من حكم محمد علي قاعدة أو قانون لتحصيل الديون التي على التجار، إذ كان تحصيلها يجري بمقتضى أوامر يصدرها محمد علي إلى موظفيه، أو يرسل أحياناً إلى هؤلاء الموظفين أمراً بتشكيل لجنة من اثنين أو ثلاثة من التجار للإطلاع على حساب التجار، وفحص الأسباب التي أدت إلى خسارتهم وأعجزتهم عن دفع ديونهم.

وقد شكلت اللجان التي تفصل في هذه الأمور من الرعايا أو من الأجانب، على حسب جنسية التاجر الذي يراد فحص دفاتره.

وسلك في تحصيل الديون من التجار الممتنعين طريقة خاصة، هي إصدار أوامره بالقبض عليهم لامتناعهم عن دفع ديونهم، وكان يقرر الجزاء وهو الحبس أو القيد بالأغلال أو الجلد والتعذيب، وذلك فوق إلزام التاجر بدفع المبلغ الذي عليه. ثم إن العقوبة ما كانت توقع على التاجر إلا بعد عرض أمرها عليه وتخييره، وكان يقضي أحياناً ببيع ممتلكات التاجر وملابسه ليوفي من ثمنها ما على التاجر من ديون، لا فرق في ذلك بين رعاياه والرعايا المشمولين بالحماية الأجنبية. أما المنازعات التي كانت تقوم بين التجار أنفسهم فكانت تعرض على مجالس التجار لدراستها، ثم تفحص دفاتر التجار وتصدر الأوامر والأحكام حسب الأصول المرعية بين التجار فيما يقع من مخالفات.

مجلس تجار القاهرة:

إن أول مجلس للتجار أنشئ في القاهرة سنة ١٨٢٦م وهي السنة التي أنشئ فيها ديوان التجار بالإسكندرية، وكان مجلس التجار بالمحروسة يتألف من تاجرين من الأتراك وثلاثة من المصريين وتاجرين من المغاربة وآخرين من الإغريق الشرقيين ومثلهما من اليهود، أما رئيس المجلس فتاجر تركي يدعى "عمر شريف أغا" "تجار باش مصر".

أنشأ محافظ دمياط مجلساً على غرار مجلس تجار القاهرة ويرأسه أحد كبار التجار للفصل في المنازعات التي تقع بينهم.

مجلس تجار الإسكندرية:

وتألف في الإسكندرية مجلس من التجار للفصل في المنازعات والدعاوى التي تقع بين التجار، وكان رئيس هذا المجلس "السيد أحمد الغربي" وأعضاؤه الشيخ مصطفى الصحن ومحمد شرارة والسيد إبراهيم من التجار المسلمين، والخواجات توسيجه وأنطون عيد من الأروام، وتلكي وتورتو من المستأمنين، وكانت نتيجة أحكامهم تقدم لديوان مصر وديوان الإسكندرية.

وعمل هذه المجالس هو الفصل في المنازعات التي تقع بين الرعايا أو بين الرعايا والأجانب. وكان بالمحروسة "المجلس الأوروبي" وهو خاص بالمنازعات بين الأوروبيين أو الأوروبيين والرعايا، فألغاه محمد علي وأحال قضاياه على مجلس تجار المحروسة كما رأينا.

ديوان التجارة بالإسكندرية:

عندما اهتم محمد علي بشؤون التجارة منذ السنوات الأولى من حكمه – حينما كان يبيع القمح لإنجلترا ابتداء من سنة ١٨٠٩م وما بعدها - أنشأ قلماً يسمى "قلم التجارة" ليشرف على الحركة التجارية، وكان هذا القلم في أول الأمر صغيراً يخضع لديوان الخزينة

المصرية ومقره القاهرة، ولما نمت التجارة واتسعت دائرتها وزادت المعاملات التجارية مع البلاد المختلفة، وكثرت أعمال هذا القلم، وكشف محمد علي عن سياسته التجارية التي رسمها وهي سياسة الاحتكار، أنشأ ديواناً للتجارة مستقلاً في ٢٦ من صفر ١٢٤١ (١٨٢٥ م) وجعل مقره الإسكندرية، وعين الخواجة بوغوض يوسف ناظراً عليه، يديره ويرتب أموره، ويتصل بالتجار الأجانب والمصريين، من كبار المصدرين والمستوردين.

اختصاص ديوان التجارة:

وكان ديوان التجارة همزة الوصل بين التجار والمصدرين والحكومة أو هو الإدارة الحكومية التي يستطيع التجار أن يتعاقدوا معها لشراء الصفقات خاصة محصول القطن والقمح وغيرهما من الغلات المصرية التي تصدر إلى الأسواق الأجنبية ولهذا عد هذا الديوان الإدارة المهيمنة على حركة الصادرات المصرية.

وقد تدخل هذا الديوان في أمر التسعيرة وإتمام صفقات البيع سواء بالتسعيرة أو بالمزاد أو البيع في الخارج، كما كان يتولى كتابة العقود التجارية مع التجار سواء كان البيع نقداً أو نسيئة (بالأجل).

كسب محمد علي في هذه الفترة (١٨١٠م- ١٨٤٠م) أسواقاً جديدة بفتحه كريد وبلاد الشام، وأصبح له ميدان واسع وأسواق كثيرة في كريد والشام والحجاز والسودان فأفاد واستفاد، أفاد من حيث تنظيم مواد تلك الجهات وزيادة الإنتاج وتحسين مقومات التجارة من نقل وعملة وتمويل وائتمان، واستفاد أسواقاً احتكر إنتاجها وحصل على سلعها كالبن والسنامكي والصوف والجواري وغيرها من بلاد العرب. والصمغ والسنامكي والجلود والصوف والنيلة والأخشاب والقطن والماشية من بلاد السودان، والحرير والنيلة والزيتون والأخشاب والحيوانات من الشام، والأغنام وزيت الزيتون من كريد.

وكل هذا كان مصدر ثروة عظيمة للحكومة في عصر محمد علي، نظمها واستفاد منها مقابل تصدير منتجات مصر من قمح وأرز وفول ومصنوعات مصرية ترسل إلى تلك الأسواق فيخفف الضغط التجاري عن سوق الإسكندرية ويحول تجارة هذه الأصقاع إلى مصر، وتلك ناحية هامة نجح فيها محمد علي فخلص التجارة من أيدي الأجانب كالفرنسيين في بلاد الشام والإنجليز والأمريكان في بلاد العرب.

ولم يكن ازدهار التجارة المصرية قد وصل إلى هذه الآفاق فحسب، بل امتد إلى أسواق الآستانة والبلاد التركية، وهذه وإن كانت أسواقها قائمة منذ الحكم العثماني في مصر، إلا أن ازدهار التجارة وزيادة السلع المصرية، كل هذا دعا إلى أن تتوجه تركيا إلى سوق مصر لتحصل على كل ما تريد منها للمخصصات السلطانية أو الأسطول والجيش من أرز وغلال وبن وبارود إلخ.

وقد أمد محمد علي الأسواق التركية بما احتاج إليه الشعب التركي وكان له "قبو كتخدا" أي وكيل لدى الباب العالي مهمته إدارية وسياسية، فيخبر محمد علي بكل ما له علاقة بالحكم في الآستانة وما يتصل بالدوائر الرسمية وغير الرسمية خاصاً بمحمد علي، وكان أيضاً يقوم بالمسائل التجارية فيبيع في الآستانة ما يرسل من الغلال إليه ويشتري بثمنه أخشاب أو حيوانات أو سلعاً يعهد إليه بشرائها.

وقد ازدهرت التجارة في هذه الفترة فصدر القمح والأرز والشعير والفول والقطن والكتان والمواد المصنوعة إلى الدول الكبرى في العالم كإنجلترا وفرنسا والنمسا وروسيا. وكان يقابل حركة الصادرات حركة مثلها في الواردات شملت المواد الأولية كالفحم والحديد والمواد المصنوعة كالمنسوجات على اختلاف أنواعها ولوازم الجيش والأسطول والمصانع.

وكانت مصر مخزناً للسلع التي تأتي من ممتلكاتها من بلاد الحجاز والسودان والشام مثل البن والصمغ والسنامكي ونحوها مما يعاد تصديره، وعرف هذا النوع من التجارة

باسم "تجارة إعادة التصدير" أو "التجارة العابرة" أو "تجارة الترانسيت" وقد نجم عن ازدهار التجارة على هذه الصورة أن أصبحت صادرات مصر أعظم من وارداتها، فكان الميزان التجاري في صالحها.

الاتفاقات التجارية:

وكان لزاماً على محمد علي أن يخضع لهذه الاتفاقات التجارية والتعريفات الجمركية، إلا أنه لم ينفذها لأنه قرأ بين سطورها امتيازات الدول الأجنبية، وهي ترمي إلى هدم سياسته التجارية. لهذا لم يعمل بها، ولكنه اضطر إلى أن يتدرج في تنفيذ الالتزامات بعد أن حدد مركزه السياسي مع السلطان في معاهدة لندن سنة ١٨٤٠، واستمرت فترة التدرج حتى آخر عهده في الحكم تقريباً، وقد بدأ بذلك بعد ٢٦ من مايو سنة ١٨٤٢م وهو اليوم الذي أعلن فيه اتباعه للحرية التجارية، ولكنه نفذها بأسلوبه الخاص وهو أسلوب التدرج.

وكانت الرسوم المقررة هي ١٢٪ على الصادرات المصرية و ٥٪ على الواردات، ولا شك أن هذا غبن للتجارة المصرية، ورواج للصناعات الأوروبية، ولم ينفذ محمد علي الرسوم المقررة إلا بعد أن حددت التعريفات الجمركية في سنة ١٨٤٧م، وظل العمل بها حتى مارس سنة ١٨٥٥م.

إدارة الجمارك:

التزم محمد علي بإدارة الجمارك المصرية من السلطان مقابل ٧٥٠٠ كيس (منها ١٥٠٠ لالتزام دار صك النقود) في سنة ١٢٢٥هـ (١٨١٠م) وزيدت إلى ٨٥٠٠ كيس في سنة ١٢٣٦هـ (١٨٢١م) ثم رفعت إلى ٩٥٠٠ كيس في سنة ١٢٣٨هـ (١٨٢٣م) تدفع لخزانة البحرية العثمانية على أقساط متساوية كل ثلاثة أشهر.

وكانت الجمارك المصرية في الإسكندرية ودمياط ورشيد على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وفي السويس والقصير على ساحل البحر الأحمر. وفي القاهرة جمارك بولاق وباب النصر ومصر القديمة. وحصلت الرسوم على التجارة الداخلية "الرسوم الدخولية" كما وجد أيضاً جمرك في أسوان لضبط تجارة السودان.

وقد أدار محمد علي هذه الجمارك التزاماً، ماعدا جمرك السويس والقصير. فقد أدارهما المحافظ الذي يعين في كل جهة. وكان لكل جمرك أمين ومباشر ومعاون وصراف وكاتب يقوم بالعمل، سواء أكانوا من موظفي الحكومة أم من رجال الملتزم، وكانت الحكومة تعين قواسين تحت تصرف الملتزم لتحصيل رسوم الجمرك المتأخرة من التجار.

عقد الالتزام:

كان ينص في عقد الالتزام على الجمرك الذي التزمه الملتزم، وكان يتسلم مع العقد صورة من التعريفة الجمركية "الديوانية" وتبلغ إدارة الخزينة بكل هذه الإجراءات، وباسم الملتزم الجديد كي تطالبه بأقساط الالتزام المتفق عليها.

الرسوم الجمركية:

كانت المعاهدات التي تعقد بين تركيا والدول الأوروبية تنص على النسب المئوية التي تجبى على البضائع. وألحقت بهذه المعاهدات التعاريف الجمركية، وهي قوائم يبين فيها أنواع البضائع وأثمانها في جميع الدول. وبمقتضى هذه "التعريفات" تحصل الرسوم الجمركية، وقد اعتيد تغييرها كل سبع سنوات مرة وقد يستمر العمل بها، وبذلك تتجدد "التعريفات" والمعاهدات قائمة.

وحينما التزم محمد علي بإدارة الجمارك المصرية لم يحترم هذه التعريفات، ولم ينفذها، لما فيها من امتيازات مجحفة بالتجارة المصرية ونفع وتسهيل للتجارة الأوروبية، وكان هذا كله سبباً اعتمد عليه قناصل الدول في رفع شكاياتهم إلى الباب العالي من هذا النظام.

وعلى هذا فرض محمد علي رسوماً جديدة سميت "الحادثة، أو المستحدثة، أو المستجدة، وجعلها في شكل "تعريفة ديوانية" كان يعطيها للملتزم ويتعهد بتنفيذها وعلى أساس ذلك تجرى المزايدة في التزام الجمرك.

ورسم محمد علي سياسته الجمركية الخاصة به، التي أودعها في "تعريفته الديوانية" كان أساسها تشجيع تصريف الغلات المصرية بتخفيض ضريبتها لتروج الأصناف الزراعية بين التجار المصدرين وكانت رسومها قليلة . أما منتجات المصانع المصرية - وهي مصانع الحكومة - فقد حماها محمد علي بعدم أخذ رسوم جمركية عليها، وتحصيل رسوم مضاعفة على الواردات الأجنبية - ومعظمها مواد مصنوعة - فتصبح أسعار المصنوعات المصرية معتدلة، فتروج بين التجار في السوق الداخلية. كما شجع محمد علي الصناعات المصرية في أسواق الخارج، وأوجد لها أسواقاً فسيحة في امبراطوريته في الحجاز والشام والسودان.

أما الغلات الزراعية والسلع التي كانت تأتي من أجزاء الامبراطورية المصرية كالحجاز والسودان والشام فكانت تؤخذ عليها ضريبة، إذا ما صدرت من مصر إلى الخارج، كتصدير البن والصمغ والسنامكي والحرير.

مكافحة تهريب البضائع:

حاول محمد علي بشتى الطرق أن يكافح تهريب البضائع خاصة من جهة السويس طريق الشام والقصير وفي الإسكندرية.

وكان التهريب يتخذ طرقاً مختلفة، فكان العساكر والضباط يدسون البضائع وسط أمتعتهم عند سفرهم إلى الشام أو الحجاز، فعالج محمد علي ذلك بأن أعطاهم تذاكر مبينة فيها أمتعتهم. أما التهريب عن طريق البحر فقد كافحه بأن أعد له نظاماً يقضي بأن مراكب الصيد (المدونة أسماؤها في كشوف الإسكندرية) لا تخرج بأية حال من مرساها من بعد غروب الشمس حتى مشرقها، وأقام عليها حراساً ومن خالف ذلك يعدم حرقاً.

محمد علي ينفذ التعريفة التركية:

رأينا أن محمد علي لم ينفذ ما كانت ترتبط به تركيا مع الدول الأجنبية من ناحية المعاهدات التجارية والتعاريف الجمركية، إلا أنه بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م (التي تعد ضربة قاصمة في سياسة محمد علي) وبعد أن حددت علاقته مع تركيا تحديداً سياسياً واضحاً وأصبحت التبعية لتركيا لازمة عليه، بدأ ينفذ ما ارتبطت به تركيا مع إنجلترا سنة ١٨٣٨م وهي المعاهدة التركية الإنجليزية التي عقد على نمطها معاهدات مع فرنسا وبلجيكا وهولندا وبقية الدول الأوروبية. وقد أوجبت هذه التبعية أن ينفذ محمد علي ما جاء في المعاهدات من رسوم جمركية على الصادرات والواردات إلا أنه لم ينفذ هذه الرسوم دفعة واحدة وإنما أخذ ينفذها تدريجياً حتى سنة ١٨٤٧م وهي السنة التي تحددت فيها التعريفات الجمركية للعمل بها مرة أخرى، وسارت الإدارة الجمركية على هذه التعريفات حتى سنة ١٨٥٥ م منفذة لها تنفيذاً دقيقاً.

رسوم الصادرات:

قضت التعريفات الجمركية بأن السلع والبضائع المصرية يدفع عنها ٩٪ وإذا ما صدرت من الميناء زيد عليها ٣٪ رسم التصدير، أي أن السلعة المصرية إذا ما وصلت إلى ميناء كالإسكندرية يدفع عليها ١٢٪ حتى تخرج إلى الأسواق الخارجية وفي هذا إرهاق للسلع المصرية، إذ لا يساعد ذلك على تشجيع حركة الصادرات لأنها تتحمل ضريبة عالية، فتصل إلى الأسواق ورسومها مرتفعة من غير تفرقة بين الإنتاج الزراعي والصناعي وكان من جراء ذلك أن ماتت الصناعة القومية المصرية لأن الواردات نافستها في السوق المحلية وكسبت هذه السوق.

رسوم الواردات:

قضت الاتفاقات بأن الواردات الأوروبية وغيرها لا تزيد ضريبتها عن ٥٪ فإذا وصلت إلى الميناء دفع عنها الرسم ٣٪ وإذا ما نقلت داخل الإسكندرية حصل عنها رسم ٢٪ وبذلك فرقت المعاهدات بين الواردات والصادرات ونجم عن ذلك أن الصادرات لم تنتشر في السوق الخارجية.

رسوم تجارة المرور:

أما تجارة المرور فكانت خاصة بشركة الهند لتسهيل نقلها بين الهند ولندن عن طريق مصر، وكانت إدارة شركة الهند بالإسكندرية تحصل ٠.٥٪ جمرك مرور حسب الاتفاق المعقود بين الشركة ومحمد علي.

ولم تتدخل إدارة الجمرك في جمرك "الإمرارية" بشكل ما غير أنها كانت تفحص أختام الصناديق الواردة وتراقب سلامتها.

الفصل الرابع

الدول الأجنبية واحتكار التجارة

وفي أثناء هذه الفترة التي ازدهرت فيها التجارة حاولت الدول الأوروبية أن تضغط على تركيا لإلغاء الاحتكار (١٨٣٥م-١٨٤٢م) وحاول محمد علي أن يحتفظ بسياسته التجارية.

وضغطت إنجلترا على تركيا وعقدت معها معاهدة تجارية في ١٦ أغسطس سنة ١٨٣٨م في "بلطة ليمان" وحصلت فيها على الامتيازات الآتية:

١- معاملة بريطانيا معاملة الدولة المفضلة فتدفع الرسوم التي يدفعها غيرها إذا كانت أقل مما فرضته المعاهدة.

٢- إلغاء الاحتكار وإقرار حرية التجارة.

٣- فرض ضريبة قدرها ١٢٪ على الصادرات و ٥٪ على الواردات.

ورغب السلطان في تنفيذها في مصر ولكن قامت حرب الشام الثالثة بين محمد علي والسلطان فظلت المعاهدة غير نافذة وكثرت شكاوى التجار حتى بعد انتهاء الحرب، وعقد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م واتفاقية سنة ١٨٤١م وكان محمد علي يتعلل بأعذار مختلفة لعدم تنفيذها لضرورة تنفيذ بعض مشروعاته أولاً، ثم ضرورة التدرج في إلغاء الاحتكار كيلا تتأثر حالة البلاد الاقتصادية إذا أخذت بتنفيذ المعاهدة دفعة واحدة.

وقد نفذت المعاهدة أولاً على الواردات ولم تتم حرية التصدير إلا بعد ذلك حينما أعلن محمد علي للقناصل إلغاء الاحتكار في ٢٦ مايو ١٨٤٢م، على أن محمد علي رغم إعلان القناصل بهذا، اتبع سياسة التدرج التي صمم عليها من قبل.

السياسة التجارية من سنة ١٨٤٢م إلى سنة ١٨٤٨م:

كان للتجار في هذه المرحلة الحق في التجول في القرى والاتصال بالفلاحين وشراء محصولاتهم دون اعتراض عليهم من جانب الحكومة، غير أن محمد علي كان يعاقب الفلاحين الذين يقومون بهذا العمل، كما حرم الأخذ بطريقة البيع مقدماً، تلك الطريقة التي سببتها المنافسة التجارية بينهم، وجعلت التجار يتسابقون إلى دفع حصة من ثمن المحصولات قبل ميعاد جنيها أو حصدها.

ولم يكن إعلان الحرية التجارية على هذه الصورة بالأمر السهل على محمد علي لأنه حرم الحكومة من الأرباح التي كانت خزانة الدولة تجنيها ثم كيف يعالج الشعب هذه الحالة الجديدة وكيف تستقيم هذه السياسة وأدوات الإنتاج الزراعي (وهي الأرض) لا تزال ملك الحكومة.

وقد مهدت سياسة " التدرج" إلى هذه السبل لتوسيع حقوق الفلاح في الأرض التي يزرعها إذ لابد له أن يملك أدوات الإنتاج أو يتمتع ببعض الحقوق في الأرض التي يزرعها ولهذا صدرت لائحة في ٢٦ من ذي القعدة سنة ١٢٦٢هـ ترتب زراعة الأراضي بطريقة الاشتراك مع "الميري" على أن يصبح للفلاح جزء من المحصول يتمتع به ويدخله في التجارة المحلية، ثم أحست الحكومة أخيراً أن نظام التدرج في إلغاء الاحتكار لا يتفق وملكيتها حق الانتفاع أو أن حبسها هذا الحق في يدها ليس من مصلحة الإنتاج في شيء ولا مما يشجع الزارعين على الاستمرار في العمل المنتج، فتنازلت الحكومة عن بعض القيود التي قيدت بها أداة الإنتاج الزراعي وهي الأرض، وأصدرت لائحة ٢٣ من ذي الحجة سنة ١٢٦٣هـ (١٨٤٦م) خاصة بامتلاك الأرض وهي اللائحة الأولى من لوائح تمليك الأرض في تاريخ مصر الحديثة، وأباحت هذه اللائحة حق الانتفاع وحرية التعامل بالأراضي التي يزرعها الفلاح، فله أن يتنازل عنها لغيره أو يرهنها إلى غير ذلك من التصرفات التي تدخل في حدود الحرية الاقتصادية.

السياسة الضريبية في عهد محمد علي:

استطاع محمد علي أن ينظم قواعد الضرائب العقارية بعد أن ألغى نظام الالتزام ومسح الأراضي الزراعية في القطر سنة ١٨١٣م، وألغى ملكية حق الانتفاع سنة ١٨١٤م وحدد علاقته مع الفلاحين بأن يزرعوا الأرض ويوردوا للحكومة غلاتها في الشون المعدة لذلك. وألغى محمد علي ديوان "الرزنامة" وأحال اختصاصه- وهو ضبط إيرادات الحكومة ومصروفاتها- إلى ديوان خاص "ديوان الخزينة المصرية" وهو بمثابة وزارة المالية الآن.

كانت الأراضي موزعة على الفلاحين، وعليهم ضرائب يجب دفعها للحكومة، وكانت الحكومة تضمن هذه الضرائب بتوريد المحصولات إلى شونها، فتخصم من ثمنها ما على الفلاح من ضرائب والتزامات قبلها، وبهذا استطاعت الحكومة أن تزيل من أمامها طبقة الجباة وهم الملتزمين، وأن تتصل بالقرية، وأن تعين الحكام الذين يشرفون على إدارة المزارع والشون الحكومية، وأن تضمن بتوريد المحصولات كلها إلى شونها جباية الضرائب دفعة واحدة.

واستمر نظام جمع الضرائب العقارية على هذا النحو مدة طويلة من عصر محمد علي، حتى أصدر في سنة ١٨٣٩م أمراً بتضامن أفراد القرية في دفع الضرائب، كما تتضامن قرى كل مركز في جمع الضرائب المقررة عليه، وتضامن كل المراكز في كل مديرية، وبهذا تضامن مجموع القوى الإنتاجية في دفع الضرائب المقررة للحكومة.

ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن حرب الشام قد دعت إلى انخراط كثير من الفلاحين في سلك الجندية، أو أن بعض من لا يقوى على الإنتاج من الأفراد هجر القرية بدلاً من أن يتعرض للعقوبة المقررة في حالة عدم إيفائه بكل التزاماته.

وكان الفلاح الذي لا يدفع الضريبة، أو لا يفي بها عليه للحكومة من التزامات تنزع منه أرضه فضلاً عن تعرضه للعقوبة وتعطي للفلاح القادر على الزراعة، وتقدر الضريبة العقارية في عصر محمد علي بنحو ٥٠٪ من إيرادات الحكومة، وهذا إلى جانب ما يدره احتكار تجارة الغلات الزراعية من أرباح، تقرب من ٢٥٪ من مجموع الإيرادات.

ولما وجد محمد علي ما في نظام "التضامن" من ظلم وفساد وتواكل، أقدم على إلغائه في سنة ١٨٤٠م، ووضع نظاماً جديداً لضمان جباية الأموال سمي نظام "العهد" وهو أن تعطي جباية المال في القرى لمن يتعهد للحكومة بأداء الأموال المقررة. فالمتعهدون مسؤولون أمام الحكومة عن جمع الضرائب التي تعهدوا بها، ولهذا كانوا يقدمون للحكومة ضماناً للتعهد. ولكن هذا النظام كان يشبه إلى حد ما نظام الالتزام لا من حيث فرض ضريبة على الفلاح، ولا من حيث ملكيته مساحة الأرض، بل من حيث إنه مكن المتعهد من أن يكون له سلطة على ناحيته، غير أن هذا النظام كان ينطوي على استخدام الظلم والتعسف في جمع الضرائب ولذلك ألغاه عباس الأول سنة ١٨٥٠م .

وهكذا تجمعت للدولة موارد كثيرة منها الضرائب العقارية وأرباح التجارة وإنتاج المصانع والمكوس الجمركية وعوائد الدخولية، ورسوم الملح والصيد والتمغة وفرضة الرؤوس وضرائب الحرف، فأصبحت الدولة قادرة على مواجهة برامج الإصلاح والإحياء دون أن تلجأ إلى القروض الخارجية.

ونورد هنا ميزانية تقريبية على سبيل المثال، وهي إن لم تكن أرقامها مضبوطة (لأن الإحصاءات التي تنشر عن هذا العصر لم تكن مضبوطة) تقرب الحقيقة إلى الأذهان، ولقد أورد مسيو "مانجان" ميزانية سنة ١٨٣٣م على النحو الآتي:

مفردات الإيرادات	جنيه مصري
الميري أو الضريبة العقارية	١.١٢٥.٠٠٠
فرضة الرؤوس أو ضريبة النفوس	٣٥٠.٠٠٠
العوائد على (نقل) الحبوب	١٨٠.٠٠٠
ربح الحكومة من احتكار الأصناف الآتية: القطن والنيلة والأفيون والسكر والنبيذ والأرز والعسل والشمع والحناء وماء الورد وبذر الكتان وبذر السمسم وبذر الخس وبذر القرطم والحرير والزعفران والنترون	٤٥.٠٠٠
ربح الحكومة من نسج الأقمشة وبيعها	٦٠.٠٠٠
ربح الحكومة من فابريقة الأثواب الحريرية	٤٧.٥٠٠
دخل الحكومة من جمرك الإسكندرية وعوائد الدخولية	٣٠.٠٠٠
دخل الحكومة من جمرك بولاق	٣٦.٧٦٥
دخل الحكومة من جمرك مصر القديمة	٨.٠٠٥
دخل الحكومة من جمرك السويس والقصير	٣٠.٠٠٠
دخل الحكومة من جمرك أسوان	١.٢٥٠
رسوم الصيد من بحيرة المنزلة	١٣.٧٥٠
رسوم الملح والمراكب والأسماك	١٧.٥٠٠
المكوس على البضائع السورية الآتية عن طريق البر	١.٠٠٠
ربح الحكومة من الجير والمصيص والأحجار	٢٢.٠٠٠
عوائد السوائل	١٣.٨٥٥
عوائد السنامكي	١.٣٠٠
عوائد الصيد في بحيرة قارون والمكوس بالفيوم	٢.٩٠٠

مفردات الإيرادات	جنيه مصري
ربح الحكومة من الجلود الخام والمدابغ	٣٥.٠٠٠
المكوس في الوجه البحري والقبلي	١٦.٠٠٠
عوائد الراقصات والموسيقيين والحواة	٢.٥٠٠
عوائد المواشي المخصصة للذبح	١٠.٠٠٠
عوائد صب الفضة والمقصب	٢.٢٥٠
رسم الزكاة (بيت المال)	٦.٠٠٠
عوائد الوكائل والأسواق في الوجه القبلي	٢.٠٠٠
رسوم الخرج	٣.٢٠٠
ربح دار الضرب (الضربخانة)	١٥.٠٠٠
ربح بيع الخضر	٤٠.٠٠٠
ربح بيع النطرون	٣.٠٠٠
ربح بيع الصودا بالإسكندرية	١.٥٠٠
ربح بيع ملح النشادر	٢.٠٠٠
عشور النخيل	٢٠.٠٠٠
أجرة السفن المملوكة للحكومة	١٢.٠٠٠
جملة الإيرادات	٢.٥٢٥.٢٧٥

مفردات المصروفات	جنيه مصري
ميزانية الجيش	٦٠٠.٠٠٠
مرتبات كبار الضباط ورؤساء المصالح	١٩٩.٠٠٠
مرتبات الكتبة والموظفين	١٠٠.٠٠٠
معاشات الملتزمين الذين ألغى التزامهم	١٧.٥٠٠

مفردات المصروفات	جنيه مصري
نفقات قافلة الحج	١١.٠٠٠
نفقات الفابريقات وأجور العمال	١٠٨.٠٠٠
نفقات إنشاء القصور والفابريقات والقناطر والجسور	٩٠.٠٠٠
أموال مرسلة إلى الآستانة	٦٠.٠٠٠
ميزانية موظفي البحرية ورجالها	٣٠٠.٠٠٠
مخصصات لصيانة قصور نائب الملك (محمد علي)	٥٠.٠٠٠
مخصصات غذائية للموظفين	٢٥.٠٠٠
أجور الخيالة الترك غير النظاميين (الباشبوزق)	٣٢.٥٠٠
أجور العربان	٢٥.٠٠٠
معاشات للأرامل والنساء	٣٠.٠٠٠
أشياء مجلوبة من أوروبا برسم الفابريقات	٧٥.٠٠٠
مصاريف ترسانة بناء السفن في بولاق	١٦.٥٠٠
نفقات المدرسة الحربية	٧.٥٠٠
نفقات المطبعة	١.٧٥٠
نفقات إنشاء السفن الحربية	٧٧.٥٢٥
مخصصات غذائية لنائب الملك	٢٠.٠٠٠
ثمن مهمات حربية	٧٠.٠٠٠
المعينات لعلف الجمال والبغال والخيول	١٢.٥٠٠
مخصصات لإدارة مشتريات الكشمير والأجواخ والأثواب الحريرية والجواهر إلخ	٧٠.٠٠٠
جملة المصروفات	١.٩٩٩.٠٧٠

ويلاحظ مسيو مانجان أن ميزانية المصروفات غير كاملة إذ أنها لم يذكر فيها ميزانية المدارس عامة وكذلك نفقات البعثات الحكومية، كما يلاحظ أن الوفر بين المصروفات والإيرادات هو وفر نقدي في الخزانة المصرية، وإنما كان إيراد السنة ينقص عن تقدير الميزانية بسبب عدم سداد كل الضرائب العقارية، أو خسارة أو إفلاس بعض التجار الذين يتعاملون مع الحكومة فلا يدفعون كل ما عليهم لها، أو تقع اختلاسات في الجمارك، يقل بسببها دخل الحكومة.

وعلى الرغم من عناية الحكومة بالدقة التامة في تقييد مختلف الإيرادات والمصروفات في سجلات خاصة، لم يكن ثمة تمييز بين خزينة الباشا (أي أمواله الخاصة) وخزينة الدولة.

وظلت الضريبة العقارية أهم مصدز للإيرادات، وتلتها أرباح الحكومة من الاحتكارات. وقد اطردت الزيادة في إيرادات الحكومة من عام إلى آخر كما يتضح من البيان الآتي:

السنة	الإيرادات	الضريبة العقارية	أرباح الاحتكارات
	جنيه مصري	جنيه مصري	جنيه مصري
١٨٢١	١.١٩٩.٧٠٠	٦٦١.٥٤٠	٣٤٠.٠٠٠
١٨٣٦	٣.٠٦٤.٣٠٠	٢.٠٣٤.٥٠٠	٧٥٠.٠٠٠

ويمكن أن نلاحظ مدى زيادة إيرادات الدولة بمقارنة الميزانيات الآتية:

السنة	الإيرادات	المصروفات
	جنيه مصري	جنيه مصري
١٨٢١	١.١٩٩.٧٠٠	٩٤٧.٠٠٠
١٨٣٣	٢.٥٢٥.٢٧٥	١.١٩٩.٠٧٠
١٨٤٢	٢.٩٢٦.٦٢٥	٢.١٧٦.٨٦

ولم يلجأ محمد علي إلى عقد قروض من الدول الخارجية، وإذا لم تتوازن مصروفاته وإيراداته، واحتاج إلى المال، كان يبيع غلاته الزراعية وأهمها القطن إلى التجار مقدماً قبل جني المحصول، وبهذه الطريقة استطاع أن يتفادى الأزمات المالية المؤقتة التي كان يتعرض لها(*).

(١) بناء على ما قاله السيد عبد الله النديم

المـــدة	عدد التلاميذ	النفقة عليهم	ما خص التلميذ الواحد
		جنيه	جنيه
من مارس سنة ١٨٢٦-١٨٤٣م	١٧٧		
سنة ١٨٤٤م	٧٠	٩٤٦١٥	١٣٥١.٦
من سنة ١٨٤٥-١٨٤٨م	٤٣	٥٥٥٧١	١٢٩٢.٣
الجملة	٢٩٠	٢٧٣٣٦٠ جنيه	المتوسط جنيه٩٤٢.٦

(٢) بناء على ما قاله جورجي بك زيدان

المـــدة	عدد التلاميذ	النفقة عليهم	ما خص التلميذ الواحد
		جنيه	جنيه
من سنة ١٨١٣-١٨٤٩م	٣١٩	٢٢٣٢٣٣	٦٩٩.٨

(*) لم أحصل على معلومات كافية عن النفقات الحكومية التي صرفت على البعثات العلمية في عهد محمد علي إلى أوروبا وإنما أنقل ما ورد في كتاب الأمير طوسون "البعثات العلمية في عهد محمد علي".

(٣) بناء على ما قاله أمين سامي باشا

المدة	عدد التلاميذ	النفقة عليهم	ما خص التلميذ الواحد
		جنيه	جنيه
ما بين ١٨١٣ و ١٨٢٦م	٢٨	٣٠٠٠٠	١٠٧١.٤
من سنة ١٨٢٦ - ١٨٤٣م	١٧٧	١٢٣١٧٤	٦٩٥.٩
سنة ١٨٤٤ م	٧٠	٩٤٦١٥	١٣٥١.٦
من بعد سنة ١٨٤٤ م إلى نهاية عهد محمد علي	٤٤	٥٥٥٧١	١٢٦٣
الجملة	٣١٩	٣٠٣٣٦٠	٩٥١

(٤) بناء على ما قاله الأمير عمر طوسون

المدة	عدد التلاميذ	الجهة	النفقة عليهم	ما خص التلميذ الواحد
			جنيه	جنيه
ما بين ١٨١٣ و ١٨٢٦م	غير معلوم	إيطاليا وفرنسا وإنجلترا	غير معلوم	غير معلوم
١٨ مارس سنة ١٨٢٦ - سبتمبر ١٨٣٦م	١١٤	فرنسا	٨٥٣٨٨.٤	٧٤٩
يناير سنة ١٨٣٠ - ١٨٤٣	٦٤	النمسا وإنجلترا وفرنسا	٣٧٧٨٥.٦	٥٩٠.٤
بعثة سنة ١٨٤٤ م وملحقاتها	٨٠	فرنسا	٩٤٦١٥	١٨٢.٧
من سنة ١٨٤٥ - ١٨٤٨ م	٥٣	النمسا وفرنسا وإنجلترا	٥٥٥٧١	٤٨.٥
الجملة	٣١١		٢٧٣٣٦٠	٨٧٩

الفصل الخامس

السـياسـة الزراعيـة

الإنتاج الزراعي يفيد ويستفيد ولا يكون ذلك إلا بالاستيلاء على أرض " الوسية" و " الوقف" ثم مساحة الأرض وقيدها في دفاتر معلومة حتى يستطيع أن يضع أسساً للزراعة ويدخلها تحت نظام جديد يتفق وسياسته في الحكم.

هكذا مرت المرحلة الأولى ومحمد علي يهدم أسس النظام القديم ويكشف عن مسائل ملكية الأرض وضبط مساحتها ويحقق المسائل المالية والاقتصادية ليقيم نظاماً جديداً.

أرض الوسية:

أبطل محمد علي نظام الالتزام، ذلك النظام الذي خضعت له مصر عدة قرون ليقطع اتصال الملتزمين بالقرية ويقلل من نفوذهم وكان ذلك في سنة ١٨٠٩ ثم أراد بعد ذلك أن يستولى على أرض "الوسية" ليحصل على الفائدة التي كان يتمتع بها الملتزم وليس هناك ما يبرر التمتع بها ما دام نظام الالتزام في دور الانحلال.

فعارض أمراء المماليك القاطنون في الوجه القبلي وأبوا أن يخضعوا لهذه الأوامر فأخضعهم محمد علي بالقوة وأمر إبراهيم "أمير الصعيد" في ذلك الوقت، بأن يقبض على أوسية الملتزمين، فنفذ إبراهيم ذلك بحيث لم يبق لأربابها شيء منها أما بعض الملتزمين من المماليك الذين خضعوا للباشا فقد رتب لهم مرتبات قليلة من "الروزنامة".

وعلى هذا مسح إبراهيم أرض الصعيد كلها وضبطها لديوان الباشا بلا فارق بين أرض الملتزمين وأرض الأمراء.

أرض الفلاحين:

استمر الباشا يشدد في جمع الضرائب في ربيع الآخر سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) حتى يقلل من سلطة الملتزمين وهيمنتهم على القرية فأخذ الموظفون ومعهم الجند ينزلون القرى ويلازمون الفلاحين ويضيقون عليهم الخناق حتى يحملوهم على الدفع بأي طريق كان، أو أن يتنازل الفلاح عن حصته وحقه فيها بالمبيع (الفراغ) للديوان، ويتألم الشيخ الجبرتي لذلك فيقول "ولا يبقى بيده (الفلاح) ما يقتات به ويصبح فقيراً لا يملك شيئاً".

أرض الوقف:

هي الأرض التي أوقفت على أعمال البر والمساجد، وكان يشرف على إدارتها علماء الأزهر، وفي ربيع الأول سنة ١٢٢٧ هـ (سنة ١٨١٢ م) أمر محمد علي بأن تفرض عليها الضرائب ثم سلخ إدارتها من هؤلاء المشايخ، واستولى عليها ليكون له دخلها، كما استولى على أوقاف الكنائس أيضاً، على أنه لم يتعرض لمبدأ الوقف في ذاته، وإنما أراد أن يسيطر على إدارة الوقف، ليحسن أحوالها وينظم شؤونها ويدعم نظمها، ويزيد من دخلها، وذلك بأن يشرف عليها وينفق على ما تحتاج إليه ثم يستولى على فائضها بدلاً من استيلاء المشايخ عليه، فعارضه المشايخ في ذلك، ولكنه أقنعهم بأن الخليفة "السلطان" هو صاحب الحق في إدارة الوقف وأمور المسلمين وهو نائب الخليفة في مصر فهو أولى بذلك منهم.

مساحة الأرض "تاريع" سنة ١٨١٣م

أمر محمد علي بعمل "تاريع" عام للأراضي الزراعية سنة ١٨١٣م، لضبطها وتقييدها في السجلات، ووجدت معظم قوائم المساحة القديمة في "دفتر خانة" المديريات مبصومة بخاتم الباشا، موضحة مساحة أراضي كل ناحية من نواحي المديريات، وكان الغرض من هذا العمل توجيه الزراعة، الوجهة التي تريدها الدولة، وسيرها في الطريق الذي يرسمه لها محمد علي.

إلغاء حق الانتفاع (١٨١٤م):

أصدر محمد علي أمره بأن صاحب حق الانتفاع في الأراضي الزراعية، وكان قد سافر إلى الحجاز ليقود الجيش بنفسه بعد رجوع ابنه "طوسون" منها، وترك شأن إعلان هذا الأمر إلى "الكتخدا" (وكيل الباشا) فأعلن للناس في أول فبراير سنة ١٨١٤م "بأن الأراضي الزراعية كلها ملك للباشا" (أي ملكية حق الانتفاع) فاجتمع الناس والمشايخ بعد سماع هذا النبأ وطلبوا إلغاء هذه الأوامر، فرد "كتخدا" عليهم بأن هذه أوامر سيد البلاد التي لا يجرؤ أحد على ردها.

وبمرور الزمن أصبح من المستحيل التمييز بين ما كان للمماليك أو للأوقاف أو للفلاحين.

النظام الجديد :

فكر محمد علي في تنظيم هذه الأملاك الشاسعة، فوضع لها نظاماً تسير عليه، فوزع الأرض من جديد على الفلاحين، وعلى مشايخ القرى، ومنح أقاربه وأفراد أسرته "الجفالك" وأعطى العربان "الأبعاديات" وأعلن نظام "الاحتكار" سنة ١٨١٦م.

وبعد انتهاء الاحتكار منح الفلاح حق "الانتفاع" بموجب لائحة سنة ١٨٤٦م، وعلى هذا كان النظام الجديد موضوعاً لسياسة معينة هي حرمان الفلاح من حقوق الانتفاع للاستيلاء على المحصولات وجمعها لتنظيم الاحتكار التجاري.

أرض الفلاحين:

كان لزاماً على محمد علي أن يفكر في نظام توزيع الأرض على الفلاحين، ليرتب زراعتها، ويقرر أساليبها، خاصة بعد أن وضع يده على مساحة القرى "مفصلة"، فوزع على الفلاحين الأطيان، وأصاب كل فلاح ثلاثة أفدنة أو أربعة أو خمسة على حسب مساحة زمام كل قرية وتعداد سكانها من الشبان القادرين على العمل، وأعطى في كل

ناحية لمشايخ كل بلد ٤٪ من أرضها، وأعفاها من كل ضريبة، مساعدة لهم على القيام بنفقات إضافية كإيواء جباة الأموال الأميرية الذين كانوا يمرون في بلادهم، ومقابل ما كانت الحكومة تكلف به أولئك المشايخ مما سمى "مسموح المصطبة".

وحرم على الفلاحين البيع والشراء والتصرف في الأراضي التي يزرعونها أو تأجيرها أو السماح لغيرهم بزراعتها، وأن من مات عن حصته أو رزقته حبست وأضيفت إلى الديوان ولو كان له أولاد أو ورثة.

حق الرقبة في أرض "الجفالك":

هي الضياع الواسعة التي أنعم بها "محمد علي" على أفراد أسرته، فكانت "جفالك" إبراهيم و "جفالك" عباس، وهكذا. وكانوا يتمتعون بها ويملكونها ملكية تامة.

حق الانتفاع في أرض "الأبعاديات" لرجال الحاشية والمقربين:

هي الأرض التي كانت مستبعدة من مساحة الأراضي الزراعية سنة ١٨١٣، ولم تدخل فيها وقد أنعم بها على رجال حاشيته والمقربين إليه منذ ٤ جمادي الآخرة سنة ١٢٤٥ هـ (١٢٢٩ م) فمنحهم حق ملك منفعتها وذلك بأن تكون وقفاً عليهم وعلى ذريتهم.

وفي ٢٧ شوال سنة ١٨٥٢ هـ (١٨٣٦ م) تصبح منفعة الأرض لورثتهم فإن لم تكن لهم ذرية فلمماليكهم البيض وإن لم يكن للنعم عليهم ذرية ولا مماليك آلت الأرض إلى الحرمين الشريفين. وبعد صدور هذا الأمر أعطى المنعم عليهم تقاسيط من الروزنامة وحججاً من المحاكم الشرعية متضمنة الشروط التي يحتوي عليها الأمر السابق.

أرض (العريان):

كانت العرب أيام الحكم العثماني (وفي الفترة التي زاد فيها الاضطراب وانتشر الفساد في إدارة القرية وكثر ظلم الملتزمين والمماليك) مصدر قلق واضطراب يغيرون على القرية،

وقت حصاد الغلات ويحصلون على غذائهم منها، ثم يولون وجوههم شطر الصحراء، وهكذا كانت قوة الصحراء تسطو على الوادي والقرى والحقول.

ورأى محمد علي أنه إذا أعطى العرب أرضاً خصبة يزرعونها، فإن ذلك يحملهم على الاستقرار ليزرعوا أرضهم ويباشروها فتحسن حالتهم الاقتصادية والمالية ويكفوا عن شن هذه الغزوات على القرى، ويزيد من ثروة البلاد الزراعية بإضافة إنتاج جديد وضم مساحة جديدة للأراضي الزراعية وعرفت هذه الأراضي بأرض "العربان" وقد قضى الأمران المؤرخان في ٨ جمادي الآخرة سنة ١٢٤٩هـ (١٨٣٤م) ٢٣ صفر سنة ١٢٥٧هـ (١٨٤١م) بأن الأراضي التي تعطى إليهم تكون في حواجز الجبال بالبلاد التي يفضل بها شيء من الأطيان زائداً عن حاجة الأهالي من الأراضي المعمورة أو المستبعدة.

أرض الأجانب:

منح محمد علي بعض الأجانب الذين كانوا في خدمته أرضاً وقد حرم عليهم في ذلك الوقت امتلاك أرض في الامبراطورية العثمانية إلا بموجب الفرمان السلطاني الذي صدر في عهد إسماعيل سنة ١٨٦٧م، وقد نتج عن هذه المنح التي منحها الأجانب في مصر في عصر محمد علي أن أصبح لهم حقوق في الممتلكات الثابتة قبل أن يصدر الفرمان السابق.

إلغاء نظام الاحتكار وإقرار حق الانتفاع:

استطاع محمد علي أن يوجه نظام ملكية الأرض وفق برنامجه الزراعي الذي رسمه، ولكن عندما اعترضت الدول الأوروبية عليه، وعقدت إنجلترا معاهدة بلطة ليمان سنة ١٨٣٨م لإلغاء الاحتكار ثم تكرر ذلك في معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م واتفاقية سنة ١٨٤١م، فرأى أن يتدرج في إعطاء الحرية الاقتصادية في الزراعة والتجارة.

الفصل السادس

الصناعة في أواخر القرن الثامن عشر

ازدهرت الصناعة المصرية في عصر سلاطين المماليك، والآثار الباقية من هذا العصر كالمدارس والمساجد والأسبلة، وكذلك المصنوعات الجميلة الدقيقة المحفوظة بدار الآثار العربية، لا تزال تشهد برقي الصناعة في ذلك العصر.

ولما جاء العصر العثماني بدأت الصناعة تتدهور، فقد أخذ السلطان سليم معه إلى عاصمة ملكه نحو ٥٠٠ عامل من المصريين، فكان ارتحالهم هذا نذيراً بارتحال الرقي الصناعي عن البلاد، إذ نشأت – فضلاً عن هذا العامل – عدة عوامل أخرى تضافرت على إضعاف الصناعة، ونورد هنا أهمها:

١- تحول مجرى التجارة بين الشرق والغرب على أثر كشف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح وما ترتب على ذلك من ضعف التجارة المصرية.

٢- انتقال مقر الخلافة ومركز الحكم من القاهرة إلى الآستانة، فانعدمت مظاهر الترف وأبهة الحكم وعظمة الملك.

٣- تعسف نظام الضرائب الذي وضعه الولاة العثمانيون، إذ كان كل همهم أن يحصلوا لأنفسهم على ما تناله أيديهم من أموال القطر، فأغفلوا تنمية موارد البلاد ولم يعملوا على تثمير الثروة فيها.

٤- إهمال الولاة العثمانيين ضبط أمور الحكم، وتوانيهم في نشر لواء الأمن، وهما الدعامتان اللتان بدونهما لا تقوم للصناعة قائمة.

٥- اضمحلال الجيش والأسطول المصري على أثر فقد البلاد استقلالها، وما ترتب على ذلك من اضمحلال الصناعات الحربية تدريجياً.

وقد نجم عن هذا النظام الجديد نتائج سيئة، أعظمها أثراً انصراف أرباب الفنون إلى تقليل النماذج الواردة من الآستانة، فانحطت الفنون العربية التي كانت - حتى ذلك العهد - محافظة على طبعها الأصلي غير مشوهة بعنصر أجنبي مع ارتقائها في مدارج الاتقان. فلما وقع ذلك الانقلاب تخلى الفن العربي عن مكانه، وحلت محله أساليب يرجع أصلها إلى فن بيزنطي غير معتنى به، لم تلبث آثاره أن ظهرت في المشيدات والمباني، كما ظهرت في كثير من الفنون والصناعات الأخرى.

الصناعات المنزلية:

كانت العوامل السابقة معولاً قوياً في هدم الكثير من الصناعات الأهلية الراقية، ولكن بقيت الصناعات المتصلة بحياة الناس والتي لا تصنع في المصنع الكبير، الذي لم يعرف في مصر حتى هذا العصر، إذ كانت الصناعات كلها صناعات صغيرة في منازل الصناع في القرى، وفي مصانع منتشرة في أحياء المدن الكبيرة.

واعتمد أغلب المصريين على الصناعات المنزلية، فالفلاحون وهم السواد الأعظم في الأمة كانوا ينسجون لباسهم بأنفسهم.

وأهم الصناعات في ذلك العهد، صناعة النسيج، وطحن الغلال، وضرب الأرز وتبييضه، واستفراخ البيض، وصناعة السكر، وعصر الزيت من السمسم والكتان.

١- صناعة النسيج:

انتشرت صناعة المنسوجات القطنية والكتانية والصوفية في بلاد كثيرة من صعيد مصر، وفي قرى ومدن الوجه البحري لسد حاجة الأهالي، ويحدثنا كتاب " وصف مصر" عما كتبه علماء الحملة عن الصناعات المنزلية المنتشرة في القطر، فنجد المنسوجات

القطنية للملابس والشيلان وغيرها في قنا وجرجا والقاهرة والمحلة الكبرى وطنطا ومنوف والمنصورة وغيرها من المدن الكبيرة، وكذلك المنسوجات الصوفية (خاصة في الفيوم) حيث يكثر استعمال "الأحرمة"، ثم المنسوجات الحريرية التي كانت رائجة في المحلة الكبرى، وتجلب مادتها من الحرير الخام من الشام، ويقوم بدور الوساطة تجار دمياط. ووجد في دمياط مصنعان لصنع الحرير الذي استخدم جزء منه في صنع "البراقع"، التي أكثر السيدات من استعمالها في ذلك العهد.

ويتصل بصناعة النسيج صناعة منسوج أشرعة المراكب التي كثر استعمالها في النيل.

وكان لهذه الحرفة شيخ من أقدم المشايخ يتولى الاهتمام بشؤونها ويفصل في المنازعات القائمة بين أفراد حرفته ويوزع عليهم الضرائب المفروضة شأنه في ذلك شأن شيخ أية حرفة أخرى.

٢- صناعة مواد البناء والأدوات المنزلية:

كانت هذه الصناعة على بساطتها هامة، فقد سدت فراغاً كبيراً لحاجة سكان القطر إلى منتجاتها، فالأواني الفخارية كانت رائجة، واشتهر بصناعتها صعيد مصر خاصة قنا. والهضاب التي تحف بالوادي المزروع أخذ منها الجير للبناء بعد إعداده، وصنع أيضاً الطوب والآجر لبناء المنازل.

وكانت صناعة الحصير من الصناعات الرائجة المنتشرة، إذ لا غنى عن منزل من منازل الريف عن استعمالها في أغراض كثيرة، وما يصنع منها في الشرقية وفي المنوفية يعد من أمتن وأجمل أنواعها، إذ كان الصناع يزركشونها بتلوينها بألوان مختلفة.

٣- صناعة الزيوت المختلفة:

يعد الزيت من المواد الدهنية الهامة في غذاء الإنسان، وكان يعصر في معاصر خاصة يديرها الحيوان، أو تستخدم فيها قوى الإنسان، ويحصل عليه من بذور الخس والقرطم والسمسم والكتان.

وكانت كل منطقة تستخدم نوعاً من الزيت حسب إنتاج المحصولات الزراعية، فمنطقة إسنا تستخدم بكثرة زيت الخص، وفي مصر الوسطى يكثر استعمال زيت الكتان والسمسم وكذلك في مصر السفلى.

وكان العرقي يقطر في كثير من بلاد الصعيد، ولكنه كان للاستهلاك الشخصي. أما الخل فاستخدم في صناعة العنب الجاف والبلح.

٤- صناعة السكر:

كان قصب السكر ينمو في بعض جهات من صعيد مصر، وأقيمت المصانع لاستخراج السكر منه في منطقة فرشوط وأخميم، لكن المصانع كانت أولية تستعمل معصرة من الخشب لعصر عيدان القصب، ثم يغلى العصير مرات في أفران أعدت لذلك، وبعد غليه يوضع في قوالب ثم يجفف بعد ذلك، أما صناعة تكرير السكر فلم تكن معروفة حتى هذا الوقت.

٥- الصناعات الأخرى:

وكانت هناك صناعات أخرى أهمها صناعة ماء الزهر، وتشتهر به منطقة الفيوم، وصناعة ملح النشادر "الأمونياك"، وتفريخ البيض، وعمل الملح من الملاحات، والنطرون، ودبغ الجلود، وصناعة الحلوى. وكانت صناعة الحديد وصهره والنحاس من الصناعات الرائجة.

نقابات الحرف:

كانت الصناعة محلية بسيطة، فصاحب العمل يشترى المواد الأولية اللازمة لعمله، ثم يقوم على إعدادها في محله ومعه أبناؤه وصبيانه، وهو الذي يتولى بيعها بأسواق المدينة أو القرية.

وكان المشتغلون بحرفة ما يجتمعون في "طائفة" أو نقابة لينظروا في كل الشؤون المتعلقة بحرفتهم، فنقابة الحرفة الخاصة بنسج "الأقمشة" مثلاً كانت تعنى بالخيوط التي تستعملها في النسج، وأنواع الصباغة، وغير ذلك مما تتطلبه هذه الحرفة.

وقد جرت الأمور على أن يختار أعضاء الطائفة أو النقابة رئيساً أو شيخاً عليهم، تتصل به الحكومة في كل ما يخص الحرفة ورجالها، كتوزيع بعض الضرائب التي تطلبها الحكومة منه، وفض المنازعات بينهم، وتأديب المخالفين منهم، وكان لا يسمح لعامل أن يزاول حرفة ما إلا إذا أذنت له نقابة الحرفة، فإذا درب على العمل "صبياً"، ثم أراد أن يصير "معلماً"، ذهب به معلمه إلى شيخ الطائفة وشهد له بأنه أجاد الصنعة، فينادي به الشيخ معلماً، ويصبح عضواً في نقابة حرفته، وكان لكل حرفة مشايخها وأعلامها وطبولها وتمثل في الاحتفالات العامة كمولد النبي ووفاء النيل ورؤية هلال رمضان.

الحملة الفرنسية والصناعة المصرية:

في فترة الحملة الفرنسية، عندما انقطع الاتصال بين مصر وفرنسا- بسبب موقعة أبي قير البحرية - اشتدت حاجة الجيش الفرنسي إلى الملابس والأحذية والذخائر، فاضطر الفرنسيون إلى إصلاح دار الصناعة التي كان مراد أنشأها في الجيزة لصنع المدافع والسفن، وأقيمت عدة مصانع بحي الناصرية، ومنها مصنع النسيج "القماش"، وآخر لصنع الصابون والصباغة والشمع ودبغ الجلود وآلات الطباعة وصك النقود، وأقيم معمل لصنع البارود في الروضة، وكذلك أنتجت بعض مصانع الآلات الدقيقة والنظارات والمجاهر للمهندسين والعلماء وآلات الجراحة للأطباء.

وقد اندثرت هذه الصناعات على أثر خروج الفرنسيين من مصر، ولكنهم خلفوا وراءهم تعاليم جديدة في الصناعة المصرية.

وكان الجوخ ينسج أيضاً في دمنهور وبعض مصانع أخرى في القاهرة، ويستعمل في نسجه الصوف الردئ، ويرسل ما ينسج منه إلى مصنع بولاق لدهنه وصبغه وكبسه.

تبييض القماش:

أنشئت "مبيضة" بين بولاق وشبرا على شاطئ النيل، لتبييض المنسوجات التي تصنع في المصانع الأخرى طبقاً للأساليب الحديثة، وقد طبعت فيها منسوجات "الشيت" وكانت جميلة الصنع ثابتة الألوان إلى حد أن أصبح الأهالي يفضلونها على أنواع "الشيت" الواردة من الخارج، وقد أنشئت في بعض البلاد "مبيضات" أخرى لهذا الغرض.

صناعة الطرابيش:

أنشأ محمد علي مصنعاً "للطرابيش" في فوة سنة ١٨٢٤م، وأحضر من بلاد المغرب مهرة الصناع، وعلى أيديهم حذق المصريون هذه الصناعة. وكان الصوف الذي يستخدم في هذا المصنع من صوف الأغنام الأسبانية، ولذلك كان إنتاجه جيداً وصدر بعضه إلى الخارج.

صناعة السكر:

أنشأت الحكومة في سنة ١٨١٨م مصنعاً للسكر في بلدة الريرمون بمركز ملوي تولى إدارته إنكليزي، ثم أنشأت مصنعين آخرين بالصعيد أيضاً، وكان السكر الذي يصنع في هذه المصانع يرسل إلى مرسيليا حيث يكرر، ثم أنشأت الحكومة معملاً لتكرير السكر في الريرمون في سنة ١٨٣٠م.

الصناعات الحربية:

أنشئ في بولاق أكبر مصنع لسبك الحديد وصناعة قطع الغيار وصناعة الآلات وإصلاحها، وكان يديره المهندس الإنجليزي "جالوي"، وهو من كبار المهندسين الأجانب الذين كانوا في خدمة محمد علي. كما أسس مصانع الأسلحة والذخيرة لصنع البنادق والمدافع والسيوف، وجعل نماذجها وتصميماتها على أحدث ما كان يصنع في

أوروبا، فجلب أنواعها الحديثة بأسعار مرتفعة، وقلدها لتصنع منها كميات بالآلاف بنفقات معتدلة.

بناء السفن:

نشأت حركة بناء السفن الشراعية في بولاق وأسيوط خاصة، وذلك لنشاط حركة النقل في النيل والترع لنقل الغلات المصرية، ولقد بلغ عدد قطع الأسطول النهري ١١١٥ مركباً تنقل نحو ثلث مليون أردب من الغلال دفعة واحدة، كما أسس ترسانة الإسكندرية، وبنى الأسطول البحري الذي كان من أكبر العمارات البحرية في البحر الأبيض المتوسط.

صناعات أخرى:

أنشئت مصانع النيلة والصابون، ومدبغة للجلود برشيد، ومصانع تبييض الأرز، ومصانع للزجاج والصيني والشمع، ومعاصر للزيوت، ومصنع للورق.

زوال نقابات الحرف:

أخذ نظام نقابات الحرف يتلاشى شيئاً فشيئاً منذ عهد محمد علي، ويرجع السبب في ذلك إلى إدخال الصناعات الكبيرة من جهة، وتدخل الحكام في تقليل سلطة مشايخ الحرف من جهة أخرى، حتى قضى على الطوائف قانونياً على أثر الأمر العالي الصادر في ٩ يناير سنة ١٨٩٠م، وقد قرر حرية احتراف أية مهنة، ولم يشترط أن يكون المحترف صبياً متمرناً، فمهد بذلك السبيل لقيام الجماعات الاختيارية بين أهل الحرفة الواحدة، وكذلك نقابات العمال الحالية.

ولم يقف إنتاج الصناعة عند حد كفاية الجيش والشعب، وإنما نرى من تجارة الدولة ما يدل على أن الفائض من استهلاك الشعب لهذه الصناعات كان يدخل في دائرة أسواق الامبراطورية المصرية، فكثيراً ما حملت قطع من أسطوله البحري المنسوجات

المصرية من أنواعها المختلفة، مثل البفتة والشيت إلى بلاد الحجاز واليمن وبلاد الشام لتباع في تلك الأسواق، وكانت رائجة حقاً.

ومما يزيد الصناعة قوة أن بيت "بريجز" - البيت البريطاني - صدر كميات من خيوط غزل القطن المصرية إلى مغازل الهند ومغازل إنجلترا نفسها.

ولم يغفل محمد علي أمر حماية الصناعة من المنافسة الأجنبية، ففرض رسوماً مرتفعة على الصناعات الأجنبية، وأعفى أو خفض الرسم على الصناعات المصرية. فكان رسم الصادر منها ٥٪ ورسم الوارد ١٢٪ وبذلك شجع تصدير منتجات البلاد الصناعية.

واستمرت هذه النهضة الصناعية مدى عشرين عاماً تسد حاجة الجيش والشعب معاً، ويدخل في دائرة التجارة ما يفيض منها عن حاجة الاستهلاك القومي، فاستمدت الدولة من ذلك قوة مادية اعتزت بها، ورسمت لها الخطوط الرئيسية للاستقلال الاقتصادي، والاكتفاء الذاتي.

وعلى هذا النحو عاشت مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر في أفق جديد لنهضة جديدة، بنيت على نظم حديثة، إذ أن الصناعة لم ترق، والإنتاج لم يزد فحسب، وإنما استطاعت أن تتذوق نتائج الثورة الفكرية التي أوحت بالثورة الصناعية لخدمة الشعب وإشباع حاجاته، وتوحيد الجهود والدأب على العمل، وزيادة الحركة، وغير هذا مما جعلها دولة ناهضة، إذ حشدت جهود الأمة للحصول على أكبر نفع من مواردها الطبيعية ممثلاً في الحقل، وتوجيه الجهد البشري إلى حذق الفن، ودفع الطاقة البشرية إلى العمل في المصنع؛ ذلك كله ليكون جنة ودرعاً ليحصن الجيش ويكفي حاجته وترفع روحه المعنوية، وكان من جراء كل هذا أن الدولة أصبحت في وعي اقتصادي، دفعها إلى معرفة أن الحياة لا تقوم إلا بالعمل، وأن العمل لا ينتج إلا بالتعاون وتضافر القوى لخدمة القومية المصرية.

رأي الأجانب في النهضة الصناعية:

كتب كثير من الأجانب عن النهضة الصناعية المصرية فوصفوها، وذكروا مراكز الإنتاج ومقاديره، وقالوا إن مصر بلد زراعي لم تنجح فيه الصناعة:

واستدلوا على فشل النهضة الصناعية في نظرهم بالعوامل الآتية:

١- إن المصريين لم يتعودوا مزاولة الصناعات الكبيرة في المصانع الحديثة، فأغلب الأهالي كانوا يعملون في الزراعة، والصناع منهم يجهلون كثيراً من الصناعات الجديدة كصناعة الأسلحة والذخائر وبناء السفن، وقد تغلب محمد علي على هذه العقبة بأن ساق العمال المصريين إلى مصانعه الجديدة، وفرض العمل عليهم، وحدد لهم أجورهم، واستدعى الفنيين الأوربيين ليعلموهم ويرشدوهم إلى الأساليب الحديثة، فنجم عن ذلك كثرة التكاليف.

٢- عدم وجود الفحم والحديد بمصر، فاضطر محمد علي إلى استيراد ما يلزمه منهما من أوروبا، فكلفه هذا أموالاً عظيمة.

٣- إن الآلات في أكثر المصانع تديرها الحيوانات كالثيران والبغال، وكثيراً ما كانت تتعرض للخلل، لأن حركتها غير منظمة وإصلاحها أو صنع غيرها يكلف الحكومة مبالغ كبيرة.

٤- ومما زاد في نفقات المصانع، غذاء الماشية وأجور الرجال الذين يلاحظونها.

٥- فساد الإدارة، وشيوع الرشوة، وضياع جانب كبير من المواد الأولية من غير حساب.

وقد أدى هذا كله إلى كثرة النفقات، حتى أصبحت مصانع الحكومة عبئً عليها، وصار كثير من مصنوعاتها يكلفها أكثر مما لو استوردت من الخارج.

تسوية سنة ١٨٤١م والصناعة المصرية:

لم يكن الحقد مقصوراً على ما كتبه المؤرخون الأجانب، بل إن الدول الأجنبية (بزعامة إنجلترا) لمست قوة مصر العسكرية، وعرفت حدود امبراطوريتها التي تتعارض مع مصالح بريطانيا في الشرق الأوسط، لأن مطامعها قد زادت في الهند ومنطقة البحرين كما عرفت أن مركز مصر الجغرافي فريد في نوعه، يوصلها إلى أقرب طريق يصل بين مصانعها وبين حقول الهند. وقد لمست سرعة النقل والتجارة عن طريق شركة الهند الشرقية، واتفاقياتها مع محمد علي، وإحياء الطريق البري، وتحققت لها أهداف محمد علي السياسية بالنسبة إلى الامبراطورية العثمانية، إذ جيوشه قد اكتسحت أملاك السلطان، لأن الحكم المصري امتد من بلاد اليمن والحجاز إلى بلاد الشام، بل دخلت جيوشه معارك دامية في منطقة كوتاهية وهددت الآستانة.

وعرفت كذلك اتجاهات بعض كبار الحكام الأتراك الذين نظروا إلى قوة محمد علي كرجل الساعة الذي اتجهت إليه الأنظار، لتخليص الدولة العثمانية من أطماع الدول الأوروبية. يدل على هذا حادثة "فوزي باشا" الذي سلم الأسطول التركي في الإسكندرية لمحمد علي في حرب الشام الثالثة.

وقد بدت محاربة محمد علي لأطماع بريطانيا وتجارتها في بلاد الشام في تنبيه السلطان إلى عدم منح الحكومة البريطانية- ممثلة في شركة الشرق التجارية "لفنت كمباني"- امتياز نقل في منطقة نهر دجلة.

وبهذا وغيره تجمعت عوامل كثيرة أمام بريطانيا دلت على مدى خطر محمد علي وسياسته وحروبه وامبراطوريته لتلك المصالح، فتعارضت السياستان، واشتركت المصلحتان، فدفع ذلك بريطانيا إلى أن تؤلب الدول الأوروبية ضد محمد علي، وقد أرادت أن تضعف من شوكته، أو تقضي عليه من الناحية الاقتصادية، لأنها عرفت تمام المعرفة أن القوة العسكرية أساسها وسندها القوة المادية والاقتصادية، فلو حاربت الأساس

الاقتصادي، ومصدر المادة وقوتها التي مكنت محمد علي من إعداد الجيوش، وتجهيز الأسلحة والذخيرة، لاستطاعت بهذا العمل أن تضعف سياسته وأن تجهز عليه.

عرفت أن القوة المادية أساسها الاحتكار، وتنظيم الزراعة، وإحياء الصناعة في البلاد، فسعت إلى تحقيق الحرية الاقتصادية مع مصر، بعقد معاهدة مع سلطان تركيا في بلطة ليمان (١٦ أغسطس سنة ١٨٣٨م) بمنع الاحتكار في جميع ممالك الامبراطورية العثمانية ومنها مصر.

وفي أثناء ذلك كان محمد علي في حرب الشام ضد السلطان، فلم يخضع لهذه المعادة ولم ينفذها، واشتدت المنافسة والصراع بين محمد علي وإنجلترا، وسلكت إنجلترا طريقاً عملياً بأن ألبت عليه الدول لصده وإخضاعه من الناحية السياسية، وإلزامه بقبول اتفاقية مع السلطان بشروط معلومة، ذكرت بنودها في معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م، واتفاقية سنة ١٨٤١م التي أدت إلى الحرية الاقتصادية، بفك الاحتكار، وتقلص عدد الجيش إلى ١٨ جندي. فاضطر محمد علي إزاء هذه الاتفاقات الدولية أن ينقص الجيش، ويطلق سراح الباقين، يرجعون إلى قراهم، يعملون فيها كما كانوا يعملون من قبل، وإذا كان عدد الجيش سينقص إلى هذا الحد لضمان السلام والأمن في مناطق الشرق الأدنى، فلماذا تستمر المصانع قائمة، ولحساب من ما تنتجه من أسلحة وذخيرة وعتاد حربي وملابس عسكرية وغيرها؟

ذلك ما حدا بمحمد علي إلى التفكير في أن تلك الحركة الهائلة، وذلك الإنتاج العظيم المتصل بالجيش لا فائدة ترجى منه الآن، فعمد إلى تقليل الإنتاج، فأغلق المصانع الحربية وغيرها مما يزيد عن الاستهلاك، فسرى النقص إلى الصناعة بل أقفلت بعض مؤسساتها، وقل اهتمام الإدارة الحاكمة بها، وسرح عدد كبير من هؤلاء العمال، لأن العمل لا يتطلب وجودهم.

هكذا نرى كيف وجدت الصناعة المصرية في عصر محمد علي لهدف خاص، إذا اعتبرت أداة من أدوات الحرب، وجهازاً من الأجهزة اللازمة لاقتصاديات البلاد وسد

حاجتها، ولكننا نرى في آخر هذا العصر السكون بعد الحركة والصمت بعد الصخب والإهمال بعد العمل والجهد. فالمصانع هادئة ساكنة خيم عليها الظلام وخلت من الحركة، وقد تعود الناس أن يروا فيها حياة نابضة، وعملاً متواصلاً، وإنتاجاً تلو إنتاج. ولقد كان من قسوة القدر على هؤلاء الذين عملوا فترة طويلة بين جدرانها وآلاتها، أن يروا دواليب العمل قد توقفت وحركة الإنتاج قد ضعفت وسكنت، والشعور الوطني الدفين قد استبد به المستبدون، فحجب ضوؤه وتقلص نوره.

بيد أن هذه الحال المؤلمة، والموقف الأخير المحزن، تجاوبت أصداؤه في النفوس، فلم يقض على نغم الآلات التي تعودتها آذان العمال، ولم يضعف النشاط والتضامن والتعاون الذي كانت ثمرته ذلك الانقلاب الخطير في الصناعة. ولم يستطع الزمن بأحداثه أن ينسى المصريين أو يجعلهم يهملون نهضتهم الصناعية المباركة، فنقلوا معالمها إلى المجتمع المصري، يعملون فيه أحراراً.

الصناعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

رأينا ما انتهت إليه حال الصناعة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وما كان من أثر اتفاقية سنة ١٨٤١م، وتغيير الرسوم الجمركية التي فتحت باب التجارة للسلع الأجنبية التي غزت الأسواق، ونافست الصناعات المحلية، حتى قضت عليها أو كادت، فتحولت الصناعات الكبيرة إلى صناعات صغيرة، وهجر العمال مصانع الدولة بعد إغلاقها، وشرعوا ينشئون مصانع صغيرة تفتقر في إرسائها وبقائها إلى رؤوس أموال، وتوجيه وترشيد.

الباب الثاني عشر

أسطول محمد علي البحري

الفصل الأول

السياسة التجارية

كان هدف محمد علي منذ توليه الأمور في مصر إدخال الحضارة الأوروبية والعمران إلى البلاد. وذلك بتنشيط الحياة الاقتصادية واستغلال موارد مصر الطبيعية وكان يرمي إلى تحقيق أهدافه عن طريق بناء علاقات سياسية الند بالند مع الباب العالي كما أن وجود البحرية ذات الركائز القوية تعمل على تدعيم العلاقات بين الأمم المتحضرة كما يصل تصدير الإنتاج الفائض سواء الزراعي أو الصناعي أو الحيواني في وقت أصبح الإنتاج من مصادر إيراد الدولة.

وكانت هناك عوائق تقف في طريق بناء البحرية التي عقد الآمال عليها محمد علي لأن مصر في ذلك الوقت لم تكن لديها بحرية لأنها كانت تفتقر إلى إيجاد صناعة المهاجرين كما كانت في عوز إلى المواد اللازمة لبناء السفن وإصلاحها. والميناء الوحيد هو أكبر ميناء لديها "ميناء الإسكندرية" الذي لم يعد لاستقبال السفن الكبيرة إذ لم يكن يزيد على اثنين وعشرين قدماً مما كان يضطر السفن المحاربة الثقيلة "من نوع الغليون" إلى إنزال ما تحمله من المدافع حتى تستطيع الخروج من الميناء إلى عرض البحر.

وتاريخ البحرية المصرية في عهد محمد علي مرت بمراحل ثلاث إحداهما شراء السفن من الدول الأوروبية والمرحلة الثانية التوصية على صنعها في الموانئ الأوروبية لحسابه الخاص والمرحلة الأخيرة إنشاء دار الصناعة لبناء السفن التي شيدها في الإسكندرية.

المرحلة الأولى: ١٨١٠م - ١٨٢١م

يعتبر هذا الدور هو بناء نواة بحرية مصرية حسب الظروف التي كانت مصر تعيش فيها وهي ظروف سياسية واقتصادية. هذه الظروف أجبرت محمد علي أن ينشئ بحرية في البحرين الأحمر والأبيض.

أول ظرف وضع فيه محمد علي عندما طلب منه السلطان العثماني أن يرسل حملة للقضاء على الحركة الوهابية التي ظهرت في الجزيرة العربية. ومن خلال رؤية محمد علي للطريق البري بين مصر والحجاز طويل شاق فالطريق البري قد يكون صحيحاً عندما تجتازه الفرسان الذين يستطيعون السير فيه بعد اجتياز الحدود المصرية وعبور برزخ السويس بحذاء الشاطئ الغربي إلى ينبع وجدة ومن ثم إلى مكة والمدينة ولكن هذا الطريق قد يكون متعذراً على فرق المشاة أن يقطعوا كل هذه المسافة سيراً على الأقدام في زمن يسير بالإضافة إلى أن الحملة المصرية المرسلة إلى بلاد العرب في حاجة ماسة مستمرة إلى إمدادها بالمؤن والذخائر التي يصعب نقلها عبر الطريق البري.

وتلافياً لذلك يكون لمصر أسطول لنقل البن والمؤن والذخيرة، ولما كانت سفن هذا الأسطول عرضة لإغارة القراصنة عليها في أثناء عبورها محملة بالعتاد والرجال فقد اقتضى الأمر في التفكير في الوسائل التي تكفل الأمن في البحر الأحمر ولتبقى المواصلات مفتوحة بين الجيش الغازي في بلاد العرب وقواعده في مصر، ولم يكن إنشاء أسطول في البحر الأحمر بالشيء الجديد. فقد استرشد محمد علي في ذلك بما فعله الفرنسيون في أثناء وجود حملتهم بمصر حين فكروا في إيجاد علاقات بينهم وبين أمراء الهند عن طريق البحر الأحمر ودعاهم هذا التفكير إلى التوسع في عملياتهم العسكرية والنشاط السياسي والاقتصادي نحو الجنوب. وكان من نتائج ذلك أن أمر نابليون مهندس فيرو Feraud بأن ينشئ ترسانة في بولاق صنعت فيها مراكب حربية صغيرة ومركب من نوع القرويت ثم حملت أجزاء هذه السفن على ظهور الجمال إلى السويس

حيث تم تركيبها وإنزالها في البحر وهكذا رفعت الأعلام الفرنسية في البحر الأحمر على عدة سفن منها ميلزيمو Le Millesimo وكاستليوني Le Castiglione و تليامنتو Le Tagliamento واستطاع هذا الأسطول أن يحتل ميناء القصير ويبسط السيطرة الفرنسية على البحر الأحمر حتى ميناء جدة. ولم يقفل على هذه السيطرة سوى دخول الأسطول الإنجليزي هذه المياه من بحار الهند في يونيه سنة ١٨٠١م عندما قرر الإنجليز الاشتراك مع العثمانيين الإطباق على جيش الحملة في مصر من جميع الجهات وإخراج الفرنسيين من البلاد.

وعلى خطى الفرنسيين أمر محمد علي ببناء بحرية مصرية في البحر الأحمر وأذاع وقتئذ أن الهدف من إنشائها نقل التجارة غير أنه لا يستبعد أن يرمي إليه تهيئة الوسائل التي تمكنه من الانسحاب بسلام إذا هددت مصر بغزو من الفرنسيين أو الإنجليز أو الأتراك وأنشأ بساحل بولاق ترسانة وورشات جمع لها مهرة الصناع والعمال من الإسكندرية كما تعاقد مع صناع من أوروبا وأخذ يستولى على أنواع من الخشب كما أقام محمد علي منشآت في السويس ليتم في مينائها تركيب السفن بعد أن تصل إليها على ظهور الجمال من بولاق حيث صنعت قطع أسطول صغير نقلت إلى السويس بعد عشرة أشهر وأصبحت بولاق ترسانة لصناعة السفن وقد غادر هذا الأسطول إلى الحجاز في ٣/ ٩/ ١٨١١م.

فكان أول أسطول مصر تولى قيادته "عثمان نور الدين" ورغم صغر الأسطول إلا أنه نقل الجند والمؤن والذخائر التي تحتاج إليها الحملة المصرية في الحجاز للقضاء على الحركة الوهابية وكان لهذا الأسطول الفضل في تأمين المواصلات بالبحر الأحمر لا سيما في الجزء الشمالي من الجزيرة العربية.

أراد محمد علي أن يعزز أسطوله الصغير في تلك المياه فبنى في الإسكندرية فرقاطة تدعى "إفريقية" غادرت الميناء في إبريل ١٨١٠م إلى لندن ليتم تحويلها إلى مركب حربي

كبير كما صنع محمد علي عدة سفن من نوع هذه الفرقاطة الكبيرة للإبحار في البحر الأحمر فشرع في بناء مركب في دمياط تحمل أجزاؤه إلى السويس ولم تقف جهوده عند هذا الحد بل أنه عهد إلى سليم ثابت أحد رجاله في القسطنطينية بأن يتفاوض مع السفير الإنجليزي في العاصمة العثمانية بصدد شراء السفن اللازمة لمحمد علي فاعتذرت بعدم الاستجابة لمصر في بيع السفن لأنها لم تجد من مصلحتها أن يكون لدولة ناشئة أسطول قوي يستطيع الدخول في مياه البحار الهندية. وعرضت على محمد علي أن تضع تحت تصرفه المركب الحربي الذي يديره لحملته على الحجاز ورفض محمد علي العرض الإنجليزي لأن في قبوله دعمًا للسيطرة الإنجليزية على البحر الأحمر كما رفض اقتراحاً آخر تقدمت به إنجلترا بأن تضع في خدمته إحدى قطع أسطولها في المياه الهندية على أن يقوم محمد علي بتسليحها. إزاء ذلك اتجه محمد علي نحو الدولة العثمانية محاولاً الحصول على سفن كبيرة لأسطوله ولكن محاولته باءت بالفشل، فاضطر في النهاية إلى الاكتفاء بما كان في حوذته من السفن في ميناء السويس. وبهذا الاكتفاء ظل الأسطول المصري في البحر الأحمر أسطولاً صغيراً تنقصه الوحدات الكبيرة التي يستطيع الاعتماد عليها في مناوراته وحركاته البحرية لا سيما أن "إفريقية" لم تصل إلى السويس لأن الفرقاطة المصرية قد أزعجت رجال شركة الهند الشرقية التجارية الإنجليزية وكان يعنيهم أن يظلوا محتكرين لتجارة الهند فسعوا إلى الحكومة الإنجليزية حتى تمنع "الفرقاطة إفريقية" من الذهاب إلى السويس عن طريق رأس الرجاء الصالح وقد نجحت مساعيهم وعادت إفريقية إلى الإسكندرية في يناير ١٨١٢م. ولجأت الحكومة الإنجليزية إلى وسيلة تغطي الأثر السيء الذي أحدثه هذا التصرف من جانبها فسلحت السفينة قرقاطة بثلاثين مدفعاً من البرنز وصارت قرقاطة أول قطعة بحرية ذات شأن في أسطول محمد علي.

وكان محمد علي قد أنشأ أسطوله في البحر الأحمر لهدف سياسي وحربي. فقد أنشأ أسطولاً آخر في البحر المتوسط لهدف اقتصادي إذ كان محمد علي يسيطر على تجارة

الصادر وتبع سيطرته احتكاره للنقل النهري في داخل البلاد ومن خلال هذه الاحتكارية والسيطرة تمكن من الاستئثار بفوائد هذا النقل كله وظهر من خلال ذلك أيضاً رواج هذه التجارة أن محمد علي منذ إبرامه اتفاق مع الإنجليز في عام ١٨١٠م على تصدير الغلال لهم مما جعله يرسل إلى "إسماعيل جبل طارق" في مالطة يطلب منه إنشاء مستودع لبيع التجارة الصادرة وقد جنى محمد علي أرباحاً طائلة في أثناء الحصار القاري ومع أن إقرار السلام في مؤتمر فينا ١٨١٥م كان له أثره في نشاط المستودع المصري بجزيرة مالطة إلا أن انتهاء الحروب النابلونية فتح أمام محمد علي من ناحية أخرى ميادين جديدة لنشاطه التجاري في مختلف الموانئ الأوروبية فأنشأ مراكز للتجارة المصرية في تريستا بإشراف بطرس شفيق بوغوص يوسف ومن مرسيليا بإشراف باسيلي فرازبي وفي ليفورنه حيث أقام إسماعيل جبل طارق واتخذ منها مقراً يشرف منه على سائر المراكز، وحدث بعد ذلك أن أشار بوكنتي قنصل السويد في مصر على محمد علي أن يمد نشاطه التجاري إلى البلدان الأسكنونافية (الشمالية) فأرسل إسماعيل جبل طارق في عام ١٨١٦م في رحلة إلى استكهولم وباريس ولندن وهمبرج ثم عاد إسماعيل من رحلته عن طريق روسيا والبحر الأسود وفضلاً عن ذلك فقد كلف محمد علي بيت توسيجه Tossiza وأنسطاسي Anastazzy وغيرها من البيوت التجارية الأجنبية التي كان ممثلوها ووكلاؤها في مصر من القناصل المشتغلين بالتجارة أن يبنوا سفناً للنقل خاصة في بحر الأرضبيل ويقول الجبرتي في حوادث ١٨١٦م « إن الباشا أقام له وكلاء بسائر الأساطل حتى ببلاد فرنسا والإنكليز ومالطا وأزمير وتونس والنابلطان والوتديك والبنادقة واليمن والهند وأعطى أناسًا حملاً عظيماً من أموال يسافرون بها ويجلبون البضائع وجعل لهم الثلث في الربح نظير سفرهم وخدمتهم».

هذا النشاط التجاري الكثيف أدى إلى رغبة قوية في إنشاء أسطول وأن يكون نقل الغلال فبعث هذه الرغبة إلى السلطان حيث أنه في أثناء الحصار القاري تعرضت السفن الإنجليزية لإغارة الفرنسيين عليها في مياه البحر المتوسط وبها القمح المصري فأثر ذلك في

تجارة الصادر مما جعل محمد علي ينقل غلاله على سفن تحمل أعلام دول محايدة ثم خطر على بال محمد علي أن ينشأ لنقل الغلال أسطولاً مصرياً يتألف من "أفريقية" وأربع سفن أخرى اشتراها من الخارج. وقد غادر هذا الأسطول وكان يتكون من مراكب تجارية تحمل بعض المدافع للدفاع عن نفسها- ميناء الإسكندرية في أغسطس ١٨١٢م بقيادة إسماعيل جبل طارق ، استطاع الوصول إلى مالطا في أمن وسلام وهناك أفرغت السفن حمولتها من الغلال. ومن ثم تم شحنها بالذخائر اللازمة لحملة محمد علي المرسلة إلى بلاد الحجاز عادت إلى الإسكندرية دون أن يلحق بها أي سوء.

وفي عام ١٨١٢م كان الأسطول المصري يتكون من "أفريقية" و "واشنطن" وكان مركباً أمريكياً وقرناطة أخرى ذات أربعين مدفعاً وثمانية مراكب تجارية كبيرة وكانت أكثر قطع الأسطول من السفن التي اشتراها محمد علي من الموانئ الأجنبية.

وفي عام ١٨١٧م أخذ ينمو الأسطول حتى صار مكون من خمسة عشر مركباً كبيراً مضافاً عليها مركبان اشتراهما من النمسا ثم أمر محمد علي في العام التالي بناء ثلاث قرقاطات بالإسكندرية لنقل الغلال والفحم والخشب والرخام وعلى ظهر هذه الفرقاطات الثلاث المدافع لحماية نفسها من القراصنة. هذه السفن لم تكن سفناً حربية تصلح للقتال بحال من الأحوال.

يقول ديران فيت Durand Viet مؤرخ البحرية المصرية في عهد محمد علي إنه لمن المغالاة أن يتحدث الإنسان في هذه الفترة من الزمن عن وجود بحرية حربية مصرية إذ أن مصر محمد علي لم تكن وقتئذ في حاجة إلى أداة للحرب البحرية والفتح والسيطرة بل ظل حاكمها دهراً طويلاً لا يعنيه سوى الحصول على أرباح تضخم بها ميزانيته ويعظم مدخره ولو فكر الإنسان في حال الإسكندرية قبل عشرين سنة حين هبط الفرنسيون مصر لأدهشته النتيجة الباهرة التي انتهت إليها. ولم يكن خالق هذا الشأن سوى أحد الباشوات العثمانيين (يقصد محمد علي) نجح في أن يجعل اسمه مشهوراً وسلطانه ملموساً في بحار نائية كبحر الشمال وبحر البلطيق.

الفصل الثاني

المرحلة الثانية: ١٨٢١-١٨٢٧ في بناء الأسطول الأول المصري

بنى محمد علي نواة أسطوله من عمليات الشراء للسفن والفرقاطات من الخارج. ومع بداية عام ١٨٢١م طلب من دور الصناعة في الموانئ بناء ما يريده من سفن لأسطوله الحربي وأهم تلك الموانئ "مرسيليا" و "برود" و "ليفرونه" و "جنوه" و "أركانجل". وقد تحمل محمد علي في سبيل ذلك أموالاً كثيرة ذهبت مع الرياح بتحطيم أسطوله في موقعة نوارين البحرية في أكتوبر ١٨٢١م.

ويرجع ذلك في بناء الأسطول الحربي أن السلطان طلب من محمد علي الخروج بحملة لإخضاع الجزر الثائرة في بحر الأرضبيل وإخضاع كريد وقبرص. كما عهد إليه بإخضاع ثورة المورة «وسيأتي ذكر هذه الحروب في الفصول القادمة».

ولم يكن من المستطاع أداء ما هو مطلوب منه إلا إذا توافرت لدى محمد علي بحرية قوية ذات شأن ووجد أن خير وسيلة أن يوصي ببناء السفن الحربية في الموانئ الأجنبية لحسابه الخاص.

وهداه تفكيره إلى فرنسا لتبني له فرقاطتين إحداهما من طراز جان دارك Jean Dark وهي مركب فرنسي شاهده في الإسكندرية عام ١٨٢١م والأخرى من طراز الأبريق وتشبه مركباً فرنسياً يدعى كبرازيه Cbirassier شاهده في الإسكندرية. غير أن فرنسا رفضت في مارس ١٨٢٣م صنع هاذين المركبين بدعوى رغبتها في التزام الحياد في النزاع اليوناني العثماني القائم وأن يبعث بضابط من البحرية الملكية يقوم بإنشاء مدرسة

تعلم فنون البحر من الوجهتين العلمية والنظرية ولقد قام ليفرون بجهود جبارة في تحقيق رغبة محمد علي غير أن كونت دي شابرول Chabrol وزير البحرية الفرنسية كان يخشى أن يؤول صنع هذه السفن لأغراض غير تجارية ومعناه أن انحياز من فرنسا إلى جانب العثمانيين في أثناء نضال الثوار في المورة يؤدي إلى إثارة الخواطر. وكانت رغبة الملك شارل العاشر في دعم علاقات المودة والصداقة بين حكومته وحكومة محمد علي خدمة لصالح فرنسا التجارية.

وفي ٢٧/ ٤/ ١٨٢٥م تقرر أن نصنع الفرقاطتين في مرسيليا مما شجع محمد علي أن يطلب بصنع مركب جديد من نوع القرويت في أكتوبر في نفس العام. وقد بدأ العمل تحت إشراف لوفيبور سيبريزي Le Seburecerisy وهو المهندس الذي انتدب من طولون لإنجاز هذه المهمة.

وكان محمد علي يشجع البيوت الأجنبية على بناء السفن فقد انتهز بيت زيزنيا Zizinia التجاري هذه الفرصة وشرع في بناء مركبين لحساب محمد علي أحدهما في مرسيليا والآخر في لاكيونات La Ciotat وقد أثار هذا العمل ثائرة الرأي العام على حكومة شارل العاشر التي انتهت بأنها جعلت من موانئها دوراً تبني فيها السفن لحساب محمد علي حتى يهاجم بها اليونانيين مما اضطر الحكومة الفرنسية إلى الكف من التصريح ببناء سفن جديدة لحساب محمد علي وإزاء ذلك اضطر أخوان زيزنيا بدورهم إلى بيع المركبين لبيت تجاري آخر هو بيت رامبو Rambo الذي أعلن أن هذين المركبين سوف يتم تصنيعها للخدمة التجارية غير أن هذا كله لم يعطل بناء هاتين السفينتين ولبناء السفن الأخرى التي أوصى محمد علي بصنعها رسمياً فقد وافق الملك في فبراير ١٨٢٦ على الشروط التي يتم بها بيع السفن للخدمة التجارية وهكذا استطاع محمد علي أن يحصل على السفن المطلوبة وأن يستخدمها في حرب المورة.

هذا إلى أنها لم تكن ترى من مصلحتها أن تضع مواردها وصناعتها في خدمة مصر كدولة أجنبية. لكنها تراجعت عن موقفها لما عادت إلى رشدها وعرفت أنها أخطأت

خطأ كبيراً عندما وصلتها الأخبار بأن القنصل الإنجليزي صولت انتهز فرصة رفض الحكومة الفرنسية لطلب محمد علي فعرض القنصل على محمد علي بناء سفينة في إنجلترا ومانع محمد علي ذلك العرض لخوفه من نوايا هذه الدولة.

وجاء العرض لبناء السفن من كل من تسكاتيا والنمسا بأنهما على استعداد لبناء ما يشاء من السفن. فأوصى محمد علي بصنع فرقاطة واحدة وإبريقين في جنوه وأبريق آخر ومركبين في البندقية. بدأت جميعها التحرك في البحر في عامي ١٨٢٤م، ١٨٢٥م عندما خرج الأسطول من الإسكندرية في يوليه ١٨٢٤م لملاقاة سفن الثوار في ميناء رودس وكديد ويتألف من ٥١ مركباً حربياً ١٤٦ نقالة تحمل ١٨٠٠٠ جندي، وعقب وقوع أول صدام بين الطرفين وجد محمد علي من الضروري تقتضي عليه ما دام يريد التغلب عن الثوار في البحر بأن ينشيء مراكب أكبر وأقوى وأسرع مما كان لديه في ذلك الحين ومن الأفضل أن تكون سفنه الجديدة من نفس الطراز الفرنسي الذي شاهده في الإسكندرية لذلك استجاب محمد علي لمساعي القنصل الفرنسي "دروفتي" Drovetti وتجددت المفاوضات بينه وبين الحكومة الفرنسية.

كتب "بوغوص" وزير خارجية مصر في ٢٨/ ١٢/ ١٨٢٤م إلى الجنرال ليفرون Livron وكان من أعضاء بعثة عسكرية فرنسية قدمت إلى مصر منذ نوفمبر سنة ١٨٢٤م برئاسة الجنرال بوابيه Boyer بأن يطلب من الحكومة الفرنسية الموافقة على صنع فرقاطتين من طراز جان دارك وإبريق حربي من طراز كيرازيه كما كلفه أن يطلب من وزير البحرية أن يختار من ذوي الخبرة والدراية بالمنشآت البحرية للإشراف على بناء هذه السفن على أن محمد علي لم يلجأ إلى الموانئ الفرنسية وحدها في صنع السفن التي تألف منها أسطوله الأول. بل لجأ إلى الموانئ الإيطالية خاصة ليفورنه والبندقية وكان يقوم بالإشراف على بناء السفن في ليفورنه السادة فرنانديز Fernandez وروستي Rossetti وهما وكلاء محمد علي وعملاؤه التجاريون على أن يدفعوا نفقات صنعها من

الأموال التي يحصلونها من بيع المنتجات المصرية التي يصدرها محمد علي إلى الأسواق الأجنبية والأوروبية.

وفي عام ١٨٢٧ تم ليفورنه صنع سفينة من نوع القرونيت تدعى مدينة نفارينو Citta di Navrino وفرقاطة تسمى الأسد Leon أما في البندقية فقد تعطل بناء الفرقاطة المصرية Pieane L'Egypt حتى إبريل ١٨٢٨م نظراً إلى العداء المستحكم بين البنادقة والعثمانيين.

ولما كانت الأوامر الخاصة بإنشاء هذه السفن الحربية في الموانئ الأجنبية لحساب محمد علي فقد صدزت في عامي ١٨٢٤م-١٨٢٥م التي تألف منها ما صار يعرف باسم "برمانج" ١٨٢٤م وكان من السفن التي اشتمل عليها هذا البرنامج مرشد الجهاد Cuerrie قد صنعت في مرسيليا والبحيرة وهي التي سميت وقتاً ما " المصرية" وصنعت كذلك في مرسيليا وشيرجهاد وهي "الأسد" التي صنعت في ليفورنه ورشيد وهي القرقاطة المصرية التي صنعت في البندقية و"الظافرية" التي صنعت في ليفورنه.

وكل ما تم من هذا البرنامج إلى ما قبل صيف ١٨٢٧م بناء فرقاطتين وأربع سفن من نوع القرويت وخمس من نوع الإبريق وكانت هذه الوحدات عماد الأسطول المصري الذي تحطم في معركة نفارين البحرية. وكان الأسطول المصري قبل المعركة اشتمل كذلك على كفر الشيخ وواسطة الجهاد وسفنًا كثيرة من نوع القرويت.

الفصل الثالث

المرحلة الثالثة: البحرية المصرية في ١٨٢٧م- ١٨٤٨م

عدد الوحدات البحرية التي اشتركت في معركة نفارين البحرية ٢٠/ ١٠/ ١٨٢٧م إحدى وثلاثين قطعة مكونة من:

١- أربع فرقاطات.

٢- ١٠ سفن من نوع القرويت.

٣- ٦ سفن من نوع الأبريق

٤- ٥ من نوع الفولت (الفوليت).

٥- ٦ حراقات.

٦- نقالات كثيرة.

فقد الأسطول في هذه المعركة

١- أربع فرقاطات.

٢- ٥ سفن فراويت

٣- ٣ سفن من نوع الأبريق

٤- ٢ من الفولت.

٥- ٥ حراقات.

ونقلت الأخبار الهزيمة إلى الإسكندرية عن طريق القرويت "أمازون" Amazone والإبريق "واشنطن" وكان أثر الهزيمة ضياع ذلك الأسطول الذي اشترى محمد علي وحداته من مختلف المالك أو أوصى بصنعها لحسابه الخاص في الموانئ الأجنبية.

ومع ذلك فقد اتفق المؤرخون على أن كارثة نفارين كانت بداية القوة البحرية الحقيقية في عصر محمد علي ذلك أن الهزيمة لم تستطع أن تنال مما كان يتحلى به محمد علي من قوة فسرعان ما نشطت أعمال البناء والإنشاء حتى لم يمض عامان على وقوع تلك الكارثة التي استطاع "أسربي Acerbi" القنصل النمساوي أن يكتب إلى برنس مترينج في ٢٦/ ١٠/ ١٩٢٩م أن بحرية محمد علي صارت تتألف من ٢٩ وحدة حربية ونحو ٩٩٢ مدفعاً وحوالي ١٠٠٠٠ من رجال البحر يوجد من هذه القوة في البحر المتوسط ٥٩ مركباً حربياً ٨٧٢ مدفعاً.

ولم يعتمد محمد علي في هذه المرة على شراء سفنه من الخارج أو التوصية على صنعها في الموانئ الأوروبية بل صار كل اعتماده على ما يبنيه في دور الصناعة التي جددها أو أنشأها في مصر فقد وجد محمد علي أن برنامج التعمير الجديد يكلفه نفقات طائلة إذا هو استمر على خطته القديمة وذلك نظراً إلى ارتفاع الأسعار والنفقات والأجور في الموانئ الأجنبية بينما تستطيع مصر أن تصنع حاجتها من السفن لا سيما أن جودة مناخها يساعدها على حفظ الأخشاب سليمة من العطب مدة طويلة. هذا فضلاً عن وفرة الأيدي العاملة وقلة النفقات لذلك قرر محمد علي منذ إبريل ١٨٢٨[١] أن يصنع ما يريده من السفن في مصر ولما كان نجاح الخطة الجديدة يستلزم المهندسين البارعين والمعلمين الماهرين والمدربين الأكفاء للإشراف على بناء السفن وتعليم المصريين فنون الصناعة والملاحة البحرية كما يستلزم وجود دور الصناعة ووفرة الأخشاب فقد أولى محمد علي هذه المسائل ما تستحقه من عناية حتى استطاع في النهاية أن يذلل جميع ما اعترض مشروعه الضخم من صعاب وعقاب وكان من حسن الطالع أن توافق

حكومة شارل العاشر ملك فرنسا على حضور دي سيريزي إلى مصر والتحاقه بخدمة محمد علي ولم تقف الحكومة الفرنسية عند هذا الحد بل شفعت موافقتها بأن عهدت إلى دروفني قنصلها بمصر أن يبلغ محمد علي أنه سيلقي من جانبها على الدوام كل مساعدة في سبيل زيادة منشآتها البحرية ووسائل الحرب الأوروبية حتى يستطيع المضي فيما يبذله من جهود لإنعاش البلاد وضمان رخائها.

في ٢٨/ ١١/ ١٨٢٨م وقع سيريزي عقد عمل لمدة ثلاث سنوات وقد تعهد بأنه سيخصص كل معارفه ويبذل غاية ما في وسعه لإجابة رغبات محمد علي وتنفيذ ما يصدره من أوامر بصدد المنشآت البحرية التي يريدها كما تعهد بإنشاء مدينة بحرية لتعليم فنون البحر وتنظيم الورش اللازمة للتعليم.

وفي فبراير ١٨٢٩م أقلع سريزي من مرسيليا إلى الإسكندرية فكان المهندس الذي اعتمد عليه محمد علي في بناء بحريته الكبيرة أما المعلمون والمدربون فكانوا من الضباط الفرنسيين الذين التحقوا بخدمة محمد علي من أمثال "لوتلبيه" Le Tellier و "فلينش" Villenich و "جستان" Jestin و "بسون" Bessun وهو أشهرهم وكان بسون ضابطاً في البحرية الفرنسية. عرض على نابليون الأول بعد هزيمة ووترلو أن ينقله في سفينة إلى أمريكا. لكن نابليون عدل في اللحظة الأخيرة وآثر أن يسلم نفسه للإنجليز ولذلك طردت الحكومة الفرنسية في عهد الملكية الضابط "بسون" من خدمة البحرية. فقدم إلى مصر في سنة ١٨٢٠م والتحق بخدمة محمد علي وأخذ يرتقي في سرعة تستدعي لفت الأنظار.

مهندس سيريزي بك الفرنسي ودار الصناعة

أما دار الصناعة اللازمة فلم يلبث محمد علي أن بدأ في إنشائها عقب وصول "سيريزي" بأشهر قليلة وكانت ترسانة الإسكندرية في ذلك الحين عبارة عن مكان متواضع على شاطئ البحر أقيم به مصنعان كل منهما عبارة عن مسطح من الأرض تظله سقفية من الخشب وكانت تبني فيهما سفينتان إحداهما من نوع القرويت والثانية من نوع الإبريق وكانت هناك سفينة ثالثة من ذوات الحجم الكبير وكان يشرف على الأعمال في هذه الترسانة "الحاج عمر" وهو رجل تقدمت به السن واكتسب من الخبرة والمران ما جعله موضع إعجاب محمد علي حتى لقد أثبتت عليه الوقائع المصرية بمناسبة صنع "سفينة العركطون (الفرقاطة)" الذي شرع في إنشائها بمعرفة "المرقوم" ونزلها في البحر في ٩/ ٢/ ١٨٣٠م وجاء في الوقائع نفسها في ٢١/ ٢/ ١٨٣٠م أن مسيو

سيريزي الفرنسي المهندس المعاهد في إنشاء السفن المنصورة عندما شاهد هذه السفينة صار يعجب من حالة المعمار المرقوم حيث أنشأ تلك السفن من دون علم الهندسة وأكمل جميع ما يحق لها وهناك كان إلى جانب الحاج عمر مهندس تركي هو "شاكر أفندي الإسكندراني" الذي أخطأ في وضع تصميم ترعة المحمودية عام ١٨١٨م. وقد اتفقت كلمة المعاصرين على أن شاكر أفندي هذا كان رجلاً جاهلاً لم يلبث سيريزي أن عجل بفصله من الخدمة. ولم يكد "سيريزي" يتسلم زمام العمل حتى بدأ يسير أغوار المياه في البناء الجديد لاختبار موضع يصلح لإنشاء الورش اللازمة لبناء السفن.

في ٩/ ٦/ ١٨٢٩م قدم إلى محمد علي مشروعاً كاملاً لإنشاء دار الصنعة أي ترسانة الإسكندرية فوافق عليه محمد علي وبدأ في تنفيذه على الفور وأراد سيريزي الاستعانة بالصناع الماهرين من طولون فأعد قائمة بأسمائهم بعث بها محمد علي إلى "ليفرون" وطلب من القنصل "ميمو" تأييده في مساعيه وفي فترة انتظار قدومهم جمع محمد علي حوالي ١٠٠٠ رجل من مختلف المديريات وأرسلهم إلى العمل بالإسكندرية فقسموا على مزاولة أعمال النجارة والحدادة والبرادة وصنع الحبال وما إلى ذلك من الأعمال وقد تحدث سيريزي فقال في إحدى رسائله ٢٦/ ٧/ ١٨٢٩م " لم يحدث في العالم قط أن شغل مهندس مثلما شغلت منذ حين فجميع أمراء مصر وعظمائها هنا في هذه اللحظة ولدى كل منهم مشروعات عظيمة يحدثني عنها وأنا أقوم بتنظيم أعمال الترسانة وقد اتخذت جميع الوسائل الخاصة بالطرود والمخازن والورش المختلفة والسقوف القائمة على الأعمدة وعدد الترسانة وآلاتها... وقد تم إنزال قرويت ذات أربعة وعشرين مدفعاً وسننزل فرقاطة إلى البحر خلال بضعة أسابيع وبدأنا في صنع مركبين من نوع الفولت وسفينة نقالة ستمئة طن وسنشرع بعد قليل في صنع مركب كبير ذي ستة وتسعين مدفعاً من عيار ثلاثين".

ويتضح من هذه الرسالة أن "سيريزي" كان يشرف على صنع السفن الحربية بينما كان العمل ما يزال جارياً في إنشاء دار الصناعة.

ذكرت الوقائع المصرية في عدد ١٤ في ٢٥/ ٨/ ١٨٢٩م أن وضع الأساس للبدء في إنشاء الترسانة كان في يوم السبت ٢٥/ ٧/ ١٨٢٩م وكانت السفينة الكبيرة التي أشار إليها خطاب "سيريزي" من نوع القباق أو الغلبون أي البوارج وهو نوع جديد بدأ محمد علي يفكر في صنعه بعد أن تبين له أن من الممكن تعميق مدخل ميناء الإسكندرية إلى حد يكفي لمرور السفن الكبرى وقد ذكر إسماعيل سر هناك أن " كراكات" كثيرة استخدمت في توسيع ميناء الإسكندرية وإصلاحه لقلة وعدم كفايته للسفن التي تضطر أن ترسو بعيداً عن الشاطئ ، ويقول كلوت بك إن ما ألقى في روع محمد علي عن استحالة دخول السفن الحربية الكبرى ثم ما كان يعرفه شخصياً عن قلة جدوى الآلات البحرية التي لديه وعدم غناء العمال اللازمين لمختلف الصنائع عنه جعله لا يفكر في إنشاء السفن الكبيرة التي من نوع القباق ولذا كانت حاجته من قبل إلى السفن الحربية من الخارج قائمة على أساس هذه الفكرة ولكن عندما حضر مسيو " دي سيريزي" وأطلعه آراءه في هذا الشأن اقتنع بهذه الآراء لذلك بنيت أربع "مصاطب" كبيرة ممتدة من الساحل إلى داخل البحر لتشاد عليها سفن القباق وثلاث مصاطب أخرى لبناء السفن التي من نوع الفرقاطة والقرويت والفيولت والكوتر وغيرها.

أما الورش والمصانع التي أنشئت بدار الصناعة فكان عددها ١٠٥ وذلك عدا ١٥ ورشة للذخائر والمهمات الحربية من بينها ورش الحدادة والنجارة والبويات وصنع القلاع البوصلات والمناظير وكان الصناع جميعاً في هذه الورش تحت إشراف الحاج عمر.

أما الأخشاب اللازمة لبناء السفن فقد أحضرها محمد علي من كرمانيا بآسيا الصغرى كما أرسل مهندساً إلى رودس منذ عام ١٨٢٤م للإشراف على قطع الأخشاب في تلك الجهات حتى لا يثير شكوك الباب العالي في حسن نواياه لذلك رأى أن يبحث عن مواطن أخرى تغنيه عن الأخشاب المستوردة من تركيا لا سيما إذا ساءت العلاقات

بينه وبين السلطان ، فاتجه صوب ليفورنه وإنجلترا وفرنسا ولما اشتدت حاجته إلى الأخشاب تبعاً لضخامة برنامجه البحري، كانت رغبته الملحة في الاستيلاء على مواطن الخشب في سوريا وكيليكيا. ومن أهم العوامل التي عجلت بوقوع الحرب الشامية الأولى وعندما وردت الأخشاب شرع "سيريزي" في بناء سفينة من نوع القبان أو الفليون ذات مئة مدفع تدعى" المحلة الكبرى" وقد أنزلت إلى البحر يوم ٣/ ١/ ١٨٣١م. وقد أعجب محمد علي بسيريزي ومنحه رتبة البكوية وقد أتم سيريزي منشآت دار الصناعة في نهاية عام١٨٣٢م ولكن حدث أن وضعت الحرب السورية أوزارها.

وعقد محمد علي الصلح مع السلطان (صلح كوتاهيه) كان لهذا الصلح أكبر الأثر في خطة محمد علي البحرية فقد كانت السرعة الزائدة في إنجاز بناء السفن وإنزالها إلى البحر رأى محمد علي في أثناء حرب المورة وفي أعقابها مباشرة ولم تكن هذه السرعة رجعت فحسب إلى رغبة محمد علي في تعويض الخسارة التي أصابت أسطوله في معركة نفارين بل كانت ترجع إلى إصرار محمد علي على إنشاء بحرية قوية تضمن له التفوق على أسطول السلطان محمود الثاني لا سيما وقد بدأت العلاقات تسوء بين الرجلين وأخذت النذر تتوالى بقرب اشتعال نيران الحرب بينهما من جديد، هذا إلى أن محمد علي كان يدرك تمام الإدراك أن القوة البحرية حتى أوقات السلم تكاد تكون مقياساً صحيحاً لمركز كل دولة من الدول البحرية ذات الشأن في منطقة البحر المتوسط حتى يكون لها السبق في هذا المضمار على كل من النمسا وتركيا وكان جل اعتماده في بلوغ هذه الغاية على البحرية الكبيرة التي بدأ في إنشائها بدار الصناعة في الإسكندرية. غير أن هذه الصنعة التي اصطنعها محمد علي في الفترة الواقعة بين حرب المورة ١٨٢٧م وصلح كوتاهيه ١٨٣٣م لم تلبث أن هدأت من بقايا الأغراض العليا التي كان يسترشد بها محمد علي في بناء بحريته قائمة لم يعترها نقص أو تغيير ولم يكن السبب في هذا الهدوء سوى خوف محمد علي من أن يؤدي استعداده البحري إلى إثارة قلق الدول الأوروبية

التي تدخلت لوقف الحرب بينه وبين السلطان إذا كان الآن بينهما صدام آخر يتيح الفرصة أمام روسيا لتنفيذ معاهدة "حنكار سكلى" قد أفاد محمد علي دون ريب من فترة الهدوء هذه فأعاد النظر في برنامجه البحري على ضوء ما كسبه من تجارب ومن ثم أخذ يتجه اتجاهاً جديداً يرمي إلى الاهتمام بإتقان الصنعة واصطناع الأناة، إذ اتضح أن الأخشاب التي استخدمت في بناء بعض السفن لم تكن بسبب العجلة إلى الحد المطلوب فسارع إليها العطب وبدت حاجة السفن إلى كثير من الإصلاح والترميم، كما صار من الضروري أن توجه عناية أكبر إلى الحبال والساريات وما إليها مما يلزم الأسطول.

غير أن فترة الهدوء لم يطل أمدها، لأن السلطان تحرش بمحمد علي الذي توقع استئناف القتال في أي وقت فشرع يطالب من جديد بالسرعة وإجادة الصنعة في وقت واحد وهكذا عاد النشاط إلى ترسانة الإسكندرية وجدد محمد علي أوامره إلى "سيريزي" حتى يعمل على إنزال أكبر مجموعة من السفن إلى البحر، في فترة السكون التي تسبق العاصفة.

وكان في برنامج محمد علي إلى جانب صنع السفن على توسيع ميناء الإسكندرية وتعميقه إذ أن بوالكث أشار في حديث له مع محمد علي إلى السفن الكبيرة مضطرة إلى إنزال مدافعها قبل دخول الميناء أو الخروج منه مما يعرض أسطول محمد علي للخطر إذا طارده الأسطول العثماني إذا أضفنا إلى ذلك ضيق الميناء ، لهذا أوصى محمد علي المهندس الإنجليزي "جادي" بإحضار الآلات "الكراكات" اللازمة لتوسيع الميناء وتعميقه. وفي مايو ١٨٣٣م حاول كابتن "هوسار" Houssart أن يشق في الميناء مسلكاً على عمق كاف (حوالي ثلاثين قدماً) ولكنه لم يوفق. ففكر محمد علي عندئذ في إنشاء ميناء حربي عند "سودا" Sade بجزيرة كريد.

ففي ٢٧/ ٧/ ١٨٣٣م خرج محمد علي إلى الجزيرة في رحلة بحرية على ظهر الغليون "المحلة الكبرى" بقيادة هوسار وبرفقته أربعة غلايين وأربع فرقاطات وثلاث

فراويات فبلغ كريد في ١٢/ ٨/ ١٨٣٣م ثم غادر الجزيرة بعد ثمانية عشر يوماً متخلياً عن مشروعاته بعد أن اتضح أن الباب العالي لا ينظر إلى ذلك المشروع بعين الارتياح لقرب "سودا" من المورة وميناء الدردنيل.

ثمة موضوع آخر أولاه محمد علي من اهتمامه ونفى به موضوع السفن الجديدة التي تسير بالبخار فأوصى في عام ١٨٣٣م بأن يصنع في إنجلترا أول مركب بخاري كان يسمى "النيل" وقد بلغت نفقاته ١.٣٠٠.٠٠٠ من الفرنكات ولكن سيريزي وجه كثيراً من النقد إلى طريقة صنعه وقدر خسارته في هذه الصفقة ٨٠٠٠٠ فرنك على الأقل.

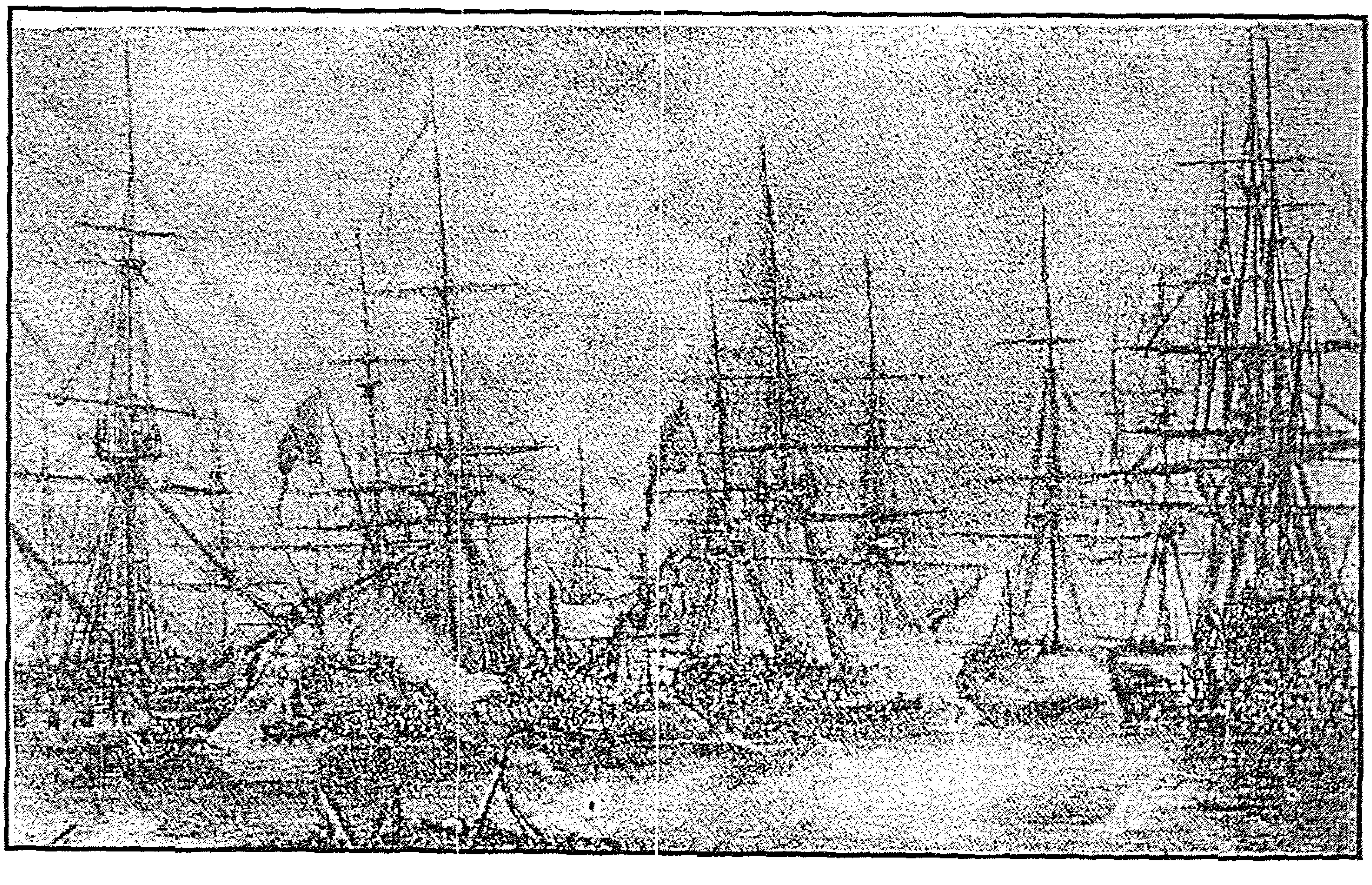

فرقاطات محمد علي

وقد تعطلت الترسانة بسبب انتشار مرض الطاعون مدة قليلة وتمشياً في سرعة تحقيق أطماعه السياسية فكر محمد علي في بناء مساكن للضباط في دار الصناعة حتى تتوفر لهم الراحة الكافية للقيام بعملهم وسرعة إنجاز طلبات الحرب.

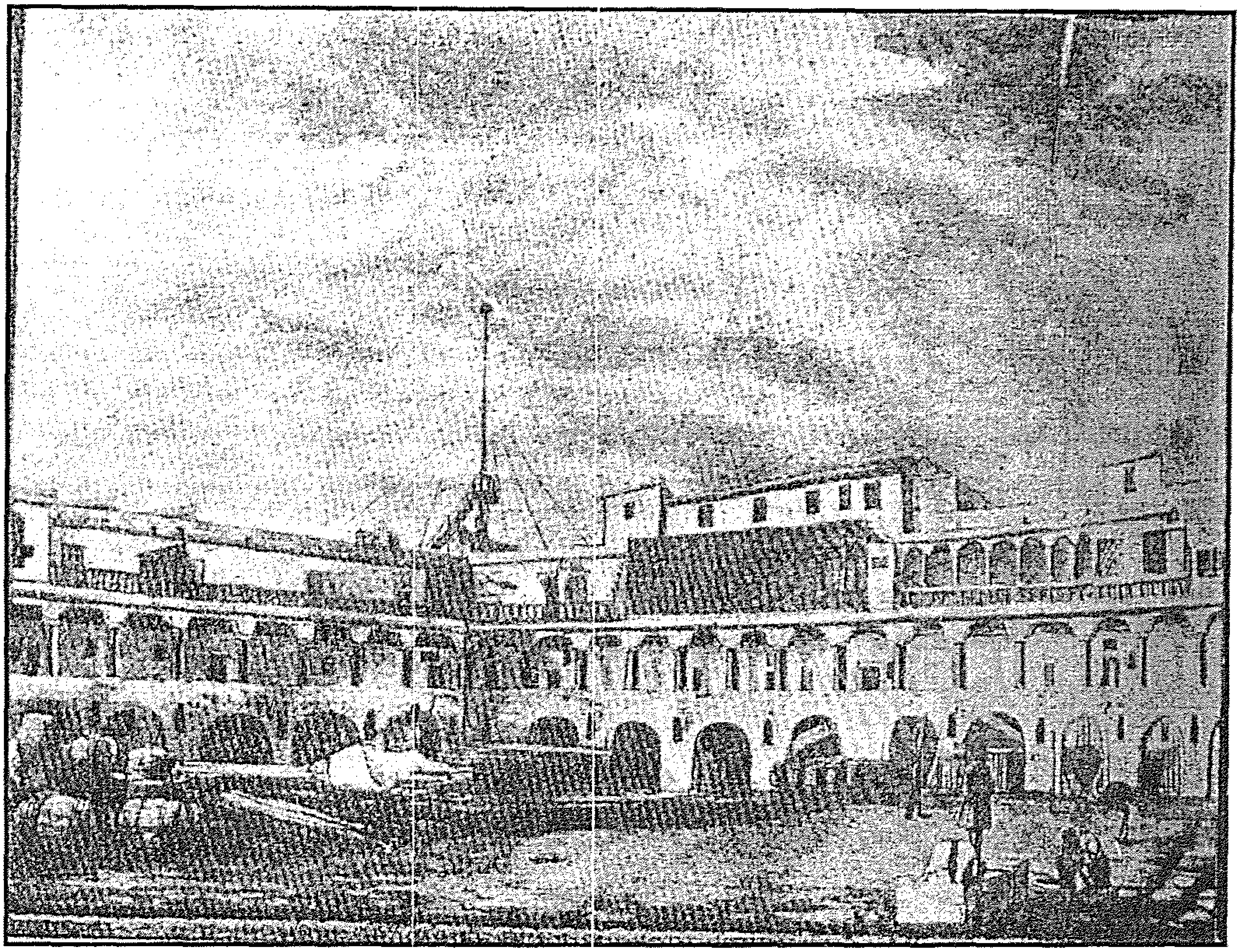

مساكن ضباط دار الصناعة

اعتنى محمد علي عناية كبيرة بإقامة القلاع والاستحكامات على ثغور البلاد وعاصمتها فأصلح قلعة صلاح الدين بالقاهرة ودعمها بالمدافع الحديثة وبنى على مقربة منها قلعة بالمقطم (قلعة محمد علي) وتشرف على قلعة صلاح الدين وأصلح قلاع الإسكندرية واستخدم مهندساً حربياً فرنسياً في فن الاستحكامات هو مسيو جوليس Golice وقام باختيار سواحل مصر ووضع الخطة لحصونها واستحكاماتها وأصبح لمصر عدد كبير من القلاع الحصينة نورد أسماءها في الفصل التالي .

الفصل الرابع

حصون الإسكندرية

اسم الحصن	عدد المدافع	عدد الهاونات
طابية قايتباي	١١٠	٦
طابية الأملة	٥٧	٧
طابية الفنار	٥٧	٦
طابية الفنار الصغيرة	١	–
طابية الهلالية	٦١	١٢
طابية الاستبالية الجديدة	١٣	١٠
طابية الاستبالية القديمة	٢٥	–
طابية ظهر منزل الفرنسيس	٦	٦
طابية المفحمة	٨	–
طابية مسلة فرعون	٩	١
طابية قبور اليهود القديمة	١٠	–
طابية قبور اليهود الجديدة	٢٠	–
طابية برج السلسلة	١٨	١
طابية باب شرق	٦	–
طابية كوم الناضورة	١٠	١

عدد الهاونات	عدد المدافع	اسم الحصن
–	٣	طابية الدخيلة
٢	٢٠	طابية السلمية
٩	٤٠	طابية المكس
١	٩	طابية القمرية
٤	٥٦	طابية أم قبيبة
١	١٤	طابية الملاحة القديمة
١	٣٤	طابية الملاحة الجديدة
–	١٣	طابية صالح أغا
–	٨	طابية باب سدرة
٢	٩	طابية كوم الدماس

حصون أبي قير

عدد الهاونات	عدد المدافع	اسم الحصن
٣	٤٨	قلعة أبو قير
٣	٤٧	طابية كوم الشوشة
٢	٢٤	طابية كوم العجوز
–	١٠	طابية السد نمرة ١
–	١٠	طابية السد نمرة ٢
–	١٠	طابية السد نمرة ٣
–	١٠	طابية السد نمرة ٤

حصون رشيد

اسم الحصن	عدد المدافع	عدد الهاونات
طابية الثني	٦	–
طابية العباسي	٦	–
طابية الطوجنية	٥	–
طابية المنزلاوي	٣	–
طابية محل الشركة	١	–
طابية برج رشيد	١٤	–
طابية قلعة البوغار	١٨	–
طابية الطابية الشرقية	١٠	–
طابية الطابية الغربية	١٠	–

حصون البرلس

اسم الحصن	عدد المدافع	عدد الهاونات
قلعة البرلس	٦	–

حصون دمياط

اسم الحصن	عدد المدافع	عدد الهاونات
القلعة القديمة	٢٠	–
الطابية الشرقية	١٠	–
الطابية الغربية	١٠	–

إصلاح ميناء الإسكندرية:

قام محمد علي بتوسيع ميناء الإسكندرية وتعميقه واستحضر له الكراكات من أوروبا وأصبحت السفن ترسو على الشاطئ بعد أن كانت ترسو بعيداً عنه واتسعت حركة التجارة وأنشأ رصيفاً داخل الميناء لرسو السفن عليها وصب ما بين الأرصفة والشاطئ بالأحجار والأتربة فاتسع الشاطئ وأنشأ في هذا الفراغ (الفضاء) فوق الشاطئ ما يحتاج إليه الميناء من المخازن ومباني الجمرك ومكاتب الموظفين والحراس وكان المشرف على الميناء شاكر أفندي وخلفه بعد وفاته مظهر باشا المهندس الماهر الذي تخرج من البعثة العلمية كما ثبت علامات في البوغاز كي يهتدي بها ربان السفن عند دخولهم الميناء وخروجهم منها.

إنشاء حوض إصلاح السفن:

أنشأ محمد علي بالميناء حوضاً لترميم وإصلاح السفن وتم إنشاؤه على يد المهندس الفرنسي موجل بك واشترك في إنشائه مظهر باشا ومهندس بهجت باشا خريجا البعثات من فرنسا وأنشأ رصيفاً في الميناء ومد إليه السكة الحديدية لتصل إلى مستودعات البضائع والغلال بالرصيف ليسهل نقلها إلى مختلف جهات مصر.

فنار الإسكندرية:

وقام مهندس مظهر باشا بإنشاء فنار بشبه جزيرة رأس التين لإرشاد السفن القادمة والخارجة.

تجديد الأسطول بعد معركة نفارين سنة ١٨٢٩م:

بعد تدمير معظم الأسطول المصري في معركة نفارين سنة ١٨٢٩م بادر محمد علي بإنشاء أسطول جديد تعويضاً للخسائر وبدأ الأمر بصنع عدة سفن حربية في أوروبا وحتى لا تكون مصر عالة على البلاد الأوروبية. شرع في إنشاء وتوسيع ترسانة صناعة

السفن على أحدث نظام بالإسكندرية واستعان بمهندس فرنسي متخصص في بناء السفن الحربية وهو مسيو سيريزي Cerisy وكان سبق وعهد إليه ببناء سفينتين حربيتين في مرسيليا وقدم سيريزي بك إلى مصر في إبريل سنة ١٨٢٩م وكان بالإسكندرية وقتها عدد قليل من السفن التي نجت من معركة نفارين منها سفينة فرقاطة بها ستون مدفعاً وسبق إنشاؤها في البندقية وفرقاطة أخرى أنشئت في ليفورون وسفن أخرى أقل شأناً تفتقر إلى معدات ومهمات القتال وبدأ مسيو سيريزي فوراً في إصلاحها وتجهيزها وتسليحها لجعلها صالحة للقتال وكلف محمد على مسيو سيريزي في نفس الوقت بوضع تصميم لإنشاء ترسانة كبرى واتخذ مسيو سيريزي الترسانة القديمة كنواة للترسانة الكبرى وكان يدير الترسانة القديمة وقتها بتكليف من محمد علي باشا الحاج عمر وكان مهندساً بارعاً في فن بناء السفن بالخبرة ونظراً إلى كفاءته العالية فقد اختاره مسيو سيريزي كمساعد له لتوسيع الترسانة وبناء السفن الجديدة وكان الحاج عمر رجل من أهالي الإسكندرية يجمع بين الشهامة والكفاءة. وقام بمساعدة مسيو سيريزي في جميع أعماله وشرع مسيو سيريزي مع الحاج عمر في تنفيذ مشروع الترسانة الجديدة في يونيه سنة ١٨٢٩م واستعان بآلاف من الجند في حفر الأساس للمباني وضم لمساحة الأرض مساحات أرض كبيرة اشتراها من الأهالي على شاطئ الميناء وقام بتشغيل عدد كبير من الرجال والشبان المصريين في العمل فكان منهم النجارون والحدادون والقلافطة والسباكون والميكانيكيون وبدأ تدريبهم على الأعمال البحرية وصاروا أسطوات برتب عسكرية منهم الأمباشية والشاويشية والضباط الممتازون وتم بناء الترسانة سنة ١٨٣١م وشجع محمد علي العمل بدوام زيارته للترسانة أثناء إنشائها من وقت إلى آخر وكذلك كان يفعل إبراهيم باشا وتم في يوم ٣ يناير سنة ١٨٣١م إنزال أول بارجة حربية كبيرة إلى البحر في احتفال كبير حضره محمد علي وكانت تحتوي على مئة مدفع وبذلك نجح مشروع محمد علي وهو إنشاء أسطول قوي بدأ خطوته الأولى ثم اتسع العمل فيه بمضي الوقت حتى صار لمصر في عدة سنين أسطول حربي قوي

عوضها عما فقد في (نفارين) بل وزاد قوتها عما كانت عليه وصارت ترسانة الإسكندرية من أعظم المنشآت البحرية والحربية ومعهداً لتعليم الشبان المصريين بناء السفن وترميمها وتسليحها وكانت مقسمة إلى أقسام يتخصص كل قسم وجماعة في فرع من فروع هذه الصناعة فكانت الأقسام هي:

١- ورشة الحبالة أو التبالة لعمل الحبال.

٢- ورشة الحدادين.

٣- ورشة القلوع.

٤- ورشة الساريات

٥- ورشة البوصلات والنظارات.

٦- ورشة الدكمخانة لصب الآلات وسبك الحديد.

٧- ورشة البوية للدهانات.

٨- ورشة المخرطة لعمل البكرات وأعمال النشر والخرط.

٩- ورشة التروية لعمل الأعلام والرايات.

١٠- ورشة الفلايك لصنع الزوارق.

١١- ورشة النجارين.

١٢- ورشة الطلمبات.

١٣- ورشة القلافطية لقلفطة السفن.

١٤- ورشة البوغوصة لثقب الأخشاب.

١٥- مخازن الذخائر والمهمات.

وأنشئ بالترسانة خمسة مزلقانات لبناء السفن عليها وصار تعميق البحر هناك بحيث يرسو فيه أكبر السفن الحربية وبلغ عدد عمال الترسانة ٨٠٠٠ عامل من الأهالي واستغنت مصر كلية عن شراء السفن من الخارج.

وكانت الأخشاب يتم توفيرها محلياً ومن الخارج من تركيا وأعطته تركيا الحق في قطع الأخشاب اللازمة من غابات الأناضول وعهدت بذلك إلى العمال والصناع المصريين برئاسة الحاج حسن بك كبير تجار الترسانة والسيد أحمد أحد عمالها.

إحصاء للسفن التي أنشئت أو رممت بترسانة الإسكندرية:

- بنيت البارجتان (مصر) وعما بحجم السفن الفرنسية ذات الثلاثة أسطح وكان بالسطح الأول ٣٢ مدفعاً عيار ٣٠ والمسطحان الآخران يحملان ٦٨ مدفعاً قصيراً من عيار ٣٠.
- بنيت ٤ بوارج من ذات المئة مدفع وهي (المحلة الكبرى)، (المنصورة)، (الإسكندرية)، (حمص) وفي كل منهما ٣٢ مدفعًا طويلاً عيار ٣٠، ٣٤ مدفعًا قصيرًا عيار ٣٠، ٣٤ مدفعًا من الزهر (كاروياز) عيار ٣٠ في مقدمة السفينة ومؤخرتها والبارجة (أبو قير) ذات ٧٨ مدفعًا منها ٢٨ مدفعًا عيار ٣٠، عدد ٣٠ مدفعًا قصيرًا، ٢٠ مدفعًا من الزهر عيار ٣٠ في مقدمة السفينة ومؤخرتها.
- بنيت الكورفيت (طنطا) وفيها ٢٤ مدفعًا قصيرًا عيار ٣٢ إنجليزي.
- بنيت الحوليت (عزيزية) فيها عشرة مدافع عيار ٤ رطل وقواطر (النزهة) وفيه ٤ رطل مدافع عيار ٤ رطل.
- وسفينة المدافع الهاون وسفينة نقالة لحمل أخشاب الساريات.
- تولت الترسانة تسليح البارجة (بيلان) ذات ٨٦ مدفعًا منها ٢٨ مدفعًا طويلاً عيار ٣٠، ٣٠ مدفعًا قصيرًا عيار ٣٠، ٢٨ مدفعًا من الزهر في المقدمة والمؤخرة.

أما السفن التي تم إصلاحها أو ترميمها فهي:

الفرقاطة الجعفرية: وهي ذات ستين مدفعاً من عيار ٣٢ إنجليزي وأصلها كانت مصنوعة بميناء (ليفورن) بإيطاليا.

الفرقاطة البحرية: ذات ستين مدفعاً من عيار ٢٤ وكانت مصنوعة في ميناء (مرسيليا).

الفرقاطة رشيد: ذات ثلاثين مدفعاً من عيار ٢٤ ، ٢٨ مدفعاً من الزهر من عيار ٢٦ وكانت مصنوعة بالبندقية (فينسيا).

السفينة كفر الشيخ (ثم فرقاطة) : ذات ثلاثين مدفعاً من عيار ٣٢ إنجليزي، ١٤ مدفعاً من عيار ١٢ ومصنوعة أصلاً في (أركانجل) في روسيا كسفينة للنقل ثم صار تعديلها في (لندن) كفرقاطة حربية.

السفينة (شير جهاد): ذات ستين مدفعاً من عيار ٢٤ وصنعت في ثغر (ليفورن) بإيطاليا وتم تعديلها في الإسكندرية تعديلاً شاملاً.

السفينة دمياط: حولت إلى فرقاطة ذات أربعة وعشرين مدفعاً من عيار ٢٤ وعدد ٣٠ مدفعاً من الزهر عيار ١٨ وحولت إلى فرقاطة حربية.

الفرقاطة موستا جهاد: ذات ٢٨ مدفعاً من عيار ١٨ ، وعدد ٢٨ مدفعاً آخر عيار ١٢ وهي فرقاطة جزائرية أهدتها فرنسا لمصر.

كورفيت السفينة (جناح بحري): أصلها من ثغر جنوة بإيطاليا ٢٢ مدفعًا عيار ٢٤".

كورفيت السفينة جهاد بيكر: أصلها من جنوة ٢٢ مدفعًا عيار ٢٤".

كورفيت السفينة فوه: أصلها من الإسكندرية ٢٢ مدفعًا عيار ٢٤".

كورفيت السفينة بلنك جهاد: أصلها من مرسيليا ٢٢ مدفعًا عيار ٢٤".

السفينة واشنطون: أصلها من بوردو ٢٢ مدفع زهر.

السفينة (نولمينان): أصلها من ليفورن طراز الأبريق ٢٢ مدفع زهر.

السفينة الفاشن: أصلها من الإسكندرية طراز الأبريق ٢٢ مدفع زهر.

السفينة شاهين دربا: أصلها من تركيا طراز الأبريق ٢٢ مدفع زهر.

سفينة (سمنود جهاد): أصلها من مرسيليا طراز إبريق صغير ١٦ مدفع زهر.

سفينة (شهباز جهاد): أصلها من سبونا طراز أبريق صغير ٢٦ مدفع زهر.

سفينة التمساح: أصلها من مرسيليا طراز أبريق صغير ١٦ مدفع زهر.

سفينة (بادي جهاد): أصلها من الإسكندرية طراز إبريق صغير ١٦ مدفع زهر.

سفينة (أمريكان): أصلها من أمريكا طراز إبريق صغير ١٦ مدفع زهر.

عدد ٤ سفن نقالة: حمولة كل منها ٤٠٠ طن.

باخرة (النيل): أصلها من لندن وتسير بالبخار وتم إصلاح هذه السفن بأسلوب مصري جديد يتناسب مع الصحوة المصرية فاق أسلوب أعرق الدول الأوروبية في الإصلاح وبذلك سبقت ترسانة الإسكندرية ترسانات فرنسا في الوسائل الحديثة لإنشاء وإصلاح السفن.

استخدام البخار في بناء السفن:

وبعد أن ظهر استخدام البخار في العالم أمر محمد علي بإنشاء السفن الحربية الحديثة التي تسير بالبخار بعد أن كانت تسير بالشراع وصنعت عدة سفن بالترسانة منها (النيل)، (أسيوط)، (رشيد)، (جيلان) وخصصت كلها لحمل البريد وأسس لها إدارة خاصة سميت (القومبانية المصرية).

سفن النقل:

قامت ترسانة الإسكندرية بجانب بناء الأسطول الحربي الضخم ببناء عدد كبير من سفن النقل بحيث يمكنها تلبية نقل الأفراد والجنود ومعداتهم وأسلحتهم بجانب نقل البضائع الصادرة والواردة لمصر ولتموين موانئ وثغور البحار. وأنشأ لها محمد علي إدارة خاصة تولاها في البداية محمد قراقيش قبودان ثم محمد راشد بك ثم أسندت إلى أحمد قبودان.

إعداد القباطنة والملاحين والبحارة والفنيين:

ومنذ بداية استخدام السفن وصناعتها في مصر في مينائي بولاق والسويس تنبه محمد علي إلى أهمية إعداد الأطقم المصرية القادرة على قيادة وتسيير هذه السفن والملاحة بها وكذلك تدريبهم وجنود البحرية على القتال في البحار فما بالنا بما حدث فعلاً أثناء معارك المورة واعتماد القوات المصرية بصفة رئيسية على السفن الحربية ومدى كفاءة القبطانات والقادة والبحارة كذلك يجب أن نتصور حاجة السفن الحربية والنقل إلى هذه الكفاءات بعد التوسع في صناعة السفن في ترسانة الإسكندرية الحديثة وكان محمد علي حريصاً على التدرج في إقامة المعاهد والمدارس وسفن تدريب القباطين والفنيين والبحارة لسد حاجات هذا العدد الضخم من السفن بالإضافة إلى اهتمام محمد علي منذ ١٨٢٦م على النهوض بالصناعة البحرية.

المعسكر البحري للتعليم برأس التين:

أنشأ محمد علي باشا معسكراً لتعليم البحارة من الجنود على الأعمال البحرية ليكونوا بحارة الأسطول وجنوده. وانتقاهم من كل المديريات وأعد لإقامتهم وتدريبهم بالجهة الشمالية الشرقية من رأس النين لتسع عشرة آلاف دارس.

مدرسة بحرية على ظهر البحر:

أنشأ محمد علي باشا مدرسة بحرية لتخريج الضباط البحريين لتعليم مختلف فنون اجتياز البحار وذلك على ظهر إحدى السفن الحربية ولما دعت حالة التوسع إلى مزيد من الضباط أنشأ سفينة أخرى لهذا الغرض وكان ناظر إحدى هاتين السفينتين حسن بك القبرصي وخلفه بعد وفاته كنج عثمان ونبغ من خريجي هذه المدارس كثير من الضباط والقباطين الذين تخصصوا في الأعمال البحرية والحروب البحرية أو تولوا الإدارة البحرية في مصر منهم إسماعيل باشا سرهنك وخير الدين قبودان وعبد اللطيف قبودان وأحمد قدري قبودان الملقب بالجوخدار وحسين شرين قبودان وجعفر مظهر قبودان وحافظ خليل قبودان وكثير غيرهم من أكفأ القادة البحريين.

البعثات البحرية:

بالإضافة إلى كل ما سبق فإن محمد علي باشا استمر في اختيار بعض الضباط البحريين ويرسلهم إلى فرنسا وإنجلترا لإتمام علومهم بها وممارسة الفنون البحرية على ظهر السفن الحربية الأوروبية منهم عثمان نور الدين باشا وحسن أفندي الإسكندراني وسنان أفندي ومحمود أفندي نامي.

الصحوة المصرية:

كل هذه النهضة في مجال اجتياز البحار وصناعة السفن التي تدرجت في رقيها حتى انتهت بصناعة السفن البخارية والتي تضاهي الصناعة الأوروبية كانت بفضل عبقرية محمد علي وكفاءة من استخدمهم من الخبراء الأجانب وبصفة رئيسية إلى كفاءة الشباب المصريين وصحوتهم وتقبلهم لتعليم أحدث فنون البحرية وصناعة السفن بما يوازي المستوى الأوروبي.

الصناعات الحربية:

كان رأي محمد علي أنه لأجل إنشاء جيش قادر على حماية الديار لا يمكن أن يتم إلا إذا كان هذا الجيش يجد احتياجاته باستمرار وتحت مختلف الظروف خاصة من السلاح والذخيرة والمدافع في داخل البلاد لأن استحضار السلاح من الخارج وذخائره وقطع إصلاحه يعرض قوة الدفاع الوطني للخطر ويجعل الجيش والبلاد تحت رحمة الدول الموردة للسلاح ولوازمه لذلك بذل كل الجهود الصادقة لأجل إنشاء المصانع الحربية في مصر وكلف قائد المدفعية أدهم بك بإقامة هذه الترسانة.

ترسانة القلعة:

أسس أدهم بك هذه الترسانة بالقلعة لصنع الأسلحة وصب المدافع وصناعة الذخائر اللازمة. وحدث بها حريق سنة ١٨٢٤م وأعيد إقامتها على أحدث النظم وتقدم العمل بها واتسع نشاطها فكان بها ٩٠٠ من العمال المهرة في صنع الأسلحة تنتج في الشهر حوالي ٦٥٠ بندقية وكان بها قسم خاص لصنع زناد البنادق والسيوف والرماح ومهمات الجنود ومستلزمات الخيول والفرسان امتاز إنتاجها بالمتانة والدقة ورخص

الأسعار (البندقية كانت تتكلف ١٢ قرشاً مصرياً فقط) وكذلك مصنع للبارود ومواسير البنادق ومصنع آخر لصنع ألواح النحاس تستخدم لوقاية السفن الحربية.

معمل صب المدافع:

وكان أهم مصانع الترسانة وأكبرها عملاً هو معمل صب المدافع يصنع به ثلاثة مدافع أو أربعة كل شهر عيار ٤، ٨ أرطال ومدافع الهاون عيار ٨ ومدافع قطر ٢٤ بوصة وكان يستخدم فيها كمية عظيمة من الفحم والحديد وعماله ١٥٠٠ عامل.

مخازن البارود والقنابل:

وأعد محمد علي للبارود والقنابل مخازن خاصة على سفح المقطم.

مصنع البنادق في الحوض المرصود:

في سنة ١٨٣١ أنشئ مصنع آخر للبنادق في الحوض المرصود وكان من قبل معداً للنسيج وكان يديره رجل إيطالي من جنوة عمل أولاً مع أدهم بك بالقلعة وكان اسمه مسيو (مارنجر) وسمى بعد ذلك باسم (علي أفندي) وقام بتدريب العمال لهذا المصنع وأصبحوا في غاية المهارة وكان هذا المصنع ينتج في الشهر ٩٠٠ بندقية من مختلف الأنواع والأشكال وكان متوسط ما تتكلفه البندقية ٤٠ قرشاً أغلى مما تنتجه القلعة بمبلغ ٢٨ قرشًا.

وأقام محمد علي مصنع بنادق آخر في ضواحي القاهرة وكانت المصانع الثلاثة تصنع في السنة ٣٦ ألف بندقية عدا الطبنجات والسيوف.

معامل البارود:

أقيم معمل للبارود عند المقياس بطرف جزيرة الروضة وكان بعيداً عن المساكن وتولى إدارته مسيو مارتل Martel وكان المصنع يستوعب ٩٠ عاملاً منهم ١٨ في قسم

خلط الكبريت والفحم وملح البارود، ٢١ عاملاً يشتغلون في تقليب البارود في الطواحين وعددها عشرة ولكل طاحونة عشرون مدقة تحركها عشرات تديرها البغال ويقودها عشرة رجال، ٤٠ عاملاً يعملون في صنع الرش وينتج يومياً ٣٥ قنطاراً وكان البارود يصنع بطريقة التبخر.

وتعددت بعد ذلك معامل البارود في مصر وهذا بيانها وبيان إنتاجها سنة ١٨٣٣م

اسم المعمل	الكمية بالقنطار
معمل القاهرة	٩٦٢١
معمل البدرشين	١٦٨٩
معمل الأشمونيين	١٥٣٣
معمل الفيوم	١٢٧٩
معمل إهناسي	١٢٥٠
معمل الطرانة	٤١٢
الجملة	١٥٧٨٤

الباب الثالث عشر

جيش مصر في عصر محمد علي

الفصل الأول

محاولات تحديث القوات المصرية

بعد أن تخلص محمد علي من متاعبه الداخلية واستقر الحكم له. قرر أن يكون لمصر قوات مخلصة تحافظ على استقرار الحكم فيها وتحقق الأمن والطمأنينة للشعب المصري.

ودفعه حبه للجندية مثل ما كان من القوات العثمانية وسياسته الخارجية الشاملة إلى أن يكون له جيشاً قوياً تحت تصرفه، يحركه كيف يشاء ضد أعدائه أو يخوف به السلطان العثماني ليحصل على السلطة الوراثية في حكم مصر أو يعمل به على إثارة الباب العالي حتى لا يفكر في إقصائه من حكم مصر. وربما نفسه الطموحة دفعته أن يقوم بتكوين امبراطورية مثل الامبراطوريات الأوروبية في ذلك العصر ولكي يحقق كل هذه الدوافع قام بعدة محاولات لتأليف هذا الجيش القوي.

إحداها محاولته الأولى تدريب وتنظيم من قومه الأتراك (الألبان) الذين وقفوا من خلفه حتى وصل إلى السلطة ليصبحوا قوات ذات نظام أدى إلى اندلاع حركة تمرد ضده كادت أن تؤدي به إلى نفس المصير الذي لقيه المماليك والتي أفلت منها بفتح الأهوسة وإغراق القاهرة وكانت محاولته التالية استخدام الرقيق الذين جلبهم من السودان جاءت النتائج لهذه التجربة مخيبة لآماله. وقد ذكر مؤرخو العصر أن من بين العشرين ألف سوداني الذين ساقهم كقطعان من الحيوانات إلى ثكناته في مصر لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة آلاف بينما مات الباقون من الاكتئاب كما تموت الحيوانات كما كانت الحياة العسكرية تفوق قدرتهم. ومن ثم لم يكن أمامه إلا تجنيد المصريين.

وإذا كانت مصر قد رضخت تحت الهيمنة الأجنبية قروناً عديدة فإن ذلك يرجع في المقام الأول إلى أن الفلاح المصري لم تعط له الفرصة أن يحارب أبداً.

لقد عانى الشعب المصري من الظلم ما لا يطيقه شعب آخر لقد تحمل بما أوتي من قدرات نفسية أشكالاً من التسلط والقهر وانتهاك الحرمات فلا يمكنني أن أصورها بقلمي لفظاعتها وجسامة المعاناة.

لقد وقعت مصر من سوء حظها تحت سيطرة معظم الجنسيات التي تقع في حوض البحر المتوسط ومن المؤسف أن معظم بلدانه كان تحت سيطرة الدولة العثمانية..ومن جانب آخر أوجدت الدولة العثمانية توعيات مختلفة من الجنود فصارت إقامتهم بمصر بمدد طويلة ولا ننسى المحتلين والغزاة.

هذه النوعيات استخدمت ما لديها من أعمال سيئة ضد المصريين مما دفع الشعب المصري إلى الثورة على الوضع السيء الظالم الذي أغرق حياته.

ويوضح الجبرتي بصورة فيقول في يوم الأحد ١٢ من شهر صفر ١٢٢٠ هـ احتشد جمع غفير من المشايخ والرجال والأطفال والنساء وذهبوا إلى بيت القاضي ليطالبوه بشرع الله وطلبوا أيضاً من القاضي أن يرسل إلى المتكلمين للحضور لمجلس الشرع.

كان محمد علي له دراية كاملة بمجريات الأمور في كل مدن وقرى مصر وله دراية أيضاً بأنواع الظلم والاعتداءات التي يقوم بها جنود الدولة العثمانية والمماليك والعربان على المصريين الفقراء العزل.

إن هذا الوضع السيء في مصر أشبه ببركة راكدة على سطحها الفوضى والفساد والسلب والنهب.

فكر محمد علي ماذا يفعل وسط ذلك؟ وما هي الوسائل التي يمكن أن يستخدمها ضد وجود هؤلاء الوحوش المفترسة التي أطلق عليهم عسكر الدولة العثمانية وكيف

يمكنه التخلص منهم؟ وقرر أن يعلن للدولة العثمانية أن وجود هؤلاء العسكر خطر على مصر ولذا قرر إبعادهم عن أمكنة تواجدهم في المدن والقرى واتخاذ الإجراءات الصارمة للسيطرة على سلوكهم وتنظيمهم من جهة أخرى.

بادر محمد علي باتخاذ خطوات تنفيذية بعد أن أجرى العديد من التجارب التي دامت عشر سنوات من ١٨٠٥م - ١٨١٥م تهدف إلى إلزام هذه القوة بالتدريب والتنظيم على نفس المنهج الأوروبي العسكري. وكانت تجربة التدريب التي قام بها في عام ١٨١٥م لم يكتب لها النجاح وأوجدت ثورة مضادة من أولئك العسكر الذين اعتادوا عدم التقيد على أهوائهم ونزواتهم وتسلطهم على المواطنين بدرجة لو قارنتها مع الوحوش لوجدت الوحوش المفترسة أرفأ حالاً من هؤلاء.

ولم تكتف ثورتهم على المصريين بل تعدى أمرهم إلى الغدر بمحمد علي وكادوا الفتك به لولا أن عابدين بك تصرف دون علم منهم وخرج إلى محمد علي وأخبره بتلك الأحداث فأدى ذلك إلى أن محمد علي اتخذ من أمره التدابير اللازمة لوقاية حياته. ولما كشف أمرهم أخذوا في غيهم السبل الكثيرة ضد المصريين بعد أن تفرقوا في شوارع القاهرة فنهبوا متاع السكان وأموالهم وشاركهم في ذلك من سولت لهم أنفسهم في الاستيلاء على أمتعة الغير رغبة في الجشع والقبائح الذميمة.

ويصف الجبرتي هذا كله ..."نزلوا المدينة وكسروا أبواب الحوانيت ونهبوا ما فيها وشاركهم الكثير من الشطار والرعاع والعامة المفلسين والجياع ومن لا دين له".

تقرب محمد علي إلى الشعب المصري بأصناف كثيرة من التودد إليهم وتعويضهم ما ألم بهم من خسارة من هذا الوضع. وتأكد من أن الشعب يريد أن يقف معه في أي تنظيم يقدم ضد هذه الأوضاع.

وعند عودة طوسون من الحجاز دارت بين طوسون ووالده محاورات عن الوضع الداخلي في مصر ومن بينها أوضاع الجند وتجمعهم واتخاذ التدابير لتفريقهم عن القاهرة، فجعل كل من:

١ - طوسون في الجهاد وأبي مندور سار توللي، ومحمد بك بالبحيرة.

٢ - وحسين بك محو إلى البحيرة

٣- وبعض منهم في دمياط

وكان قرار محمد علي بهذا التفريق لتلك القوات المشاغبة أن يخلص المصريين من الأضرار والفساد والضيق. كما أن تواجد هذه القوات في داخل القاهرة لا حاجة ضرورية إلى بقائهم فيها وبإيجادهم كمرابطين من أجل حفظ الثغور ضد أي تهديد مفاجئ لمصر من الخارج. وفي بداية الأمر واجه محمد علي عراقيل في تنفيذ قراراته لكنه تغلب عليها.

وكانت هناك مشكلة واجهت محمد علي هي مشكلة سكن العسكر في خيام مدة طويلة من باب آخر أن الخيام عملياً لا تكون مريحة لسكانيها من الجنود خاصة في مدد كثيرة وفي الفصول الأربعة السنة التي تمر على مصر من برد وحر قد تؤثر على الخيام. فأحيانًا يلجأ العسكر إلى ترقيع خيامهم.

فكر محمد علي بتلاشي هذه المشكلة وهداه تفكيره في إقامة القشلات فأصدر أوامره إلى جميع قرى مصر أن يقدم سكانها أعداداً معينة من الطوب يتناسب طردياً مع عدد السكان في كل قرية فكان القائمين على تنفيذ أوامره أن يجتمعوا مع مشايخ القرى ثم يفرض على كل شيخ عدداً معيناً من الطوب الأخضر ثم يحرق، مع إعطاء فترة تقديم ما هو مفروض على كل قرية لا تتجاوز شهراً لنقل ما فرض عليهم، كما فرض على كل قرية أن يقدموا أفلاق النخيل والجريد وتقديم عدد من الرجال الأقوياء للعمل في البناء مقابل أجر رمزي يعطى لهم. وبهذا العمل تمكن محمد علي من إيجاد أمكنة لهؤلاء لا يغادروها إلا بأمر من قائدهم.

الفصل الثاني

تكوين جيش مصر الحديث

لم يكن التغيير والتحديث للنظام الجديد بالأمر الهين، فقد صادف محمد علي في طريقه صعاباً وعقاباً لا تقل عما صادفه السلطان العثماني سليم الثالث، عندما أراد إدخال "النظام" في بلاده، إذ انضم العلماء إلى جماعة الانكشارية في معارضة هذه "البدعة"، وأرغموا السلطان على الانسحاب إلى آسيا الصغرى في عام ١٨٠٦م، وكذلك الحال في مصر إذ انضم العلماء إلى جماعة الألبانيين، وعارضوا محمد علي في محاولاته الأولى (في أغسطس ١٨١٥)، رغبة في القضاء على "بدعة النظام الجديد"، وصاروا يرددون الحديث الشريف، "كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار". ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنهم تآمروا حتى على حياته، وقد ذكر الشيخ الجبرتي كثيراً من أخبار تلك المؤامرات، في حوادث شهر شعبان ١٢٣٠هـ (٩ يوليو - ٦ أغسطس ١٨١٥م)، ورأى محمد علي في مثل هذه الظروف أن يصطنع الحذر والأناة في معالجة الموقف، فأخذ ينتحل المعاذير لتفريق الجند في أنحاء مصر المختلفة، أو لإرسالهم على صورة نجدات أو إمدادات لجيوشه في بلاد العرب، وظل محمد علي يجري في سياسته على هذا النحو، حتى أحس بأن سلطانه في مصر قد توطدت دعائمه، وأن صيته قد ذاع في أرجاء العالم الإسلامي، بسبب انتصاره على الوهابيين واسترداد مكة والمدينة من أيديهم، وعندئذ رأى أن الفرصة أصبحت مواتية للإقدام على محاولته الثانية، وكان ذلك حوالي عام ١٨١٩م، فبادر بإرسال عدد من الرقيق السود أي "العبيد" إلى فرشوط، لتدريبهم تحت إشراف إبراهيم أغا أحد "العصاة" الذين لجئوا

إلى مصر من الآستانة، ولم يلبث محمد علي أن وجد الحاجة ماسة إلى تكوين هيئة من الضباط المدربين على الأسلوب الحديث لتنظيم الجيش الجديد الذي اعتزم إنشاءه، كما دعت الضرورة إلى اختيار مدربين يقومون بتعليم الجنود.

وكان اختيار أولئك الضباط والمدربين أو المعلمين مثار صعوبات جمة، لأن محمد علي لم يشأ أن يستقدمهم من تركيا حتى لا يثير شبهات الباب العالي من ناحية، ولأن الجيش العثماني إذ ذاك لم تكن الحال تسمح بإرسال المدربين من ناحية أخرى لذا رأى محمد علي أن يتجه صوب أوروبا حيث وجد ضالته إذ أن عدداً كبيراً من الضباط الفرنسيين يسعون وراء الرزق وخوفاً مما يصيبهم من الأذى في عهد ملكية البربون الرجعية. فقد رأى محمد علي أن يستخدم منهم جماعة في جيشه الجديد لا سيما أنه كان قبل ذلك قد ألحق ضابطاً فرنسياً يدعى فاسير Vassiere بخدمة ابنه إبراهيم في أثناء حروبه مع الوهابيين كما رأى أن يستخدم بعض الإيطاليين والأسبان والبرتغاليين وبذلك اجتمعت لدى محمد علي نخبة ممتازة كان من بينهم:

(١) شاتي Chatis

(٢) دو مبرج Doumergue

(٣) كسيون Caisson

(٤) بوسا Boussa

(٥) سيفان Sevin

(٦) دارجون Daragon

(٧) ماري Mari ويعرف باسم بكير أغا.

(٨) وأخيراً سيف Seve المشهور باسم سليمان الفرنساوي وقد سبق ذكره كمستشار لمحمد علي في العلوم العسكرية الذي كان له من بين المصريين أصدقاء كثيرون،

فلما استقر رأي محمد علي على تنظيم جيشه بعد انتصاراته على الوهابيين، لم يجد أوفق من "سيف" ليشغل منصب المعلم الرسمي للنظام الجديد يعاونه "دوميرج" "وكادو" "وكيسون" و"ماري" أو "بكير أغا"، ولم يكن هؤلاء جميعاً بما فيهم "سيف" نفسه سوى "تعليمجية".

وحوالي عام ١٨٢٠م أنشئت مدرسة المشاة العسكرية، ووضعت تحت إدارة "سيف" وانتقى محمد علي تلاميذها من بين أفراد أسرته وأبناء موظفيه وبعض النابهين من المماليك، وكان عددهم يتراوح بين ثلاثمئة وأربعمئة، وشرعوا يقومون بتمريناتهم في ميدان الرميلة بالقلعة، على مرأى من الأهلين والعلماء والمشايخ وغيرهم، فكان ذلك مدعاة لقيام عدة صعاب، منشؤها الجهل والتعصب، والنفور من الخضوع لرجل "رومي"، يفرض أوامره ونواهيه على طائفة من المؤمنين، لذلك طلب "سيف" في أكتوبر ١٨٢١م أن تنقل هذه المدرسة إلى الوجه القبلي، فوقع الاختيار على أسوان لبعدها عن القاهرة ومؤثراتها من ناحية، وقربها من السودان، ذلك القطر الذي ينتظر أن يكون أهم مراكز التجنيد للجيش الجديد من ناحية أخرى، وقد لقى "سيف" في تعليم هؤلاء الضباط وتدريبهم متاعب كثيرة، ذكرها "مانجان" وغيره من المؤرخين، كما ذكرها "تيودور دلسبس" Theodore de Lesseps شقيق فردنند دلسبس الأكبر، وكان قد زار الوجه القبلي في ذلك الحين، قال "لقد رأى سيف حياته تتعرض للخطر عدة مرات، كما شاهد جهوده وهي قاب قوسين أو أدنى من الفشل، فكثيراً ما أصدر الأمر بإطلاق النار فإذا به يسمع صوت الرصاص يدوي على مقربة منه، ولكنه استطاع بفضل ثباته أن يؤدي الواجب الذي ينط به أداء موفقاً" على أن "سيف" كان يلقي كل تأييد ومعاضدة من محمد علي وكبار رجال الدولة، أمثال "محمد بك لاظ أوغلي" وزير الداخلية ثم الحربية، وعثمان نور الدين الذي نقل إلى التركية القواعد العسكرية الفرنسية، التي صارت أساساً لتعليم الضباط الجدد.

وإلى جانب مسألة الضباط كان محمد علي معنياً بمسألة الجند الذين يجب إرسالهم إلى أسوان حتى يقوم "سيف" وضباطه الجدد بتدريبهم وتعليمهم، ولما كان من غير المعقول أن يختار محمد علي هؤلاء الجنود من بين الألبانيين الذين أراد أن يتخلص منهم، أو البدو الذين يتعذر عليه إرغامهم على ترك بلادهم في الحجاز، فقد فكر في تجنيد السودانيين، ومن الثابت أن الرغبة في تجنيد السود في النظام الجديد كانت من الأسباب الأساسية لفتح السودان، وآية ذلك ما أصدره محمد علي من أوامر إلى قائدي جيشه في سنار والكردفان، وهما ابنه إسماعيل وصهره محمد بك الدفتردار، حتى يكثرا من إرسال " العبيد" إلى مصر مهما كلفهما الأمر من مشقة أو نفقة، كما ذكر " كاليو" Cailiaud صاحب الرحلة المشهورة إلى مروى أن "الحصول على أكبر عدد مستطاع من السود" كان من بين أغراض الحملة التي ذهب بها إبراهيم باشا إلى السودان على رأس جيش ثالث، وأن عدد من كان يراد تجنيدهم من هؤلاء العبيد لم يكن يقل عن ثلاثين ألفاً أو أربعين، وهكذا أخذ سيلهم يتدفق على مصر كلما تقدم الجيش الفاتح في بلادهم. وفي أسوان شرع "سيف" يعني بهم، فأنشأ الثكنات الصالحة لإيوائهم، وهيأ لهم خدمة صحية تحت إشراف دوساب Dussap أحد الأطباء، وصاروا يطعمون بالمصل الواقي من الأمراض الوبائية عند وصولهم، كما أعد مستشفى للعناية بمرضاهم، ولكن جميع هذه الجهود وكل تلك العناية لم تستطع الإبقاء على حياتهم، فانتابتهم الأمراض، وتلقفهم الموت بكثرة أزعجت محمد علي، وحملته في النهاية على تجنيد "الفلاحين" من أهل مصر في جيشه الجديد.

إن محمد علي حين اعتزم تجنيد المصريين لم يجد الطريق أمامه معبداً مفروشاً بالورد والريحان، بل ألقاه على العكس من ذلك كثير المزالق مليئاً بالأشواك، وكان للطبقة الأرستقراطية التركية دخل كبير فيما لقيه الباشا من صعاب وعقاب، لأن أفراد هذه الطبقة لم يكفهم أن يرفضوا انخراط أبنائهم في سلك الجندية، بل أرادوا كذلك أن

يحولوا دون تجنيد المصريين، وحجتهم في ذلك أن الجندية مهنة نبيلة يحط من قدرها أن تصبح في متناول "الفلاحين" كما زعموا أن وضع السلاح في أيدي "الفلاحين" "المغلوبين" إنما هو تسليمهم الأداة التي يطردون بها "العثمانلي" "الغالبين"، ولكن محمد علي رأى أن يمضي في سبيله قدماً غير عابئ بمثل تلك المزاعم والآراء، فأقبل على تجنيد المصريين أيما إقبال، ونجحت التجربة نجاحاً لم يكن يتوقعه، وسرعان ما ألف "الفلاحون" حياتهم الجديدة وأصبحوا يرون من دواعي فجرهم أن يعتبروا أنفسهم من "جند محمد علي" وهكذا ظل "العبيد" و "الفلاحون" يفدون على معسكر أسوان، ومن أولئك وهؤلاء استطاع "سيف" في عام ١٨٢٣م أن يعد ستة ألايات من الجند المشاة طبقاً للتعاليم والأنظمة المعمول بها في فرنسا منذ صدور قانون جوفيون سان سير Gouvion-Saint-Cyr في ٢٣ أكتوبر ١٨٢٠م.

غير أنه لما كانت أسوان بعيدة عن القاهرة، ولم تكن المواصلات سهلة ميسورة بين عاصمة البلاد ومركز تدريب النظام الجديد، وكان جو أسوان الحار يساعد على انتشار المرض بين الجنود، فقد أمر محمد علي في الشهور الأولى من عام ١٨٢٣م أن ينتقل الجند إلى مكان قريب من القاهرة، على أن يتم هذا الانتقال على عدة مراحل، حتى لا يضار الجند بسبب انتقالهم الفجائي من الجو الحار إلى الجو المعتدل، ولذلك انتقل المعسكر من أسوان، واستقر فترة إثر فترة في إسنا وأخميم ثم في أبي تيج، حيث زارهم محمد بك لاظ أوغلي ناظر الحربية وقام بالتفتيش علهيم، ولم يلبث محمد علي نفسه أن زار المعسكر عندما انتقل بعد ذلك إلى بني عدي قرب منفلوط في ديسمبر ١٨٢٣م، وكان يصحبه في هذه الزيارة كل من "دروفتي" القنصل الفرنسي "وصولت" القنصل الإنجليزي، وقام الجند بمناورات حازت إعجاب الجميع وبعد العرض شكل كل آلاي مربعاً وقف وسطه الضباط وتسلم كل آلاي علمه الخاص، وقد وصف فولابيل Vaulabelle حفل تسليم الأعلام وحلف اليمين، وكيف قرأ الأئمة – المشايخ – آيات من الذكر الحكيم

وكيف نحرت الذبائح، وانتهى الحفل بإطلاق المدافع، وقد سر محمد علي مما رأى، وعقد النية على أن يضع هذه الآلايات الجديدة موضع التجربة، فسافر الآلاي الأول صوب أسوان في طريقه إلى سنار وكردفان في ٥ يناير ١٨٢٤م، وسار الثاني إلى القصير للإبحار منها إلى جدة، أما سائر الآلايات فغادرت مقرها بعد قليل إلى المورة، وفي جميع هذه الميادين برهن النظام الجديد على كفاية ممتازة.

وكان الجيش النظامي في عام ١٨٢٤م يتألف من تلك الآلايات الستة فحسب، وعدتها أربعة وعشرون ألف جندي، أما غير النظاميين فكانوا حوالي عشرة آلاف، وزع أكثرهم بين بلاد العرب والنوبة وسنار والكردفان هذا عدا الفرسان والمدفعية، وقد بلغ عدد الفرسان نحو ثمانية آلاف أغلبهم من الدلاة والتركمان، وكانوا مقسمين "زمراً" كل "زمرة" مؤلفة من خمسمئة فارس، بقيادة "بك" يلتحق بخدمة الباشا مدة معينة، وكانوا لا يعرفون النظام ولا يربط بينهم سوى الطمع في الغنائم والأسلاب، وفضلاً عن ذلك فقد كان لكل كبير في الدولة جماعة من فرسان المماليك البيض، بلغ عددهم ١٠٦١٠ في عام ١٨٢٥م، وأما المدفعية فكانت تتألف من ١٢٠٠ عثماني، يستخدمون مدافع ميدان أو حصار اشتريت من تركيا وفرنسا وأسبانيا، ولم تكن هذه المدافع في الواقع ذات قيمة حربية كبيرة، إذ كانت تستخدم فحسب عند الرغبة في إصابة أهداف قريبة، أو إطلاقها على جموع كثيفة، أي أن فائدتها كانت أظهر في مثل حرب الوهابيين أو حرب السودان ضد طوائف البدو وقبائل السود، وقد حدث في عام ١٨١٥م أن حاول "جوناردي فينور" Gothard de Veneur أحد الضباط الفرنسيين، إصلاح المدفعية المصرية بابتكار نوع جديد من المدافع، ولكنه توفى قبل أن يضع اختراعه موضع التجربة، وفي مارس ١٨٢٢م، أي بعد سبع سنوات، قام بارون سويدي يدعى "ويترشيت" Wittrshcett بتجربة أخرى ولكنه لم يوفق، ولعله مما يجدر ذكره أن محمد علي صنع بعض مدافعه الأولى في المصانع التي أنشأها وأحضر لها مهرة الصناع من

أوروبا، وكان أهم هذه المصانع في القلعة، وقد وصفها "مانجان" بقوله "إن أقسامها الواسعة كانت تشغل حيزاً عظيماً من القلعة، يمتد من قصر صلاح الدين القديم إلى باب الانكشارية الذي يطل على ميدان الرميلة، وكان يصنع في معمل صب المدافع في كل شهر من ثلاثة إلى أربعة مدافع من عيار أربعة وثمانية أرطال، وكانت تصب فيه أحياناً مدافع الهاون ذات الثماني بوصات، ومدافع من هذا النوع يبلغ قطرها أربعاً وعشرين بوصة" ومنذ عام ١٨٢٤م كان بالقلعة إلى جانب معمل صب المدافع معمل آخر للبارود، وثالث للأسلحة، وكان معمل صب المدافع تحت إشراف فرنسي يدعى جونون Gonon كانت تعوزه الخبرة والحكمة، ولم يكن ما ينتجه معمله من النوع الجيد، ولهذا لم يستطع أن يحوز رضا محمد علي، أما معمل البارود فكان يشرف عليه فرنسي آخر هو "قسطي" Coste رئيس مهندسي الوالي، وإليه يرجع الفضل في إعادة إنشاء معمل البارود القديم، الذي أسسه الكيميائيون من علماء الحملة الفرنسية قبل ذلك بحوالي ربع قرن في جزيرة الروضة قبالة مصر القديمة، وأما معمل الأسلحة والبنادق فقد أسس في عام ١٨٢٣م بفضل جهود فرنسي يدعى "جيلمان" Guillemain لم يلبث أن خلفه إيطالي يدعى "فرانجيني" Frangini قضى المعمل تحت إشرافه نحو سنتين، قبل أن يتم صنع بندقية واحدة، رغم ما تكبده محمد علي من نفقات طائلة، ولهذا ظل يشتري بنادق الجيش من الخارج، وإن لم تكن من النوع الجيد.

غير أن هذه المعدات وتلك القوات لم تكن كافية في نظر محمد علي، لأن الآلايات الستة لم تلبث أن أرسلت بعد تدريبها إلى السودان والحجاز والمورة، وكادت مصر نفسها تخلو من جيش قوي، يستطيع الدفاع عنها إذا دعت الظروف، هذا إلى أن القضاء على الجيش الجديد كان أمراً محتملاً، إذا رأت تركيا أو الدول الأوروبية الاشتباك مع الباشا، قبل أن يكون لديه من الجنود ما يسد حاجة الميدان، لذلك قرر محمد علي أن ينشئ ثلاثة آلايات جديدة على غرار الآلايات الستة السابقة، فسارع إلى حشد

المجندين في بني عدي وعهد بتعليمهم إلى مهندس قديم من نابولي يدعى "شياندي" Chiandi، ويعرف باسم "قاسم أغا"، وكان الرجل يطمع في أن ينال من الحظوة لدى الباشا ما ناله سليمان الفرنساوي فهداه التفكير إلى نقل المعسكر من بني عدي إلى "أثر النبي" جنوبي مصر القديمة، ثم إلى "القبة"، غير أن قرب المعسكر من أماكن اللهو والتسلية بالقاهرة، وما عرف عن عداء العاصمة لكل جديد في الجيش، جعل الباشا يأمر بنقله إلى مكان بين "الخانقاه" "وأبي زعبل" عرف باسم "جهاد أباد"، وفي معسكر "جهاد أباد" أكملت الآلايات الثلاثة، السابع والثامن والتاسع، تدريبها في أغسطس ١٨٢٥م.

وفي مايو ١٨٢٥م أنشأ محمد علي في معسكر الخانقاه فرقة موسيقية من فرنسيين وأسبان وألمان يعزفون على آلات أوروبية، وقد أثار وجود هذه الفرقة من السخط في أول الأمر ما أثاره استخدام الأطباء البشريين والبيطريين من جراء الميل إلى معارضة كل ما هو جديد وعدم استساغة الأنغام الأوروبية، ومع ذلك فقد أخذت وطأة هذه المعارضة تخف رويداً رويداً، وبدأ كبار رجال الجيش يألفون الموسيقى، وأصبح لأكثر الآلايات فرق موسيقية خاصة بها، وأسست في الخانقاه مدرسة للموسيقى تضم ثلاثين ومئة تلميذ، وكان يشرف على إدارة هذه المدرسة في عام ١٨٣٨م الفرنسي "كاريه" Carre يعاونه أربعة من المعلمين.

وفي هذه المدة نفسها لم تنقطع عناية محمد علي بالمدفعية التي بدأ تنظيمها أيام البعثة الفرنسية العسكرية على أيدي الضابط "راي" Rey، الذي أصر على إخراج الإيطالي "فرانجيني" Frangini من القلعة في عام ١٨٢٥م، وقد تقدم كيف أن "راي" اضطر إلى العودة بعد قليل إلى فرنسا فخلفه في الإشراف على صنع المدافع والأسلحة بالقلعة المهندس الإيطالي "بورياني" Boreani وعين محمد علي لإدارة ترسانة القلعة حسين بك، وكان تعيين هذا الشاب مثار الدهشة والسخط لدى كبار السن من الترك، ثم عهد

بالإشراف على تلك المصانع إلى أدهم بك، أحد المتخرجين في مدرسة الهندسة بالآستانة، وقد أثنى عليه "مارمون" عند زيارته هذه البلاد في عام ١٨٣٤م ثناء عظيماً، إذ تقدمت الأعمال تحت إشرافه تقدماً ملحوظاً؛ فقد بلغ عدد العمال المشتغلين في صب المدافع خمسمئة وألف عامل، وفي صنع الأسلحة تسعمئة، وكان الأولون ينتجون في الشهر الواحد ثلاثة مدافع أو أربعة، هذا عدا مدافع "الهاون" وغيرها، أما الآخرون فكان إنتاجهم من البنادق في الشهر الواحد يتراوح بين ٦٠٠ و ٦٥٠، عدا الأزناد والسيوف والحراب والسرج واللجم. وفي عام ١٨٣١م أنشئ مصنع في "الحوض المرصود"، تحت إشراف إيطالي من جنوة يدعى "مارنجو" Marengo، اشتهر باسم علي أفندي، وكان يشتغل بهذا المصنع حوالي مئتين وألف من العمال، يصنعون البنادق ويصلحون الأسلحة القديمة المستعملة في التدريب، وحوالي عام ١٨٣٧م أنشئ مصنع للدباغة، تحت إشراف "روسي" Rossi اليوناني وبعض الصناع الفرنسيين ليمد الترسانة بما يلزمها من الجلود، ولكن هذا المصنع لم يعش طويلاً، فلم يلبث أن صدر الأمر بإغلاقه وصارت الجلود المطلوبة تستورد من مرسيليا. وقد أعيد إنشاء معمل البارود القديم في الروضة، وكان به من الصناع تسعون، يشرف عليهم الفرنسي "مارتل" Martel، كما كان به عشرون طاحونة تديرها البغال، أما إنتاجه فبلغ خمسة وثلاثين قنطاراً من البارود في اليوم الواحد.

على أن جهود محمد علي في تنظيم المدفعية لم تقف عند هذا الحد، فقد استخدم ضابطاً أسبانياً قديماً هو الكولونيل "سيجويرا" أو "سكويرا" Antonis Seguera، ليكون مستشاراً له في هذه الشؤون. وقد أقنع "سيجويرا" إبراهيم باشا بضرورة إعداد الضباط قبل تعليم الجنود، فأسست مدرسة للمدفعية "بطرة" في أواسط ١٨٣١م، وكان بها عند تأسيسها ثلاثمئة تلميذ، وقع عليهم الاختيار من بين تلاميذ مدرسة القصر العيني التجهيزية التي أنشأها محمد علي في عام ١٨٢٥م، غير أن الانقسام لم

يلبث أن أخذ يدب بين "سيجويرا" ومساعديه من الضباط الفرنسيين إذ كان يسوؤهم أن يحل أسباني محل مواطنهم "راي"، فوجهو إليه مختلف المطاعن، وحاولوا النيل من كفايته، ورأى "سيجويرا" أن يرد عليهم تحيتهم بأحسن منها فصار يظهر إعجابه بالإنجليز ويؤثر استعمال لغتهم وإتباع أساليبهم. ولما طال الأخذ والرد، وكثر الجذب والشد، لم يكن غريباً أن تنصرم حبال الود، بين الضابط الأسباني وسليمان الفرنساوي، ولكن على الرغم من تفاقم هذا الخلاف تقدمت المدفعية تقدماً ظاهراً، حتى أصبحت من أقوى أسلحة "النظام الجديد" التي استعان بها إبراهيم في حروب الشام، وقد أعجب محمد علي بما شاهده في مدرسة المدفعية، فرقى "سيجويرا" إلى رتبة البكوية، ولكن "سيجويرا بك" لم يلبث أن اختلف مع محمد علي نفسه إذ رفض التعاون مع المجلس العام الذي شكله محمد علي في يناير ١٨٣٦م للنظر في تنظيم المدارس، فعزله محمد علي وعين مكانه "مصطفى بهجت" ومن بعده "خليل أفندي"، ثم الضابط الفرنسي "برونو" Brunhaut، وقد ظل رئيساً للمدرسة حتى أواخر عهد محمد علي، ولكن لا شك في أن المدرسة تدهورت بعد "سيجويرا".

وإلى جانب تنظيم المدفعية ظهرت الحاجة إلى إعداد مهندسين عسكريين فنيين بدلاً من فرق "البلطجية" الذين تعتمد عليهم آلايات المشاة في إقامة الجسور وبث الألغام وما إلى ذلك، وقد ذكر "فافييه" Faviers، أنه شاهد في الإسكندرية وأثر النبي، عندما زار مصر في عام ١٨٣١م "أورطتين" من المهندسين العسكريين، وعددهم مئتان وألف، ولكنهم كانوا يقومون بأعمال الشرطة والحراسة.

الفصل الثالث

الفرسان (السواري) والنظام الجديد

ولعل أهم ما حدث بعد سفر "بوابيه"، إدخال النظام الجديد في قوة الفرسان المصرية، وكان السر في هذا الإصلاح، أن إبراهيم باشا أعجب أيما إعجاب بقوة الفرسان الفرنسية وتنظيمها في جيش الجنرال "ميزون Maison إبان حرب المورة، ولم يكد القائد المصري يعود إلى أرض الوطن، حتى وصف لوالده العظيم ما شاهده من نظام تلك القوة وبراعتها، فقرر محمد علي على الأثر تنظيم قوة الفرسان المصرية، ولما كان سليمان الفرنساوي من الفرسان القدماء، فقد كان من المنتظر أن يعهد إليه بهذا العمل، ولكن إبراهيم باشا كان غير راض عنه منذ معركة تريبولتزا Tripolitza في يونيه ١٨٢٥م، لذلك وكل الأمر إلى الضابط "بولان دي تارليه"، وهو أحد الفرسان القدماء في الجيش الفرنسي، وقد طلب إليه محمد علي في بداية عام ١٨٢٩م تشكيل سبعة آلايات دفعة واحدة، فاعتبر "تارليه" ذلك مجازفة لا داعي لها، إذ كان يرى إعداد آلاي واحد إعداداً كاملاً، ثم الانتفاع بما يكتسب من الخبرة خلال هذا الإعداد في تشكيل الآلايات الأخرى شيئاً فشيئاً، غير أن محمد علي كان شديد الرغبة في التأهب على عجل استعداداً للحرب السورية الأولى، فلم يسمح لأحد بمخالفته على أن إعداد قوة الفرسان الجديدة لم يكن بالأمر الهين اليسير، ونظراً إلى ما يتطلبه من الرجال الصالحين لهذا النوع من الخدمة العسكرية وما تمس إليه الحاجة من الأسلحة والخيول وما إليها، وقد عمل محمد علي على تذليل هذه الصعاب، فابتاع الخيول من الشام ودنقلة، كما حصل من كبار الدولة والموظفين على خمسمئة وألفي حصان، أما العتاد والأسلحة فقد ابتاع "ليفرون" بعضها

من فرنسا، وقامت مصانع مصر بإعداد الباقي. وأما جنود هذا السلاح فاختارهم محمد علي من بين عربان الصحراء، وأقطعهم لقاء ذلك أرضاً في مختلف المديريات.

ولما اكتملت الاستعدادات أسرع محمد علي في إرسال الرجال والخيول إلى طرة، وأقبل "دي تارليه" على عمله الجديد في همة ونشاط، ولكن لم يلبث أن اعترضته عقبات كثيرة منها وجود محمود بك عزت في منصب ناظر الجهادية، بعد وفاة محمد بك لاظ أوغلي. وكان الناظر الجديد ناقص التجربة قليل الإلمام بالفنون العسكرية، وقد اشتهر بالمطل والتسويف في جميع ما يعرض عليه من شؤون، حتى بات قوله المشهور "سوف ننظر" علمًا عليه، فعرف بين معاصريه باسم "بقاليم" أو "محمود بك سوف ننظر"، وهو ألباني لم يفسح مجال الترقي أمامه سوى عطف محمد علي عليه، بعد أن أمضى صدر شبابه يشتغل بالتجارة.

وكان من العقبات التي صادفت "بارليه" كذلك، عدم تعود الفرسان النظام الأوروبي في إعداد الخيل واعتلاء صهواتها والتدرب على ركوبها، هذا إلى عدم وجود العدد الكافي من المدربين، فلم يكن هناك سوى اثنين من الطليان لتعليم ستمئة فارس، وقد ظل "دي تارليه" لا يجد حاجته من المدربين حتى قدم من فرنسا في نهاية عام ١٨٢٩م ثلاثة من ضباط السواري هم "توشبيف" De Toucheboeuf، و"ماي دي شال" Mey de Chales، و "بتي" Petit ثم لحق بهم بعد قليل القومندان "نويل فاران" Noel Varin، وكان من ضباط أركان حرب ماريشال "جوفيون سان سير" القدماء، وقد أمكن بفضل معاونة هؤلاء جميعاً تنظيم الآلايات السبعة المطلوبة، على النظام الفرنسي في عام ١٨٣٠م.

على أن إبراهيم باشا لم يلبث أن أوحت إليه الخبرة التي كسبها خلال حرب المورة، إدخال تعديل جديد، فقد عمد إلى تقسيم الفرسان لواءات ثلاثة، ووضع على رأس كل منها "أمير لواء"، وعين على اللواء الأول سليمان الفرنساوي، بعد أن رضي عنه بفضل

وساطة محمد علي نفسه، وعهد برياسة اللواء الثاني إلى أحمد المنيكلي بك، أما الثالث فقد أسندت رياسته إلى سليم بك ثم وزع المعلمين أو المدربين "دي تارليه" و "دي تو شبيف" و "ماي دي شال" على اللواءات الثلاثة.

ولما كانت قوة الفرسان الجديدة في حاجة إلى ضابط، فقد أسس محمد علي في أوائل عام ١٨٣١م – عملاً برأي سليمان الفرنساوي فيما يظهر – مدرسة للفرسان في الجيزة بسراي مراد بك القديمة، وكان موقع المدرسة جد ملائم، إذ أن قرب المكان من النيل يجعل العناية بالخيل ميسورة، كما أن وجود سهل فسيح بجواره يساعد كثيراً على القيام بالمناورات والتمرينات وما إليها، وقد عهد محمد علي بإدارة المدرسة إلى "فاران"، فأشرف على تعليم عشرين ومئة من المماليك، وكان حظه من النجاح موفوراً، ولعل هذا هو السر في أن محمد علي رأى في عام أن يمد هذه المدرسة بحوالي خمسين وثلاثمئة من الشبان الأتراك والمصريين، على أن فاران كان في الواقع مقصوراً على الإشراف الفني، بينما قام بالأعمال الإدارية مدير كان حلقة الاتصال بين المدرسة والحكومة.

وقد استدعى تنظيم قوة الفرسان تنظيم الخدمة الطبية للعناية بالخيول، أي تنظيم الطب الحيواني أو البيطري، ولم تكن عناية محمد علي بهذا النوع من الطب أمراً جديداً، فعندما فتك الوباء بالماشية في الوجه البحري، خاصة ما كان يستخدم منها في مصانع ضرب الأرز برشيد، رأى محمد علي استقدام أخصائيين لمكافحة هذا الوباء، فحضر من فرنسا في عام ١٨٢٨م الطبيبان البيطريان "هامون" Hamont و "بريتو" Pretot، وقد تخرج أولهما، وهو "بيير نيقولا هامون" Pierre Nicolas Hamont في مدرسة "الفور" Alfort البيطرية الملكية، والتحق بخدمة الجيش الفرنسي، وفي أغسطس ١٨٢٧م حصل من وزارة الحربية بمساعدة ليفرون على إجازة لمدة عام واحد، "للذهاب إلى مصر والالتحاق بخدمة محمد علي" غير أنه استطاع البقاء في مصر أربعة عشر عاماً درس

خلالها أحوال مصر عن كثب، مما هيأ له الفرصة ليكون أحد كبار المؤرخين المعاصرين لعهد محمد علي.

وقد صادف " هامون" و "بريتو" منذ البداية صعوبات شتى، منشؤها في الغالب تعصب " الفلاحين" وموظفي الحكومة، حتى حيل بينهما وبين الفحص عن أنواع الحيوان التي أصيبت بأمراض " من عند الله" واقتصر عملهما على علاج تلك التي أصيبت بسبب حادث من الحوادث، غير أن هذه العوائق لم تحل دون تأسيس مدرسة للطب البيطري في رشيد، كان عدد تلاميذها عشرة وقد طلب " هامون" نقلها إلى القاهرة، واستقرت أخيراً في أبي زعبل قرب مدرسة الطب البشري التي كان يشرف عليها كلوت بك مما أدى إلى قيام المنافسة والنزاع بين الرجلين نحو أربعة عشر عاماً، إذ احتدم الجدل بينهما في أي فرعي الطب يفضل على الآخر، ومهما يكن من الأمر فقد أفلح "هامون" في أن يجعل تلاميذه المتخرجين من مدرسة الطب البيطري يتمتعون بنفس المزايا التي كان يتمتع بها زملاؤهم من الأطباء البشريين. وكان لما صادفه "هامون" من نجاح أثره، حتى أنه عندما انتقلت المدرسة في أوائل عام ١٨٣٧ م إلى اصطبلات شبرا بلغ عدد تلاميذها في العام التالي عشرين ومئة وبعد وفاة "بريتو" كان يعاون "هامون" أربعة من الأساتذة الأوربيين وظلت المدرسة في شبرا إلى آخر عهد محمد علي.

هذا ما كان من أمر قوة الفرسان الجديدة أما القوة القديمة التي كانت تتألف من غير النظاميين فقد أبقاها محمد علي على حالها، وظل يدفع مرتبات أفرادها حتى استطاع الخلاص منهم في هدوء وسلام.

كلمة أخيرة

وأتساءل كيف واجه المصريون خاصة الفلاحون عملية تجنيدهم في الجيش المصري الحديث؟

لقد كان التجنيد من أشد المحن على المصريين. فلقد كان المجند المصري يظل يعمل في الجيش مدداً طويلة لا يرى فيها أهله ولذا واجهوا هذا العمل بأشياء منها:

أولاً: إحداث عاهات مستديمة في أولادهم ويصورها مؤرخ بأن الفلاحات كن يتلفن إحدى عيني أولادهن باستخدام آلات أو بالسم. ولما كان الأقباط معفيين من الخدمة العسكرية كان بعض الشباب المسلم يرسمون وشم الصليب على أيديهم والبعض الآخر من الفلاحين كانوا يخلعون أسنانهم لأنهم كانوا على علم بأن الجندي يحتاج إلى أن تكون أسنانه سليمة لنزع فتيل القنابل.

أما القرويون الفقراء الذين لم يكن في استطاعتهم دفع الدية (رشوة) لمشايخ البلد فقد كانوا يساقون كالأنعام إلى الثكنات مقيدين بسلسلة واحدة بالرغم من أن أعداداً كثيرة كانت تموت منهم في الطريق.

ورغم كل ذلك تمكن محمد علي من بناء جيش وطني على درجة عالية من الكفاءة والتدريب واستطاع بواسطته أن يغير ميزان القوى في شرق البحر المتوسط خلال عشرين عاماً بشكل كبير وسيأتي ذلك إن شاء الله في الفصول القادمة.

بل تحدى محمد علي الباب العالي ذاته إلى الحد الذي يحول مصر بمساعدة هؤلاء الفلاحين الفقراء من ولاية ينظر إليها على أنها وراء في امبراطورية متصدعة إلى قوة عسكرية ينظر إليها بإعجاب ويمكن القول إن محمد علي بالمصريين رفع راية مصر بين دول العالم.

الباب الرابع عشر

حاجة مصر إلى المواد الخام لصناعة الأسلحة والسفن الحربية

الفصل الأول

التعدين في بلاد الشام

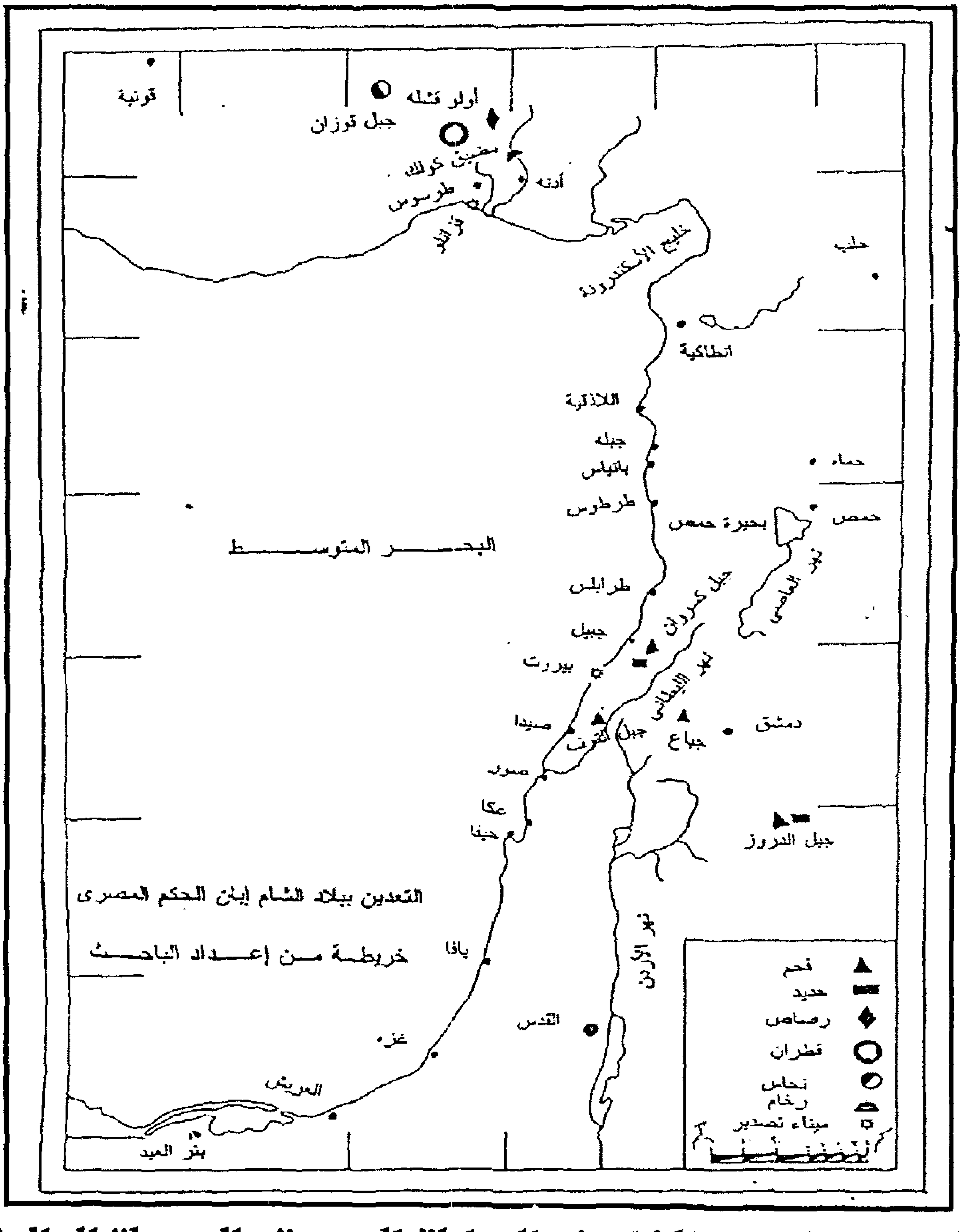

التعدين في بلاد الشام في المناطق الموضحة بالخريطة التالية

منذ بداية حكم محمد علي كانت مصر في حاجة ماسة إلى بعض المعادن في صناعة الأسلحة لقواتها المسلحة كما في حاجة إلى بناء السفن الحربية. وعندما استقر الأمر لمحمد علي بحكم بلاد الشام أصدر أوامر في البدء في عمليات التنقيب عن بعض المعادن كالفحم والحديد والقطران ولم تكن للمصريين أية معلومات عن مناطق المعادن لذلك اعتمدوا على أولاد من أهل الشام وأوكل الأمر في هذا الشأن إلى حداد يدعى الأسطى أحمد المصري.

الفحم الحجري

بدأت عمليات التنقيب عن الفحم الحجري بمنطقة "رجباع" تحت إشراف أحمد فهمي والأسطى أحمد المصري وكانت معهما أورطة البلطجية في عكا وهم منقبون أطلق عليهم هذه التسمية ومجموعة من العمال وفي أثناء التوغل في الحفر عثرت هذه المجموعة على الفحم قريباً من سطح الأرض..وانقطع إلا في منطقة على عمق عشرين ذراعاً، لكن الإنتاج في هذه المنطقة كان ضعيفاً لدرجة أن الإنتاج لم يتجاوز للعامل عشرة أقة. وتعطينا الوثائق أن خلال ستة وعشرين يوماً استخرج العمال ٥٠ قنطاراً الذي أصدر على الفور إبراهيم باشا تعليماته إلى تصديره من ميناء صيدا إلى الإسكندرية لكن كتب تقريراً موضحاً فيه إمكانية البحث عن منطقة أخرى فيها كميات كبيرة من الفحم وأكد في تقريره أنه في حاجة إلى حضور متخصص في شؤون المعادن. ثم أصدرت الأوامر لعمال التنقيب بإعادة البحث عن الفحم في منطقة جباع تحت إشراف أحد الخبراء الأجانب، لكنه لم ينجح في الوصول إلى مزيد من الفحم في تلك المنطقة.

ولعب الأمير يشير دوراً هاماً بأنه نبه الأسطى أحمد إلى وجود الفحم في جبال لبنان الغربية وحدد مكان تواجده في جبل كسروان وجبل التوقف. ولما طلب منه

مدهم بدليل رفض بحجة أنه لم تصدر له الأوامر باستخراج الفحم من هذه المناطق المذكورة.

أما الأسطى أحمد ذهب إلى جبل كسروان بتكليف من الحكومة المصرية فأخبر في تقرير له أن تعدين الفحم يحتاج إلى جهود جبارة ومكثفة ومحصلة هذه الجهود كمية محدودة.

أما الخبير الإنجليزي المهندس أكد وجود الفحم بالقرب من منجم قورنيل القديم لكنه أشار إلى أن كمية الاحتياطي في جوف الجبل قليلة بسبب مياه الأمطار ووعورة الطرق المؤدية إلى المعادن.

وأشار أيضاً إلى وجود الفحم في منطقة "زيد بن" لكن لم يخبرنا عن مقداره، وعاين "زحلة" فوجد أن فحمها قليل ونصح الأمير بشير إبراهيم باشا بعدم إجراء أية عمليات تنقيب في جبل "الدروز" خشية أن يقوم الدروز بثورتهم فتحول دون إتمام عمليات التنقيب. وعندما تم إخضاع الدروز في الجسم المصري في عام ١٨٣٤م صدرت الأوامر من محمد علي إلى ابنه إبراهيم بمباشرة عمليات التنقيب عن الفحم والحديد في جبل الدروز وقامت بعثة للتنقيب تحت إشراف مهندس "يوسف بارنبل" وأصدر الأمير بشير أوامره إلى أخيه الأمير شفيق بإرشاد البعثة ومساعدتها وتوفير ما يلزمها من عمـال.

وقد أدت عمليات التعدين المنظمة إلى زيادة الإنتاج في الحقول الثلاثة "فزنايل-زبدين وقباله" ما بين ٥٠ و ٧٠ قنطاراً من الفحم يومياً.

أما الفحم الذي استخرج من جبل المنوف إلى بيروت في مدة عام تقريباً قد بلغ ١٧.٣ قناطير واستبقي هو ثلاثة قناطير جاهزة للنقل وكان مجموع ما استخرج من الفحم حتى عام ١٨٣٨م ٨٧٣٨١ قنطاراً أرسلت جميعها إلى مصر.

والإنتاج السابق لا يمثل إنتاجاً سنوياً ثابتاً إذ تأثر سلباً في كثير من الأعوام بعوامل عدة منها حركات التمرد والعصيان ضد الحكم المصري والأمطار وصعوبات النقل وهو ما نفصله فيما بعد.

وأياً ما كان حجم الإنتاج فقد سد عجزاً كبيراً في حاجة مصر من الفحم الحجري، لكنه لم يلب كل الاحتياجات فلجأت مصر إلى الاستيراد من الخارج، وكثيراً ما كانت ترسل إلى بيروت تطلب المزيد من الفحم، ففي عام ١٢٥٤ هـ/ ١٨٣٨ م الموضح إنتاجها أعلاه أرسل الديوان الخديوي في مصر يطلب إرسال ٤٨٦١١ قنطاراً إلى الإسكندرية فأشار محافظ بيروت لشريف باشا- حكمدار بر الشام- بعدم إمكانية الاستمرار في تشغيل منجم الفحم بسبب حلول فصل الشتاء، وأشار ناظر معدن الفحم إلى أن الإنتاج أرسل كله إلى الإسكندرية وجاري الاستعداد للموسم الجديد بعد انقضاء فصل الشتاء.

وقال الخبراء الأجانب إن فحم بلاد الشام جيد جداً يصلح لإدارة السفن والمصانع، لكنه لا يصلح لصهر الحديد نظراً إلى وجود بثور كبيريتية به، واقترح مهندس بارتيل الإنجليزي إحراق الفحم أربعة أيام ثم إطفاءه بالتراب، ويظل تحت التراب أربعة أيام أخرى لكي يستعمل في صهر الحديد، غير أن النتيجة لم تكن جيدة. واشترط المهندس النمساوي إحراق الفحم ليكون صالحاً لصهر الحديد أيضاً، لكنه لم يحدد مدة الإحراق أو طريقة الإطفاء فأجريت التجارب وتم إطفاؤه بالماء بعد إحراقه يوماً وليلة، ثم إطفاؤه بالتراب بعد إحراقه يومين كاملين غير أن النتائج لم تأت إيجابية.

وبعد استخراج الفحم من المنجم يتم إفرازه وفصل الخبث والأتربة ويعبأ في زكائب ويوزن، ثم تحمله الدواب إلى بيروت. ويسلم القباني تذكرة مختومة لصاحب الدابة بالوزن واسم صاحب الدابة وقريته ليقوم بتسليمها في بيروت مع الفحم، وقد أوصى حنا بحري مدير حسابات بر الشام- لدى تفقده لأعمال مناجم الفحم في جماد

آخر ١٢٥٢ هـ/ ١٨٣٦ م- بأن يكون لدى مأمور المنجم كاتب يسجل إجمالي الفحم الذي يوزن يومياً، لتسهيل عملية المراجعة وتجنب أعمال الغش والسرقة.

ولأهمية عملية التعدين فقد تولى إبراهيم باشا بنفسه الإشراف عليها وكانت الإدارة المصرية قد رأت إسناد هذه العملية إلى الأمير بشير أو أحد أولاده أو أتباعه غير أن إبراهيم باشا اعترض قائلاً لا شك في ولاء الأمير بشير لنا لكنه بلغ الخامسة والسبعين من عمره، ومن الظلم تكليفه بهذه الأمور أما أولاده وأتباعه فهم حريصون على نهب أموال الميري وسلبها.

ويعمل الجهاز الإداري لاستخراج الفحم بشكل هرمي يأتي في قمته ناظر حسابات المعدن، ويعهد إليه الإشراف الكامل على عملية التعدين وتنفيذ سياسة الإدارة المصرية وحل ما ينجم من خلافات، ويخضع هذا الناظر لإشراف حنا بحري أما الإشراف الفني على عمليات التنقيب والاستخراج و تمهيد الطرق، فقد عهد به إلى مهندسين أجانب خبراء في شؤون المعدن. ويشرف على سير العمل في كل منجم مأمور يقوم بتوزيع العمال على أماكن عملهم، فهذا يحفر الأرض وذاك يرفع التراب وغيره يدفع العربات وسواه يدير الدواليب (المفارز) وآخر ينظف الفحم ويحضر الماء للعمال، وهكذا كما يتولى صرف الأجور المستحقة للعمال والمستخدمين.

ويضاف إلى قائمة المستخدمين قباني تابع للإدارة يقوم بوزن الفحم المرسل إلى بيروت وإثباته في تذكرة مرفقة مع المكارية (الحمارين) وهناك كاتب في كل منجم يرصد إجمالي الفحم المرسل إلى بيروت يومياً، إضافة إلى قيامه بقيد أسماء العمال قبل الشروع في العمل يومياً، وإحصائهم عند الظهيرة وبيان أسماء الحاضرين والغائبين ويرأس العمال مشرفون تحت اسم "ضبطان".

وآخر أعمال تعدين الفحم هو النقل حيث واجهت الإدارة المصرية صعوبات جمة في طريق النقل الذي تعترضه سلاسل جبلية وعدد من مجاري الأنهار، إضافة إلى طول

المسافة بين مناطق الإنتاج وميناء التصدير (بيروت)، وقد فكرت الإدارة المصرية في إنشاء سكة حديد، لتسهيل عملية النقل خاصة من جبل الدروز إلا أنها ترددت بسبب ارتفاع التكاليف وعدم وجود دراسة جدوى حقيقية لديها للاحتياطي الموجود في المناجم. واعتمدت الإدارة المصرية على مكارية (أصحاب الحمير) من أهل البلاد في نقل الفحم على دوابهم بالأجرة. وبلغت تكلفة نقل القنطار الفحم خمساً وعشرين قرشاً من جبل الدروز إلى بيروت، قلت إلى النصف في مناجم جبال بيروت. وهي تكلفة عالية لكنها السبيل الوحيد أمام الإدارة حيث قدر المهندس تكلفة إصلاح الطريق مبدئياً بثلاثة آلاف كيس وهو مبلغ لا يتحمله المعدن فاضطرت الإدارة إلى استخدام قواتها العسكرية بالتعاون مع الإدارة المحلية في تمهيد الطرق.

وحرصت الإدارة المصرية على حساب تكلفة إنتاج المعدن على أن يرسل مع اليومية إلى ناظر حسابات المعدن ليتسنى له محاسبة المتسببين في زيادة التكلفة أولاً بأول. وتشمل تكلفة الإنتاج مرحلتي الاستخراج والنقل وتتأثر تكلفته بنشاط العمال، وبعد فترة تمكن أحد الأسطوات ومعه عامل واحد من استخراج عشرة قناطير بيروتي حتى المغرب وعلى جانب آخر أخذ عامل غلاماً فعملا يومين فلم يستخرجا سوى ستة قناطير وعندما حسبت تكاليف الأجرة وشمع الإضاءة بلغت عشرة قروش وثمن الستة قناطير ٤٢ قرشاً أما تكلفة نقلها إلى بيروت فبلغت ثلاثة وعشرين قرشاً. أي أن التكلفة حتى بيروت للقناطير الستة بلغت ثلاثة وثلاثين قرشاً بمعنى أنها لم توفر سوى تسعة قروش هذا بالإضافة إلى أن تكاليف النقل من بيروت إلى الإسكندرية لم تضف على التكلفة فاستوجب الأمر وقفة من ناظر حسابات المعدن مع فريق العمل في المنجم برئاسة المأمور حتى لا يتكرر التقصير.

وقد واجهت الإدارة المصرية العديد من المشكلات والصعوبات في تعدين الفحم، ويأتي على رأس المشكلات تلك الثورات التي عرقلت الإنتاج خاصة أن جبل

الدروز كان من أكثر مناطق الشام تمرداً على الإدارة المصرية؛ فحينما ثار الدروز عام ١٢٥٦هـ اشترطوا عدة شروط لإنهاء عصيانهم منها "أن المعدن إذا أدار يكون بالحرية وليس بالإلزام" بمعنى إنهاء الاحتكار.

ومن المشكلات كذلك ارتفاع أجور الخبراء الأجانب ومترجميهم وعدم تعاون البلاد خاصة الدروز مع الإدارة وثمة حادثة أشار إليها المهندس بجبل الدروز وأيضاً إبراهيم باشا توضح هذا المعنى، فعندما طلب متسلم بيروت إرسال قنطار من الفحم، أرسل المأمور والشيخ شهان- المعين من قبل الأمير بشير لصرف مرتبات العمال- الفحم المطلوب دون فرز ودون الرجوع إلى المهندس أو المترجم. ومن ثم فالفحم المرسل لا يصلح للاستعمال، الأمر الذي دعا المهندس للقول "إني أعلم يقيناً أن الشيخ شهان قد بذل جهوداً جبارة في العام الماضي (١٨٣٤م) لعرقلة استغلال منجم الفحم هذا، وأن سليم أغا (المأمور) يعلم هذا جيداً، وبناء عليه قد يكون غرضه من إرسال الفحم على هذه الصورة تشويه المعمل وإظهار عدم صلاحيته للاستعمال لصرف النظر عن استغلاله" والحادثة تتفق مع موقف الأمير بشير المعارض لتعدين جبل الدروز الذي ذكرناه آنفاً.

أما بالنسبة إلى الصعوبات الطبيعية التي قادت الإدارة المصرية إلى تعدين الفحم فتأتي الأمطار الغزيرة في مقدمتها، حيث يستمر فصل الشتاء في بلاد الشام حوالي ستة أشهر (من ٩ ديسمبر إلى ٥ مايو). وخلاله يتوقف العمل في المناجم، وتغشاها مياه الأمطار، وعند بداية العمل في الموسم الجديد يتحتم التخلص من المياه المتجمعة في حُفر المناجم قبل بداية التعدين، وهي تستغرق فترة طويلة نظراً إلى عدم وجود طلمبات رفع مياه، وإنما تم استخدام الطريقة التقليدية المتمثلة في رفع المياه بالجرة، وهي تستغرق فترة طويلة.

كذلك فقد أثرت الأوبئة على التعدين بطريقة غير مباشرة، حيث يمنع العمال والخبراء من المرور عبر المناطق الخاضعة للحجر الصحي، ويذكر إبراهيم باشا في خطابه لسامي بك" وصلنا إشعاركم الخاص باحتجاز حسين أغا والكيميائي، وأنهما سيصلان إلى منجم الفحم الحجري بعد انتهاء مدة الحجر الصحي، ونبلغكم إلى أن تنتهي مدة الحجر الصحي ويصلان إلى هنا يكون الثلج قد نزل. وعليه فليس لكم أن تسألوا قائلين ماذا فعلتم في أعمال التعدين هذا العام؟".

وبذلك نجحت الإدارة المصرية في تعدين الفحم من بلاد الشام، مستعينة بالخبرات الأجنبية والتقنيات الحديثة والعمالة الشامية، وتغلبت على الصعوبات البيئية والمشكلات البشرية، إلى حد كبير فحصلت على معظم احتياجاتها من الفحم.

الفصل الثاني

الحديد

يعد الحديد إلى جانب الفحم عصب الصناعة، لذا فرضت الإدارة المصرية على التنقيب عنه في كل مكان تصل إليه، فبمجرد أن وصل إبراهيم باشا إلى أدنة- بآسيا الصغرى- أرسل مع البريد عينة من معدن عثر عليه في جبال كولك إلى مصر، أظهرت نتيجة التحليل أن المعدن يحتوي على ٦٥٪ حديد و ١٪ زرنيخ و ٤٪ كبريت و ٣٪ مواد مترسبة، وأنه ليس في المعدن شيء من الفضة أو الرصاص أو النحاس الأمر الذي أكد لإبراهيم باشا ما سمعه من أحد أعيان أولو قشله بوجود الحديد والرصاص في أربعة مواقع في جبل كولك، فاستغل إبراهيم باشا فرصة وجوده لقطع الأخشاب من الجبل المذكور وإرسالها إلى الساحل عبر نهر سيحون، وطلب من والده إرسال خبير التعدين (قالوه أو الصيدلي ألكسندر) مع فريق عمل للتنقيب عن الحديد والرصاص.

ووصلت الأوامر من مصر تطلب إبلاغ محمد علي بمقدار الحديد والرصاص المستخرجين من جبال كولك، والكمية التي يقدر استخراجها قياساً على عملية التعدين الجارية، الأمر الذي يؤكد حرصه على التعدين ورغبته في الحصول على المعادن من تلك الجهات. وأكد أخصائيو التعدين بعد عمليات التنقيب أن المعدن هو الرصاص، والحديد الموجود لا يرقى إلى مستوى التعدين. وقد وجدوا حفريات قديمة كثيرة في الجبل تدل على تعدين الجبل من قبل بطريقة بدائية ومن المحتمل أن تكون عمليات التعدين السالفة قد استنفذت الحديد.

ولم يكتف إبراهيم باشا بذلك، وإنما أرسل بعثة استكشافية تجوب باقي المناطق الخاضعة له في آسيا الصغرى بحثاً عن المعادن، فعثرت على خام حديد في جبل قوزان، لكنه كان هشاً كالزجاج. ثم عثرت عليه في مناطق شمالية بعيدة جداً عن الساحل، الأمر الذي يضاعف تكاليف النقل، ففضلت الإدارة المصرية صهره وبيعه محلياً للحدادين والتجار.

وبعد فشل جهود التنقيب عن الحديد في أماكن قريبة من الساحل في آسيا الصغرى عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م اتجهت في العام التالي بتوجيه من إبراهيم باشا إلى الجبال المحيطة ببيروت، فعثر مهندس برتيل على حديد في مرجيا بنسبة ٣٥-٤٠٪ بالقرب من مناطق الفحم، لكن المسافة بينهما كانت وعرة وإنشاء طريق بينهما يتطلب نفقات كبيرة، فأصبح من الأيسر نقله إلى الساحل وصهره هناك. وفي جباع وقريباً من الفحم عثر أحمد أفندي على خام حديد، فأخذ منه عينة إلى بيروت.

وقد وجد الحديد بكثرة في جبل الدروز، أما أجود الأنواع فهي تلك الموجودة في مرجيا، وهو أكثر المناجم إنتاجاً وأسهلها استخراجاً. وأنشأت الإدارة المصرية سبعة أفران في أماكن قريبة من الخشب ويعد خشب السنديان أفضل أنواع الخشب لصهر الحديد ويستخدم بشكل مباشر دون أن يتحول إلى فحم نباتي. ويتم صهر الحديد على ثلاث مراحل، في المرحلة الأولى يتم حرق الحديد الخام بالخشب ثم يدق بالمطارق إلى أن ينظف من الشوائب العالقة به. وفي المرحلة الثانية يوضع في فرن أكبر ويحمى عليه بالخشب، ويفتح الفرن كل ثلاث ساعات مرة، فيخرج منه قطعة حديد وزنها سبعون أقة، تنقل إلى فرن صغير، يحمى بفحم نباتي، حتى يذوب الحديد ويجري كالماء، فيتلقاه رجلان ويطرقانه على السندان، ويصبح الحديد صالحاً للاستعمال، وهكذا لا تستخدم أية آلة في عملية الصهر.

وأجرى بارتيل تجربة لصهر الحديد بالفحم الحجري في جبل الدروز، غير أنه خرج يتهشم بمجرد الطرق عليه، وقد أرجع هذا المهندس السبب إلى عوامل فنية

تتعلق بتصميم الفرن لأنه ليس على الطراز الأوروبي فالكير صغير لا يولد هواء كافياً للاشتعال. ويتعلق البعض الآخر بالفحم الذي يحتوي على بثور كبريتية فمن المفترض أن يحترق الفحم في سبعة أيام، إلا أنه احترق قبل أربعة أيام. ويرى مأمور المنجم أن المهندس المذكور ليس له خبرة كافية بصهر الحديد، وقد اعترف هو نفسه بعدم خبرته ورأى ضرورة إرسال خبير يجري العمل بمعرفته، حتى يمكن صهر الحديد بالفحم الحجري، فمن المفترض أن الحديد المصهور بالفحم يكون أجود من ذلك المصهور بالخشب.

ومن ثم تمكنت الإدارة المصرية من تعدين الحديد في جبل الدروز وجبل لبنان فحصلت على احتياجاتها من خام الحديد، ليساهم في بناء الدولة الحديثة، وتم صهر خام الحديد باستخدام خشب السنديان من نفس مناطق الإنتاج، الأمر الذي خفف من تكاليف الإنتاج، ولم يتمكن الخبير الأجنبي من صهره بالفحم الحجري.

الفصل الثالث

القطـــران

معروف أن بلاد الشام غنية بأشجارها، لذا قررت الحكومة المصرية استخراج القطران والزفت لسد حاجة الجيش والأسطول، حيث يستخدم القطران في دهانات السفن والمدافع وعلاج إبل الجيش وكانت مصر تستورد القطران والزفت من بلاد الشام. ويستخلص القطران بعد نقل الخشب من الجبل إلى الأفران بالتقطير الجاف. أما غلي القطران فينتج عنه ترسب الزفت، فمن ثمانية آلاف أقة قطران يمكن استخراج أربعة آلاف وخمسمئة أقة من الزفت.

أرسلت الإدارة المصرية خبير القطران الفرنسي داسيه إلى منطقة كولك في أوائل عام ١٢٥١ هـ/ مايو ١٨٣٥ م لإنتاج القطران والزفت، وبعد أن تفقد الموقع أوضح حاجته إلى معاون أفرنجي، وكذلك عشرين شاباً مصرياً لتعليمهم تعدين القطران، واثنين من صانعي البراميل، وترجمان يعرف اللغتين الفرنسية والتركية، كما طلب إرسال آلة التقطير التي صنعت في ترسانة الإسكندرية من قبل.

وقد استخرجت مصلحة القطران ثمانية آلاف أقة من القطران شهرياً مقابل مصروفات قدرها ٧٦١٥ قرشاً شهرياً، وبعد إضافة أجرة النقل إلى ميناء التصدير قزانلو، تصبح تكلفة الأقة حوالي ٤٢ بارة، بخلاف أجرة النقل إلى الإسكندرية، تقوم به سفن تابعة للإدارة المصرية.

إن الإدارة كانت تدفع أجرة البلطجية والنجارين والدواب والجنود باليومية وليس بالشهر؛ وهي بذلك قد أعفت مصلحة القطران من رواتب هؤلاء في أيام العطلات وكذا طوال أشهر الشتاء حتى لا تتحمل المصلحة رواتب ترفع تكلفة المنتج من القطران والزفت.

وإن الإدارة المصرية اختارت اثنين من أمناء البلوكات لتعليم صنعة القطران بمرتب ثلاثين قرشاً شهرياً للواحد، وكذا اثنا عشر جندياً بمرتب شهري ٧٥ قرشاً للفرد. بعد أن تعهد معلم القطران بتعليمهم، ليتولوا أمر التعدين بعد ذلك، لزيادة الإنتاج وتخفيف عبء مرتب الخبير الأجنبي ومترجمه عن كاهل مصلحة القطران، ويقدر بثلاثة آلاف قرش شهرياً أي ستة أكياس، وهو مبلغ يزيد بلا شك من تكلفة القطران.

وأفضل الأخشاب المستخدمة في استخراج القطران هي الأخشاب ذات المادة الدهنية، ومنها أشجار الصنوبر والشراق. واستعانت الإدارة المصرية بأربعة عشر من أهل المنطقة لقطع الأشجار، ويومية الواحد منهم ثلاثة قروش كما استخدمت أحد عشر نجاراً من أهل المنطقة أيضاً بأجر يومي أربعة قروش للفرد لتقطيع وتحميل الخشب ونقله إلى الأفران. وتعهد الخشابون بنقل ألفي حمل من الخشب شهرياً إلى الأفران، واستخدموا خمسة خيول، ويستخرج خبير القطران من كل حمل خشب شراق ثماني أقق قطران، وبذلك يزيد المستخرج على ستة عشر ألف أقة من القطران، الأمر الذي يؤدي إلى انخفاض التكلفة إلى النصف، بشرط صدق القائمين على نقل الخشب، لذا رأى ناظر المعدن أن يصدر محمد علي مرسوماً إلى متسلم طرسوس لمتابعة المذكورين حتى ينتظم أمر مصلحة القطران.

واعتمدت الإدارة في البداية أربعة أفران لاستخلاص القطران، أشرف عليها الخبير الأجنبي، وبقيت مسألة توريد الأخشاب هي العقبة، فكثيراً ما تكررت شكوى

ناظر المعدن من توقف الأفران بسبب انشغال الأهالي بنقل الشعير من ميناء قزانلو إلى جهات أدنة وطرسوس وكولك لذا كانت الإدارة تلجأ إلى أخذ سندات مختومة من المتعهدين بقيمة ما سيوردونه شهرياً للأفران من أخشاب الإذابة بالعدد وأخشاب الحريق بالحمل أو القنطار. وتودع هذه السندات في ديوان المعدن، وترسل نسبة منها إلى متسلم طرسوس ليتابع الوفاء بهذه التعهدات، وتبعث إدارة المعدن بصور من هذه السندات إلى إبراهيم باشا للإحاطة.

وينقل القطران على الدواب إلى مينائي قزانلو ومرسية، حيث أنشأت مصلحة القطران أحواض تخزين في كل منهما بالقرب من رصيف الشحن، وجلبت لها الأحجار من القلاع المتهدمة القريبة من المينائين، كانت هذه الأحواض صغيرة، ولكن مع زيادة الإنتاج أنشأت المصلحة حوضاً في قزانلو يستوعب مئة ألف أقة. وجاءت هذه التوسعات بعد أن اختار مأمور المعدن ثمانية ممن تعلموا صنعة القطران وأنشأ لكل منهم فرناً مستقلاً، وقد بلغ إنتاج هذه الأفران مجتمعة ستين ألف أقة من القطران في كل شهر.

وفي الموانئ يتم تعبئة القطران في براميل خشبية، واستعانت الإدارة المصرية بفني براميل يوناني يدعى خرالمبو، فعرض تصنيع نوعين من البراميل، يسع النوع الأول ٤٥ أقة من القطران، بينما يسع الآخر مئة أقة، وأوضح أن بوسعه تقديم برميلين هو ومساعده يومياً من النوع الأول أو برميل واحد من النوع الثاني. ويصنع البرميل من الخشب، بوضع شرائح خشبية متراصة، ثم تطوق بطوقين خفيفين من الحديد، وكان القطران ينقل إلى السفن في البراميل الصغيرة، ثم تُفرغ في البراميل الكبيرة، ثم تشحن إلى الإسكندرية. ومما يذكر أن إنتاج هذه البراميل لم يسد الاحتياجات، وأثر ذلك على إنتاج القطران سلباً، فحينما فحص ناظر المعدن إيرادات القطران ظهر عجز في الإنتاج، الأمر الذي جعل ناظر المعدن يستوقف خبير القطران ويسأله عن السبب، فاحتج بنقص البراميل، لذا أحضرت الإدارة البراميل اللازمة من مصر.

وبلغ ما أنفق على القطران حتى ١٥ رجب ١٢٥٢ هـ/ ١٨٣٦م أربعين ألف قرش مقابل إنتاج أربعين ألف أقة من القطران وخمسة عشر ألف أقة من الزفت، بإجمالي خمس وخمسين ألف أقة. ثم زاد الإنتاج في العام التالي، فبلغ القطران المنقول إلى ميناء الإسكندرية خلال شهر واحد ٢٣.٦٣٨ أقة، وأصبح المخزون في الأحواض والبراميل نحو مئة وخمسين ألف أقة قطران وعشرين ألف أقة زفت. وتكدس القطران في الموانئ وتأخر نقله إلى مصر مما أدى إلى ترشيد الإنتاج بعد ذلك، فقل القطران المنقول إلى الميناء خلال شهري رمضان وشوال عام ١٢٥٥ هـ/ ١٨٣٩م إلى ١٢.٨١٩ أقة.

وكانت مصر تحتاج سنوياً إلى ما يقرب من ١٢٣ ألف أقة من القطران وإلى ١٤ ألف أقة من الزفت وإذا ما قورنت هذه الاحتياجات بحجم الإنتاج السابق الإشارة إليه، نجد أن هناك فائضاً كبيراً في الإنتاج، مما دعا مدير ديوان عموم البحرية إلى التفكير في بيع ما تبقى من القطران باسم الحكومة في الأسواق المحلية، ليتوقف التجار عن استيراده.

ومن ثم فقد نجح محمد علي باشا في تعدين القطران والزفت في جبال كولك وغطى الإنتاج استهلاك مصر، وعرض الفائض في الأسواق المحلية، ليعوض هذا الإنتاج بعض المصاريف التي أنفقت على تعدين الرصاص.

الفصل الرابع

الرصـــاص

تقدم إبراهيم باشا نحو الشمال الغربي تاركاً البعثة التي وصلت من مصر تنقب عن المعادن بجبال كولك برئاسة خبير التعدين كنسيرك والكيميائي بورياني حسين. وبعد عشرين يوماً تمكنت البعثة من الوصول إلى عرق الرصاص عبر نفق طوله ٤٠ قدماً وعرضه أربعة أقدام على عمق ٢٤ قدماً تحت سطح الأرض، وبعد ستة أيام استخرجت البعثة نحو ستين قنطاراً، ولكن في اليوم التالي نفد عرق الرصاص، وأخذ الثلج يتساقط، واستحالت مواصلة العمل.

وأرسل أخصائي التعدين عينة من الرصاص بالبريد إلى بوغوص بك، ليعرضها على محمد علي. ومع إشراقة موسم التعدين بدأت عمليات التعدين، حيث عثر على خام الرصاص في امتداد الحفرة التي حفرت في العام السابق (١٨٣٣م)، كما اكتشفت البعثة معدن رصاص آخر عند قمة جبل بولفار- من جبال كولك- على سطح الأرض، قال عنه الخبير إنه من النوع الجيد، وأرسلت منه عينة إلى بورياني حسين الذي بقى في كولك، فأوضح بعد فحص العينة أن كل مئة درهم خام من المعدن تستخرج اثنين وسبعين درهماً من الرصاص أي أن نسبة الرصاص في الخام تعادل ٧٢٪ إضافة إلى ٥٪ فضة. كما أرسلت عينة من الخام إلى مصر لمعاينتها. واستقر الرأي على استقدام خبيرين لبناء معمل الصهر من مصر وأن يشيد المعمل المذكور في كرلز، حيث تتوفر المياه والأخشاب، ومن ثم تطلب الأمر إصلاح الطريق بين المنجم والمعمل.

ورفع بورياني حسين تقريراً إلى إبراهيم باشا، أوضح فيه نتيجة تحليل الرصاص. وقائمة بمتطلبات تعدينه من المواد الكيميائية والآلات والأدوات، مما لا يمكن توفره بجهات أدنة، وذلك لإحضارها من مصر مع خبراء بناء الأفران، كما طلب تعيين جهاز إداري مكون من مدير ومباشر ومعاون وقباني وكاتب. أما بالنسبة إلى إصلاح الطريق بين المعدن والفرن فقد قرر إبراهيم باشا أن يعرض الأمر على العشائر لإصلاحه بالمقاولة. وكتب محمد علي إلى ابنه إبراهيم يوصيه بالعناية بالرصاص وسرعة تعدينه. وصدرت الأوامر بإعداد المعدات والكيماويات المطلوبة وإرسالها بأسرع وقت إلى أدنة. واهتمام محمد علي بتعدين الرصاص يدل على مدى حاجته إليه، إذ كان يستورد كل احتياجات ديوان الجهاد من الرصاص من أوروبا، الأمر الذي يكلفه مبالغ طائلة.

وفي فصل الشتاء تتوقف أعمال التعدين في جبال كولك تماماً، حيث يتساقط الثلج بكثرة، فلا يملك رجال التعدين إلا سد أفواه المناجم والنزول إلى كولك، ويكتفون بما نقلوه إلى معمل الصهر. وعندما اكتمل بناء المعمل كان به اثنا عشر ألف قنطار من المعدن الخام في انتظار الصهر. وكلفت الإدارة محمد رشيد حكمدار أدنة بزيارة المعمل وكتابة تقرير كل عشرة أيام وإرساله إلى إبراهيم باشا. وعندما تأخر إنتاج الرصاص أرسل محمد علي إلى إبراهيم باشا يوبخه، وأوضح محمد رشيد أن الإنتاج متوقف على الانتهاء من بناء الأفران، وتعهد وفقاً للأمر العالي بأن يرفع إلى محمد علي تقريراً أسبوعياً عن أعمال المعمل.

وضع بورياني حسين تصميم معمل صهر الرصاص، واستغرقت عمليات البناء خمسة أشهر ونصف. وتكون المعمل من خمسة أفران ومدخنة ودولاب طحن، واحتاجت مجموعة الأفران والمدخنة أربعين ألف طوبة و ١٥ حملاً من الجير المطفي، ويبلغ طول المدخنة ٤٥ ذراعاً وأساسها خمسة أذرع، وتم توصيلها من أسفل بمجموعة الأفران، لتصريف الدخان الناتج عن عملية الصهر. أما دولاب طحن المعدن الخام فتم إنشاؤه بجوار مجرى مائي لإدارته، وتم تزويده باثنتي عشرة قطعة حجر طاحونة.

وأحضرت الإدارة من مصر ثلاث مقاطع من قماش النحاس لصنع غرابيل لغربلة المعدن بعد طحنه.

وتبدأ عملية الصهر بطحن المعدن الخام وغربلته للتخلص من أكبر قدر من الأتربة العالقة به، ثم ينقل بعد ذلك إلى الأفران لصهر واستخلاص المعدن، ومن المعروف أن الرصاص يحتاج إلى درجة حرارة أقل من كثير من المعادن الأخرى، وعلى الرغم من ذلك فشلت تجربة صهره على يد الكيميائي بورياني حسين، الأمر الذي أحدث خلافاً بينه وبين قورنيل كبير المعدِّنين، الذي طرد بورياني حسين من الخدمة بعد الرجوع إلى إبراهيم باشا.

وقد أوضح قورنيل أن فشل التجربة يرجع إلى سببين، السبب الأول: احتواء المعدن الخام على عنصر الكبريت، والسبب الثاني: خطأ في تصميم الأفران، حيث إن فتحات الكير لا تدخل هواءً كافياً للاشتعال داخل الأفران. فهدم قورنيل أحد الأفران وبنى فرناً جديداً ليجري تجربة جديدة لصهر المعدن، فوضع سبعة قناطير من خام الرصاص وأوقد ناراً هادئة لمدة ١٨ ساعة لإزالة عنصر الكبريت، ثم أضاف مسحوق حجر الزند وحجر التلحيم، وزيدت النار لمدة ست ساعات، غير أن المادة المذابة تشربت المعدن فور إذابته، واستحال كل هذا معجوناً مترسباً، وما لبث أن اسود واحترق وتحجر. وأشار قورنيل إلى أن مسحوق الحجرين المضاف إلى المعدن كان ثقيلاً، وأن هناك نوعاً آخر منه يطفو فوق المعدن ويسمح بجريانه خارج فرن الصهر. وبذلك فشلت التجربة الثانية لصهر الرصاص، وتأكد قورنيل أن المعدن لا يمكن صهره في هذا الفرن، فتوقف عن العمل وسافر إلى بيروت.

وكان من الصعب على محمد علي أن يصرف النظر عن معدن الرصاص بعد أن تكبد أموالاً طائلة، إذ بلغت نفقات بناء معمل الصهر، التي صرفت بمعرفة يوزباشي حوالي ثلاثة آلاف كيس، إضافة إلى ثمانمئة كيس مرتبات وتعيينات. غير أن فشل تجربة

صهر المعدن أصابت محمد علي بخيبة أمل كبيرة في هذه الناحية، فتوقف العمل في صهر المعدن طوال الفترة من رجب ١٢٥٢هـ/ أكتوبر ١٨٣٦م حتى بداية عام ١٢٥٥هـ/ مارس ١٨٣٩م.

ولم تقف الإدارة المصرية مكتوفة الأيدي، فأصدرت أوامرها إلى العاملين في المعدن بالتنقيب عن مزيد من المعدن، فاكتشف قورنيل خام رصاص آخر في طوز أغاج بالقرب من سيس، تصل نسبة المعدن فيه إلى ٥٥٪. ثم أمر إبراهيم باشا حكمدار أدنة أن يرسل مئة أقة من الرصاص الخام إلى بيروت، لإجراء تجربة الصهر بمعرفة خبراء التعدين العاملين في الفحم، وأن يرسل مئتي أقة إلى مصر لإرسالها إلى أوروبا وصهرها هناك، وأمره أن يستعين بخبرات رجال التعدين الآخرين في المناطق المحيطة لإجراء تجربة الصهر على كميات قليلة من الخام.

ولم تذهب جهود الإدارة المصرية هباء، فقد جاء نجاح التجربة هذه المرة على يد أحد الخبرات المصرية، ويدعى أحمد أفندي، الذي تمكن من صهر خام الرصاص، بعد أن توصل إلى الأخطاء التي وقع فيها الخبراء الأجانب، فجاء في تقرير خورشيد باشا حكمدار أدنة "أوقد أحمد أفندي الفرن بالحطب (الخشب) لمدة ١٨ ساعة، ووضع ٥٢ أقة من المعدن الخام الأحمر فصهرها في ٥٦ دقيقة واستخرج منها ١٥ أقة و ٣٠٠ درهم بواقع ٣١٪، بيد أن الطوب المستخدم في بناء الأفران أخذ يتناثر ترابه أثناء انصهار المعدن.. فاقترح إرسال عشرة آلاف طوبة إنجليزي (طوب حراري) إذ كان موجوداً منه بالإسكندرية لينشئ بها فرناً أكبر بمعرفة الأفندي المذكور، ويستنتج من هذا أن المصروفات التي أنفقت بغير حساب حتى الآن ذهبت هباء منثوراً، لم يجن منها أية فائدة".

وما أن علم إبراهيم باشا بنجاح التجربة حتى أصدر أوامره إلى عثمان بك ناظر المعدن باختبار المواد الخام الموجودة بالمعمل، فقام أحمد أفندي بتنظيف الفرن الصغير

ووضع به مئتي أقة من الخام ذي اللون الأصفر واستخرج منها رصاص بنسبة ٢٥٪، وفي اليوم التالي وضع في الفرن بعد التنظيف ٥٤ أقة من الخام الأحمر، فاستخرج منها ثلاث أقق و ٣٠٠ درهم أي بنسبة ٧٪ من الخام. وعند اختبار المادة السوداء لم ينجح في استخراج أية كمية من الرصاص. وأوضح أحمد أفندي أن المادة الصفراء والحمراء يمكن أن تؤدي إلى نتائج أفضل إذا استخدم طوبًا حراريًا، لأن الطوب المستخدم في بناء الأفران لا يقاوم الحرارة، كما أن الكير المستخدم ليس من النوع الجيد، وطلب جلداً خاصاً للكير من مصر، وصانعاً يقوم بتركيبه، وطالب تجريب الخشب بدلاً من الفحم لمصلحة الميري، ووعد بإعادة التجربة لإذابة المادة السوداء.

ويتضح من التجارب السالفة العقلية المنظمة للمعدِّن المصري أحمد أفندي، ومثابرته وإصراره على نجاح التجربة، كما يظهر تخلص الإدارة من الخبرات والعمالة الأجنبية بكل ما تتطلبه من مرتبات ونفقات هائلة. وانحصرت أخطاء التجربة التي أجراها الأجانب في عدة مسائل فنية منها عدم التفريق بين أنواع الرصاص، وبناء الفرن بطوب غير مقاوم للحرارة، واستخدام مضخات هواء ضعيفة لا تؤدي إلى زيادة الاشتعال، وكذا وضع الخام عند بداية إيقاد النيران في الفرن، إضافة إلى وضع كميات كبيرة من الخام رغم صغر حجم الفرن.

حاول أحمد أفندي خبير التعدين الجديد السفر إلى مصر لإجراء مزيد من التجارب لاستخلاص الرصاص نظراً إلى توفير الإمكانيات، غير أن محمد علي اقترح على إبراهيم باشا إجراء الاختبارات في محل المعدن توفيراً للوقت، وإرسال ما يحتاج إليه من مصر. فعلق إبراهيم باشا الأمر على استشارة ناظر المعدن، نظراً إلى حلول فصل الشتاء. وقد فضل عثمان ناظر المعمل تشغيل المعمل في فصل الشتاء ريثما يتم جلب الطوب الحراري من مصر. الأمر الذي يوضح مدى إصرار الإدارة المصرية على كل مستوياتها على اختصار الوقت والتغلب على الصعوبات واستخلاص أكبر قدر من الرصاص.

وبعد نجاح التجربة وعد أحمد أفندي بصهر خمسة آلاف قنطار من الرصاص الصافي في السنة، غير أنه واجه صعوبات حالت دون تنفيذ وعده تمثلت في أمرين، الأمر الأول تأخر وصول الطوب الحراري، نظراً إلى عدم وجوده بمصر، وانتظار وصوله من أوروبا، وقد أثر ذلك سلباً على عملية الإنتاج، إذ يحتاج الفرن إلى فترة توقف وترميم بعد كل مرة، فيحول دون استمرار العمل. ويتمثل الأمر الثاني في تعطل دولاب طحن المعدن بعد وفاة النجار الأجنبي الذي أنشأه، أما النجارون المحليون فليست لهم أية خبرة وعملية دق المعدن بالشاكوش غاية في البطء، واقترح ناظر المعدن إنشاء آلة مثل طاحونة القمح لأداء المهمة بتكلفة تقريبية ٤٥ قرشاً.

وهكذا أنفقت الإدارة المصرية مبالغ طائلة لتعدين الرصاص، وكادت هذه الجهود والأموال تذهب سدى، لولا أن تمكن أحد الخبرات المصرية من صهر المعمل قرب نهاية الحكم المصري عام ١٢٥٥ هـ/ ١٨٣٩م ولم يحقق تعدين الرصاص النتائج المرجوة، ولعل المكسب الذي تحقق في هذا الميدان يكمن في تفوق العقلية المصرية وإمكان الاعتماد عليها.

الفصل الخامس

الفضــة

حرصت الإدارة المصرية على التنقيب عن الفضة لتغطية احتياجات مصر منها، فتحرك موظفوها بهمة بالغة، فعندما مر أحمد أفندي أحد معاوني إبراهيم باشا بقرية بيلان وهو في طريقه إلى عكا، تذكر قول إبراهيم باشا بوجود الفضة في هذه القرية، فسأل أهلها غير أنهم أنكروا، فطلب دليلاً من شيخ القرية حتى اهتدى إلى المعدن، ثم أرسل منه نموذجاً إلى الكيميائي في أدنة لتحليله، وآخر إلى مصر بصحة البريد لتحليله، حتى إذا كان المعدن المذكور مفيداً تم تعدينه.

وعندما وردت عينة معدن كوللك، على أمل أن يوجد به نسبة كبيرة من الفضة عرضت العينة على أحمد يوسف مدير الضربخانة، الذي درس الكيمياء في أوروبا فوجد أثراً للفضة في العينة. وقد ضمت الإدارة المصرية معدن فضة يقوم الأهل بتعدينه في مدينة "قير شهر" بآسيا الصغرى، فعينت محمد أغا أميناً لمعدن الفضة، وأبقت الوضع على ما هو عليه، واشترت المنتج من الأهالي. وقد يبرر عدم إقدام الإدارة على ضم المعدن بشكل كامل خوفها من ثورة المستفيدين منه، خاصة أنه في الأطراف التي يمكن أن يلجأ أهلها إلى الدولة العثمانية، إضافة إلى اعتدال سعر المعدن.

النحاس :

كانت مصر تستورد النحاس لسد احتياجاتها، خاصة عملية ضرب النقود، وقد بلغ سعر الأقة من سبائك النحاس الأفرنجي ستة عشر قرشاً. ولسد العجز طلبت

الإدارة المصرية من حكمدار بر الشام أن يشتري كل ما يمكن شراؤه من النحاس الخردة ويرسله إلى مصر على ألا يزيد سعر الأقة عن اثنى عشر قرشاً.

ولم ينس محمد علي أن يُذكر ابنه بالتنقيب عن النحاس وهو يعيد الأمن إلى ربوع البلاد في أعقاب ثورة الشام الأولى (١٨٣٤م)، حيث ترامى إلى أسماعه وجود معدن نحاس بالقرب من مدينة خليل الرحمن، وحينما وصل إبراهيم باشا إلى المدينة المذكورة سأل عن المعدن فأخبروه أنه في جبل الكولك. لكنه لم يعثر للنحاس على أثر فيه. وقد أسفرت عمليات التنقيب عن وجود النحاس في جبل قوزان القريب من كولك، وطلبت الإدارة المصرية من مصر إرسال خبير تعدين أو اثنين حتى لا يتوقف العمل في جبل كولك ويبدو أن الإدارة انشغلت بمحاولة استخلاص الرصاص في كولك، فلم ترد إشارة إلى تعدين النحاس الموجود في جبل قوازن.

الرخام وحجر الصوان:

إبان عملية قطع الأشجار في منطقة نهر جيجان أبلغ القبودان أنه شاهد بعض قطع من الرخام، فطلبت الإدارة إرسال القطع المذكورة إلى إنطاكية. ومن طرسوس أرسل المعاون محمد رشيد إلى إبراهيم باشا يبلغه بأنه عثر على الرخام في الجبل الكائن شمالي قرية ديكلي، وقد صنع منه الأسطى مراني خمس شمعدانات وسلطانية شوربة ووضعت هذه المصنوعات في صندوق وقدمت لأعتابكم. وقال بورياني حسين الكيميائي إن الرخام المتقدم الذكر يصلح لأن يصنع منه بلاط أرضيات الغرف ويغطي حيطانها.

وعثر رجال الإدارة المصرية على أحجار صوان تصلح للطواحين بالقرب من صور، فبعث حنا بحري مدير حسابات بر الشام إلى حسين أغا متسلم صور، ليتابع عملية فصل الأحجار المطلوبة وتجهيزها وإرسالها على الإبل مع قائمة بالتكلفة.

وبمجرد أن علم محمد علي بوجود حجر الصوان في جبل الدروز طلب من مجلس الجهادية إرسال أسطى إلى الجبل المذكور لمعاينة الصوان وتعدينه.

ولم يأل رجال الإدارة المصرية جيداً طوال فترة وجودهم في الشام، ففي ٢٦ ربيع أول ١٢٥٤ هـ/ ١٨٣٨ م عثر رستم أفندي في الجبل الذي يحضر منه الأخشاب على نوع من الحجر يشبه المعدن، ومختزن بداخله ماء، فأرسل مع خيل البريد إلى مصر ثلاث قطع من الحجر المذكور وقارورة مليئة بالماء المختزن لتحليلها وتحديد مدى أهميتها. وبعيداً عن قيمة الأحجار المذكورة أو الماء المختزن بها، فإن سلوك رستم أفندي يدل على الحركة الدؤوبة لرجال الإدارة المصرية في التنقيب عن كل ذي قيمة.

البريت (البويا السوداء):

بعد أن اختفى عرق الرصاص في جبال كولك ظهر معدن آخر سماه كنسيرك خبير التعدين بريت وظن أن به نسبة من الذهب فبعث بخمس أقات إلى بورياني في أدنة، أوضح تحليل العينة عدم وجود شيء من الذهب أو النحاس لكنه نجح في استخراج البوباز من المعدن المذكور ويستخدم هذا النوع من الأصباغ بكثرة، فأرسل بورياني عينة من المعدن إلى مصر لإعادة تعدينها عقب انتهاء فصل الشتاء.

الإسفنج:

أقامت الإدارة المصرية رابطة لمن يغطس على الإسفنج من الشوام، فاشترت منهم الإسفنج وأعادت بيعه، ودخل الفائض إلى خزينة الميري ولم يستثن من ذلك سوى الأورام الذين يدخلون تحت الحماية الفرنسية إذ رفع عنهم رسم الميري ومن ذلك نتبين أن الإدارة المصرية لم تترك شيئاً دون أن تستثمره.

الفصل السادس

العاملون في مجال التنقيب عن المعادن

أولاً: عمال الشوام:

استبعدت الإدارة المصرية الشوام من المناصب الرئيسية في التعدين لخوفها من تذبذب الولاء وعدم الإخلاص لها. كما حاول الشوام التقليل من شأن المعادن والتشكيك في جدواها لإثناء الإدارة المصرية عن التعدين، خاصة جبل الدروز وقد ظهر ذلك جلياً في موقف الأمير بشير المعارض لتعدين الإدارة المصرية في جبل الدروز. ولم يثبت أن أسندت الإدارة إلى أهل البلاد مهام رئيسية في التعدين اللهم إلا في تعدين القطران، إذ عهدت الإدارة بثلاثة شباب من طرسوس بمرافقة معلم القطران، لتعليم صنعة استخلاصه وقد نجحوا في مهمتهم وأجادوا فيها، فبنى إبراهيم باشا لكل منهم فرناً لاستخراج القطران والزفت.

وإن كانت الإدارة المصرية لم تعتمد على أهل البلاد في المهام الرئيسية إلا أنها اعتمدت عليهم بصفة أساسية في الأعمال التي تحتاج إلى مجهود عضلي مثل أعمال الحفر والتنقيب والنقل وقطع الأخشاب وبعض الأعمال الفنية البسيطة، ومنها نجارة الألغام (الأنفاق) التي تتبع المعدن تحت سطح الأرض وتحتاج عمليات الحفر والتنقيب إلى عدد كبير من العمال، فلجأت الإدارة إلى أهل البلاد المجاورة لمنطقة التعدين، لتوفر على نفسها تكاليف نقل العمال وإقامتهم وبلغ أجر العامل قرشاً وعشرين بارة للكبير وقرشًا واحدًا للصغير يومياً. وإعطاء الأجرة يومياً يبين فلسفة الإدارة في تفادي دفع الأجرة أيام العطلات.

وقد تسبب انخفاض الأجور في نفور العمال من مواصلة العمل فقل عدد عمال مناجم الفحم إلى خمس وستين عاملاً، الأمر الذي ألجأ الإدارة المصرية إلى الاستعانة بالقيادات المحلية بالشام، فحينما انتدب الأمير بشير أسعد حمور وكيلاً من طرفه لجلب العمال زاد عددهم إلى مئة وخمسين عاملاً. وعندما لمس إبراهيم باشا انخفاض أجور العمال، لدى تفقده العمل في المناجم في جماد آخر ١٢٥٢ هـ/ ١٨٣٦ م، صدر أمراً شفوياً يقضي بوجوب ضم بعض الشيء على يومية العمال غير أن الوثائق لم توضح حجم هذه الزيادة واكتفت بالإشارة إلى تنفيذ الأمر.

ويرجع عدم إقبال العمال الشوام على العمل في التعدين لانخفاض الأجور من ناحية والحقد على الإدارة المصرية التي احتكرت مناجم كانوا يستخدمونها من قبل لحسابهم، ولو بقدر يسير من ناحية أخرى، وقد جرت محاولات للتغلب على المشكلة، فعرض جعفر أغا مأمور منجم الفحم اقتراح باستخدام مذنبي الجبل في أعمال المنجم بدون مرتب بدلاً من إرسالهم إلى السجن، وأيد حنا بحري الاقتراح توفيراً للنفقات. إلا أن إبراهيم باشا رفض لما يترتب على استخدام المذنبين في أعمال المنجم من آثار سلبية على العمال العاديين، فينظرون إلى العمل في المناجم على أنه عمل تأديبي أضف إلى ذلك أن العمل في المنجم لا يستمر خلال فصل الشتاء، وبالتالي لا يجوز سجن المجرمين خلال فترات من العام دون أخرى.

وأسندت الإدارة المصرية عمليات تمهيد الطرق بين مناطق التعدين والإفرار وموانئ التصدير إلى عمال من القرى التي تمر بها الطرق، وبإشراف وتوجيه من مهندس المعدن كما استعانت بأهل البلاد في نقل المعدن الخام من المنجم إلى الإفرار ومنها إلى الموانئ على أن يأتي العمال بدابته، واختلفت أجور النقل حسب طول المسافة وصعوبة الطريق وكمية المنقول. وقد كان هناك حرص على وجود توازن بين تكاليف الإنتاج والنقل وسعر المنتج حتى يتوفر هامش ربح معقول.

كما تحمل أهل البلاد مسؤولية تقطيع الأخشاب اللازمة للمناجم والأفران من الجبال القريبة من المنجم وإحضارها، فاضطرت الإدارة المصرية أن تلقي بعبء تقطيع الأخشاب ونقلها على عاتق رجال الإدارة المحلية، وحددت الكمية المطلوبة من كل منهم ونوعها والمدة المسموح بالتوريد خلالها والمبالغ المستحقة لهم، وضمنت كل ذلك في عقد كل منهم ليفي بالتزاماته.

ثانياً: المصريون:

تولت كوادر مصرية إدارة شؤون المعدن سواء في ذلك إدارة الحسابات ممثلة في ناظر حسابات المعدن أو إدارة المناجم ممثلة في رئاسة العمال، وكذا الأعمال الكتابية وأسندت المهمتين الأخيرتين إلى أمناء من الجيش يجيدون القراءة والكتابة ليتمكنوا من مراقبة العمال وتقييد أسمائهم ومراجعتها في أوقات متفاوتة من اليوم لمنع عمليات التسرب أو الهرب من العمل .

وفي مجال العمل التعديني تولى وكيل ناظر شورى المدارس اختيار المتفوقين من تلاميذ المدارس بأسمائهم وأعمارهم ورواتبهم إلى مأمور الديوان الخديوي، الذي تتولى تجهيزهم للسفر إلى الشام لمرافقة الخبراء الأجانب في التنقيب عن المعادن والمشاركة في عمليات صهرها وتجهيزها وتضمنت القائمة التي أعدت في ٢٦ ذي الحجة ١٢٥١هـ/ ١٩٣٦م عشرة أسماء تراوحت أعمارهم بين ١٧ و ٢٥ عاماً وحدد لهم المرتب الشهري بمقدار مئة قرش ما عدا اثنين بلغ راتب الواحد منهما ستين قرشاً وقد يكون للتخصص دخل في تحديد المرتب، وتسلم كل منهم قبل سفره طاقمين من الملابس وبطانية وما يخص من آلات هندسية.

وأمر إبراهيم باشا بإلحاق عدد من الشباب بالخواجة داسيه ليتعلموا صنعة القطران من بينهم محمد أفندي الذي حددت له الإدارة راتباً قدره ٥٠ قرشًا شهريًا. وقبل أن ينتهي عقد داسيه بشهر واحد أرسل إبراهيم باشا إلى والده يقترح الاستغناء

عن داسيه، لأن مصلحة القطران لا تتحمل نفقاته وإسناد المهمة إلى الشباب الأربعة الذين تعلموا صنعة القطران. وشهدت ساحة التعدين في كولك تفوقاً مصرياً، عندما نجح أحمد أفندي في استخلاص الرصاص بعد فشل الخبراء الأجانب في صهره. توصل أحمد أفندي إلى الأخطاء التي وقع فيها الأجانب وقد تأخر نجاح التجربة، فلم تستطع المصلحة تعويض الخسائر، لكنه نجاح يحسب للعقلية المصرية.

وخلال فصل الشتاء يتوقف العمل ويحصل المصريون على إجازات يعودون خلالها إلى مصر، إذا لم تكن حاجة العمل تستلزم وجودهم، وما يلبثوا أن يعودوا مرة أخرى إلى موقع العمل من نهاية هذا الفصل. وهكذا اعتمد محمد علي باشا على المصريين في الإدارة ووضع ثقته في شباب مصر الذي حصل على قدر من التعليم ليكونوا نواة خبراء التعدين في المستقبل.

ثالثاً: الأوروبيون:

أسند محمد علي باشا إلى الأجانب المهام التي تحتاج إلى مهارات أو خبرات عملية لا تتوفر لدى المصريين والشوام، فاستدعى خبراء في شؤون المعدن وكيميائيين من دول أوروبا وبعث بهم للتنقيب عن المعادن في جميع أنحاء بلاد الشام، حيث أشرف الإنجليزي بارتيل على التعدين في جبل لبنان وجبل الدروز، بينما أسند الإشراف في جبل كولك إلى خبير التعدين النمساوي كنسيرك ثم قورنيل بعد ذلك. أما تعدين القطران فعهدت به الإدارة إلى الخبير الفرنسي داسيه الذي استعان بمعاون أجنبي كان موجوداً بالإسكندرية ويدعى حنا بليار دي لإلمامه بصناعة القطران. وكان على المهندس الذي ينقب عن معدن ما ألا يهمل أمر البحث عن أية معادن أو خامات تخدم الإدارة المصرية. فالمهندس الإنجليزي المختص بالفحم حينما عثر في زحلة على طين يصلح لصنع طوب حراري يستخدم في سبك الزجاج في أثناء دراسته للطريق بين المعدن وبيروت، أبلغ الإدارة المصرية.

واستعان خبراء التعدين بنجارين أجانب ذوي مهارة خاصة فاستدعى أن الذي حمل الكيميائي المذكور على التمرد والكبرياء هو زعمه أنه المعدن الوحيد عزيز الوجود. والحل الأمثل من وجهة نظر إبراهيم باشا هو إرسال خبير تعدين أو اثنين إلى المنطقة خاصة أن مناجم النحاس في المنطقة نفسها كانت معطلة وتحتاج إلى خبير.

واعتنت الإدارة المصرية بالأجانب فوفرت لهم الخدمات الطبية عن طريق أطباء الجيش، كما عملت على تعويض الإعاقة الناتجة عن العمل مع الاستفادة من خبرات وقدرات صاحب الإعاقة، فعندما كسرت ساق المترجم مسينويسو الذي كان بمعية المهندس الإنجليزي بارتيل صدرت الأوامر بتخصيص مرتب شهري للمذكور، على أن يستخدم على طريق التقاعد في خدمة تليق به، وكان المذكور ماهراً في حياكة قلوع السفن، فعين للعمل في ميناء الإسكندرية برتبة يوزباشي بمرتب خمسمئة قرش شهري. ومنحت الإدارة المصرية الأجانب حرية ممارسة الطقوس الدينية في أوقات الراحة وسمحت لهم بالسفر إلى بلادهم خلال توقف العمل شتاء، إما لقضاء إجازة وإما للتزود بالمعلومات في مجال التخصص ولم يبق منهم إلا من يحتاجه العمل شتاء.

إنشاء آلة طحن تقوم بمهمة تنعيم خام الرصاص قبل صهره بدلاً من دق الخام بالشاكوش وذلك توفيراً للوقت والجهد، ورأى خبير التعدين في مناجم الفحم إسناد النجارة والحدادة في المناجم إلى أجانب لتميزهم في صنعتهم على الرغم من اعتراض مأمور المنجم بسبب ارتفاع أجورهم.

واستخدام الأجانب لم يكن أمراً عشوائياً وإنما جاء وفق تخطيط دقيق وتلبية للاحتياجات الضرورية ، يتضح ذلك من موقف إبراهيم باشا من تعيين معلم مدرسة المعادن، عندما أرسل سامي بك كبير معاوني محمد علي باشا إلى إبراهيم باشا في صفر ١٢٥٢هـ/ مايو ١٨٣٦م يحيطه علماً بأبطال مدرسة المعادن بموجب تنظيم قانون المدارس الجديد، ويتساءل عن إمكانية استخدام معلم المدرسة المذكور، طلب إبراهيم باشا من سامي بك إيضاحاً عن المعلم المتخصص فيه المذكور أو الصنعة التي يجيدها.

وقد تكلفت الخزانة المصرية الكثير بسبب استخدام الأجانب، فإلى جانب المرتبات العالية، تحملت مرتبات المترجمين المرافقين لهم، إضافة إلى كتاب أكفاء يمثلون حلقة الوصل بين الخبراء والإدارة المصرية. وقد عمل ذلك على زيادة تكلفة المعدن مما أزعج ناظر حسابات المعدن، فعندما سافر مهندس الفحم عام ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م إلى مصر أرسل الناظر المذكور إلى إبراهيم باشا يقول " مع أني أعلم أن الخزينة واحدة، إلا أن أملي ألا يضاف أجر المهندس على مصلحة الفحم فيرفع سعر التكلفة ويحمل الفحم أعباء كثيرة فيسود وجهي أمام الإفرنج ومحمد علي".

الباب الخامس عشر

النهضة العلمية المصرية في عهد محمد علي

الفصل الأول

التعليم في عهد محمد علي

أهداف التعليم في النصف الأول من القرن التاسع عشر تحددت في ضوء حاجة محمد علي إلى الجيش القوي ورغبته في إنشاء امبراطورية كبيرة. وبالرغم من أن توجيه العناية إلى إعداد الجيش قد ساعد على النهوض بالمجالات المختلفة للدولة إلا أن التعليم ارتبط بحاجات الجيش واصطبغ لذلك بالصبغة العسكرية.

وقد واجهت محمد علي صعوبات كثيرة عندما بدأ يفكر في تحقيق أهدافه. فقد كان في حاجة إلى جيش قوي يعتمد عليه ويثبت به نفوذه وسلطته. وكان في حاجة إلى عدد كبير من العسكريين المدربين. فلقد كان الجيش يتكون حينئذ من خليط من المماليك والجركس والألبان الذين لم يتعودوا النظام ولم يتعلموا شيئاً من الفنون العسكرية الحديثة. ولم تكن قد اتيحت الفرصة للمصريين ليشتركوا في الجيش حتى ذلك الوقت.

ومن ناحية أخرى لم يكن هناك نظام تعليمي منظم، كما لم تكن هناك إدارة تعليمية تشرف على شؤون التعليم. فالنظام القائم بمصر لم يكن قادراً على إعداد الخبرات المختلفة التي كان يحتاج إليها محمد علي. وكان هذا النظام شعبياً لا تنظمه اللوائح أو القوانين. فكان لابد إذن من إيجاد نظام تعليمي جديد. وقد وجد محمد علي أنه ليس من مصلحته أن يفرض تنظيمات معينة على المعاهد العلمية القائمة. بعد أن عاشت سنين طويلة لا تحس بالحاجة إلى التغيير ولا تقوم به. كما خشى أن يلقى معارضة عنيفة من رجال الأزهر إذا ما فرض عليهم نظاماً لم يألفوه، وقد يعتقدون أنه خطر عليهم. ففكر في إنشاء معاهد علمية على النظام الحديث الذي كانت أوروبا قد أخذت به.

ولم تكن المشكلة تنحصر في إقامة المعاهد العلمية الجديدة، لكن المشكلة امتدت إلى ما يتبع إنشاء هذه المعاهد من حاجة إلى هيئة للتدريس تقوم بواجباتها الجديدة. فهيئة التدريس بالأزهر وبمدارس المساجد المتخصصة في العلوم الدينية واللغوية، وليس لأفرادها خبرة بالعلوم الحديثة أو بالعلوم العسكرية. وكان لابد من تدبير الطلاب الذين يدرسون بالمعاهد الجديدة إذ أن محمد علي لم يجد إقبالاً من الشعب على الالتحاق بها، إذ كان الالتحاق بها يعني الالتحاق بخدمة حكومة محمد علي. ولم يكن هدف التعليم من قبل العمل في الحكومة، بل كان الفرد حراً في الالتحاق بأي عمل يميل إليه بعد أن يتعلم.

وبسبب تلك الصعوبات لا يمكننا أن نقول بأن نظام التعليم الحديث في عهد محمد علي، أو في مصر بصفة عامة، نشأ وقام مرة واحدة، بل لقد مر النظام التعليمي في بدء نشأته بتجارب متعددة. فقد عهد محمد علي، على سبيل المثال، إلى ديوان الجهادية (وهو ديوان الجيش) بالإشراف على شؤون التعليم. وتعليل ذلك واضح، وهو أنه ما دامت هذه المدارس تقوم بإعداد الرجال الذين يعملون بالجيش فليكن الإشراف عليها إذن لديوان الجيش.

ووجه الغرابة أيضاً يظهر في إنشاء المعاهد العالية أو المدارس الخصوصية في أول الأمر. فمن الطبيعي أن تنشأ المدارس الابتدارية، ثم الثانوية، ثم العالية. غير أن الحكومة كانت في حاجة عاجلة إلى الضباط والمهندسين والأطباء وغيرهم من الفنيين، ولا تستطيع الحكومة أن تنتظر طويلاً حتى تنشئ المدارس الابتدائية والثانوية وحتى يتخرج فيها الطلاب. فكان لابد من إنشاء المدارس الخصوصية لتعد العسكريين والفنيين اللازمين.

ولقد كان طلبة المدارس العسكرية في بادئ الأمر من الشراكسة والمماليك. ومعنى ذلك أن محمد علي لم يثق في أول حكمه في المصريين ليعد منهم ضباط جيشه، بل إنه لم

يثق في المصريين ليكون منهم جنود الجيش. فقد حاول تجنيد السودانيين. إذ جند منهم ثلاثين ألفاً، ولكن مات عدد كبير منهم وفشلت التجربة. فبدأ يتجه إلى المصريين بعد ذلك ليكون منهم ضباط وجنود الجيش. ولقد اثبتوا تفوقهم وقدراتهم وشجاعتهم. وإن لم يجد منهم إقبالاً في بدء تجنيدهم بالجيش لأنهم لم يكونوا قد ألفوا حياة الجندية من قبل. لذلك نرى محمد علي لا يلحق المصريين في بدء نشأة النظام التعليمي بالمدارس العسكرية. وإنما يجمع بالمدرسة العسكرية التي أنشأها بأسوان خمسمئة من أبناء المماليك. وكان يلحق المصريين بالمدارس الخصوصية ذات الطابع المدني كالطب والهندسة. ويأخذ طلبتها من الأزهر.

ثم وجد محمد علي من تجربته أن طلبة المدارس الخصوصية في حاجة إلى نوع معين من الأعداد. فأنشأ المدارس التجهيزية لتعد الطلبة للالتحاق بالمدارس الخصوصية. ووجد بعد ذلك أن طلبة المدارس التجهيزية في حاجة إلى تعليم نوع خاص، فأنشأ المكاتب الابتدائية لإعداد التلاميذ للالتحاق بالمدرسة التجهيزية. ولذلك نشأ نظام التعليم في عهد محمد علي بطريقة مقلوبة. المدارس الخصوصية أولاً ثم المدارس التجهيزية ثم المدارس الابتدائية. وهناك أقوال أخرى بأن محمد علي أنشأ النظام التعليمي بجميع أنواعه دفعة أولى فأوجد في كل قرية مدرسة ابتدائية وملأ هذه المدارس من تلاميذ الأزهر حسب المواهب عند الملتحقين في كل مدرسة.

واعتمد محمد علي على الأجانب في تنظيم المدارس وإدارتها والتدريس بها واختيار المواد الدراسية اللازمة ولذلك استقدم من إيطاليا المعلمين والضباط كما أحضر من الخارج الكتب وآلات الطباعة. واستعان بالمترجمين لترجمة الكتب إلى اللغتين العربية والتركية. غير أنه لم يقرر في خططه الاعتماد على الأجانب، فأرسل البعثات إلى الخارج لدراسة العلوم والفنون المختلفة. ليصبح أعضاؤها نواة هيئات التدريس بالمدارس الخصوصية بعد عودتهم من الخارج. وكان يختار أعضاء البعثات من طلبة الأزهر.

التعليم الابتدائي:

عرفنا كيف اهتم محمد علي بإنشاء المدارس الخصوصية لتمده بالخبراء في الميادين العسكرية والاقتصادية والفنية والإدارية المختلفة. لذلك نجد إهمالاً في أول عهد محمد علي للمدارس الابتدائية. وكان الاعتماد قائماً في ذلك الوقت على الكتاتيب المنتشرة في أنحاء البلاد. فقد استمرت هذه الكتاتيب تمثل تعليم المرحلة الأولى. وجاء إنشاء المكاتب الابتدائية متأخراً. وقد أنشئت من ١٨٣٣م إلى ١٨٣٦م، ٦٧ مدرسة ابتدائية بالأقاليم كان يطلق عليها اسم المبتديان. أما التلاميذ بالقاهرة فكانوا يتلقون تعليمهم الابتدائي بمدارس القلعة والقصر العيني.

وكانت المكاتب الابتدائية تتبع المديريات التي أنشئت بها . فالمديرية تقوم بتعيين الموظفين اللازمين من نظار ومعلمين، كما تقوم بعزلهم إن أرادت. وكانت المديرية مسؤولة عن غذاء وكساء التلاميذ الذين كانوا يقيمون أيضاً بالمدارس وفقاً للنظام الداخلي. وكانت المديرية تقوم أيضاً بصرف مرتبات الموظفين بالمكاتب الابتدائية. فالإنفاق على المكاتب الابتدائية بالأقاليم كان من شأن المديريات التي تتبعها. كما كان نظار المكاتب ومعلموها وخدمها يعينون من أهل المديرية.

وكانت الحكومة تنتزع الأطفال من أهلهم لتلحقهم بهذه المكاتب. وتقوم بإطعامهم وكسوتهم وإعطائهم مصروفاً شهرياً فضلاً عن تعليمهم، وتعدهم للالتحاق بالمدرسة التجهيزية. والمدارس الخصوصية تمهيداً للعمل بالحكومة. ولذلك كان الالتحاق بالمكاتب الابتدائية يعني الالتحاق بخدمة محمد علي. وهذا يفسر لنا سر عدم إقبال الأهالي على إلحاق أبنائهم بالمدارس التي أنشأها محمد علي. وكان عمر التلميذ بالمكاتب الابتدائية يتراوح بين العاشرة والرابعة عشر عند التحاقه بها. أما منهج المدرسة الابتدائية فيتجه إلى العناية بالقرآن الكريم وبالقراءة والكتابة والعمليات الحسابية الأولية وبعض مبادئ الصرف والنحو والفرائض الدينية.

وكانت الدراسة تستمر ثلاث سنوات. وكان يزور المدرسة من حين لآخر مفتش يقوم بالتفتيش على عمل المعلمين، ويتعرف على مقدار ما أفاده التلاميذ، كما كان يفتش على صحة التلاميذ، وعلى المباني، والمخازن والأثاث والأدوات.

ولقد كان لكل مدرسة في أول الأمر حرية التصرف فيما يتصل بجميع التنظيمات الخاصة بها. فكان لكل مدرسة شخصية مستقلة نظراً إلى عدم وجود لوائح تنظم العمل بها جميعها.

وقد قامت الإدارة الحكومية المصرية بإنشاء المدارس في الأقاليم التالية:

حلوان:

وجد في مدرسة حلوان سبعة وتسعين تلميذًا، وقد وضح رئيسها أن الفلاحين أرسلوا أبناءهم باختيارهم، وكان من الممكن أن يكون لديه عدد أكبر لو اتسع البناء. ولم يكن المكان أحسن بكثير من كوخ كبير من أكواخ الفلاحين، فقد كان مؤلفاً من طابقين، ولم تكن الأرض مغطاة بألواح من الخشب، هذا إلى أن حجرات النوم كانت مظلمة رديئة التهوية. غير أن المكان في مجموعه كان أجلب للراحة من تلك الأبنية التي يقيمها الشعب من الطين لسكناه. وتقام أبنية المدارس في بعض الجهات على أن تسع ٤٧ تلميذاً. وللناظر سلطة الإشراف العام على المدرسة. ويتقاضى كبير المدرسين (الباشخوجة) مئة قرش في الشهر، مضافاً إليها "تعيين" يوازي ما هو مخصص لمن كان في رتبة "اليوزباشي"، كما أن هناك اثنين من مدرسي الدرجة الثانية يتقاضى كل منهما خمسة وسبعين قرشاً في الشهر و"تعيين" ملازم. وتقوم الحكومة بإعداد النور والوقود، كما تقوم بإطعام التلاميذ وكسوتهم وإيوائهم على نفقتها. ولكل تلميذ في السنة قميصان وحذاء وجلباب. ويعلم القرآن في كل مكان ويقسم التلاميذ ثلاث فرق. ويتقاضى تلميذ السنة الأولى في الشهر عشرة قروش، وتلميذ الثانية ثمانية، والثالثة ستة، وذلك

عدا ما يتناولونه من مخصصات أخرى. وبعد الانتهاء من التعليم الأولي ينقلون إلى المدارس التجهيزية أو الخصوصية.

جرجا:

والمدرسة الابتدائية في جرجا، وبها نحو مئة طفل، كانت ملابسهم خيراً من ملابس الأهالي عامة. وقد قال رئيسها إن الأطفال جاءوا إليها بإرادتهم، لأن حصولهم على الملبس والمسكن بالمجان دافع فيه كل الكفاية. غير أن الحاجة إلى كتب أولية هي أظهر وجوه النقص في هذه المدرسة، كما هو الشأن في سائر المعاهد العلمية. وليس هناك رأي عام يعاضد تلك المعاهد، أو يهتم بنجاحها وإصلاحها، بل يتوقف كل شيء على تدخل ديوان المدارس، ولكن أعماله لسوء الحظ من التنوع وسوء التوزيع بحيث لا يمكن التوسع في أغراض محمد علي إلا على صورة تشوه تلك الأغراض إلى أبعد الآماد ولو أن نصف ما ينفق الآن على التعليم أحسن التصرف فيه لكان الخير مضاعفاً.

إسنا:

كان بالمدرسة الأميرية في إسنا ستة وتسعون طفلاً، تبدو على سيماهم دلائل البشر والسعادة والرغبة في التعليم. ولكن التعليم في هذه المدرسة، كما هي الحال في المدارس الأخرى، دون المستوى الذي يجب أن يكون عليه بكثير. والحاجة إلى الكتب الملائمة ظاهرة في كل مكان. وإلى أن يتم إعدادها فلن تفلح الوسائل التي تصطنعها الحكومة في تحقيق الغرض المطلوب.

قنا:

كان في مدرسة قنا الابتدائية ١٤٥ فتى، وكان تقدمهم في الكتابة كبيراً. وهم يستعملون ألواحاً من الصفيح يسهل محو ما عليها من الكتابة، حتى يصبح سطحها لامعاً نظيفاً يمكن أن يكتب عليه من جديد. وتبدو على وجوه الأطفال بصفة عامة دلائل

الذكاء. وكان ظاهر أن رغبتهم في التعليم شديدة. وطريقة التعليم هي نفس الطريقة المتبعة في جميع أنحاء الدولة العثمانية. وفي أثناء الدرس يهتز رأس المدرس على الدوام إلى الوراء وإلى الأمام، ويحاكيه في ذلك الأطفال. وعدد الوفيات بينهم سنوياً سبعة "والتعيينات" المخصصة لهم يومياً هي ٣٠٠ درهم من العدس و ٤٠ درهماً من الفول، ومن الشمع ثلاثة دراهم ومن الزيت درهم ومن الصابون درهمان ومن الملح ستة دراهم ومن الزبد عشرة ومن الوقود مئتا درهم ومن اللحم خمسة وسبعون (مرة في كل أسبوع). ويقسم الأطفال ثلاث فرق. وفضلاً عن "التعيينات" المخصصة لهم يتقاضى تلميذ السنة الأولى في الشهر ١٢ قرشاً، وتلميذ الثانية عشرة قروش، وتلميذ الثالثة ثمانية. وجميع الأطفال تدفع لهم "ماهيات" من الحكومة مهما كان مركز آبائهم. ويتقاضى "الباشخوجة" أي كبير المدرسين خمسة وسبعين قرشاً في الشهر، أما "تعيينه" اليومي فمقداره ٦٠٠ درهم من الخبز، وثمانون من العدس، وأربعون من الأرز، وأربعة وعشرون من الزيت واثنان ونصف من الصابون وثمانمئة من الوقود وتسعون من اللحم، وأربعة من الملح. وللمدير أو الناظر هذه المخصصات عينها، غير أن مرتبه مئة قرش في الشهر. وهناك ثلاثة مدرسين آخرين راتب كل منهم شهرياً أربعون قرشاً، وكاتب راتبه خمسون، أما "التعيين" اليومي لكل منهم فهو ٣٠٠ درهم من الخبز، وأربعون من العدس وأربعون من الفول وستة من دراهم من الملح وعشرة من الزبد وأربعة ونصف من الزيت ودرهم ونصف الدرهم من الصابون وخمسة عشر درهماً من اللحم وعشرون من الأرز وأربعمئة درهم من الوقود. أما الخدم فيتراوح أجرهم الشهري من ١٥ إلى ٢٥ قرشاً هذا فضلاً عن "تعيين" يومي قدره ثلاثمئة درهم من الخبز.

المدارس الأخرى:

وهناك نحو خمسة آلاف من الأطفال يتعلمون في المؤسسات الدينية بالأقاليم وخمسة آلاف آخرون في المؤسسات الدينية بالعاصمة. ويكاد التعليم في تلك

"الكتاتيب" يقتصر على حفظ القرآن، وعلى معرفة الكتابة، ولو أن تعليم الكتابة لم يكن عاماً. وأغلب هذه "الكتاتيب" ملحق بالمساجد، ومعلموها من رجال الدين المسلمين. ويقوم الآباء بقسط من التعليم، فكثيراً ما يتعلم الأطفال في المنازل والحوانيت آيات من القرآن.

المعاهد الدينية:

إن التعليم الذي يقوم به أساتذة الشريعة في المعاهد الدينية لتنشئة رجال الدين المسلمين، قليل الجدوى، بل إنه هبط في مستواه حتى يبلغ من التفاهة حدها الأقصى. فقلما يلقى درس في الأخلاق. أما الآيات القرآنية التي تحض على الفضائل فإن حظها من الذكر والتفسير أقل كثيراً مما تحظى به آيات تتصل بالأمور الشكلية في الإسلام. فالمسائل التي يحتدم حولها الجدل، وتعتبر على أعظم جانب من الأهمية، حتى أن التوصل إلى حلها قد يضفي على العلماء شهرة واسعة، هي البحث في مدى الفساد الذي يجعل الماء غير صالح للوضوء، وإعراب ما يتلى في الصلوات من آيات، والحالات التي يجوز فيها تعديل أحكام الصيام، والإشارات التي تصدر في أثناء الصلاة وتكون أكثر قبولاً عند الله، وقداسة الجهات المختلفة بالقياس إلى بعضها البعض، وماشابه كل ذلك من الموضوعات.

المدارس القبطية:

مدارس الأقباط كمدارس المسلمين، إلا أنه بدلاً من القرآن تتلى المزامير مترجمة إلى العربية على أنها الكتاب الذي يدرس في أغلب المدارس الأولية. ويشير المدرس إلى الحروف بقضيب من الخشب فيتبعه التلاميذ على الأثر في صوت له رنين ونغم. وفي جميع أنحاء مصر ترتل الدروس ترتيلاً. وقد جرت عادة التلاميذ وهم يحفظونها أن يهزوا رؤوسهم إلى الخلف وإلى الأمام دون انقطاع، كما هي الحال في المدارس

الإسلامية. وتكاد أحسن المدارس القبطية تكون في مستوى أسوأ المدارس القروية في إنجلترا، وليس هناك غير فارق واحد، هو أن الأقباط جميعاً، دون القليل منهم، يتعلمون الكتابة لأن جلهم يعدون لشغل وظائف الكتبة. وعدد الأطفال الأقباط في المدارس حوالي الألفين.

التعليم التجهيزي (الثانوي):

أنشئت أول مدرسة تجهيزية بالقصر العيني سنة ١٨٢٥م. وكان منهج المدرسة يتضمن القرآن الكريم، والخط، والنحو ، والصرف، واللغة العربية، واللغة الإيطالية التي كان يتحدث بها أكثر المعلمين الأجانب بالمدارس الحربية. وكان بعض التلاميذ يدرسون الجغرافيا والحساب والهندسة وبعض الفنون الحربية.

وقد ألحق بالمدرسة خمسمئة تلميذ من أبناء الأتراك والشراكسة والألبانيين والأرمن الذين يعملون في خدمة الحكومة. ووصل عدد تلاميذها سنة ١٨٣٣م إلى ١٢٠٠ تلميذ. كما ظل أغلب تلاميذها من غير المصريين. لذلك كانت لغة التعليم بها عند إنشائها هي اللغة التركية.

وكان التلاميذ يلتحقون بها بين سن العاشرة والخامسة عشرة. ولقد كان الغرض من إنشاء المدرسة التجهيزية كما سبق القول إعداد التلاميذ للالتحاق بالمدارس الخصوصية كالطب والهندسة والمشاة والفرسان والبحرية. وكان يؤخذ أيضاً منها الموظفون اللازمون لدواوين الحكومة. وكان بعض تلاميذ هذه المدرسة يلتحقون بالمدارس الخصوصية قبل إتمام دراستهم بها. ويظهر الطابع العسكري قد غلب على هذه المدرسة فكان التلاميذ يتعلمون "فنون الجهادية والحربية وغيرهما. ورتب لهم (محمد علي) معلمين ونظاراً وضباطاً وشهرية وكسوة ومأكلاً ومشرباً يكفيهم، بل يزيد عما يحتاجون إليه وما ذلك إلا لكي يتعلموا العلوم الأدبية والفنون الحربية والخط الثلث والرقعة".

وقد هبط مستوى التعليم بهذه المدرسة نتيجة المعلومات الضئيلة التي تلقاها التلاميذ بالمكاتب الابتدائية. ولأن المعلمين بالمدرسة التجهيزية لم يكونوا على قدر كبير من العلم. ويصف علي مبارك ذلك بقوله: " كانت واجبات الوظائف مجهولة فيها والتربية والتعليمات غير معنى بها، بل كان جل اعتنائهم بتعليم المشي العسكري. فكان ذلك في وقت الصبح والظهر وبعد الأكل وفي أماكن النوم. وكان جميع المتكلمين مع التلامذة يؤذونهم بالضرب وأنواع السب والإهانة من غير حساب ولا حرج مع كثرة الأغراض والإعراض عن الاعتناء بشؤونهم من مأكولات وخلافها".

ويدل هذا الرأي على ما أشرنا إليه من غلبة الطابع العسكري على هذه المدرسة لإعداد التلاميذ للمدارس العسكرية. كما يدل على ذلك أيضاً عدم قبول الكثير من أبناء المصريين بها عند إنشائها.

وبعد تنظيم المدارس سنة ١٨٣٦م تقرر إنشاء مدرستين تجهيزيتين واحدة في القاهرة يقبل بها ١٥٠٠ تلميذ وأخرى بالإسكندرية يقبل بها ٥٠٠ تلميذ. وكانت سنوات الدراسة بالمدرستين من أربع إلى خمس سنوات. غير أن عدد التلاميذ لم يصل إلى العدد المحدد عند إنشائها. وبعد التنظيم أصبحت خطة الدراسة تشتمل على اللغات العربية والتركية والفارسية والحساب والهندسة والجبر والتاريخ والجغرافيا والخط والرسم. غير أن المدرسة التجهيزية بالقاهرة نقلت سنة ١٨٣٧م إلى أبي زعبل وظلت هناك خمس سنوات. أما المدرسة التجهيزية الابتدائية بالإسكندرية فقد تأخر إنشاؤها حتى سنة ١٨٤٤م.

الفصل الثاني

إعداد المعلمين

وبالرغم من النهضة التعليمية التي بدأت تظهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلا أنه لم تكن هناك معاهد خاصة لإعداد المعلمين.

ففي المكاتب الابتدائية كان معظم المدرسين من المشايخ الذين قضوا عدة أعوام بالأزهر وكانوا يقومون بتدريس القرآن. وكان تلاميذ المدارس التجهيزية يعينون لتدريس الخط. أما تدريس الحساب فكان يقوم به تلاميذ مدرسة المهندسخانة المفصولون.

وكان ديوان المدارس يقوم باختبار المدرسين الجدد. وكانت مدرسة الألسن تشرف على عقد هذه الامتحانات فإذا ما اجتاز الشخص الامتحان صدر قرار بتعيينه.

ومع ذلك فلم يكن المعلمون يتخصصون في تدريس مواد معينة. بل يقوم كل منهم بالتدريس لفرقة بأكملها. وكان لكل مكتب به مئة وعشرون تلميذاً ثلاثة مدرسين يرأسهم "الباشخوجة". وهو معلم قديم يشرف على النواحي الفنية وكانت مرتبات معلمي المكاتب الابتدائية ضئيلة "لا تزيد بضعة قروش على مرتبات الحلاق والخياط".

أما المدرسون بالمدارس التجهيزية فكانوا يختارون من الذين درسوا بالأزهر لتدريس اللغة العربية ومن خريجي مدرسة المهندسخانة لتدريس الحساب والهندسة

والجبر. ومع ذلك كان مستوى هيئة التدريس بهذه المدارس أقل من المطلوب فكان بعض الأشخاص غير المتخصصين يقوم بالتدريس مثل ضابط المدرسة.

أما المدارس الخصوصية فكان معظم مدرسيها عند بدء إنشائها من الأجانب وكانت الحكومة تعقد لهم امتحاناً لتطمئن على كفايتهم . وكانوا يعينون بعقود يبين فيها المرتب ومدة العمل. غير أن بعضهم كان يعامل بعد فترة خدمته بالحكومة معاملة الموظفين المصريين. فلما عاد أعضاء البعثات من الخارج أخذوا يحتلون مراكز الأجانب ويقومون بالتدريس بالمدارس الخصوصية.

المدارس الإنجليزية:

أدت المدارس التي يديرها قسس إرسالية الكنيسة الأنجليكانية خدمات جلية للتعليم. ويعيش هؤلاء القسس في القاهرة ويؤدون وظائفهم في الكنيسة الإنجليزية بها ويعلمون عدداً كبيراً يبلغ عادة حوالي مئة من الأطفال انحدرت جملتهم العظمى من آباء مسيحيين أقباط ولكن بينهم عدداً قليلاً من المسلمين. ويتعلم الأطفال القراءة والكتابة باللغة العربية، كما يتعلمون مبادئ الجغرافيا والتاريخ الطبيعي والحساب والقواعد الهندسية التي لا يعمر حلها ويتكلم عدد قليل منهم اللغة الإنجليزية. والمبشرون الذين تولوا إدارة هذه المدارس حتى الآن من الألمان، ويخيل إلى أنهم يؤدون ما عليهم من الواجبات في همة وحكمة واقتدار. غير أن المدارس الأوروبية لم تفلح حتى الآن في إزالة ما وقر في الأذهان بشأن الفوارق بين الطبقات، ولا في إيصال التعليم إلى الطبقات الدنيا من الشعب. فما يكاد الفتى يتعلم القراءة والكتابة حتى يزهد في احتراف أية صناعة ولو كان من ورائها الشهرة والمنفعة بل ولو كان من ورائها الثراء. فهو يؤثر أن يكون كاتباً ضئيل الإيراد على أن يكون صانعاً يكسب المال الوفير. ذلك بأن الحصول على لقب أفندي مطمح أسمى من السعي وراء الغنى واليسر. وهذا النقص متغلغل في المجتمع الشرقي كله، وعقبة كأداة تحول دون انتشار الرخاء. وهكذا

نجد الكبر يورث الفقر في كل خطوة نخطوها. ومع أن الفقر معلم شديد المراس إلا أنه عاجز عن أن يفهم المسلم أن من الخير له أن يكون ناجحاً في عمل وضيع، من أن يتهدده الجوع بالموت وهو في منصب رفيع.

ويلحق بمدرسة البنين الثانية لإرسالية الكنيسة، ويرتبط بها من بعض الوجوه، مدرسة للبنات تحوي نحو مئة من الطالبات، تحت إدارة الآنسة "هوليداي" Holliday، التي جاءت إلى مصر على نفقة "جمعية السيدات للنهوض بتعليم المرأة في الشرق " Ladies Society for Pormoting Female Education in the East " حيث قالت "وقد زرت المدرسة وكان طبيعياً أن يغمرني السرور لتقدم البنات في دروسهن. وقد ثبت أنه لو عرف من قبل أن رجلاً أوروبياً في نيته أن يجوس خلال المدرسة لتخلف العدد الأكبر من التلميذات عن الحضور وبين الفتيات عدد كبير من المسلمات، أما الجهرة العظمى فمن القبطيات. وعندما دخلت المدرسة كان البنات مشغولات بدرس من دروس المطالعة العربية، وهو أمر لا يقبلن عليه إقبالهن على اشتغال الأبرة وعلى التطريز بنوع خاص لأن التطريز هو العمل الذي يؤثرنه على سواه ويشغفن جميعاً بالانهماك فيه شغفاً كبيراً. على أن ما أنتجه بنات هذه المدرسة قد استطاع أن يشق طريقه إلى حريم الباشا وابنته أرملة الدفتر دار بك، وأثار كثيراً من الدهشة وحب الاستطلاع ولقد أرسل في طلب الآنسة "هواليدي" لتعلم سيدات البيت المالك وهي خطوة أولى جليلة الخطر قد تتمخض عن نتائج بالغة الأثر، إذ أنه من المستحيل أن تزدهر في الشرق حضارة أو يتم إصلاح إلا بانتشال النساء من المركز الوضيع الذي انحدرن إليه. ولن يتمكن تحقيق ذلك إلا إذا تذوق نساء هذا اللون من التعليم الأولى، حتى يتطلعن إلى ما هو خير منه. فماذا يرجى من الأطفال إذا كانت عقول الأمهات عاجزة عن تقدير فوائد العلم ومزاياه؟. إن جميع ذكريات الطفولة والصبا نشأت على غرار طبعي. ولهذا لا يمكن التقليل من قيمة التعليم، إذا كان في سن مبكرة وتولته عقول مفكرة . وتسير هذه المدرسة إلى الأمام رويداً رويداً فمتوسط التلميذات في سنتها الأولى حوالي الثمانين، وفي الثانية

نحو التسعين وفي الثالثة يجاوز المئة. ويلتقي التلميذات بالمدرسين تسع ساعات من الثامنة صباحاً إلى الخامسة مساءً.

السعي في سبيل تعليم البنات:

كان حكيكيان بك وهو من تعلم في إنجلترا وكان يشغل منصب مدير المهندسخانة، ذا أثر بارز في لفت أنظار محمد علي إلى موضوع تعليم البنات وهو موضوع له أهميته الكبرى. ولو قدر للجهود التي تبذل في الأوساط الراقية من المجتمع أن تنزل إلى مستوى الطبقات الدنيا، وهو أمر يحتمل حدوثه فإذا ما قد تتمخض عنه تلك الخطوة الهامة من خير في نهاية الأمر أكثر من أن يقدر.

الفصل الثالث

المدارس الطبية

إن المدارس الطبية في مصر تثير اهتماماً خاصاً لكثرة الأوهام التي كان من الضروري التغلب عليها، حتى يمكن إنشاء تلك المدارس. فعندما اعتزم محمد علي أن يدخل في مصر النظام العسكري المعمول به في أوروبا، واستخدم لتوطيد أركان هذا النظام الغربي ضباطاً من الإفرنج جمهرتهم العظمى من الفرنسيين، وجد نفسه مسوقاً بحكم الضرورة إلى تهيئة وسائل الإسعاف الطبي للجنود، وسرعان ما اعترف بها له من قيمة وخطر. غير أنه اتضح أن نفور المسلمين من مس الموتى، وبالأحرى من تشريح جثثهم، يقيم صعوبات لا يمكن تذليلها. ولكن المثابرة الدائبة من جانب "كلوت" بك ومساعديه، ذللت جميع العقبات. فاستخدمت جثث الرعايا المسيحين في البداية، وبعد زمن وجيز بلغ اهتمام الطلبة بالأمر حداً جعلهم يحملون معهم إلى منازلهم بعض أجزاء الجسم لدراستها، وبهذه الوسائل قل نفور أصدقائهم من تلك الأعمال. ولما كان الجراح الناجح يحظى بالمكافأة والترقية دائماً، فقد أخذت الاعتراضات تتلاشى رويداً رويداً، حتى لقد بدأ الطلبة يلقون من آبائهم كل تشجيع على أن يمضوا في طريقهم. وقد أدى انتشار علم الطب إلى زيادة الإقبال عليه والاطمئنان إليه، حتى أن المرضى ليسافرون مئات الأميال بل ألوفها لتجرى عليهم عمليات جراحية. وكثيراً ما يفد زنوج من سنار وعرب من الصعيد وبدو من أقاصي الصحراء. وقد شوهدت عمليات تجرى في مدارس القاهرة لأشخاص قدموا من أقطار نائية، ليسلموا أنفسهم إلى مبضع الجراح في بشر وشجاعة.

وتقبل الحوامل في مدارس الطب لإجراء عمليات الولادة لهن. ثم طائفة من الشوام يعلمن الولادة علماً وعملاً. وهذه الطائفة لا تقتصر على الفلاحات المصريات القادمات من تخوم النيل بل إنها لتشمل كذلك زنجيات من النوبة وبنات من الحبشة. وهن يتلقين المبادئ العامة في علم التشريح، وكان في مقدور بعضهن أن يجبن على جميع الأسئلة الخاصة بجوهر الموضوع. وقد قامت عقبة بسبب صعوبة التوفيق بين اللغة العربية وفن الطب في حالته وقتئذ، غير أنه إذا تعذر إيجاد كلمات مرادفة في العربية، فاستعملت الاصطلاحات الفرنسية. ولم يظهر البنات قط قصوراً في الناحية العملية، فقد كن يجبن على الفور إجابة تدل على الذكاء، إذا ما وجهت إليهن أسئلة، بشأن ما يجب إتباعه في حالات الولادة العسرة.

وقد أنشئت مدرسة الطب سنة ١٨٢٧م ، وكان بها مئة تلميذ . وقد ألحقت بمستشفى أبي زعبل العسكري، ثم نقلت إلى القصر العيني بعد عشر سنوات وكان كلوت هو ناظر هذه المدرسة. وكانت مدة الدراسة بها من ثلاث إلى أربع سنوات مما أدى إلى هبوط مستوى طلبتها لعدم إعدادهم الإعداد المناسب. فاضطرت إدارة المدرسة إلى مد الدراسة عاماً آخر فأصبحت مدة الدراسة بها خمس سنوات. ولم ينفذ ذلك بالنسبة إلى جميع الطلبة نظراً إلى حاجة الجيش إلى الأطباء. وقد اختير من أوائل الطلبة اثنا عشر طالباً أوفدوا في بعثة إلى فرنسا لدراسة الطب سنة ١٨٣٢م.

ثم بدأت المدرسة تستقبل أعداداً كبيرة من الطلبة ليمكن تزويد الجهات المختلفة بحاجاتها من الأطباء للإشراف على الشؤون الصحية. ولذلك أصبح في كل مديرية طبيب أو أكثر يقوم بالكشف على تلاميذ المدارس ويشرف على تطعيم الأهالي.

تنظيم الخدمة الطبية

ورثت جميع العلوم في مصر وغيرها من بلاد الشرق تحت أنقاض الامبراطورية التي شيدها الخلفاء المسلمون، وتمكنت مصر من صورة غامضة لذلك العهد الحافل

بالمفاخر وآيات الذكاء، رسمتها له مخطوطات شوهاء، لم يفهم ما فيها على الوجه الصحيح. وكان من أثر ذلك أن حل الدجل محل الطب، كما انتقلت الجراحة إلى أيدي الحلاقين، والصيدلة إلى أيدي التجار. غير أنه لما ازداد الاتصال وغدا أيسر وأسهل بفضل العلاقات السياسية الطبية التي قامت بين تركيا وأوروبا المسيحية، نزح إلى بلاد الشرق كثير من الأطباء الذين استطاعوا أن يثبتوا تفوقهم على الجهلاء من أدعياء الطب. ومنذ ذلك الحين ذاعت شهرة الأوروبيين في جميع فروع الطب بين أهل الشرق، حتى أنه كثيراً ما يحدث الآن أن يستغل سذاجة الجمهور رجال كل مؤهلاتهم العلمية أنهم ينتمون إلى أصل أجنبي.

وعندما شرع محمد علي في تنفيذ الإصلاحات العظيمة التي استقر رأيه عليها، سعى في استخدام ضباط أوربيين من جميع الرتب والأسلحة، وكان من أثر ذلك القيام بتنظيم شؤون الجيش عامة، واستتبع هذا التنظيم إنشاء قسم طبي يتولى المحافظة على صحة القوات المصرية.

ولما عين كلوت بك طبيباً وكبيراً للجراحين في الجيش الجديد، قدم إلى مصر ومعه عدد من الضباط الأطباء، عينوا على الفور في مختلف الألايات والمستشفيات، التي كانت وقتئذ في سبيل الإنشاء، وهكذا بدأت خدمة طبية منظمة.

وقد تألف مجلس عام للشؤون الصحية (شورى الأطباء) من جراح وطبيب وصيدلي ويخضع هذا المجلس لناظر الحربية مباشرة، بينما تخضع له بدوره مجالس ثانوية للقوات البرية والبحرية في جميع أملاك الجناب العالي.

وتغلب الروح الفرنسية على ما وضع للخدمة الطبية من أنظمة.

"ومع هذا فإن الأطباء والصيادلة الأجانب الذين استخدموا في الجيش أو فى المستشفيات العسكرية، ينتمون إلى شعوب أوروبا المختلفة. ويتضح من جدول الأطباء أن النسبة بينهم كانت على النحو التالي:

إيطاليون	١٠٥
فرنسيون	٣٢
إنجليز	٦
ألمان	٥
بولنديون	٤
أسبان	٢
الجملة	١٥٤

"ومن يكون حاصلاً على لقب "دكتور في الطب" من إحدى الكليات الأوروبية يحوز رتبة البكباشي. "ويتألف شورى الأطباء في الوقت الحاضر على النحو التالي:

كلوت بك	:	المفتش العام- الرئيس
جيطاني بك	:	الطبيب الخاص للجناب العالي- عضو فجري
دلسينور Delsiynore	:	مفتش طبي- عضو عامل
ديتوش Destouches	:	مفتش صيدلي – عضو عامل

أما مرتبات الرتب المختلفة فكانت على الوجه التالي:

	فرنك
مفتش عام القوات البرية والبحرية ورئيس شورى الأطباء	٣٠.٠٠٠
المفتشون وأعضاء شورى الأطباء	١٠.٠٠٠
مفتشو الجيش	٨.٥٠٠
الرؤساء	٥.٠٠٠
جراحو الألايات	٣.٤٠٠
مساعدو جراحي الألايات	٢.٢٠٠
صغار المساعدين	١.٥٠٠

مدرسة الطب البيطري

وقد أنشئت مدرسة للطب البيطري برشيد سنة ١٨٢٨م. واختيرت رشيد لأن الأمراض كانت تفتك بالماشية التي تعمل بالمصالح الحكومية لضرب الأرز. وكان محافظ رشيد يشرف على المدرسة. ثم نقلت المدرسة بعد إنشائها بعام إلى أبي زعبل إلى جانب مدرسة الطب البشري. وأصبحت مدة الدراسة بها في سنة ١٨٣٦م خمس سنوات ولم تكن محددة من قبل. ثم نقلت مرة أخرى سنة ١٨٣٧م إلى إسطبلات الحكومة بشبرا وألحق بالمدرسة والإسطبل مستشفى لعلاج الحيوانات المريضة التي يرسلها الجيش أو ترسلها المصانع الحكومية.

مدرسة المهندسخانة

وكانت أرقى مدارس الهندسة مدرسة المهندسخانة التي افتتحت في بولاق سنة ١٨٣٤م، وكانت الدراسة بها تسير على غرار مدرسة الهندسة بباريس. وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات. وكان بها ثلاثة أقسام، قسم للطرق والكباري، وقسم للمعادن والمناجم وقسم لإعداد مدرسين للرياضة ومعيدين بنفس المدرسة. وكانت المدرسة تعد ضباط المدفعية ومهندسين للأشغال العامة والمناجم ومصانع البارود إلى جانب مدرسي الرياضيات والطبيعة.

مدرسة الزراعة

وتعتبر أيضاً مدرسة نبروه التي أنشئت سنة ١٨٣٦م بقرية نبروه بالغربية أهم المدارس الزراعية. وقد ألحقت بها مزرعة نموذجية مساحتها ٢٠٠١ فدان، واختير معظم تلاميذها من المصريين من مدرسة القصر العيني ويقدر عدد تلاميذها في العام الأول من إنشائها بأربعين طالباً، وفي العام الثاني دخلها ثلاثة وثلاثون طالباً. غير أن حال المدرسة ساءت بعد ذلك وضعف مستوى تلاميذها فنقلت إلى شبرا سنة ١٨٣٩م. ويظهر أنها نقلت مرة أخرى إلى المنصورة سنة ١٨٤٤م، ثم ألغيت. وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات.

المدارس المتوسطة في التعليم

وإلى جانب هذه المدارس الزراعية والهندسية العالية قامت بعض المدارس الزراعية والصناعية البسيطة. ففي سنة ١٨٣٠م أنشئت مدرسة زراعية تعتبر أول مدرسة زراعية أيضاً، وكانت تسمى بمدرسة الدرسخانة الملكية. وكان تلاميذ هذه المدرسة يختارون ممن يعرفون القراءة والكتابة فقط. وكانت تصرف للتلاميذ مكافآت مالية شهرية وتقدم لهم وجبة الغداء. غير أنه نظراً إلى أن المدرسة لم تنشأ في منطقة

زراعية فإنها لم تخرج إلا موظفين للحكومة، وقد أغلقت بعد إنشاء ديوان المدارس. وأنشئت مدرسة أخرى للزراعة سنة ١٨٣٣م بشبرا الخيمة. وقد خصصت لها الحكومة مئة فدان بجوار حديقة شبرا للقيام بالتجارب الزراعية. غير أن هذه المدرسة كان مصيرها الإلغاء أيضاً.

مدرسة الفنون والصناعات

أما مدرسة العمليات أو مدرسة الفنون والصناعات فقد أنشئت سنة ١٨٣٩م ببولاق. وقد بلغ عدد تلاميذها عند افتتاحها خسمين طالباً يدرسون الصناعات المختلفة كالخراطة والبرادة والحدادة والنجارة وأعمال السفن. غير أنها تحولت إلى ورشة سنة ١٨٤٤م ووزع عدد كبير من تلاميذها على الجهات المختلفة تبعاً لتخصصهم، و من تبقى ضم إلى أعمال الورشة.

مدرسة الإدارة الملكية

وإلى جانب هذه المدارس الفنية أنشئت مدرسة الإدارة الملكية سنة ١٨٤٣م لإعداد موظفي الحكومة. وقد بدأت بثلاثين طالباً ثم ألغيت ونقل تلاميذها سنة ١٨٣٦م إلى مدرسة الألسن. وكانت مدرسة الألسن قد أنشئت سنة ١٨٣٥م لإعداد مترجمين، وكانت تسمى أيضاً باسم مدرسة الترجمة. وكانت تمد المدارس الخصوصية بتلاميذ يجيدون اللغة الفرنسية. وبعد تنظيم قوانين التعليم سنة ١٨٣٦م أصبحت المدرسة تخرج المترجمين والمعلمين. وقد بلغ عدد تلاميذها عند إنشائها خمسين تلميذاً انتقاهم رفاعة الطهطاوي ناظر المدرسة من مكاتب الأقاليم. ثم ضم إليها مدرسة الإدارة الملكية كما ذكرنا فأصبح عدد تلاميذها ثمانين طالباً زاد عددهم حتى بلغ ١٥٠ طالباً. واستمر العدد في الزيادة بعد ذلك.

مدرسة الألسن

وكانت مدرسة الألسن خمس سنوات قد ترفع إلى ست سنوات. وتدرس بها اللغات العربية والتركية والفرنسية، والرياضيات والتاريخ والجغرافيا.

المدارس العسكرية

أما المدارس العسكرية فقد بدأت بإنشاء مدرسة حربية بالقلعة. غير أنها نقلت إلى أسوان في سنة ١٨٢٥م. وكان معظم تلاميذها الخمسمئة من أبناء المماليك. ثم انتقلت هذه المدرسة إلى إسنا. ثم أخميم، ثم النخيلة قرب أسيوط وأخيراً استقرت في الخانقاه قرب القاهرة. غير أن هذه المدرسة اختفت عندما بدأ تنظيم التعليم. وفي سنة ١٨٢٥م أنشئت مدرسة لأركان الحرب قرب القاهرة وكانت تعد الضباط للعمل بالوحدات الهندسية بالجيش ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات.

مدارس المشاة والفرسان والمدفعية

وكانت هناك أيضاً مدارس للمشاة والفرسان والمدفعية وقد أنشئت مدرسة للمشاة سنة ١٨٣٢م بالخانقاه ثم نقلت إلى دمياط بعد سنتين واستقرت هناك حتى سنة ١٨٤١م ثم نقلت إلى أبي زعبل. وكان عدد تلاميذها سنة ١٨٣٧م يقدر بخمسة وستين وثلاثمئة. أما مدرسة السواري فأنشئت بالجيزة سنة ١٨٣١م وكانت تعد الضباط للتدريس بالجيش. كما كانت تقبل تلاميذ المدرسة التجهيزية وتعدهم للعمل ضباطاً لسلاح الفرسان. وكانت مدة الدراسة بالنسبة إلى الفريق الأول من عامين إلى ثلاثة أعوام. وبالنسبة إلى تلاميذ المدرسة التجهيزية من ثلاث إلى أربع سنوات. كما أنشئت مدرسة للمدفعية بطرة في سنة ١٨٣١م وكانت مدة الدراسة بها أربع سنوات وقد التحق بها ٣٠٠ طالب من تلاميذ مدرسة القصر العيني التجهيزية.

وكان معظم طلبة هذه المدارس عند إنشائها من أبناء الأتراك والمماليك. كما كانت تتبع ديوان الجهادية. وفي سنة ١٨٣٦م-١٨٣٧م نظمت وزاد عدد طلبتها. وقد أخذ عدد الطلبة المصريين بها يزداد حتى أصبحوا يكونون معظم المدارس العسكرية.

المدرسة البحرية

أما المدرسة البحرية بالإسكندرية فكانت تعد التلاميذ للخدمة في الأسطول كما كانوا يتعلمون فيها بناء السفن وكان مقرها بدار الصناعة بالإسكندرية. وكان يشترط في تلاميذها معرفة القراءة والكتابة وأن تكون سنهم بين العاشرة والعشرين. وكانوا يختارون من مكاتب المدن والقرى وكانت هناك أيضاً مدارس على ظهر الأسطول يتعلم فيها التلاميذ قيادة السفن وسائر الفنون البحرية.

الفصل الرابع

إنشاء المستشفيات

إنشاء مستشفى ومدرسة الطب في أبي زعبل

" يرجع افتتاح مستشفى أبي زعبل إلى عام ١٨٢٥م. وبالقرب منه يقع معسكر التدريب وهو يضم المشاة وأركان الحرب ومدارس المدفعية وعددهم جميعاً خمسة وعشرون ألف رجل. وكان المرضى الذين يردون من المعسكر إلى المستشفى يتراوح عددهم في المتوسط بين ١٥٠٠ وألفين.

" وقد أوحى انعدام الأطباء الوطنيين ووجود المواد اللازمة لإنشاء مدرسة إلى كلوت بك بفكرة إنشاء فصل في داخل المستشفى نفسه لتعليم الطب يتخرج فيه جراحون وصيادلة لخدمة الجيش فصادفت آراؤه قبولاً ووقع الاختيار في عام ١٨٢٧ على طائفة من شبان المعاهد الدينية فكانوا أول من تذوق حكمة ابن سينا وأبي القاسم.

" ويشمل برنامج الدراسة المواد الآتية:

١ - التشريح وعلم وظائف الأعضاء.

٢ - الباثولوجيا والعيادة الخارجية.

٣- الباثولوجيا والعيادة الداخلية.

٤- العقاقير الطبية وعلم الأقرباذين.

٥- الصحة والطب الشرعي.

٦- الطبيعة والكيمياء.

٧- النبات.

" وقد عين كلوت بك مديراً للمدرسة وأستاذًا لعلم الباثولوجيا والعيادة الخارجية. وتخرج في هذه المدرسة في السنوات العشر التي تلت إنشاءها ٤٢٠ ضابطاً وطبيباً والتحقوا بالجيش والأسطول برتبة جراحين أو مساعدين أو صغار المساعدين.

" وقد أحضر كلوت بك إلى باريس في عام ١٨٣٣م اثنى عشر طالباً من أبناء العرب لإكمال دراستهم الطبية عين ستة منهم عقب عودتهم إلى مصر في وظائف أساتذة مساعدين في مدرسة أبي زعبل الوطنية حيث تعلموا الفن الذي يمارسون حين كانوا من طلبتها. أما الستة الآخرون فما يزالون في باريس وسيعودون إلى بلادهم للانتفاع بعلمهم كما انتفع بعلم من تقدموهم.

إنشاء مدرستين أخرتين في الإسكندرية وحلب

" في عام ١٨٣٧م أنشئت مدرستان ثانويتان للطب إحداهما في الإسكندرية والأخرى في حلب لرفع مستوى التلاميذ الذين يتخرجون في مدرسة أبي زعبل من الناحية العلمية فكانوا يتعلمون التشريح الوصفي وعلم الباثولوجيا والعيادة الخارجية والداخلية والصيدلة العملية. وصار التعليم في يد كبار الأطباء والجراحين والصيادلة في الجيش والأسطول.

نقل المستشفى ومدرسة الطب من أبي زعبل إلى القاهرة

" نشأ عن إلغاء المعسكر الذي كان السبب في إنشاء المستشفى والمدرسة في أبي زعبل أن أصبح الجناح المخصص للمرضى لا يستقبل غير أفراد يشكون عللاً مزمنة. ومنذ ذلك الحين انعدمت فائدة المؤسستين ووقف تقدمها وأصبح نقلهما إلى مكان أكثر ملاءمة للمرضى وللتعليم ضرورة لا مناص منها. وقد قدر لبناء القصر العيني الفسيح وكانت به مدرسة تجهيزية أن يحل به المرضى وتلاميذ مدرسة أبي زعبل والعكس بالعكس. وكان هذا التبادل في مصلحة العلم والإنسانية.

" ويقع بناء القصر العيني على ضفة النيل الشرقية بعيداً عن القاهرة بنحو ربع فرسخ في موضع كان إبراهيم بك قد اتخذه مكاناً لمزرعته كما أقام عليه الفرنسيون مستشفياتهم العسكرية عندما فتحوا مصر.

" والقصر العيني عبارة عن أربعة صفوف من الأبنية على شكل مربع وفيه أربعة وستون عنبراً فسيحاً يسع كل منها أربعين سريراً. وهو مؤلف من طابقين وفيه بناء منفصل للصيدلة والمعمل الكيماوي ومتحف الطب والتاريخ الطبيعي والمدرج والحمامات والمطابخ. إلخ. مدة الدراسة الطبية خمس سنوات.

" ويجدد خمس الطلبة كل سنة. ويلبسون كسوة رسمية ويخضعون للقانون العسكري ويحصلون على الغذاء والكساء والمسكن على نفقة الحكومة. وفضلاً عن ذلك فإنهم يتقاضون مرتبات تختلف تبعاً للفرقة التي يكونون بها. فيتقاضى طالب السنة الأولى أربعين قرشاً في الشهر (أي عشرة فرنكات) وطالب السنة الثانية خمسين وتستمر الزيادة على هذا المنوال حتى السنة الخامسة.

"ويعين في وظائف التدريس الحائزون رتبة قائم مقام وقد يعهد بها في بعض الأحوال إلى من أدوا خدمات تستحق مثل هذه المكافأة.

إنشاء المستشفى المدني

" أدى نقل المستشفى من أبي زعبل إلى القصر العيني إلى إلغاء مستشفى القاهرة القائم بميدان الأزبكية الفسيح فقد حول إلى مستشفى مدني يتألف من خمسة أقسام. مستشفى للرجال وآخر للنساء ودار الأمومة ومستشفى للولادة وآخر للأمراض العقلية. ويتسع هذا المستشفى لاحتواء خمسمئة مريض.

" وهذا المستشفى المدني بالقاهرة أول مستشفى من نوعه أقيم في الدولة العثمانية في عهد الخلافة. فمع أن الخلفاء أنشأوا بعض المستشفيات وهم في أوج سلطانهم إلا

أنها لم تبلغ من الكمال ما بلغته تلك المبرة التي افتتحها محمد علي لتخفيف آلام الإنسانية.

" وهكذا كان الطب- كما هو الواجب- من أقوى العوامل التي ساعدت على النهوض بمصر.

" فإن ما كان يستمتع به رجال الطب بين جميع طبقات المجتمع من مقام رفيع بفضل ما يؤدونه من خدمات لخير الإنسانية قد زاد في توثيق الاتحاد بين شعب يعتنق أفراده ديانتين مختلفتين إذ انتزع الشكر من طائفة وغرس فضيلة الإخلاص في الأخرى كما أنه حطم ذلك الحاجز الذي أقامته بين أتباع المسيح وأتباع محمد أحفاد الجمهور وإن كانت تقوم على أساس من الخرافات.

" وقد كان لإخلاص الأطباء الأوروبيين وكفاحهم الباسل ضد أخطر الأمراض وعدم مبالاتهم قط بأرواحهم، وهو ما يستحقون من أجله الحمد، كان لهذا كله نتائج قيمة لا يمكن تقديرها إلا أن إنشاء مدرسة أبي زعبل خاصة بدا عهدًا جديداً لعلم الطب بل عهداً مجيداً لحاكم رحيم لا تبلى على الدهر ذكراه.

" ذلك بأن طلبة الطب الذين بدأوا يدرسون مختلف العلوم التي تتصل بهذا الفن وتعمل على تكوين رجل واسع الخبرة به وأصبحوا رسلاً كثيرين عليهم أن ينشروا نور العلم بين شعب ما زال أسير الجهل وإساءة الظن.

" ومنذ ذلك الحين لم يعد استخدام شرط الجراحة تشريح جثث الموتى انتهاكاً للحرمات يستحق فاعله اللعنة ولم يعد الناس يحسبون ما يأتيه الطب والكيمياء من عجائب أثراً من آثار السحر أو عملاً من أعمال الشيطان.

" بل لقد أخذ علماء الدين أنفسهم يسيرون في طريق التقدم فحبذوا تعليم الفتيات اللغة العربية كما يتعلمها التلاميذ في المساجد وغدا في مقدار أولئك الفتيات

شرح تركيب الأعضاء وتفسير ظاهرة الحمل، وأهم وظائف الحياة والكشف العظيم الذي اهتدى إليه "هارفي" وتحليل الهواء تحليلاً كيماوياً والنسب الهندسية لتجويف الحوض والولادة الطبيعية وغير الطبيعية، كما غدا في مقدورهن الاستشهاد بأقوال "سملي" و "بوديلوك" في الوقت المناسب.

" وكانت مدرسة الطب أول ما دفع حركة التجديد إلى الأمام ولم تكف عن ذلك لحظة واحدة بل مضت في خطا موفقة تواصل عملها الإنساني والثقافي الذي تكلفت بأن تحسن أداءه ولا غرو، فهي أم المدارس المصرية جميعاً وقدوتها في حسن التنيسق واستقرار النظام وفي رتب الأستاذية التي تمنح نتيجة للامتحانات السنوية العامة أو تقديراً لكفاية ممتازة تستحق رعاية من يهيمن على مصائر البلاد وإقرار الشعب بفضلها وكذلك في الرسائل العلمية الكثيرة التي يؤدي تعريبها إلى صبغها نوعاً بالصبغة المصرية.

امبراطورية محمد علي

الباب الأول

محاولة محمد علي تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة مصرية بخوضه معارك مع الوهابيين والسودانيين واليمنيين وفتح أفريقيا الشرقية في (عهد إسماعيل باشا)

امبراطورية محمد علي باشا في القرن التاسع عشر الميلادي

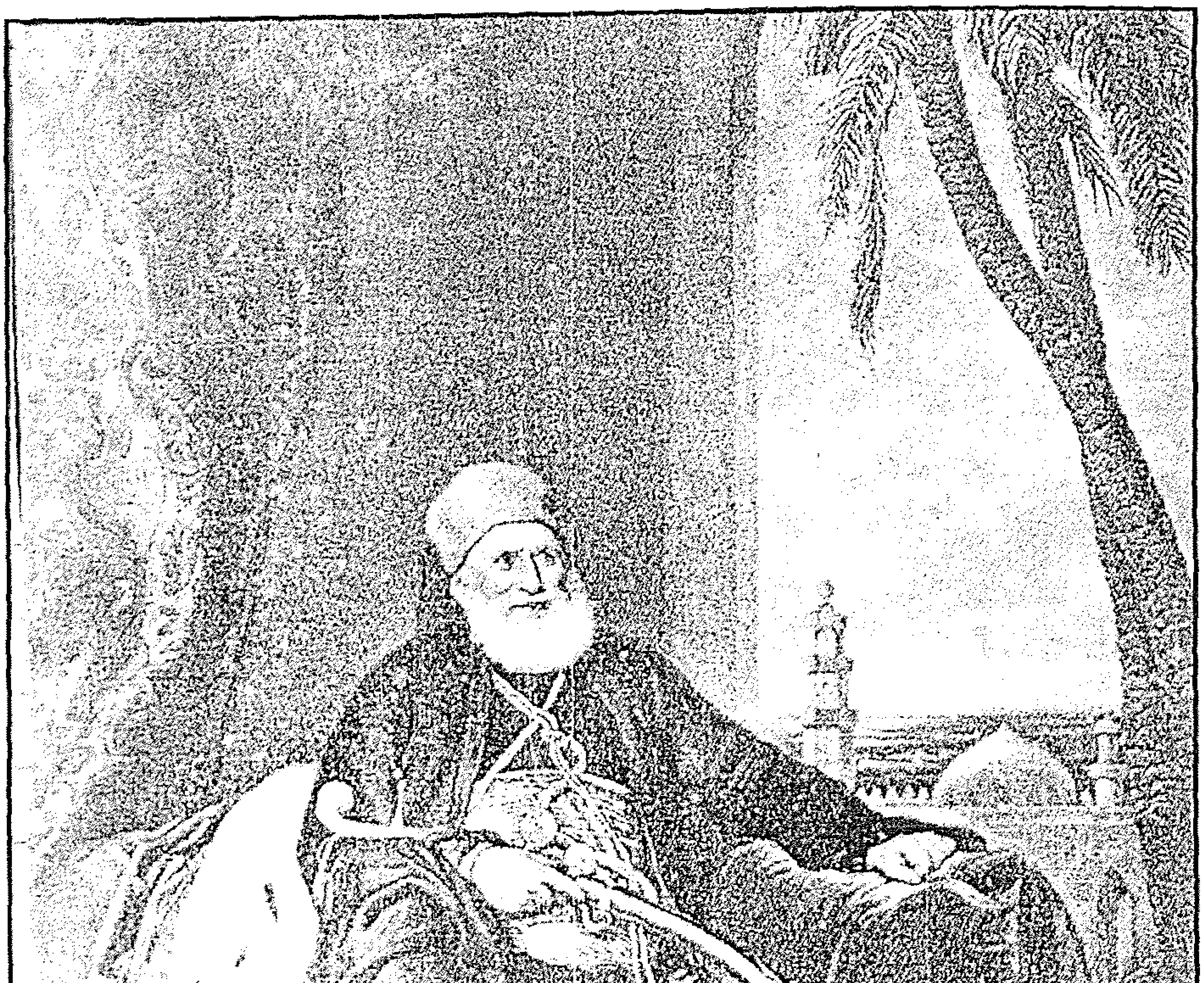

الفصل الأول

صورة توضح إبراهيم باشا مع جيشه في الجزيرة العربية عقب انتصاراته على الوهابية وتدمير عاصمة الدولة السعودية الأولى وعاصمتها الدرعية في أوائل القرن التاسع عشر

إبراهيم... في حروبه مع الوهابية:

لقد آل الصدر الأعظم على نفسه ألا يترك محمد علي هادئ البال بمصر ويعمل على تقويتها وإصلاح أمورها. ولما رحلت الحملة الإنجليزية عن مصر جاءت المكانية إلى محمد علي بضرورة الاستعداد لمقاتلة الوهابيين وظلت الدولة العثمانية في الداخل بحالة من الفوضى الشديدة والحكومة في حالة عجز شديد لصيانة البلاد من الخراب وسبب ذلك رغبة السلطان "سليم الثالث" في إدخال النظام الحديث في الجندية ١٨٠٨م فقام العلماء وساعدوا الانكشارية " القوة العسكرية العثمانية" وقتئذ على الثورة فخربوا ودمروا واستبدوا بالحكام بعد أن عزلوا السلطان سليم وولوا السلطان مصطفى ثم اعتقلوه ثم قتلوه بعد بضعة أشهر وولوا السلطان محمد الثاني وكان شاباً حازماً فصالح الانكشارية.

وترقب الفرص للقضاء عليهم ولكن هذه الحوادث تركت الجيش في حالة سيئة من الضعف فلما رأى السلطان أن حركة الوهابيين أخذت تستفحل وأن جنوده تنهزم في كل مرة كتب إلى محمد علي ليجهز حملة على الوهابيين (١٨٠٩م) وكانوا قد استولوا على الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) ودانت لهم بلاد العرب بأكملها. ونتساءل من هم الوهابيين؟ كيف نشأوا؟

ظهر في أوائل القرن الثامن عشر رجل من بلاد " نجد" اسمه محمد بن عبد الوهاب من علماء الحنابلة ولد في عام ١٦٦٩مَ وتلقى العلم عن أبيه ثم انتقل إلى البصرة لإتمام دروسه وزار مكة والمدينة ثم استقر في بلدة العنينة في إقليم "العارض" من نجد. وكان يظهر في كثير من المسائل الدينية مخالفة لأصل عصره وتتلخص دعوته في التمسك بالقرآن الكريم وعدم التوسل إلى أي مخلوق أو نبي فالتوسل إلى الله ومن المبادئ التي يدعو إليها التقشف وعدم التزين بالحرير والذهب وهدم المزارات وقباب الأولياء لأنها من مظاهر الوثنية ومنع الناس من التدخين والمسكرات ومنع البغاء

والميسر. فلما ذاع أمره فاضطهده أهل بلده فر هارباً إلى " محمد بن سعود" أمير الدرعية فدخلها في ١٧٤٦ وقد وعده محمد بن سعود بحمايته ممن يناوئه. فنشر دعوته وأخذ نفوذه يزداد بانضمام ابن مسعود إليه. فكاتب مشايخ القبائل ودعاهم إلى التمسك بما يدعو إليه وإلا قاتلهم برجال " الدرعية" جهاداً في سبيل الحركة فأذعن له كثير وحضروا إليه في الدرعية حتى ازداد أنصاره. ولما فارق ابن سعود الحياة خلفه ابنه "عبد العزيز" في عام ١٧٦٥م ودانت له شبه جزيرة العرب وكانت الدولة العثمانية مشغولة في حل مشكلاتها الخارجية في القارة الأوروبية وفي مصر.

لم تقو الدولة العثمانية على رده ثم قتل عبد العزيز في العراق أثناء الصلاة وخلفه ابنه "سعود الكبير" وقد اتصف بالشهامة والشجاعة والجندية التي لا نظير لها وبهذه الصفات هدد الدولة العثمانية في أقاليمها "العراق والشام وفتح المدينة المنورة" عام ١٨٠٤ م واستولى على ما فيها من تحف وقام سعود بنشر دعوته الوهابية بهمة لم تعرف الجزيرة العربية من قبل مثل هذه الهمة. فكتب سعود مكتوباً إلى السلطان سليم يأمره فيه بعدم إرسال المحمل السنوي إلى البقاع المقدسة بالزمر والطبول موضحاً ذلك بقوله "إن ذلك ليس في الدين من شيء" فأبطل إرسال المحمل منذ سنة ١٨٠٦م لما وصل إلى محمد علي في عام ١٨٠٩م. صدر أمر السلطان إلى محمد علي لبذل جهده للقضاء على هذه الحركة.

قام محمد علي بتعبئة جيش فجهز له من المؤن والذخائر التي يحتاج إليها الجيوش في ذلك العصر. وكان محمد علي على يقين أن السفر بطريق البر إلى الجزيرة العربية له صعوبة تفوق العقل، فقد يهلك فيه الكثير من جند ودواب النقل فأصدر محمد علي أوامره بأن تتخذ الحملة طريقها في البحر الأحمر إلى ينبع وجدة.

وقد قام الشعب المصري بتجهيز السفن لنقل القوات المصرية عن طريق قطع الأخشاب التي تصلح لبناء هذه السفن وتم إنشاء ١٥ سفينة كبيرة وطلب من الآستانة

إمداده بالأخشاب فقطع أشجار النبق والتوت وأرسلت على السفن إلى بولاق حيث تم إنشاء دار صناعة بها. وعندما تجهز هذه الدار السفينة كانت تحمل على الجمال إلى السويس ثم تنزل في البحر. وقد قام محمد علي بالتوجه إلى السويس للإشراف على العمل بنفسه وكان تعداد القوات التي نقلت حوالي ٢٠٠٠ من الفرسان يسيرون عن طريق القصير إلى جدة أما ٦٠٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من المدفعية يركبون البحر عن طريق السويس.

وتولى قيادة الحملة ابنه "طوسون" وقبل رحيل الحملة إلى ينبع قام محمد علي بالتفاوض مع "الشريف غالب" لمساندة الحملة وتقديم التسهيلات لها وأفادوها بالمعلومات عن الطرق التي يشغلها الجيش المصري لملاقاة الوهابيين ولما وصلت الحملة إلى ينبع قوبلت من سكان الميناء بالفرح. وقد اعتمد طوسون على قوة جنوده وتفوقهم على الوهابيين في العدد والأسلحة فاتجه إلى المدينة حيث وقع قتال بينه وبين الوهابيين عند بلدة "بدر" التي انتصر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكسر الوهابيون لكن بعد فترة استعادوا نشاطهم الحربي والمقاومة الشديدة التي أدت إلى أن يتقهقر طوسون إلى "ينبع" بعد أن فقد أعداداً كثيرة من قواته ويرجع تلك الخسائر البشرية في القوات المصرية بأن هذه القوات لم تكن تحارب من قبل في ميدان وعر المسالك كثير المكامن فكان من المتعذر على الجنود معرفة طرق السير فيه ولذلك أدى إلى هلاك بعض القوات ومع الإضافة إلى طبيعة البلاد عدم وجود جو ملائم من الصداقة بين بعض العرب للمصريين وكبرياء طوسون كقائد أبعدته عن العرب فأخذوا يتحرشون بالقوات المصرية وضربهم دون المواجهة أينما رأوهم.

وعندما وصلت أخبار تلك الأحداث إلى محمد علي أسرع بإرسال الإمدادات للجيش المصري وفي أثناء ذلك خرج طوسون قاصداً "المدينة المنورة" وقد استمال إليه بعض القبائل القاطنة بينها وبين "ينبع" فلم يلق معارضة فحاصر المدينة ولم يستخدم

المدفعية لضربها احتراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن بمجهود كبير في إحداث ثغرة في السور باستخدام المعاول. وتمكن من الدخول واستسلمت المدينة وخرجت بقايا القوات الوهابية ثم قصد إلى جدة فاستولى عليها وتابع المسيرة إلى "مكة المكرمة" فلما وصلها فرت حامية الوهابيين ودخلها طوسون. وأبرق أخبار الحرمين الشريفين إلى القاهرة والقسطنطينية. فعم الفرح والسرور سكان كل منهما. ثم احتلت القوات المصرية مدينة "الطائف" من غير مقاومة. فاغتاظ سعود من هذا التقدم وخاف من عاقبته ربما تؤدي إلى دحر قواته وضياع مكة.

فقام سعود بتنظيم قواته بعد أن تحصن خارج مكة... ثم خرج بعد أن استعد للقتال وبدأت عملياته بالمناوشة مع الجنود المصرية ثم قابلهم في واقعة "تربة" شرقي "الطائف" فكسر القوات المصرية واستولى على عدد من النقط الحصينة.

قرر محمد علي أن يذهب إلى ميدان القتال في عام ١٨١٣م مصطحباً معه المدد للقوات المصرية عن طريق السويس ومعه "عابدين بك" أحد ضباطه وأول عمل قام به قبض على الشريف غالب لشكوك كانت تحوم حوله فأرسلوه إلى مصر عن طريق القصير ثم أرسل ابنه طوسون ليستولى على تربة وأرسل عابدين بك ليتبع الفلول الفارة من الوهابيين والذين يهاجمون القوافل. ولكن معرفة عرب الجزيرة بمجاهل طبيعة بلادهم ودروبها تمكنوا من الإفلات من القوات المصرية وأصبح "عابدين" في حالة حرجة إذ كان العرب قد تحصنوا في كمائن وفجأة يخرجوا منها للقتال فسبب حرجاً واضطراباً في القوات المصرية فاضطر أن يرجع إلى الطائف ولم يتمكن طوسون من الاستيلاء على تربة فخرج محمد علي من "المدينة" وقصد الطائف ومعه قليل من الجند فلما علم الوهابيين بأخباره فروا من وجهه وأخذ محمد علي يدبر خطة يقضي بها على الوهابيين وكان زعيمهم "سعود" الذي فارق الحياة ١٨١٤م وخلفه ابنه "عبد الله" الذي اتصف بالتردد في قراراته وضعفه في توجيه سياسة دولته ولم يرسم أية خطة حربية في الدفاع عن وطنه وعند "تربة" هزمه محمد علي وكان لانتصاره هذا أثر عظيم

إذ انضم إليه كثير من السكان ولم يبق أمامه إلا الدرعية. وتجهز استعداداً للهجوم على عاصمة السعوديين (الدرعية) فوصلته أخبار عن تمرد أحد ضباطه "لطيف باشا" فأسرع بالعودة إلى مصر فوصلها عن طريق القصير في ١٨/ ٦/ ١٨١٥م وقد تم القبض على هذا المتمرد ثم أعدم في القلعة.

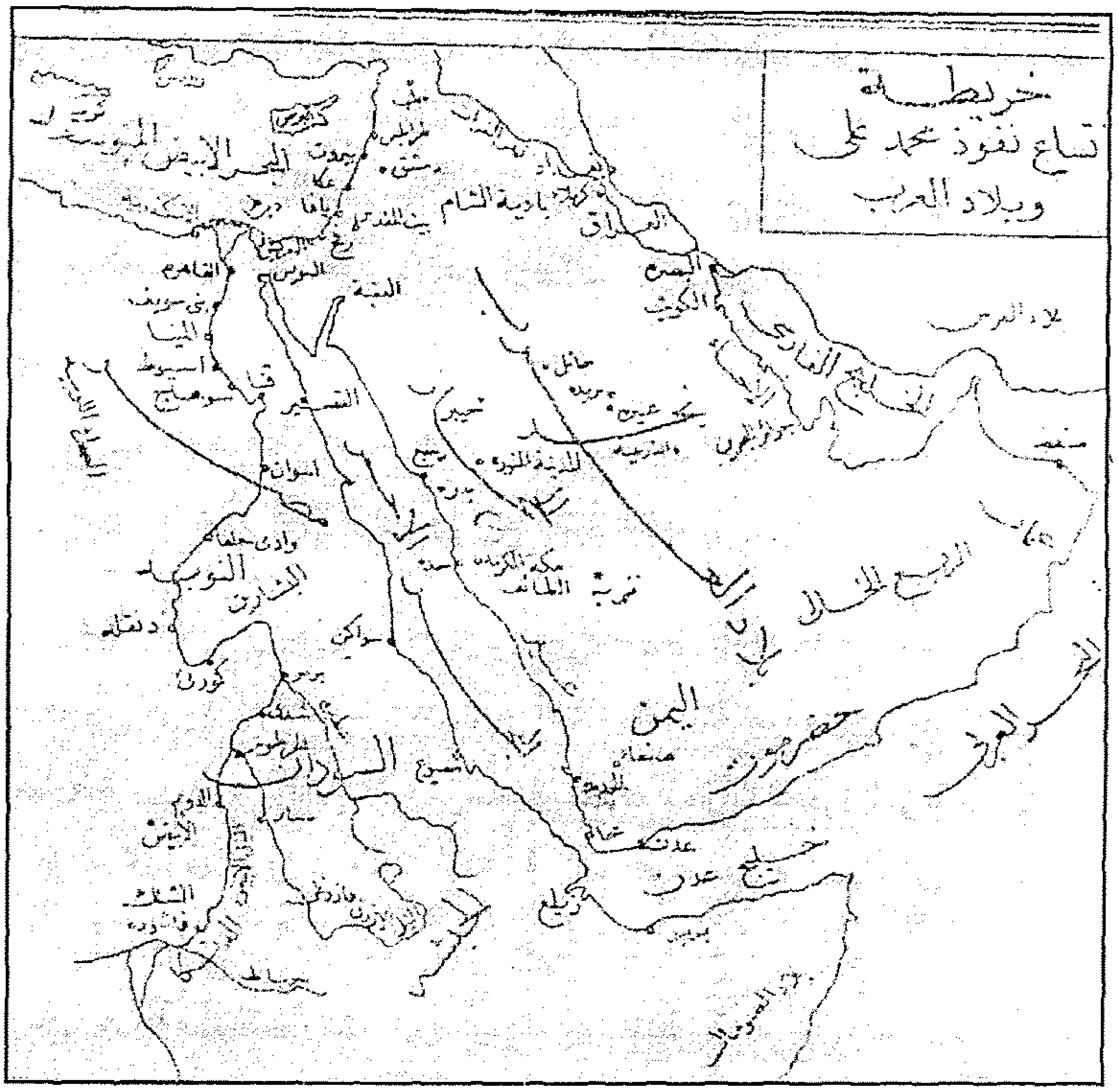

أما طوسون فإنه احتل "الدرعية" وأرسل عبد الله بطلب الصلح مع طوسون الذي أخبره بأن الصلح وقفاً على مصادقة محمد علي عليه. لكن عبد الله لم يذعن لكل الشروط التي جاءت فيه فهدده محمد علي بأنه لم يقبل وسوف يرسل إليه جيشاً جراراً يخرب بلاده. لكن جاءت ظروف التمرد إلى مسامع طوسون ووجود الموقف الحرج لوالده اضطر أن يغادر البلاد إلى مصر وترك مسألة الوهابيين كما هي معلقة.

واستقبل طوسون استقبالاً فخماً ولكنه مات بأثر إدمانه على شرب الخمر وقيل إنه مات بالطاعون في قصره عام ١٨١٦م وقد حزن عليه والده حزناً شديداً.

بوصول أخبار وفاة طوسون إلى الوهابيين فرحوا بموته وظنوا أن مشروع الحملة ونهاية الدولة السعودية الأولى قد فشلت لكن موت طوسون لم ينه الأمر لكنه حمل محمد علي على تحقيق مطامعه في الجزيرة العربية فعين ابنه إبراهيم على قيادة حملة جديدة.

أعدت الحملة وعلى رأسها إبراهيم كقائد عام فاتجه إلى القصير في سبتمبر ١٨١٦م ووصل إلى ينبع ومنها إلى المدينة فلما وصلت أخبار وصول إبراهيم بحملته إلى مسامع " عبد الله بن سعود" جمع أربعين ألف مقاتل ولكن أسلحتهم كانت ذات طراز قديم وكان اعتمادهم على السيوف والرماح والبنادق القديمة فلم يقدروا على الوقوف أمام نيران المدفعية المصرية فانهزمت قوات " عبد الله بن سعود" في مدينة "عنبزة" أما إبراهيم فحاصر "الرس" واستولى على "عنبزة" ثم حاصر الدرعية في إبريل ١٨١٨م حتى سلمت في سبتمبر ١٨١٨م ثم قام بتدميرها وأرسل عبد الله إلى القاهرة في نوفمبر ١٨١٨م ومنها أرسل إلى القسطنطينية حيث أعدم فيها وعادت الحياة إلى الحجاز كما كانت من قبل.

باب همايون... حيث قتل عبد الله بن مسعود

وظل الحكم المصري في الجزيرة العربية حتى ١٨٤٠م حين انسحبت القوات المصرية على أثر تنفيذ معاهدة ١٨٤٠م مع محمد علي باشا وأصرت الدول الأوروبية على أن تعود هذه المناطق التي فتحها محمد علي إلى الحظيرة العثمانية ويعود هو والياً عثمانياً من قبل الدولة العثمانية على مصر وأن يكون الحكم فيها وراثياً في أسرة محمد علي.

الفصل الثاني

اليمن السعيد جغرافيًا وسياسيًا

رأت مصر أنه لا يتم السيطرة على جنوب الجزيرة العربية ويتم تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة مصرية إلا إذا ضم اليمن إلى الإمبراطورية المصرية التي يطمع محمد علي باشا في تكوينها.

لم أتوسع في تاريخ اليمن حتى لا أطيل على القارئ كثيراً ولذا سيكون حديثي عن التاريخ اليمني موجزاً خاصة في التركيبة السكانية والناحية السياسية ولا يتسنى لنا أن نفهم هذا التاريخ إلا بفهمنا طبيعة اليمن الجغرافية والسكانية فالتنظيم الاجتماعي لليمن متمثل في القبائل اليمنية.

هذه القبائل استقرت في أمكنة من اليمن وتقارنت أسماء القبائل بأسماء الأمكنة التي استقرت فيها. ويقال إن عدد القبائل اليمنية حين تواجد الحكم المصري في اليمن بلغ عشرين قبيلة نحاول أن نذكر هذه القبائل الكبيرة منها والمناطق التي كانت تقطنها هذه القبائل في تلك الفترة.

وقد استقرت بعض القبائل في منطقة معينة فتصبح قبيلة واحدة أو أكثر ويكون الحق لها مع القبيلة التي قدمت عليها في استغلال الموارد الاقتصادية للأرض التي يقيم فيها. ومن أهم المناطق اليمنية التي يقيم فيها "قبيلة همدان" وتمتد من المرهية شمال صنعاء إلى صعدة وهي جزء من هضبة اليمن الوسطى وتعد هذه المنطقة أقل تعقيداً من القسم الواقع جنوبي صنعاء وأكثرها اتساعاً وأوديتها قليلة وغير عميقة.

يلي هذه المنطقة منطقة "خولان" وسميت هذه المنطقة باسم قبيلة خولان التي تنفرد بمنطقتها أو بمدينة صعدة أما منطقة نجران فتقع إلى الشمال من صعدة في المنخفض الشرقي لجبال السراة اليمنية. وهي منطقة يخترقها وادي نجران بفروعه المتعددة وإنتاجها الزراعي الوفير يعد دليلاً واضحاً على توافر المياه فيها. وتقع منطقة حضرموت جنوب شرق هضبة اليمن الوسطى إلا أنها أقل تعقيداً منها ومن القبائل التي استوطنت قبائل "كندة".

ومنطقة الجوف ومأرب " أرض سبأ" ممتدة شرقي صنعاء وفيها بين حضرموت جنوباً ونجران شمالاً تقع منطقة تهامة على ساحل اليمن من "جدة" الشمالي عند أم جحدم إلى المندب وهي سهول ساحلية محصورة بين البحر والهضاب الوسطى.

ومن أكبر القبائل وأبرزها هي قبائل " حاشد وبكيل والرازانيق" وهي التي استقرت في تهامة. وتعد هذه القبائل الكبيرة عبارة عن دويلات قائمة بذاتها وشيوخ هذه القبائل هم حكوماتها لأفرادها. والحكم فيها حكماً ذاتياً وللشيوخ في هذه القبائل دور حاسم في عزل الحاكم أو توليته ويرجع ذلك إلى نفوذهم على أفراد القبيلة، والنظام القبلي نوعان، قبائل رحل ينتقلون من مكان إلى آخر في داخل اليمن ومن بين هذه القبائل قد تستقر في مكانها. والنوع الثاني مستقر في قرى ومدن لكنها لا تختلف في تقاليدها عن القبائل الرحل.

وكانت القبائل اليمنية في القرن الثامن الميلادي تقف عقبة في سبيل الوحدة القومية، فهي تقسم البلد إلى ما يشبه الدويلات كل منها مستقل في إدارة شؤونها وولاء الفرد لقبيلته دون غيرها كما أن أفراد القبيلة الواحدة مرتبطون ببعضهم كل الارتباط برابطة القرابة والدم ووحدة المصير وروابط المعيشة والحماية والأمن.

ومعظم القبائل اليمنية تشتغل بالزراعة وقليل منها يحترفون حرفة الرعي. وكل قبيلة حسب قدراتها وإمكانياتها وما لديها من الأرض الخصبة التي تضم عدة قرى

وتعتبر القبيلة من الناحية الاجتماعية وحدة اقتصادية وسياسية مستقلة بذاتها مع أفرادها ولها قوامها.

ويحرص أفراد القبيلة كل الحرص على استقلالهم وكيانهم وأمنهم حتى يضمنوا لأنفسهم حياة كريمة لا ذل فيها ولا هوان. كما يحرصوا أيضاً على التمسك بعادات قبيلتهم وتقاليدها وفي حالة الاعتداء على القبيلة يندفعوا كالسيل العرم في الدفاع عنها، وشيخ القبيلة يتمسك بزعامته وله دستور. هذا الدستور يحترمه أفراد القبيلة ومن أهم ما به الطاعة العمياء للشيخ الزعيم فهو يملك السلطات الأبوية على أفراد القبيلة التي ترتبط برابطة الدم.

وتنقسم القبيلة اليمنية إلى بطون وعشائر وأفخاذ ولقد أدت طبيعة بلاد اليمن بأقسامها المختلفة من جبال وسهول التي لا تحتمل إقامة جماعات بشرية كثيرة متفاعلة إلى وجود هذا التقسيم.

وكانت القبائل الرحل تقوم بالرعي فحياتها تقع بين الرحيل من مكان إلى آخر فتدافع بكل ما أوتيت من قوة وقدرات عن زمارها وكيانها ومضاربها وتضطر القبيلة إذا هدد أمراءها الجوع فهي تهاجم مراعي الآخرين طلباً لحياتها والبقاء وقد اصتنعت قبائل الرعاة بالعنف والقسوة فهي لا تحب الضعيف ولا تحترمه ولكنها تعشق القوى الذي يكون قلبه من حجر كما يقولون.

وعندما تبدو الحياة ضعيفة من الناحية المعيشية على السكان في شمال اليمن تضطر القبائل لا بديل لها غير الهجرة إلى الأراضي الخصبة في أي مكان ومن خلال ذلك تبدو الهجرات على هيئة غزوات عنيفة.

وينقسم المجتمع اليمني إلى سادة وشيوخ وتجار وحرفين وفلاحين. ومجال الحياة الاجتماعية مفتوح ومباح أمام من له قدرات مادية وجسدية وخبرات أن يدخل في نطاق أية طبقة من الطبقات. ويوجد من زمن بعيد نظام الوراثة للمهنة، فهناك مهنة

الحدادة قد ورثتها بعض العائلات اليمنية والوراثة موقوفة على قدرات هذه العائلات التي ينخرط فيها أفرادها .

وهناك طبقات أخرى هي طبقة العمال الأجراء التي تلتحق بهذه الطبقات السالفة الذكر. وفي نهاية السلم الاجتماعي توجد طبقة الخدم وهي أقل الطبقات شأناً بل هي أدنى من طبقة العبيد. ويأتي أصل الخدم إلى الحبشة وتقوم هذه الطبقة بالأعمال الشاقة. وتتخذ هذه الطبقة العزلة حتى تبعد عن نفسها الاعتداء على حياتها ولها عاداتها وتقاليدها وكيانها.

وعند ظهور الإسلام انخرط اليمنيون جميعاً تحت لوائه إلا أنهم انقسموا إلى طوائف مذهبية لكل طائفة كيانها وآراؤها وسياستها التي تتعارض مع الآخرين والصلة بين الطوائف لا تستقر على حال من الأحوال ولكنها تختلف حسب النظام السياسي وتتأرجح القبائل بين الوئام والنزاع وهذه الطوائف هي: الشافعية و الزيدية والإسماعيلية أما الآراء الزيدية تتمشى مع آراء السنة.

ولقد ساعدت الظروف التي تكُون طبيعة المنطقة الشمالية بإمكانياتها المحدودة أن تقع في منازعات قبلية تساعد على انتشار المذهب الزيدي أما الشافعيون نجدهم بكثرة في السهول وسهول تهامة والمرتفعات الوسطى في منطقتي " تعز وآب" وكذلك في المرتفعات الشرقية.

هذه تفاصيل قليلة عن طبقات اليمن وما فيها من حياة اجتماعية ودينية قد أدت إلى دخول اليمن في الحظيرة العثمانية. وكان خروج العثمانيين فاتحة خير على الأئمة الزيدية الذين أقاموا دولة الإمامة الزيدية المستقلة وكانت عاصمتهم صنعاء.

وأول إمام نال على يديه الاستقلال لليمن هو (الإمام المؤيد) بالله محمد بن القاسم . قد نظم الإدارة وأنشأ محكمة عليا تضم كبار القضاة وفي نفس الوقت يعتبرون مستشارين في شؤون الدولة. وعقب وفاته ١٦٤٢م.. تمت البيعة لأخيه أحمد الذي

اضطر إلى التنازل عن منصب الإمامة لأخيه إسماعيل. وحدث ذلك في عام ١٦٤٤م بعد وقوع صراع بينهما فصار لقبه فيما بعد (المتوكل على الله). وبعد أن استقر الوضع السياسي للإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم - ويعتبر المؤرخون عصره من أزهى عصور اليمن - ضم بلاد يافع وحضرموت ولحج والجمع إلى اليمن بل أكثر من ذلك أرسل حملة على ظفار.

وما يستلفت النظر في الفترة ما بين ١٦٣٥م حتى منتصف القرن التاسع عشر قد شهد اليمن حركة اقتصادية تجارية قد ساعدها في ذلك انسحاب الأسطول العثماني من الموانئ الشرقية وظهر العثمانيون في ثوب مهلهل كئيب يدل على عجزهم في تطبيق سياسة إغلاق البحر الأحمر في وجه التيار البحري الجارف من أوروبا. هذا التيار الأوروبي بتجارته الذي قام بها منذ القرن السادس عشر وضع البحر الأحمر وسواحله الأسيوية والأفريقية تحت سيطرته وجعلت من هذا البحر بحيرة له ومن ثم أخذت التجارة الأوروبية تتدفق على ميناء "مخا" كما أخذت تجارة البن اليمني تغزو العالم المتحضر من هذا الميناء وبذلك غطى الرخاء بجناحيه أرض اليمن فنرى اليمنيين قد نعموا خلال القرن الثامن عشر بالهدوء والاستقلال بعد أن كان النزاع الاستقلالي يظهر بين الحين والآخر بين القبائل اليمنية والمشيخات الإمامة وكذلك تنافست عليها الفئات الطامعة فيها من أبناء البيت الرسي نسبة إلى الإمام يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي الملقب بالهادي وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب.

وكان الإمام الهادي من جبل الرس بالحجاز بين المدينة ومكة ويتبع المذهب الزيدي. وفي عهد دولة بني زياد باليمن (٨١٨م-١٠٠٠م). دعا الإمام الهادي في اليمن إلى الزيدية واتباع مذهب زيد بن علي زين العابدين واستطاع أن يؤسس في صعدة دولة بني الرس.

وجدير بالذكر أن الإمامة في اليمن لم تخرج من بيت الرس إلا في فترات قليلة ثم تعود إليه وظلت متصلة في فروع هذا البيت منذ قيام دولة المتوكل على الله إسماعيل بعد خروج العثمانيين من اليمن ١٦٣٥م.

ولتولي الإمامة اليمنية وضعت شروط يجب أن تتوفر في الإمام وهي: أن يكون الإمام مكلفاً وفي الرجال دون النساء وأن يكون حراً ومجتهداً وعلوياً وعادلاً وسخياً سليم العقل وسليم الحواس وسليم الأطراف صاحب رأي وتدبير مقداماً فارساً.

وجاءت ظروف مرت باليمن أدت إلى ضعف الأئمة الزيديين فاستقلت القبائل والمشيخات عن أئمة صنعاء وانفصلت حضرموت واستقلت لحج عام ١٧٣٢م على يد أميرها فضل بن علي.

وجاء عهد الإمام المهدي عباس (١٧٤٦م-١٧٧٤م) الذي استطاع أن يخمد الفتن الداخلية وعمل على نشر الأمن والسلام في ربوع البلاد. لكن فجأة عادت الفتن والفوضى في البلاد بعد ذلك.

وفي أواخر القرن الثامن عشر أعلن شريف "أبو عريش" في بلاد تهامة اليمن استقلاله عن إمام صنعاء وأخذت هذه المنطقة اليمنية تتجه بولائها نحو الشمال حيث قامت الإمارة السعودية في نجد والحجاز وانتشرت الدعوة الوهابية فغزت مبادئها الجزيرة العربية كلها.

وبدأت مصر تفكر في ضم بلاد اليمن إلى إمبراطورية محمد علي عندما وصلت الدعوة الوهابية مداها في بلاد عسير ونجد فقد اعتنق أكثر سكانها هذا المذهب وخرجوا عن طاعة الإمام الزيدي. فاستنجدوا بالسعوديين فعينوا حاكماً من قبلهم وهو "محمد بن عامر" وكلفه "الأمير عبد العزيز بن محمد" بالتوسع باسم السعوديين جنوباً في أراضي اليمن واستولى في عام ١٨٠٤م (علي أبو عريش) على موانئ اليمن حتى مخا جنوباً. ولم يلبث محمد بن عامر أن قتل على يد الشريف حمد. فعين السعوديون حاكماً من قبلهم على عسير وهو "طامي بن شعيب" مع تكليفه بالتوسع نحو الجنوب في الأراضي اليمنية.

وإزاء ذلك اضطر إمام اليمن المتوكل على الله أحمد أن يستنجد بالسلطان العثماني وبوالي مصر محمد علي باشا فأرسل الأتراك مدداً إلى عسير وتهامة لكن هذا المدد لم يفعل شيئاً وفي عام ١٨١٥ م استجاب محمد علي لاستنجاد إمام اليمن به فبعث بقوة إلى عسير انتصرت على الحاكم السعودي "طامي بن شعيب" الذي وقع أسيراً في يد محمد علي فأرسله إلى الآستانة حيث أعدم هناك.

كما بعث محمد علي حملة أخرى استعادت تهامة ١٨١٩ م كما احتل الأسطول المصري البحري بعض الموانئ اليمنية وبذلك استعاد "عبد الله المهدي" نفوذه على الأراضي اليمنية مقابل إرسال جزية سنوية قدرها ٣٠٠٠ قنطار من البن باسم السلطان العثماني. واكتفى محمد علي ببسط سلطانه على "أبو عريش" في تهامة اليمن وعين عليها أحد الأشراف وهو "الشريف علي بن حيدر".

وجدير بالذكر أن محمداً علياً كان يتطلع إلى فتح اليمن منذ أن نزلت جنوده أرض الجزيرة العربية لمحاربة الوهابيين، فهو في قرارة نفسه كان ينظر إليها نظرة اقتصادية أكثر منها سياسية، فموانئها التجارية " عدن، مخا، اللحية، الحديدة" لها مركز في البحر الأحمر وما تدره هذه الموانئ من جمارك وضرائب توفر له من الأموال التي يحتاجها فيما بعد. ولم ينس محمد علي تجارة اليمن من البن التي كان يتطلع إلى احتكارها. كما كان له رغبة ملحة في فتح أسواق جديدة للبضائع المصرية. كل ذلك قد دفعه إلى أن يستولى على اليمن. وفي الحقيقة أن مشروع فتح اليمن مطوياً في سره حتى قام بالحجاز " تركجه بيلمر" وهو أحد قادة محمد علي عام ١٨٣٢م. فلما فشلت ثورته فر إلى اليمن مع فلول حركته من الجيش المصري خوفاً من بطش محمد علي. لكن محمد علي أخذ يتعقب هذا القائد ومن معه فأرسل حملة تطاردهم في اليمن تحت قيادة ابن اخته " أمير اللواء إبراهيم يكن باشا".

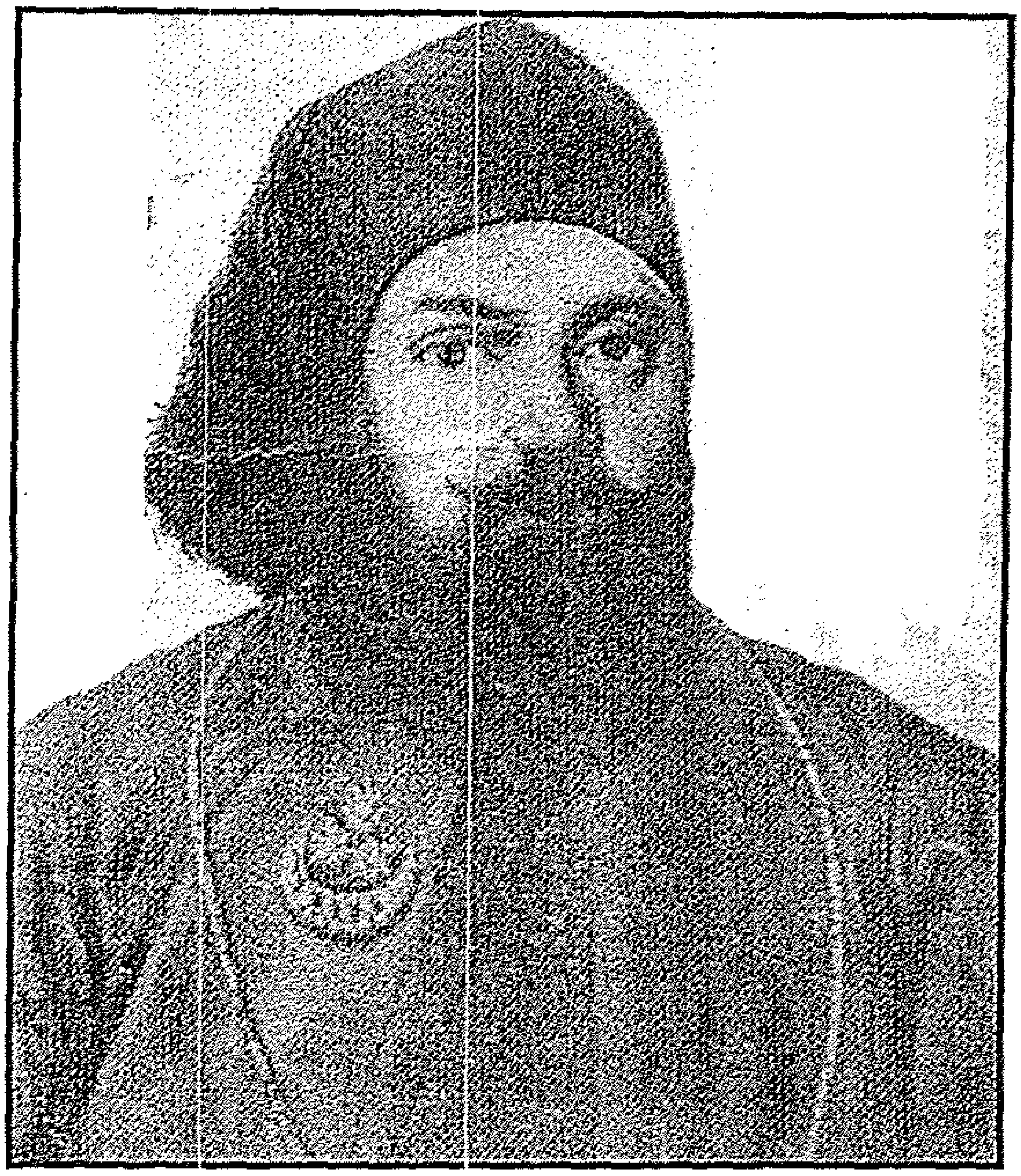

أمير اللواء إبراهيم يكن باشا

سار اللواء إبراهيم باشا لأداء مهمته في أوائل ١٨٣٥م وبعد أن اشترك في بعض الأعمال الحربية في أقليم عسير بالحجاز سافر بحراً إلى مهمته في اليمن. فاستولى على "بيت الفقيه" ثم "زبيد" وفي نفس الوقت كان الأسطول المصري يتقدم جنوباً بمحاذاة ساحل البحر الأحمر الشرقي فاستولى على جميع الموانئ اليمنية الهامة باستثناء "عدن".

ولما اطمأن إبراهيم يكن إلى أن الساحل اليمني قد دخل في حوزة الحكم المصري تهيأ للقيام بحملته في داخل اليمن فقد ساعدته حالة اليمن الداخلية آن ذاك من الفوضى والاضطرابات والثورة التي اندلعت في "إقليم ثغر" ضد الإمام علي ابن المهدي الملقب "بالمنصور" على التقدم في الداخل، ونجح في ذلك الأمر "إبراهيم يكن" في أوائل شهر أغسطس ١٨٣٨م في إتمام فتح إقليم "ثغر" بعد ست معارك أبلى فيها الجنود المصريين بلاء حسناً وتم القضاء على الثورة.

وفي ٢٥/ ٨/ ١٨٣٧م دخلت إحدى الكتائب المصرية بقيادة "البكباش محمد صادق" بلدة "عدن" وهي خطوة قصيرة لم يلبث أن رد عليها الإنجليز باستيلائهم على ميناء "عدن" في يناير ١٨٣١م. ويعد احتلال الإنجليز لميناء "عدن" ضربة قوية موجهة لمحمد علي لإرغامة على الانسحاب من اليمن والواقع أن بريطانيا لم تكن تطيق أن ترى جندياً مصرياً واحداً في اليمن.

فانتهزت إنجلترا فرصة الحرب المصرية مع السلطان العثماني في الشام وطلبت من محمد علي باشا جلاء جيوشه من اليمن كله وإلا تعرضت قواته للتدمير وفتح جبهة قوية لا يمكنه الوقوف في وجهها فاضطر محمد علي إلى الاستجابة لطلب الإنجليز في ١٣/ ٣/ ١٨٤٠م بإصداره أوامره إلى حاكم اليمن وقائد القوات المصرية بالجلاء عن اليمن وتسليم زمام الأمور فيها إلى "الشريف حسين بن علي حيدر" شريف "أبو عريش" في ١٨٤٠م ... ثم غادرت القوات المصرية أرض اليمن السعيد إلى مصر...

الفصل الثالث

الحروب المصرية في السودان في عهد محمد علي

السودان أكبر دولة في أفريقيا من حيث المساحة (٢.٥٠٥.٨٢٣ كم٢) وله قلبان أحدهما في الشمال حول الخرطوم حيث يوجد السكان العرب أما الآخر فهو في الجنوب حول المديريات الثلاث (أعالي النيل وبحر الغزال والاستوائية) ويختلف السكان هنا عن أهل الشمال فهم زنوج أو متزندجون ولا يتكلم إلا ١٠٪ منهم فقط اللغة العربية ومعظمهم ما زال وثنيا قبلياً. يفصل بين القلبين مساحات واسعة من الصحاري والمستنقعات.

فتح السودان ١٨٢٠م :

وجه محمد علي كل همه بعد الاستيلاء على الجزيرة العربية (الحجاز واليمن) إلى ضم السودان عام ١٨٢٠م ليحقق أهدافاً كثيرة منها: تحقيق الوحدة الطبيعية لوادي النيل وزيادة ثروة الدولة المصرية السودانية بما يعود به هذا الفتح من خيرات ورواج تجاري، كما ضم السودان إلى مصر يعتبر جزءاً من المشروع التوسعي الذي خطط له بنفسه ويقصد إلى إنشاء امبراطورية مصرية عربية مثل الامبراطوريات التي ظهرت في عصره. هذه الامبراطورية كما ذكرت تشمل أعضاء الوطن العربي على أن تكون مصر قاعدة الامبراطورية العلوية وبانضمام السودان إليه فقد حقق جزءاً من أحلامه في بناء تلك الامبراطورية. فالسودان والجزء الشمالي منه بلد إسلامي.

ولا يخفى على القارئ أن الحروب الثلاث (حرب فريزر، حرب الوهابيين واليمنيين والسودان أخيراً) قد استنفذت كثيراً من الموارد الاقتصادية والبشرية بمصر.

ولم يكن المال وحده قد شكل أمراً خطيراً عند المصريين بل الأرواح التي استشهدت في تلك الحروب مما جعل المصريين يحاولون بكل الطرق الهروب من التجنيد. ولا ننسى أن الحكومة المصرية قد اتبعت خططًا كثيرة لتغطية هذه الحروب وتغطية العجز في ميزانياتها. هذه الخطط أرهقت الشعب بكل طوائفه. كما أن السلطان العثماني لم يفوض محمد علي لتغطية هذا العجز في الميزانية المصرية رغم ما حققه من حروب لتثبيت الحكم في الجزيرة العربية للدولة العثمانية.... ويبدو واضحاً أن دخول محمد علي الحروب لم يجبن ما يأمل إلا عجزاً في ميزانية مدفوعاته وفقده لجنوده كان ليحقق فكرة مجنونة قد شبت في عقله وهي البقاء على عرش مصر، هذه الفكرة دفعته إلى استعراض إنجازاته الحربية القتالية البرية منها والبحرية أمام السلطان والدول الأوروبية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن يقضي على النظام القديم في الحبشة والذي يقف عقبه تعجيز أمام دخول النظام الأوروبي الحربي الجديد لقواته وبدخوله الحروب الثلاث قد قضى على جزء كبير من النظام القديم.

أما من ناحية المكاسب التي عادت من وراء تلك الحروب الثلاث أولها فتح الطريق إلى الحج الذي أغلق في وجه المسلمين منذ ظهور الحركة الوهابية وإعادة الأمن والأمان إلى قلوب الحجيج وبعمله هذا رفع شأنه كوالي مسلم خدم الإسلام والمسلمين. كما أن السلطان العثماني اعترف "بمحمد علي باشا" كقوة حربية يعمل حسابها في الشرق العربي ومن ثمرات هذا الاعتراف أن السلطان منح محمد علي الهدايا ومنح إبراهيم لقب "الوزارة".

وعينه حاكماً على بلاد العرب من قبل الدولة العثمانية وأن عودة البقية الباقية من قواته الألبانية قد تسبب له الكثير من الاضطرابات والثورات من جانبها. هذه الثورات نادراً ما تخمد لكنها تسبب عودة اضطراب الشارع المصري وعودة إلى عمليات السلب والنهب من جانبها بعد أن وضع محمد علي قواعد للاستقرار والأمن في داخل البلاد في الفترة الأخيرة وبدأ التخطيط لتلافي هذا كله على عجل بأن رمى بهذه

القوات الألبانية إلى ميدان جديد ليتخلص من شرورها وليترك لها الفرصة لتحقيق هواياتها القتالية كما يستفيد منها بضم ممتلكات جديدة إلى ممتلكاته في الجزيرة العربية ومصر. وكان الميدان الجديد هو السودان واتخذ قراراً بالاستعداد بحملته إلى السودان.

لكن ما هذه الأهداف التي جعلته يختار السودان كميدان لقواته الألبانية؟ أولاً: إذا ضم السودان إليه سيعود بهذا الضم لتحقيق هدف اقتصادي بشري يغطي به نقصاً في الجندية المصرية الحديثة التي يرمي من وراء ذلك تكوين جيش على النمط الأوروبي في أنظمته الحربية وقتئذ.

وثانياً: ليحقق هدفاً آخر طالما سال لعابه إليه وهو الاستيلاء على المناجم الذهبية التي توجد في جبال تلك المنطقة والتي طالما كثر الحديث على وجود الذهب بكثرة من خبراء التعدين الأوروبي فسارع إلى تكوين حملته حتى يسبق الدول الأوروبية في الحصول على هذا المورد الذي سيغطي عجز ميزانيته وما يقوم به من إصلاحات داخل مصر وبهذا قد يكون وضع حداً لميزانية مصر لتغطية عجزها خاصة بالنسبة إلى ميزان المدفوعات.

وثالثاً: هناك المورد الزراعي الذي يريد أن يحافظ على ما تنتجه مصر من محاصيل متنوعة هي في حاجة إليها وخشى محمد علي أن يتأثر هذا المورد الرئيسي لمصر نتيجة نقص في منسوب المياه التي تصل إلى مصر عن طريق نهر النيل. ربما يأتي هذا النقص نتيجة وقوع المنطقة التي يجري فيها النيل جنوباً في أيدي أجنبية تتحكم في منسوب المياه.

كما أنه يريد أن يحقق كسباً ثقافياً إذا هو اكتشف منابع النيل الذي طالما تحدث عنها الرحالة "هيرودوت" ليظهر أمام أوروبا أنه الرجل الحضاري في الشرق وبهذا يكتسب شهرة أوروبية... أعد محمد علي حملته التي ضمت إلى جانب قواتها العسكرية بعثة علمية من فرنسا ليمدوا قائد حملته بالمعلومات الجغرافية في هذا الشأن كما ضم أيضاً إلى

الحملة بعثة من خبراء التعدين الفرنسي. ولما تم الاستعداد بحملته أصدر قراراً لابنه إسماعيل أن يقود هذه الحملة في رحلتها إلى السودان.

وإذا قارنا الحملة التي أعدت للجزيرة العربية للقضاء على الحركة الوهابية وكانت قيادتها لابنه طوسون تجد هذه الحملة قد لاقت جهوداً جبارة وصعوبات مضيئة للقوات المصرية. أما الحملة السودانية تختلف تماماً من نظيرتها الوهابية. فقبائل السودان ليست مثل القبائل البدوية في الجزيرة العربية. فالسودانيون في هذه الفترة لا يجيدون استعمال الأسلحة النارية بينما الوهابيون كانوا على دراية تامة بهذه الأسلحة لكونهم على اتصال ببلاد الهند وإيران فكانت أسلحتهم من أرقى الأسلحة السودانية. كما أن علماء السودان المسلمين ليسوا مثل نظائرهم من علماء الوهابيين وأن المذهب الديني في السودان هو المذهب السني لأن علماء السودانيين قد تلقوا دراساتهم الدينية في الأزهر الشريف، وأن دور الحكومة المصرية في التعليم أثناء تولية محمد علي عملت على ضم جمهرة من الشباب السوداني كمبعوثين للتعلم على نفقة الحكومة المصرية في الأزهر. ويبدو من وراء هذا أن محمداً علياً كان يفكر في ضم السودان إلى مصر منذ توليه الحكم بها في عام ١٨٠٥م حتى يحقق أحلامه المستقبلية. ولذا ضم بعثة من علماء السودان إلى حملته السودانية لتراقب هذه البعثة أعمال الجنود المصريين حتى لا يخرجوا عن حدود الشريعة الإسلامية لإصدار فتوى دينية لمواطنيهم. ولخدمة الإسلام والمسلمين وبهذه الفتوى تقضي على دابر السخط والتذمر من جانب السودانيين والشعب السوداني. وقد ألحق أربعة من علماء الأزهر بهذه البعثة السودانية وهم: الشيخ السيوطي وهو على المذهب الحنفي والشيخ سيد محمد البلقي على المذهب الشافعي والشيخ القبلاوي على المذهب الحنفي وهناك مجموعة من المشايخ على المذهب الحنبلي.

كانت الحملة الحربية مكونة من ٤٠٠٠ مقاتل وبيان لإحصائية أعضاء هذه الحملة العسكرية كالآتي:

١٢٠٠	جندي من الفرسان العثمانيين
٤٠٠	جندي من فرسان العرب والمغاربة
٦٠٠	جندي من المشاة العثمانيين
٣٠٠	جندي من المدفعية
٨٠٠	جندي من مشاة العرب والمغاربة
٧٠٠	جندي من مشاة عرب العبادة
٤٠٠٠	مقاتل

هذه الأعداد من الجنود المقاتلين ومن ضباطهم تحت قيادة إسماعيل ولم يكتف محمد علي بهذه الحملة فأعد جيشاً آخر وضعه تحت قيادة " محمد بك الدفتردار" لفتح منطقة كردفان مكونة من ٤٠٠٠ مقاتل و ٢٠٠٠ من جنود المدفعية يحملون أربعة مدافع فتكون جملة الحملة كلها للسودان مكونة من عشرة آلاف مقاتل وكان في صحبتها أشهر خبير في التعدين وهو "مسيوفردريك كابون" الذي كان له خبرة كبيرة في أوروبا لاكتشاف مناطق الذهب والبحث عن مناجمه.

تحركت الحملة من ضفة النيل بمصر القديمة حيث استقلت ثلاثة آلاف مركب لنقلها على مهمتها وذخائرها ومؤنها بطريق النيل كما ألحقت مجموعة من الإبل وعددها ثلاثة آلاف جمل كانت في انتظار الحملة في إسنا. على أن هذه المجموعة مع أتباعها على الاستعداد للسير براً وفي خدمة الحملة وكان عدد الأتباع ٢٠٠٠ رجلاً يمتازون بقوة الجسم وصلابة في المشي لمسافات بعيدة وطويلة ويمكنهم أن يتغلبوا على الصعوبات التي تقابلهم في الطريق.

عملية السير لفتح السودان

وقائع الفتح:

وصلت الحملة إلى أسوان ومنها أخذت الطريق إلى وادي حلفا حيث استغلت قوات المشاة مع مهماتها ومؤنها ومدفعياتها وذخائرها على السفن. أما الفرسان فقطعوا المسافة من أسوان إلى وادي حلفا خلال ١٢ يوماً على ظهور الخيول العربية الأصيلة، وعند وادي حلفا تجمعت قوات المشاة مع قوات الفرسان مكونة الجيش المصري الذي

يتجه منها إلى دنقلة. وقبل أن تتحرك هذه القوات ظلت في وادي حلفا للراحة والاستعداد ما يقرب من عشرين يوماً.

أصدرت القيادة الحربية المصرية في وادي حلفا أوامرها للجيش أن يتحرك للزحف إلى دنقلة متخذة الطريق الموصل إلى مدينة "سكوت" ومنها إلى دنقلة لتتبع مطاردة المماليك الذين لم يبدوا أية مقاومة للحملة بينما استسلم بعض منهم والباقي فر إلى "شندي" حيث اختفوا في أحضان القبائل الشندية التي جردتهم من أسلحتهم. ثم لما وجدوا خطراً عليهم من جانب القوات المصرية قضت عليهم... وعند وصول القوات المصرية دخلت معارك مع هذه القبائل الشندية فتم إخضاعها.

أما مدينة "أرتو" فقد استسلم سكانها وأعلنوا الطاعة وبهذا تكون المناطق في دنقلة قد وقعت في أيدي المصريين وفي المنطقة التي تقع على الشاطئ الغربي للنيل توجد بلاد "الشابقية" جنوبي دنقلة حيث دارت معركة بين الجيش المصري وسكانها أسفرت عن مقتل ٧٥ قتيلاً مصرياً. فوقعت الهزيمة بين سكان الشابقية حيث فتكت بهم نيران البنادق التي أسفرت عن سقوط ٨٠٠ قتيل شابقي لعدم وجود تكافؤ بين الأسلحة الحديثة المصرية والأسلحة القديمة في أيدي جنود الشابقية. ولقد برهن هؤلاء (جنود الشابقية) على قوة الشكيمة والبسالة والشجاعة والمهارة في القتال مما أدى إلى إعجاب "إسماعيل باشا" بهم.

وعند الانتهاء من المعركة عقد قادة الشابقية مؤتمراً تحدث فيه إسماعيل عن القدرات لدى جنود الشابقية في القتال موضحاً إعجابه بفن القتال عندها وسرعة تحركاتهم في ميدان المعركة وعرض عليهم أن ينضموا إلى قواته لأنهم إخوة في الإسلام وأن مصر ترحب بهم كجنود في الجيش المصري فقبلوا العرض... وقد أخلصوا لمصر.

معركة كورتي في ٤/١١/١٨٢٠م

استمر إسماعيل في زحفه نحو كورتي عاصمة الشايقية مديرية دنقلة فدخلها ثم زحف نحو "بريرة" وقد عانى فيها الجيش معاناة شديدة حيث اخترق طرقاً شاقة وخرج من هذه البلاد ومعه جنود تعبة منهكة لأنه اخترق مشياً على الأقدام صحراء "بيوحتة".

فتح أم درمان في ١٠/٣/١٨٢١م

استمر إسماعيل في زحفه حتى وصلت قواته إلى أم درمان فكان استقباله ملكها "نصر الدين" الذي أعلن خضوعه لمصر فأقره في ملكه. ثم واصل سيره إلى مدينة (خلقية) التي تقع على مقربة من التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق فاستولى عليها بسهولة ثم واصل سيره إلى مدينة "الخرطوم" التي صارت فيها بعد" عاصمة السودان".

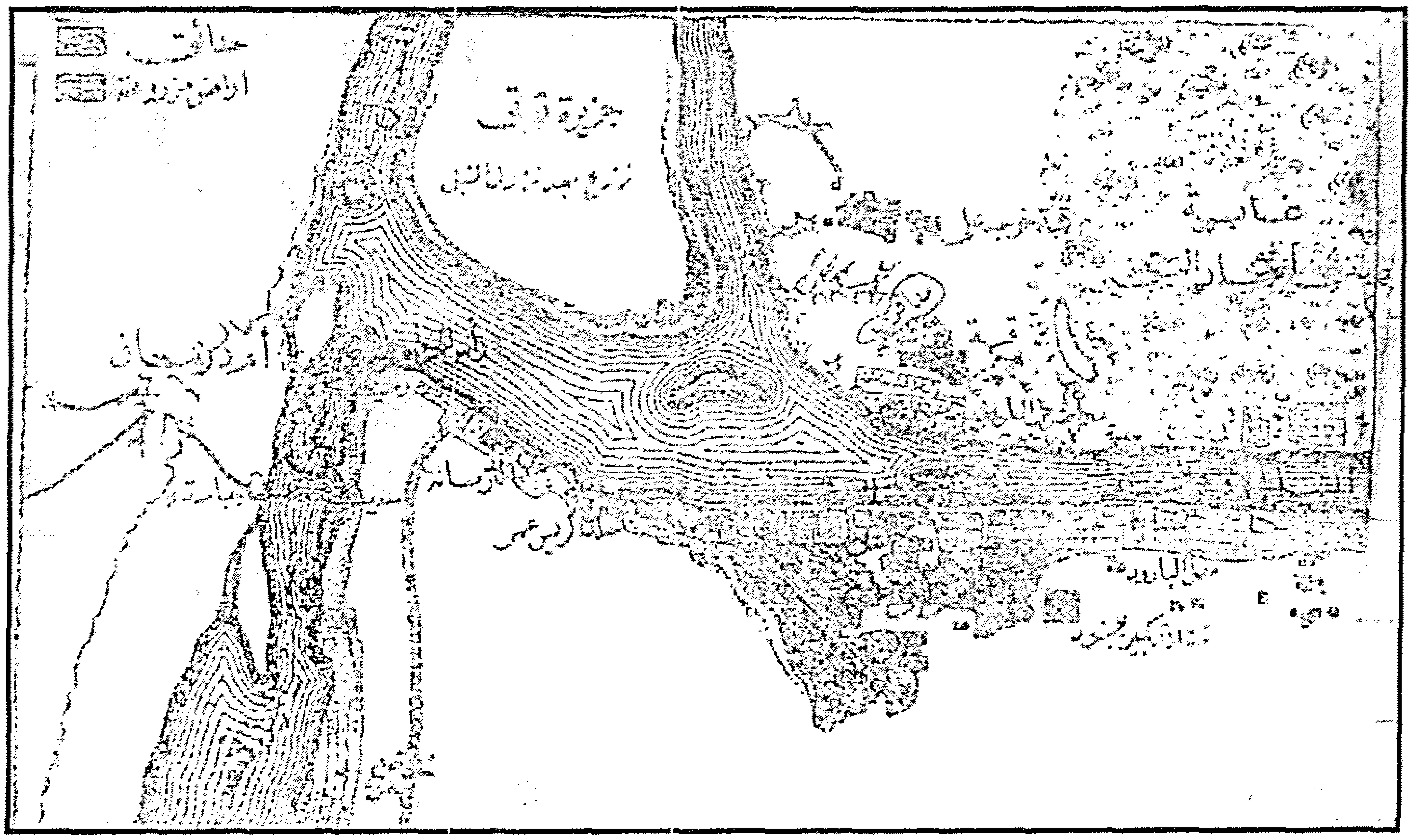

خريطة توضح الخرطوم في عهد محمد علي

فتح سنار في ١٢/٦/١٨٢١م

استمر إسماعيل بزحفه مع قواته نحو مملكة سنار فاحتل " وادي موني" وتعد هذه المدينة من أهم مدن سنار فأعلن ملكها الولاء لمصر. ثم سقطت بعد ذلك عاصمة سنار فأصبحت هذه البلاد التي تقع من جنوب وادي حلفا إلى سنار تحت الحكم المصري.

فتح كردفان

قرر محمد علي تجهيز جيش تحت قيادة صهره "محمد بك الدفتردار" لفتح كردفان واتخذ طريقاً من دنقلة وأبي قيس وقد لاقى الجيش المصري في مسيرته مشقة صعبة لم يسبق لها نظير في مدة سبع سنوات زحفاً على القدمين فالتقى عند وصوله كردفان بجيش " محمد المفضل" سلطان دارفور في معركة عند مدينة (بارة) أسفرت بنصر الجيش المصري واحتلال الأبيض عاصمة كردفان.

فتح فازوغلي

بلغ الأمر أشده بدرجة كبيرة من إنهاك قوى الجيش المصري ويرجع ذلك إلى شدة القتال وأهواله، ولم يكن ذلك فقط بل أصيب بعض أفراد القوات المصرية بمرض من أمراض المنطقة الحارة حتى سقط بعضهم فريسة للموت. وأخبرتنا الإحصائية عن إصابة الجنود بالمرض وسقوطه موتاً ما يقرب من ٢٠٠ مريض لا يقوون على الحركة. وكان العدد يزداد يومياً ويرجع ذلك إلى قلة الأطباء وعدم توافر الدواء وسوء التغذية بل أكثر من ذلك تمزقت ملابسهم وبليت أحذيتهم فلم يجد الجنود ما يخفف ضغط الموجة الحارة عن أجسادهم في هذه الأماكن وقد فعلت الأمطار فعلها في إغراق أمتعتهم.

والتقارير التي حصلت عليها من دار المحفوظات المصرية في القلعة توضح مدى معاناة الجيش المصري حيث أن التقارير ذكرت أن الذين بقوا على قيد الحياة ٥٠٠ جندي صالحين للقتال.

لم يكن المعاناة والمرض سبباً لإحداث الوفاة التي حصلت بين القوات المصرية وحدها بل التحرش من جانب السودانيين بالجيش المصري. فالمرض والموت والحرارة والأمطار الشديدة أدوا إلى وقف إسماعيل قواته عن الزحف. وعند وصول هذه الأخبار في تقرير من إسماعيل إلى أبيه اضطر محمد علي أن يصدر أوامره لابنه إبراهيم بأن يسافر إلى أخيه إسماعيل ليعملا معاً خطة لفتح ما بقي من بلاد سودانية، فزود إبراهيم بكثير من المؤن والملابس إضافة إلى ذلك رواتب الجند المتأخرة مع مدد وعند وصول إبراهيم قام بتقسيم القوات التي جاءت معه كمدد مع بقية القوات التي مع إسماعيل إلى قسمين فاحتفظ بقسم من هذه القوات تحت قيادته أما القسم الآخر ظل تحت قيادة إسماعيل.

واتجه إبراهيم بفرقته مخترقاً سنار إلى بلاد "الدنكا" على النيل الأبيض وقد امتدت فتوحاته إلى أعالي النيل وفي أثناء زحف إبراهيم لتكملة الفتح أصيب "بالدوزنتاريا" فاضطر أن يرحل إلى مصر بينما استمر إسماعيل بزحفه مخترقاً "فازوغلي" فوصل إليها فوجد في استقباله ملكها وحاشيته فقدموا له الولاء وخضوعهم لسلطان مصر.

طلب إسماعيل من أبيه الإذن للحضور إلى مصر ولكن محمد علي رفض طلبه وأصر على بقائه مع قواته لمواصلة الاستمرار في الفتح. أذعن إسماعيل لأوامر أبيه وظل يزحف داخل السودان حتى وصل إلى جبل "بني شغلا" جنوب "فازوغلي".

البحث عن الذهب:

عند وصول إسماعيل وقواته وبعثته العلمية للبحث عن الذهب إلى جبل "بني شغلا" أجريت البحوث والتنقيب في حضن الجبل فلم يحصلوا إلا على شذرات قليلة من (التبر). ونتيجة سوء الأحوال المناخية والأمراض التي انتابت الجنود اضطر إسماعيل العودة بقواته إلى وادي مدنى لاعتدال مناخها حيث بنى فيها قشلاقاً كبيراً (عنابر للجنود للنوم والراحة).

وفاة إسماعيل مع بعض ضبا ـه حرقاً بالنار

وصلت إخبارية إلى إسماعيل تدل على مدى الخطورة أثناء سيره إلى فتح بقية المناطق المتاخمة في وادي مدني فالملك "شندي" الملقب (بالنمر) دبر ثورة ضد الحكم المصري لطرد الجيش المصري من منطقته، فاضطر إسماعيل أن يزحف بقواته إلى "شندي" وعند وصوله فر الثوار إلى الجبال وتمكن إسماعيل أن يقبض على الملك، فأخذ يحدثه ثم جرت بعض المناقشات بينهما وارتفع صوت الملك في أثناء حضرة إسماعيل فاضطر إسماعيل أن يرفع يده ليلطم وجه الملك.

لم يبد الملك سخطه بل تحمل اللطمة وأسرها في نفسه حتى لا يحدث له ولقومه ما لم تحمد عقباه، وأظهر الملك عدم المبالاه بل أعلن في حضرة إسماعيل خضوعه. لكنه قرر أن يغسل عاره والإهانة التي أحدثها إسماعيل.

بعث الملك دعوة إلى إسماعيل وضباطه يرجو فيها الحضور لقضاء عطلة للترويح عن متاعبهم فاستجاب إسماعيل لطلبه فأقام الملك حفلة استقبال فخمة لضيوفه وفي غفلة من إسماعيل وضباطه أحاط الملك الدار التي أقام إسماعيل فيها للاستراحة والنوم بالقش وبعض أغصان الأشجار، ففي الليل بعد أن أخلد الجميع للنوم أشعل الملك في القش النار من جميع جوانبه فلم ينج منهم أحد. بعد أن حاول إسماعيل ومن معه من الضباط والجنود الهرب لكنهم لم يتمكنوا لأن النار أحاطت بهم من جميع النواحي فلم يجد حيلة إلا أن يستسلم ومن معه لمصيرهم جميعاً ولم يبق من أجسادهم إلا أجزاء محترقة.

وصلت أخبار الحريق وتفحم جسد إسماعيل وبعض ضباطه إلى مسامع "الدفتردار بك" فحزن وبكى وأقسم على الانتقام فتحرك بسرعة ومعه قواته فاستعمل القتل في السكان ويقال إن عدد القتلى وصل إلى مئتين من أتباع الملك انتقاماً لما حدث. بل وصل الأمر به أن أحرق مدينة شندي كلها فهرب السكان دون مأوى لهم. أما

الملك فقد هرب وقد حاولت بعض القوات أن تلحق به فلم تتمكن من القبض عليه ويقال إنه تخطى حدود الحبشة واختفى في بعض قراها.

وصلت الأخبار إلى محمد علي فحزن حزناً شديداً وتذكر ابنه طوسون فبكى لشدة ما أصابه في أعز ولدين له من أبنائه أما إبراهيم قد تأثر تأثراً شديداً وملك الحزن قلبه لفترة طويلة. ويصف المؤرخون بما فعله "محمد بك الدفتردار" من قتل وتنكيل وقسوة بالسكان ما جعل فعلته هذه مضرباً للأمثال في القسوة لسكان أبرياء ولم يرد في تاريخ الجيوش المحاربة مثل هذه القسوة ولم يكتف بأفعاله هذه بل تمادى في عمليات الانتقام بأنه أخذ الأطفال وأمهاتهم بمنتهى القسوة وأرسلهم إلى القاهرة ليباعوا في أسواق القاهرة كعبيد وخدم في بيوت الأغنياء.

حكمدارية الحكم المصري في السودان

اتبع محمد علي نظاماً جديداً من نوعه في حكمه للسودان بأنه وضع كل السلطات المدنية والحربية في يد حكمدار السودان على أن يكون تابعاً لوزارة الداخلية ومعنى "حكمدار" لقب عسكري لم يعرف من قبل ويحصل عليه أكبر شخصية حربية وقتئذ والأغرب من ذلك أن وضعت كل السلطات المطلقة في يده لبعد المسافة بين مصر والسودان.

قامت الحكومة المصرية بإنشاء عاصمة للبلاد بإنشاء مدينة الخرطوم لتكون مقراً للحكم العام في عام ١٨٢م٢. ثم قسم السودان من الناحية الإدارية إلى مديريات على أن يحكمها مدير يرجع بأمور المديرية إلى الحكمدار ويتلقى منه أوامره وتعليماته ويعمل على تنفيذها ثم وزع وحدات الجيش في المدن الهامة مثل مدينة الخرطوم والأبيض وبارة ودميل وأدت المعاملة الطيبة من جانب المصريين إلى تطوع عدد كبير من السودانيين في الجيش المصري.

وقد أثبت هؤلاء المتطوعون إخلاصهم وولاءهم لمصر ومنذ ذلك الوقت أصبح البحر الأحمر بحيرة مصرية تجوبها السفن المصرية أو السفن الأجنبية على أن تكون تحت المراقبة من جانب السلطات الحكومية وبهذا العمل تمكن محمد علي من مراقبة الموارد المائية التي تتدفق منها المياه إلى مصر عبر مجرى النيل. وبهذا يكون محمد علي قد فتح باباً كان مغلقاً في وجه التجار المستثمرين المصريين وقد قام دفتردار بك بعدة إصلاحات منها توسيع العاصمة السودانية وبنى دارًا للصناعة وبنى العديد من البيوتات وأنشأ السفن النيلية حتى أصبحت الخرطوم مدينة تجارية وعاصمة للسودان.

الحكمداريون (حكام السودان من قبل محمد علي باشا):

خورشيد باشا أمير اللواء عام ١٨٢٣م

ويعد خورشيد باشا من أعظم حكمدارية السودان إذ اتصف بالسيرة الطيبة لإقامة العدل بين سكان السودان. كما اشتهر في فترة حكمداريته بالاستقامة وقد قام بالعديد من الإصلاح لأحوال البلاد وبذل كل جهوده في تعمير السودان وتأمين السكان على حياتهم وأرواحهم وأموالهم، وأمن الفارين الذين هاجروا إلى دارفور وجبال النوبة وأهم أعماله أنه قام بتعمير الخرطوم لتكون عاصمة للبلاد. وأدخل صناعة الطوب الأحمر الذي أدخل في بناء القصور والمباني بدلاً من إقامة الدور بالغاب والجلود ونظم الدواوين الحكومية وبنى مسجداً كبيراً في الخرطوم وآخر في سنار واعتنى بالزراعة ووسع فتوحاته واستولى على مدينة "الغلايات" شرقي السودان لأهمية موقعها الحربي والاقتصادي ومجاورتها للحدود الحبشية ووضع عليها حامية عسكرية. وعلى تلك الجهود التي بذلها خورشيد أنعم عليه محمد علي بالباشاوية عام ١٨٣٥م ومكافأة على جهوده الجبارة التي أوجدها كتنظيمات ناجحة في السودان عام ١٨٣٥م، وقد طلب اعتزاله عن منصبه ولم يعرف سبب ذلك ، فربما يرجع إلى مرض أصابه في الآونة الأخيرة أو ربما أصيب بالتوتر العصبي الذي أفقده سرعة الحركة في الآونة الأخيرة من حكم محمد علي.

٢- أحمد باشا أبو ودان أمير اللواء:

اتبع أحمد باشا سياسة خورشيد فأقام بالعمل الذي لم يتم في عصر خورشيد من تعمير مدينة الخرطوم كعاصمة للسودان وضم إلى سكانها العرب الرحل وعمل على استقرارهم حتى يمكنه السيطرة عليهم. وأكثر من بناء السفن الأميرية وقام بإنشاء الطرق الممهدة لتسهيل حركة المواصلات الداخلة والخارجة إلى السودان وبعمله هذا اتسعت حركة التجارة ومعاملاتها. وأقام أكثر علاقات منذ الفتح المصري مع دول أواسط القارة الأفريقية كما عمل على ربط السودان بمصر. وفي فترة حكمه استولى على إقليم (كسلا) وبنى عاصمتها وعرف الإقليم باسم العاصمة. وقد فارق الحياة وبالبحث في دار المحفوظات لم يعثر على تاريخ وفاته.

٣- أحمد باشا المنكل أمير اللواء:

تولى الحكمدارية من بعد أحمد باشا أبو ودان وقد أظهر قدرات كبيرة في إخماد الثورة التي شبت في بلاد " التاكا" فأنعم عليه محمد علي بلقب أمير اللواء ويرجع أسباب الثورة إلى سوء إدارة الموظفين الإداريين في تلك البلاد ثم عاد إلى مصر في عام ١٨٤٠م ويعد آخر الحكمداريين الذين تم تعينهم في عهد محمد علي باشا.

صورة لأحمد باشا المنكل في أواخر حياته في الحكمدارية السنوية ١٨٤٠م

محمد علي واهتمامه بالكشف عن منابع النيل:

يعد فتح السودان فاتحة خير على البحوث العلمية حول كشف عن منابع النيل فقد اتيحت الفرصة أمام الرحالة المكتشفين لاكتشاف الاختفاء المجهول لدى العلماء الجغرافيين في القرن التاسع عشر.

ومنذ قيام العاصمة السودانية على أرض الواقع اعتبرها المكتشفين مركزاً هاماً لمتابعة رحلاتهم حول منابع النيل وأواسط القارة الأوروبية وأولى محمد علي اهتمامه الشديد بعد عودته من السودان بتنظيم الحملات الاستكشافية التي مهدت فيما بعد اكتشاف المنابع الاستوائية بأكملها ما بين ١٨٥٨م، ١٨٦٠م، ١٨٦٢م حتى وصلت الاكتشافات الجغرافية إلى بحيرة فيكتوريا وأول هذه الحملات التي أوفدها محمد علي حملة البكباش سليم بك قبطان ولم تكن حملة واحدة إنما كانوا ثلاث حملات والبكباش سليم هو أحد ضباط البحرية المصرية الذي اشتهر بحبه للبحر فاستخدمه محمد علي بأن وضع تحت قيادته قوة من الجنود وعمارة نيلية من المراكب وأصدر تعليمات له لكشف المنابع النيلية وبدأت الحملة الأولى في يوم ١٦/ ١١/ ١٨٣٩م.

وكان في صحبته سليمان الكاشف أحد ضباط الجيش المصري ومعه فرنسي من علماء الجغرافيا اسمه ثيبو Thibaut ولقب باسم إبراهيم أفندي فيما بعد وكان مع سليم قوة حربية مكونة من ٤٠٠ جندي اختيروا بدقة شديدة وبشروط هامة من بين القوات المصرية في مدينة سنار وقد استغرقت هذه الرحلة ١٣٥ يوماً وقد وصلت إلى الخرطوم في ١٦/ ١/ م١٨٤٠.

وقام البكباش سليم بك القبطان برحلة أخرى في يوم ٢٣/ ١١/ ١٨٤٠م واصطحب معه سليمان الكاشف وبعثة فرنسية وأوربية معهم المهندسان الفرنسيان وهما داربو Darnaul وسابانيه Sabtiut والرحالة الألماني فرن Verne ومسيوتينو. وقد وصلت هذه الحملة إلى جزيرة "جونكر" في ٢٥/ ١/ ١٨٤١م التي تقع على خط ٥° عرضاً وهذه الجزيرة تبعد عن الخرطوم ١٠٨٠ ميلاً جنوباً وفي عودتها إلى الخرطوم عرضت إلى نهر السوباط وقد وصلت إلى الخرطوم في ١٨/ ٤/ ١٨٤١م.

أما الحملة الثالثة التي تحركت من الخرطوم في ٢٧/ ٩/ ١٨٤١م وكان سيرها بطيء لأنها اتخذت إبحارها عكس الريح وقد وقع الجنود والبحارة فريسة للأمراض ومات منهم عدد كبير في الطريق ولم تتمكن الحملة من متابعة سيرها ولم تصل إلى النقطة التي وصلت إليها الحملة الثانية وعادت إلى الخرطوم في ٦/ ٣/ ١٨٤٢م.

الفصل الرابع

أفريقيا الشرقية (الصومال) في القرن التاسع عشر

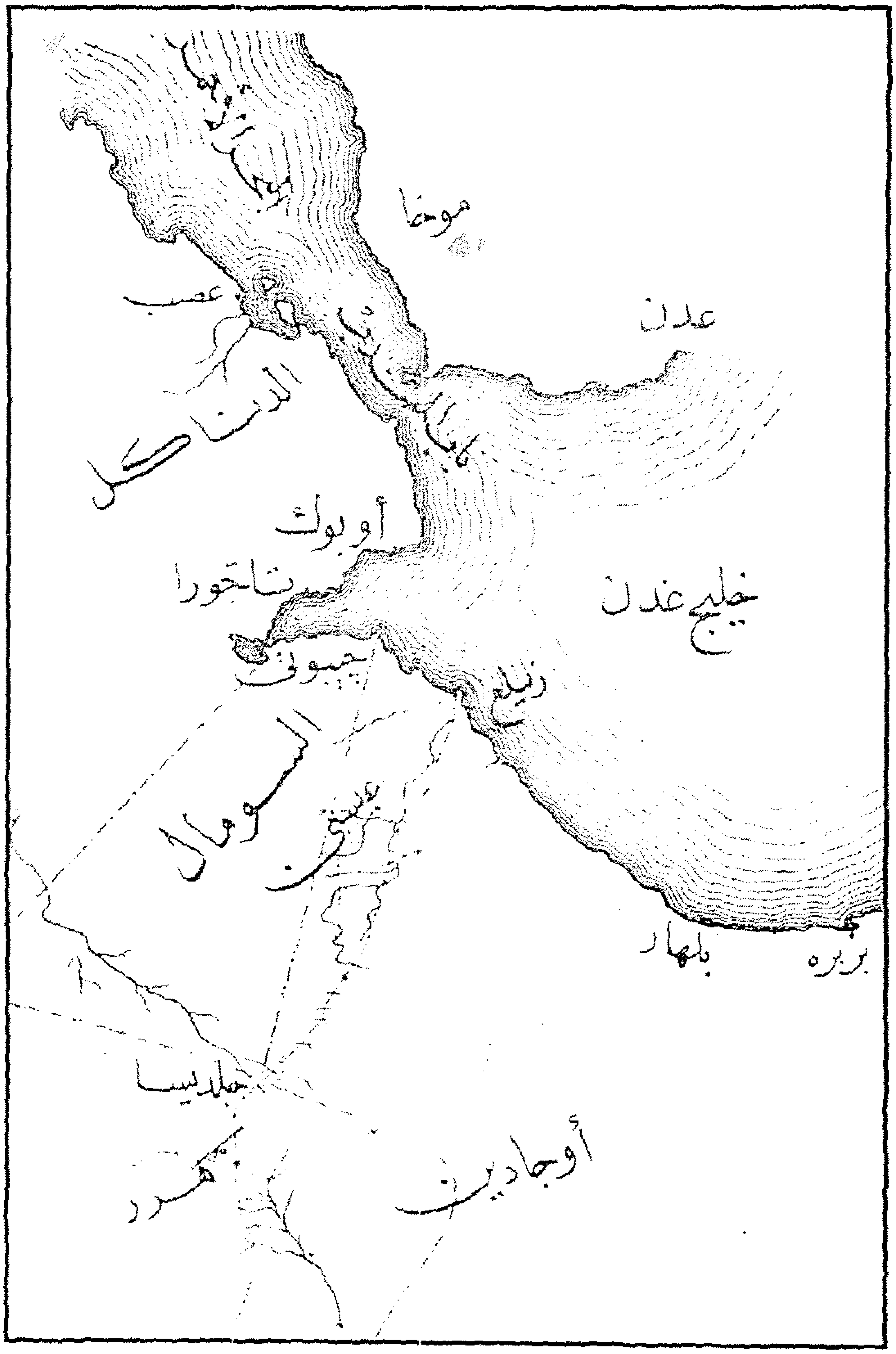

بعد أن بسط محمد علي سيطرته على السودان اتجه إلى آسيا وسيأتي ذلك في الفصول القادمة إن شاء الله فاعترضته الدول الأوروبية ووقفت له بالمرصاد مهددة ثائرة ثم متدخلة مع الدولة العثمانية خشية أن تقوي مصر وتقف في وجه الاستعمار الأوروبي.

قال إبراهيم باشا في إحدى المناسبات قولة الحق التي تدل على بعد نظر صاحبها في السياسة " إن مستقبل مصر في أفريقيا".

فتح الصومال في عهد إسماعيل باشا

كان أول عمل قام به إسماعيل باشا عند توليه الأمور في مصر عام ١٨٦٥م امتلاك الساحل الأفريقي للبحر الأحمر فقد تنازل السلطان له عن مينائي "سواكن ومصوع".

نص الفرمان الذي أصدر في ٢٧/ ٥/ ١٨٦٦م على منح والي مصر حكومة وراثية في جميع الملحقات المصرية بما فيها سواكن ومصوع.

وصل " جعفر باشا مظهر" حاكم السودان على ساحل البحر الغربي لغاية المحيط الهندي ورفع الراية المصرية في بربرة على ساحل الصومال وفي رأس حافون على المحيط الهندي... وقد كتب تقريراً عن نتيجة رحلته في ١٨/ ١٠/ ١٨٦٣م خلاصته أن سواحل البحر الأحمر الغربي من السويس حتى باب المندب يجمع جزره الغربية من سواكن ومصوع والسودان ليس لواحدة من الدول الأجنبية أن تتدخل فيها ما عدا زيلع فهي تابعة للدولة العلوية معطاة بطريق الالتزام "لأبي بكر شحيم" أميرها وذكر أنه أجرى تأمين الأهالي وتمكين تتبعهم للحكومة وأعطى مشايخهم رايات لإقامتها في مراكزهم.

وفي أوائل نوفمبر ١٨٧٦م تألف أسطول مصري في البحر الأحمر تحمل لواءه الإبراهيمية بقيادة " جمال بك" وعين عبد القادر حلمي باشا على سواحل أفريقيا الشرقية.

وكانت قبائل "الدناكل" تحتل ساحل البحر الأحمر من مصوع إلى باب المندب والصومال ومن باب المندب إلى المحيط الهندي. هذه القبائل اتصفت بالعديد من الاشتباكات الدموية فيما بينها وحدثت معارك بين قبائل "بلهار" وقبائل بربرة وتدخل جمال بك تطوعاً لعقد الصلح بين الطرفين. وقد اعترض الحاكم العسكري الإنجليزي في عدن على هذا الأمر في إبريل سنة ١٨٧٠م.

وصلت أخبار ذلك إلى وزارة الخارجية المصرية ووزيرها "شريف باشا" فبعث إلى قنصل إنجلترا يخبره بأن هذه البلاد تابعة للدولة العثمانية وأنها ضمن تنازل الباب العالي عن مديريات مصوع وسواكن وملحقاتها لمصر. وأن مصر تعد صاحبة الأمر فيها ومن حقها الثابت لها لا شك فيه.

وفي حقيقة الأمر أن سواحل البحر الأحمر سواء كانت تابعة لتركيا أو ضمن ممتلكات مصر فإن إنجلترا ادعت بأنها صاحبة الحق في هذه الممتلكات. والواضح أن إنجلترا ومنافسيها قد أغفلوا حقوق صاحبة الحق وأيضاً قد مكنتهم شيوخ القبائل في المناطق البعيدة بتحالفهم مع الدول الأوروبية وأخذت عقداً بالتنازل عن بعض الأماكن.

وبهذه الادعاءات الباطلة خدعت إنجلترا مصر والباب العالي وتمكنت من الاستيلاء على "عدن" عام ١٨٣٨م وأطلقت على هذه المدينة تسمية "جبل طارق الغربي" فصارت تابعة لها في البحر الأحمر.

وسعت إنجلترا إلى المناطق والبلاد التي تجاور "عدن" وأوقعتها تحت سيطرتها. ففي ١٩/ ٨/ ١٨٤٠م استولت إنجلترا على جزيرة "موسى" والتي هي في حوزة السلطان محمد سلطان تاجوره، وفي ٣/ ٩/ ١٨٤٠م استولت على جزيرة "أوباط" التي تتبع حاكم زيلع واشترت الحكومة الفرنسية من شيخ "رهيطة" منطقة "أبوك" في عام ١٨٦٣م وأخذت إيطاليا عن طريق البيع "عصبا" في عام ١٨٧٠م من القبائل المحلية الغربية من زيلع.

لم يسكت الخديوي إسماعيل على تسابق الدول الأوروبية في استعمار هذه البلاد بل ظل يطعن في أحقية البيع وطالب إنجلترا بإخلاء الجزر التي استولت عليها حتى لا تفكر الدول الأوروبية أن تسلك طريقها.

وتأكيدًا لموقف الخديوي إسماعيل وحق مصر في هذه البلاد عين إسماعيل في يونيه ١٨٧٠م حاكماً وهو "ممتاز باشا" على جميع سواحل إفريقيا من السويس إلى "جردفون" ووصل إلى "بلهار" في ١٦/ ١/ ١٨٧١م ووضع العلم المصري على ربوعها ليبين أحقيته في هذه البلاد وقام بتوزيع الإعانات المالية وخلافها على العلماء والفقراء فإحصائية السكان في هذه الفترة توضح أن عدد سكان هذه البلاد لا يتجاوز ٥٠٠ نسمة من عرب الصومال، ووصل إلى بربرة وعقد صلحاً بين القبائل ثم أثناء عودته مر "تياجورة" إلى "فرهيطة" إلى "فبليول" إلى "مصرع" إلى جزيرة "العقيق" التي يبلغ عدد سكانها ١٥٤ نسمة عملهم الزراعة.

والمعروف عن سكان تلك المنطقة أن نشاطهم كان مقصور على التجارة فهم غالباً لا يميلون إلى الزراعة ولهم عمليات خارجة على القانون الدولي وهي حب السلب والنهب والقتال فأدى كل ذلك إلى انتشار الفوضى والانحطاط.

أما المصريون الذين استقروا في هذه المنطقة بعد الفتح المصري اعتمدوا في حياتهم على الزراعة وإنشاء البساتين وعملوا على نشر الأمن وتسيير السفن الحربية في البحر.

وفي عام ١٨٧٥م تنازل الباب العالي لمصر عن زيلع في مقابل دفع ١٥٠٠ جنيه تركي سنوياً، وعلى أثر ذلك أقام الخديوي إسماعيل في تاجورة والبلاد المجاورة لها حكومات لتكون على صلة وثيقة بسكان هذه المناطق حتى تفتح أبواب التجارة التي كانت مغلقة.

إن توطيد أقدام المصريين في الساحل والموانئ كان على أساس خطة لسياسة عامة اتخذتها مصر في داخل البلاد والعمل على نشر الوسائل العمرانية والحضارة فيها وكان احتلال هرر وزيلع وبربرة جزءاً من السياسة المصرية في ذلك الوقت.

أرسلت مصر في أوائل القرن التاسع عشر حملة مصرية بقيادة "محمد رؤوف باشا" لفتح هرر فاستولت عليها، وتاريخ هرر يبدأ منذ فتح محمد رؤوف باشا هذه المنطقة وإدخال الحضارة والعمران فيها. وقديماً في القرن السابع الميلادي اندفعت الموجات المهاجرة من الجزيرة العربية إلى إفريقيا الشرقية لتعقد علاقات اقتصادية تقوم على التجارة بينهما.

وقد استقرت جماعات هذه الموجات فأسسوا مدينة هرر ثم أعقب ذلك موجات من حضرموت واليمن إليها.

محمد رؤوف باشا

فاتح هرر في القرن التاسع عشر

وبقيام دولة هرر تمتع سكانها بالعدل بل صارت عاصمة لها وهي زيلع وظهرت على الخريطة السياسية مدينة بربرة التي قام البطالمة بتأسيسها على أن تكون جزءاً من دولة هرر.

ولما سقطت المنطقة العربية ومصر بين أنياب الاحتلال العثماني أخذت الدولة العثمانية دورها في احتلال السواحل الشرقية وبالتالي انتقلت العاصمة من "زيلع" إلى "هرر" في عام ١٥٢١ فقام العثمانيون بإمدادها بالمدافع والذخيرة والأسلحة. ولما وطأت أقدام البرتغاليين أرض الحبشة لتنصرها ضد سلطان هرر فأوقعت هزيمته.

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كان الحكم في هرر قد آل إلى أشراف مكة.. فبعد أن كان أمير هرر يسيطر على قبائل الجالا والصومال المنتشرة بين المدينة والساحل صار عرش بلاده تحت رحمتهم.

الصومال في القرن التاسع عشر

يمتد الصومال على هيئة مثلث قاعدته جبال " الكانا " أو خط وهمي من خليج تاجورا إلى نهر تانا وضلعاه خليج عدن (١١٠٠ كم) وساحل المحيط الهندي (٢٢٠٠ كم).

وهي مملكة لها مواردها التي تعدها من أغنى المناطق الإفريقية وهذه الموارد تتمثل في محصول الصمغ والبخور والمطاط هذا من المحاصيل النباتية الطبيعية أما الحيوانات هي: الخيل والمواشي التي لا حصر لها لكثرة المراعي التي تنمو على الجبال وفي السهول وعلى ضفاف الأنهار التي تنبع في هضبة "الجالا" وهي على اتصال بمملكة "شوا" الحبشية وهضبة هرر الخصيبة. أما السكان قوم رحل بطبعهم يعيشون من تربية الأغنام والتجارة لكن يمارسون عمليات النهب والسلب في كساد التجارة في منطقتين هما "بلهار وبربرة".

القبائل الصومالية في القرن التاسع عشر

على هيئة جماعات كالآتي: الجماعة الأولى توجد في المنطقة الشمالية وأهم عشائرها حبر أول، عيسى، الجادا بورسي، وتسيطر حبر أول على جميع بلاد الساحل الشمالي حتى زيلع، أما أراضي عيسى من جنوب زيلع إلى محطة جلديا في سكة هرر. وتوضح الإحصائية السكانية أن عدد سكان المنطقة ١٣٠٠٠٠ نسمة من المسلمين.

الجماعة الثانية

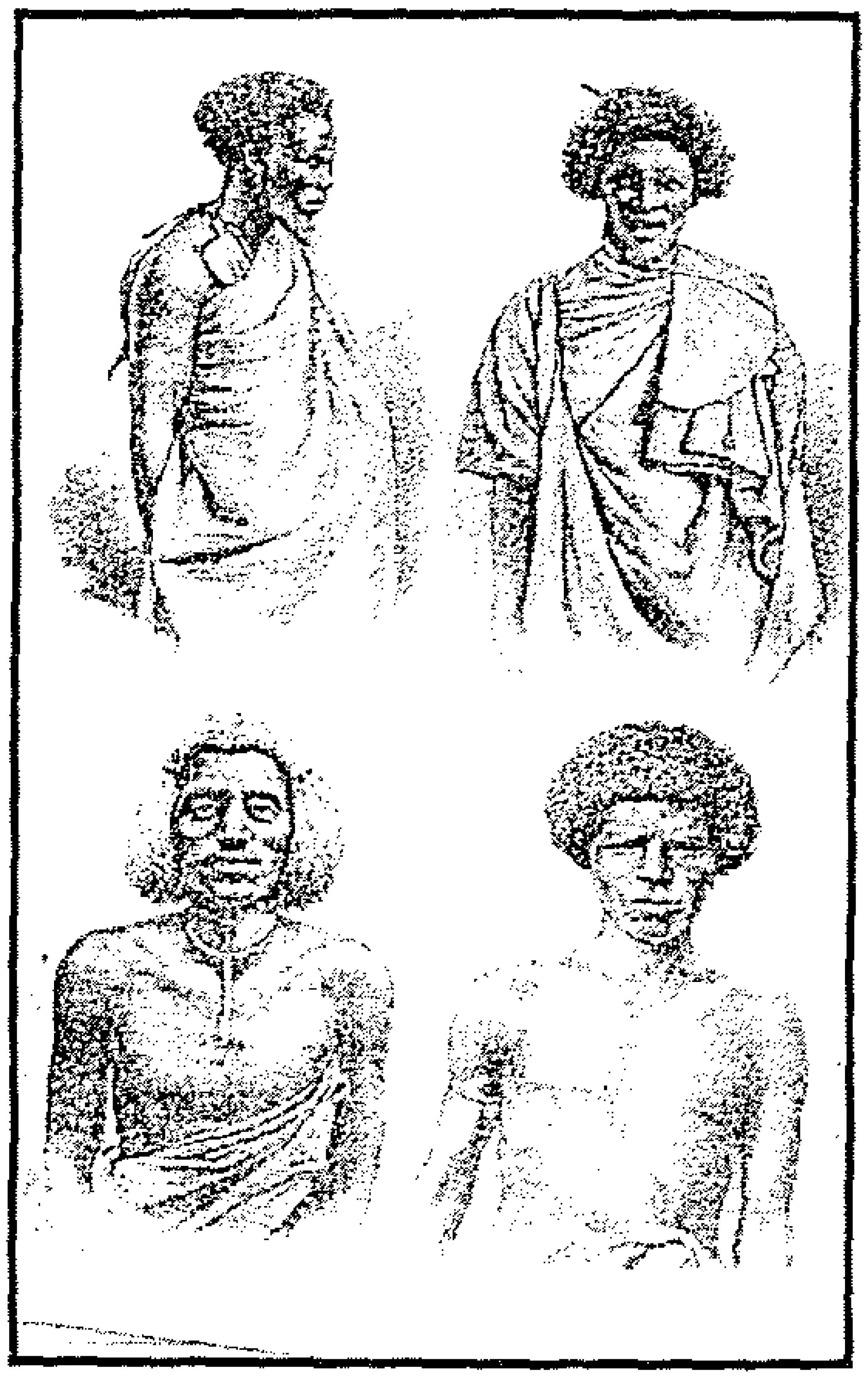

هيئات الجالا

الجماعة الأولى

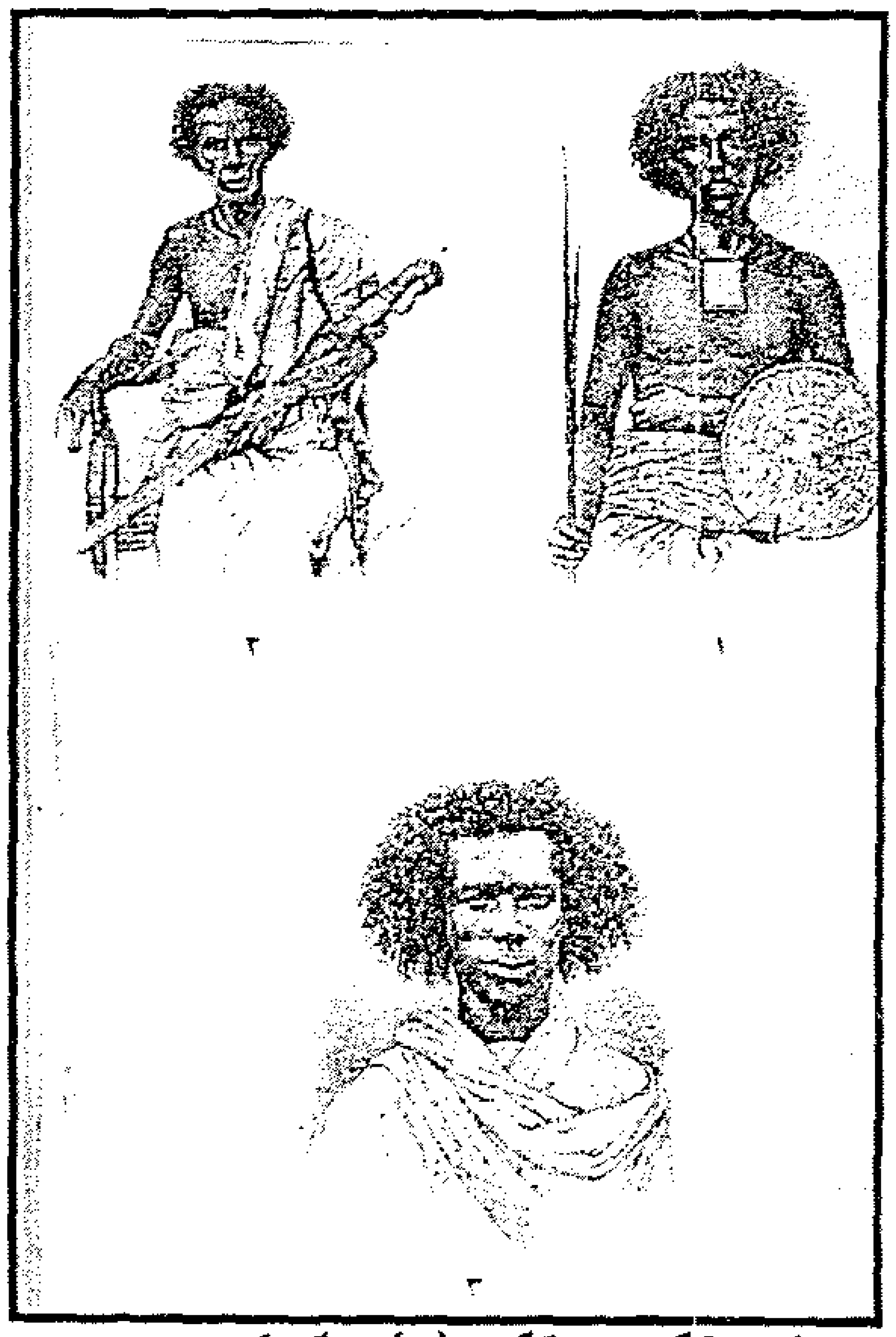

هيئات الصومال: (١) جادا بورسي (٢) حبر أول (٣) عيسى

الجماعة الثانية: جماعة هرر

الجماعة الثالثة: صومال الأوجاوين وهي واقعة في داخل الصومال لم يدخلها أوروبي لغاية عام ١٨٨٣م وفي كل قبيلة أدباء وشعراء يرتجلون الشعر.

الجماعة الرابعة: جماعة الجنوب أو ساحل "ينادر" كانت منتشرة على جنوب نهر وابي شبيلي ومنطقة الجب السفلي.

وتمتد أراضي "الجالا" في الشمال الشرقي من بحيرة فيكتوريا بين هضبة الحبشة في الشمال والصومال في الشرق وبلاد العروس وبوران في الجنوب وتعداد قبيلة الجالا يزيد على عشرة ملايين وهم أكثر الأجناس الإفريقية وأهم البشر "كرايف" يبدون في طلعة حربية وهم طوال القامة وديانتهم الوثنية ولهم ذكاء خارق وإقامتهم حول هرر حيث يتخذون من الجبال سكناً لهم حيث توجد المراعي الخضراء والغنم والماعز. ومنهم من يسكن في أعالي الجبال استعداداً للهجوم على أعدائهم، وفي القرن الخامس عشر كانت إقامتهم على سواحل خليج عدن، لكنهم غادروا إلى مملكة "شوا" وجنوب الحبشة حيث يتجه الغزو والفتوحات. ثم احتلوا "هرر" في عام ١٧٠٠ فأذلوا أميرها وأرهقوا القوافل التجارية وتنقسم قبيلة "الجالا" إلى ستة أقسام:

- التوالي: إقامتهم في الشمال بين محطة جلدية وهرر في بلاد جبلية غزيرة المطر حيث يقوم السكان بزراعة القمح والذرة.
- الجارسو: في شرق هرر.
- الألا: في الشرق بجوار الجارسو في الجنوب والغرب.
- الأنيبا: في الجنوب.
- العروس: في الجنوب.
- الإينو: في الغرب.

هذه القبائل الست متجاورات، وكانت كل قبيلة تنقسم إلى أفخاد وبطون وفصائل لا حصر لها، والأقسام الستة لا تسعى إلى إيجاد وحدة وإنما تضر بها، وإذا

حدث اتفاق مع طبيعتهم الاستقلالية الانفرادية التي تجنح أحياناً يكون شأنهم في ذلك شأن القبائل الصومالية الذين لم يألفوا قبائل خمس كبرى متجانسة كونوا ٨٥ قبيلة.

ولا شك أن كثرة العشائر وضعف "مملكة هرر" والجهل والبدع والفوضى في جميع الأنحاء أدى كل ذلك إلى عوامل الضعف كما توجد صناعات لأن مطالب الحياة في القبائل قليلة ومحددة أما المباني غير مبنية إلا في مدينة "هرر" فمبانيها من الحجر وقد صارت أراضي ذات مساحات واسعة غير صالحة للزراعة ويرجع ذلك إلى إهمال السكان بها.

ويعتمد السكان على التجارة في فصل الشتاء أما الصيف فيكونوا كتلة من النشاط تغمر الحياة فالكل يتجه إلى أعالي الجبال حيث الخضرة والحشائش التي ترعاها قطعان كبيرة من الغنم والأبقار والخيول والبغال ويأتي شهر سبتمبر فينزل السكان من الجبال إلى الوديان لاستمرار الحياة التجارية عند مينائي "بلهار وبربرة".

أما رياح الشتاء فإنها تساعد السفن الشراعية من ناحية أخرى على اجتياز البحر والوصول إلى الموانئ، ويعد ميناء "بربرة" الميناء الطبيعي لهرر والأقاليم المجاروة ويعتبر أحسن وأفضل مرسى للسفن والصوماليون يتمسكون بالمثل القائل "إن الذي يهيمن على بربرة يمسك بيده ذقن هرر".

وكانت التجارة المتنوعة تفد إلى بربرة من الحبشة وهرر كتجارة البن والعاج وريش النعام والجلود والصمغ والأبقار والزبدة أما تجارة حضر موت واليمن في الأرز الهندي والبلح والأقمشة القطنية والدخان والحديد والنحاس والسكر والشاي والأنبذة، ويعتمد السكان في معاملاتهم التجارية على المقايضة لأن العملة في ذلك الوقت نادرة الاستعمال.

مناظر أخذت في مدينة بربرة في صناعة الحقائب الجلدية في القرن التاسع عشر

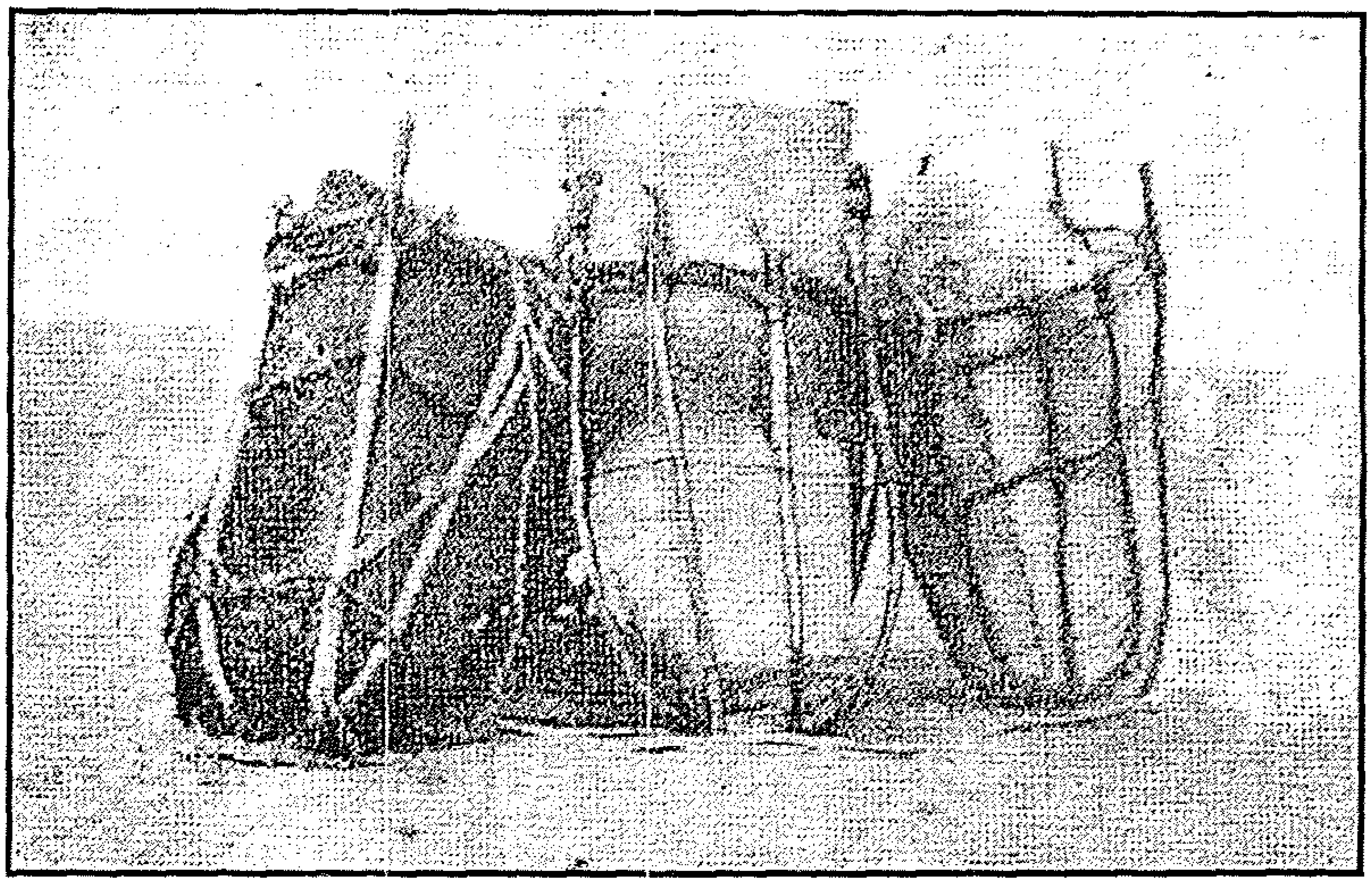

حقائب من الجلد تصل إلى الساحل مثقلة بالمر والصمغ وغيره

وصناعة الجلد في بربرة من أهم الصناعات وإن كانت صناعات من أجل حفظ المر والصمغ وبعض المحاصيل الزراعية التي تصدر إلى الخارج.

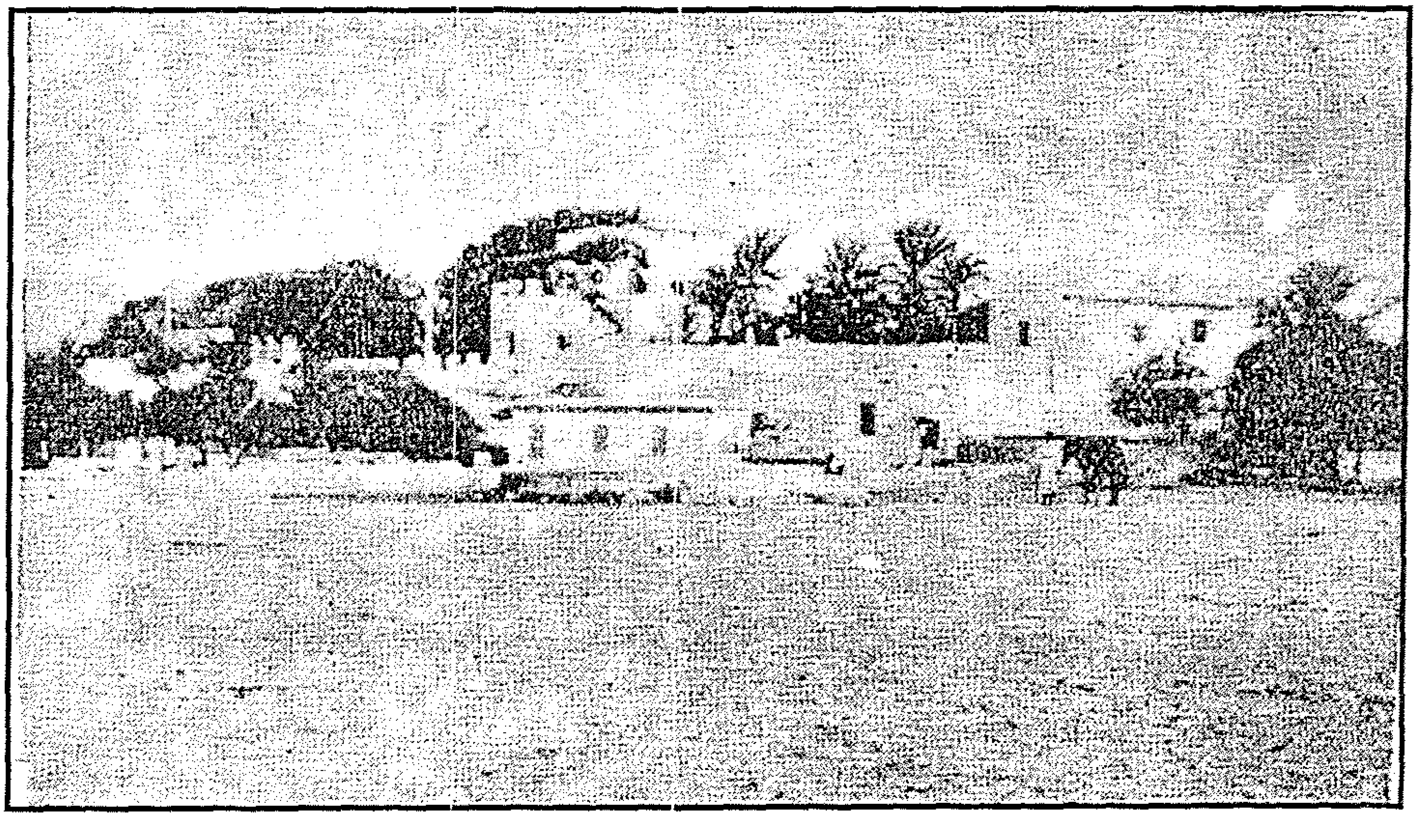

منظر في بربرة في مصنع الجلد

وقد شلت الحركات الاجتماعية والاقتصادية نتيجة عدم توفر الأمن في تلك البلاد فتعرضت القوافل التجارية في الداخل للضرائب الفادحة التي تدفع لأمير هرر والقبائل التي في طريقها أما التجارة الخارجية كانت هدفاً سهلاً لقبائل الساحل لعمليات السلب والنهب إلا إذا كانت في حماية رجل من العشيرة وفي نظير هدف الحماية يقتسم الأرباح مع التجار. ولذا تباطأ وصول البضاعة بعد أن كانت تصل من هرر إلى الساحل في ١٥ يوماً، صارت تصل في عام ونصف أو عامين وكذلك كسدت السوق التجارية وتدهورت كل من "زيلع وبلهار وبربرة".

وكان ميناء بربرة على هيئة مجموعة عشش أو منازل مقامة من الخشب وتبدو هذه العشش والمنازل لا حياة فيها إلا في فصل الشتاء وسكانها ما بين عشرين ألف إلى خمسة وعشرين ألف على مساحة ثلاثة عشر كيلو مترًا من المدينة.

تبدو الجبال التي تضخ المياه من سطحها بكثرة حيث تنساب المياه إلى فوق طبقات السهل يطرد انحداره نحو الساحل والمياه حلوة المذاق في بدايتها ثم تزداد ملوحة تدريجياً كلما اقتربت من الساحل. وكان السكان يحملون المياه في قرب من الجلود، يحملها السكان من آبار مستحدثة في رمال الساحل بعد كيلو متر من المدينة.

مياه الشرب التي تحمل إلى المنازل في القرن التاسع عشر

رجل صومالي من هرر يحمل قربة مياه

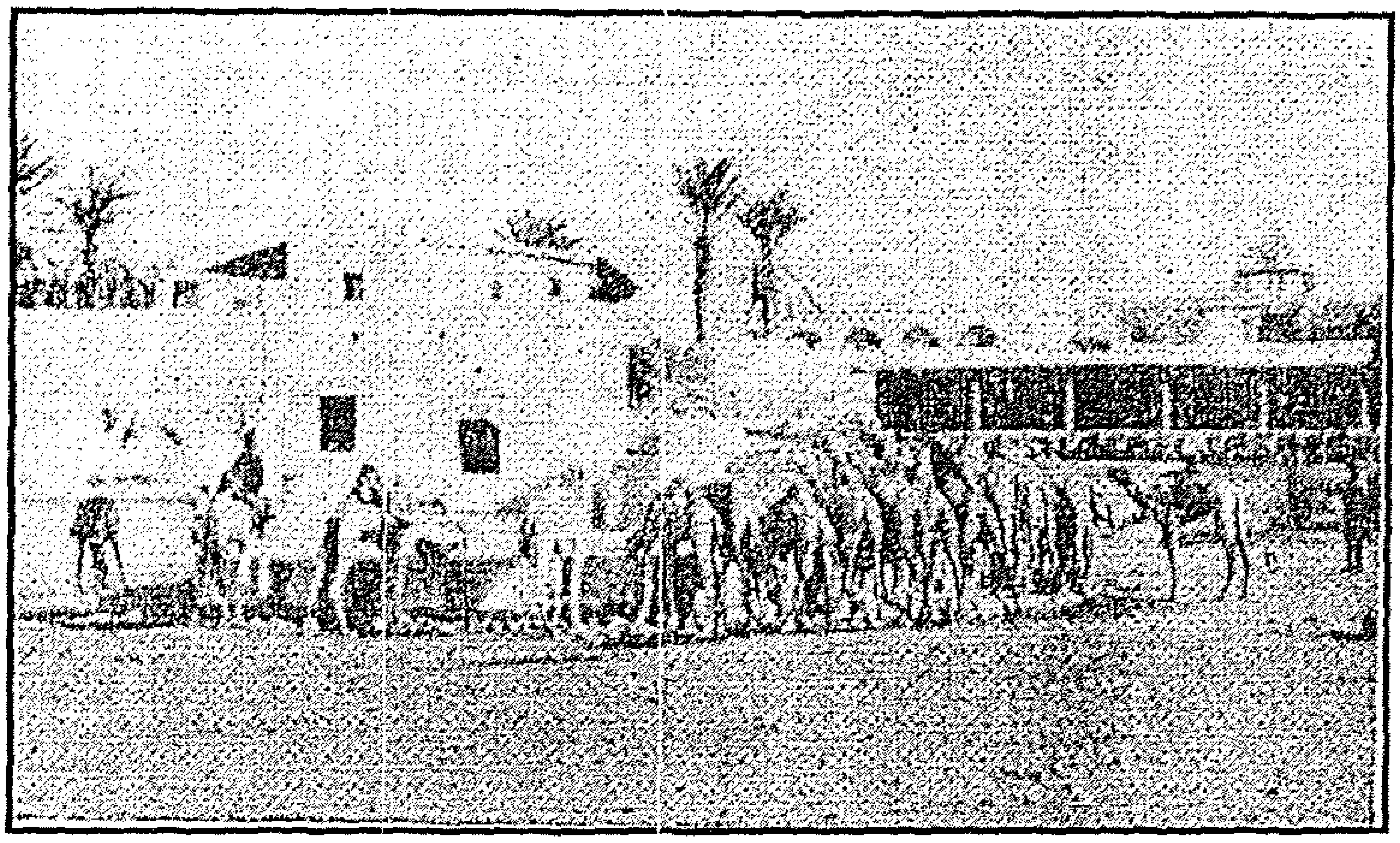

أحواض الماء في بربرة لسقيا الدواب

وكانت النساء يذهبن إلى الآبار ويحملن المياه في جرار لتصب هذه المياه للشرب في أوان مصنوعة من الفخار.

نساء يحملن جرار مملوءة بالمياه للشرب

وكثيراً ما كانت المياه شحيحة وتقل لدرجة كبيرة بعد انتهاء فصل الشتاء فتخفف تواجد التجار في السوق ثم يعودوا إلى الجبال وتخلو بربرة من سكانها. وفي فصل الشتاء تظهر الوحوش الضارية وتعود القبائل في الصومال على عجل لتستقر وتجبي إتاواتها وغالباً تندلع الحروب والمنازعات في أمر جباية الأموال.

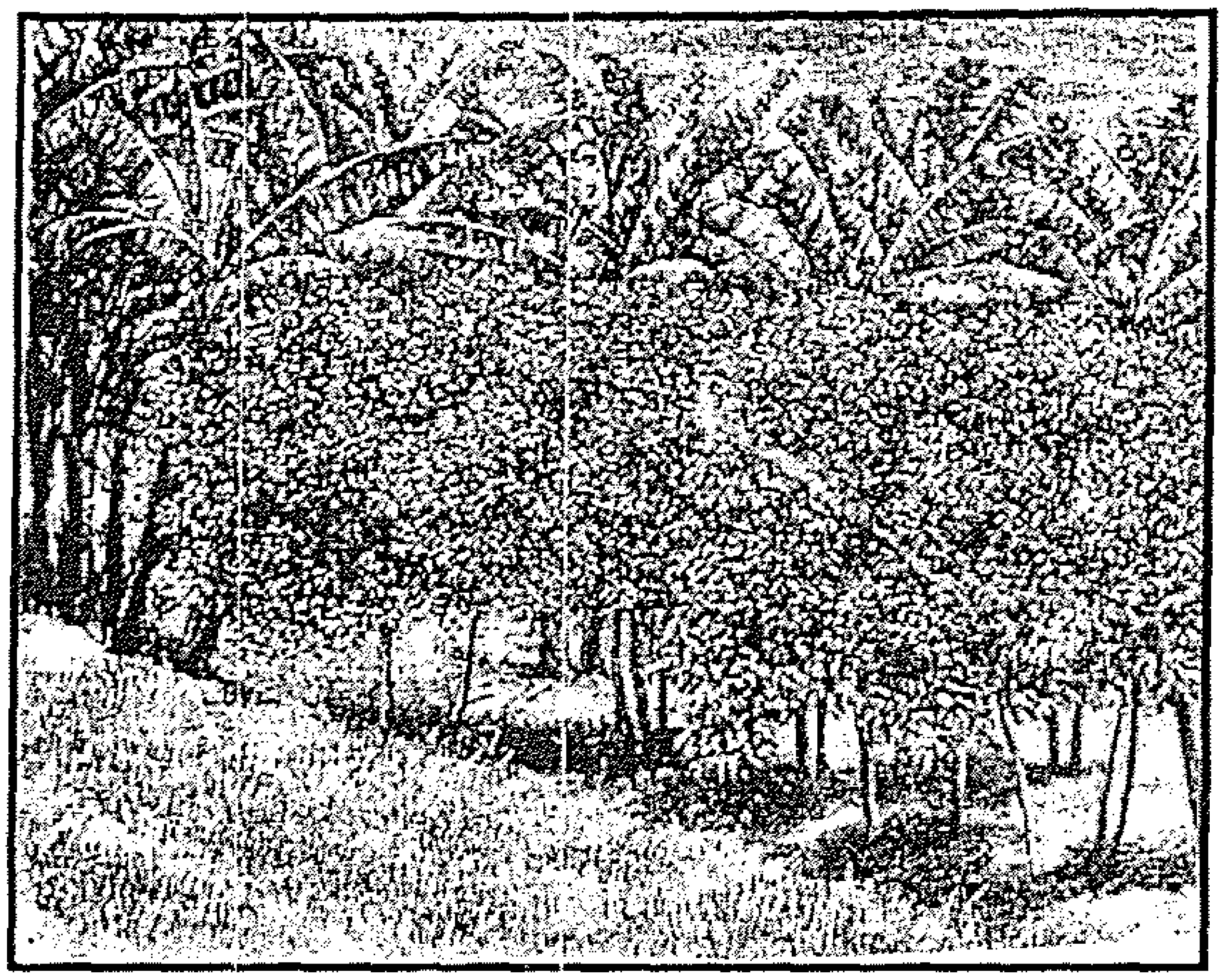

حدائق البن والموز في هرر

وتكثر في الصومال مزارع البن والموز لدرجة كبيرة ويجمع محصول الموز أحياناً لكثرته ثم يقشر ويجفف في الشمس ثم يطحن كدقيق ويستخدم في صناعة الخبز إذا قل دقيق القمح والذرة.

مدينة بربرة والحضارة المصرية في القرن التاسع عشر

من هذه المدينة نقلت الحضارة المصرية إلى داخل الصومال وكان أول مأمور من قبل وزارة الداخلية يتولى الإدارة في بربرة وزيلع وملحقاتها هو "عناية رضوان باشا"، فكانت الحكومة المصرية تبعث بسفينة حربية تطل على شواطئها في نهاية شهر الشتاء وكان قائدها مسؤولاً عن الأمن والنظام داخل المدينة.

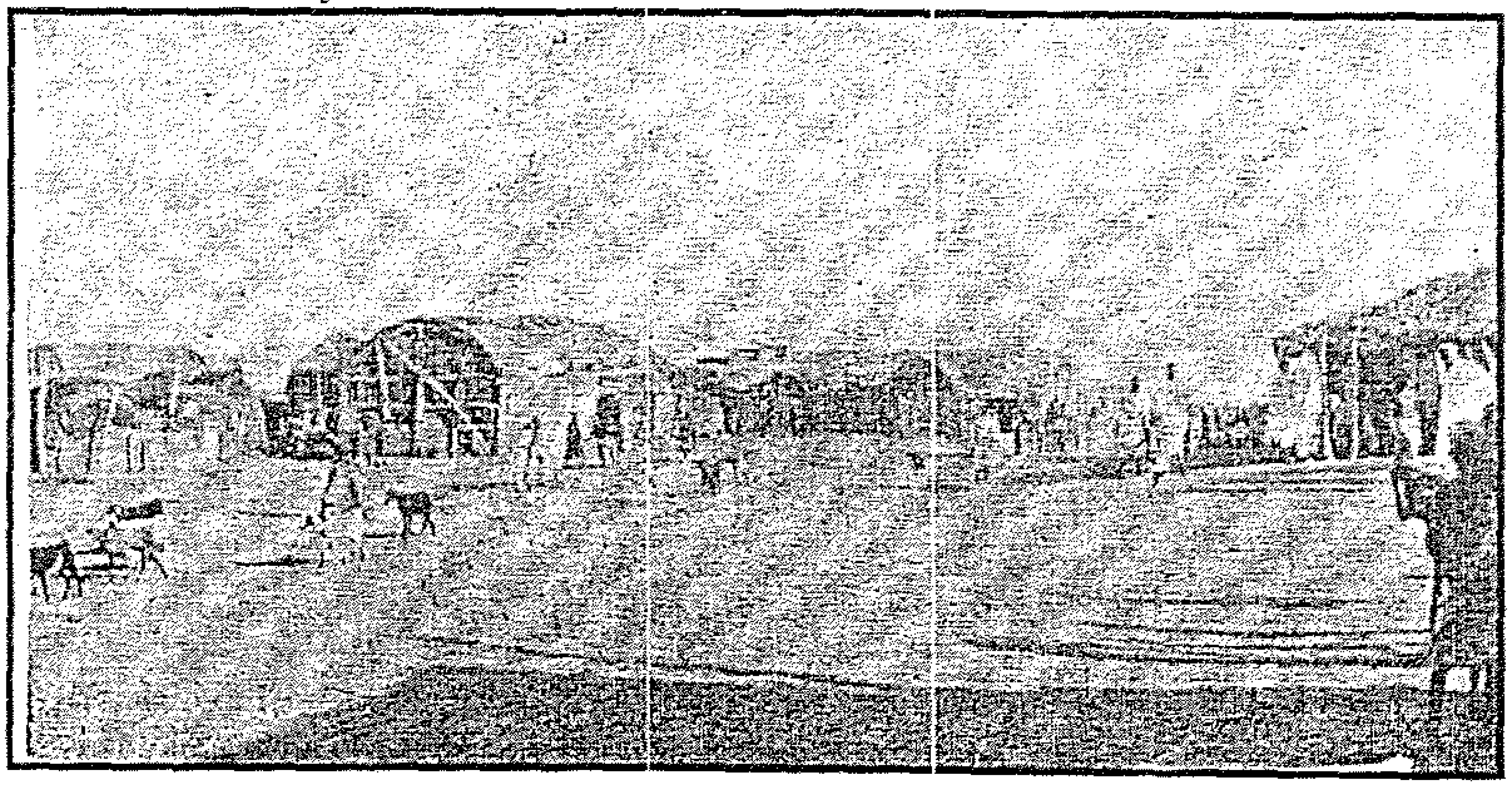

منظر شارع صور بآلة تصوير

يدل الشارع على بساطة المباني فيه، وقلة السكان ويرى الناظر إليه من الوهلة الأولى أن هذا الشارع من شوارع العصر القديم البدائي في القرن التاسع عشر.

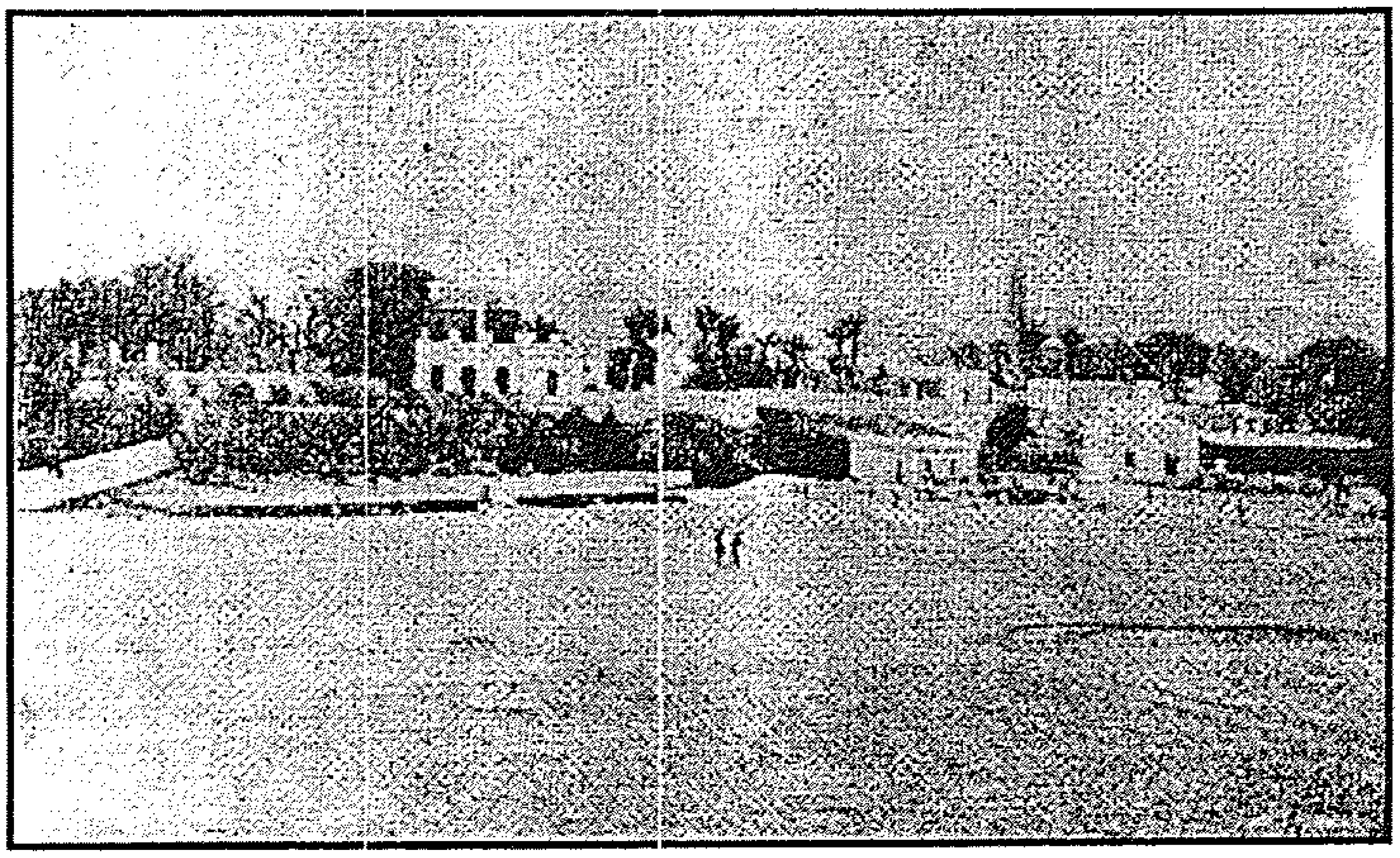

منظر في بربرة

ترى أن الحدائق في بربرة تحيط بالمنازل التي يقطنها المصريون والأجانب.

لجنة مصرية لبناء ميناء في بربرة ومدينة

جاءت لجنة مصرية على سفينة حربية من المهندسين المصريين منهم " مهندس عبد الرازق نظمي ومهندس محمد بهرام" في المهمة الرئيسية لدراسة واستكشاف منطقة الميناء وقد اهتم هذان المهندسان ومن معهما من أعضاء اللجنة بدراسة مناطق المجاري القديمة ثم قاموا برسم خرائط في منتهى الدقة عن المناطق الداخلية وإعداد تصميمات لاستحداث مجاري لمدينة جديدة بعيدة عن العشش التي كان السكان يقطنونها. وفي الفترة ما يقرب من ستة أعوام تمكنت هذه اللجنة من إنشاء مدينة جديدة وفيها منارة في البحر تهدي السفن وفيها أرصفة ترسو السفن بجوارها وكانت أرصفة من الحجارة ومخازن يشون فيها الفحم لإمداد السفن التجارية، وبنى أيضاً دورًا منتظمة وشوارع مصفوفة نظيفة لا أثر فيها من الأقذار التي كانت تسبب الأوبئة والأمراض وأحيطت ببستان جميل يسر الناظرين إليه ومسجد كبير.

وقد قامت اللجنة بتوصيل شبكة من المواسير لإمداد المدينة بالماء العذب للاستفادة من المياه التي تضخ من الصخور في سطح الجبال البحرية.

وتلاشياً لارتفاع درجة الحرارة أقامت اللجنة صهاريج تعمل لتبريد المياه قبل أن تنساب في المواسير التي أعدت لها وقد قامت اللجنة ببناء مستشفى وصيدلية ومخابز وطواحين ومكتب بريد ضمن اتحاد البريد العام وأضيئت الشوارع بمصابيح مضيئة بالغاز مثلها مثل ما هو موجود بمصر. وبدأت العملة المصرية تأخذ طريقها في المعاملات التجارية وبدأت عمليات التصدير والاستيراد تعرف سوقها وبهذا تكون الحياة قد عادت إلى المدينة لتأخذ دورها في الحياة الحضارية مثل ما هو موجود في مصر حول الموانئ المصرية.

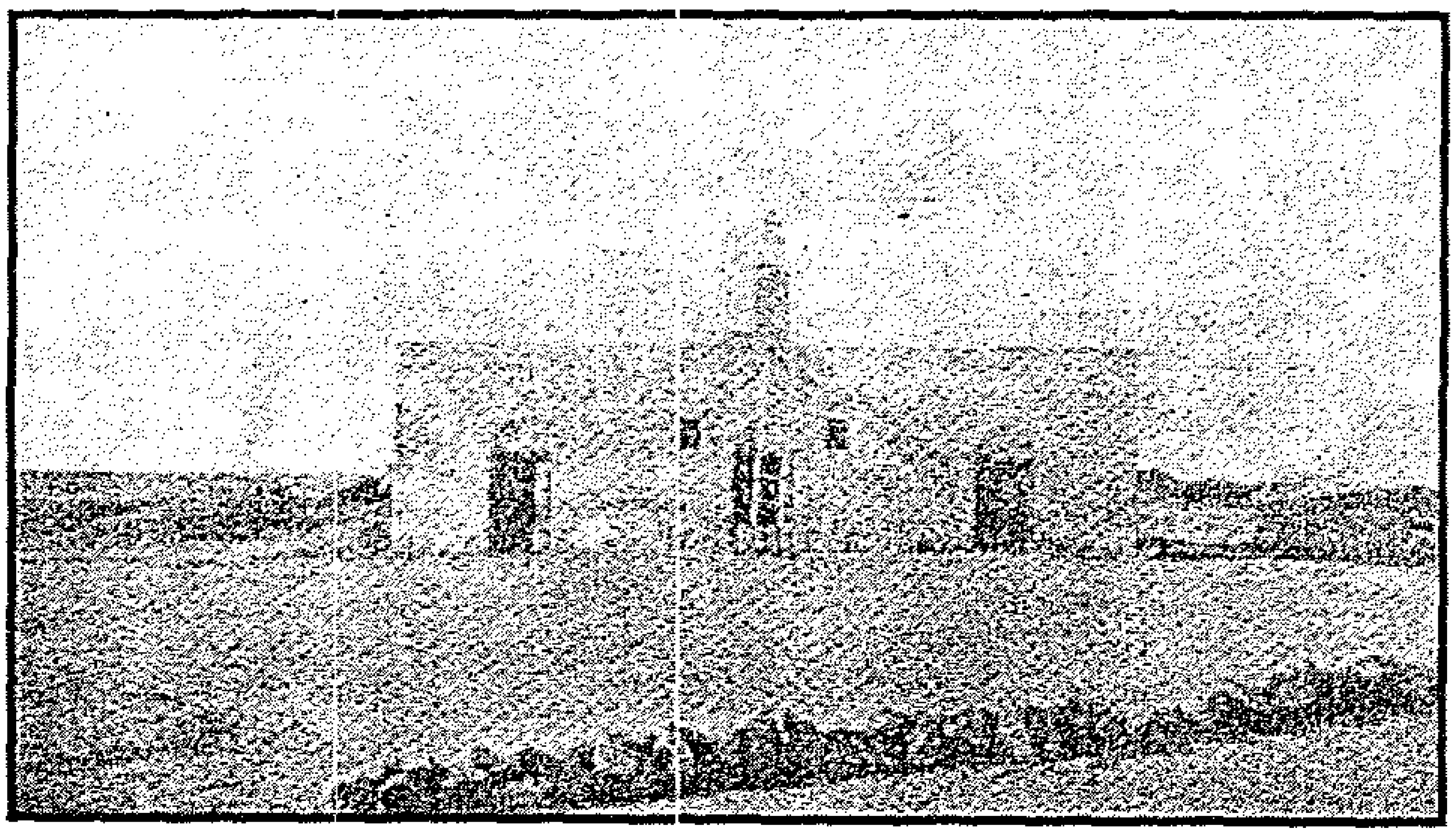

المنارة التي بناها المصريون وبيت الحاكم في بلهار

وقد اعترف القنصل الإنجليزي في تقرير له لحكومته أرسله من الصومال المؤرخ ٦/ ٦/ ١٨٨١م يقول فيها "إن المصريين أنجزوا في بربرة من الأعمال العمومية الأساسية ما يصح أن تفاخر به أية إدارة.

والنشرة المالية التي وضحت قيمة الأموال التي أنفقت في مشروع المياه والميناء وأقامت مدينة بشبكة حديثة قدرت بسبعين ألف جنيه مصري عدا رواتب الجند واحتياجاتهم والسفينة الحربية التي تقلهم والتي كانت ترسو على الشواطئ طوال العام قدرت بأربعين ألف جنيه.

وللأسف عندما ضغط الإنجليز على الخديوي إسماعيل باشا عام ١٨٧٧م بجعل مينائي "بربرة وبلهار" يعملان بحرية كاملة بإعفاء صادراتها من الضرائب والرسوم الجمركية فأصبح الدخل القومي العائد على المدينة من خلال الصادرات لا يزيد عن ١٧٠ جنيهًا في السنة بينما السفينة الحربية الراسية في الميناء والتي تحافظ بجنودها على الأمن كلفت الحكومة المصرية ٣٠٠ جنيه مصري في الشهر. هذه خسارة فادحة كانت تتحملها مصر، وكانت عمليات التصدير إلى عدن "الذي تحت الاحتلال البريطاني" سنوياً ١٠٠٠٠ بقرة و ٦٠٠٠٠ خروف وكميات من الزبدة تقدر بعدد كبير من الأطنان كتموين لجنود الاحتلال.

وفي تقرير أرسله حاكم بربرة "رضوان باشا" في ٢/ ٦/ ١٨٧٦م يقول فيه "إنه قبل مجيء المراكب الخديوية إلى هذه الأصقاع كانت عدن في ضيق مستمر طوال أشهر الخريف التي تبدأ من مايو إلى سبتمبر لأن عمليات الشحن للأبقار والخرفان والزبدة تجد صعوبة لشحنها على مراكب صغيرة بسبب هبوب رياح الشمال المحملة بالعواصف وكان ثمن رطل اللحم في عدن خمسة قروش وكانت الزبدة لا وجود لها. ولكن بعد بناء الميناء ومرور مراكب البريد المصرية في مياهها أصبح من الميسور إرسال الزبدة والبيض والغنم والأبقار في كل وقت وصار ثمن رطل اللحمة قرشاً واحداً وكثرت الزبدة بالأطنان حيث توضع في ثلاجات في السفن الكبيرة.

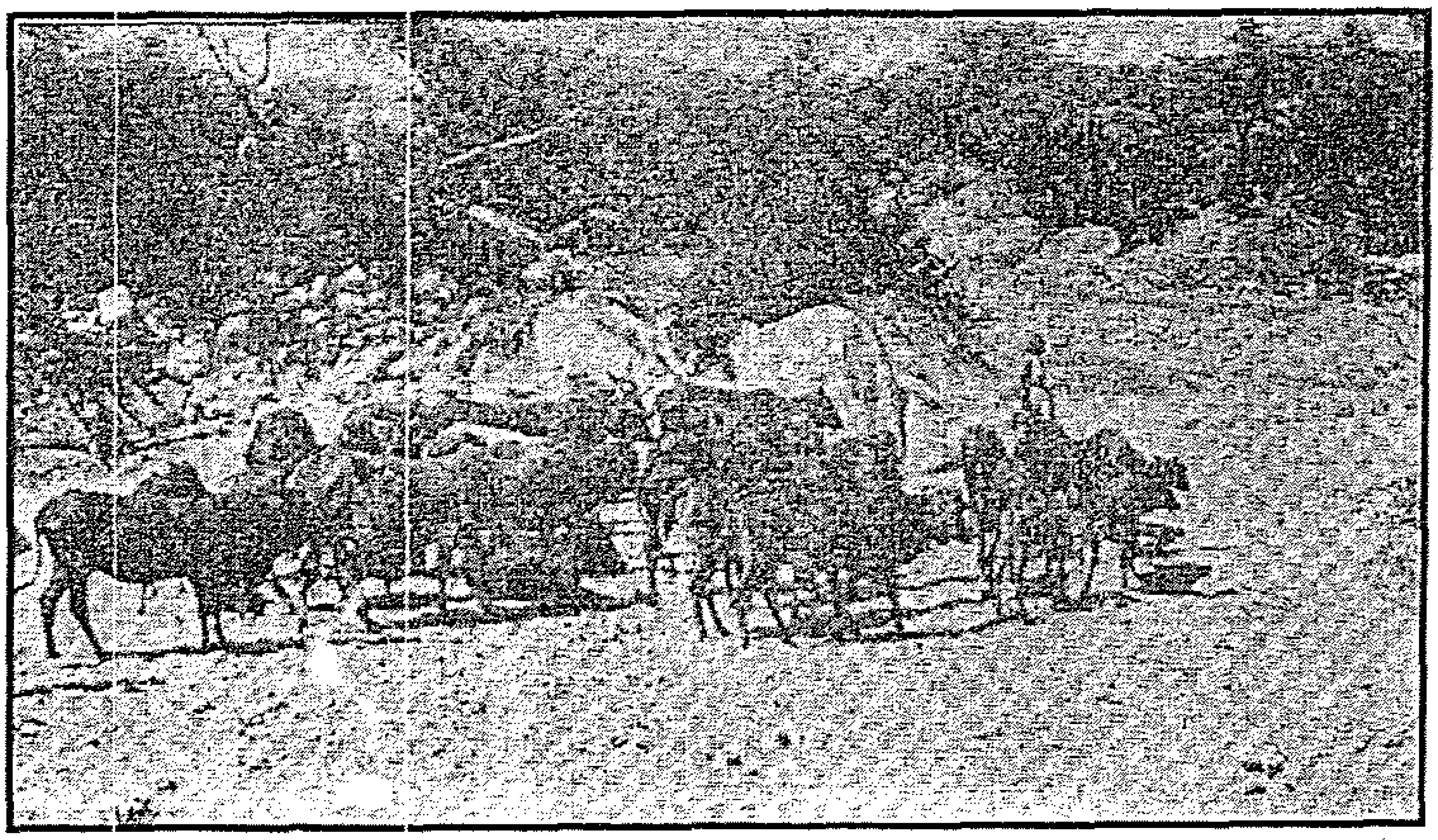

ماشية الصومال

لقد وضعت حراسة على المنبع للمياه. وبنى لها حصن والمنظر التالي يبين كيف تم الحراسة على المنبع.

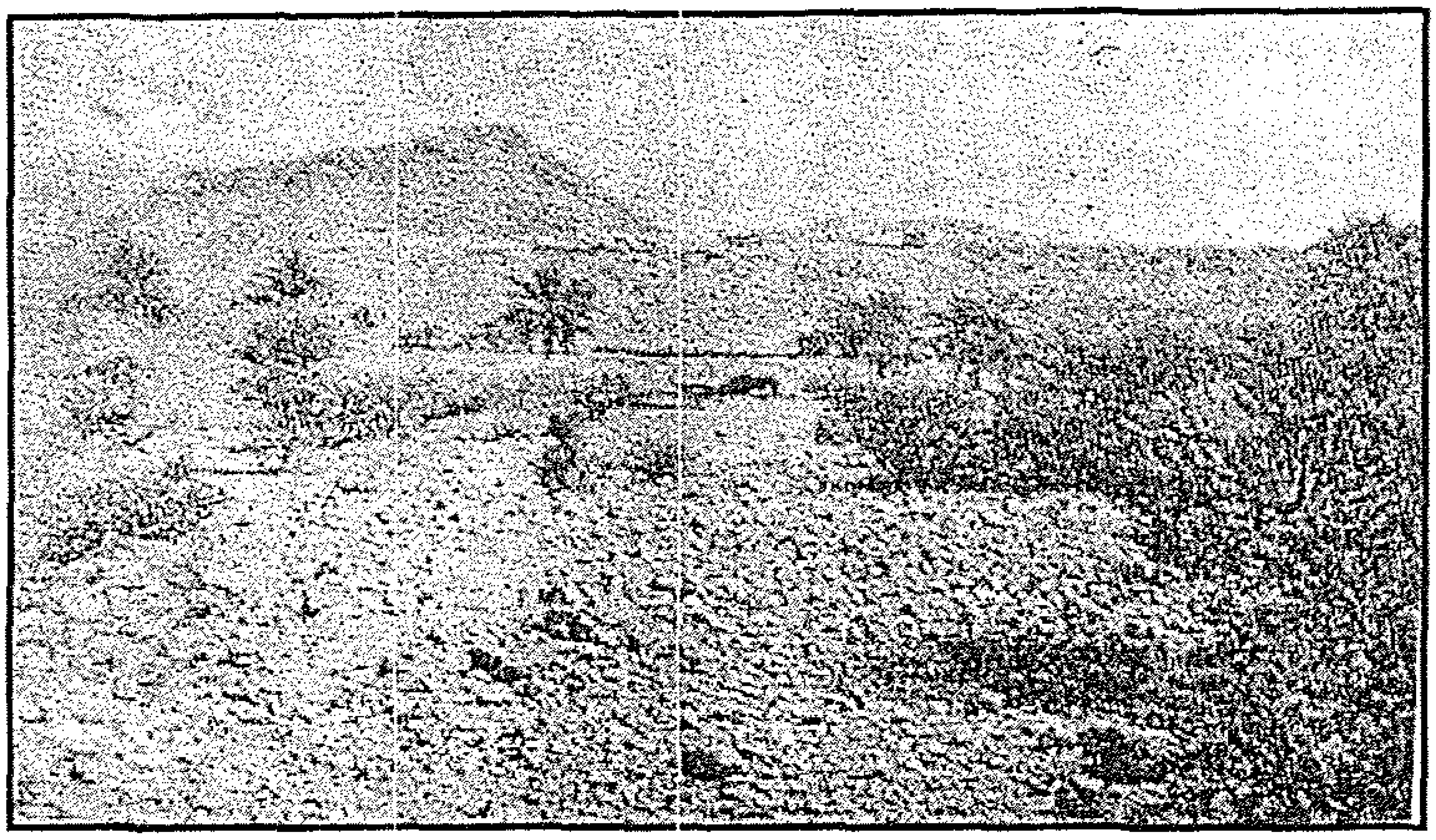

حصن الدوبار الذي بناه المصريون ولا يزال يحرس المنبع إلى اليوم

وكان الصوماليون يهتمون بالمشايخ الذين كانوا يفدون إلى بلادهم لتنشيط الناحية العقائدية عندهم. ولم يكن الاهتمام للشيخ في أثناء حياته بل تعدى ذلك إلى بناء المقابر التي تليق بالشيخ الذي يحبوه، وتقدم المزارات لهذا الشيخ في حياته وبعد مماته.

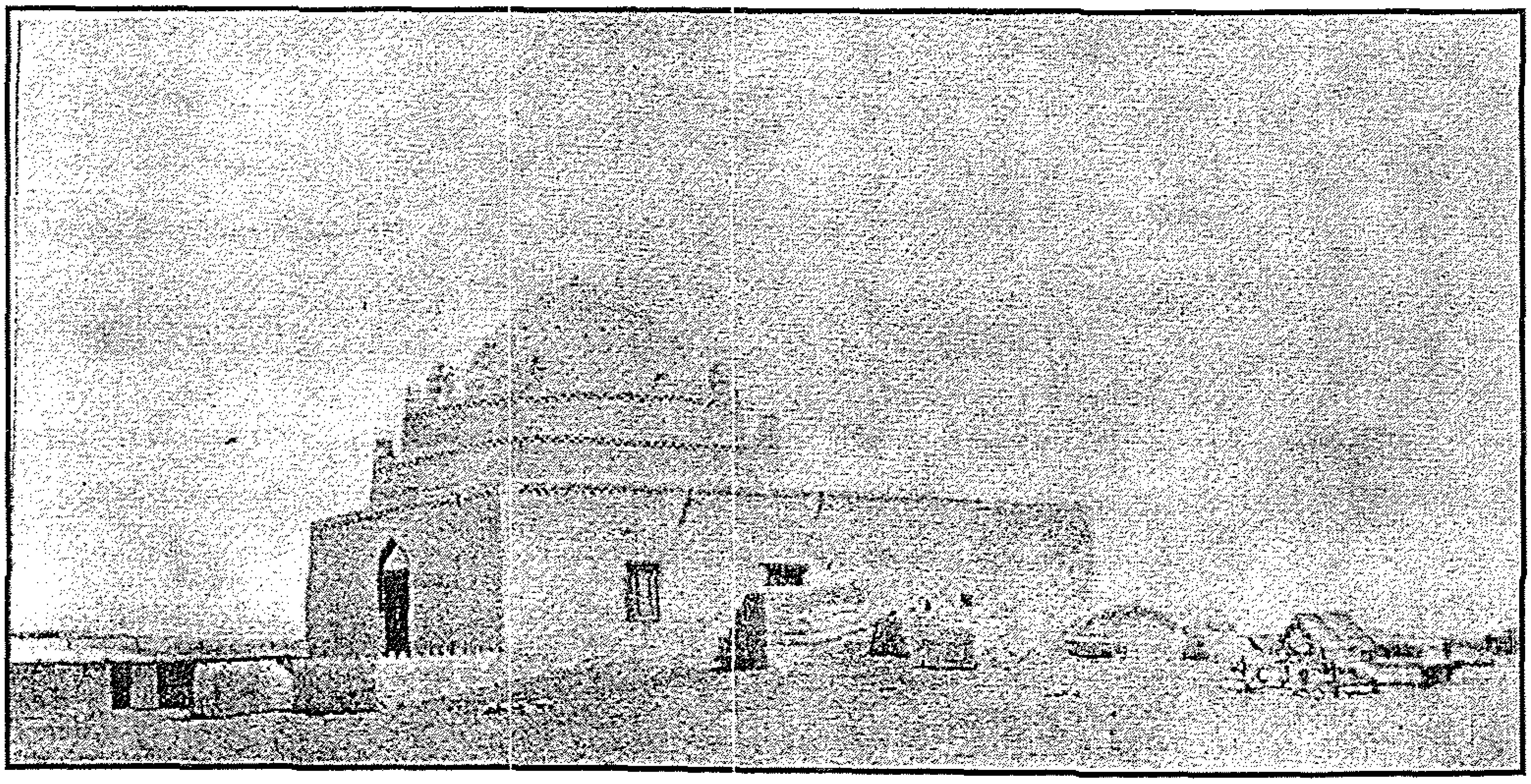

مقبرة الشيخ إبراهيم بزيلع

ولا شك في أن استقرار الصومال ببربرة عقب حياة التنقل والنزاعات الدموية قد أذاع صيت مصر في هذه البلاد وكان خديوي مصر يلقب بالسلطان إسماعيل وصارت سلطنة تشمل جميع قبائل الساحل رغماً من المعاهدات الكثيرة التي كانت قد أبرمت بين الدول الأوروبية مع مشايخها.

وقد بعث "جمس قنصل إنجلترا" في عدن تقريراً إلى حكومته في ٢٤/ ١٢/ ١٨٨٤م يقول فيه "يجب أن تعترف بأن الصومال والدناكل والعرب في جميع خليج عدن سواء كانوا مستقلين أو تحت الحماية الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية يرفعون أعلاماً فوق سفنهم وفوق منازلهم ومقابرهم لا يشك الناظر إليها في أنها مصرية".

وفي حقيقة الأمر أن المصريين الذين بنوا مدينة الخرطوم وأقاموا وطنًا للحضارة في قلب إفريقيا على أنقاض عشش يملكها صيادو السمك هم الذين أسسوا بربرة".

وكتب قنصل فرنسا "جبرائيل قيران" إلى حكومته - ثم صار وزيراً مفوضاً فيما بعد - على أثر زيارة له لبربرة في ١٨٨٣م قال في تقريره "أنشأ المصريون في بربرة بمعزل عن الحي الوطني مدينة إفريقية بثغرة نضرة ونعيم وأتوا بالماء من جبل الدوبار الذي يبعد ١٢ كيلو مترًا من الساحل وأقاموا مبان من محافظة ودارًا للشرطة وسجنًا وبيت الحاكم على الطراز الأندلسي بداخله حديقة لإقامة الزوار الغرباء، وكان أسلوب البناء مطابقاً لمقتضيات الجو وحره المستمر.

وكانت العناية توجه كل يوم لتنضير قطع الرياض والزهر وزراعة الخضروات طوال السنة. وكان الميناء يزينه روضة نضرة وفسقية ذات روعة تنبت بضروب مختلفة من المرجان..وتوجد منازل مصرية.

وانتعشت التجارة في زيلع وبلهار وتاجورة لسببين هما التحصينات التي أدخلها المصريون في كل منهم، كما كنت أبدي الشر من الصومالين فيهم. وقد تم فتح طريق القوافل الذي يمر "بأوسه وشوا".

أرسل إسماعيل "موتنستجر" على رأس حملة للاستيلاء على بعض بلاد الصومال. فتمكن شيخ "أوسة" وحلفاؤه الأحباش من استدراجه إلى الصحاري وقتله عند بحيرة أوسه عام ١٨٧٥م، وأرسل حملة أخرى إلى ساحل المحيط الهندي برياسة "ماك كبلوب باشا" و "رضوان باشا حكيمدار بربرة وهدف هذه الحملة اكتشاف ما وراء نهر الجب باعتباره جزءاً من بلاد الصومال التي كانت في حوزة المصريين ووصل هذه المناطق بالبحيرات في (سبتمبر- ديسمبر ١٨٧٥م).

ولقد كتب لهذه الحملة النجاح في احتلال مدينتي إبراوة وقسمايو" اللتين في حوزة سلطان زنجبار الذي قدم احتجاجه إلى مصر عن ذلك وقد ساندته إنجلترا بالرغم من أن قبائل وشيوخ هذه المناطق طالبوا بالحكم المصري.

واستجابة لسلطان زنجبار صدرت الأوامر فوراً للقوات المصرية بالانسحاب بعد أن قام المهندسون المصريون بالأخص "عبد الرازق بك" بأعمال في غاية الدقة في فترة قصيرة.

أرسل رضوان باشا مذكرة إلى الخديوي إسماعيل في ١٧/ ٩/ ١٨٧٥م ذكر فيها "إن هذه الأعمال في منطقة الجب.. منها إنشاء بستان مساحته فدان" وقال "إن الأشجار كثيرة على ضفاف النهر وإن خشبها يشبه الخشب الذي يرد من تركيا إلى مصر".

ولذا طلب إرسال حطابين ونجارين وبنائين لبناء المنازل وأرسل "ماك كيلوب باشا في ١٢/ ١٢/ ١٨٧٥م كتاباً يذكر فيه "أن عبد الرازق بك طلب ٣١٢ رجلاً من جميع الحرف والمهن من أطباء ومهندسين ونجارين وزراع وخبازين وأشياء أخرى كثيرة.

وقام عبد الرازق بك باكتشاف نهر "الجب" فوقف في وجهه الإنجليز ولم يعطوه أية مهلة لإتمام مشروعاته.

والخلاصة أن موقف بريطانيا في وجه التقدم الحضاري المصري في هذه الأصقاع مما يؤسف له كل الأسف، فدولة كبيرة في ذلك الوقت تقف في وجه الحضارة هذا شيء كبير وله أثره على حياة سكان هذه المناطق فسكانها من قبائل وشيوخ صومال كانوا في حاجة ضرورية ومُلحة إلى الحضارة المصرية.

التواجد المصري في هرر:

بينما كان التواجد المصري بقواته وقياداته على سواحل خليج عدن والمحيط الهندي بعث إسماعيل " محمد رؤوف باشا" على رأس حملة مصرية إلى زيلع وعند وصوله إليها ما لبث إلا فترة قليلة فيها ثم تحرك في ١٧/ ٩/ ١٩٧٥م إلى هرر لاحتلالها وكان عليه أن يجتاز الأراضي الصومالية، وهو في طريقه لم تعترضه أية عقبات إلا عند "جورجودا" على الحدود الحبشية حيث كان الطريق ضيقاً فوجد قبائل الجالا قد بذلت جهوداً جبارة في سد الطريق والوقوف في وجه الحملة المصرية والمد الحضاري المصري. وتمكنت القوات المصرية أن تخترق هذا الطريق وتهزم هذه القبائل والدخول في هرر في ١١/ ١٠/ ١٨٧٥م.

تقع مدينة هرر في سهل ذي تربة خصبة يحيط بها تلال ذات خضرة جميلة يعلوها شجر البن والقات (وهو نبات مخدر) ويكاد يكون منتشرًا في الحبشة وقد نقل اليمنيون شجر القات إلى أرضهم وما زالوا يتعاطوه كمادة مخدرة.

وعدد سكان هذه المدينة ثلاثون ألف نسمة مسلمون على المذهب الشافعي، وكان يحكمها أمير مستبد هو "محمد بن عبد الشكور" حرم بعض المأكولات على سكان هرر مثل الأرز، والبلح، والثريد بحجة أن هذه الأطعمة من حق الملوك وليس من حق عامة الناس وكان هذا الأمير قد طبق نظام الاحتكار على التجارة خاصة على تجارة العاج وريش النعام والبن حيث يزرع في ضواحي المدينة، مما يثير الضحك أنه حرم على

السكان تغطية رؤوسهم ليتعرضوا لتيارات البرد والحر وبلغ من وقاحته إذا هم بالبصق على الأرض تسابق كل الحاضرين إلى تقديم أكمام قمصانهم ليمسح من على فمه الرذاذ الذي يتناثر منه.

الحكام المصريون وأهم أعمالهم التي قاموا بها

١- رؤوف باشا:

ألغى نظام الحكر كله في هرر واهتم بالزراعة وتطويرها وحث سكان هرر بعدم ترك الأراضي تبور، ووزع الأراضي بين الفلاحين فكان نصيب العمدة ٥ بقرات وقفطاناً من الشيت وطاقية وعمامة من قماش بفتة بيضاء ومنحة ١٠٠٠ فدان لاستثمارها.

أما شيخ البلد منحه أربع أذرع من القماش و ٥٠٠ فدان وحارب الفوضى والبدع وإراقة الدماء وحارب قبائل الجالا وضربهم بيد من حديد، وبث تعاليم الإسلام الصحيحة، وحارب الأمية بين القبائل المسلمة وعلمهم القراءة والكتابة العربية.

ونهى السكان عن اتباع العقائد الهمجية وكف أيدي الصوماليين عن قتل الجالا، وأعاد الأمن، وتسهيل تجارة القوافل عبر الطريق الذي يصل هرر بزيلع وجعله صالحًا لسير العربات وأنشأ عليه محطات عسكرية مزودة بالماء واعتنى بالصناعات المحلية وعمم الملابس المحلية بين الموظفين، ووضع برنامجًا واسعاً للمنشآت اللازمة لتحميل المدينة وتوفير أسباب الرفاهية والعمران فيها واستعان بالجند لتشييد معظم المباني الحكومية وبيوت الموظفين وبعد ثلاث سنوات من هذه الإصلاحات الكثيرة نقل الصوماليون من درجات التخلف إلى درجات الرقي الإنساني بفضل رؤوف باشا الذي أسس الحضارة المصرية في هذه المنطقة. وفجأة غادر هرر ١٨٧٨م على أثر خلاف دب بينه وبين "غردون" حكيمدار السودان وكان لهذا الموقف أثره على نفوس الصوماليين وبعثوا العديد من الشكاوى ولم تلتفت الحكومة المصرية إليها.

٢- رضوان باشا

تم تعينه على أثر مغادرة رؤوف باشا وكان من حكمته أنه تابع إصلاحات رؤوف باشا وسياسته في التعامل مع الصوماليين فبنى حوضاً كبيراً في المدينة وكان يجلب الماء من بئر قريبة من المدينة ومنع تعاطي المخدرات وهاجم كل من أدمن عليها.

٣- محمد نادي باشا

لا نعرف الأسباب التي استبعدت رضوان باشا لكن فجأة عين محمد نادي باشا في يونيه عام ١٨٨٠م خلفاً لرضوان باشا ويمتاز محمد نادي بأنه حاكماً يحب بلاده، ومن أهم أعماله عين "أحمد بك وعدي" رئيساً لأركان حرب الجيش ونجح في إدخال قبائل كثيرة تحت سيطرة الحكومة المصرية.

٤- علي رضا باشا

كان آخر الحكام المصريين في هرر وجاء تعيينه خلفاً لمحمد نادي باشا وإليه يرجع الفضل في مطاردة المشعوذين والذين يدعون الطب عن جهالة ويعرضون المرضى للموت في النهاية. وانتقل الصومال إلى مرحلة أخرى تتمكن من خلالها تكوين وحدة وطنية

هذه الصومال ودور المصريون فيها الذي يشهد لهم التاريخ للأخذ بيد الشعب الصومالي من الجهالة إلى النور.

امبراطورية محمد علي

الباب الثاني

تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة مصرية في عهد محمد علي باشا

القرن التاسع عشر

حرب المورة - حرب الشام الأولى - حرب الشام الثانية

الفصل الأول

الدولة العثمانية في الفترة ما بين ١٨١٩م - ١٨٢١م

قبل أن أعرض تحليلاً وتفسيراً عن أحداث الثورة اليونانية وأسبابها ونتائجها في المجال الدولي والمجال العثماني والمصري في الفترة ما بين اندلاع هذه الثورة إلى بداية القرن التاسع عشر. وموقف السلطنة العثمانية الحربي والسياسي منها، عليّ أن أوضح القدرات العثمانية في المجالين الحربي والسياسي فقد قامت الدولة العثمانية المترامية الأطراف سواء في القارة الأوروبية أو الشرق العربي وقيامها كان بالسيف، فبالسيف فتحت الدولة العثمانية أقاليمها، وبفضل ما استولت عليه من أملاك أصبحت الدولة العثمانية امبراطورية عظمى يعمل حسابها بين الامبراطوريات الأوروبية التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر والغريب في هذه الفتوحات العثمانية أنها وضعت يدها على دول غريبة عنها في صفات كثيرة، فلم يكن يربطها إلا روابط ضئيلة، فلا دين يجمع بينها ولا الألفة ولا الجنسية ولا التقاليد وبعد مرور سنوات كثيرة من هذه الفتوحات دب الضعف الشديد في أوصالها. واندلعت الثورات في أقاليمها "الأفلاق والبغدان وبلاد الصرب وبلاد اليونان وبلاد الأرناؤوط كما أن بعض الدول الأوروبية خاصة إنجلترا وفرنسا وروسيا وقفت تساند هذه الثورات خاصة روسيا ، وقفت من الدول العثمانية موقف العداء المستمر، بل أكثر من ذلك انقضت على جزء منها ولولا وقوف الدول الأوروبية المعادية لروسيا لكانت معظم الأقاليم العثمانية خاصة المجاورة لروسيا في قبضة الروس.

شهدت الدولة العثمانية عند اندلاع ثورات الأفلاق والبغدان والصرب واليونان نشاطاً كثيفاً وميداناً خصباً لمؤامرات الجاسوسية الأجنبية التي تحركها في الخفاء الثورات والدول التي تساندها وعلى رأسها روسيا. وكان الطابع الجاسوسي يمثل شكلين أولهما الحرب والآخر جمع المعلومات عن الاستعدادات الحربية سواء كان ذلك داخل أقاليم الدولة العثمانية أو خارجها. ومن النشاط التخريبي الذي قامت به الجاسوسية هو الحريق العظيم الذي اندلع في يناير ١٨٢٠م ومن نتائجه أن خسرت الدولة العثمانية تدميراً في منازلها وفي مخازن محمد علي باشا في الآستانة والذي كان وكيل محمد علي يقوم بتخزين البضائع فيها ، ولقد بذلت الدولة العثمانية مجهودات كثيرة وخارقة للغاية في إخماد هذا الحريق ولولا هذه المجهودات التي قام بها وكيل محمد علي وأعوانه لأكلت النيران بضاعة محمد علي، ولقد تكبد محمد علي خسارة كبيرة من جراء هذا الحريق.

بالإضافة إلى الأموال التي أنفقها وكيله في حماية مخازنه ومنع النيران من أن تصل إلى بضاعته[١].

ولم يكن هذا الحريق وحده فهناك العديد من الحرائق التي اندلعت في بعض الأماكن من الآستانة في مارس ١٨٢١م وكان من نتائجها خسارة كبيرة تحملتها الدولة العثمانية[٢].

ولم تكن الأعمال التخريبية التي حدثت في العاصمة العثمانية وإنما وصل الأمر إلى أعظم من ذلك بأن اشترك الدبلوماسيون الروس في سبتمبر ١٨٢٠م في الآستانة بالأرواح، فقد قتل السفير الروسي وأعوانه رجالاً من الريف العثماني[٣].

(١) انظر الوثيقة رقم (٢٢) في دار المحفوظات بالقاهرة.

(٢) انظر الوثيقة رقم (٨) في دار المحفوظات بالقاهرة.

(٣) انظر الوثيقة رقم (٦٣) من دار المحفوظات بالقاهرة.

أما عملية جمع المعلومات عن الاستعدادات العثمانية كان يقوم بها مفتشو القنصليات الروسية في الولايات العثمانية. ولم يضبط هذا المفتش العام للقنصليات إلا عندما دخل مصر في ديسمبر ١٨١٩م وبعث محمد علي تقريراً عنه إلى الآستانة موضحاً فيه الأعمال التي كان يقوم بها هذا المفتش الروسي في الولايات العثمانية(١).

وكانت الجاسوسية قد تألفت من شبكة يقودها "قسطاكي" الذي يقوم بالترجمة في الديوان السلطاني لصالح ثورتي الأفلاق والبغدان، وقد تم القبض على أعضاء الشبكة في إبريل ١٨٢١م وقائدها ووضح جلياً للدولة العثمانية ما كانت تحصل عليه هذه الشبكة من معلومات.

أما الأخطر من ذلك أن وضعت السلطنة العثمانية يدها على شبكة أخرى في الآستانة كان يقودها "بطريق الروم لصالح الثورة اليونانية فلما قبض عليه صدرت الأوامر بإعدام قائد الشبكة وأعوانه وكذلك شبكة قسطاكي وتم الإعدام شنقاً على باب كنيسة الروم في الآستانة(٢).

وحاولت المقاومة الشعبية العثمانية في الآستانة الانتقام من اليونانيين الذين كانوا في حالة اتهام للأحداث التي ظهرت في العاصمة العثمانية، لكن الدولة منعت حدوث مثل ذلك(٣).

وفي عام ١٨٢٠م دخل علي باشا المرعشلي "الوالي العثماني في الصرب" في معارك كثيرة ضد الثورة الصربية. وضغط الثوار الصربيون على قوات علي باشا مع مساندة روسيا للثوار فاضطر علي باشا أن انسحب إلى بغدان وتحصن بها.

---

(١) انظر الوثيقة رقم (١٨) في دار المحفوظات بالقاهرة.

(٢) انظر الوثيقة رقم (٩٨) في دار المحفوظات بالقاهرة.

(٣)انظر الوثيقة رقم (١١٩) في دار المحفوظات بالقاهرة.

فقامت السلطنة العثمانية بإمداده بالأسلحة والذخيرة والجند ولكن في تلك الآونة انتشرت الشائعات في الآستانة بأن علي باشا البغدان قد قتل[1].

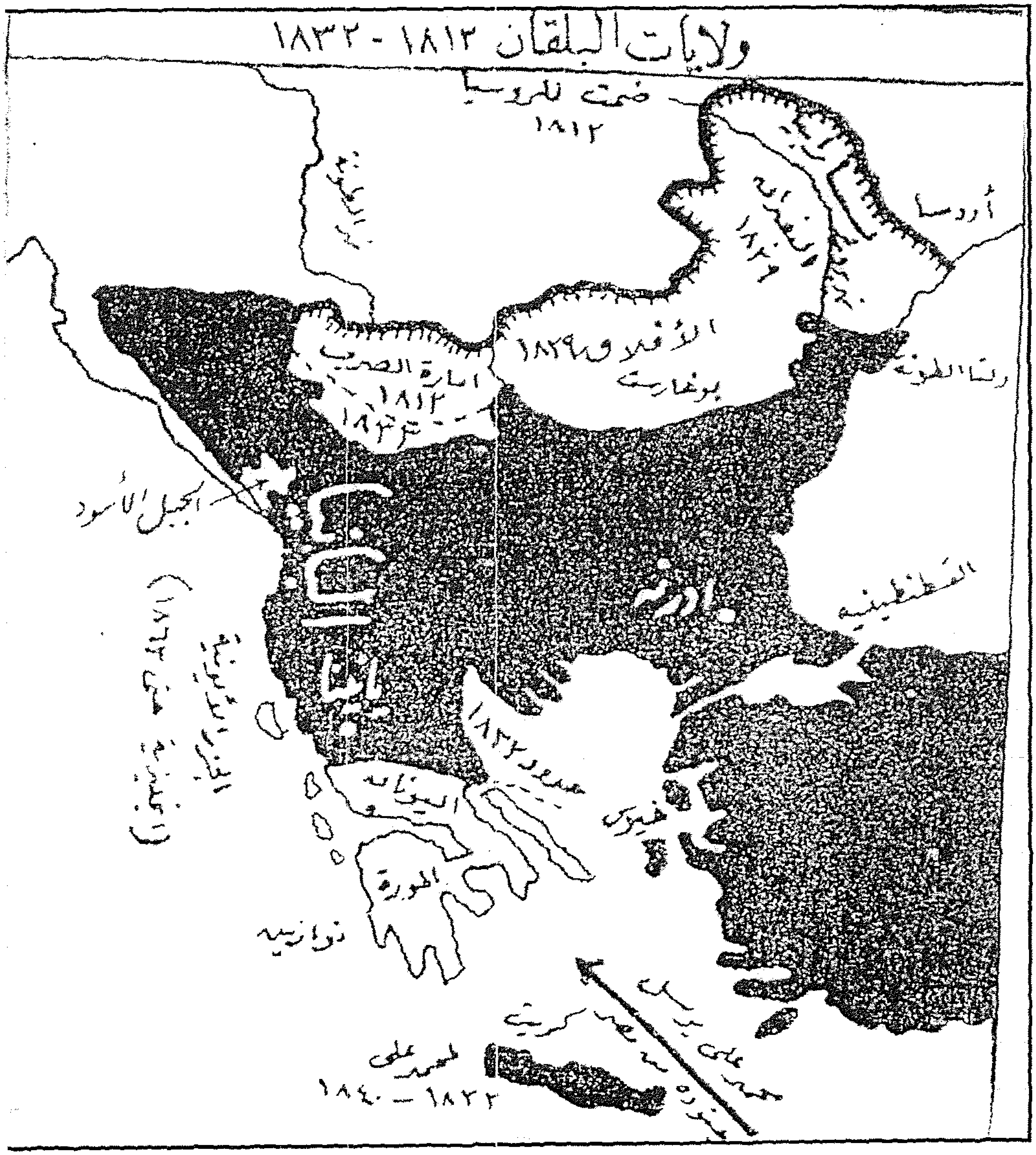

(١) انظر الوثيقة رقم (٦٨) في دار المحفوظات بالقاهرة.

وعند اشتداد الثورة في ولايتي "الإفلاق والبغدان" بفعل الروس اضطرت الدولة العثمانية إلى اتخاذ إجراءات حربية وأمنية في هاتين الولايتين لحماية المسلمين فيهما من الإبادة وأعدت أسطولها لقتال لم يحدد مكانه[1].

هاتان الثورتان الأفلاقية والبغدانية لم تكن الوحيدتين إنما كان في نفس الوقت ثورات في بلاد اليونان وبعض جزر بحر إيجة والبحر المتوسط وكان على الدولة العثمانية أن تواجه هذه الثورات بشدة حرصاً على عدم ضياع أملاكها في تلك المناطق. وأن تكون المواجهة مع هذه الثورات في وقت واحد ولكثرة ميادين القتال اضطرت الدولة العثمانية أن تستعين بواليها في مصر وهو "محمد علي باشا" ليقاتل عنها في تلك الميادين.

وصدرت فتوى من دار الإفتاء العثماني بأن العصاة في الولايات الثائرة يتعاملوا معاملة الكفار المحاربين لنقضهم عهد الذمة.

وبهذه الفتوى الشرعية أصدرت السلطنة العثمانية أوامرها إلى "خورشيد باشا" بإرسال الجند فوراً إلى تلك المنطقة خلال الطرق البرية[2].

وكانت حالة الدولة العثمانية خاصة العاصمة قد تهوي في بحر من الجوع لحصارها ولذا أصدرت الدولة العثمانية أوامرها إلى محمد علي بأن يضاعف إرسال الغلال من مصر للدولة العثمانية وأن يقوم بإرسال سفنه لمساندة العثمانيين في القتال[3] كما نبهت محمد علي بأن يفرض حظراً على الغلال حتى لا تصل إلى أيدي الأعداء.

---

(١) انظر الوثيقة رقم (٨٠) في دار المحفوظات بالقاهرة.

(٢) انظر الوثيقة رقم (٨٣) في دار المحفوظات بالقاهرة والأوامر التي صدرت من الباب العالي إلى محمد علي باشا في إبريل ٢١ إبريل ١٨٢١.

(٣) انظر الوثيقة رقم (٨٥) في دار المحفوظات بالقاهرة من الباب العالي لمحمد علي في إبريل ١٨٢١.

ورغم كل هذه الاستعدادات التي قام بها العثمانيون لمواجهة الثورات لكنهم كانوا في خشية من أن تتم مواجهة بين الأسطول الروسي والعثماني فيوجه الأسطول الروسي ضربة قاصمة غادرة إلى الأسطول العثماني ولذا أشاعت في العاصمة العثمانية بأن الأسطول العثماني لم يخرج من الدردنيل في هذا العام وأنها أعدت حملة حربية مكونة من السفن المصرية والعثمانية لنفس الغرض.

وجاءت أخبار الجيوش العثمانية في بلاد المورة بأنها حققت العديد من الانتصارات. وبيد هذه الجيوش قد دفعت الموت دفعاً شديداً إلى اليونانيين- فسقطت أعداداً كثيرة من القتلى في صفوف الثوار اليونانيين.

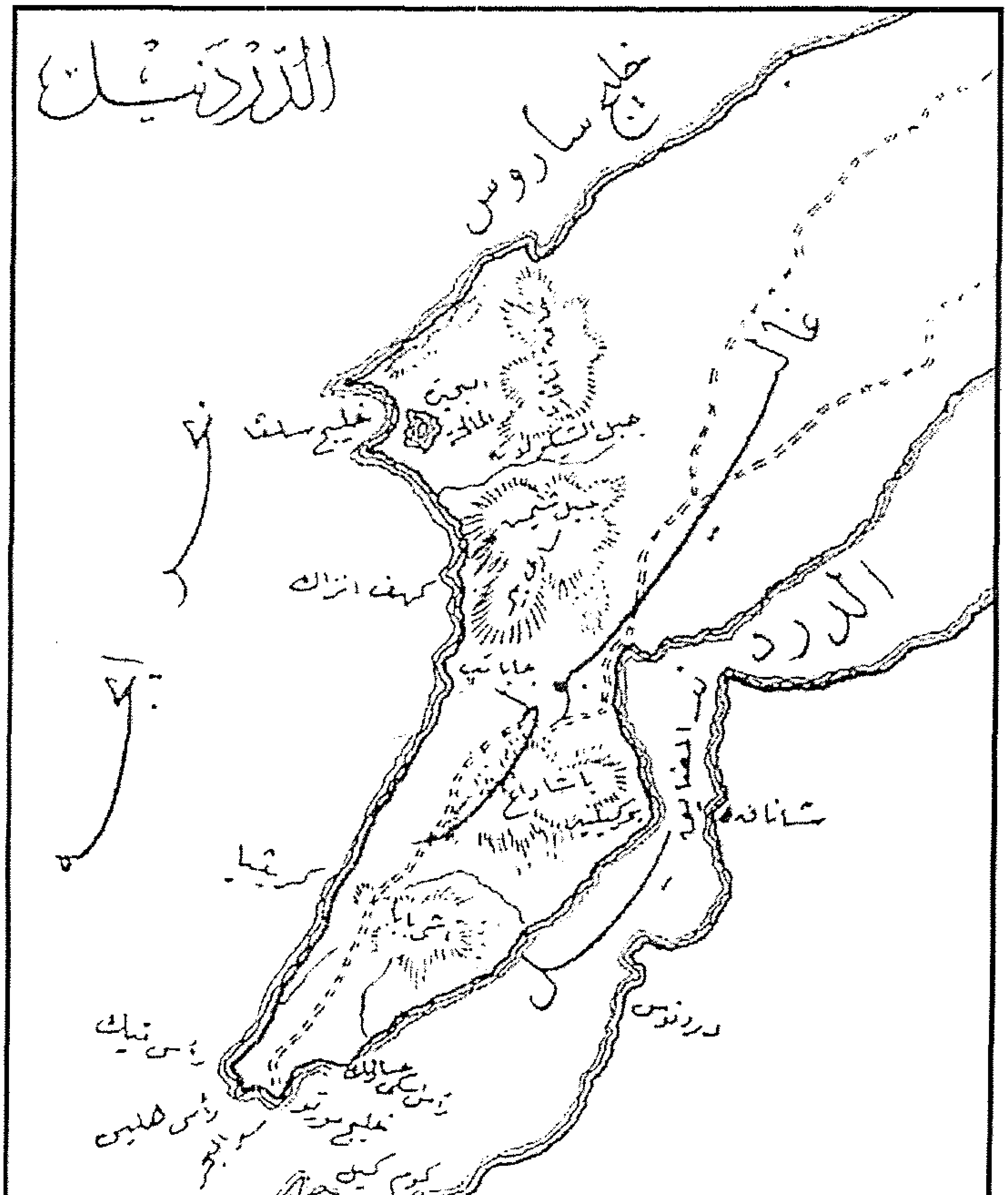

وهذه الأحداث قد دفعت السفير الروسي أن يقدم احتجاجاً شديد اللهجة إلى الحكومة العثمانية واصفاً المذابح التي اقترفتها القوات العثمانية في بلاد المورة متجاهلة أن هؤلاء القتلى سقطوا في ميدان الحرب وأن عددًا من رعايا الدولة العثمانية المسلمين قد قتلهم اليونانيون في غير ميادين القتال ولم تحرك روسيا ساكناً.

وترجع انتصارات الأسطول العثماني إلى اشتراك القوات الأرناؤوط في الحرب مع العثمانيين لأن بلادهم على الساحل وقد سببت هذه الانتصارات في الدوائر الروسية شيئاً من القلق الشديد مما اضطررت روسيا أن تهاجم المواقع العثمانية على الحدود بين الدولة العثمانية وبين الأفلاق والبغدان وبالإضافة إلى ذلك أخذت روسيا تجمع الزعامة اليونانية ومدها بشيء من المعونات ليقوموا بالثورة من جديد ومن بين هؤلاء الزعماء " تيودوري Teudury" الذي أعلن ثورته في الأفلاق وتجمع حوله الكثير من الساخطين الحاقدين على الحكم العثماني وأخذوا في العبث بالأمن والنظام، وبهذه الجموع الساخطة تمكن "تيودوري" من السيطرة على مدينة " قلاص" وقتل جميع المسلمين وكان ذلك في يونيو ١٨٢١م ووصلت درجات الحقد عنده على المدينة فأحرقها بمن فيها.

وزعيم آخر عاش في أحضان روسيا بعد فراره من أحكام عقوبات عليه في الدولة العثمانية. ظل في الأحضان الروسية الدفينة حتى ظهر عندما وافته الفرصة على حدود البغدان وقد تجمع حوله العديد من أنصاره فكون منهم جيشاً عبر به نهر "بروت" واستطاع بهذا الجيش أن يدخل مدينة "بانتي" في يونيو ١٨٢١م فانضم إليه زعيم آخر "ميخائيل" وهو من الباشاوات المسيحيين الذين تقلدوا حكم الولايات العثمانية باسم الدولة العثمانية. وكانت ولاية البغدان تحت حكمه فأعطى بانضمامه قوة دفع شديدة إلى الثوار وبهذا يعني أن تفقد الدولة العثمانية سيطرتها على هذا الإقليم وبذلك تختفي هيبتها من الوجود.

وبهذه الانتصارات التي حصل عليها زعماء الثوار أغرت الزعيم الثائر الكساندري بأن يعلن بأنه سيقوم باستعادة مجد الدولة الرومانية البيزنطيبة في أوروبا وآسيا ولو أدى ذلك إلى القضاء على العثمانيين.

استدعى الباب العالي سفير روسيا في الآستانة لمعرفة موقف حكومته مما يجري في الأفلاق والبغدان وكان رد السفير بأن حكومته لا دخل لها في هذه الأحداث ولكن راضية عليه[1].

وأن رد السفير الروسي لم يقنع الباب العالي بل جعله يؤكد أن دول أوروبا خاصة روسيا لا يؤمن جانبهم. ولذا سارعت الحكومة العثمانية بإصدار قرار بأنها عهدت إلى محمد علي بحرب الجزر والمورة واستئصال الجذور الثورية في بلاد اليونان وفرضت على أوجافات الغرب (طرابلس والغرب وتونس والجزائر) مساعدته في ذلك، أما الحكومة العثمانية فقد بادرت بحشد أكبر قوة من فرسانها ومشاتها في الأناضول ووضعت كثيراً من المدافع والذخيرة والمؤن على نهر الطونة "الدانوب" وبهذا يكون النهر في حالة طوارئ وعلى وضع استعداد وهيأت كل ذلك حتى تعبر القوات العثمانية النهر وتنتشر في الأفلاق والبغدان والقضاء على ثوراتها وحماية الحدود العثمانية من الهجوم الروسي بين فترة وأخرى.

وعلى الفور أصدرت وزارة الدفاع العثمانية قراراً بأمر لمحمد علي أن يرسل بوجه السرعة الكثير من البنادق وكميات من الأطنان الذخيرة تدعم به القوات العثمانية المقاتلة في البغدان وحثته على أن يسير قواته وأسطوله إلى الجزر والمورة[2].

وقد حققت القوات العثمانية انتصاراتها في شبه جزيرة المورة وأغربيوز وهو إقليم يقع في جنوب ألبانيا على الساحل الشرقي من تساليا وسط اليونان ويطل على البحر الأيوني

---

(١) انظر الوثيقة رقم (٢٨٤) من دار المحفوظات بالقاهرة.

(٢) انظر الوثيقة رقم (٢٤٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة.

بينما نجحت ثورتا الإفلاق والبغدان في منع إرسال الحبوب المقررة على هاتين الولايتن من الدولة العثمانية لحصارها للطرق البحرية التي تصل بين مصر والدولة العثمانية فظهر الغلاء في أبشع صورة وكشر الجوع عن أنيابه ليغتال بعض الأرواح البشرية ولكن محمد علي باشا تمكن أن يدمر الحصار البحري باتحاد قواته مع القوات العثمانية.

وتمكنت القوات العثمانية من أن تشتبك في معركة طاحنة مع القوات الثوار فانتصر العثمانيون على جيوش الكسندري والتي سحقته وتمكن العثمانيون من الاستيلاء على مدينتي نجارست وبانني واستردت الدولة العثمانية نفوذها على هاتين الولايتين، وقد انتصرت القوات العثمانية في المورة واستردت جزيرة سيسام التي تقع بالقرب من الساحل التركي الغربي المطل على بحر إيجة على اتجاه "أبدين" وما بين أزمير وخليج "بور روم" ولقد كانت جزيرة سيسام قاعدة منعدمة للأسطول اليوناني في بحر إيجة ثم اتخذ الأسطولين المصري العثماني وقد استطاع الأسطولان الانتصار في المعارك البحرية وعلى سواحل المورة.

وقد دفعت هذه الانتصارات روسيا دفعاً قوياً أن تدعم اليونانيين تدعيماً حرفياً كبيراً وشجعتهم على مواصلة القتال. وهدد السفير الروسي الحكومة العثمانية بقطع العلاقات معها فأصبح الموقف السياسي بين الدولتين ملتهباً للغاية وربما ينذر الحكومتين الروسية والعثمانية على وقوع حرب بينهما. ولهذا الموقف الذي ينذر بنشوب القتال قامت الحكومة العثمانية بمواصلة حشودها ودعمها لجبهة البغدان بالأسلحة والذخيرة ومعدات الحرب والمؤن. كما امتدت طوابيها وقلاعها بأحدث المدافع وعملت على تشديد الاستحكامات.

ما موقف السلطان العثماني وحكومته في أبيروس وبلاد الأرناؤوط؟

ظهر في بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) قائد يدعى "على الأرناؤوطي استطاع بقدراته وإمكانياته أن يقضي على الفتن ويؤمن الطرق ما بين "أبيرونس الشمالية" وجبال

الأرناؤوط فأنعم عليه السلطان بلقب "الباشا" وقد تمكن من طرد الفرنسيين من مدينة براوزة "بريفينزة" واستولى على كعب إيطاليا "تورانيو" فبدد أحلام نابليون حول إحياء دولة البندقية.

وفي عام ١٨٠٣م صدرت له الأوامر بالقضاء على ثورة مقدونيا التي كانت تساندها روسيا فسار إليها علي باشا في ثمانين ألف مقاتل فقضى عليها وأعاد النظام كما كان من قبل. وبهذا أخذ الغرور بقلب هذا القائد فنزعت نفسه إلى إقامة دولة مستقلة عن الامبراطورية العثمانية وبدأت بوادرها في إقليم أبيروس فامتنع عن دفع المقررات المالية للدولة العثمانية وجهز لقتالها العدة والعتاد وأضاف إلى ذلك إرسال بعض أتباعه ليقاتلوا بعض الحكام. ثم أعلن انفصاله عن الدولة واتصل بالثوار اليونانيين لينضم معهم بالثورة ضد السلطة العثمانية، فاضطرت الحكومة العثمانية أن تعد إليه حملة أطلق عليها "حملة تأديب لإخماد ثورة أو فتنة علي باشا" (١) ولا نعرف الأسباب التي أدت إلى تأجيل هذه الحملة إلى "بابيه" إلى ما بعد فصل الشتاء، والتأجيل له أسباب وخيمة إذ أن إسماعيل باشا الذي كلفته الحكومة العثمانية أن يتصدى لعلي باشا حتى تصله الحملة التأديبية لكن القدر لعب دوره في ذلك إذ أن جيش إسماعيل الصغير لم يقو على الوقوف أمام جيوش علي باشا فهزم جيش إسماعيل الذي أصيب برصاصة قاتلة فاضطر السلطان محمود الثاني إلى عزل كتخدا الصدارة وتحديد إقامته (٢).

وأصدر السلطان محمود الثاني فرمانًا بتولية خورشيد باشا قيادة الجيوش العثمانية التي تقوم باستئصال جذور علي باشا المتمرد وأتباعه وتمكن خورشيد أن يحوز بعض الانتصارات في أبيروس والمورة ويرجع ذلك إلى وجود وحدات الأسطول العثماني بالقرب من أبيروس وبلاد الأرناؤوط بقيادة علي بك قبودان.

(١) انظر الوثيقة رقم (٦٦) من إبراهيم أغا إلى محمد علي في أكتوبر ١٨٣٠ بدار الوثائق القومية بالقاهرة.
(٢) انظر الوثيقة رقم (٨٢) في إبريل ١٨٢١ دار الوثائق القومية بالقاهرة.

وقد تمكن الثوار اليونانيون من العودة إلى بسط نفوذهم على الطرق البحرية في بحر إيجة والبحر المتوسط فزاد فسادهم لدرجة لا تطاق فاضطر السلطان العثماني أن يصدر قراراً إلى علي بك قبودان بأن ينسحب من سواحل الأرناؤوط إلى سواحل المورة لينضم مع المقاتلين العثمانيين وبهذا العمل فك الحصار عن علي باشا الذي استولى على مدينة "باينة" في أكتوبر ١٨٢١م وقد أثر ذلك على موقف خورشيد باشا الذي أصبح مزعزعاً للغاية، فطلب من السلطان إمداده بالجنود على وجه السرعة واستطاع أن يحاصر "باينة" عاصمة أبيروس ودب اليأس في قلب علي باشا من حلفائه اليونايين الذين ضربوا بعرض الحائط أن يقوموا بتقديم أية مساندة له، فاضطر أن يدخل في مفاوضات مع خورشيد باشا لإنهاء حالة الحرب بشروط الدولة العثمانية فوافق خورشيد على طلبه في مارس ١٨٢٢م لكن خورشيد باشا لم يمهله إلا وقتاً قصيراً فأصدر من السلطان أمراً بقتله وبقتل علي باشا وانتهت الحرب.

ثورة جزيرة ـاشيوز

هذه الجزيرة يقابلها على ساحل مقدونيا في شمال بلاد اليونان "مدينة قولة" التي كانت موطن محمد علي والذي خرج منها إلى مصر. لذلك سعى محمد علي بكل طرقه لدى الباب منذ ١٨١٣م أن تكون هذه الجزيرة تابعة لأملاكه. وسعى أيضاً في الحصول على امتياز في مدينة قولة بأن يقيم منشآت خيرية وغذائية وفاءً منه إلى أهل المدينة وأسند إلى وكيل أعماله أن يقيم تلك المنشآت وهو " فيوكتخدا" محمد نجيب بإقامة هذه المنشآت لكن هذه المنشآت لم تقم بدورها العملي منذ أن تم إنشاؤها ويرجع ذلك إلى قيام الثورة اليونانية في عام ١٨٢٠م.

وعلى أرض جزيرة طاشيوز قامت أول مراحل الثورة اليونانية التي أشعلها عمد وأهالي تلك الجزيرة إذ وقفوا كجبهة متحدة في وجه جباة الأموال وامتنعوا عن دفع الضرائب المقررة عليهم حتى تستجاب طلباتهم وهي: عزل حاكم الجزيرة الإداري (وبوده) مصطفى أغا وأن يتعامل مأموري الضرائب بحسن المعاملة مع أهالي الجزيرة.

وتكون وفد من عمد وأهالي الجزيرة لشرح مطالبهم لدى محمد نجيب لرفع الظلم والتعسف عنهم. وطلبوا منه أن يعطيهم وصية لمحمد علي حين سفرهم إلى مصر بأن يستجيبوا لمطالبهم ويعاملهم بالحسنى لكن محمد نجيب رفض سفرهم ثم حذرهم عما يحدث لهم إذا تركوا أعمالهم في المدينة خاصة في موسم حصاد الغلال الذي صار قريباً ولكي يرضيهم كتب إلى حاكم الجزيرة رسالة أن يتعامل مع الناس برفق.

ومن ناحية أخرى أرسل محمد نجيب رسالة لمحمد علي باشا يشرح فيها الأحداث كما أرسل صورة من رسالته التي بعث بها إلى حاكم الجزيرة. ولما وصلته الرسالة بعث محمد علي باشا إلى جميع العمد في الجزيرة برسالة شديدة اللهجة ذكر فيها أن النزاع الذي حدث بين الرعية والمأمورين هو الذي أدى إلى اختلال النظام وسفر بعض العمد إلى الآستانة حيث اجتمعوا فيها " لفيوكتخدا محمد نجيب" الذي أعادهم إلى الجزيرة برسالة إلى حاكمها موضحاً بأن ترك أعمالهم في الجزيرة يعطل أعمال الحصاد. وأنه أصدر أوامره إلى مأموري الضبط والجباية في الجزيرة أن يلتزموا بقواعد الشرف والأدب ثم وجه أمره إلى عمد الجزيرة أن يلتزموا بالطاعة والنظام طبقًا لما يريد ويقرر. ويبدو من ذلك أن أهالي طاشيوز لم تعجبهم ما أدت إليه شكوتهم سوى نصائح وتحذيرات ولم يبت في أمر الشكوى بأمر إيجابي.

بعثوا بالعمدة " لاسفري Lasvry" إلى مصر للعرض على محمد علي مرة أخرى وأن يحقق لهم مطالبهم بعزل حاكم الجزيرة "مصطفى أغا" لكبر سنه وشيخوخته التي أفقدته القدرة على الإشراف على أعمال المأمورين وكف أيديهم عن الظلم وتعين حاكم غيره أن يكون عادلاً ليدبر شؤون الجزيرة. وقد استجاب محمد علي لمطالب "لاسفري" وعزل مصطفى أغا حاكم الجزيرة في شهر مارس سنة ١٨٢١م وتعين حاكم جديد يستلم أول مارس سنة ١٨٢١م ويرجع سبب هذا التحديد الزمني هو الالتزام بنظام سنة الولاية والسنة المالية اللتين كانتا تنهيان في أول مارس كل عام من النظام العثماني.

بينما كانت المحادثات تدور بين وفد طاشيوز مع محمد نجيب حول السرعة في تعيين الحاكم الجديد وجاءت أخبار أو رسالة من "متروبوليت Motiopollet" تفيد بأن مطران الجزيرة يتهم أحد أعضاء الوفد بالخيانة ويطلب القبض عليه وسجنه. ولكن وجد قبوكتخدا من الأصلح التريث وألا يتخذ عملاً تجاه هذا الاتهام حتى يتم تعيين حاكم جديد في الجزيرة. وقد وصلت الأخبار كلها إلى محمد علي بما عمله " فيوكتخدا" فاستحسنه ورضى عن سياسته.

ورغم الإجراءات التي اتخذت ضد الظلم والتعسف في الجزيرة إلا أن المأمورين والجباية ظلوا في طريقهم التعسفي الشديد مما دفع أهالي الجزيرة إلى الثورة على نظام الحكم المصري وهناك دافع آخر أساسي هو أن اليونانيين يسعون إلى تحقيق حكم مستقل عن الدولة العثمانية شاملاً جميع بلاد اليونان (المورة – تساليا- سلاتيك- مقدونيا- تراقبة- جزر بحرايجه- البحر اليوناني- الجزر العظيمة الواقعة شمال البحر المتوسط) بل إن بعض قادة الثورة كان يهدف إلى الاستيلاء على آسيا الصغرى لإعادة مجد الدولة البيزنطية القديمة.

وفي مايو سنة ١٨٢١م تمكن الثوار اليونانيون من إنزال قوات حربية كبيرة في الجزيرة واستطاعوا الثوار بها السيطرة ولم يمض وقت طويل حتى صارت الجزيرة في قبضة الثوار.

وترقب القادة العثمانيون احتمال وقوع هجوم يوناني على مدينة قولة وقيام الثورة في داخلها ولذلك أصدرت الحكومة العثمانية أمراً إلى الحاكم في قولة بسرعة تسليح الجنود غير النظاميين والمتطوعين بالأسلحة والذخيرة ليقفوا إلى جانب القوات العثمانية في مواجهة اليونانيين.

وأخيراً اضطر حاكم جزيرة طاشيوز الجديد "طيار أغا" هو ومأموره إلى الالتجاء إلى مدينة قولة. وفيها ظل يدرب بعض الجند الذين يسترد بهم محمد علي الجزيرة. فلم تصله أية إمدادات من محمد علي ولا من الدولة العثمانية.

وعلى أول هجوم من اليونانيين على المدينة اعتزل الحاكم منصبه وسافر إلى الآستانة وهناك أصر على التمسك باعتزاله لمنصبه رغم أن المقاومة في قولة خمدت ضد الهجوم اليوناني وأرغموا اليونانيين على الفرار.

ولم يتخذ " فيوكتخدا" محمد نجيب مفراً من قبول اعتزال الحاكم وعين بدلاً منه "حسن أغا" . لكن محمد علي أمر بإرجاء سفر حسن أغا إلى طاشيوز حتى يستقر الأمن وتفتح الطرق البحرية ويصبح النصر لصالح العثمانيين. وفي عام ١٨٢٢م عادت جزيرة طاشيوز إلى الإدارة والحكم المصري فيها بعد أن انتصر العثمانيون على الثوار اليونانيين في معظم المواقف والمواقع.

الفصل الثاني

القرصنة اليونانية في البحار

خطبت الثورة اليونانية منذ بدايتها التأييد الكامل من كل من روسيا التي أيدتها سياسياً بدون تحفظات إنجلترا التي ساعدتها بالأسلحة والأموال. هذا التعضيد الأوروبي أعطاها القوة والقدرة أن تصمد طويلاً في وجه الدولة العثمانية... ولما رأت السلطنة العثمانية أن قدراتها الحربية في طريقها إلى الانهيار كان من الضروري الاستعانة بمصر وأوجاقات الغرب (طرابلس الغرب- تونس والجزائر).

وقد بعث صالح باشا الباب العالي برسالة في إبريل سنة ١٨٢٢م إلى محمد علي بات موضحاً فيها موقف الدولة العثمانية في جهات متعددة في أوروبا الشرقية ووصف روسيا الواضح العداء وانفجار العصيان اليوناني في شبه جزيرة المورة وبحر إيجة، ثم ضمن رسالة أمر السلطان محمود الثاني الموجه إلى محمد علي بتسيير سفنه الحربية إلى شبه جزيرة المورة وبحر إيجة ... ثم وجه نظر محمد علي إلى أن التمرد اليوناني أخذ مظهر ثورة جامحة شملت البر والبحر وأن اليونانيين سيطروا على أتينه (أثينا) وصالة (تسمانيا) وتقع كلتاهما في المنطقة الوسطى كما سيطروا على الطرق البرية المؤدية إليهما.

وأن أهالي جزيرتي صموليجيه وجاملوبجبه انضموا إلى المتمردين اليونانيين الذين اتخذوا هاتين الجزيرتين قاعدتين بحريتين لسفنهم الحربية وتخرج السفن اليونانية من هاتين الجزيرتين لتمارس أعمال القرصنة في بحر إيجة والبحر المتوسط ضد السفن التجارية وسفن الركاب والجزر والسواحل العثمانية وإزاء ذلك أمرت الحكومة العثمانية خورشيد باشا بأن يواجه الموقف اليوناني في جزيرة المورة كما أمرت مأمور

السواحل الأرناؤوطي بأن يواجه بسفن من أسطوله في المورة ليساند الجيش العثماني بقيادة خورشيد باشا كما أصدرت مجمع الفتاوى الشرعية بالآستانة إصدار فتوى فحواها أن يعامل المتمردين في المورة وسائر بلاد اليونان والروم معاملة الكفار الحربيين لنقضهم عهد الذمة الذي أخذ منهم عند الفتح العثماني.

وفي ميادين القتال الدائرة بين اليونانيين والعثمانيين يبدو الموقف في جانب العثمانيين وأن عدداً كبيراً من اليونانيين سقطوا قتلى في منطقتي "أزرين وبادرة جق" هاتان المنطقتان في المنطقة الشمالية من جزيرة المورة. ويبدو أيضاً أن القوات العثمانية قد بسطت سيطرتها في تلك المناطق وقضت على اليونانيين ولهذا دعت الضرورة من جانب روسيا أن تقدم احتجاجها إلى الحكومة العثمانية بالباطل أن العسكريين العثمانيين قد ارتكبوا مذابح ضد الأسرى اليونانيين وبعث الباب العالي العثماني إلى محمد علي رسالة يحثه على إظهار السيطرة في البحار وتشتيت شمل العصاة القراصنة ثم ختم رسالته يقول إن النوم والراحة أصبحا حرامًا منذ اليوم على مستخدمي الدولة.

وازداد عدد السفن اليونانية وفي الوقت نفسه ازدادت المعونات الأوروبية لليونانيين خاصة من روسيا وبالتالي ازدادت أعمال القرصنة في البحار وازدادت عمليات النهب والقتل لكل سفينة سواء كانت تجارية أو ركاب. وأثارت تلك الأعمال البشعة جواً من الإشاعات ضد الثوار بأنهم لن يتوقفوا عن القتال حتى يبيد المسلمين في أوروبا ويعيد شمل الدولة البيزنطية في أوروبا وآسيا الشرقية وإزاء ذلك كثرت الرسائل التي صدرت من السلطنة العثمانية إلى محمد علي بسرعة إبراز السيطرة على البحار والتنكيل بهؤلاء الثوار كما أكد في رسائله أن الأسطول العثماني وأسطول الأوجاقات (طرابلس وتونس والجزائر) سيكونان عوناً له في أثناء جولاته في البحار تعقباً للسفن الحربية اليونانية[1].

(١) انظر الوثيقة رقم (٨٥) من الصدر الأعظم إلى محمد علي في إبريل سنة ١٨٢١م.

وظهرت أيضاً في ميادين القتال جزيرة كقاعدة للسفن اليونانية هي جزيرة "أبيصارة" وتقع هذه الجزيرة في منتصف بحر إيجة إلى الشرق بالقرب من جزيرة سيسام القريبة من الساحل التركي وتمثل مع جزيرتي صوليجيه وجامليجيه قوساً يمتد من الغرب إلى الشرق قاطعاً بحر إيجة في منتصفه ولولا عجز اليونانيين عن الاستيلاء على جزيرة سيسام لأصبح الجزء الشمالي من بحر إيجة في قبضتهم ولاختنق بوغاز البسفور والدردنيل، وبانضمام هذه الجزيرة إلى قواعد السفن الحربية اليونانية أدى إلى زيادة السفن اليونانية الحربية وزيادة أيضاً في الضغوط على الدولة العثمانية وولاياتها المطلة على البحار.

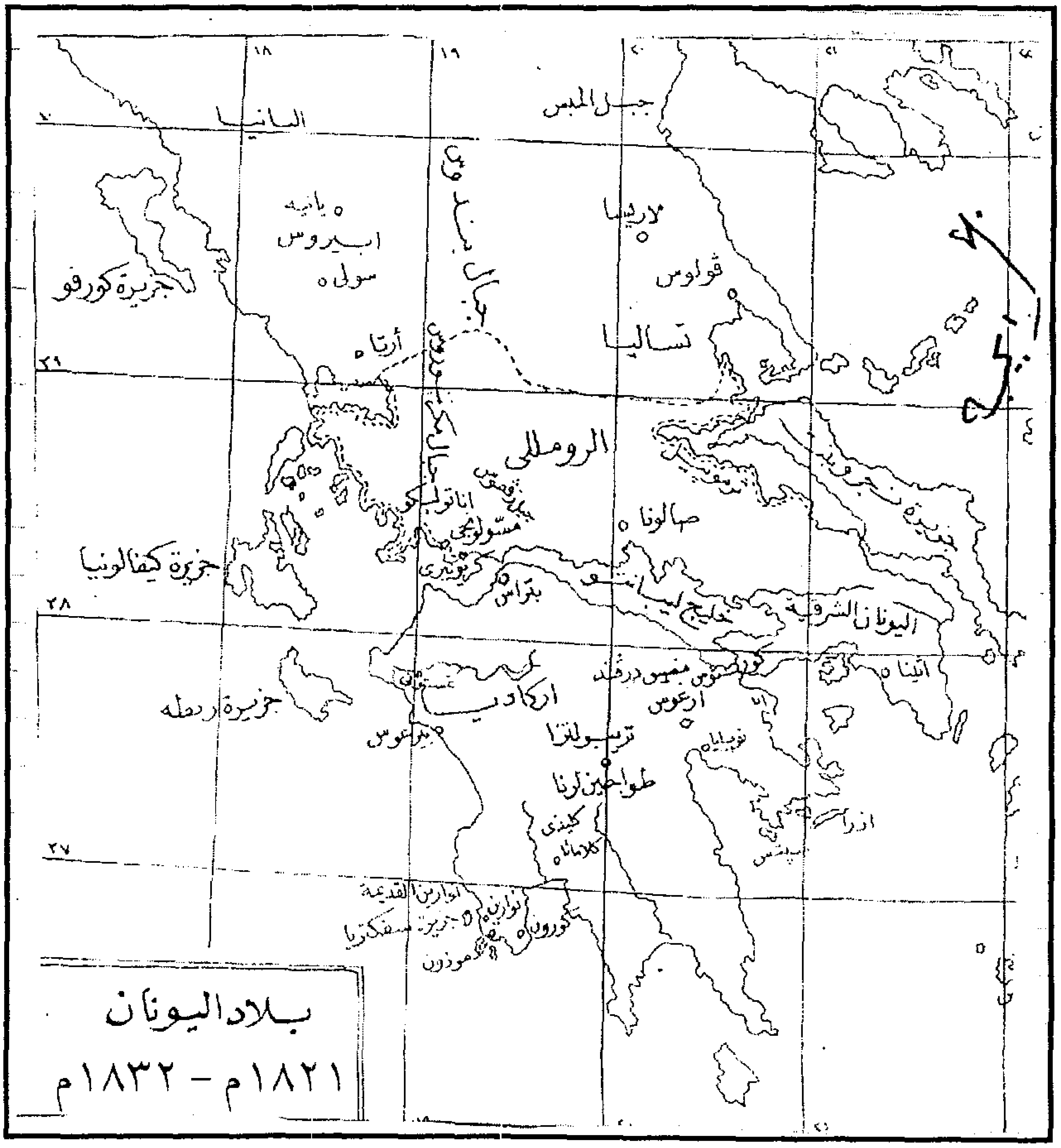

بلاد اليونان
١٨٢١م - ١٨٣٢م

وعندما قرر قادة الأسطول العثماني الخروج بالأسطول العثماني من مضيق بحر إيجة لتدمير السفن اليونانية وردت لهم معلومات من المخابرات العثمانية باحتمال ظهور الأسطول الروسي والوقوف بجانب اليونانيين.

وكانت هذه المعلومات سبباً في عدم خروج الأسطول العثماني من الدردنيل وفتح عن ذلك الإفساد اليوناني في الحياة العثمانية ببلاد المورة وقتلهم الأبرياء من المدنيين واغتصاب أموالهم أدى إلى عقد اجتماع شعبي من كبار رجال الدولة ووزرائها وقضاتها اجتماعاً حضره جميع الناس الذين في قلوبهم غيرة على بلدهم وما يحدث منها وقرروا في هذا الاجتماع توحيد الكلمة وصد غارات اليونانيين والقضاء على القراصنة والمتمردين.

وأهم النتائج التي تركتها حرب الأفلاق والبغدان توقف ما ترسله هاتان الولايتان إلى المخازن العثمانية من غلال. كما من نتائج سيطرة اليونانيين على ممرات بحر إيجة والبحر المتوسط عدم تمكن محمد علي من إرسال المقررات عليه من الغلال مما أدى ذلك إلى قلة المخزون في المخازن العثمانية من القمح في الآستانة.

وبدأت أشباح الغلاء والمجاعة تبدو في العاصمة وتغيرت نغمة الحكومة العثمانية التي كانت تحث بها من محمد علي باشا بسرعة إخراج سفنه لمقاتلة اليونانيين صارت نغمة جديدة هي سرعة إرسال القمح المقرر على مصر لتجنب شبح الغلاء والمجاعة التي توشك أن تغلق الحياة العثمانية وبقية الأقاليم المجاورة لها، ولم تسكت هذه النغمة حتى تمكن محمد علي من فك الحصار على الممرات المائية فأرسل مقررات مصر من الغلال إلى الآستانة.

جمع محمد علي المعلومات من مخابراته للإعداد للحرب

صدر المرسوم السلطاني لمحمد علي باشا بإخراج سفنه للضرب على أيدي الثوار اليونايين في البحر المتوسط وبحر إيجة وبعض جزرهما وفي المورة. فكان أول ما لفت نظره هو جمع معلومات عن الأعداء الذين يقوم بمحاربتهم.

وصلت بعض المعلومات الدقيقة من بعض الأشخاص ومن بعض الرسائل لم تحمل أسماء مرسليها ويوحي بأنهم تعمدوا عدم ذكر أسمائهم[1].

وقد اعتمد محمد علي باشا على المعلومات التي وصلته من يوسف بك متصرف رودس وذلك لوقوع رودس في موقع استراتيجي جعلها ملتقى السفن المتجهة ناحية الشمال والآتية من الجنوب في مايو سنة ١٨٢١م بعث إليه بحثه على موافاته بكل الأخبار والمعلومات وحتى ما يذاع من الشائعات وإلا ينتظر ورود السفن العثمانية أو المصرية، بل يبعث على الفور ما لديه من أخبار ومعلومات مع أية سفينة قادمة إلى مصر بعد أن يعطي ربانها أجره المناسب.

وأعتمد أيضاً على متصرف فونكة وعلانية وأيج أبل دتكه تقع على شاطئ آسيا الصغرى الجنوبي المطل على البحر المتوسط، وعلانية وأيج آبل تقع على شاطيء آسيا الصغرى الغربي المطل على بحر إيجة فقد بعث إليهما بثلاث رسائل ليوافوه بأخبار الثوار اليونانيين وتحركاته في البر والبحر وأخبار الآستانة وما يجري فيها. ويرجع اختياره لهذه المتصرفات لقربهم من الآستانة ولم يكن هدفه الآستانة بهم لإخباره بالمعلومات بل حثهم على المساهمة ما أتوا من قوة في قتالهم على الثوار اليونانيين الذين عاشوا في بحر إيجة الفساد واتخذوا من عمليات السلب والنهب من مبادئهم وكان هدفهم الأول هو قتل المسلمين في كل مكان.

(١) انظر الوثيقة رقم (١٠١) في مايو ١٨٢١م.

الصراع المصري اليوناني

أذعن محمد علي باشا للأوامر السلطانية فأرسل قوة إلى جزيرة كريت أولاً ثم جهز حملة بأشجع المقاتلين وأبرع البحارة في علم البحار.

وأبحرت هذه الحملة المكونة من ٩٩ سفينة منها ٦٣ قطعة حربية ونقل، ٣٦ سفينة استؤجرت لنقل الجنود والذخائر ووضع هذه الحملة تحت قيادة إبراهيم باشا. (١)

غادرت هذه الحملة البالغة عددها ١٧٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٧٠٠ من الفرسان مجهزين بالمدافع والبنادق والذخائر وكان يحرسها الأسطول المصري بقيادة " الأميرال إسماعيل جبل طارق".

(١) الوثيقة الفرنسية رقم ١٤ من دار المحفوظات القومية بالقاهرة

وقد أبحرت الحملة من ميناء الإسكندرية، وقد وضح مسيو "دربو" بقوله " قد اشترى محمد علي من أوروبا كثيراً من السفن بحيث صار عنده عمارة ضخمة تشبه الأرماد (العمارة التي أعدها فليب الثاني ملك أسبانيا لمحاربة إنجلترا في القرن السادس عشر) ".

لم تقصد الحملة شبه جزيرة المورة بل اتجهت إلى ميناء "رودس" ومنها اتجه إلى خليج (ماكري) على شاطئ الأناضول لتلتقي بالأسطول العثماني الذي كلف بمطاردة السفن اليونانية في بحر الأرضيل وتطهير البحر من أعمال القرصنة وإخماد أنفاس القرصنة والثورة.

أنزل إبراهيم باشا قواته على شاطئ خليج ماكري وأقلع بالأسطول ليتصل بالأسطول التركي الذي أبحر من الدردنيل بقيادة خسرو باشا فالتقى في ميناء "بودروم" على شاطئ الأناضول.

وحدثت معركة بين السفن اليونانية والأسطول التركي الذي فر من المعركة. وكانت المواجهة بين الأسطول المصري بقيادة إبراهيم باشا والسفن اليونانية التي اضطرتهم إلى التقهقر.

جاء اللقاء الثاني بين الأسطول التركي والمصري وسارا إلى جزيرة "ماركلي" وانفصلت السفن التركية عن السفن المصرية وتابعت سيرها شيء إلى الدردنيل أما الأسطول اتجه نحو الجنوب فاعترضته السفن اليونانية في جزيرة "سافو" واشتبكا في معركة انتهت بغرق سفينتين من الأسطول المصري وعلى أثرها عاد إبراهيم بأسطوله إلى ميناء "بودروم".

أيقن إبراهيم أن هزيمة اليونانيين ليست في البحر بل ستكون على البر في شبه جزيرة المورة... وقد أثبتت السفن اليونانية قدرتها في خوض غمار المعارك. ورغم ذلك صمدت العمارة المصرية أمام هجمات اليونانيين. ويؤكد ذلك قول مسيو "ودان" في كتابه فرقاطات محمد علي باشا الأولى " مضت خمسة أشهر في مغادرة العمارة المصرية ثغر الإسكندرية خمسة أشهر نفدت في جهود شاقة ومتاعب لا هوادة فيها ومخاطر تجدد كل يوم من الثبات ورباطة الجأش لما يستدعي النظر فإن قيادة أسطول بحري تصحبه عمارة من سفن النقل لمن المهام التي لا يسهل الاضطلاع بها وأن إبراهيم في قيادته عمارة من مئة سفينة تقل نحو عشرين ألف رجل من جنود وبحارة فقد اضطلع بمثل المهمة التي حملها بونابرت من قبل، مع حفظ النسبة بين الفرقتين حينما اجتاز البحر الأبيض في أواخر القرن الماضي بعمارة ١٨٠ سفينة لنقل ٣٨٠٠٠ مقاتل وأن مصر لم يكن لها من قبل ذلك الحين أسطول منتظم ولا تقاليد بحرية ولا هيئة من الضباط البحريين الأكفاء ولا العدد الكافي من البحارة المدربين.

وكان على إبراهيم أن يبتكر وينظم على الفور كل ما يلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد، وأن يروض نفسه على ركوب البحر والقتال بين

أمواجه وأهواله، وكل ذلك فإنه يحق لنا أن نعجب كيف أن العمارة التي حشدها محمد علي أمكنها أن تبقى خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أوصالها وكيف استطاعت أن تثبت أمام الوبالات والهجمات الشديدة التي استهدفت لها وإصابتها من عدو له خط كبير من المهارة من غير أن تخسر سوى سفينتين حربيتين وبضعة نقالات ولا شك أن هذه الحقائق تدلنا على عزيمة إبراهيم باشا.

الفصل الثالث

إعلان الثورة ضد العثمانيين في جنوب البلقان

لم يكن القضاء على ثورة اليونانيين في شمال البلقان هو القضاء على الثورة اليونانية نهائياً، فإن الثورة امتد لهيبها إلى الجنوب أي في شبه جزيرة "البلقان" أي في شبه جزيرة المورة التي تعتبر معقلاً لليونايين الأصليين وكان أول من أعلن الثورة رجل ديني هو "القس جرماتوس" ووضع لها شعاراً هو "الحرية – الإيمان – الوطن" ويعتبر هذا الشعار إعلان الجهاد اليوناني ضد الدولة العثمانية.

ولما اندلعت الثورة وشق اليونانيون عصا الطاعة وأتوا بفظائع مروعة بأنهم قطعوا الطريق البحري على السفن التركية ببحر الأرخبيل فاستولى عليها وأنزلوا بركابها القتل أو الأسر وتعرضت البضائع إلى النهب ووقعت في أيدي الثوار العاصمة "تريبولنزا" واستخدموا القوة مع الأتراك.

اجتمع الثوار في الغاية المقدسة لهم وعلى مدرج المسرح الإغريقي وتحت القبة الزرقاء أقرت الجمعية التأسيسية للثورة إعلان دستور لدولة اليونان المستقلة واختارت أعضاء حكومتها برياسة مايزدكرو داتسي".

وأول عمل إيجابي قامت به الثورة اليونانية أنهم حولوا أسطولهم التجاري إلى "إرمادة كفاحية" للثورة وأصبحت جزر الأرخبيل قاعدة لحروب بحرية فأعدت ٥٠٠ سفينة على ظهرها ٢٠٠٠ بحار من أمهر البحارة الذين عرفوا في تاريخ اليونان ثم وضعت قيادة هذه السفن في يد "كتاريس" الذي هاجم السفن التركية وحاصر الموانئ التركية ومنع دخول أو خروج السفن من تلك الموانئ.

وصلت جميع الفظائع اليونانية التي ارتكبوها إلى مسامع السلطان "محمود الثاني" الذي ملكته ثورة غضب وقرر الانتقام من اليونانيين بإعلانه الجهاد الإسلامي ضد مسيحيي اليونان.

وأول عمل انتقامي من السلطان أنه أعدم البطريق اليوناني في صباح يوم عيد الفصح ولم يكتف بهذا العمل بل أعدم أعدادًا كثيرة من الأساقفة اليونانيين، فاندلعت المجازر في كل مكان بين اليونايين والعثمانيين، وفي النهاية استولى الثوار على مقر الحاكم العثماني في "تربيولنزا" في عام ١٨٢٢م وقد استخدم اليونايون أسلوباً في غاية البشاعة في التمثيل بجثث القتلى من العثمانيين وقد قوبل هذا الأسلوب بأسلوب أكثر بشاعة من جانب العثمانيين بإبادة سكان جزيرة "شيوس".

أعد الباب العالي جيشاً بقيادة "خورشيد باشا" الذي كان حاكمًا على مصر في سنة ١٨٠٤م قبل تولية محمد علي ولاية مصر سنة ١٨٠٥م فبعد أن أخضع علي باشا والي "يانبه" سار جنوباً ووقف جزء من هذا الجيش أمام ميناء "مولنجي" وسار ببقية جيشة مخترقاً مضيق "ترموبيل" لكنه أهمل تحصين المرتفعات من ورائه قابله "كولكتروتس" رئيس عصابات اليونان الجبلية وتسمى "الكلفت" وكانت قوة هذه العصابات لا في جيوش منظمة كالترك. اضطر الجيش الزاحف إلى التقهقر فوجد اليونانيين محصنين في المرتفعات ، فدمر الجيش بأكمله وانتحر خورشيد بعد هذه الهزيمة. كذلك ظهر في البحر ملاحو جزر الأرضبيل فهزموا "الأتراك" وأغرقوهم هم وسفنهم وسرعان ما زالت سلطة الأتراك من الأرضبيل ففي يناير سنة ١٨٢٢م أعلنت اليونان استقلالها برئاسة "مادروكردانس".

الاستعانة بمحمد علي باشا

وبعد تدمير الجيش العثماني وتدمير سفنه وجد السلطان لا مفر له في هذه الظروف السيئة التي مرت على الامبراطورية العثمانية فوجد السلطان نفسه بلا جيش ولا أسطول لقمع الثورة ولذا ولى وجهه نحو محمد علي باشا بتوجيه من سفير النمسا التي كانت تريد القضاء على الأفكار الثورية وعدم إعطاء الروس فرصة للتدخل وأرسل السلطان الوالي علي باشا أمراً بذلك في يناير ١٨٢٤م وعينه حاكماً على "كريت" ثم المورة....

بينما كان محمد علي يوطد دعائم الدولة المصرية الكبيرة الممتدة جنوباً إلى السودان وشرقاً إلى بلاد الحجاز. دعاه السلطان إلى خوض غمار حرب بعيدة عن أطماعه السياسية وبعيدة عن مصالح مصر وهي بلاد المورة نتيجة الثورة ضد الحكم التركي في هذه البلاد سنة ١٨٢١م فأذعن محمد علي لأمر السلطان خشية أن يغضب عليه. وأملاً في الحصول على مكافأة له عن ذلك بولايته إقليم الشام طالما ألحت عليه نفسه إلى أن يسعى إلى بسط نفوذه عليه وفضلاً عن ميله إلى إظهار قوته أمام العالم الأوروبي وقتئذ. كان عليه أن يبرهن على أن من حق مصر أن تلعب دور الدولة العظيمة القادرة على التأثير في العالم.

وعلاوة على ذلك كان يبغى بكل بساطة ضم المورة وجزء من الأرضبيل إلى ممتلكاته. ووضع الموارد الاقتصادية والملاحة اليونانية في خدمة امبراطوريته الناشئة فكان يحلم أيضاً بسيادة مطلقة في شرقي البحر المتوسط وتحويله إلى بحيرة مصرية.

واشتبك مع اليونانيين في معركة حامية الوطيس. وقد أبدى الجنود المصريين شجاعة نادرة أمام خصم قوي، ولم يمض إلا فترة حتى بدت أرض المعركة خالية من اليونانيين بعد أن قتل منهم أعدادًا كبيرة وفر الباقون إلى الجبال وأنحاء اليونان.

كبدت المعركة خسائر فادحة لليونانيين كما أنها كانت نصراً مبيناً للجيش المصري. وقد وقع في أيدي المصريين أعداداً كبيرًا منهم ومنهم ضباط ورؤساء جند الذين اعتمدت عليهم الثورة اليونانية اعتماداً كبيرة في تنظيم حركاتهم الحربية.

بعد النصر الذي أحرزته القوات المصرية، صدرت أوامر إبراهيم باشا إلى ضباطه وقادته بتشديد الحصار على "نافرين" براً... لكن ناحية البحر قد يأتيها المدد والمؤن. ولكي يحكم إبراهيم حصاره على المدينة بحراً ويمنع من وصول الإمدادات للعدو. فاتجه تفكيره بأن ذلك لن يأتي إلا إذا استولى على جزيرة "اسنافتريا" فعهد بذلك إلى سليمان باشا الفرنساوي في مايو سنة ١٨٢٥م. وهي جزيرة صغيرة واقعة على مدخل الميناء ليتمكن بواسطة ما يضعه فيها من موانع من قفل مدخل الميناء ومنع المدد من الوصول إليها.

هذه الجزيرة ذات أهمية عظيمة عند اليونانيين وكانت تحميها نيران قلاع البلد، فلذلك كان دخولها من الأمور الشاقة إن لم يكن مستحيلاً ومع ذلك فقد صمم إبراهيم باشا على احتلالها بعد أن أجمع هو وأركان حربه وفي مقدمتهم سليمان باشا على أن الاستيلاء على مدينة "نافارين" مستحيل ما دامت الجزيرة في أيدي اليونانيين وكلف سليمان باشا باتخاذ اللازم نحو العمل للاستيلاء على الجزيرة.

واختار سليمان باشا مجموعة من الجند اشتهروا بالشجاعة والإقدام من بين الجند وسافر بهم من (مودون) قاصداً نافارين.... لما رأى العدو القوة المصرية قادمة إليه ارتبك وأصابه الرعب واستعد للدفاع عن الحصن الذي يحتمي فيه. وقد وقف بجانب الثوار شخصيتان وكانا من ضمن المدافعين وهما: (١) الكونت (سانتا روزا) الذي عرف عنه البلاغة في إثارة الحماسة بين المدافعين وهو إيطالي الجنسية وقد وهب حياته لمساعدة اليونان على نيل استقلالها ودافع عن الحرية التي كان ينادي بها.

(٢) الأميرال (قسومادوس) الذي غامر بحياته ونزل إلى البر مع ثلة من الجنود لا يتجاوز عددهم عن مئتين لتغرير الحامية في الجزيرة وتقويتها بدأت المدفعية المصرية

تنطلق بقذائفها عند وصول المصريين إلى الميناء لتدمير قلاع العدو. كما أن العدو لم يتزعزع من هذه النيران وإنما تبادل مع المصريين بقذائفه. وبدأت الجنود البرية المصرية تستقل الزوارق عن نيران شديدة وتمكن سليمان الفرنساوي ومن معه من القوات النزول على البر والسير على أرض العدو وتبادل معه بإطلاق البنادق... ولما عفى فترة وجيزة حتى هجم المصريون ومعهم سليمان باشا الفرنساوي على استحكامات العدو وتمكنوا من دخول المدينة واندلع القتال بالسلاح الأبيض ودافع اليونانيون عن وطنهم واستماتوا في الوقوف في وجه المصريين لكن تمكنت القوة المصرية من التغلب عليهم ورافعوا العلم المصري على تلك الاستحكامات. ويعد هذا النصر للمصريين له أهميته التاريخية إذ ذاع صيت المصريين في القارة الأوروبية. واضطربت حياة جمعيات محبي اليونان وأيقنوا أن كل ما بذلوه من أموال كثيرة وفقد لقواتهم قد ذهب مع الرياح أمام قوة الجيش المصري.

لقد أفل نجم اليونان، والرأي العام الأوروبي لم يستمل إليهم رغم ما دعوا إليه أنه لا يجوز لأمة مسيحية أن تقع تحت وطأة المسلمين وهذا الادعاء لا يليق أو أنه مناف لمبادئ التحدث والحرية التي من دعائمها عدم النظر إلى العقيدة الدينية أو إلى أي جنس من الأجناس بل النظر إلى ما يقوم به الإنسان من عمل ينفع البشرية ففي تاريخ المسلمين الأوائل نجدهم قد عاملوا المسيحين معاملة طيبة.

ولقد سقط في الطريق عدد كثير من القتلى وكان من بين قتلى اليونان الأمير "الرتسوما دوس"، الذي طلب الموت دفاعاً من وقوع بلاده في أيدي المصريين وغيرهم من أبطال اليونان ومنهم الكونت "سانتا روزا" الإيطالي وألتجأ عدد كبير من الجنود إلى إحدى الكنائس وجمعوا فيها كميات كبيرة من البارود فأحرقوه فسقط عليهم المبنى وهلكوا جميعاً. وقد جرح من الجيش المصري سليمان باشا وصار طريح الفراش ولم يتمكن من الاستمرار في العمليات الباقية. كما أن السفن اليونانية التي كانت في الميناء

تمكنت من الهروب إلا سفينتين من السفن اليونانية وقعتا في أيدي المصريين بما فيهما من جرحى اليونان.

ورغم ذلك فكل مقاتلي اليونان على قوتهم في القتال براً وبحراً وقد تمكن "أميوليس" القائد اليوناني البحري في ١٧/ ٥/ ١٨٢٥م مع حراقاته (سفن صغيرة) من الدنو من الميناء "مودون" وأشعل النار في السفن الراسية خارج الميناء وفر هارباً فامتدت النار في باقي السفن المصرية ولشدة الرياح في ذلك اليوم ظلت النار مشتعلة حتى تعسر إطفاؤها وقد تمكن ملاحظة النجاة للبحارة بجهد كبير وعناء شديد والرياح ساعدت على حمل شرارات النار إلى داخل المدينة حتى أحرق جزءاً كبيراً منها ووصلت إلى مخازن البارود فانفجرت فأدى ذلك إلى هدم المنازل المجاورة وهلك من فيها.

ورغم هذه الحادثة ظل إبراهيم باشا وجنوده مشددين الحصار على المدينة وقد تمكنت القوات المصرية من صد الهجمات اليونانية وهزيمة من جاء لمساعدتهم من طريق البر والبحر. وفي أثناء مقاومتهم قد تمكن إبراهيم باشا من أسر "مطران" مودرنا الذي كان يحث الناس على المقاومة وأسر غيره من دعاة الثورة. وقد عاملهم معاملة حسنة.

ولقد أتى الحصار بثماره حيث وجدت الحامية نفسها بين الموت والحياة فآثرت التسليم وطلبت من إبراهيم أن تسلم له المدينة مع قلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والأسلحة بشرط أن يبقى على حياتهم، فاستجاب لشروطهم ودخل المدينة في ١٦/ ٥/ ١٨٢٥م، ولقد كان هذا له التأثير الكبير لدى اليونانيين، ورغم الهزيمة التي أصابتهم لكنهم استرخصوا الموت في سبيل الحصول على استقلالهم السياسي وظلوا يقاتلون حتى يأتيهم الموت من كل جانب، وصمدوا فداءً للوطن وشهداءً للحرب.

ثم تمكن إبراهيم من فتح مدينة "كلاماتا" وبعدها دخل إبراهيم باشا جميع القلاع والبلدان والقرى وحطم أغلبها وأسر من فيها من حامياتها ولقد لجأ بعض الثوار إلى الجبال العالية للمقاومة معتمدين على أن الجيوش المنظمة لا يمكن الصعود إليها.

وقد تمكن أيضاً من فتح مدينة "تربيولتا" وتمكن بعد قتال شديد من هزيمة اليونايين، وبدخوله المدينة التي كانت مقراً للحكومة الثورية ولم يبق للثائرين اليونايين إلا الجبال ملجأ لهم.

وقد قام بتأمين المدينة ثم ترك بها حامية كافية. ثم قصد بعد ذلك إلى وادي "أرجوس" فهزم طليعة من الأعداء تحت قيادة "سلاتني" وحصد الغلال ثم نقلها إلى "تريبولتسا" ثم وصل إلى وادي (كونيا) وفي صحبته سليمان وألايه وعدد من السواري تبلغ ٨٠٠٠ متحصنين في بعض المعاقل، فهجم عليهم فهزمهم وأخرجهم من استحكاماتهم، وبهذا يكون كل إقليم "مورة" في قبضته إلا مدينة "نوبلي" فحاصرها وفي أثناء ذلك وصلته رسالة من رشيد باشا قائد الجيوش العثمانية الذي كان محاصراً في مدينة "ميسولونجي" منذ عدة أسابيع وهي على خليج "لبيانته" فأرسل إبراهيم إلى محمد علي باشا يخبره بهذا الأمر ويطلب منه مدداً فأرسل إليه الألاي السابع والثامن من الجيش وبعض الفرق العسكرية من الأرناؤوط من حامية كربة.

فتح مدينة ميسولونجي

قام إبراهيم مع عشرة آلاف من المشاة وخمسمئة من الفرسان فسافر بحراً قاصداً مدينة ميسولونجي لمساعدة رشيد باشا، وعند وصوله إليها قام بحصارها واستولى على الجزر الواقعة في فم الميناء وبنى فيها قلاعاً حصينة فأغلق بذلك الميناء وتم الحصار براً وبحراً حتى لا يمكن وصول المدد إليها بأية صفة كانت ثم أرسل إلى حامية المدينة يطلب منها أن تستسلم بدون حرب ولا قتال لتحققه أن امتناعهم لا يجد بهم نفعاً فلم يقبلوا ذلك منه وصمموا على عدم التسليم ولو ماتوا عن آخرهم، وقد أتيح للمصريين أن يدخلوا المدينة وقد حدث أمران أحدهما موت إسكندر الأول امبراطور روسيا فجأة وتولية الامبراطور تقولا خلفاً عنه، وحدث أيضاً تخلص السلطان محمود العثماني لجيش الانكشارية ١٦/ ٦/ ١٨٢٦م مثل ما تخلص محمد علي باشا من المماليك.

ثم أعقب سقوط مدينة "ميسولونجي" سقوط باقي مدن مورة فقد احتمل المصريون خسائر جسيمة في هذه الحرب بلغت ألفي قتيل بعد فتح "ميسولونجي" انفصل الجيش العثماني عن الجيش المصري فعاد إبراهيم إلى "مورة" واتجه الجيش العثماني إلى مدينة "أثينا" لفتحها ولم يكن لديها من القوة ما يكفي لصد هجمات اليونانيين وتمكن رشيد باشا من إحكام حصارها حتى سلمت المدينة في يونيه ١٨٢٧.

تدخل الدول الأوروبية في الأزمة اليونانية

كانت الثورة اليونانية في حالة يأس شديد فلم يبق في أيدي الثوار سوى مدينتين هما "نوبل في بلاد المورة وأثينا في الأنبك وتمركز قوة الثوار في جزيرة "هيدرا" و "أسبتربا" من جزر الأرخبيل.

وقد عاد الثوار في مياه هاتين الجزيرتين الفساد والقرصنة فقرر محمد علي إرسال حملة بعد سقوط مدينة "ميسولونجي" وأعدت في الإسكندرية في إبريل سنة ١٨٢٧ قاعدة لحملة كبيرة برية وبحرية تستعد للإقلاع إلى اليونان للقضاء على آخر ما تبقى في أيدي الثوار اليونانيين وفي تلك الفترة كانت الدول الأوروبية بدأت في تفاوض وتشاور لإنقاذ الثورة اليونانية وترجع مفاوضاتها قبل سقوط "مسيولونجي" وتضيف إلى ذلك ما قام به الرأي العام الأوروبي وما تحرك به المناصرون للثوار في كل من الدول الثلاث (روسيا وإنجلترا وفرنسا) مطالبين حكوماتهم بالتدخل لإنقاذ الثورة اليونانية.

وقد اعتزمت روسيا التدخل بمفردها لصالح اليونان لكن إنجلترا خشيت أن تنفرد روسيا بالتدخل فيقوى نفوذها في الشرق والبلقان ويعلو نفوذها على نفوذ إنجلترا فأوقدت إنجلترا سفيرها وهو "الدوق ولتنجون" سفيرًا لديها لتوحيد أغراض الدولتين وعقدتا اتفاقاً مبدئياً في ٤/ ٤/ ١٨٢٦م إلى نيل اليونان استقلالها الداخلي وبقاء السيادة العثمانية عليها، وبعد سقوط "مسيولونجي" زاد عطف الأوروبيين عليهم وتجددت المفاوضات بين الدول والتي أسفرت على إبرام معاهدة لندرة ٦/ ٧/ ١٨٢٧م وهي

المعاهدة التي اتفقت فيها كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا على التدخل بين تركيا واليونان لتقرير مصير المسألة اليونانية بأن ينال اليونانيون استقلالاً داخلياً مع بقاء السيادة العثمانية عليها وأن تطلب الدول الأوروبية من الباب العالي واليونايين وقف القتال تمهيداً للوساطة بينهما واتفقت الدول الثلاث على أن يعرضن مسألة الوساطة على الباب العالي فإن قبلها كان بها وإن لم يقبلها في خلال شهر من تاريخ إبلاغه فإنهم يلجأون إلى القوة لتنفيذ ما اتفقوا عليه. أما النمسا فلم تشترك في هذه المعاهدة ولا في التدخل اتباعًا لمبدأ (مونيخ) وهو لا يساند أية ثورة يقوم بها شعب ضد حكومته الشرعية.

ويقول أحد المؤرخين " كانت هذه المعاهدة إنقاذاً للثورة اليونانية لأنها أبرمت في الوقت الذي أشرقت فيه الثورة على الاحتضار وكادت تلتقط النفس الأخير".

ورفضت تركيا مطالب الدول الثلاث فأرسلت إنجلترا أسطولاً مكونًا من ١٢ سفينة بقيادة الأميرال "كودرنجتون Cordrington" وأرسلت فرنسا أسطولها وعدده سبع سفن بقيادة الأميرال ريغني Rigny وأرسلت روسيا أسطولها عن طريق بحر البلطيق بقيادة هيدن وانضمت الأساطيل الثلاثة تحت قيادة الأميرال الإنجليزي كودرنجتون.

وأعد محمد علي حملته لإمداد إبراهيم باشا وأبحرت من الإسكندرية في أوائل أغسطس ١٨٢٧م بقيادة الأميرال محرم بك وكانت مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية و ١٦ سفينة تركية وأربع سفن تونسية وست حراقات وأربعين مركباً لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ جندي مقاتل، ومهمتها محاصرة جزيرة هيدز وهي تعد من أهم المعاقل اليونانية.

وتجمعت هذه الحملة في ٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧م وانضمت إلى الأسطول العثماني بقيادة الآتي من الآستانة أميرال طاهر باشا وعدده ٢٣ سفينة وأوكلت القيادة العامة للقوات البرية والبحرية له واستعد بإعداد حملة بحرية على جزيرة "هيدرا" وإبقاء حملة برية إلى شمال المورة.

واتخذت الأساطيل الأوروبية ما بين جزيرة هيدرادتيا مكانها أما السفن المصرية التركية أخذت مكاناً لها في الميناء ووصلت أساطيل الحلفاء الثلاثة إلى الميناء على التوالي. وأرسل الأميرال الإنجليزي كودرنجتون إلى إبراهيم يخبره بأن أساطيل الحلفاء قد وصلت لتمنع الأسطولين المصري والعثماني من إنزال قواتهما براً أو الدخول في البحر إلى أية جهة من اليونان ويقصد من وراء ذلك إنذار إبراهيم بالكشف عن إرسال حملته البحرية إلى جزيرة "هيدرا" وقد جرت لمدة مقابلة بين قيادتي الأسطول الفرنسي والإنجليزي لإبراهيم باشا يقصد إرهابه فيما هو مقدم عليه من عمليات بحرية وبرية في المورة ويطلبان منه الرحيل إلى الإسكندرية فأخبرهما بأنه سيرسل إلى الباب العالي بالآستانة والي والده بالإسكندرية ويتلقى تعليماتهما.

كان المفروض تطبيق الاتفاقية التي تمت بين الحلفاء على أن يوقف القتال بين الطرفين، لكن الدولتين قد نهجتا نهجاً مخالفاً للاتفاقية فهما ترميان إلى تطبيق الاتفاقية على الأسطولين المصري والعثماني وترك اليونانيين أحراراً في حركاتهم البحرية والبرية داخل شبه جزيرة المورة حتى يقوى مركزهم ويعطوا فرصة في تجميع صفوفهم ويأتي لهم المدد حتى يهاجموا الحاميات المصرية.

وبدأ ظهور سوء نية الحلفاء وهذا الذي أدى إلى معركة "نافارين" وجرت مناوشات وحركات من جانب اليونانيين رغم أن إبراهيم باشا نبه الأميرال كودرنجتون بها فلم يجد جواباً منه لوقفها، وطلب منه والده أن يلتزم الحيطة وينتظر جواب الباب العالي في هذا الشأن واكتفى إبراهيم باشا بالدفاع. وكان إبراهيم على معرفة تامة بقوة الحلفاء وأساطيلهم الحربية ولكن استمر سوء النية لدى الحلفاء باتفاقهم فيما بينهم على تدمير الأسطول المصري حتى لا يعود مرة أخرى إلى التنافس في سيادة البحر الأبيض.

موقعة نافارين في ١٨٢٧/١٠/٢٠

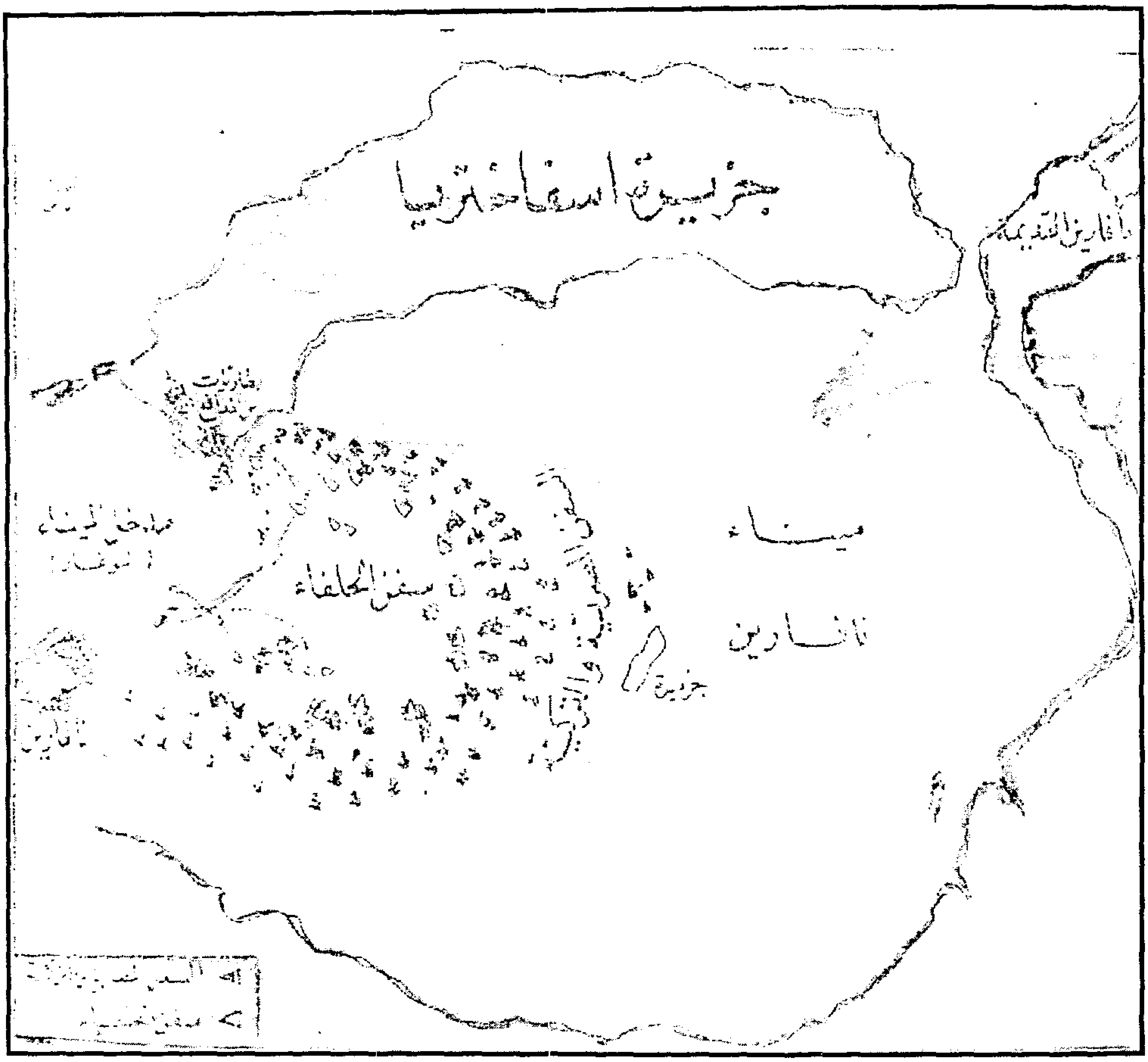

عند زحف إبراهيم باشا داخل المورة لإنجاد الحاميات المصرية كانت توصياته إلى الأميرال محرم بك قائد الأسطول المصري والأميرال طاهر باشا قائد الأسطول التركي بألا يتحرشا بالأساطيل الدولية.

أرسل قادة الأساطيل الثلاثة إنذاراً إلى إبراهيم باشا بنقض الهدنة لكن الرسول الذي كان يحمل الإنذار لم يجده فعاد إلى كودرنجتون وكان هذا ذريعة لإنفاذ خطة الحلفاء الثلاثة وهي تدمير الأسطول المصري.

استنكر رأي قادة الأساطيل الأربعة على الدخول في ميناء نافارين لإجبار إبراهيم باشا بتنفيذ مطالبهم وادعو أن دخولهم الميناء هوعمل في حدود معاهدة لوندرة وتظاهروا بأنهم لا يقصدون إلا المحافظة على السلم ومنع وقوع الحرب.

نهاية المطاف للبحرية المصرية والتركية في نافارين

كانت سفن الأسطولين المصري والتركي داخل الميناء مصطفة على هيئة صفوف ثلاثة متوازية كل صف على شكل نصف دائرة يمتد طرفاها من نافارين الجديدة الواقعة على يمين الميناء إلى جزيرة اسفاختريا.

يعاونها أيضاً سفن خفيفة من الحراقات وهي مراكب تندفع والنار مشتعلة فيها على بوارج الأعداء. وعلى طاقم السفن المصرية يوجد ضباط من الفرنسيين الذين استخدمهم محمد علي لإصلاح البحرية. ليسوا هؤلاء الضباط دعوة قائد الأسطول الفرنسي بالانسحاب من السفن المصرية حتى لا يحاربوا أهلهم ومواطنيهم وطلبوا من محرم بك مغادرة الأسطول المصري فلم يملك إلا الإذن لهم وتركوا الأسطول المصري في أشد الأوقات حرجاً.

جمع الأميرال كودرنجتون فبطاطين الحلفاء على ظهر بارجته (آسيا) بوضع خطة للقتال وما يجب أن يفعلوه. وإذا نظرنا إلى السفن التي اشتركت في بداية القتال لوجدنا أن هناك تفوقاً عند المصريين والأتراك في السفن الحربية وكان عددها ٦٢ سفينة بينما سفن الحلفاء كانت عددها ٢٧ سفينة. وعدد البوارج الكبرى لدى الحلفاء تفوق على عدد البوارج المصرية وهذه البوارج هي التي تعد قلاعاً كبيرة متحركة تحطم السفن دون أن تنال منها السفن شيئاً ومنذ بداية المعركة نجد أن المصريين كانوا غير متوقعين الحرب والقتال. بينما كان الحلفاء مستعدين وفق الخطة التي وضعها قائد الأسطول الإنجليزي " كودرنجتون" مع الحلفاء. وكانت السفن المصرية التركية في داخل الميناء إلى جحيم وكتل من النيران والدخان العالي وأسفرت المعركة عن تدمير معظم

الأسطولين المصري والتركي وسقط ثلاثة آلاف قتيلاً من البحارة والجنود المصريين بينما خسر الحلفاء ١٤٠ قتيلاً و ٣٠٠ من الجرحى.

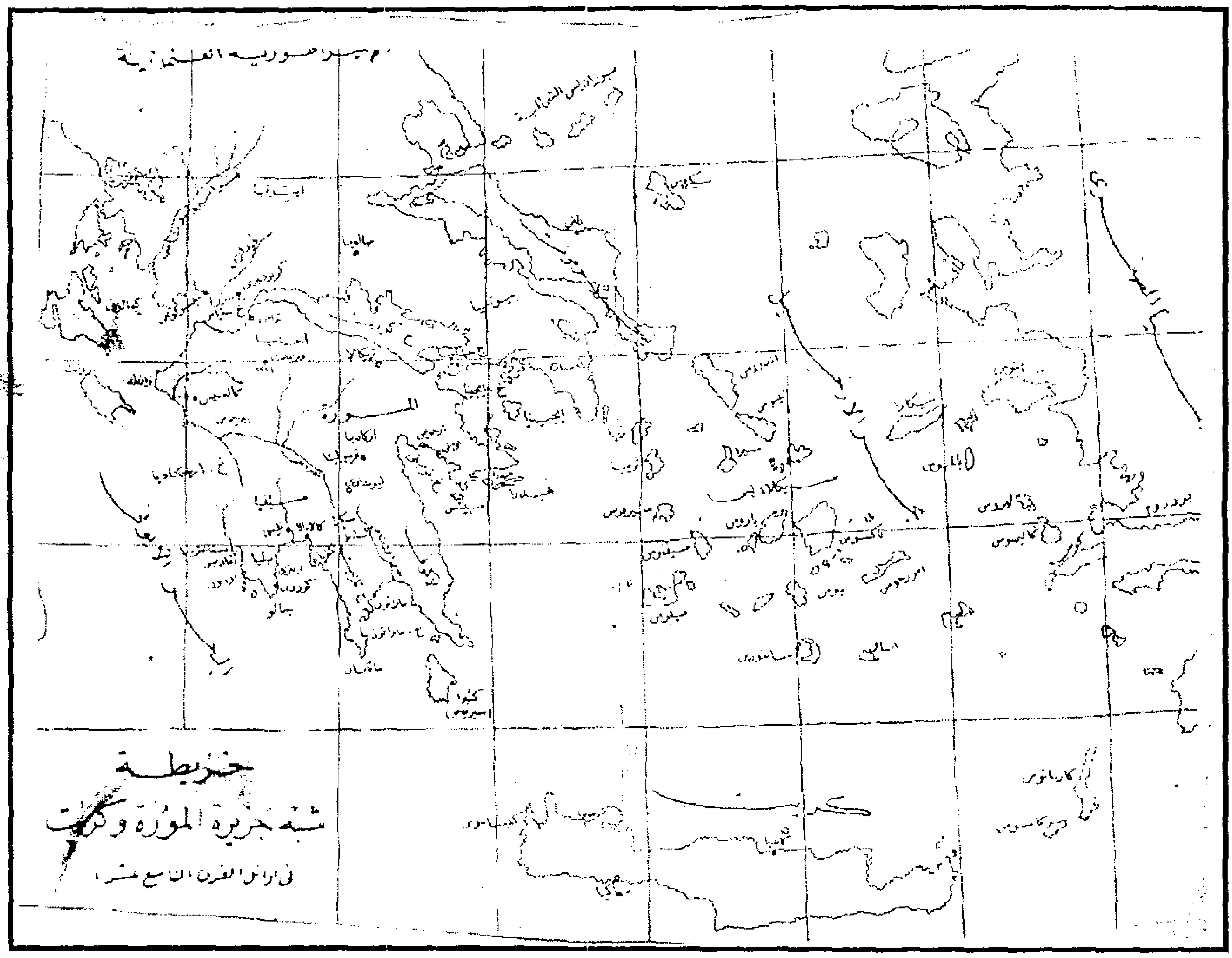

خريطة شبه جزيرة المورة وكريت في أوائل القرن التاسع عشر

وتعد نافارين نموذجاً للضرر ونقض العهود والمواثيق في تاريخ المعارك البحرية في الجيوش العالمية ويرجع ذلك إلى أنها وقفت دون تعليق حرب بين تركيا والدول المتحالفة وأن الأسطولين المصري والتركي قد أخذا غدراً دون إنذار أو استعداد للقتال وكل ذلك لا يتفق مع قواعد الحروب التي اتفقت عليها الدول المتمدنة ذات الحضارات الراقية.

وفقدت مصر أسطولها الذي قضى محمد علي عمراً طويلاً في بنائه الذي كلفه أموالاً كثيرة وجهوداً عظيمة فقد كان معظم الخسارة التي وقعت في معركة الغدر تحملتها مصر.

نتائج معركة نافارين

اليونان تنال استغلالاً داخلياً:

رغم تدمير الأسطول التركي فإنها (تركيا) أصرت على رفض مطالب الحلفاء وطالبتهم بتعويض ما لحقها من تدمير وأصرت على موقفها. وإزاء ذلك أعلنت روسيا الحرب على تركيا واحتلت (أدرنة) وأرسلت فرنسا إلى بلاد اليونان جيشاً تحت قيادة الجنرال (فيرون) وعدته من ١٨٠٠٠ جندي لإجلاء كل من المصريين والأتراك منها.

وعند الانتهاء من الحرب الروسية التركية بعقد اتفاقية أدرنة في ١٤/ ٩/ ١٨٢٩م وفيها وافقت تركيا على قرارات الدول في معاهدة لدندرة فاعترفت باستقلال اليونان استقلالاً داخلياً ويكون لتركيا عليها السيادة الاسمية واتفقت على أن تعطي اليونان استقلالها التام في ٣/ ٢/ ١٨٣٠م.

مصر تسحب قواتها من اليونان

قد تكبدت مصر خسائر في الأرواح واحتملت نفقات كثيرة لا تحتملها الخزانة المصرية، ورأى محمد علي ألا يجعل السياسة المصرية لا ترتبط بالسياسة العثمانية ولذا اتفق مع الحلفاء على وقف القتال وجلاء القوات المصرية من المورة ويرجع ذلك إلى ما أخبره به قناصل الدول الثلاث المتحالفة على تصميم حكوماتهم على تحرير اليونان.

وجاء التهديد الإنجليزي على لسان الأميرال كودرنجتون قائد الأسطول الإنجليزي بأنه سيخرب المدينة إذا لم يستدع إبراهيم وجنوده من المورة واقتنع بنصائح مستر باركر قنصل إنجلترا في مصر إلى إقناع محمد علي باشا بأن يوقف القتال.

وعقد اتفاقاً مع الحلفاء وأخلى الجيش المصري من بلاد المورة على شروط وهي:

١- إعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم في مصر وحسب قول مستر باركر قنصل إنجلترا إن عدد هؤلاء الأسرى اليونانيين ٥٥٠٠ وزع معظمهم على البيوت الكثيرة في الإسكندرية.

٢- وافقت إنجلترا بإعطاء الأسرى المصريين حرياتهم وإعادة السفن المصرية التي أسرت أثناء القتال.

٣- أن يخلي الجيش المصري بلاد المورة ويتم نقله إلى مصر على سفن محمد علي.

٤- ألا يكره اليونانيون المقيمون بمصر على الرحيل عنها ولا يجبرون على البقاء فيها وأن يسمح لمن يشاء من اليونانيين أن يصطحبوا الجيش المصري في عودته إلى مصر.

٥- يجوز لإبراهيم باشا أن يترك في مورة عدداً من العساكر لا يزيد على ١٢٠٠ للمحافظة على (مودرن) و (كوردون) و (نافارين) و (باتراس) و (كستل نوزيره) أما المواقع الأخرى فتخلى عنها.

موقف إبراهيم باشا من الاتفاق:

قابل إبراهيم باشا الشروط التي أبرمت بين محمد علي والحلفاء بالشرط الشديد فلقد رأى كل جهوده في بلاد اليونان والخسائر التي تكبدها قد ضاعت هباءً منثوراً لكنه لم يملك غير الإذعان فأصدر أوامره لقواته بإخلاء اليونان ثم أقلعت بهم السفن إلى مصر في أكتوبر سنة ١٨٢٨.

ماذا حصلت مصر من فتح بلاد اليونان:

١- خسرت مصر من الأرواح ١٠٠٠٠ جندي من خيرة جنود مصر وبلغت الحملة ٧٧٥ ألف جنيه وفقدت أسطولها.

٢- اكتسب الجيش المصري خبرة عالية لفنون الحرب وخططها وأساليبها الحديثة.

٣- كما اكتسب أفراد القوات المصرية الفضائل والأخلاق الحربية.

٤- أظهرت الحرب اليونانية قوة الجيش المصري وتنظيماته وكفاءة عالية من قادته.

٥- لم يعد السلطان العثماني ينظر إلى محمد علي كوالي من ولاة السلطنة العثمانية.

٦- جعلت الحرب محمد علي ندًا للسلطان قوي البأس والسلطان.

٧- أوجدت الحرب في نفس محمد علي فكرة إعلان الاستقلال.

٨- والأهم من كل ذلك أن مصر صار لها مركز دولي من خلال المفاوضات الأوروبية التي كانت مع محمد علي دون السلطان وبهذا صار لها مركز ممتاز وكان من مظاهر المركز الذي حصلت عليه أن الدول الأوروبية عقدت معها اتفاق أغسطس سنة ١٨٢٨ ووقع هذا الاتفاق وزير خارجية مصر ويعد هذا الاتفاق أول وثيقة سياسية أبرمها وزير خارجية مصر مع دول أجنبية.

المواقف في نفس محمد علي مع السلطان بعد حرب المورة:

ولما انتهت الحرب اليونانية وانسحبت الجنود المصرية من المورة وقامت الحرب بين تركيا وروسيا استاء السلطان من محمد علي باشا عدم اشتراكه بقواته مع تركيا. واشتد خنقه على محمد علي واضطرمت في صدره نيران الحسد لما ظهر به محمد علي من قوة وأخذ يوقع بين محمد علي وابنه إبراهيم ولم يكافئ محمد علي باشا على خدمته بشيء مما وعد به إلا حكم جزيرة "كريت" ومن مظاهر العداء أن عين خسرو باشا صدرًا أعظم رغم العداء المستحكم بين خسرو ومحمد علي ، كل ذلك أوغر صدر محمد علي ضد الباب العالي وجعله يفكر في مشروعات كلها طمع وأنانية.

وأخذ محمد علي يراجع خطته السياسية نحو الباب العالي فبينما كانت الحرب تشتد أوزارها ضد روسيا كان محمد علي يستعد ما عسى أن يحصل في المستقبل. فلما عادت

الجنود المصرية من حرب المورة واستقرت على أرض مصر شرع إبراهيم باشا في تهيئة عقول قادته لاستقبال السياسة الجديدة التي سوف تتخذها مصر ضد الباب العالي.

وفي خطبة له في احتفال ضباطه قال "ماذا استفدنا أنا وأنتم من السلطان؟ ألسنا في الحقيقة كلنا أولاد محمد علي الذي ربانا وعلمنا؟ ألم نأكل جميعاً من خبزه؟ إن لمحمد علي حقاً اكتسبه بالسيف ولا نعرف لنا ملكاً غيره.

وفي تلك الفترة زار مصر ضيف هو " الأمير بشير الشهابي" حاكم لبنان وكان في استقباله محمد علي باشا ولابد أن يكون قد دار بين الاثنين اتفاقات ودية استعداداً للمستقبل. ونزل بشبرا الشهابي في قصر شبرا خيت.

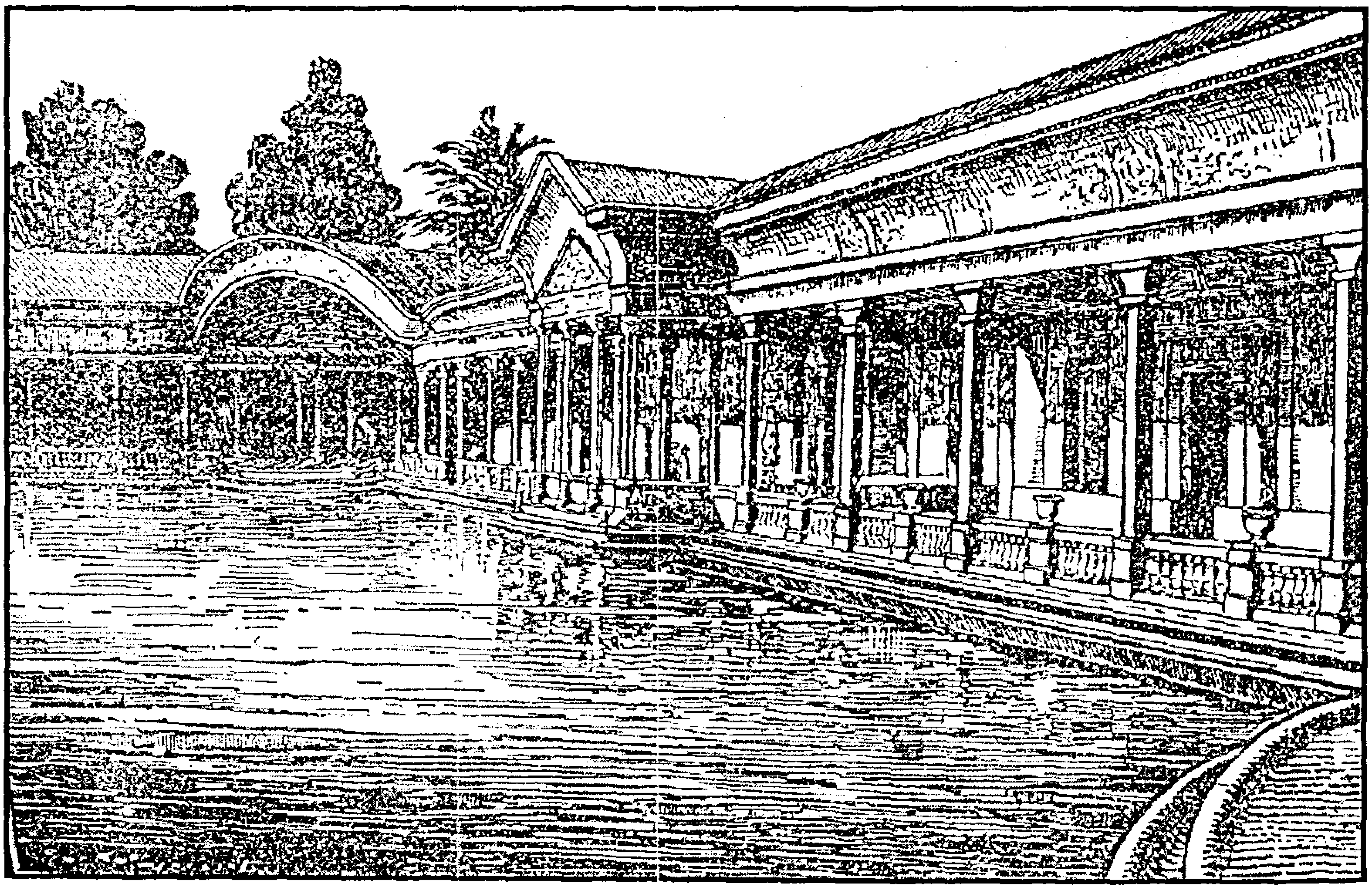

قصر شبرا

الفصل الرابع

حروب الشام الأولى والثانية في عام ١٨٣٢م - ١٨٣٣م

جغرافية بلاد الشام:

إن مصر والشام منذ فترات طويلة يؤلفان وحدة جغرافية طبيعية ومنذ أن تولى محمد علي الحكم في مصر وكانت نفسه تهفو إلى ضم البلاد الشامية إلى ولايته وأن يجعل من هذين الإقليمين وحدة سياسية واقتصادية وإذا تحقق حلمه الذي تهفو إليه نفسه فيكون قد أرسى أكبر قاعدة في البحر المتوسط بتحويله إلى بحيرة مصرية ويؤكد ذلك قوله الذي بعث به في رسالته إلى وكيله في الآستانة "أن الشام لازمة لسلامة مصر".

وهذا القول يدل على أن محمد علي رأى أن حدود مصر مفتوحة ، لكل من يطمع في السيطرة على مصر يأتي من جهة بلاد الشام هذا من ناحية ومن ناحية أخرى صحراء سيناء وحدها لا تعد حاجزًا طبيعيًا يمنع الطامعين في مصر من الدخول إلى أرضها ولا يمكن الاعتماد على الصحراء كخط منيع أعدته الطبيعة للدفاع عن مصر. فالدفاع عن وادي النيل في نظر محمد علي يبدأ من جبال طوروس وهذا أول خط دفاعي وضعه محمد علي في حساباته وهناك خط ثان يعتمد فيه على حكام لبنان. وتمكن محمد علي من إيجاد علاقات ودية مع أميرها بشير الشهابي وأتباعه وخط ثالث عمل حسابه يبدو في جبال الكرمل والخط الرابع الاعتماد على الساحل الممتد من الإسكندرونة إلى الإسكندرية.

هذه الخطوط الأربعة التي كانت تشغل بال محمد علي من الناحية السياسية والتي أعد لها قوى دفاعية تحتاج إلى قوة مدربة قد مارست الحروب من قبل، ولا يمكنه

الاعتماد على القوات القديمة ذات الأثواب المهلهلة التي لا تنفع ولكنها أحياناً تسبب القلق لقادتها فلابد له أن يعمل جاهدا في إيجاد قوات قوية ذات ضربات ليخضع أعداءه ويجعلهم يركعون أمامه في طاعة وسيأتي دورهم في الحديث عن حروبه في بلاد الشام التي نحن بصددها فوضح المعارك الحربية التي أثبت فيها الجندي المصري كفاءة عالية لا مثيل لها. والذي دانت أمام ضرباته القوية بلاد الشام وفرار القوات العثمانية ولولا تدخل القوى الدولية في وقف زحفه لكان الجندي المصري في عاصمة الدولة العثمانية وهذا سيأتي ذكره فيما بعد.

وقبل أن أوضح تلك الحروب التي أثبتت كفاءة الجندي المصري علينا أن نلقي نظرة موجزة عن طبيعة الأرض التي وقف فيها الجندي يقاتل بشجاعة نادرة الوجود. والتي سجل له التاريخ تحركاته الحربية وعملياته بأحرف من نور ملئت به كتب التاريخ عن بطولاته وشجاعته.

ومن الناحية الطبيعية تنقسم تلك المنطقة التي دارت فيها الحروب (سوريا) إلى أربع مناطق متباينة في الاتساع متوازية مع بعضها من شمال سوريا إلى جنوبها.

أول هذه المناطق: مناطق السهول المتكونة على الساحل فهي متفاوتة في الاتساع منفصلة بعضها عن بعض بالجبال وتبدو أمام ناظريها شريط طويل إلى ساحل البحر المتوسط مثل جبل الكرمل وجبال أحمر داغ بالقرب من أنطاكية، معظم هذه السهول الساحلية ضيقة تبدو متسعة في الجنوب عند سهل شارون ويبلغ متوسط عرضه حوالي ١٥ ميلاً أما بقية السهول تتجه نحو الداخل سائرة من مجاري المياه ووديان الأنهار كسهل "أسد رائيلون" شمال الكرمل. ووادي "العاصي لصق أنطاكية" غير أنه في الوسط وحول طرابلس وبيروت يضيق المنطقة الساحلية وتبدو أمام من يجتازها شريط وعر يجد من يفكر في اجتيازه جهودًا وعراقيل تقوده إلى متاعب لا حصر لها.

والمنطقة الثانية تشتمل على مجموعة جبال تشرف على السهل الساحلي على هيئة سلاسل وهي ممتدة من الشمال إلى الجنوب في الشمال نرى جبال الأنصارية "كابسوس قديمًا" وفي الوسط نرى جبال لبنان وأخرانام وفي الجنوب نرى جبال يهوذا. أما السلسلتان عبارة عن جبال عالية يصل ارتفاعها إلى ١١٠٠٠ قدم أما السلسلة الأخيرة فلها سطح فسيح غير منتظم وقليلاً يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم وتحتوي على ثنايا وقمم من الجبال.

هذه الجبال تطل على مناطق خصيبة آهلة بالسكان، فالمنطقة الثالثة تشمل مجموعة الأودية العميقة التي تسلكها ثلاثة هي "العاصي والليتاني والأردن" ويصب نهري العاصي والليتاني في البحر مباشرة فالعاصي في مجراه لدى جبال الأنصارية وجبال أحمر داغ والليتاني في مجراه أضيق لصق صور من الشمال أما الأردن ومعظم مجراه ينخفض عن سطح البحر فإنه يصب في البحر الميت، ويتميز كل من النهرين العاصي والليتاني بخصوبة وديانهما الفسيحة، أما وادي الأردن فهو ضيق ومملوء بالمستنقعات ولا يمكن عبوره إلا في مناطق مختلفة وقليلة (هو يمتد نحو الجنوب ويتصل بوادي العرابة الذي يصل إلى خليج العقبة).

أما المنطقة الرابعة فهي تقع شرقي منطقة الوديان حيث تقع الهضبة الشرقية وهي مسطحة في بعض الأماكن، جبلية في البعض الآخر.

متصلة بصحراء قاحلة في كثير من المواضع ومع ذلك تكثر فيها الأماكن الخصبة الوافرة المياه.

وفي الشمال يكون نهر الفرات وروافده حداً فاصلاً تصلح أرضه لإجراء العمليات الحربية التي حدثت في الماضي وفي الحاضر وهي ذات الحركات الواسعة.

ومن الناحية السياسية تنقسم سوريا إلى خمس ولايات وهي:

١ - ولاية حلب في القسم الشمالي من الشام.

٢- ولاية بيروت السواحل البحرية ويليها في داخل البلاد من اللاذقية شمالي حيفا جنوباً.

٣- ولاية الشام (سوريا) وقاعدتها مدينة دمشق وهي تشمل داخلية البلاد.

٤- متصرفية القدس: وتتضمن جميع البلدان الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود مصر الشرقية.

٥- منصرفية لبنان: لها نظام خاص واستقلال إداري ولها والي تعينه الدول الأوروبية مع الباب العالي كل عشر سنوات وموقعها في أواسط بلاد الشام.

الطموحات السياسية لمحمد علي في الشام

منذ تولي محمد علي حكم مصر تولدت في نفسه طموحات كثيرة منها الاستيلاء على بلاد الشام وضمها إلى ممتلكاته.. وظل هذا الطموح ينمو بسرعة حتى وصل مداه بعد خروجه من بلاد اليونان والمورة ورجوع قواته إلى مصر. وأول عمل قام به بعث إلى السلطان العثماني يطلب منه ولاية صيدا كمكافأة له عن حروبه مع اليونانيين وتحطيم أسطوله في المورة، ولكن السلطان خالف رغبة محمد علي خشية أن يعطيه ولاية صيدا فيتوسع منها إلى بقية بلاد الشام ولكي يرضيه أسند إليه حكم جزيرة كريت، وحز في نفس محمد علي رفض طلبه من قبل السلطان، ولم يسكت عن تحقيق رغبته بأية غاية وأية وسيلة. فلجأ إلى الباب العالي عارضاً عليه ضم بلاد الشام إلى حكم مصر في مقابل دفع جزية سنوية قدرها ١٠٠ ألف كيس في مقابل ذلك. ولكن قوبل عرضه بالرفض.

وأصبحت الدوائر السياسية البريطانية عن طريق سفيرها في الآستانة تلعب بعواطف محمد علي أثناء حربه في بلاد الروم فألمحت إليه بأنها ستسانده في تحقيق طلبه حتى يتم استبعاده عن اليونان وسحب قواته منها وبعد انسحاب القوات المصرية من بلاد اليونان قلبت إنجلترا له الوجه الثاني وراوغته ثم رفضت مساندته.

وظهرت على الشاشة السياسية بوادر سوء النية بين السلطان العثماني ومحمد علي. فرأى محمد علي أن سيطرته على بلاد الشام لازمة لكونها الحاجز الطبيعي بينه وبين السلطان عندما يحاول الباب العالي انتزاعه من علي كرسي الولاية في مصر. فعليه أن يحافظ على الممتلكات التي حصل عليها بحد السيف في الجزيرة العربية والسودان ولذا وجد من الأفضل عليه أن يعد العدة في الفترة القادمة لأخذ هذه المنطقة سواء باستخدام المال أو بالحرب. فالمنطقة بالنسبة إليه مسألة حياة أو موت والتواجد فيها دفاع ضد الغزوات التي تأتيه من الخارج، كما أن هذه المنطقة هي صمام الأمان والاستقرار والنظام لمصر. ومن الطبيعي أن مصر والشام وحدة استراتيجية طبيعية لا بديل لها وهذا الذي جعله يبعث برسالة إلى وكيله "محمد نجيب بك" في الآستانة يقول له" إن الشام لازمة لسلامة مصر" ومن ناحية أخرى إن الشام من الاستراتيجيات السياسية والحربية إذ تعد بلاد الشام تأميناً لحدود مصر وحماية لبقاء محمد علي في ولاية مصر وحماية للممتلكات المصرية.

ومن الناحية الاقتصادية فالشام لا يقل أهمية عن مصر وكان محمد علي يسعى حثيثاً نحو تنمية اقتصاده ليحصل على أكبر عائد مادي لخدمة أهدافه وطموحاته في تكوين امبراطورية عربية إسلامية تضاهي الامبراطوريات الأوروبية على الشاشة السياسية العالمية. فهو في حاجة إلى المواد الخام التي تخدم صناعاته في مصر والتي تدر عليه عائداً كبيراً من المادة كما أن هذا العائد المادي يعطيه دفعة قوية في تقوية قواته الحربية في المنطقة ولذلك تمكن من إيجاد علاقات ودية سياسية بينه وبين اللبنانيين حتى يمكنه الحصول على احتياجاته من الفحم الحجري من جبل لبنان الذي يدخل في صناعة الحديد والصلب الذي هو من مكونات المعدات الحربية فاتفق معهم على كمية هذه المادة التي تأتي سنوياً إلى مصانعه وهو أيضاً في حاجة إلى الأخشاب لبناء أسطوله الحربي والنقلي الذي حطم في نفارين. فهو يحتاجه أيضاً في عمليات أخرى في الداخل ولا توجد في مصر غابات يعتمد على أخشابها لتغطية احتياجاته وتمكنه كاكتفاء ذاتي.

وأقرب منطقة يمكن أن تمده بما يلزم من الأخشاب هي بلاد الشام لأن أشجارها منتجة للأخشاب. وكان سابقاً يستورد الأخشاب من مناطق بعيدة وهذا يكلفه أموالاً طائلة يحتاجها في عملية التنمية الاقتصادية التي شرع في إقامتها. كما أن الدول الأوروبية التي حطمت أسطوله في بلاد اليونان لم تفوض عنه، وكذلك الدولة العثمانية لم تمد إليه المعونة حتى يعيد بناء أسطول جديد . فلما لا يستجيب لطموحاته نحو بلاد الشام التي توفر المواد الخام والمال.

بدأ محمد علي رحلته الاقتصادية عن طريق والي الشام فطلب منه أن يسمح لبعثة مصرية لها خبرتها في قطع الأخشاب وإرسالها إليه من إسكندرونة إلى الإسكندرية تنفيذاً لأمر السلطان وأن يقوم بترميم التالف من الأسطولين المصري والعثماني. كما يحتاج إلى بعض الأخشاب كوقود في تشغيل مصانعه. كل هذا كان دافعاً قوياً له بأن تكون بلاد الشام تحت سيطرته.

ولم يكن الفحم الحجري والأخشاب هما المادتين الخام اللتين يحتاجهما في الصناعة فهناك الحرير الطبيعي الذي يحصل عليه من دمشق حيث كانت أشجار التوت تملأ المنطقة ويربي عليها دودة القز المنتجة للخيوط الحريرية وأن الحرير الطبيعي الذي عرف بالحرير الدمشقي وصار له شهرة عالمية حيث كان من أهم صادرات بلاد الشام ويدر عليها مبالغ طائلة فلم لا يحتكر بيعه وتصديره ؟ وهناك الزيتون وصناعة الصابون والجلود والطباق (التبغ) والخيول العربية ذات الشهرة العالمية. فإذا كانت المنطقة تحت سيطرته فمن حقه أن يحتكر كل ذلك لمصلحة أهدافه.

وهناك قوة بشرية هو في حاجة إليها في التجنيد العسكري لأن التركيبة الجسدية لأهالي الشام تركيبة تنقص الجيش الجديد الذي يعده ليقوم بما تتطلبه الفترة القادمة.

ويعبر محمد علي عن هدفه وطموحاته كرجل سياسي له حجته أمام شعبه بقوله "إن هدفي من السيطرة على الشام هو تعميرها وتأمين طريق الحج". ويرى من ضم

الشام ودمشق والقدس الشريف وهو أحد المراكز الثقافية الإسلامية. ويبدو بانضمام كل هذه المناطق إليه مع مصر أنه يسعى إلى أن يحقق القيادة الإسلامية له. فعندما اختمرت هذه الفكرة في نفسه سارع إلى الدخول في حرب ليحقق ما يريد.

الحملة الأولى لبلاد الشام

الإعداد لحملة الشام في عام ١٨٣١م:

يتكون جيش محمد علي باشا الذي زحف إلى بلاد الشام من جيش بري وآخر أسطول بحري.

أولاً: الجيش البري: وهو يتكون من فرقتين مشاة وخيالة.

المشاة: هم الآلايات الخمسة (٨، ١٠، ١٢، ١٣، وآلايات للحرب).

الخيالة: هم الآلايات الأربعة (٣، ٥، ٦، ٧، والمدرعة).

عدد الجنود من المهندسين: ٤٠٠ جندي

عدد القوات البدوية من الخيالة: ١٤٠٠ رجل بدوي على خيولهم.

عدد حاملي المهمات: ٤٠٠ جمل يقودهم أتباع لنقل مهمات الجنود والمياه.

عدد الجنود التي اشتركت في الحملة: ٢٥٠٠٠ جندي مشاة بالإضافة ٣٠٠٠ من الخيالة.

- القوات التي نالت قسطاً كبيراً من فنون القتال في المعارك الحربية.

ثانياً: الأسطول البحري: مكون من ثلاث وعشرين سفينة حربية متمثلة في ٧ فرقرطات، ٣ أباريق، ٦ قرونية، ٧ مدفعية. وقيادة الأسطول لأمير البحر عثمان نور الدين باشا.

وقسمت الحملة إلى قسمين:

القسم الأول لإبراهيم باشا الذي اتخذ البحر طريقاً يصل به إلى يافا وكانت قاعدته ثغر العريس.

القسم الثاني: مكان تحت قيادة إبراهيم يكن باشا الذي تحرك براً من الخانقاه.

أمير اللواء إبراهيم يكن باشا

بداية سير الحملة:

قد حددت القيادة العامة سير الحملة في أوائل عام ١٨٣١م لكن تأجل سيرها من انتشار الكوليرا في مصر الذي أدى هذا المرض إلى سقوط ما يقرب من ٥٠٠٠ جندي موتى.

وقد بدأت الحملة سيرها في ٢٩/ ١٠/ ١٨٣١م وتحركت الطليعة من معسكر الخانقاه بقيادة اللواء إبراهيم يكن باشا الذي وصل إلى بلبيس والصالحية قياطبه فعبر الصيد والعريش حيث استراح هو وجنوده لمدة يوم ثم وصل خان يونس فغره ومنها اتجه إلى يافا حيث التقت بالسفن التي سافرت إليها بقيادة إبراهيم باشا بحراً ولما اكتملت القوات المصرية عدة وعدداً رأى وجهاء ثغر يافا أنه من الحكمة أن يعرضوا على إبراهيم باشا تسليم مدينتهم خشية أن تتعرض حياتهم بالدماء. وأن حامية المدينة وعددها ٢٥٠ جندياً لا يمكنها أن تواجه جيشاً مدرباً على أحدث فنون القتال.. وافق إبراهيم باشا على العرض فأرسل قوة من جنوده لاستلامها. فاستولت على العلقة ومدافعها وذخائرها وكان عدد المدافع ٤٧ مدفعاً بذخائرهم فموقع يافا له أهميته لقربها من البحر والميناء على استعداد أن يستقبل السفن الآتية إليه وكان للمدينة سور وأبراج متبعة ثم اندفعت إحدى الكتائب فاستولت على بيت المقدس فاحتلته وتقدمت قوات تحت قيادة أمير البحر الإسكندراني باشا فاستولى على صور وصيدا وطرابلس.

الترتيبات التي اتخذتها القيادة للحملة ما بين مصر والشام:

التنظيم الحربي يفرض على قادة الجيش بوضع ترتيبات إدارية منتظمة لتفي القوات باحتياجاتها من مؤن وذخيرة في ميدان الحرب. وإذا قطعت هذه الإمدادات لأي جيش مهما كانت قوته قد يتعرض للهزيمة. ومن أهم الترتيبات التي وضعت للقوات المصرية:

أولاً: تخزين كميات وفيرة من التعيين الجاف والذخيرة والبارود والخرطوش والأكياس والقذائف الحجرية وغيرها من الفشنك.

ثانياً: تخزين علائف الخيول ومهمات المدافع.

ثالثاً: كانت القوات الإدارية ترسل كشوفاً عن مستودعات الإمدادات الموجودة منها والنقص فيها.

رابعاً: أقيمت مستشفيات ميدانية لعلاج المرضى والجرحى.

كل هذه الترتيبات أقيمت في المدن والثغور التي استولى عليها الجيش المصري. وقد عبر أحد المهندسين عن وضع القوات المحاربة البعيدة عن مصر في تقرير له يقول فيه "بما أن الجيش المصري أصبح بعيداً عن مصر يحول بينه وبينها صحراء وأن طريق البحر ليس بمأمون دائماً وأنه ليس هناك غلال تموين الجيش لسبب ما استحكم في البلاد المفتوحة من القحط والغلاء فاقترح ما يأتي:

أولاً: مد خط من مصر وإنشاء شون للغلال على خط مستقيم على طول الجهات التي تمتد فيها الحركات العسكرية في الصالحية وقاطبة والعريش وغزة ويافا وحيفا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس و ما إليها. ويودع في كل هذه الشون مقدار واف من وسائل النقل ليتولى إيصال ونقل مؤن الجيش من مصر إلى محطة فحطمه حتى المعسكر.

ثانياً: ينشأ في دمياط مستشفى كبير ليرسل إليه من الجيش العساكر المرضى والضعاف للعلاج. وتنشأ أيضاً أورطة مؤقتة أو بلوكات تؤلف من الذين يشفون من هؤلاء المرضى ومن العساكر الجدد. فبعض منهم الحراس في الشون كما يسد منهم النقص الذي يحصل في الآلايات. وأخذ بهذا النظام فيضان كيان الجيش بحيث تبقى الآلايات التي يكون منها العدد كاملة ويحفظ أيضاً الطريق المشترك الذي بين مصر والشام ويقل للغاية عدد الخسائر التي تحدث في الدواب بسبب طول الطريق".

حصار عكا:

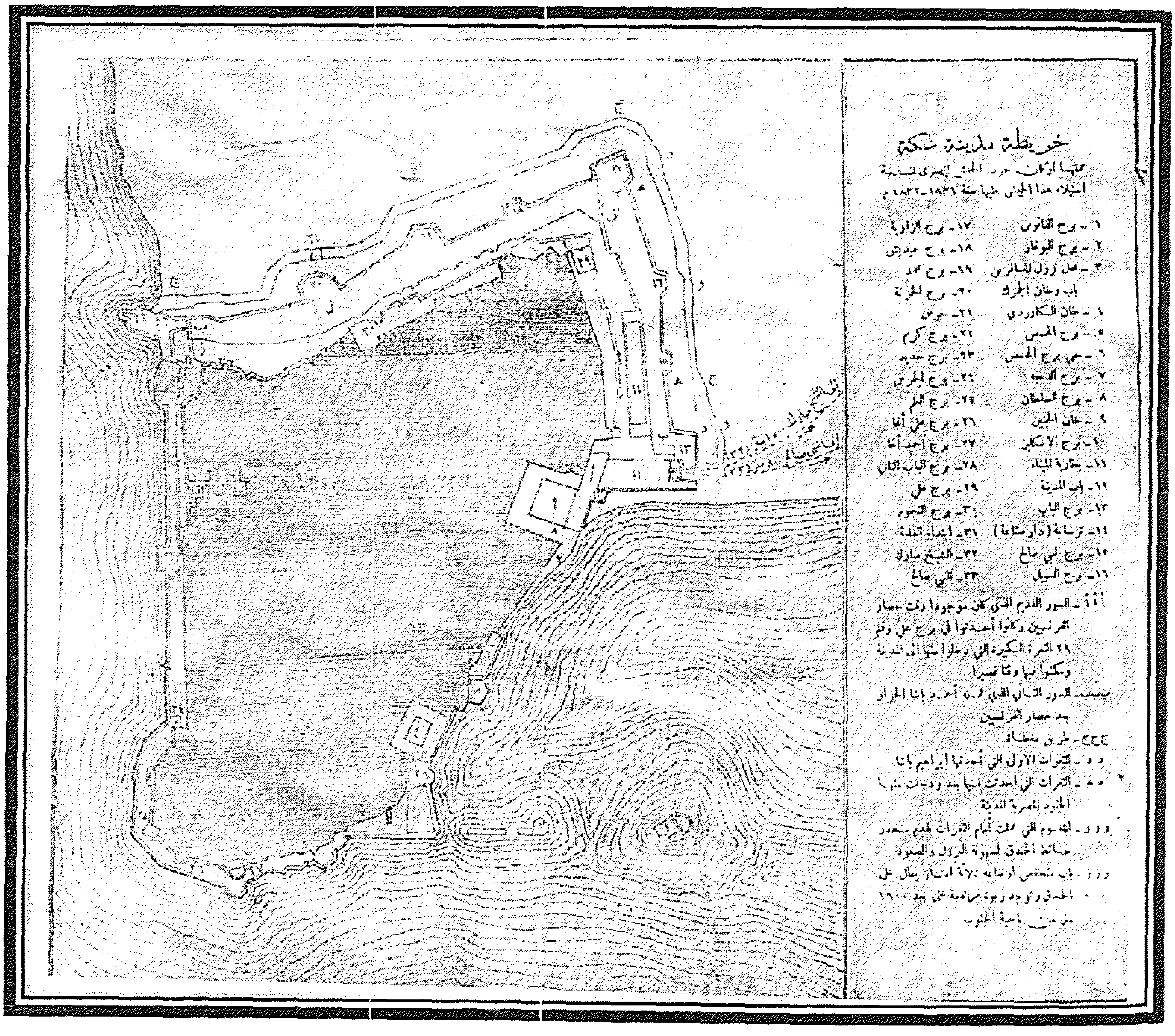

خريطة توضيحية لتحركات الجيش المصري في حصاره لعكا

عكا تلك المدينة المتبعة التي أعجزت القائد الفرنسي نابليون بونابرت منذ ١٧٩٨م وقد بذل حاكمها أحمد باشا الجزار قي تقوية استحكاماتها القديمة بعد انسحاب الفرنسيين من سوريا.

وقد وثق عبد الله الجزار مطمئناً بأن الجيش المصري مهما بلغت قدراته واستعداده القتالية يكون عاجزاً عن اقتحامها. ورغم هذه الثقة فإن حامية المدينة مؤلفة من ٣٠٠٠ مقاتل. وشعر أن مقاتليه رغم قلتهم أنهم على استعداد للدفاع عن مدينتهم دفاع المستميت.

ضرب الجيش المصري على عكا حصاراً على المدينة من ناحية البر واشترك الأسطول المصري في حصارها بحراً، واندفعت القذائف على أسوار عكا وحصونها براً وبحراً في آن واحد. ولقد أثبتت القوة العكية جدارتها حينما اندفعت قذائفها نحو البحرية المصرية فأحدثت بها أضراراً في بعض السفن مما اضطر قائد الأسطول أن يأمر بالرجوع إلى الإسكندرية لإصلاح ما أصاب أسطوله من التلفيات وظلت المدفعية بين حين وآخر تطلق قذائفها على المدينة مدة ثلاثة أشهر دون أن تنال منها شيئاً ووضع إبراهيم خطة خلال هذا الحصار احتل فيها بعض المواقع الهامة في ولاية صيدا وما حولها.

ووسط هذا الحصار بادرت السلطات العثمانية بإرسال مندوب عنها إلى محمد علي باشا تأمره بالكف عن القتال. وكان محمد علي باشا على علم تام بأن أحوال الدولة العثمانية في أوج حالات الضعف والارتباك ومهما كان الأمر فإنها عاجزة عن حشد جيش يمكنه أن يقف في وجه محمد علي. وبدأت دبلوماسية محمد علي بأنه أخذ في عدم الاستجابة لأوامر العثمانيين وتظاهر بأنه في غاية الإخلاص للدولة العثمانية.

وفي نفس الوقت أبرق إلى ابنه بأمره بمواصلة الحرب دون توقف وتشديد الحصار على عكا حتى يتم الفتح قبل أن تحشد تركيا قواتها وترسلها لنجدة المدينة إذا فكرت في مد المدينة بإمدادات دفاعية.

ولم يتوان الباب العالي فحشد على الفور ٢٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة عثمان باشا اللبيب والي طرابلس وأمره برفع الحصار عن المدينة. تحرك الجيش العثماني نحو المدينة وانضم إليه حشد من الأكراد والعرب. وعندما وصلت أخبار هذا التحرك العثماني إلى القائد العام إبراهيم باشا عقد مجلسه الحربي المكون من ضباطه وأركان حربه لتدبير الأمر. ووضعت خطة اتفق عليها الجمع بأن تبقى قوة كافية لمتابعة الحصار وأن يتحرك بقية الجيش ليشتبك مع الجيش العثماني في الطريق فيتغلب عليه قبل أن يصل إلى عكا.

حاول عثمان باشا قائد الجيش العثماني أن يحتل طرابلس بقوة تبلغ عشرة آلاف مقاتل ولما اشتبك مع الحامية المصرية ردته وبادر إبراهيم باشا إلى نجدة الحامية وسار إليها بطريق الساحل، فلما رأى عثمان هذا التحرك المصري سارع إلى الارتداد عن المدينة.. ظل إبراهيم في المدينة خشية أن يعود عثمان باشا مرة أخرى إليها. لكن وصلته الأخبار بأن عثمان باشا يطلب مدداً من الآستانة وهذا دليل واضح لإبراهيم باشا أن الجيش العثماني في حالة الضعف وأن المدد لم يصل إلى عثمان قبل شهرين.

عاد إبراهيم باشا إلى حصار عكا مشدداً وشرع في رمي المدينة بقذائف مدفعيته أو ظل يضرب بشدة وبصفة متوالية حتى أحدث في سور المدينة تصدعاً أوجد فيه ثغرتان كبيرتان. فأصدر أوامره إلى قواته بالهجوم على المدينة في ٢٧/ ٥/ ١٨٣٢م.

دخلت القوات المصرية المدينة من خلال الثغرتين... وظل القتال في داخل المدينة حتى غروب الشمس. ودافعت المدينة دفاع المستميت وقد أبدت القوات المصرية شجاعة منقطعة النظير وقد أثبتت قوات الحامية في المدينة صمودها ودفاعها المستميت.

وفي نفس الوقت رأى عبد الله الجزار من خلال الخسائر الفادحة أن يطلب التفاوض مع المصريين بشأن تسليم المدينة. وبهذا انتهى الحصار لعكا.

والإحصائية التي وضحت خسائر كلا الفريقين تدل على أن القتال على أشده. فقد فقدت القوات المصرية في هذه المعركة ما يقرب من ٤٥٠٠ قتيل من أشجع رجالها.

وخسرت الحامية ١٤٠ قتيلاً وهذه خسارة فادحة لأن تعداد الحامية ثلاثة آلاف جندي. وقد سلم عبد الله باشا والي عكا إلى إبراهيم الذي أكرمه وأرسله إلى الإسكندرية حيث أسكنه محمد علي قصراً خصص له. ثم طلب عبد الله من محمد علي أن يأذن له بالذهاب إلى الحجاز فأذن له بأن يذهب إليها وقد مات ودفن فيها.

فتح دمشق في ١٨٣٢/٦/١٦م:

غادر إبراهيم باشا بعد سقوط عكا في يديه إلى دمشق. ومعه من القوات ١٨٠٠٠ من المقاتلة منهم ٩٠٠٠ من الجنود النظامية و ٩٠٠٠ من الفرسان المصريين والبدو والدروز وحدث عند وصوله إلى مدخل دمشق أن اشتبك مع قوات الجيش العثماني فانهزم فيها العثمانيين.

ولم يبد السوريون أية مقاومة للجيش المصري ويرجع ذلك إلى سوء معاملة الحكام الأتراك لهم.... وعندما علم الأعيان السوريين بقدوم إبراهيم قابلوه وقدموا فروض الطاعة له فدخل الجيش المصري المدينة في ١٦/ ٦/ ١٨٣٢م. وقد أقام في دمشق ١٨ يوماً وقد قام بتنظيم الإدارة فيها على أحدث النظم الجديدة وعين أحمد بك متسلماً عليها وأنشأ ديواناً مؤلفاً من ٢٠ من أعيان المدينة أطلق عليه "ديوان المشورة" ومهمة هذا الديوان النظر في أمور الرعية ودعواهم وكذلك النظر في أمور الحكومة وما سبقها.

موقعة حمص ٨ يوليه ١٨٣٢م:

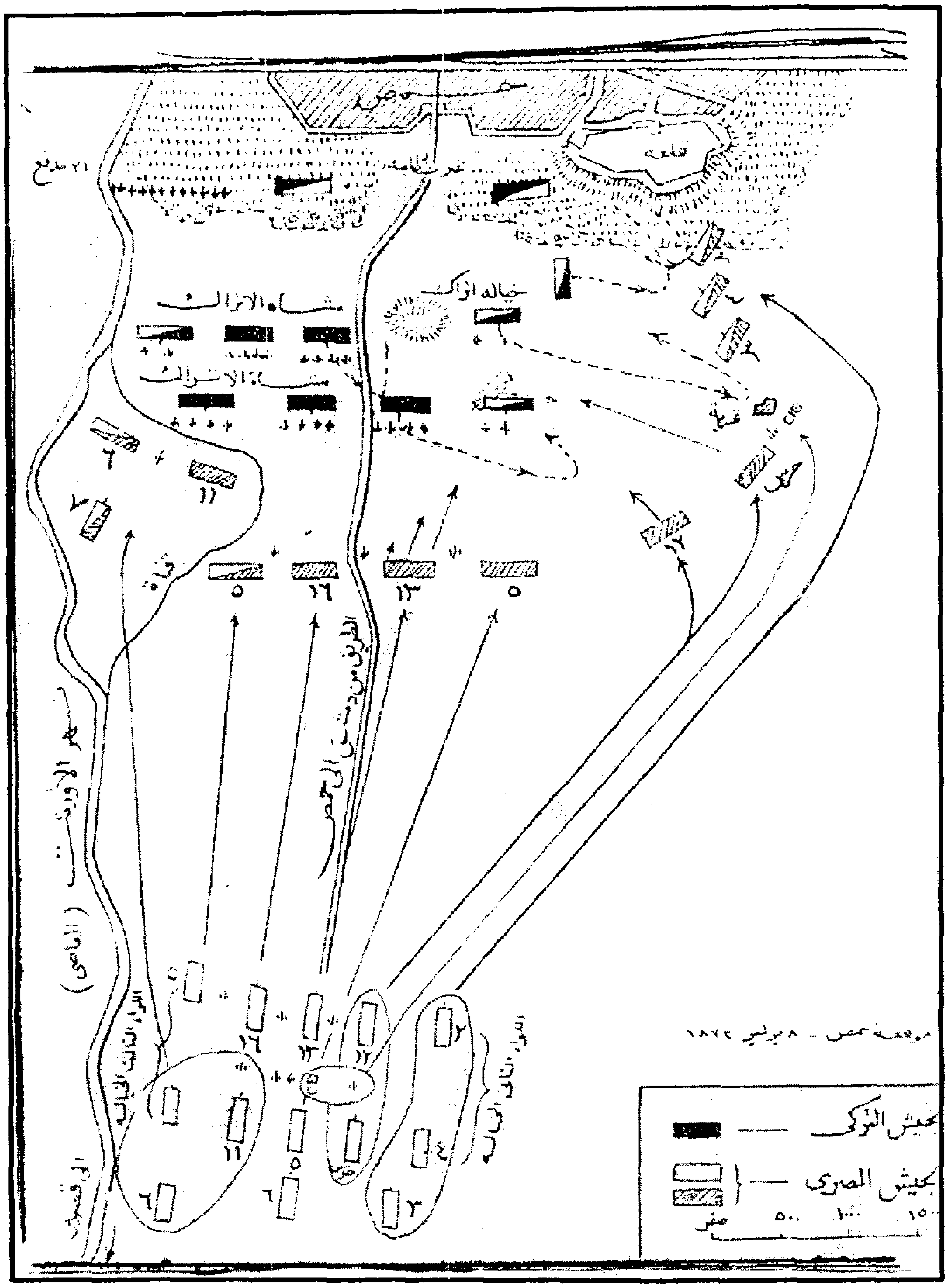

خريطة توضح كيف تم فتح حمص

كان سقوط عكا في أيدي إبراهيم باشا هام بالنسبة إلى مصر أما بالنسبة إلى الباب العالي قد سببت له جزعاً شديداً. وكان في اعتقاده أن عكا ستصمد أمام ضربات الجيش المصري كما صمدت في وجه نابليون والفرنسيين. وقد سببت له أيضاً جرحاً شديداً

خشى على مركزه أن يتزعزع أمام قوة مصر الضارية. وعلى الفور أعلن عصيان محمد علي في أوائل مايو سنة ١٨٣٢م أثناء حصار عكا كما أنه أعد عدته لضرب القوات المصرية بحشده قواته التي بلغت ٦٠٠٠٠ جندي لقتاله ووضع تحت القيادة العثمانية ٢٥ سفينة حربية للإقلاع من الدور قبل محاربة الأسطول المصري. وجعل قيادة الجيش العثماني المقاتل "السير عسكر حسين باشا" قاهر الانكشارية وأنعم عليه بلقب "سرداراكرم" ويعد حسين باشا من أكفأ القادة العثمانيين. ووعده بحكم مصر وكريت إذا حقق نصراً على الجيش المصري. ولو حدث ذلك لعاشت مصر كما كانت تعيش قبل حكم محمد علي ولعادت الفوضى إلى قلب مصر ولقضى على الاستغلال الذي نالته مصر.

ووضع إبراهيم خطته القتالية من أركان حربه واتفق القادة المصريين على أن يبدأ الهجوم وحدد لذلك موعداً.

بينما جيش حسين باشا العثماني كانت تحركاته بطيئة للغاية وما كاد أن يصل إلى جبال طوروس إذا أمر قيادة مقدمة الجيش العثماني بالتحصن في "حمص" ووصلت أخبار الخطة العثمانية إلى إبراهيم باشا الذي قرر على الفور سحق هذه المقدمة وبالتالي يمكنه أن يوقع الهزيمة بالقوات العثمانية. وتقدم إبراهيم زاحفاً من دمشق إلى حمص مع قواته التي قدرتها الإحصائيات بنحو ٣٠٠٠٠ مقاتل.

وتقع مدينة حمص على الشاطئ الأيمن لنهر العاصي ولهذا الموقع أهمية كبرى لأنه ملتقى عدة طرق فهو على طريق "بعلبك ودمشق جنوباً وطريق أنطاكية وحلب شمالاً".

ويمكنك بالإطلاع على الخريطة السابقة أن تعرف كيف اصطف الجيش العثماني والجيش المصري.

أمر إبراهيم باشا كتائب الفرسان التي كانت على ميمنة الجيش بالزحف شرقاً لتقوم بحركة التفاف حول مسيرة الجيش العثماني ولقد قاد بنفسه هذه الحركة لأن

بنجاحها يكون مصير المعركة لصالحه واشتبك الفرسان المصريون مع فرسان الترك وكان الهجوم على أشده . وعلى أثر ذلك تراجعت فرسان الترك أمام قوة الهجوم المصري وشدة ضرباته، فتفرقوا واحتل المصريون الأرض التي كانت بين حدائق حمص. ولكن اشتبك فرسان الترك مرة أخرى مع المصريين فأوقع الفرسان المصريون الهزيمة بهم. وهجمت المشاة المصرية من القلب هجمة شديدة أدت إلى تقلقل الوضع لدى القوات التركية التي تقهقرت إلى الوراء وبذلك انهزم الجناح الأيسر من الجيش العثماني.

وصدر الأمر من إبراهيم باشا إلى ميسرة الجيش المصري بأن تزحف غرباً فاجتازت القناة التي تتفرع على نهر العاصي ثم تتبعها المدافع وبهذا تمكنت من احتلال شاطئ القناة الأيسر وبتلك الحركة تمكنت القوات المصرية من سد الطريق أمام الأتراك.

وصارت القوات التركية في حالة عجز أفقدتها مقاومة بالهجوم وأدى ذلك إلى تحرج الجيش التركي أمام هجمات المصريين وزاد الأمر حرجاً بأن المدافع المصرية أطلقت قذائفها بإحكام فأصابت أهدافها.

وحصدت أرواح بعض جنود الأتراك أما المدفعية التركية لم يكن لها أي تأثير في ميدان المعركة. واشتبك المشاة الأتراك مع المشاة المصريين وكانت نتيجة هذا الاشتباك أن ولت المشاة التركية الأدبار وبهذا سارع إبراهيم إلى احتلال مواقع الجيش العثماني.

وبلغت خسائر الجيش العثماني ٢٠٠٠ من القتلى و ٢٥٠٠ من الأسرى واستولى الجيش المصري على ٢٠ مدفعاً وعلى ذخائرهم أما الخسائر المصرية بلغت ١٠٢ من القتلى و١٦٢ من الجرحى وتعد هذه المعركة من أهم المعارك التي خاضها الجيش المصري.

وقفة للتعرف على الموقف بعد هذه الحركة:

بعد الهزيمة التي أصابت القوات العثمانية في معركة حمص اضطرت القيادة العثمانية أن تنسحب إلى حلب. ويعيب المؤرخون على انفصال جزئي الجيش العثماني بعضهما عن بعض في هذه المعركة وهذا الانفصال قد أعطى للجيش المصري فرصة للقضاء على الجيش العثماني ويرجع ذلك إلى انعدام الكفاءة الحربية بين الجيش العثماني. ويؤكد المؤرخون إلى تسرع قيادة الجيش العثماني الذي تحت قيادة محمد باشا في المواجهة مع الجيش المصري والتي أدت إلى هزيمته فلو انتظر محمد باشا قدوم جيش حسين باشا واتحد الجزآن ربما تغير مصير معركة حمص. كما لا ننسى أن ارتباك الحكومة العثمانية في الآستانة كان ذلك سببًا في هزيمة الجيش العثماني في حمص.

بعد ذلك قرر الجيش العثماني المهزوم ومعه بقية الجيش الذي تحت قيادة حسين باشا أن يرتدوا جميعاً إلى حلب ليتحصنوا فيها ويتخذوها قاعدة حربية لقتال الجيش المصري وكطبيعة العثمانيين طلبت القيادة العثمانية بالأمر من أعيان حلب أن يمدوهم بالمؤن والرجال ونسوا أن نظام حكمهم قد كتب عليه الكراهية وأن سكان حلب في انتظار من يخلصهم من حكمهم. ورأى من الحكمة أن لا يسمحوا لأي جندي عثماني دخول مدينتهم وشفقة على المرضى والجرحى من الجنود أن يدخلوا وأغلقت أبواب المدينة في وجه القوات العثمانية.

وفي تلك اللحظة كان إبراهيم باشا يتقدم نحو حلب ولم يجد حسين باشا القائد العثماني مكاناً معيناً لجنوده يمكنه علاقات الجيش المصري فقرر الانسحاب شمالاً إلى مضيق ميلان.

واقعة بيلان في ١٨٣٢/٦/٣٠م:

عند وصول الجيش المصري إلى حماة ومنها إلى حلب فلم يجد أية مقاومة سواء من القوات العثمانية التي انسحبت قبل وصول المصريين ولا من أهالي المدينتين وإزاء ذلك الموقف مكث إبراهيم باشا أياماً استراح فيها هو وقواته. وفي أثناء تواجده جاءت وفود أورفا وديار بكر معلنة أن حكم مدينتيهما لمصر.

وبدأت إشارة الزحف للقوات المصرية نحو ميلان حتى صارت على مقربة من القوات العثمانية المتحصنة. فالجيش العثماني الذي يقوده حسين باشا لديه ما يقرب من ٤٥٠٠٠ جندي نظامي ويحمل من السلاح والذخيرة ما يكفيه ويزيد ومعه مدفعية قدرتها الإحصائيات بـ ١٦٠ مدفعاً. هذا الجيش لا يستهان به وبالإضافة إلى الموقع الذي تحصن به لكن تعوزه الكفاءة لدى قيادته والخبرة الحربية التي لا مناص منها وكانت حالة مقاتليه لم تكن على ما يرام من الناحية المعنوية ويرجع ذلك إلى أمرين أحدهما الهزائم التي تثبت به هذه القوات في حربها على المصريين والثاني التغييرات المستمرة في القيادة العثمانية وعدم كفاءتها قد جعل حالة الجنود العثمانيين على غير ما يرام.

أما حالة الجيش المصري تحت قيادة إبراهيم قد ملأت حياتهم بذكرى انتصاراتهم التي أحرزها على القوات العثمانية مما جعل الجنود المصريين الالتصاق بقيادتهم وعلى رأسها إبراهيم باشا الذي سار بهم من نصر إلى آخر.

وقبل أن نتحدث على الموقعة التي وقعت في ميلان علينا أن نتعرف على موقع مدينة ميلان فهي تقع جنوبي الأسكندرونة وشمال المضيق (انظر الخريطة) والجبل المعروف باسمها ويتصل بها طريقان أحدهما من كليس والآخر من أنطاكية ويقترب الطريقان رويداً حتى سطح الجبل ويفصلهما نحو ثلاثة آلاف متر ثم يلتقيان في المضيق حتى يصيرا طريقاً واحداً يصل إلى المدينة.

اختار الجيش العثماني مواقعه على قمم جبال ميلان أما الجيش المصري فقد اختار مواقعه في السهل تحت المضيق غربي المضيق الذي يصل كليس إلى أنطاكية.

رأى إبراهيم باشا أن مواقع الجيش العثماني منبعه يصعب على قواته التي في السهل أن تنال منها. وعلى الفور اجتمع مع أركان حربه وقياداته وضباطه لوضع خطة الهجوم وتحقيق النصر . وبعد أن استعرض الآراء اتفق الجميع على ألا يتم هجوم مواجه للترك ورأى أن يدور حول مسيرة الجيش العثماني من الجنوب تهميداً للإحاطة بهم ثم يحتل بعض المواقع التي تتسلط على قلب الجيش العثماني ويجعل المشاة الأتراك هدفاً لقذائف المدافع المصرية. وفي نفس الوقت يتحرك جزء من قواته للإحاطة بيمنة الجيش العثماني. تولى إبراهيم باشا قيادة هذه الحركة وتنفيذ الخطة التي اتفق عليها وبها يتحقق مصير المعركة.

وتحيط بحركة الميمنة التي تولى إبراهيم قيادة قواته فيها شيئاً من المصاعب لقواته فعليهم أن يسيروا إلى أعلى في طرق وعرة وقد احتملوا ما لا يطاق لأي جندي مهما كانت قدراته الجسدية أن يجتازها. وعندما تبين للقوات التركية مقدم القوات المصرية نحوهم، انطلقت المدفعية العثمانية نحو المصريين ترميهم بنيران شديدة قابلها المصريون بإطلاق مدافعهم على قلب ومسيرة الجيش العثماني ووسط هذه القذائف المدفعية من الجانبين استمر جزء من القوات المصرية حسب الخطة التي اتفقت على تنفيذها القيادة تزحف شرقاً نحو الجناح الأيسر للقوات العثمانية. ثم هجم المصريون من الأمام ومن الجنب هجوماً شديداً على القوات العثمانية التي رأت هذه القوات فمن الأرجح لها أن تنسحب شمالاً خشية الإيقاع بها وقد أتت الخطة المصرية أكلها إذ ظهر للقيادة المصرية هزيمة القوات العثمانية وأخذت القوات المصرية في تعقب هذه القوات المنسحبة ومطاردتها بالمدافع والبنادق فوقع في صفوف العثمانيين الاضطراب وحلت بهم خسائر فادحة.

ووسط هذا الهجوم الشديد من جانب المصريين تحرج مركز قوات الخيالة العثمانية خاصة بعد أن احتلت القوات المصرية المرتفعات المشرقة على مواقعهم فلم يقاوموا طويلاً فسارعوا إلى الانسحاب شمالاً من غير نظام وبذلك تفرق شملهم.

واصل المصريون تقدمهم إلى طريق ميلان فتخرج قلب الجيش العثماني إذ رأى قادته ما حل بالجناح الأيسر لقواتهم وأدركوا أن خط الرجعة إلى ميلان أصبح مقطوعاً ووصل المصريون إلى الطريق فلم تثبت هذه القوات أمام هجمات القوات المصرية. فما كان منهم إلا أن فروا من مواقعهم إلى الجبال وسارع المصريون باحتلال المواقع العثمانية. وأصاب الجناح الأيمن ما أصاب القلب والميسرة في الجيش العثماني ولم يصمدوا للقتال فاضطروا أن يتخلوا عن مواقعهم.

وبذلك بعد ثلاث ساعات من بداية المعركة حتى نهايتها التي أدت إلى هزيمة القوات العثمانية فقد العثمانيون فيها ٢٥٠٠ قتيل وجريح ووقع في الأسر ٢٠٠٠ أسير وغنموا ٢٥ مدفعاً وكثيراً من الذخائر.

وظهرت الأعلام المصرية تحقق على مدينة ميلان معلنة النصر. أما بقية القوات العثمانية قد فرت إلى الأسكندرونة لتلجأ إلى الأسطول لكن لم يدركوه لإقلاع الأسطول بعد هزيمة ميلان وسار إليهم المصريون فأسروا الكثيرين منهم واحتلوا الأسكندرونة ثم سارت فرق الخيالة المصرية حذاء الساحل واحتلوا "مياس" شمال الأسكندرونة وأسروا فيها ١٩٠٠ مقاتل من الجيش التركي وبعد ذلك جاءت المدن التالية " أنطاكية واللاذقية والسويدية" طائعين تحت لواء الحكم المصري. وبهذا النصر كانت نكبة الجيش العثماني نكبة صاعقة ولم يعرف مصر قائده وربما هام على وجهه خشية الفضيحة التي تلاحقه وخشية العقاب الذي سوف يلاقيه إذا عاد إلى الآستانة.

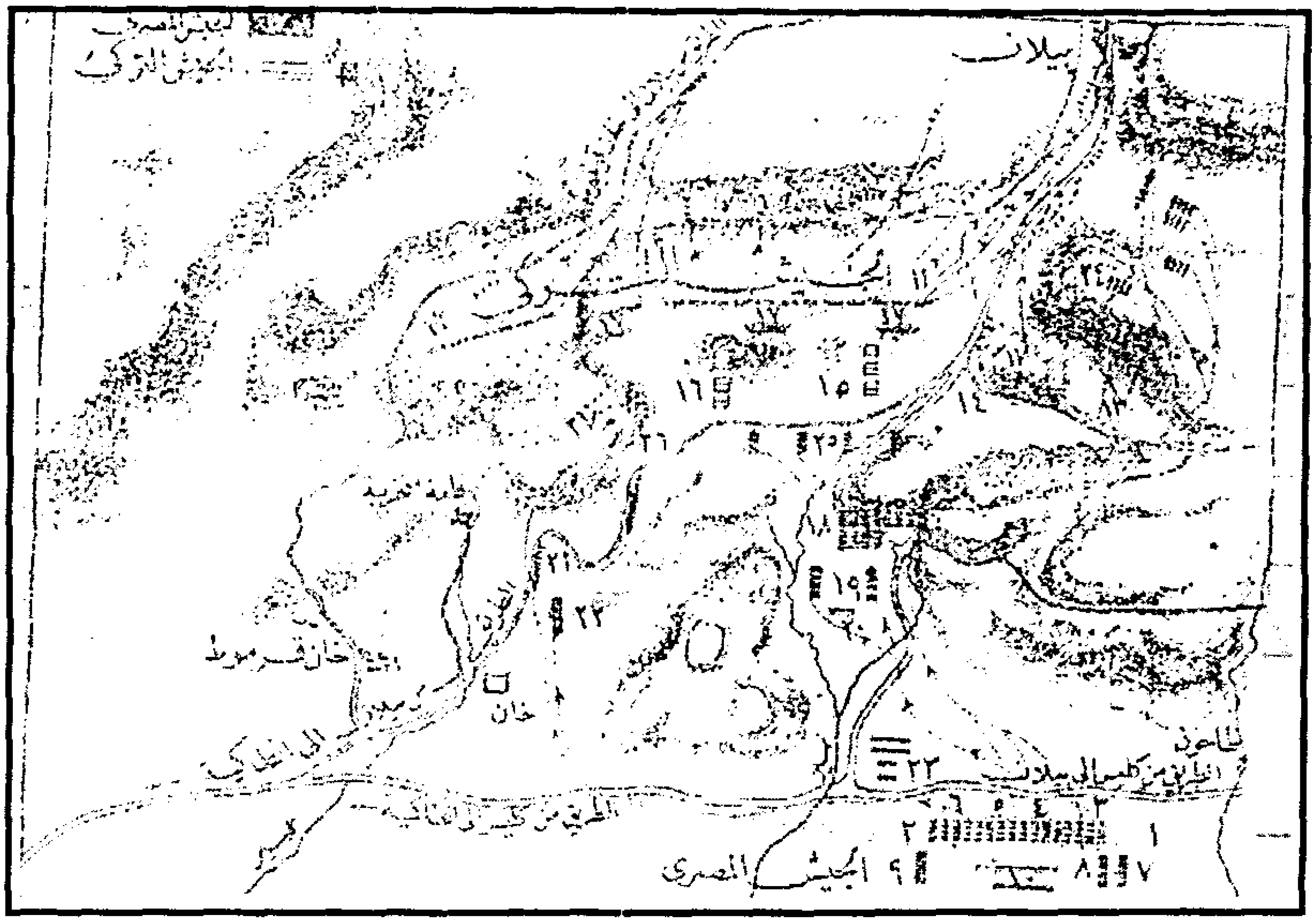

خريطة واقعة ببيلان (٣٠ يوليه سنة ١٨٣٢م)

الجيش المصري يحقق انتصاراته في الأناضول:

بعد النصر الذي حققه المصريون في معركة بيلان زحفت القوات المصرية حتى دخلت ولاية "أدنة" في الأناضول ويشهد تاريخهم الحربي كيف أبدوا قيادة الجند والبراعة في عبورهم نهري "جيحون وسيمون" فاحتلوا طرسوس مفتاح وباستيلاء القوات المصرية على أدنة التي تعتبر مفتاحًا للزحف على الأناضول وتعد الطريق البحري بين مصر وقواتها. وبعد ذلك تمكن إبراهيم من احتلال "أورفا" وعينتاب ومرعش وقيصرية.

صمم السلطان محمود أن يواجه المصريين الزاحفين إلى مقر حكمه فكون جيشاً جديداً ووضع قيادته للمصدر الأعظم "محمد رشيد باشا" وتعداد هذا الجيش بلغ ٤٣٠٠٠ جندي مقاتل من أجناس مختلفة لا تربطهم صلة المودة والوحدة وهذا أهم عاملين للقوة المعنوية.

لقد كان لرشيد باشا صلة في جروب المورة مع إبراهيم. فتحولا إلى عدوين في هذا الميدان. ورشيد باشا من خيرة القادة العثمانيين في ذلك الوقت.

حشدت القوات العثمانية في الآستانة وتم استعراض أسلحته أمام السلطان محمود والذي بث فيهم روح الوطنية والوحدة بين وحداته، ثم أمر قائده بالتحرك بهذا الجيش الكبير نحو بطاح الأناضول بينما إبراهيم باشا أخذ طريقه للزحف نحو الأناضول. وقد قابلته بعض العقبات فتمكن من التغلب عليها. ونشبت معركة بين القوتين في الوادي انتهت بانسحاب الترك بعد أن فقدوا ٢٠٠ جندي و ٣٠٠ أسير ثم هاجمت القوات المصرية الجيش العثماني في "أولوقشلاق" وأجلوهم عنها. وظل إبراهيم باشا يزحف حتى بلغ مدينة قونيه التي أخلاها الترك فاتخذها إبراهيم باشا قاعدة عسكرية وأخذ يستعد لملاقاة الجيش العثماني وأقام على الفور تدريبات في الموقع الذي يندلع فيه القتال حتى ١٨/ ١٢/ ١٨٣٢م وهو اليوم الذي وصلت فيه مقدمة الجيش العثماني بقيادة رؤوف باشا إلى شمال قونيه. ولقد انقضى يومي ١٨/ ١٢، ١٩/ ١٢ في مناوشات بين الطرفين. كان نصيب القوات المصرية عدداً كبيراً من أسرى الأتراك وقد استولت القوات المصرية على بعض المدافع والذخيرة.

معركة قونيه في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢م:

تقع قونيه في ملتقى طرق الأناضول وتستند على شعاب جبال طوروس وقد كان عدد سكانها وقتئذ ٢٠٠٠٠ نسمة يحيط بمعظم مناطقها سور قديم ورغم قدمه فإنه منيع. ويوجد جزء من المدينة ممتد خارج السور القديم.

وكانت الأراضي التي تنفع فيها القتال أمام المدينة في الاتجاه الشمالي الغربي حيث امتدت هضبة بقطقها في أماكن عدة وديان عميقة وقد أتكأ الميدان في الغرب على ميول تلال سيلة وتحدها من الشرق طائفة من المستنقعات وكان الطريق الموصل بين لاديك والآستانة يمر بمنتصف ميدان المعركة.

وصلت أخبار ومعلومات عن الجيش العثماني وعن قياداته وبناءً على هذه المعلومات مضافاً إليها معرفته بأخلاق القائد العام العثماني منذ أن تواجد في بلاد المورة. ثم معرفته بطبيعة الأرض التي تتحرك فيها قواته وضع خطته الحربية التي سيقوم بتنفيذها أثناء المعركة.

توقع إبراهيم باشا أن القائد العثماني أول عمل له سيقوم به هو توزيع جنوده بين جبال سيلة وقطعه المستنقعات وأنه سيقوم بالالتفاف حول مسيرة الجيش المصري.

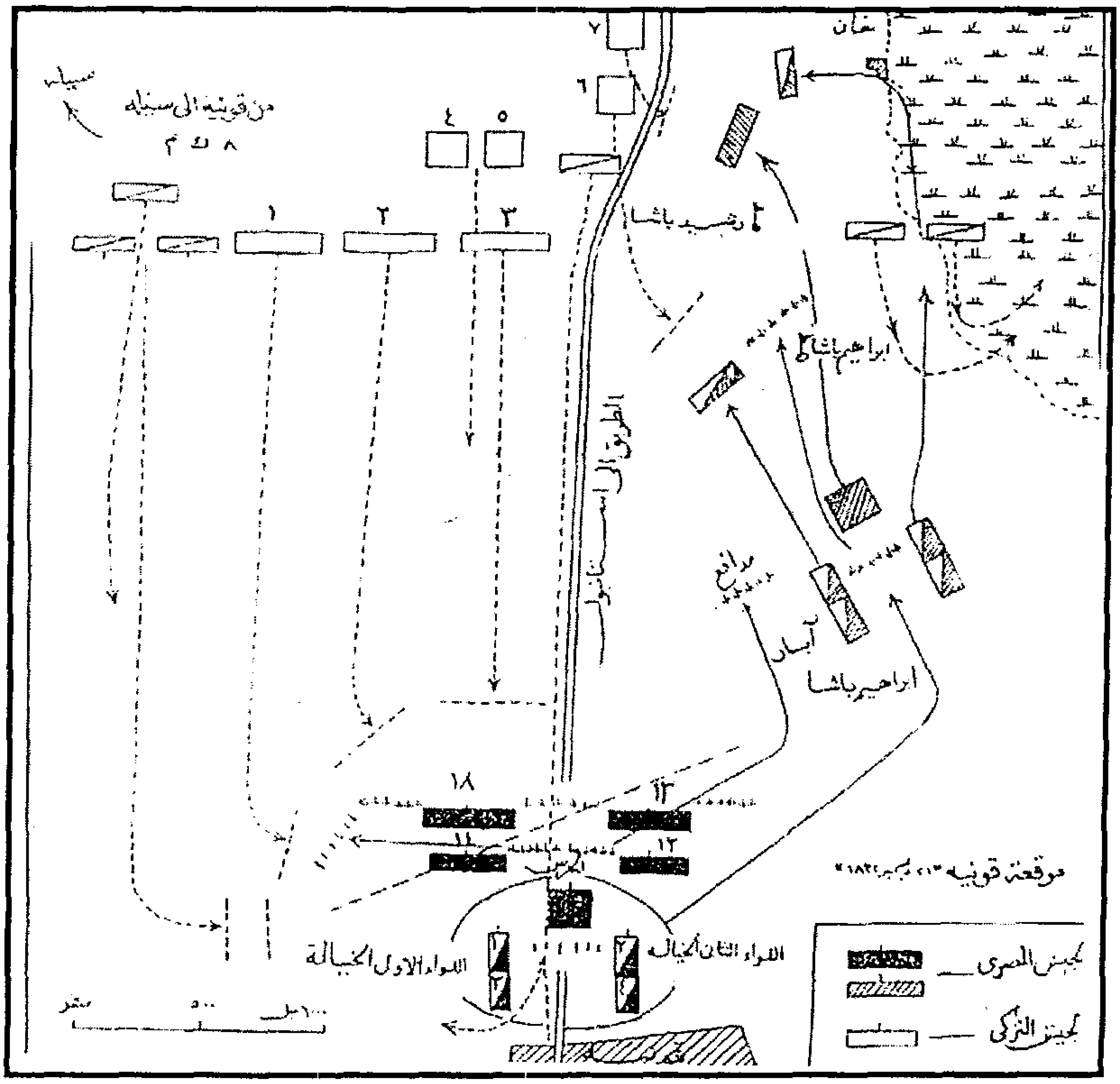

واجتمع إبراهيم باشا بأركان حربه واستعرض الموقف مع سليمان باشا. وبدت لهما خطتان أولاهما إذا هاجم ميمنة الجيش العثماني فلم تؤت تمرها ذلك لأنها مرابطة على سطح الجبل بعكس الميسرة التي كانت تعتمد على مستنقعات مكشوفة.

والخطة الثانية أن يفاجئ العدو قبل أن يقوم بتشكيل قواته وقرر أن يبدأ فتح نيران مدفعيته حتى تصبح قوات رشيد في داخل المرمى. وبذلك يمكنه أن يضرب قلب هذه القوات وبهذا يستطيع استخدام جناحه الأيمن وبهذه الخطة درب جنوده ومناوراتهم خلال تواجده في قونيه.

قام إبراهيم باشا بتوزيع قواته على هيئة ثلاثة صفوف يرتكز وسطها على طريق لاديك الصف الأول بقيادة سليم بك المناسترلي يؤلف الآلايين المشاة ١٣، ١٨ الصف الثاني بقيادة سليمان باشا يؤلف الآلايين المشاة ١٢، ١٤ وعلى بعد خمسمئة خطوة من الصف الأول في تشكيل قول مزدوج والاحتياط بقيادة سليم بك وهو الآتي الحرس على بعد ٣٠٠ خطوة من الصف الثاني وتشكيل قول مزدوج ومعه اللواءان الخيالة ١، ٢ وإلى الطريق الأيمن في المؤخرة قوات الولاه والبدو.

أما المدفعية ٣ بطاريات في الصف الأول موزعة في اليمين والقلب واليسار. بطاريتان في وسط الصف الثاني وبطارية في الاحتياط خلف الحرس.

الجيش العثماني:

وزع رشيد باشا قواته في صفوف أربعة:

١ - تشكيل مفتوح.

٢، ٣، ٤ تشكيل منضم بالأوط

الصف الأول من آلاف الحرس، ٢ آلاف خيالة نظامية

الصف الثاني آلاف مشاة، ٢ آلاف خيالة

الصف الثالث والرابع كل منها آلاي مشاة.

وفي المؤخرة إلى اليمين والشمال قوات غير نظامية والباقون رجال البوسنة مشاة وخيالة.

أما مدفعيته فقد وزعها بطارياتها بين الصفوف بمعدل مدفعين في كل أورطة مشاة وأربعة مدافع في آلاف الخيالة.

والقيادات:

١- قيادة الميسرة لرشيد باشا وهي أضعف نقطة.

٢- قيادة قلب القوات لسعد الله باشا.

٣- قيادة الميمنة خير الدين باشا.

وكان الضباب له أثره فقد وجدت قوات رشيد باشا صعوبة شديدة في الوصول إلى مدافعها. ومرت لحظة حققت فيها كثافة الضباب فاستطاع إبراهيم أن يلمح توزيع الجيش العثماني وكان يبعد عنه بحوالي ٣٠٠٠ متر.

وبدأت قوات الأتراك تتقدم حتى وصلت على مسيرة ٦٠٠ متر من مواقع القوات المصرية. وبدأت المدفعية بين الجانبين فأخذ عملها في الضرب. وعندما انقشع الضباب هاجمت القوات المصرية ميسرة الترك هجوماً شديداً فاضطرته إلى التقهقر شمالاً من غير نظام وهزمت ميسرة الجيش العثماني. وتقول المراجع إن الذي قاد هذا الهجوم اللواء الرابع الخيالة بقيادة أحمد المنكل والمدفعية والآلاى الثاني الخيالة.

بينما كان الحرس يستعد للسير إلى خان قديم. لمح إبراهيم يساراً آلاى من مشاة الترك يتقدم في تشكيل منظم وكان رشيد قد أصدر أمراً إلى قائده لمعاونة الخيالة التي تسير للإطباق على ميمنة الجيش المصري. فاضطر إبراهيم أن يصدر أوامره بسرعة بتغيير وجهته وأن ينضم في الحال إلى الآلايين الخيالة ١، ٢ وبطارية مدفعية للقيام

بهجوم من الآلاي الذي انهالت عليه القذائف الشديدة من المدفعية المصرية من ثلاث جهات. فوقع هذا الآلاي التركي بجمع معداته في الأسر.

وحاول رشيد أن يلم فشله فاضطر أن يتجه إلى مواقعه وهو في الطريق والضباب كثيف وقع في أيدي العرب والمصريين فأحاطوا به وجردوه من سلاحه وأخذوه أسيراً ثم تم تسليمه إلى إبراهيم باشا. وقامت القوات العثمانية بعديد من المناورات ولكن أمام الخطة الحربية التي وضعها إبراهيم وأركان حربه تمكن من تشتيت شمل القوات العثمانية بعد أن صب عليهم قذائف نيران مدفعيته.

انتهت معركة قونيه بهزيمة القوات العثمانية وكانت الخسائر التي مني بها الجانب العثماني (٦٠٠٠ أسير وقائد الجيوش العثمانية (رشيد باشا) وعدد من الضباط، ٣٠٠٠ قتيل، ٤٦ مدفعاً) أما الجانب المصري فله ضحاياه متمثلة في (٢٦٢ قتيلاً و ٥٣٠ جريحاً).

ويقول أحد المؤرخين عن تلك المعركة " إن المعركة قد انتهت بظفر رائع لإبراهيم باشا وقواته وأصبحت أبواب عاصمة الخلافة مفتوحة على مصراعيها تستقبل جيوش مصر". ويقول آخر " إن قوة الأتراك كانت ثلاثة أضعاف المصريين إلا أنهم كانوا أقل تدريباً وبسالة".

وبعد مضي شهر كامل قضاه إبراهيم في قونيه، كتب إلى إبراهيم أبيه يقول " أستطيع أن أصل إلى الآستانة ومعي محمد رشيد باشا وأستطيع خلع السلطان حالاً، وبدون صعوبة ولكني مضطر أن أعرف هل تسمح لي بتنفيذ هذه الخطة؟ حتى أتذرع باتخاذ الوسائل اللازمة لأن مسألتنا لا تسوى إلا في إستامبول فالواجب أن نذهب إلى إستنامبول حتى نصل إلى إرادتنا وإني مضطر أن أكرر على مسامعك أن الدعاوى لا توصلنا إلى أغراضنا وإذا رميت عن الإشاعات التي تذيعها إلى غرض سياسي بأنها

تهدد إستنامبول لتقبل شروطنا كان من العبث أن تقف في قونيه بعيدة عن رجال الآستانة فهم لا يقبلون عقد الصلح معنا إلا إذا دخلنا عليهم في العاصمة مثل ما فعلوا مع الروس فإنهم لم يقبلوا الصلح معهم إلا بعد وصولهم إلى "جلمجه" وهي ضاحية إستامبول فالواجب أن نواصل الزحف حتى "بورصة" على الأقل مع احتلال المدن الواقعة على بحر مرمرة وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا في البحر. حينئذ فقط نستطيع أن نذيع الأخبار التي تقضي إلى عزل السلطان وإذا نحن لم نصلح في إسقاط السلطان يوصلنا على الأقل إلى إبرام صلح يحقق أمانينا الآن لولا الأمران الأخيران اللذان تلقيتهما منك لكنت الآن على أبواب إستنامبول وإني لأسأل نفسي ما هو الداعي إلى إصدار تلك الأوامر إلي ؟ أهو الخوف من أوروبا أم هو شيء آخر لا أعرفه؟

ألتمس منك أن تعطني رأيك في هذه المسألة قبل انفلات الفرصة من أيدينا نعم إني ألتمس أمركم بهذا الصدد" (توقيع إبراهيم باشا)

وصل كتاب إبراهيم باشا إلى محمد علي فأخذ برأيه وأذن له بالتقدم وقسم إبراهيم قواته إلى نصفين فوصل إلى كوتاهية في ٢ فبراير وقد تحمل الجنود برد الشتاء القارص وصار على بعد من العاصمة العثمانية "الآستانة" بحوالي ٥٠ كم.

وعندما كان إبراهيم على أبواب كوتاهية وصله خطاباً من محمد علي يأمره بوقف الزحف حيث يدركه خطابه وذكر له أن السلطان أرسل خليل رفعت باشا إليه ليتفق معه.

التدخل الدولي الأوروبي:

كلما كثرت انتصارات إبراهيم السريعة المتوالية زادت مخاوف السلطان العثماني محمود... فبحث عن مساعدته في محنته ضد محمد علي لدى أية استجابة ناتجة إلى أوروبا يستدر عطفها إلى جانبه.

وكانت الدول الأوروبية حريصة كل الحرص على بقاء الدولة العثمانية وكانت الدول الأوروبية غير متفرغة للنظر في مشكلات الدولة العثمانية لأن مشكلات الثورات التي اندلعت في أوروبا والحركات الدستورية في بلجيكا وبولندا وغيرها شغلت قادة أوروبا وكانت انتصارات محمد علي السريعة لم يعمل حسابها إذ كانت الدول الأوروبية تعتبر النزاع بين السلطان ومحمد علي مسألة داخلية.

وطلب الباب العالي من الحكومة البريطانية بأن تعقد حلفاً بينهما هدفه إخضاع محمد علي تحت سيطرة الدولة العثمانية إلا أن الحكومة لم توافق على ذلك وأبلغت الباب العالي " بأنها أرسلت معتمداً سياسياً لدى محمد علي ليشير عليه بعقد الصلح وإرغامه على عدم العبث بوحدة الدولة العثمانية" هذا الرد من جانب الحكومة الإنجليزية أدى إلى زيادة اليأس في قلب السلطان محمود بالإضافة إلى ذلك وصول أخبار عن إبراهيم باشا بأنه على أبواب القسطنطينية ولذا سارع إلى روسيا يطلب منها مساعدته ضد محمد علي.

وسارعت روسيا إلى الاستجابة لهذا الطلب لأن الفرصة الذهبية التي جاءت إليها لزيادة نفوذها ووضع حمايتها على البوغازات.

فأوفدت على الفور في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٣٢م مندوباً خاصاً هو القائد " مورافيف Muravieff" الذي عرض على الباب العالي المساعدة الفعلية ضد محمد علي. وفي ١١ يناير وصل المندوب إلى الإسكندرية ليهدد محمد علي باسم القيصر تيفولا بالويل وعظائم الأمور إذا لم يقبل شروط الصلح المقدمة من السلطان بوساطة المندوب خليل باشا الذي أوفده السلطان في ٧ يناير لمفاوضة محمد علي الذي تعجب من تدخل روسيا.

ولم يخف على محمد علي مجريات السياسة الأوروبية ولذلك لم يتزعزع أمام تهديد روسيا ولما عرض مندوب السلطان شروط الصلح رفضها ولكن إرضاء لروسيا أرسل

إلى ابنه إبراهيم يأمره بالوقوف بزحفه وهو في طريقه إلى "بورسيا" فوقف إبراهيم عند كوتاهيه.

كادت الفتن الداخلية تزداد نيرانها في الدولة العثمانية لذلك سارع السلطان إلى أن يطلب من روسيا في ٢٠ فبراير مدداً خشية أن يسقط عرشه ويضيع ملكه... وبناءً على الاستغاثة السلطانية أرست القوات الروسية أسطولها في البسفور فاشتد قلق كل من إنجلترا وفرنسا من التدخل الروسي في هذه المشكلة والعمل فيها لمصلحتها.

وكانت السياسة الإنجليزية تعمل على المحافظة على كيان الدولة العثمانية ومساعدتها بقدر الإمكان حتى تستطيع أن تقف في وجه جارتها القوية روسيا أما فرنسا فكانت لها سياسة ذات هدفين أولهما تتفق مع إنجلترا في ضرورة صيانة الدولة العثمانية ومنع روسيا من تنفيذ أغراضها في تركيا والثاني تبدي تعاطفاً مع محمد علي وتعمل على تقويته.

والتدخل الروسي المنفرد في النزاع بين محمد علي والسلطان أدى إلى انضمام إنجلترا إلى فرنسا (نصيرة محمد علي) حتى تكون حكومتيهما في مواجهة روسيا وتجبرها على سحب قواتها من تركيا.

لذلك سارع سفير فرنسا البارون روسين Roussin بتقديم احتجاج لدى الباب العالي ونصح السلطان بقبول شروط محمد علي للصلح وإلا تعرضت تركيا للخطر الذي لابد أن ينجم عن وجود الجنود الروسية بين الأهالي وأرسل في الوقت نفسه كتاباً شديد اللهجة إلى محمد علي يعرض عليه قبول شروط الصلح التي عرضها الباب العالي وبمقتضاها تنازل السلطان عن صيدا وطرابلس ونابلس وبيت المقدس ويهدده إذا رفض هذه الشروط التي عرضها فإن إنجلترا وفرنسا تشتركان في ضرب الإسكندرية.

أما محمد علي لم يتهم بتهديد السفير الفرنسي وأبرق إليه برفض هذه الشروط لأن في نيته أن تكون سوريا بكل أقاليمها تحت سيطرته وكذلك إقليم "أطنه" في الأناضول ولديه من القوة ما يمكنه في ذلك.

وصل ثلاثة رسل إلى إبراهيم باشا من الآستانة الأول رسول الباب العالي يبلغه بأنه أرسل إلى والده رسولاً للاتفاق والثاني رسول الجنرال مورافيف والثالث رسول فرنسا وكان من المؤكد لدى إبراهيم باشا أن الاتفاق بين خليل رفعت باشا وأبيه أمر ممكن ولكنه كان يرى أن الصلح الذي يبرم مع السلطان محمود هو صلح مؤقت بل يكون بمثابة هدنة تمكن السلطان من العودة إلى القتال ويؤكد ذلك ما كتبه إبراهيم باشا إلى أبيه في ٣ فبراير نفس العام يقول " أرى أن يكون الاستقلال مقدماً على كل شيء في المناقشات التي تدور بينك وبين الرسولين مورافيف وخليل باشا فحالة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شيء وبعد الاعتراف بالاستقلال يجب أن نطلب أضاليا وأدنة وجزيرة قبرص وأن ينضم إلى مصر - إن كان ذلك في الإمكان - تونس وطرابلس ذلك أقل ما يجب أن نطلبه فلا تتساهل عن أي شيء كان مهما كان الأمر لأن مصلحتنا تقتضي به أما إصرارنا على الاستقلال فلكي توطد مركزنا ونحوطه بالضمانات فإذا لم ننل الاستقلال ذهبت جميع مجهوداتنا ضياعاً مكتئباً تحت يد الحكومة الخبيثة التي توفرنا بمطالبها الدائمة وبطلب المال. فمن الآن يجب أن تتخلص من الأعباء الباهظة ولا نجد خلاصاً إلا الاستقلال. أما السبب الذي يدعونا إلى طلب أضاليا ودانة فهو شدة حاجاتنا إلى الخشب لأن مستقبل أسطولنا معلق على ذلك ما دامت بلادنا محرومة من الخشب وإنني أذكر أن إنجلترا منعت ورود الخشب إلينا فاضطررنا أن نلجأ إلى النمسا الذي أزعجنا رفضها إزعاجاً لا نستطيع نسيانه وهل من حاجة بي أن أبين شدة حاجتنا إلى الخشب. فأنت ذاتك قلت لي أن في الأمر الذي أصدرته حديثاً كما أنه يجب عليك أن لا تهمل وسيلة من الوسائل لصد الجيش التركي كذلك يجب أن نعمل كل ما استطاعتك عمله للحصول على الخشب.

أما ضم قبرص إلى مصر فهو لا مانع عنه لسببين للمنفعة الكبيرة لأسطولنا والثاني لمنع الباب العالي من أن يكون له طريق إلى أملاكنا وإذا شئت أن تطلب بغداد فلا مانع

من طرح هذه المسألة على بساط البحث على أن تتنازل عنها في المستقبل لأن هذه الولاية لا تنفع شيئاً وهي كستارة بعيدة عن مصر وتكلفنا نفقات باهظة. هذا ما أعرضه على مسامعك وأوجه إليك مع منتهى الاحترام أنظارك

توقيع إبراهيم

وفي ٣٠ يناير من نفس العام وصلت الأخبار إلى مسامع السلطان فاغتاظ السلطان غضباً واتصل بالروس يستنجد بهم ومن حسن حظه قد وصلت الأوامر من محمد علي إلى إبراهيم بعدم الزحف والتوقف وكان إبراهيم هدد "بروسة" واستولى على "أزمير".

وبدأت الدول الأوروبية تكشف عن سياستها إزاء انتصارات إبراهيم المتتالية. وبدأ محمد علي يرفض اقتراحات بعض الدول الأوروبية وظهرت إنجلترا في اللحظة الحاسمة تلعب دورها في هذا الميدان فكشفت عن سياستها ضد النصر الذي حاز عليه محمد علي ويرجع ذلك إلى خوفها من مصر أن تكون حجر عثرة وعقبة لا يمكن التغلب عليها في طريقها إلى الهند التي تعتبرها "درة التاج البريطاني".

وتظهر سياستها (إنجلترا) من الرسالة التي بعث بها بالمرستون وزير خارجية إنجلترا إلى " ويليام كامبل" السفير البريطاني في كابل بالهند وذلك بعد أن أذيعت شروط الاتفاق بين مصر وتركيا.

أورد بالمرستون وزير خارجية إنجلترا

إن الشروط المعروضة على محمد علي حسنة جداً ما دامت هذه الشروط تحرمه من دمشق وحلب وهما الطريق إلى العراق. وفوق هذا يجب أن يثبت كل سنة فيما أعطى له وإن كان تثبته في ولاية مصر دائماً. وقد كان قصده تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب والمشروع جليل الشأن لولا أنه يقضي بتقسيم تركيا فلا يمكننا أن نسلم به أضف إلى ذلك أن تركيا أفضل دولة تملك طريق الهند فهي أفضل من أي ملك عربي يقوم على هذه البلاد نزوعاً للعمل الكثير الحركة. فالواجب علينا أن نساعد السلطان على أن يعيد النظام إلى تلك الولايات الثلاث إذ استطاع البقاء.

وظلت ألاعيب السياسية تديرها الدول الكبرى بيد أنها ضعفت أمام الجيش الروسي الذي يتألف من ١٢٠٠٠ مقاتل وأسطول كبير يقومان بحماية السلطنة العثمانية

بناءً على طلب ورغبة السلطان العثماني. هذه الحماية قد زرعت القلق في قلبي إنجلترا وفرنسا وبدأت أساليب الخديعة تعمل في الخفاء ضد محمد علي للحد من مطالبه وإجباره على سحب قواته فالباب العالي قد رضخ لمطالب محمد علي.

كانت مفاجأة شديدة على رؤوس أعداء محمد علي عندما تم توقيع اتفاق كوتاهية في ١٤/ ٥/ ١٨٣٢م فوضع هذا الاتفاق حداً للنزاع بين مصر وتركيا. ورفرف العلم المصري على الممتلكات المصرية التي أقرها اتفاق كوتاهية وهي مصر والحجاز وكريت وصدر الفرمان العثماني بتعيين إبراهيم والياً على سوريا وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلاً لضرائب ولاية "أدنة" وبذلك انتهى النزاع المصري التركي رغم ما كانت تهواه أوروبا للصيد في الماء العكر وبعد ذلك صرح محمد علي للمندوب الفرنسي " إنني رجل سلام لا أهداف لي إلا إلى شيء واحد هو أن أقف أيامي الباقية لإسعاد البلدان التي أحكمها ويسألونني أن أقدم الدليل على سلوكي هذا فأجيب بأنني أتوسل إلى أوروبا أن تقنع تركيا بأنني لم أهاجمها كما تضمن تركيا فلا تهاجمني".

جدول توضيحي يبين توزيع القوات المصرية داخل البلاد التي كانت تحت الحكم المصري حتى فبراير ١٨٣٣م:

الوحدات	مصر	بلاد العرب	السودان	كريت	سوريا	المجموع
٢ آلاف مشاة	١٧٣٥٢	٩١٠٧	٥١٥٧	٥٠٠٤	٣٥٠٠٠	٧٠٣٣٧
٣ آلاف مدفعية	٤١٠٢	-	-	-	٢٢٥٥	٦٣٥٧
مهندسون	٢٩٨٩	١٠١	-	-	٨٥٢	٣٩٤٢
٣ آلاف خيالة نظامية	٢٦٧٠	-	-	-	٥٢٩٢	٧٩٦٢
خيالة غير نظامية	٧٠٠	٧٠٠	٤٨٤	-	١٥٥١	٣٤٢٥
المجموع	٢٧١١٣	٨٥١٦	٦٢٤٥	٥٠٠٤	٤٩٦٢٥	٩٧٣٠٣

ويضاف إلى هذه القوات الوحدات التالية: (طلبة المدارس الحربية ٣٤٨٨، قادة البوليس المحلية ٦٧٩٩٨، جنود البحرية ودور الصفة ٢٥١٤٣، صناع وعمال في خدمة الجيش).

وقد كانت معظم الوحدات في حاميات الشام مما يدل على أن محمد علي كان غير مطمئن إلى صلح كوتاهيه وإنه كان يتوقع اندلاع الحرب مرة أخرى.

وقد بلغت عدد القوات في عام ١٨٣٣م: (القوات النظامية: ٧١٦٣١، القوات غير النظامية: ٧١١١٩) هذه القوات أكثرها موزعاً على (أونة- أورقا- حلب- عكا وعينات).

الحملة الثانية في بلاد الشام في ١٨٣٣م-١٨٣٩م:

كانت اتفاقية كوتاهية بين مصر وتركيا هدنة مؤقتة لمدة سنوات قلائل. أعطت فرصة أن يستعد كل من الطرفين لاستئناف القتال في أية لحظة وكانت حكومة الباب العالي ما زالت تدس الدسائس والمؤامرات بوساطة أعدائها بشتى الطرق والأساليب الخادعة عن طريق منشورات غير صحيحة.

استغل محمد علي هذه الفرصة ولم يجد اختلافاً في العلاقات بينه وبين الدولة العثمانية واعتزم على أن يعلن استقلال مصر، وعلى الفور استدعى وكلاء الدول الأوروبية وحدثهم في أمر استقلال مصر.

وقبل أن يأخذنا الحديث عن موقف الدول الأوروبية إزاء هذا الإعلان يجب أن نعرف ما هو الدور الذي لعبه الشعب الشامي في الحياة السياسية وقتئذ.

إن الحكم المصري قد نظم الإدارات الحكومية والمقصود بهذا الاهتمام بأمور السكان. وكون إبراهيم في بلاد الشام مجلساً للشورى على النظام المصري ونظم الشؤون المالية بل وضع نظاماً خاصاً لجباية الخراج وأمر موظفيه أن يتعاملوا مع السكان معاملة حسنة يتحكم فيها العدل والمساواة دون النظر إلى تفاوت الطبقات واختلاف المذاهب الدينية،

مثل هذا التعديل الجديد الذي حدث في أسلوب الحكم جعل المشايخ وأهل النفوذ ومن بينهم الأمراء لابد أن ينظرون إلى الحكم المصري بشيء من ثقل الظل وتحدث مقارنة بين الحكم المصري والحكم التركي. ثم تطور الأمر بهؤلاء أن يطالبوا بالعودة إلى أحضان الدولة العثمانية لكونهم يحبون الحياة بكل ما فيها من جاه وسطوة بعد أن استقرت أمور الأمن في البلاد. وطبق النظام الزراعي المصري في بلادهم وأخذت تنمو الحياة الاقتصادية وتأتي أكلها وتطورت الصناعة على النظم المصرية وانتشرت تربية دودة القز التي يستخرج من خيوطها الحرير الدمشقي ذو الشهرة العالمية وبدأت عملية التعدين فاستخرجت بعض المعادن ودمرت القلاع التي كانت تأوي الثائرين وقطاع الطرق. وفتح أبواب التنافس بين العلماء والأدباء كما فتح الباب أمام الدول الأوروبية لإرسال معتمديهم إلى دمشق وكانوا من قبل لا يسمح لهم بدخولها.

وفي عام ١٨٣٩ م قامت بعض المدن السورية بثورات على أثر ما أدخله إبراهيم من تنظيمات في الحكم والمقصود بها أن منظور الأمور في سوريا من حياة الركود التي عاشوها في العصر التركي إلى حياة النهوض سواء كان حربياً أو زراعياً أو تجارياً. وفرض المساواة بين جميع الأديان في الوظائف والمحاكم واحتكار تجارة الحرير وإجبار الناس على الزراعة والعمل. وكانت الشرارة التي أشعلت النار في قلوب الناس هي وجوب تجنيد السوريين ونزع سلاحهم. فاشتعلت نيران الثورات كما ذكرت في مدن كثيرة وتمكن إبراهيم في قمع الفتنة بدون مشقة إلا في الجبل وبعض المدن الساحلية. وسنتكلم عن هذه الثورات تفصيلاً:

ثورة فلسطين ١٨٣٤م:

نطرح سؤالاً هامًا ، ما هي الدوافع التي أدت إلى إشعال مظاهر التمرد والفتنة بين السكان ؟

الدعايات السيئة التي نجح رجال تركيا وجواسيسها ووكلاء الدول الأوروبية وذلك لمقاومة الحكم المصري والعمل على تقويضه. وكان ذلك في المدن التالية "نابلس وبيت المقدس ودمشق وحلب" ولا ننسى الدور الذي قام به الدروز في لبعان وهم الذين وضعوا أيديهم في يد إبراهيم باشا وصاروا من أوفى أصدقاءه.

كما لا ننسى أن الدين اتخذ كعامل فلعب أصحابه دوراً كبيراً في مناهضة الحكم المصري.

وقد أثار الزعماء والمشايخ وأتباع عبد الله الجزار في نفوس الناس بشيء أدى إلى التذمر وعدم الرضا لأنهم قد حرموا من المناصب والوظائف الكبرى التي يأملوا أن يتولوها. وقد فقدوا المال والجاه بعد أن تم تنظيم أحوال البلاد. وبدأت المصادمات بين المصريين وأهل الحرف وأهل نابلس تأخذ مجراها إلى معارك في حلب ومثلها في بيروت وقد نكل المصريون بالكثير من زعماء البلاد لا سيما آل طوقان وأعيان الأتراك.

والذي أشعل نيران الثورة مشكلة الضرائب الباهظة التي فرضها إبراهيم على الأراضي بعد إصلاحها والجمارك وما جره نظام الاحتكار والتدخل في إلزام بعض الحرف والصناعات اليدوية بالعمل فيها طبقاً لسياسة اقتصادية علمياً تكفل توطيد الأساليب المصرية في الشام.

ولعب دور الجندية الإلزامية التي فرضها محمد علي إلى كره شديد بين أهل الشام فالخدمة العسكرية قد تسببت منذ مئات السنين فصاروا عمال زراعة أو عمال صناعة واعتقدوا أن الجندية من باب إلقاء النفس إلى التهلكة بعد مسح من عقولهم فكرة الدفاع عن الوطن ويرجع إلى الحكم الذي كان يسوقهم بالسوط وقد لعب نظام التجنيد ثورة ثم هجرة بعض أهل الشام إلى آسيا الصغرى والبادية والجبال.

وقد أدت الأسباب التي ذكرتها إلى:

(١) عصيان سكان بيت المقدس في إبريل ١٨٣٤م وقبض على زعيم هذا العصيان الشيخ قاسم الأحمد وأبو غوش ووضع في السجن فاشتدت الثورة فترة مما اضطر محمد علي أن يسافر بنفسه على رأس جيش كبير.

(٢) عصيان صغد وقد أخمده الأمير بشير الشهابي.

(٣) فتنة دمشق وطرابلس سنة ١٨٣٤م وعكار وصفينا وحلب وإنطاكية وبعلبك وبيروت.

(٤) ثورة الناصرية شرقي اللاذقية ١٨٣٤م-١٨٣٥م.

هذه الثورات والحركات قد أنهكت قوى الجنود المصريين وقد اتخذ إبراهيم في قمعها أسلوباً فيه من الشدة. ورغم كل ذلك فقد فرض التجنيد إجبارياً في سوريا.

ثورة الدروز في حوران ١٨٣٦م-١٨٣٨م:

وأراد إبراهيم باشا تطبيق قانون التجنيد لحاجته إلى زيادة عدد الجيش لملاقاة العثمانيين وقد جردت حملات ثلاث للقضاء مع ثورة الدروز وقد قاد إبراهيم باشا واحدة من هذه الحملات. وأهم حملات هذه الثورات:

١- **حملة علي أغا الوصيلي:** رئيس الهوارة مؤلفة ٤٥٠ من الفرسان ونجح في أول الأمر على الثوار في بصرة. لكن الثوار استدرجوه إلى الجبال وأبادوهم جميعاً.

٢- **حملة الفريق أحمد باشا المنكلي:** ناظر الحربية مكونة من ١٤٠٥٠ مقاتلاً من المشاة والفرسان والمدفعية. وتحرك في ١٢/ ٢/ ١٨٣٨م وقد أحرزت هذه الحملة عدة انتصارات على الثوار. ولكن هزمت وفقد الجيش المصري ٤٠٠٠ جندي و ٦٠٠٠ بندقية ومدفعين وخمسين جملاً محملة بمؤن وأمتعه الضباط وقتل قائدي اللواءين والي بك وراجي بك

٣- **حملة إبراهيم باشا:** جند لها ٢٠٠٠٠ مقاتل وتولى قيادتها وتمكن من تضييق الخناق على حوران ووادي الشيم. تم القضاء عليها بعد تسعة أشهر من قيامها وتكبدت القوات المصرية خسائر فادحة في الأرواح.

ونظر الباب العالي بعين المصلحة إلى دولته فقرر تخليص سوريا وإقليم أونة من بين أيدي المصريين. فاتخذ أسلوب الدبلوماسية في التفاوض فكلف مندوباً عنه هو "صارم باشا" ليتفاوض مع محمد علي لتسوية الخلاف بينهما بطريقة ودية. ولم تسفر المفاوضات على أية اتفاق بينها.

رأى محمد علي أن نظرة ابنه إبراهيم كانت من الحكمة والمصلحة في طلب الاستقلال حين تم التفاوض بوقف الزحف... ولذا قرر أن يعلن استقلال مصر أمام وكلاء الدول الأجنبية الذين حضروا مؤتمره بهذا الشأن. وحاولت الدول أن تتدخل فيما بينهما ولكن خابت مساعيها لأن إنجلترا من وراء تركيا تساندها بدخول الحرب ضد محمد علي لاسترداد مصر من حوزته. وقد عاتب إبراهيم باشا أبيه في هذا الشأن قال " لابد أن تذكر حين وقفت بجنودي في "قوينة" وكنت أطلب منك بإلحاح وفي خضوع وتواضع أن تنتهز الفرصة وتعلن استقلالنا فكتبت إليّ تقول إنك قانع أن تكون "محمد علي" وكفى مع أننا كنا منتصرين وكانت الفرصة سانحة ولكنك لم تشأ والآن وقد مضى وقت طويل على تسوية النزاع وتعيين الحدود نطلب الاستقلال" وقد صدق إبراهيم في قوله إذ قال "إن الاستقلال يؤخذ بالقوة ولا يطلب".

أحوال الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر

لقد شاهد القرن التاسع عشر موجة الفساد الذي دب في أوصال الامبراطورية العثمانية. فالشعب التركي نبذ وكره الإصلاح من جميع جوانبه لأن الجهل قد نسج خيوطه على عقولهم فأصيب الشعب التركي بالغرور وأحلام السيادة. فوجد أن قبول

الإصلاح معناه مسبة لهم وعار لكل تركي وأظهر إصراره على العناد ولم يفتح قلبه نحو الإصلاح قيد أنمله. وفي نفس الوقت ظهرت الدول الأوروبية التي نسجت على المسيحية وشعوبها الخاضعة للأتراك نسيجاً من الحماية الفظيعة لتقطع أحبال السيادة العثمانية الضعيفة.

لقد حاول السلطان سليم الثالث خلال تواجده على عرش السلطة العثمانية (١٧٨٨م-١٨٠٨م) أن يعمل على تنظيم قوات الامبراطورية على أحدث النظم القتالية لكن شغلته الحرب مع روسيا. وفي النهاية خسر هذه الحروب واندلعت تيارات الرجعية في وجهه فقتلوا رجاله الذين اعتمد عليهم في هذا الشأن. ثم لم تقف ضده التيارات عند ذلك الحد بل أرغموه على التنازل عن عرشه ثم تخلصوا منه في النهاية.

وخلفه السلطان مصطفى الرابع الذي أراد أن ينهض بالجيش فأفقدوه حياته إلى الأبد. وتولى عرش السلطنة محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) فقد استطاع هذا السلطان بمعاونة بعض وزرائه تنظيم الجيش فأدخل التدريب الحديث إلى صفوف الانكشارية بعد أن أقنع زعماءهم ما جرته تقاليدهم على البلاد من الفساد والفوضى. فأخذهم في أول الأمر باللين ولم يتخلص منهم إلا عن طريق مذبحة كبرى فارتاحت الدولة منهم ومن شرورهم وبدأ السلطان محمود في الإكثار من الجنود النظاميين ونظم قوانين الدولة وجدد أنظمة الحكومة. وابتلي بالفتن والحروب الكثيرة واحدة وراء الأخرى وهذا راجع إلى تدخل الدول الأوروبية التي تصر على القضاء على آل عثمان، أو على الأقل أن تكون الدولة العثمانية هزيلة ضعيفة حتى يأتي القضاء عليها نهائياً. ولقد جاءت الحروب من الدويلات الخاضعة للعثمانيين كالمعول الذي هدم كيان الدولة العثمانية وقضى على مكانتها كدولة عظمى. وبدأ العد التنازلي يوماً بعد يوم لدفنها إلى الأبد، وكان من غباء ساستها أنهم استجابوا للنصائح الأوروبية فكانت العاجلة لنهاية امبراطورية كان لها دور هام في التاريخ.

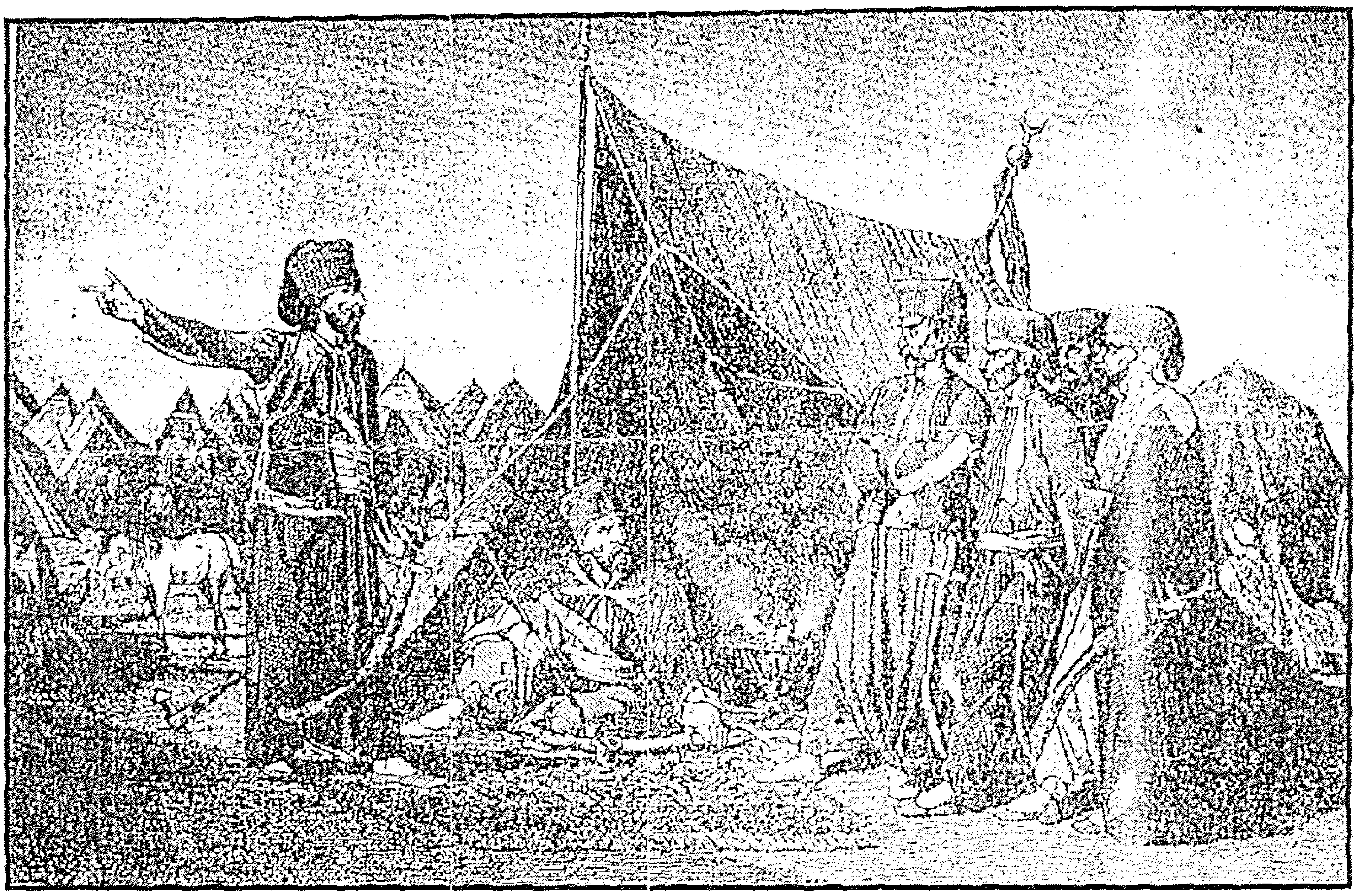

إبراهيم باشا في نصبين

نهاية الحرب بين السلطان ومحمد علي في "معركة نزيب أو نصبين"

وأخيراً تحركت الجنود العثمانية وعبرت نهر الفرات الذي يعتبر الفاصل الطبيعي بين الجانبين المصري والتركي. ووقفت كل منهما في مواجهة الآخر وكان الجيش المصري تحت قيادة إبراهيم باشا على أرض مصر عند "عينتاب" والجيش التركي بالقرب من "نصيبين أو نزيب" والإحصائية العسكرية تعطينا إحصائية كاملة عن القوات المتحاربة بأنها متساوية العدد والعدة ما عدا المدفعية التركية كانت متفوقة على المدفعية المصرية. وعلى الرغم من تحرش القوات التركية فإن إبراهيم باشا قام بتنفيذ أوامر والده التي أمره بها بأن يكون السلطان هو البادئ بالهجوم.

ولما كان السلطان في نيته الحرب ومصمماً عليها فإن حافظ باشا أشعل فتيل الحرب بأن وزع على القبائل السورية الأسلحة وعمل على إثارتها ضد المصريين. وقامت بعض

الفرق العثمانية بمهاجمة الفرق المصرية. فلما كتب إبراهيم إلى والده يخبره بما حدث أرسل إليه محمد علي بأن يرد هجوم الأتراك ويعبر الحدود إذا اقتضى الأمر ذلك واشتبك الفريقان في معركة "نصيبين في ٢٤ يونيه ١٨٣٩م ولم تمض سويعات قليلة حتى هزم الجيش العثماني هزيمة مروعة.

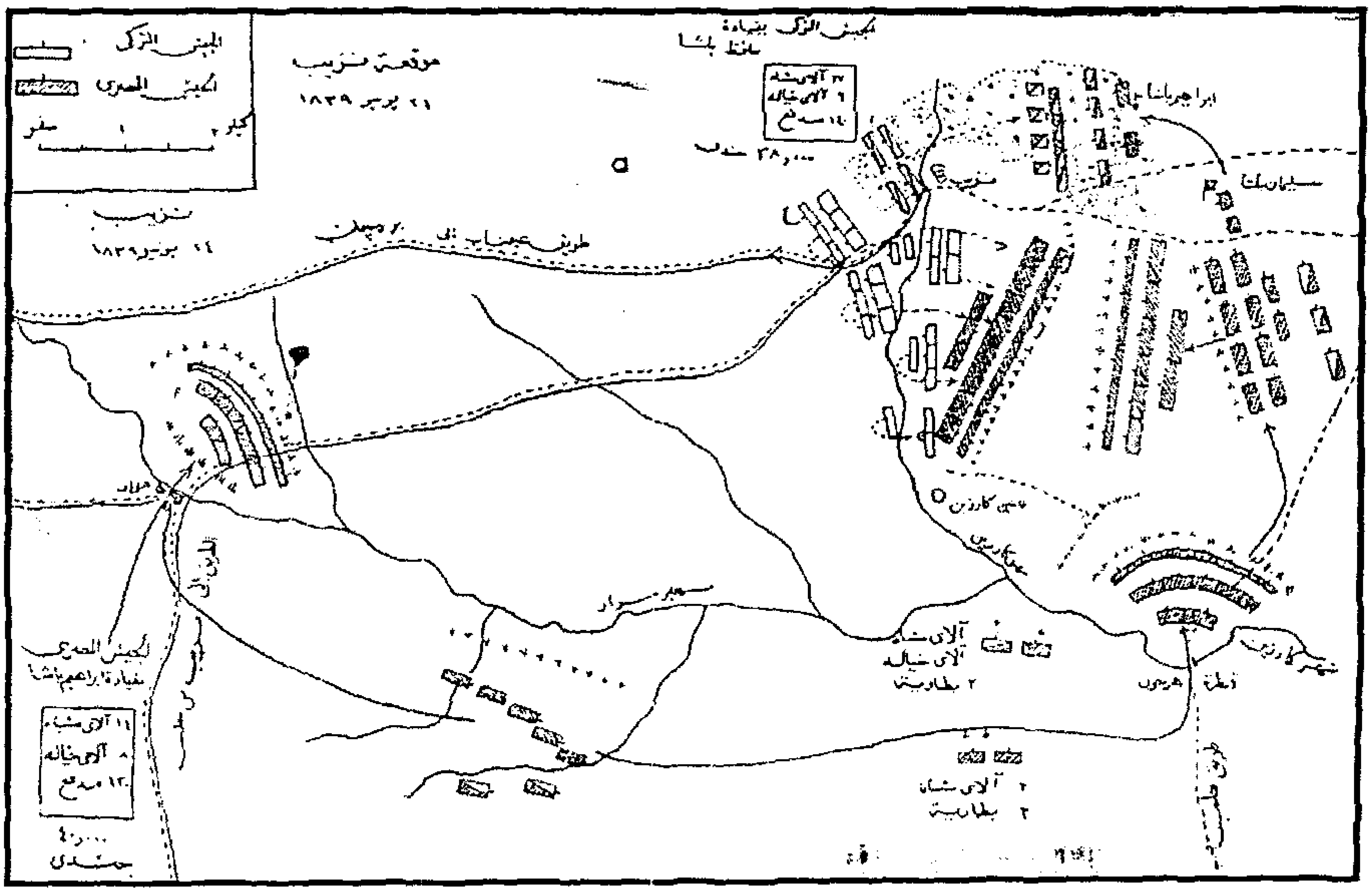

خريطة توضيحية تبين موقعة نزيب أنصبين في ٢٤ يونيو ١٨٣٩م

وأرجع السفير لبروسي في القسطنطينية سبب الهزيمة بأن حافظ باشا خالف نصائح الضباط البروسيين وفضل حرب العراء على حرب الخنادق، ولم تصل أخبار الهزيمة إلى السلطان محمود الثاني لأنه فارق الحياة في ٣٠ يونيه ١٨٣٩م وتكتم خبر الهزيمة الوزير خسرو باشا حتى تم تنصيب السلطان عبد المجيد بن محمود وقد بلغ عمره وقتئذ السادسة عشر.

إن المصائب والكوارث الشديدة قد نزلت على الدولة العثمانية في اليوم الذي وصلت فيه الأخبار السيئة عن نصيبين إلى السلطنة العثمانية فقام قائد الأسطول التركي "أحمد فوزي" الذي سار بأسطوله نحو الإسكندرية دون أن يوضح أهدافه لأحد إلا

لبعض الضباط الذين حازوا على ثقته. وترك البحارة وسائر الضباط ومنهم الضابط الإنجليزي دون معرفة تامة لهم بما ينوي فعله ولما اقترب الأسطول من ميناء الإسكندرية كانت القوات العثمانية البحرية مستعدة للحرب وفجأة أثقلت قلوبهم الدهشة حينما وصلت إلى مسامعهم طلقات السلام والترحيب ودوي من طوابي الإسكندرية ويرجع بعض المؤرخين إلى ما فعله القائد العثماني بأنه خشى أن يستأثر خسرو باشا بالحكم في الدولة العثمانية لصغر سن السلطان الجديد فقرر وضع الأسطول بين يدي محمد علي "لأنه في نظر القائد العثماني السلطة الوحيدة التي يمكنها المحافظة عليه وظهرت الدولة العثمانية بدون جيش وسلطان وأسطول وأرسل خسرو باشا مندوباً إلى محمد علي مهمته إعلان تولية السلطان الجديد ويحمل شروطاً للصلح مع محمد علي بأن تكون مصر وراثية في أسرة محمد علي، لكن محمد علي اعتمد على ما حققته له القوات المصرية من انتصارات فرفض الصلح إلا إذا أضيف إليه حكم سوريا وعاد المندوب إلى الآستانة حاملاً قرار محمد علي"

العلاقات الدولية والمصرية بعد حرب نزيب

العداء الإنجليزي لمحمد علي

وصلت الأخبار التي أصابت الدولة العثمانية في مقتل إلى الحكومات الأوروبية، فظهر القلق على وجوه الساسة الإنجليز وعلى رأسهم "لورد بالمرستون Palmerston " وزير خارجية إنجلترا الذي كان يضمر العداء الشديد والحنق على محمد علي باشا بانتصاراته في حروبه وازداد حنقه وغضبه حين عرف أن تركيا قد وقعت بين يدي محمد علي وتحت رحمة روسيا من جهة أخرى فأضمر في نفسه العداء والمعارضة لمحمد علي باشا، وزاد من غضبه وحنقه خضوع الأسطول العثماني لمحمد علي فاتصل في الحال بالحكومة الفرنسية بشأن الاشتراك لنزع الأسطول العثماني من أيدي المصريين.

وفعلاً كتب بالمرستون للبحرية الإنجليزية عن الخطة التي يجب أن تتبع في ذلك الشأن وكان رد الحكومة الفرنسية أحبط خطته بأن أي عمل عدائي ضد محمد علي من شأنه ألا يسهل المشروع الذي يشير فيه إنجلترا وفرنسا معاً. وتوقف بالمرستون على العمل منفرداً.

موقف فرنسا:

ومع المسألة الشرقية أصبحت المسألة المصرية بالنسبة إلى فرنسا في المحل الثاني وأخذت تصرخ أنها تريد المحافظة على سلامة تركيا ضد روسيا وأرسلت إلى الآستانة سفيراً جديداً من رجال "العمل" "روسان" وطلبت منه العمل على إبعاد الروس بكل الوسائل.

وجاء عرض الباب العالي في أوائل عام ١٨٣٢م على أن خليل باشا يتولى لمحمد بدلاً من الشام وأدنة ولاية فلسطين وطرابلس وعكا لكن محمد علي ظل متمسكاً بمطالبه، وربما كان من الميسور الوصول إلى اتفاق لولا أن فرنسا استحوذ عليها القلق من جهة البحر الأسود. فلم تعلن العناية بتسوية المشكلة التركية المصرية مباشرة بين الباب العالي ومحمد علي.

والواقع أن فرنسا بدلاً من أن تؤيد بقوة مطالب مصر في الآستانة ضحت بها وجعلت كل اهتمامها على تحقيق سياستها الخاصة في البحر الأسود وقد بلغ الأمر بسفيرها "روسان" أن هدد الباب العالي بترك الآستانة إن لم يبعد الأسطول الروسي عن البسفور وإن لم يبعد كما قال بالمرستون الأميرال الروس "ذيله بين رجليه" لكن الباب العالي لم يذعن لتهديدات فرنسا إلا بعد أن حصل من الأميرال على وعد صريح بإقناع محمد علي بالاكتفاء بالأقاليم الجنوبية من سوريا والغريب أن السفير الفرنسي أقدم على خطة دون أن يتأكد من نيات محمد علي الذي أعلن رفضه لاقتراحات فرنسا المجحفة بحقوقه في (٥ مارس ١٨٣٣م) وبعد ذلك لم يتردد السلطان في الالتجاء إلى روسيا التي بادرت بإنزال

جيش على الشاطئ ليوقف إبراهيم في زحفه وكادت أن تقع الحرب بين روسيا وفرنسا لكون محمد علي يمكنه الاستفادة منها لولا تدخل إنجلترا وفرنسا.

الخطة الروسية:

رأت الحكومة الروسية عدم مساعدة السلطان في حروبه مع محمد علي لكونه قوة لا يستهان بها وأنها إذا اشتبكت معه بحرب لا يبعد شبح انحياز إنجلترا وفرنسا إلى جانبه. لذلك سارعت روسيا فأعلنت عدم رغبتها في تطبيق معاهدة "هنكار أسكلي" وهي معاهدة هجومية دفاعية بين السلطان العثماني والقيصر الروسي.

وأهم ما في هذه المعاهدة شرط سري ينص على أنه في مقابل المساعدة الحربية التي تعهد القيصر أن يطالب السلطان بمساعدة فعلية ويكتفي منه بإغلاق الدردنيل عند الحاجة في وجه السفن الحربية لأية دولة وبفضل هذا الشرط تتمكن روسيا من الخروج أو الدخول إلى البحر الأسود متى شاءت ويمكنها إذا أعلنت الحرب أن تسيطر على البوغازات فتصبح تركيا تحت رحمة روسيا.

وكان رأي روسيا أنه ما دامت المفاوضات بشأن الصلح جارية بين الجانبين فيجب على الدول أن تراقب الموقف دون تدخل، اللهم إلا إذا رفض محمد علي شروط الصلح مع السلطان رفضًا نهائيًا.

إرسال المذكرة المشتركة في ٢٧ يوليه ١٨٣٩م:

رأت الحكومة الفرنسية أن فرصتها سانحة لعزل روسيا عن الموقف المتأزم بين محمد علي والسلطان فاقترحت أن ترسل الحكومات الأوروبية الخمس إلى الباب العالي تبلغه بما يلي:

"إن الدول الخمس متفقة فيما يختص بالمسألة الشرقية وأنها تشدد ألا يتم صلح أو يبرم أي اتفاق مع محمد علي ما لم توافق عليه الدول" فتقبل الباب العالي هذه المذكرة

بالشكر، وقد جاءت المذكرة عكس ما كانت تتمنى فرنسا أن تكون المذكرة قد قاربت بين إنجلترا وروسيا، وأخذ اللورد بالمرستون "وزير خارجية إنجلترا يسعى حثيثا إلى الاستغناء عن مساندة فرنسا صديقة محمد علي وأن تكون روسيا عوضاً عنها.

وأدت المذكرة إلى إنشاء خلاف بين فرنسا وإنجلترا إذا أبلغت إنجلترا أنها تريد أن يمنح محمد علي حق الوراثة في حكم الولايات التي يحكمها ماعدا بلاد العرب وأدنة وكريت، وترتب على ذلك أن ثقة بالمرستون بفرنسا قد أزيلت خاصة عندما رفضت فرنسا ألا تتفاوض في استخدام القوة الحربية ضد محمد علي، وطرح بالمرستون تهمته لفرنسا بأنها تسعى إلى تحقيق مطامع شخصية تعمل لها وأنها لا تعير لمصالح السلطان أدنى اهتمام.

الاتفاق الدولي ضد محمد علي ماعدا فرنسا

تحركت الدول الأوروبية وأرسلت مندوبيها إلى لندن للاتفاق على الشروط التي تعرض على محمد علي وانتهز بالمرستون فرصة قيام ثورة جديدة في الشام وأقنع الوزارة الإنجليزية بضرورة العمل على قوقعة محمد علي في موقف تريده الحكومة الإنجليزية واستبعدت فرنسا من الاشتراك في هذا الاتفاق وهدد بالاستقالة إذا رفضت الوزارة رأيه.

عقد معاهدة لندرة في يوليه ١٨٤٠م

وعلى ذلك تم الاتفاق بين أربع دول أوروبية من جهة وتركيا من جهة أخرى لتهدئة الحالة في الشرق وكان ذلك في ١٥ يوليه ١٨٤٠م.

وبهذا الاتفاق تعهدت الدول التي حضرت المؤتمر بمساعدة السلطان في إخضاع محمد علي ووضحوا في لائحتهم أن يعرض السلطان على محمد علي حكومة مصر وراثية وولاية عكا طوال حياته وأن يكون لمصر حق الاستقلال الداخلي بقيود معينة تربطها بالدولة مثل دفع الجزية وعدم تمثيل مصر في الخارج وتحديد عدد الجيش

والأسطول وسلطة منح ألقاب الشرف وضرب النقود فإذا لم يقبل هذه الشروط في عشرة أيام أخرى فللسلطان الحق في اتخاذ أي طريق تشير به عليه مصالحه الخاصة ونصائح حلفائه.

موقف فرنسا من الاتفاق:

اعتبرت فرنسا عدم اشتراكها في الاتفاق بين الدول الأربع بشأن محمد علي إهانة أصابت الشرف الفرنسي في مقتل وصمموا على الانتقام. وعلى الفور استدعى ملك فرنسا كبار رجال دولته لإبداء الرأي في ضرورة مساندة محمد علي على أن تستعد فرنسا للحرب. فزيد إعداد الجيش والأسطول وأخذت في تحصين قلاعها وأشعلت الحماسة بين الفرنسيين وأخذوا يغنون الأناشيد الوطنية.

موقف محمد علي من المعاهدة واستعداداته:

أما محمد علي وهو صاحب الشأن فحين وصول خبر الاتفاق إليه أخذ يستعد للدفاع فكون فرقاً من الحرس الوطني وحصن القلاع على سواحل مصر بين رشيد والإسكندرية وأمر بعودة الجيش من بلاد العرب ووحد الأسطولين المصري والتركي ووضع القيادة لها لضابط مصري.

وفي ١٣ أكتوبر من نفس العام غادر مندوبي الدول الأوروبية الإسكندرية بعد أن تكرر رفض محمد علي للمعاهدة وفي ١٥ سبتمبر ١٨٤٠م أمر السلطان بعزل محمد علي حتى يضعف نفوذه عند القبائل الثائرة في سوريا.

الحرب:

اندلعت الحرب بين الخلفاء والقوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا في سوريا وتحملت إنجلترا نصيباً كبيراً من الاستعداد الحربي ووقف الأسطول الحربي المتحالف

أمام سواحل سوريا ولعب الضابط الإنجليزي نابير Napier بعد أن أنزل قواته المكونة من ٣٥٠٠ تركي و ١٥٠٠ بحار إنجليزي و ١٠٠ نمساوي. فأصدر منشوراً للناس يحثهم فيه على القيام بثورة ضد الحكومة واشتبكت القوات المصرية مع القوات المتحالفة. وكان النصر للحلفاء بفضل الإمدادات التي تأتيهم من أساطيلهم. وتمكنوا من احتلال بيروت ثم صيدا وسقط حصن عكا في أيديهم ورغم ذلك فإن الجيش المصري بقيادة إبراهيم كان متفوقًا داخلياً فكانت دمشق وحلب والقدس وغزة في أيدي القوات المصرية ولولا الدور الذي قام به عملاء وسماسرة الإنجليز والأتراك في إثارة رجال القبائل في الجبل لكان من الصعب على الحلفاء أن تنزل قواتها في سوريا ولم يكتف الحلفاء بذلك الوضع المتدهور بالنسبة إلى المصريين بتشجيع الثوار داخل سوريا بل ضيقوا الحصار البحري على الموانئ المصرية وقطعوا الصلات بين مصر وسوريا وجعلوا انسحاب القوات المصرية من أشق الأعمال وكان محمد علي قد أمر إبراهيم بالجلاء على أثر سقوط عكا وذلك يرجع إلى صعوبة الاتصال بالجيش بحراً بسبب وقوف أساطيل الحلفاء وبراً بسبب الثوار.

وجاءت الطامة الكبرى بأن القوات المصرية بدأت تضعف بسرعة وأخذ بالمرستون ينصح الباب العالي بإعادة محمد علي رسمياً إلى حكومة مصر وجعلها وراثية إذا ما أعاد الأسطول العثماني وأخلى جميع الأقاليم عدا مصر وملحقاتها في أفريقيا.

وبدأت العودة إلى جميع المصريين سواء جنود وموظفين وأهالي من سوريا في ديسمبر سنة ١٨٤٠م ولم تسلم القوات المصرية من مناوشات ومن وعورة الطريق في وسط الصحراء ولقلة المؤن وقد انقسمت القوات إلى جزئين، جزء اخترق الصحراء إلى العقبة والآخر بقيادة إبراهيم باشا اتجه إلى غزة ومنها إلى الإسكندرية على سفن أرسلها محمد علي لنقلهم وقد وصلت ثلث الحملة سالمة وانتهى بالباقي إلى الموت.

وبسقوط كل من عكا ووزارة فرنسا كانا سبباً في معاملة محمد علي من جانب السلطان معاملة غير طيبة وأخيراً تقدم نابير Napier وفتح باب المفاوضات مع وزير محمد علي " بوغوص يوسف" وعد محمد علي بتسليم الأسطول العثماني وإخلاء إبراهيم سوريا وفي مقابل ذلك تعهد نابيير على مسؤوليته بأن تضمن الدول لمحمد علي حكومة مصر وراثية وقد رحب محمد علي بالاتفاق. ورغم أن تركيا استنكرت وكذلك السفير الإنجليزي إلا أن بالمرستون وافق عليه.

واضطر الباب العالي تحت ضغط السفراء الأجانب خاصة السفير الإنجليزي أن يرسل إلى محمد علي فرمانًا سنة ١٨٤١م بعد أن كتب محمد علي خطاباً أكد فيه خضوعه للسلطة.

وقد اشتمل هذا الفرمان على شروط لا يقبلها محمد علي والنتيجة أنه رفض هذا الفرمان فعدلت فيه أهم شروطه وهي أن تكون الوراثة لأكبر أبناء محمد علي سناً بحسب ما كان متبعاً في القانون العثماني وأن تحدد الجزية بمقدار ٨٠.٠٠٠ كيس أي ٤٠٠٠٠٠ جنيه مصري وفي ٢٢ مايو سنة ١٨٤١م جاءت موافقة السفراء على نص الفرمان الجديد وبهذا الفرمان انتهت حياة محمد علي السياسية وظل في الحكم يعمل في الإصلاحات الداخلية حتى وفاته وقبل الوفاة تولى مصر ابنه إبراهيم ثم من بعده ابنه عباس الأول.

تعقيب

- بفضل القوات المصرية المدربة واستعداداتها الكافية أصبحت مصر في القرن التاسع عشر امبراطورية واسعة ممتدة من أدنة شمالاً إلى غندكور على الجبل بالسودان وأقصى بلاد العرب جنوباً، ومن الخليج العربي شرقاً إلى واحة سيوة بالصحراء الكبرى غرباً وكلها دون الأطراف الشمالية في آسيا الصغرى والأطراف الجنوبية في السودان أقاليم تضم شعوبًا تنطق ألسنتها اللغة العربية فكان ذلك أول محاولة لتحقيق الوحدة

القومية العربية في العصر الحديث ولم يبق من أقاليم الشرق العربي خارجاً عن نطاق الامبراطورية سوى العراق.

والواقع أن إبراهيم هدفه العمل على خلق نهضة عربية قوية، فقد جاء إلى مصر وهو في سن الشباب وظل ينمو في الجو العربي حتى صار رجلاً وكانت ثقافته في تاريخ العرب وآدابهم.

ومهما يكن من الأمر فإن الدولة العربية التي صورتها له أفكار كل من محمد علي وابنه إبراهيم والتي قامت في النصف الأول في القرن التاسع عشر لم تبق إلا في سنوات قلائل فانهارت في عام ١٨٤٠م وذلك لعدة عوامل هي:

١-إن أصحاب فكرة قيام دولة عربية خالصة هما محمد علي وابنه إبراهيم لم يتكلما العربية وإن كان إبراهيم قد توصل إلى الحديث بها بشيء من الطلاقة البسيطة ولهذا فقدت دعوتهما قدراً من القوة بسبب عدم وجود الدافع القومي لديهما وعجزهما عن التحدث بتلك اللغة الفنية بالمعاني والأساليب والألفاظ ومهما قيل عنها وعن ميول إبراهيم العربية فإن الطموح الشخصي لديهما هو رغبتهما في تكوين امبراطورية عربية ناشئة أولاً وقبل كل شيء عن رغبتهما في إقامة امبراطورية لهما ومن بعدهما لأسرتهما.

٢-عدم وجود وحدة قومية في العالم العربي وعدم نمو الوعي القومي وأن الانحطاط الفكري والروحي الذي أصاب العرب وسوء الإدارة من جراء حكم الأتراك خلال أربعة قرون أورثهم وهنا وخلال أخذهم في الاستغراق في غفلة دون أن يعوا وضعهم فهذه الفكرة العربية كانت في حاجة إلى مقومات ثقافية وروحية وهذا لم يتوفر في العالم العربي وقتئذ وجاءت فكرة إبراهيم العربية التي بعثها من مرقدها لم تؤت أكلها المرجو منها.

٣-استبداد محمد علي وسوء تصرف حكومته أحياناً رغم أنها قامت بإصلاحات في المنطقة العربية وسعت إلى إرضاء المواطنين بتخفيف الضرائب عنهم غير أن ذلك لم

يستمر لمدة طويلة ويبدو ذلك في بلاد الشام فقد أصدر محمد علي تعليماته التي كانت عبئًا ثقيلاً على الناس مما جعلهم ينفرون من الحكم المصري. هذه الأعباء متمثلة في احتكار الحرير وأخذ ضريبة الرؤوس من الرجال مع اختلاف مذاهبهم وكذلك عملية التجنيد الإجباري ونزع السلاح مما أدى إلى قيام الثورات ضد الحكم المصري ولعبت الدسائس والإشاعات التركية الإنجليزية في تحريك الثورات ضد الحكم المصري.

٤-سخط الدولة العثمانية على محمد علي والعمل على القضاء على حركته الاستقلالية وكان من الطبيعي أن السلطان لا يرضى عن النزعة الاستقلالية ويحقد على ما وصل إليه محمد علي من قوة. وإذا كانت الظروف الدولية قد أرغمت السلطان على عقد كوتاهية وتنازله عن الشام لمحمد علي وابنه إبراهيم ولم يكن الشام وحده إنما تنازل عن بلاد العرب ومصر والسودان ولذا لم يعتبر صلح كوتاهية نهائياً بل اعتبره هدنة مؤقتة يستعد كل الطرفين للقضاء على الطرف الآخر.

٥-معارضة الدول الأوروبية الكبرى في تكوين محمد علي امبراطوريته الكبرى الموحدة على حساب ممتلكات الدولة العثمانية. وكانت روسيا تخشى من هذه الامبراطورية العربية لما لديها من الإمكانيات البشرية والموارد الاقتصادية ما يمكنها من تفوق قد يؤدي إلى توسع على حساب بقية أجزاء الدولة العثمانية وذلك يحول دون تحقيق روسيا أطماعها على المضايق وهناك النمسا وعلى رأس مترنيخ يعارض كل اتجاه قومي جديد ولذلك لم يكن يرضيه بالطبع أن يتحقق هذا الاتجاه في الشرق أما إنجلترا كانت تعتقد أن تحقيق هذا الاتجاه الجديد معناه يعطل مصالحها في الشرق كما كانت تخشى أن تفقد السيطرة على أهم الطرق الموصلة إلى الهند والحد من أطماعها في تلك المنطقة ولذلك عارضت بشدة مشروع قيام الامبراطورية العربية وعملت بكل الوسائل دون نجاحه ويبدو ذلك عندما عزم محمد علي عام ١٨٣٨م على تحديد مركزه إزاء الدولة العثمانية وأعلن استقلاله عارضته إنجلترا وعندما شبت الحرب بين محمد

علي والسلطان ووقعت الهزائم على السلطان وانضم الأسطول التركي إلى الأسطول المصري وأصبح الأمر كله في يد محمد علي عملت إنجلترا على تأليب الدول الأوروبية ضده وهذا واضح بإرسال المذكرة المشتركة من إنجلترا وروسيا والنمسا وفرنسا وبروسيا في يونيه ١٨٣٩م إلى الباب العالي يطلبوا فيها عدم الصلح أو أي اتفاق مع محمد علي ما لم توافق عليه الدول الخمس السابقة الذكر. وسعت إنجلترا نحو اتخاذ خطوات جادة لتفسد على محمد علي خططه. أولاً أنها عزلت فرنسا لما رأتها تميل إلى محمد علي بأن يستمر في حكم الشام وثانياً سعت إلى عقد اتفاق دونها (مع روسيا وبروسيا والنمسا وتركيا) وتم ذلك في١٥ يونيو ١٨٤٠م وثالثاً استقر الرأي في هذا الاتفاق على أن يعرض السلطان على محمد علي حكومة مصر وراثية وولاية عكا طول حياته وأن تكون لولاة مصر حقوق في إدارة البلاد تحت سيادة الدولة العثمانية وذلك في عشرة أيام أخرى فالسلطان الحق في اتخاذ أي طريق تشير به مصالحه الخاصة ونصائح الخلفاء ورابعاً نص الاتفاق على تعهد هذه الدول الأوروبية بمساعدة السلطان فعلاً في إخضاع محمد علي، وفي النهاية قبل محمد علي ما عرض عليه وصدر فرمان بذلك.

وفي النهاية تقلص حكم محمد علي وبقي في مصر كوالي تابع للدولة العثمانية وعادت البلاد العربية تموج في بحور من الفوضى والاضطرابات والمؤتمرات الدولية خاصة من إنجلترا وظلت إنجلترا منذ احتلال مصر عام ١٨٨٢م حتى قيام الثورة المصرية ثم وضعت يدها على بقية الدول العربية أثناء الحرب العالمية الأولى وتركت سوريا ولبنان للفرنسيين.

الوثائق والمصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً: الوثائق:

١- دفتر ٤ معيه تركي: ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢٠ م- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
٢- دفتر ٦ معيه تركي: ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢٠ -١٨٢١ م- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
٣- دفتر ٧ معيه تركي: ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢٠ -١٨٢١ م- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
٤- دفتر ٩ معيه تركي: ١٣٢٧ هـ/ ١٨٢١ -١٨٢٢ م- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
٥- دفتر ١٠ معيه تركي: ١٢٣٧ هـ/ ١٨٢١ -١٨٢٢ م- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
٦- دفتر ١١ معيه تركي: ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢٢ -١٨٢٣ م- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
٧- دفتر ١٢ معيه تركي: ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢٢ -١٨٢٣ م- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
٨- دفتر ١٣ معيه تركي: ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢٢ -١٨٢٣ م- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
٩- دفتر ١٥ معيه تركي: ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢٢ -١٨٢٣ م- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
١٠- دفتر ١٦ معيه تركي: ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢٢ م- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
١١- دفتر ٥٤ معيه تركي: ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢٠-١٨٢١ م- دار الوثائق القومية بالقاهرة.
١٢- محفظة ٧٣ محافظ أبحاث الشام دار الوثائق القومية بالقاهرة
١٣- محفظة ٦٥ محافظ أبحاث الشام دار الوثائق القومية بالقاهرة
١٤- محفظة ٦٦ محافظ أبحاث الشام دار الوثائق القومية بالقاهرة

(أ) المصادر:

١- الوثائق: (أ) المحفوظات الملكية المصرية (بيان بوثائق الشام):

١- معية تركي دفتر رقم (٢٠) وثيقة رقم (١٢٣) تاريخ ٢٠ محرم سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م.
٢- معية تركي دفتر رقم (٢٠) وثيقة رقم (١٥٠) تاريخ ٢٣ محرم سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م.

٣- معية تركي دفتر رقم (٢٢) وثيقة رقم (٤٣٧) تاريخ ١٢ محرم سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م.

٤- معية تركي دفتر رقم (٢٥) وثيقة رقم (٤٦١) تاريخ غرة جمادي الآخرة، سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م.

٥- ديوان خديوي دفتر (٧٤٧) وثيقة رقم (٢٢٢) تاريخ ٢٩ جمادي الآخر، سنة ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٩م.

٦- عابدين محفظة رقم (٢٣٠) وثيقة رقم (٨٦) تاريخ ١٢ محرم، سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م.

٧- عابدين محفظة رقم (٢٣٧) وثيقة رقم (١٤١) تاريخ ١٧ ربيع الأول، سنة ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٢م.

٨- عابدين محفظة رقم (٢٣٧) وثيقة رقم (١٥٧) تاريخ ١٨ ربيع الأول، سنة ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٢م.

٩- عابدين محفظة رقم (٢٣٨) وثيقة رقم (٧٣) تاريخ ٩ ربيع الآخر، سنة ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٢م.

١٠- عابدين محفظة رقم (٢٣٨) وثيقة رقم (٩٨) تاريخ ربيع الآخر، سنة ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٢م.

١١- عابدين محفظة رقم (٢٣٨) وثيقة رقم (١١٤) تاريخ ١٣ ربيع الآخر، سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م.

١٢- عابدين محفظة رقم (٢٣٨) وثيقة رقم (١١٦) تاريخ ١٣ ربيع الآخر، سنة ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٢م.

١٣- عابدين دفتر رقم (٢١٠) وثيقة رقم (٢٥٠) تاريخ ١٤ ربيع الآخر، سنة ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٢م.

١٤- عابدين محفظة رقم (٢٥١) وثيقة رقم (٢٨٦-٢٨٨) تاريخ ١٣ جمادي الأولى، سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م.

١٥- عابدين محفظة رقم (٢٥٢) وثيقة رقم (١٩٣) تاريخ ٢٩ رمضان، سنة ١٢٥١ هـ/ ١٨٣٥م.

١٦- عابدين محفظة رقم (٢٥٤) وثيقة رقم (٤٠٧) تاريخ ٦ ذي الحجة، سنة ١٢٥٢ هـ/ ١٨٣٧م.

١٧- عابدين محفظة رقم (٢٥٤) وثيقة رقم (٤١٢) تاريخ ١٧ ذي الحجة، سنة ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٧م.

١٨- عابدين محفظة رقم (٢٥٥) وثيقة رقم (٢٣٨) تاريخ ٢٣ ذي القعدة، سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م.

١٩- عابدين محفظة رقم (٢٥٥) وثيقة رقم (٣٤٦) تاريخ ٣ ذي الحجة، سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م.

٢٠- عابدين محفظة رقم (٢٥٥) وثيقة رقم (٣٤٧) تاريخ ٣ ذي الحجة، سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م.

٢١- عابدين محفظة رقم (٢٥٥) وثيقة رقم (٣٥٠) تاريخ ٥-٧ ذي الحجة، سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م.

٢٢- عابدين محفظة رقم (٢٥٧) وثيقة رقم (٥١) تاريخ ١٥ صفر، سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م.

٢٣- عابدين محفظة رقم (٢٥٧) وثيقة رقم (١٢٠) تاريخ ١٧ ربيع الأول، سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م.

٢٤- عابدين محفظة رقم (٢٥٧) وثيقة رقم (١٢٤) تاريخ ١٩ ربيع الأول، سنة ١٢٥٥ هـ/ ١٨٣٩ م.

٢٥- عابدين محفظة رقم (٢٥٧) وثيقة رقم (١٤٨) تاريخ ١٣ ربيع الآخر، سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م.

٢٦- عابدين محفظة رقم (٢٥٧) وثيقة رقم (١٥٠) تاريخ ١٥ ربيع الآخر، سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م.

٢٧- عابدين محفظة رقم (٢٥٧) وثيقة رقم (١٥٤) تاريخ ١٧ ربيع الآخر، سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م.

٢٨- تقرير وقعات الجيش المصري ١٨٣١.

٢٩- وزارة الدفاع المصرية: وثائق المحفوظات العسكرية.

٣٠- الديوان العالي سجل٢-١١٧٧-١٢١٩ هـ/ ١٧٦٣-١٨٠٤ أرشيف المحكمة الشرعية بالقاهرة.

٣١- رسالة علماء مصر وأعيانها إلى السلطان العثماني (صفر ١٢١٨هـ/ مايو ١٨٠٣م) مجموعة وثائق رفاعة الطهطاوي تحت رقم ١٠٠ تاريخ- مكتبة سوهاج.

٣٢- محفظة ٧ بحر برا تركي ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ هـ/ ١٨١٩ - ١٨٢١ م - دار الوثائق القومية - القاهرة

٣٣- محفظة ٨ بحر برا تركي ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢١ - ١٨٢٣ م - دار الوثائق القومية - القاهرة

٢- المخطوطات:

١- أحمد عرابي: تاريخ الملوك العثمانية والوزراء والصدور ومشايخ الإسلام والفيودانات- مكتبة رفاعة الطهطاوي- سوهاج- تحت رقم ٢٣٤ تاريخ.

٣- المراجع المطبوعة والمصادر العربية:

١- إسماعيل سرهنك حقائق الأخبار عن دول البحار- ج ٢ - طبع القاهرة ١٨٩٦ م.

٢- أمين سامي: تقويم النيل وعصر محمد علي باشا- ج ٢ - طبع القاهرة/ ١٩٢٣ م.

٣- دكتور رستم: الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي.

٤- تيوردور جيانا كوليس: اليونان شعبها وأرضها ترجمة محمد رستم طبع القاهرة ١٩٦٦ م.

٥- خليل الرجبي: تاريخ الوزير محمد علي- محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٩٥١ .

٦- ربنية قنطاوي وجورج قطاوي: محمد علي وأوروبا ترجمة ألفريد بلوز طبع القاهرة ١٩٥٢م.

٧- صلاح العقاد (دكتور) : المغرب العربي ج ١ طبع القاهرة ١٩٥٧ م.

٨- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ٣ طبع بيروت ١٩٧٨ م.

٩- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج ١ ، ج ٢ القاهرة ١٩٢٩ م.

١٠- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج ٣ ، عصر محمد علي، القاهرة ١٩٣٠ م.

١١- عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في عهد محمد علي باشا الكبير، ج ١ ، طبع القاهرة، ١٩٨٠م.

١٢- عبد العزيز الشناوي (دكتور) : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ٢ ، طبع القاهرة، ١٩٨٠ م.

١٣- عبد الجواد صابر إسماعيل (دكتور) : دور مصر في الحرب العثمانية اليونانية ، ١٣٢٦-١٣٢٨هـ (١٨٢١-١٨٢٣ م): ط الأمانة.

١٤- علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١، طبع القاهرة ١٩٦٩ م.

١٥- عمر طوسون: الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي، طبع القاهرة ١٩٣٥ م.

١٦- لطيفه محمد سالم (دكتور) : الحكم المصري في الشام ١٨٣١م-١٨٤١م مكتبة مدبولي.

١٧- كرستوفر هيرولد : بونابرت في مصر ترجمة إندراوس مراجعة د/ محمد أنيس طبع القاهرة ١٩٦٧ م.

١٨- كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر (٤ أجزاء) ترجمة محمد مسعود دار الموقف العربي للصحافة والنشر والتوزيع القاهرة.

١٩- محمد فؤاد شكري (دكتور) : مصر في مطلع القرن التاسع عشر جزآن الأول والثاني طبع ١٩٥٨ م.

٢٠- سلسلة كتب عبد الرحمن الرافعي في تاريخ الحركة القومية.

٢١- المجمل في تاريخ مصر العام (١٩٤٢م).

٢٢- إبراهيم عامر، ثورة مصر القومية (١٩٥٧م).

٢٣- إبراهيم عبده، تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية (١٩٤٥).

٢٤- أحمد لطفي السيد، المنتخبات- جمعها إسماعيل مظهر- نقلاً عن " الجريدة" في جزئين (١٩٣٧م-١٩٥٥م).

٢٥- تيودور روذشتين، المسألة المصرية من ١٨٧٥م إلى ١٩١٠م ترجمة عبد الحميد العبادي ومحمد بدران عن الأصل الإنجليزي (Egypt's Riun 1936).

٢٦- ساطع الحصري ، محاضرات في نشوء الفكرة القومية (١٩٥٩م).

٢٧- سيتون وليمز (م.ف)، بريطانيا والدول العربية (١٩٢٠م-١٩٤٨م) ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومراجعة أحمد عزت عبد الكريم (١٩٥٢م).

٢٨- صبحي وحيدة ، في أصول المسألة المصرية (١٩٥٥م).
٢٩- عباس العقاد ، سعد زغلول- سيرة وتحية (١٩٣٦م).
٣٠- محمد إبراهيم الجزيري ، عهد وزارة الشعب- الجزء الأول (م١٩٢٧).
٣١- محمد حسانين هيكل ، مذكرات في السياسة المصرية- جزآن (١٩٥١م-١٩٥٣م).
٣٢- محمد زكي عبد القادر ، مجلة الدستور (١٩٥٥م).
٣٣- محمد شفيق غبريال ، تاريخ المفاوضات المصرية- البريطانية ١٨٨٢م - ١٩٣٦م (١٩٥٢م).
٣٤- محمد فؤاد شكري وآخرين: بناء دولة مصر – محمد علي- مكتبة الإسكندرية.
٣٥- محمد فريد: البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية- طبع بولاق ١٨٩١م.
٣٦- محمد فريد: تاريخ الدولة العليا العثمانية طبع بولاق ١٩١٢م.
٣٧- محمد كمال الدسوقي (دكتور) الدولة العثمانية والمسألة الشرقية- طبع القاهرة – ١٩٧٦م.
٣٨- محمد صبري (دكتور): تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث.
٣٩- ميخائيل مشاقة: مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان.
٤٠- مجموعة أبحاث ودراسات تاريخية في ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨ م- مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٨م.
٤١- فوزي عبيدات: فريق ركن متقاعد (دكتور): النظام العسكري في عهد محمد علي (١٨٠٥ – ١٨٤٨م) طبعة أولى عمان ١٩٩٩م.
٤٢- رؤوف عباس: إصلاح أم تحديث مصر في عصر محمد علي – ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٢٠٠٠م.
٤٣- هنري دو دوبل: الاتجاه السياسي لمصر في عهد محمد علي (مؤسس مصر الحديثة- تعريب أحمد محمد عبد اللطيف وعلي أحمد شكري- طبعة مكتبة الآداب بالجماميز- القاهرة ١٩٣١م.
٤٤- المعلم تقولا الترك: الحملة الفرنسية على مصر والشام- تحقيق ياسمين سويد - ط ١ شركة بيروت اللبنانية دار الفارابي- بيروت ١٩٩٠م.
٤٥- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: من وثائق شبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي- ط ١ دار المتنبي والتوزيع- الدوحة- قطر ١٩٨٢م.

٤٦- جمعية الملكية للدراسات التاريخية: التاريخ الحربي لمحمد علي الكبير خرائط بعض المعارك الحربية جمع وتحقيق عمر طوسون نقلاً عن خريطة أركان حرب الجيش المصري المنشور- في كتاب تاريخ حرب محمد علي والباب العالي العثماني في سوريا وآسيا الصغرى تأليف كادالفين وبارو طبع باريس ١٩٣٧م.

٤٧- علي محمد شلبي: المصريون والجندية في القرن ١٩ ط ١: دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.

٤٨- ليلى عبد اللطيف أحمد: سياسة محمد علي إزاء العربان في مصر- مطبعة الجبلاني دار الكتاب الجامعي- القاهرة، ١٩٨٦م.

٤٩- أحمد حمروش: مصر والعسكريون ثلاثة أجزاء- مكتبة مدبولي.

(ب) الكتب المترجمة إلى العربية:

٥٠- إدوارد ميد أيرل وآخرين: رواد الاستراتيجية الحديثة، ترجمة محمد عبد الفتاح إبراهيم، ط ١، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ١٩٥٦م.

٥١- إيريك موربز، مدخل إلى التاريخ العسكري، تعريب أكرم ديري وهيثم الأيوبي ط ٢ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩م.

٥٢- جورج أنطونيوس، يقظة العرب تعريب ناصر الدين الأسد وغحسان عباس، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٦م.

٥٣- جيب هاملتون وهارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب تعريب أحمد عبد الرحمن مصطفى، ط ١، مطابع دار الفارابي، القاهرة، ١٩٧١م.

٥٤- دوبوي ت. ن: عباقرة الحرب (الجيش والأركان العامة الألمانية من ١٨٠٠م - ١٩٤٥م)، ترجمة حسن حسن، ط ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٩٣م.

٥٥- فوللر ج. ف.س: إدارة الحرب من عام ١٧٨٩م حتى أيامنا هذه، تعريب أكرم ديري، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨١م.

٥٦- مجموعة من القادة السوفيت، الاستراتيجية الحربية من وجهة نظر السوفيتية، ترجمة محمد عبد الحليم أبو غزالة، ط ٣، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.

٥٧- لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، ط ٨، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٥م.

٥٨- نيقولو مكيا قللي (ت ١٥٢٧) ، الأمير تعريف خيري حماد، ط ٩، منشورات مكتبة التحرير، بغداد.

ب- الأصول العربية لتاريخ سوريا في عصر محمد علي:

٥٩- تسلسل ٤٣- رسالة من محمد علي في ٢٠ شعبان سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م إلى القوات المصرية في عكا يحفزهم فيها على الجهاد.

٦٠- تسلسل ٦١- من توجيهات إبراهيم باشا إلى المقاتلين المصريين في عكا في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٤٢٨هـ/ ١٨٣٢م.

٦١- تسلسل ٧٤- رسالة من إبراهيم باشا إلى متسلم طرابلس مصطفى آغا بربر يعلمه فيها بنتيجة القتال في حمص في ١٠ صفر سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م.

٦٢- تسلسل ٨١- رسالة من إبراهيم باشا إلى الأمير بشير الشهابي يعلمه فيها عن نتيجة القتال مضيق بيلان في ٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م.

٦٣- تسلسل ١٠٣- رسالة من إبراهيم باشا إلى مستلم محروسة طرابلس الشام يعلمه فيها عن نتيجة القتال في واقعة قونيه في ٣٠ رجب سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م.

المصادر الأجنبية :

1- Adam, C.F, Life of George Lioyd (1948).

2- Adams, Charies C., Islam and Modernism in Egypt (1933).

3- Ahmed Abdel-Rahim Mostafa, The EDomestic and Foreign Affairs of Egypy gotm 1876 yo 1882. (ph.F.-Lonfon, 1955).

4- Cromer, Earl of, Modern Egypt, 2 Vols (1908).

5- Cromer, Earl of, Abbas 11. (1915). Crouohley, A.E., The Eoonomio Envelopment of Modern Egypt (1938).

6- Freycinet, C. De, La Question d' Egypt (1904).

7- Hussein Kamel Abulleef, The Financial Question and His Reorganization of the Egyptian Financial Administration, 1865-1885 (M.A. Bristol, 1948).

8- Lendau, Jacob, parliaments and parties in Egypt (1953).

9- Lloyd, George, Egpt Since Cromer, 2 Vols. (1933- 1934).

10- Marlowe, John, Angl- Egyptian Relations; 1800- 1953 (1954).
11- Mukber, Alfred, England in Egypt (1894).
12- Rufaat Bay, The Awakening of Modern Egypt (1947).
13- Sabry, M., La Genese de L'Esprit National Egyptian. (1924).
14- Sayed Kamel, La Cibfeerence de constantinpple et la Question Egyptienne en 1882 (1913).
15- Holt. P.M. Egypt and the Fertile crescent (1516 – 1922), 1ST, Edition, Butler and Taner LTD, Frome and London, 1966.
16- Martin. D. Twin souls twin Sords, 1ST, Edition, Copyright MICHALE Slains publication, London, 1969.
17- Richmond, J.C.B, Egypt (1798- 1952), Her Advance Tow Ards Modern Identity, 1ST, Edition, Richard Clay, (The Chaucer Press) LTD, BUNGAY, Suffolk, 1977.
18- Pakistan National efence College, History and Philosophy of War, Military Systems Rawal Pindi, 1982.
19- Pakistan National Defence college, operational Strategy, Rawal Pindi, 1982.
20- Republic of China war college, an introduction to the basic principles of military systems, Taipe, 1985.
21- U.S. Army war college, Army command and Management, Carlisle Barracks PA, 1982.

الكتاب والمؤلف في سطور

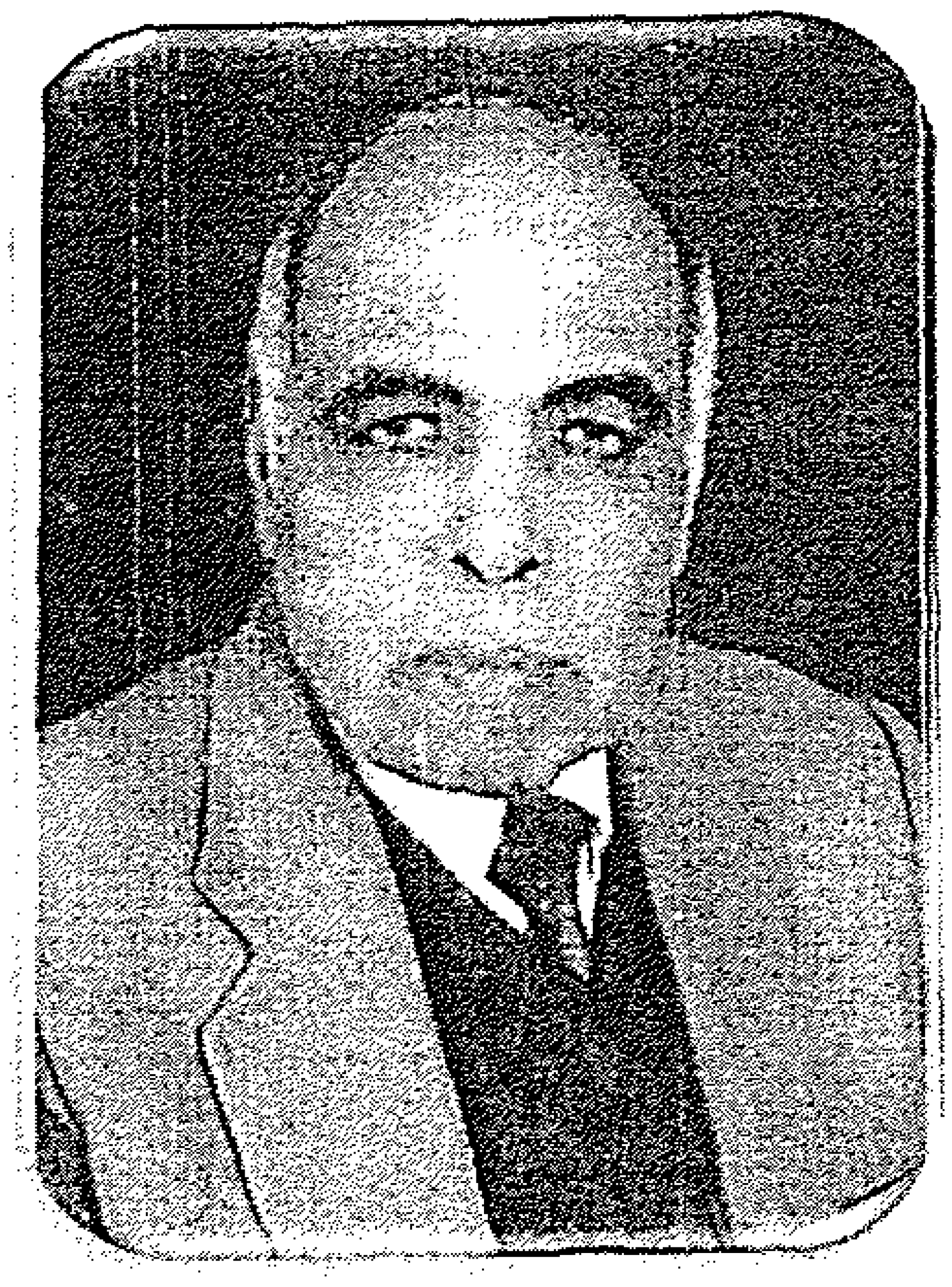

د. عبد الحكيم عبد الغني محمد قاسم

■ يوضح الباحث د. عبد الحكيم عبد الغني قاسم في هذا الكتاب عصر محمد علي باشا هذا العصر له من الأهمية البالغة لتاريخ مصر والعالم العربي من ناحية ومن ناحية أخرى له أثر كبير في الحضارة المصرية والنهضة القومية العربية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

■ ويبدو عصر محمد علي ليس عصراً عادياً مثل العصور السابقة له في التاريخ وإنما هو عصر حركة ونشاط دائم. ففي الخارج حروب وتوسع وانتصارات وبعثات لأوروبا لشباب مصر الذين حملوا مشعل التقدم الاقتصادي والعلمي والاجتماعي والحربي مما جعلوا لمصر مركزاً ممتازاً بين الدول الأوروبية في فترة وجيزة وفي هذا البحث يجد القارئ آيات من البطولة التي بذلتها الدماء المصرية المخلصة في الدفاع عن المقدسات الإسلامية والنهضة العربية ضد الأخطار الكبرى التي أشعلتها كل من روسيا وإنجلترا ويسوق المؤلف كل هذا في كتابه تفسيراً وتحليلاً للأحداث التاريخية في ذلك العصر بأسلوبه الشيق والسهل حتى يجذب القارئ لكي يقرأ ويتابع الأحداث في هذا العصر.

الكتب التي صدرت للمؤلف

١- الأيديولوجية والتربية بين المسيحية والإسلام.

٢- فقه الإمام عبد الله بن مسعود.

٣- التاريخ الإسلامي باللغة الإنجليزية.

٤- المذاهب الصوفية ومدارسها.

٥- الصبر عند أنبياء الله.

٦- الراشدون والشورى.

٧- العلاقات الدولية بين الشرق وأوروبا ١٨٧٩م-١٩١٩م.

٨- الدرعية عاصمة السعودية الأولى.

المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة
تقـــديم	٧
الباب الأول : مصر في مفترق الطرق	٩
الباب الثاني : مستشارو محمد علي باشا	٤٩
الباب الثالث : البعثات المصرية إلى أوروبا	١٠٩
الباب الرابع : دراسات في الفلك للمبعوثين	٢٣٥
الباب الخامس : أعضاء البعثات للعمل في الصناعة	٢٧٥
الباب السادس : المبعوثون والدراسة الهندسية	٢٩٩
الباب السابع : النهضة العلمية في عهد محمد على	٣١٩
الباب الثامن : الرواد الأوائل في الترجمة والطباعة والنشر	٣٣٣
الباب التاسع : صحافة محمد علي	٣٥٧
الباب العاشر : الخبراء العسكريون من أوروبا إلى مصر	٣٦٥
الباب الحادي عشر : الاقتصاد المصري في عهد محمد علي	٣٩٣
الباب الثاني عشر : أسطول محمد علي البحري	٤٤٩
الباب الثالث عشر : جيش مصر في عصر محمد علي	٤٨٥

الموضـــــوع الصفحة

الباب الرابع عشر : حاجة مصر إلى المواد الخام لصناعة الأسلحة والسفن الحربية .. ٥٠٧

الباب الخامس عشر : النهضة العلمية المصرية في عصر محمد علي ٥٤١

امبراطورية محمد علي

الباب الأول : محاولة محمد علي تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة مصرية ٥٧٣

الباب الثاني : محاولة محمد علي تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة مصرية ٦٣٣

المراجع والمصادر العربية والأجنبية ٧٢٩

تم تحميل هذا الكتاب من
مكتبة لسان العرب

https://lisanarabs.blogspot.com

صفحات من تاريخ مصر

هذه السلسلة تضم:

١- فتح العرب لمصر
٢- تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى
٣- الجيش المصرى البرى والبحرى فى عهد محمد على
٤- تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى
٥- تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦- تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر
٧- ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨- ج١ تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل باشا
٩- ج٢ تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل باشا
١٠- فتوح مصر وأخبارها
١١- تاريخ مصر الحديث ٢/١
١٢- كتاب قوانين الدواوين
١٣- تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث
١٤- الحكم المصرى فى الشام
١٥- تاريخ الخديو محمد باشا توفيق
١٦- آثار الزعيم سعد زغلول
١٧- مذكراتى "إسماعيل باشا صدقى"
١٨- الجيش المصرى فى الحرب الروسية (حرب القرم)
١٩- وادى النطرون ورهبانه وأديرته
٢٠- فى صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١- الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض
٢٢- السلطان قلاوون (تاريخه، أحول مصر فى عهده)
٢٣- صفوة العصر فى تاريخ مشاهير رجال مصر
٢٤- المماليك فى مصر
٢٥- تاريخ دولة المماليك فى مصر
٢٦- تاريخ سلاطين بنى عثمان
٢٧- محمود فهمى النقراشى ودوره فى السياسة المصرية
٢٨- دور القصر فى الحياة السياسية فى مصر ٢/١
٢٩- مذكرات اللورد كيللرن
٣٠- عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم
٣١- خنقاوات الصوفية فى مصر ٢/١
٣٢- فاروق وسقوط الملكية فى مصر
٣٣- تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين
٣٤- تاريخ عمرو بن العاص
٣٥- دور القبائل العربية فى صعيد مصر
٣٦- علاقات الفاطميين فى مصر بدول المغرب
٣٧- عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (الجبرتى) ٥/١
٣٨- مصر فى العصر العثمانى فى القرن ١٦
٣٩- المواعظ والاعتبار (الخطط المقريزية) ٢/١
٤٠- صليب باشا سامى ١٨١٩-١٩٥٢
٤١- سيد مرعى شريك وشاهد على عصر الليبرالية
٤٢- سلار.. أمير التتر المسلم
٤٣- مالية مصر فى عهد الفراعنة
٤٤- الموسيقى الشرقية والغناء العربى
٤٥- الدليل فى موارد أعالى النيل
٤٦- الموسيقى الشرقية
٤٧- النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢-٢٠٠٠
٤٨- الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ٢/١
٤٩- عصر سلاطين المماليك الجراكسة
٥٠- تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب
٥١- مشرفة بين الذرة والذروة
٥٢- قادة الشرطة فى السياسة الم
٥٣- عثمان محرم باشا
٥٤- أتابك العسكر فى القاهرة (ع ة
٥٥- السلطان برقوق مؤسس دولة
٥٦- أحمد باشا الجزار
٥٧- محمد البرادعى الذى أربك ال
٥٨- تاريخ البعثات المصرية إلى أ ى)

الناـ

lisanarabs.blogspot.com

مكتبة مدبولى
ULY BOOKSHOP

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٢٥٧٥٦٤٢١
6 Talat Harb SQ. Tel.: 25756421
www.madbouly books.com - info@madboulybooks.com